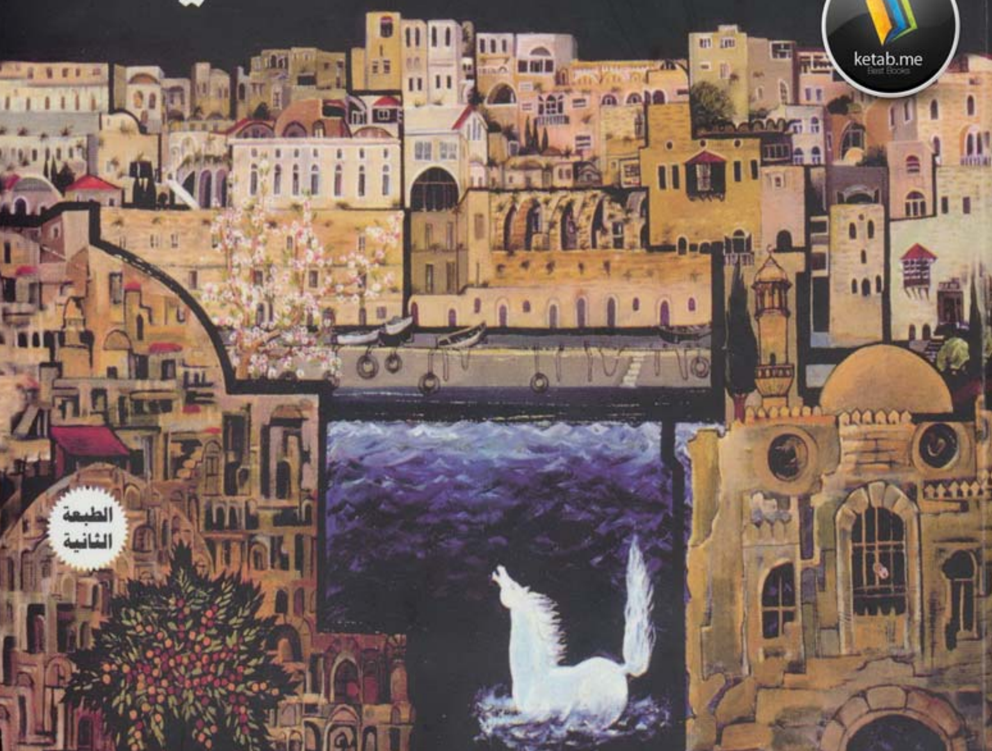
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الملهاة الفلسطينية

إبراهيم نصر الله

قناديل ملك الجليل

رواية



الطبعة الثانية

الملهاة الفلسطينية

THE LANTERNES of THE KING of GALILEE

إبراهيم نصر الله

قناديل ملك الجليل

أنا لا يعنيني ما تؤمن به! يعنيني ما الذي تفعله بهذا الإيمان!

رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

قناديل ملك الجليل

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: كانون الثاني 1433 هـ - 2012 م
الطبعة الثانية: آذار 1433 هـ - 2012 م

ردمك 978-614-01-0399-3

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 1102-2050 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

لوحة الغلاف: الفنانة الفلسطينية تمام الأكحل
تصميم الغلاف: الفنان محمد نصر الله

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

إلى مي نصر الله وعلي نصر الله..
وربيع جيلهما
رحلة البحث الجديدة هذه.. عن جذور أعمق

إضاءات....

في القرن الثامن عشر، وعلى ضفاف بحيرة طبرية وفي جبال الجليل ومـرج بنـي عامر، بدأ رجل من عامة الناس رحلته، نحو أكبر هدف يمكن أن يحلم به رجل في تلك الأيام: تحرير الأرض وانتزاع الاستقلال وإقامـة الدولـة العربيـة في فلـسطين، متحدّيا بذلك حكم أكبر دولة في العالم آنذاك (الدولة العثمانية) وسطوتها المنبـسطة على ثلاث قارات: أوروبا وآسيا وأفريقيا..

كان اسمه: ظاهر العُمَر الزّيداني 1689-1775

***

عندما كنت منشغلا بالبحث عـن مـصادر لروايتـي (زمـن الخيـول البيـضاء)، عثرت على عدد من الدراسات الصغيرة، المتفرقة، عن ظاهر العُمَر الزّيداني، لكنهـا لم تكن كافيـة لتـشكيل صـورة وافيـة عـن هـذه الشخـصية التاريخيـة ومـشروعها التحرّري العظيم. وفي يـوم مـن أيـام كـانون الأول مـن عـام 1997، وفي افتتـاح معرض فني في عمّان، التقيت بالمهنـدس زيـاد أبـو الـسعود، الـذي أهـداني كتـاب (ظاهر العمر - كتاب يتناول تاريخ الجليل خاصة، والبلاد الـسورية عامـة) لمؤلفـه توفيق معمَّر المحامي؛ وحين قرأت الكتاب، قرأته وفي ذهني الإفادة منـه في كتـابتي لزمن الخيول البيضاء، فقد رسَخَتْ بعض أحداثه في داخلي بقوة؛ بل إننـي فكـرت في الاستناد إلى بعض حوادثه، ذات يوم، لأكتب مسرحية!

لكن ما حدث، أن أيا من أحداث هذا الكتاب، لم تُستخدم في تلك الرواية! كـما أن المسرحية لم تُكتب! أما أفضل ما حـدث، فهـو أن ظـاهر العُمَـر راح يتـسلل إلى داخلي، وراح يأخذ صورته على مَهل.

كان الخوف الوحيد الذي يسكنني هو أنني إذا ما كتبـت روايـة عـن شخـصية تاريخية حقيقية كهذه، فإنني سأكون مقيّدا إلى حد كبير! لكنني حين قـرأت سـيرتَي

ظاهر المقتضبتين اللتين كتبهما ميخائيل الصبّاغ وعبّود الصبّاغ، بدأت أصبح أكثر جرأة. وحينما أنهيت بحثي، حوله، وبدأت أشكّل رؤيتي الخاصة لهذه الشخصية، قلت لنفسي: لِمَ لا! فلتذهب إلى القرن الثامن عشر لتعيشه. إنها فرصة قد لا تتكرر! ولتتعلّم أيضا كيف يمكن أن تكون حرّا وأنت تكتب عن شخصية تاريخية بهذا الوزن.. وهذا ما كان!

***

ما يحزنني الآن، أنني لم أتعرف إلى هذه الشخصية العظيمة مبكّرا، وما يحزنني أكثر أنها شخصية شبه مجهولة لدى قطاع كبير من الناس، في فلسطين وخارجها. لقد كانت هذه الشخصية الفريدة تستحق أن تلتفت إليها الأعمال الروائية والسينمائية والتلفزيونية منذ زمن بعيد، لكي تكون جزءا مضيئا لوجداننا الشعبي والمسيرة النضالية لهذا الشعب الذي عمّر هذه الأرض، أرض فلسطين..

أنا على يقين أننا لو عرفنا ظاهر العُمَر بصورة وافية، من قبل، لكنّا الآن أفضل وأجمل!

كما أنه لمن المحزن أن نكتشف جهل الكثرة بما حققه ظاهر في مجال إقامة وطن عربي مستقل في فلسطين! كما أنها لمفارقة كبرى أيضا، أن يكون هذا الوطن نفسه فيما بعد، فريسة للهجمة الصهيونية التي انتزعته بالخرافة والدبابة والتواطؤ الخارجي والداخلي من بين أيدي أصحابه، مدّعية أن هذا الوطن: (أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض!)

لا... إنها أرض مليئة بالحياة وتفيض بالحياة!

لقد كانت تجربة كتابة هذه الرواية، تجربة استثنائية، في صعوبتها، وفي حجم المسؤولية التي سيحسّ بها أي كاتب يمكن أن يُقبِل على كتابة رواية عن ظاهر العُمَر الزّيدانيّ، أو عن (ملك الجليل) كما كان يسمّى في المرحلة المتوسطة من نضاله، حين لم يكن نفوذه قد تجاوز الجليل بعد، لكنني خرجت من هذه التجربة إنسانا مختلفًا؛ إذ أحسست بأن حياتي مع ظاهر العُمَر، قد أعادت ترتيب روحي من جديد، ووضعت أساسا جديدا ومذهلا لهويتي، وأنا أتتبّع تلك الجذور الذاهبة عميقا في أرض فلسطين: فلسطين العربية، وفلسطين الجمال والتسامح واحتضان الآخر والقبول باختلافه واحترام هذا الاختلاف بكل أشكاله، فلسطين الغنى الثقافي والروحي والإنساني، فلسطين الطموح لكل ما هو حرّ وجميل وطيب. وإن

كان لي من أمل، فهو أن تنتقل كل تلك الأحاسيس التي عشتها إلى قارئ هذه الرواية، لأنني على يقين من أنه، عند ذلك، سيحسّ كم أصبح أفضل!

***

ملاحظات لا بدّ منها:

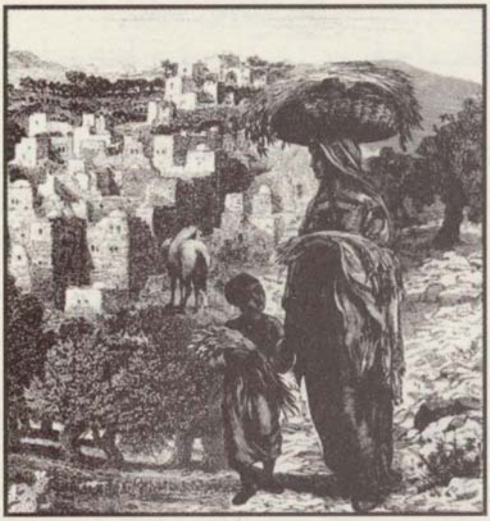
* سيرتا ظاهر المكتوبتان، لا يتجاوز حجمهما الفعلي مائة صفحة، وفيهما بعض التناقض أحيانا، واختصار يشبه العناوين؛ ولذا كان لا بدّ من تجاهل بعض هذه الأحداث، أو إعادة كتابتها بأحداث جديدة لخلق عالم روائي لا تبتلعه الأمانة، لكونها أمانة فقط؛ كما كان لا بدّ من إضافة شخصيات لضمان إقامة بناء روائي يوفي تلك الفترة الغنية والطويلة حقّها.

* اقتضى المسار الدرامي للرواية تقديم وتأخير عدد قليل من الأحداث، لتكون ملائمة لمنطق السياق الروائي.

* لا يستند هذا العمل إلى دقّة المعلومة تماما، رغم إخلاصه لها، بل يستند أكثر إلى قوة الحقيقة وقوة الخيال في اتحادهما بجوهر الأحداث وجوهر الشخصيات.

* اسم الشخصية وكنيتها مرفوعان، حيثما وردا في الرواية.

إ. ن



بحر الجليل

فتح ظاهر عينيه
في ذلك الصباح فوجد إخوته فوق رأسه، ولولا أن سيوفهم كانت في أغمادها، لظنَّ أنهم قاتلوه!
- تنام ليلك الطويل وتتركنا في حَيرتنا. قال سعد.
فرَكَ ظاهر عينيه بظاهر يده اليمنى: هل وصلتم إلى حلٍّ؟ سألهم.
- لم نصل. قال صالح.
- بل وصلنا! الليلة سنشعل القناديل! قال سعد.

***

في تلك الغرفة الواسعة، أربعة قناديل كانت تضيء. الرِّيح ساكنة، ليس هنالك سوى صوت أنفاس؛ أنفاس قادمة من رئات بعيدة، رئات لا تعود للأجساد الأربعة التي بدت أشبه بتماثيل. أمواج بحيرة طبرية التي تضرب جدار البيت، كان لها وقْعُ هدير بحر.
كل واحد منهم، جلس محدّقا في شعلة قنديله التي أمامه، وهو على يقين بأنه يحدّق في قدره!

الظلّ الشاسع والمرأة الحافية

كان الطريق إلى المقبرة، بداية رحلتهم. في ذلك اليوم الشتائي، دفنوا عمر الزّيداني، أباهم، بصمت، وكل منهم يسترق النظر إلى وجوه إخوته؛ في الوقت الذي كانت فيه أنظار البشر تراقب كل حركة يقوم بها سعد العُمَر، أخوهم الأكبر؛ فرحيل الأب، الذي لم يكن مفاجئا، رحيله بعد مرض أرهقه، كان يعني أنه اختار من أبنائه ذلك الذي سيخلفه.

لكن الإخوة الأربعة، طووا في داخلهم كل رغبات الأب، التي لم يعرفها أحد سواهم، وراحوا يفكّرون في المستقبل.

هبّت ريح قوية، وبعثرت التراب الذي جاء من عمق الأرض. انشغل ظاهر، أصغر إخوته، بذلك؛ فللمرة الأولى راح يفكّر في العمق الذي وصله مطر ذلك الشتاء. وكم فاجأه أن تلك المياه التي تدفّقت، لم تصل إلى عمق أكثر من ذلك الذي رآه.

كل من هناك، نجحوا في حبس دموعهم، باستثناء بِشْر، ذلك الفتى الذي وقف بعيدًا يبكي. أشار إليه ظاهر أن يتقدّم، فسار بخطى خجولة حتى وصل. ربّت ظاهر على كتفه، والتفتَ إلى السماء، كأنه يريد أن يقول شيئًا.

هزّه سعد. انتبَه. كانت الجثة التي تحتضنها الأيدي، تتجاوز الخطّ الذي وصله ماء الشتاء، هابطة، نحو ذلك القعر الجاف بسلام؛ وفوق بياض كفنها، تتساقط قطرات مطر ساخنة.

لم يعرف ظاهر إن كان ذلك الهدوء كلّه هو سلام جثة تخفّفت من كل ما حملتْه فوق أكتافها، أم جثة مطمئنة لوجود أبناء قادرين على إدارة شؤون تلك المدينة الصغيرة الهادئة، الوادعة كصفحة ماء البحيرة، وقد رحل مُتَسلِّمُها[1]، أبوهم.

***

[1] – المتسلِّم هو من يجبي الضرائب من الفلاحين وسواهم لصالح الدولة، ويسلم الأموال لها بعد اقتطاع حصته منها، تعيّنه الدولة، بقرار من الوالي أو الوزير.

طوال أيام العزاء التي امتدت أربعين يومًا، لم يكن يشغلهم سوى أمرين: حزن أختهم القاتل الذي يكاد يختطف روحها، أختهم شمّة المتزوجة من ابن عمهم مُتسلِّم الدّامون، ومَن ذلك الذي سيواصل مهمّة أبيهم. هبّت رياح، وهطلت أمطار وأشرقت شمس، واجتزَّ الصَّقيع رؤوس الأشجار وأحرق خضرتها. لكن ذلك كلّه لم يستطع التخفيف من وقع أحزانهم على أب ترك لهم من الذكريات الجميلة ما يُنسيهم حقيقة أنه مات.

في رحابة ظلّه الشاسع، كانوا قادرين على مواصلة حياتهم، دون أن تستطيع الدولة رؤيتهم، أو محاسبتهم، أو ملاحقتهم إذا اقتضى الأمر، لتحصيل تلك الأموال المتأخرة التي حالت سنتا قحط من دفعها كاملة. كانوا قادرين على الاختفاء بعيدًا عن سطوة الولاة والوزراء.

بسهولها الخصبة، كانت طبرية المكان الأمثل لزراعة القطن والحبوب، وتمليح السّمك وتصدير ذلك كلّه إلى الأسواق الداخلية والخارجية، لكن ذلك الخصب، في الماء والتراب، لم يكن كافيا لملء معدة الدّولة، التي تتفنن في فرض الضرائب وابتكار أسماء جديدة لها.

رفض يوسف، حين قال له سعد: أنت أفضل من يملأ مكان أبينا، لقد كنت الأقرب إلى تفاصيل عمله، وما يدفعه وما لا يدفعه للدولة. رفض يوسف: لم أكن أعرف أكثر مما تعرفون، ثم إنك أنت الكبير، وكل الناس تتعامل معك، باعتبارك المتسلِّم القادم، لكن، إذا كنت لا تريد هذا، فأنا أتنازل عن الأمر لأخي صالح!

راقب ظاهر حوارهم. مشهدا صامتًا كانوا أمامه، مشهدا لأناس يتحدّثون بعيدا، لا تصِله أصواتهم. لم يكن الأمر يعنيه، لأنه على يقين أنه آخر من سيفكِّرون فيه، فهو الأصغر، الذي لم يتجاوز، بعد، السادسة عشرة.

فجأة، سمع من يقول: ظاهر، أنا أقول ظاهر، هو الأنسب، أصغرنا، صحيح، ولكنه تعلّم، ويعرف الكثير!

للحظة أحس ظاهر بأن صالح يتحدّث عن شخص آخر اسمه ظاهر، لا عنه. بقي صامتًا. الأمر لا يعنيه! وحين رآهم ينظرون إليه، منتظرين سماع ما سيقول، سأل: هل أنا المقصود بكلامكم؟!

– وكم من أخ لنا اسمه ظاهر؟!

حدّق في وجوههم، وسأل: وما الذي سيقوله الناس؟! هنالك شخص واحد لا غير، أنت يا سعد، من سيقوم مقام أبي، لا أنا ولا يوسف ولا صالح.

كان حديثه صارمًا، كما لو أنه أمرٌ؛ وكم كان صوته يشبه صوتَ أبيهم، وملامحه تشبه ملامحه، ونظرته تشبه نظرته، الحادة الواثقة. ظاهر الفتى النحيل القصير ذو الوجه الأبيض المستدير الممتلئ المشوب بالحمرة، والحاجبين الكثيفين والفم الصغير والشفاه الرقيقة. كانت يداه وأصابعه طويلة على نحو ملفت. شعره أسود وتحت أنفه المعتدل شاربان صغيران كريش فرخ يحاول أن يفتح عينيه.

- أنا لا أريد أن يكون لي اسم عند الدولة. قال سعد.

- ولماذا يكون لي اسم؟! سأل ظاهر.

- أنت أصغرنا!

- أنا أصغركم، يعني أنني آخر من سيتسلَّم التزام طبرية بعد عمر طويل أتمناه للجميع!

صمتوا. بعد قليل نهضوا. اختفوا. فبدا أنهم لن يعودوا، كما لو أنهم تركوا طبرية إلى الأبد.

وحده ظاهر بقي هناك، في البيت مع نجمة.

قالت له: سيعودون، ولكن الكلام الذي في أفواههم، سيكون الكلام نفسه الذي قالوه لك!

لملمتْ أطراف ثوبها، ملامحها الصغيرة الجميلة، وعينيها الواسعتين كفنجاني قهوة، وأطلقت قامتها في الهواء كشجرة حَور، وخرجت.

راقبها ظاهر، وهي تتنقّل في أرجاء البيت حافية، كانت مستعدة للتّنازل عن أي شيء، سوى شيء واحد، هو: السير حافية! هذا الأمر أثار مشاكل كثيرة بينها وبين عمر الزّيداني، وفي كل مرّة كانت تعيد الجملة نفسها: في كل لحظة أحسستُ فيها، من قبْل، أن التراب لا يلمس قدميّ، كنت أبدأ بالتأرجح، وأكاد أسقط!

***

كانت نجمة تحتل مكانة لا تحتلها امرأة في طبرية، وتحتل في بيت عمر الزّيداني مكانة لم يألفها أحد من قبل.

كان ظاهر يناديها: أمي. وسعد يناديها عمّتي، وصالح ويوسف يناديانها: خالتي. أما شمّة، التي كانت أكبرهم، فكانت تناديها كلما جاءت في زيارة: أختي!

أما عمر الزيداني نفسه، فكان يبتسم كلّما رآها، أو أراد منها شيئا، فتستجيب، كما لو أن اسمها كان عنده: ابتسامتي!

***

- سأرفض، سأرفض من جديد. قال ظاهر لنجمة.

- سأقول لك شيئا، وأرجو أن تفكر فيه جيدًا: أنتَ وحدك القادر على تنظيم أمور طبرية، أقول هذا لأنني أعرفك. صدّقني!

- كأنّك اتّفقت معهم!

- إذا كان هناك من أحد يمكن أن أتفق معه فهو أنت يا ظاهر، ولو كنت ابني لصدّقتني!

- أنا ابنك، وأنتِ أمّي، تعرفين هذا.

- لا، أمك حليمة، تلك الفرس البيضاء الواقفة هناك، تنظر إلينا، كما كانت تنظر إليك في ذلك اليوم البعيد؛ ولسبب ما، أحسُّ بأنها تتابع الآن ما يدور بيننا من حديث!

نظر ظاهر إلى حيث أشارت، كانت تلك حليمة، تتأمله بعينين واسعتين دامعتين فخورتين، كما لو أنها تقول له: لقد كبرتَ!

يوم بعيد وسيف مهزوم

احتضن عمر ابنه الرضيع: ظاهر، بيدين مرتعشتين، ابتعد قليلا، إلى نهاية ذلك الحوش الواسع. وفي ركن قصيّ من أركان ذلك السور الحجري العالي المحيط بالبيت، قال لابنه: أرجوك لا تمت، فيك من رائحتها الآن، ما ليس في أحد غيرك من أولادي، فيك كل رائحتها. لا تمت.

راقبت نجمة عمر الزّيداني، المعذّب برحيل امرأته والموت الذي يطوف لاختطاف الوليد؛ لم تستطع قول شيء. كان أكثر ما تتمناه أن تضمّ الوليد إلى صدرها وترضعه، هي التي تعرف أن كل ما فيها من توْق لهذا، لن يمنحه قطرة حليب واحدة.

التقت عينا نجمة بعيني عمر الزيدانيّ، فصفعتْ نجمة صدرَها، صفعته بكل ما فيها من قوة، ثم أطبقتْ عليه بأصابعها، تريد أن تقتلعه!

سار عمر نحوها، انحنى وناولها الصغير، ومسَّد شعرها بحنوٍّ حزين.

- أوليس هناك يا رب، من امرأة واحدة يمكن أن يقبل بحليبها؟!

- خذه إلى الناصرة، إلى صفد، إلى عكا، خذه إلى أي مكان، لا بدّ سيقبل في النهاية بصدر امرأة ويَرضع.

- قطعةُ اللحم هذه، لن تحتمل مشقّة الطريق يا نجمة؛ خذيه، لا أريد أن يموت بين يدي. أرجوك، احتضنيه، أحبيه، أحبيه في ما تبقى له من ضوء.

ما إن أصبح الوليد بين يديها، حتى أشهر عمر سيفه، وبدأ يصيح: أينك؟! أين تختفي؟! سأمزقكَ؟!

وتبكي نجمة، وترجوه: وحِّد الله.

ويواصل دورانه حولها صارخًا: لن تستطيع لمسه ما دمتُ هنا! اقتربْ، أرني وجهك، سأمزّقك؟ سأريح الخلائق كلّها منك!

ويلوح بسيفه، مقطِّعا الهواء، ممزِّقا عتمة ذلك الغروب بلا رحمة: أين أنت؟ أتجرؤ على قطعة اللحم هذه؟ أين شجاعتك أيها الموت؟ واجهني!

ساعات طويلة دار عمر حول نفسه، إلى ذلك الحدّ الذي لم يعرف أين هو، لكنه لم ينس أبدًا ذلك الذي يُقاتله، يتحدّاه.

شيء واحد أعاده إلى رشده من جديد، ذلك الصّهيل الخافت لحليمة، فرسه البيضاء، كانت تصهل بخفوت حزين، وتتلفَّت صوبهم. كم مرة صهلت قبل أن ينتبهوا؟! قبل أن يروا مهرتها الصغيرة تدسّ رأسها بين قائمتيها الخلفيتين وترضع؟

نكزت الفرس البيضاء ابنتها فابتعدت، لكنها عادت تدور حول أمها محاولة العودة إلى ذلك الضّرع.

في تلك اللحظة، أشرق خاطر ما في قلب نجمة، فوقفت. كانت يد عمر قد تيبَّستْ في الهواء، منهكةً، وبدا كلّ ما فيه جاهزا لتلقي طعنة عدوّه!

أمسكت نجمة بيده العارية، التي تنتهي بسيف مهزوم، جذبتْها، وبيدها الأخرى ناولت عمر وليدَه.

سارت بصمت نحو الداخل، وحين عادت، كان في يدها صحن فخار. رأتها الفرس البيضاء، فصهلت أكثر، كما لو أنها تستحثها على أن تُسرع. انحنتْ نجمة حين وصلتها. قبضت على الضّرع بيد لم يسبق لها أن حلبت فرسًا من قبل؛ يد خائفة من كل شيء. يد مرتعدة لا تعرف ما الذي ستفعله فرس تجد نفسها تُحلبُ كأي شاة أو بقرة. ألقت الفرس عليها نظرة تشجّعها، وبدا لنجمة أن الفرس تهزّ رأسها راضية تماما بما يحدث.

كان الحليب نقيًّا مثل قمر صغير بين يديها. سارت نحو عمر، تجاوزته للداخل. غرس سيفه في الأرض. احتضن وليده بيديه، ومضى، يتبع نجمة، باتجاه الأمل الأخير.

***

المفاجأة التي لم يتوقّعها أحد، أن جوع الوليد انفجر دفعة واحدة. ففي الوقت الذي توقّعوا فيه أن يزمّ فمه، ويغلقه بإحكام -كما أغلقه أمام ثدي كل امرأة حاولت إرضاعه- راح يتحسّس شفتيه بطرف لسانه الأزرق الصغير. كانت رائحة حليب حليمة أقوى من أن تُقاوم. شربه. وحين همّ عمر الزيداني بالنهوض لإحضار كميةٌ أخرى، امتدّت يد نجمة إليه، وضغطتْ على ركبته؛ فجلس.

نام الوليد أخيرًا. كانوا يحدّقون في ذلك الوجه الصغير، والعينين اللتين لم تعثرا بعد على لونهما، كما لو أنهم يصلّون.

ومنذ ذلك اليوم بدأت نجمة تنظر إلى مخلوقات الله كلها بعين أخرى.

***

في الصباح، كانت نجمة وعمر الزّيداني وأبناؤه، غارقين في نوم عميق، بعد ليال من أرق لا يتمنّونه، حتى، لعدوّ!

على صوت الوليد استيقظوا، واحدًا بعد آخر، كأنهم أموات والحياة تدعوهم. اعتدلوا، واحدًا بعد الآخر، وكلّهم يحدِّقون في الجهة التي يجيء منها الصوت، حيًّا كأنه الحياة كلّها. وفي تلك اللحظة، سمعوا صهيل حليمة. سمعوا الصهيل ذاته، الذي لم يسبق لهم أن سمعوه قبل أمس؛ فالتفتوا نحوه، كما لو أن الصهيل يُرى.

حملتْ نجمةُ الصحن، مضت إلى الرّكن، غسلته جيدًا، ثم خرجت. تصاعد صهيل حليمة فرَحًا. وما إن اقتربت نجمة منها حتى نكزت الأم مهرتها الصغيرة بقدمها فابتعدتْ، مفسحة المجال لنجمة لكي تحلبها.

سارت نجمة نحو الرأس الأبيض الجميل المضاء بعينين رحيمتين، وقبّلتْ جبهةَ الفرس، ثم ربّتت على عنقها، وظلّت يدها تمسد ذلك الجسد المشدود إلى أن لامست الضرع، وعندها انحنت وراحت أصابعها تنقبض وتنبسط برقّة عالية.

راقب عمر نجمة بهدوء، وقبل أن تنهي ما تقوم به، لاحت منه نظرة إلى سيفه المغروس في الأرض، سار نحوه، انتزعه، ثم نظر إلى السماء، وقال: أنتَ وحدك الذي يفهم ما فعلته، أنتَ وحدك، لا سواك، فاغفر لي.

سهل واسع وغزلان هاربة

تذكرت نجمة تلك الليلة، عندما افتقد عمرُ الزّيداني ظاهر وسأل عنه، لكنه لم يعثر له على أثر؛ وبعد يومين جاء من يقول له: هناك من رآه في (البَعْنَة).

- وما الذي يفعله في البعنة ووزير صيدا يحاصرها؟!

***

ثلاث سنوات قحط تركتْ سهول البَعْنة وعرَّابَة وجدِّين والدّامون وترْشِيحا وما جاورها من قرى، مساحات شاحبة لا حياة فيها. جفّت الينابيع، وبدا احتفاظ أشجار الزيتون بأوراقها الناشفة، أشبه بمعجزة؛ حتى قيل: لو لم يرِدْ اسمها في القرآن كشجرة مباركة لما بقي على أغصانها ورقة واحدة!

فرّت الطيور مبتعدة، وأحسَّت الغزلان التي كانت تملأ البرّ بتلك النظرات النَّهمة، وذلك الجنون الذي أصاب الناس وهم يطاردونها، فاختفت.

سهل خصيب شاسع، بكل ما في ذاكرته من خضرة، لم يكن قادرًا على احتمال ثلاث سنوات قاسية كتلك. ولم يشتهِ الناس قطرات الماء وحدها، فقد اشتهوا قطرات الندى أيضًا.

أرسل وزير صيدا لهم بأنه انتظر أكثر مما يستطيع، وإذا لم يوفوا بها عليهم فسيخرج بجيشه ويحصِّل، رغما عنهم، ما للدولة من مال. كانوا يعرفون أنه يستطيع، ويدركون أنه إذا فعل هذا، فسيحرمهم مما تبقى من مؤونة قليلة، يخبئونها دائما لمثل هذه الظروف.

في تلك السنوات الثلاث، ذبحوا معظم مواشيهم؛ وهنالك من ذبح حصانه وقد رآه على وشك الموت جوعًا.

وصل خبرُ زحف الوزير إلى عكا وحيفا ويافا ونابلس والقدس، قبل أن يصل إلى تلك القرى القريبة من البَعنة التي فرَّ بعض أهلها تاركين بيوتهم فارغة، باحثين لهم عن ملجأ، ما إن سمعوا أخبار العاصفة القادمة!

أما حسين، شيخ البعنة، فقد خرج برجال بلدته، ومن تطوَّع من رجال القرى المحيطة، لملاقاة جيش الوزير وقطْع الطريق عليه بين البصَّة وترشيحا.

في البداية استطاعوا أن يفاجئوا جيش الوزير الذي اندحر عائدًا، ثم ما لبث أن اندفع هائجًا بقوة لم يروها من قبل، فتراجعوا نحو البعنة، البلدة المحصنة جيدًا منذ القديم. وقبل الوصول إليها وإغلاق بوابتها، كان الشيخ حسين قد أرسل بعض الرجال يطلبون من أهالي القرى والمدن القدوم إلى البعنة للدفاع عنها.

أعاد الوزير جمع قواته، وأقام مخيمه في سهل (جدّين) استعدادًا لمعركة كبيرة تنتظره.

كانت بعض الأخبار التي جاءت من قرى (البقاع) قد حملت الكثير من الأهوال عن نهب البيوت واغتصاب أكثر من ثلاثمائة امرأة بعد مطاردتهن وسط البساتين، وإحراق قرى بأكملها بعد ذلك. وقد كان الولاة والوزراء يتغاضون عن هذا لإرضاء جنودهم الغرباء عن تلك المناطق!

حين سمع ظاهر في ذلك النهار استغاثة شيخ البعنة، امتطى حصانه وتوجّه إليها، وهو على يقين من أن أباه قد سبقه. لكن ما حدث، أن والده لم يسمع باستغاثة شيخ البعنة، إلا بعد أن كانت قد حوصرت، وحين حاول الوصول إليها، كان وضْعُ من سيخترق الحصار أسوأ بكثير من وضع المحاصَرين.

***

علاقة صداقة متينة ربطت عمر الزيدانيّ بالشيخ حسين دائما. يذكر ظاهر زيارات الشيخ حسين لهم في طبرية، وصداقته بولده عباس الذي عشق البحيرة. في كل مرّة كانوا يزورونهم في طبرية، كان أول شيء يفعله عباس هو محاولة إقناع والده بترك البعنة والقدوم للسَّكن في طبرية.

كان الشيخ حسين يضحك، ويقول له: نترك البعنة! هذا صعب يا عباس، ولكن إذا أَذِنَ لك الشيخ عمر فسأوافق على بقائك هنا أسبوعا تقضيه مع صاحبك.

في كل مرة كان الشيخ عمر يرحِّب بذلك؛ وكان الأسبوع يمتدّ فيصبح أسبوعين، بخاصة في أيام الشتاء، إذ كانت حجة ظاهر دائما: وما الذي يمكن أن يفعله عباس هناك في برْد الجليل؟!

في الوقت الذي كان عباس مفتونا بصيد الماء، كان ظاهر مفتونا بصيد البط البرّي.

***

حضر وجه عباس كاملا وتلك الضحكة العالية للشيخ حسين، الضحكة التي لم يسمع ظاهر مثلها في حياته، ضحكة تخرج من القلب وتنتشر في الهواء. وحده ذلك الرجل، من بين كل الرجال الذين عرفهم ظاهر، وسيعرفهم فيما بعد، كان قادرا على نشر عدوى الفرح، بحيث لا ترى بجانبه إلا رجالا مبتسمين، أو ضاحكين كما لو أنهم يكتشفون قلوبهم لأول مرّة!

كل من كان يخرج من الديوان ضاحكا، كان يقولها بصوت عال: اللهم اجعله خيرًا! فقد كانوا يخافون الضَّحك، ويتطيَّرون منه عندما يتنبّهون أنهم ضحكوا كثيرًا، كما لو أن حصَّتهم من هذا العالم هي الحزن وحده!

***

قبل العصر بقليل وصل ظاهر إلى باب سور البعنة، تأمل الرّجال ذلك الفتى القصير النحيل. سألوه عن اسمه، فأجاب: ظاهر. وعن معارفه في البعنة، فقال: عباس. سألوه: عباس مَن؟ فقال مستغربا: عباس الشيخ حسين. فسألوه: وما الذي أتى بك إلى هنا؟!

- لأقاتل معكم؟ ردّ ظاهر.

- ابن من أنت؟

- أنا ظاهر العُمَر الزّيداني.

- عُدْ إلى أهلك يا ولدي. ستنفعهم هناك أكثر مما ستنفعنا هنا!

في تلك اللحظة صاح الرجال على السور: لقد وصل الجيش. فعمّت الفوضى، وتدافعوا يُحكِمون إغلاق البوابة بمزيد من العرائض الخشبية.

***

لم يمهلهم الوزير الغاضب. كان قد اتخذ قراره بتدمير البلدة على من فيها. نصب مدافعه، وبدأ بدكِّها بالقذائف.

حلَّ الليل، فواصلت مدافعه عملها بالشِّدّة نفسها، بحيث كان بمستطاع سكان عكا، التي تبعد ثمانية عشر كيلومترا إلى الغرب، أن يسمعوا صوت الانفجارات بوضوح تام.

في اليوم التالي، تواصل القصف؛ لكن أسوار البلدة صمدت بصورة أدهشت الجميع، وما إن جاء اليوم السابع حتى أدرك الوزير أنه سيكون بحاجة لقذائف جديدة، فأرسل مَن يُحضرها من صيدا.

أدرك مَن في الدّاخل، أن الوزير لن يعود قبـل أن يـسوِّي بلـدتهم بـالأرض. حيث لم يترك لهم فرصة لإطلاق رصاصة واحدة أو سهم نحو قواته.

نصب صِوانه الملوكي خلف جيشه، وأمضى النهار مُصْدرًا الأوامر لقتل كل من يُحضره جنوده من أهالي القرى الهاربين.

كان يوجه سؤالا واحدًا لا غير: هل ستدفع أموال الميري التي عليك؟

ولم يكن بحاجة إلى أن يسأل سؤالا كهـذا وهـو يحـدّق في قامـاتهم الـضامرة وثيابهم الرثّة.

بإشارة من رأسه كان الجنود يسوقونهم بعيدا عن الخيام، قرب سنسلة لواحد من البساتين الميتة، وهناك يطلقون النار عليهم.

الصَّيد الوحشيّ والفتى المُطارد

بدأت حليمة تصهل، بعد مرور ثلاثة أيام من غياب ظاهر؛ وفي اليوم الرابع، كانت تصهل وتبكي؛ أما في اليوم الخامس فكانت تبكي بصمت.

احتضنت نجمة وجه الفرس الشّاحب، وذلك اللون الذي بدأ يميل إلى الرّماد. حاولت أن تهدئ من روعها. ما كان يكسر القلب أن الفرس كانت هادئة، هادئة على نحو لا يُحتمل. تمنّت نجمة أن تُطلق حليمة صهيلها من جديد، أن تثور وتمزّق الهواء بحوافرها، لكنها لم تفعل.

***

بعد خمسة أيام من الغياب عاد والد ظاهر. كان منهكًا تمامًا ويائسًا. أدخل حصانه في الإسطبل. رفعت الفرس البيضاء رأسها ونظرت إليه. لم يستطع مواصلة النظر في عينيها. أمسكته نجمة من يده وخرجتْ، وهي تنظر نحو الإسطبل بين حين وحين لتتأكد من أنهما ابتعدا. كانت على يقين من أن الفرس البيضاء ستفهم أي كلام سيقوله عمر. سألته: أين ظاهر؟ فبقي صامتًا.

بكت نجمة: هل حدث له شيء؟ امتدت يده نحوها ومسّد شعرها برفق.

لسبب ما، كان عمر على يقين من أنه لن يرى ظاهر أبدًا. وكما لو أنه يحضِّر الجميع لألمهم المقبل، أجاب حين أعادت نجمة السؤال ثانية: هل حدث له شيء؟

- لا أعرف يا نجمة، لم أستطع الاقتراب من البلدة، كلّ ما يمكن أن تسمعه هناك هو الانفجارات. كل ما يمكن أن تراه هو الحرائق والدّخان. آخر ما يريده الوزير: رؤيتهم أحياء.

أطبقت نجمة براحتيها على رأسها، ثم راحت تدقّه بقبضتيها، وهي على وشك أن تسقط. أحاط كتفها بذراعه.

- الحمد لله أن شمّة ليست هنا، الحمد لله أنها بعيدة هناك في الدّامون!

كان ما يحدث في حوش البيت على بعد أمتار من بوابة الإسطبل، أكبر من أن يخفى. عادت الفرس البيضاء تصهل وتتفلّت ثائرة.

أمسك عمر الزيداني نجمة من يدها وصعد بها الدرجات الثلاث المؤدية للمصطبة، وقبل أن يصلا العتبة كان سعد ويوسف وصالح قد حضروا.

التفتَ عمر إليهم، ثم ابتعد بعينيه بسرعة، متجاوزًا العتبة، فتبعوه.

***

كان العجز والشعور بالضعف يهزّان أرواح الرجال الذين التقوا في الديوان، بحيث أمضوا السهرة صامتين؛ كما لو أنهم في مجلس عزاء، وحينما نهض أحدهم مغادرًا، نهضوا وتبعوه.

في صدر المجلس كان يجلس عمر، أشار إلى ابنه سعد، الجالس وحيدا قُبالتَه وهو يربِّت على الفِراش، أن يأتي، ويجلس بجانبه. نهض سعد، متجاوزًا تلك المسافة المغمورة بالحزن وجلس بجانب والده.

- أنت أكبر أخوتك يا سعد، ولذا من حقك عليَّ أن أشاورك وأصارحك.

كانت المرّة الأولى التي يتحدّث فيها مع ابنه على ذلك النحو. لحظة كبيرة ينتظرها كل ابن، ليفتخر بها؛ لكن سعد كان حزينًا، بحيث لم يدرك أهمية ما قاله أبوه.

- أفكر بالعودة غدا إلى هناك يا سعد. لا أستطيع أن أجلس هنا في انتظار رماد ابني.

- دعني أذهب هذه المرّة.

- يا سعد، لقد هدّني انتظارُ واحدٍ، ألا تعرف ما الذي يمكن أن يفعله فيَّ انتظار اثنين؟! على الأقل، سأكون مطمئنًا أنك هنا، وأنا قرب البعنة، وباطمئناني عليك أطفئ بعض خوفي على أخيك، هناك، تحت النار.

***

لم يكن عمر الزيداني قد أطلّ، بعد، على (دير حنا) حينما أبصر خيول الوزير تطارد الفلاحين في السّهل وتطلق النار عليهم في مشهد صيد مجنون.

باغتته الصيحات والاستغاثات، فاختبأ في كَرْم زيتون.

كان أحد رجال الدَّرك، يصوِّب بندقيته من على ظهر حصانه إلى جسد ذلك الفتى الهارب. أيقن عمر الزيداني أن الفتى ميت لا محالة، فأشهر طبنجته، وانتظر. مرَّ الفتى من أمامه مواصلا اندفاعه، وحين أصبح الدّركيّ على بعد عشر خطوات من مكمن عمر، أحسّ بوجود من يتربص به، استدار، فالتقت عيناه بتلك العين المعتمة المحدّقة فيه: عين الطبنجة التي نفثت كل ما فيها من نار

لتعصف بصدر ذلك الدّركي. عمَّ الصمت. نظر عمر الزّيداني حوله. كلّ شيء هادئ. رأى ذلك الفتى يركض بعيدا، لحق به. كان الفتى على وشك السقوط وقد أدرك أنه هالك لا محالة. امتدت يد عمر الزيداني إليه واقتلعته من ركضه وألقتْ به فوق ظهر الفرس.

بعد لحظات أدرك الفتى أنه فوق ظهر حصان، أمام الفارس الذي لا يعرف من أين أتى. تفلّت، فقال له عمر: اهدأ، لقد كتب الله لك حياة جديدة!

***

أبصر عمر الزيداني ماء طبرية يلمع تحت شمس الظهيرة الحارقة، فأدرك أنه ابتعد بما يكفي، لكي يلتقط أنفاسه، ويعرف من الفتى ما يدور هناك.

قال له الفتي: إن أكثر من خمسمائة فارس جاؤوا لنجدة البعنة، لكن الجيش قضى عليهم كلّهم، حاصرهم، وأفناهم جميعا، ولم يستطع الفرار سوى مجموعة قليلة، كنتُ منهم! فصرخ عمر الزيداني في وجهه: وما الذي جعلك تذهب إلى هناك، ما الذي يمكن أن يفعله فتى بعمرك؟!

ارتبك الفتى وانتبه عمر، فربّت على كتفه: بوركت يا ولدي، بوركت.

- ولكن ما الذي أتى بك إلى هنا؟

- حكاية قديمة يا عمّ، حكاية ما حدث لي ولأهلي ولابنة عمّي!

- وما هي تلك الحكاية؟

- إنها طويلة يا عمّ، طويلة!

- إذن، سأتركك هنا وأعود. قال عمر.

- إلى أين يا عمّ؟

- إلى البعنة.

- لا يا عمّ، لن أتركك تذهب، أنت لا تستطيع أن تتخيّل ما يحدث هناك. لا يا عمّ، ليس هناك سوى الموت؛ لن أتركك تعود، حتى لو قتلتني، فحياتي التي أنقذتها ليس هناك من هو أحق بها منك!

تعالى صوت الانفجارات، وبين حين وحين، كانت أصوات طلقات وصيحات تأتي من بعيد: ستأتي معي إذن إلى طبرية. قال عمر.

- سآتي معك يا عمّ!

***

على باب طبرية قال الفتى: أشكرك يا عمّ، ولكن عليَّ أن أذهب الآن، لأن ابنة عمِّي التي ليس لي غيرها في هذه الدنيا، وليس لها غيري، تنتظرني، ولا أريد أن أتركها هناك مشغولة البال. بخاطرك.

– لم تقل لي أيها الشاب ما اسمك.

– اسمي بِشْر يا عمّ. بخاطرك.

صافحه الفتى ولوّح له مبتعدًا. تأمل عمر قامته النّحيلة، وثوبه الممزق، فصاح: انتظر يا بِشْر. وسار نحوه، إلى أن وصله. امتدَّت يد عمر الزّيداني نحو يد بشر المرتبكة، وناوله رسن الحصان: أنت بحاجة لهذا يا بشر.

– لا يا عم، تنقذُ حياتي وتعطيني حصانك أيضًا، بشْر لا يمكن أن يقبل بهذا!

– أنا أردّ جميلك يا بشر!

– جميلي؟! وما الذي فعله بشر لتقول ذلك يا عمّ؟!

– بشر، ودون أن يدري، كان ذاهبًا إلى البعنة لإنقاذ ولدي!

– ولدك فيها، هناك، يا عمّ؟!

هزّ عمر الزيداني رأسه مؤكداً.

– هذا يعني أن ولدك أشجع من بشر وأسرع يا عمّ! ما اسمه؟

– اسمه ظاهر يا بشر. والآن لا تُضع الوقت. وما دمت لا تريد الحصان فسأعيرك إياه، ومعه سيفي. بهذا ستكون هناك فرصة لأن أراك ثانية.

– أنت تضع في عنق بشر دينًا لا يستطيع مثله سداده يا عمّ.

– يا بشر، اسمعني، ألا تحب ابنة عمّك تلك؟! ألم تقل لي إنك من تبقى لها وإنها من تبقى لك؟! إن كنت يا بشر تحرص عليها فخذ الحصان والسيف واذهب، فبوصولك إليها بسرعة أكبر، تستطيع أن تخفّف عذاب انتظارها، أم أنك تريدها أن تتعذّب أكثر يا بشر؟!

تقدم بشر نحو عمر الزيداني واحتضنه بقوة، إلى ذلك الحد الذي ودَّ معه ألا يتركه: بشر لن ينسى كرَمَك هذا يا عمّ.

– اذهب يا بشر، لا تتأخّر عليها. إذهب.

قفز بشر فوق ظهر الحصان، وقد فوجئ عمر الزيداني بمهارته. دار الحصان دورتين مرتبكًا، وقد تغيَّر فجأة طريق البيت، كما تغيّر الفارس الذي يمتطيه! ثم وقف في مكانه كحجر. اقترب منه عمر الزّيداني وربّت على ظهره، ثم ضربه على مؤخرته برفق، فانطلق يعدو.

نيران وشتائم طائرة!

كل حسابات الوزير ذهبت أدراج الرِّياح، لقد نفدت قذائف مدافعه مرّة أخرى، دون أن يستطيع إحداث ثغرة واحدة في السّور. ولم يكن ينقصه سوى موجة الحرّ التي أحرقت المحروق من زرع تلك الأراضي الممتدة.

فجأة أصبح وجود الماء مشكلته الثانية.

هدأ كل شيء، فارتجف قلب عكا فزعًا، وأصاب الذّهول عقل صفد وما حولها، وازداد الصمت الذي يملأ بيوت القرى الهاربة ثِقلا.

أيكون الوزير قد كَسَرَ البعنة؟!

***

استعادت البعنة أنفاسها. أصبح بمستطاع المدافعين عنها أن يعودوا إلى أعالي الأسوار ويرّدوا هجمات المشاة والفرسان من جنود الانكشارية والمغاربة.

بحث الشيخ حسين عن ظاهر فلم يجده، وحين سأل، قالوا: إنه لا يفارق الأسوار!

أرسل بعض رجاله للبحث عنه؛ وجده أحدهم فوق الجسر الكبير الذي يعتلي بوابة البلدة يتحدّى المحاصِرين ويصيح بهم: تقدَّموا! وبين حين وحين يطلق سهما، وقبل أن يكون السّهم قد وصل إلى هدفه، يُلحقه بشتيمة تخترق آذان المهاجمين، أكثر من اختراق رؤوس السِّهام لدروعهم!

بصعوبة استطاع مَن وجده العودة به. حين رأى ظاهرُ الشيخ حسين اندفع نحوه يعانقه بحماسة: سنهزمهم يا شيخ فلا تقلق!

تأمل الشيخ حسين ذلك الفتى، فضحك؛ ضحك كما كان يضحك دائما، فانتشرت عدوى السعادة في أرواحِ كل مَن كانوا هناك.

- طلبتك لأقول لك انتبه جيدًا يا ظاهر، وانتبه لصاحبك عباس؟

- لا عليك يا شيخ حسين، اتّفقت أنا وعباس أن يكون في الجهة الثانية من السّور، الهجمات هناك أقل!

ربّت الشيخ حسين على ظهره وطلب منه أن يذهب إلى حيث يوجد صاحبه ويبقى هناك معه. الشيخ حسين، الذي يعرف أن الهدوء الذي انتشر، ستعقبه عاصفة أشدّ.

استدار ظاهر، متوجّهًا إلى البوابة!

***

كانت الذّخيرة تتناقص على نحو مُقلق، والمؤونة، بحيث اكتفى أهل البعنة بحبات تمر، وبعد أن كان العجين يملأ قدورا كبيرة، أصبحوا يحضِّرونه في أوعية نحاسية صغيرة، وأصبحت كل بيضة يعثرون عليها، أغلى من أي بيضة ذهبية!

بانقضاء الأسبوع الثالث؛ في ظهيرة يوم جمعة، حيث احتشد الناس للصلاة في مسجد البلدة، انهالت القذائف من جديد تهزّ الأسوار بقوة، وتتساقط في الشوارع والأزقة. قطع المصلُّون صلاتهم وانتشروا باحثين عن أماكن تقيهم حمم النار.

الشيخ حسين، وحتى بعد انتهاء الأسبوع الرابع، كان واثقًا من أن البعنة ستصمد؛ فهو يعرف أسوارها، ويعرف أن كلًّ من فيها يدركون أن الوزير لن يرحمهم؛ فمنذ زمن طويل، لم تصمد مدينة أمام هجوم كاسح، كلّ هذه المدّة، ولم يعتد الولاة والوزراء أن يعودوا مهزومين؛ وباستثناء حالات قليلة، جلل العار فيها الولاة، فدفعوا لذلك مناصبهم ثمنًا، لم تكن الجيوش تخرج نحو القرى إلا لتسحقها، وتُعلِّم القرى والمدن الأخرى فضيلة الموالاة.

***

عاد ظاهر من جديد يتقافز فوق السّور، وحين أحسّ بأن شتائمه لم تعد تزعج الجنود بدأ بشتم الوزير نفسه، حيث لم يترك كلمة قبيحة يمكن أن تقال بحقه إلا وطيّرها إليه بأعلى صوته.

بأذنه سمع الوزير تلك الشتائم، التي كان لا بدّ أن تصل، في تلك المساءات، بين قذيفة وقذيفة، وهجمة وأخرى.

- كل من يأتي برأس ذلك الفتى سأعطيه ما يطلبه. أعلن الوزير وهو يشير بسبابته القصيرة نحو السّور.

***

اعتصر الحصار أجساد المحاصرين أكثر، بحيث أصبح على المرأة أن تحمل قليلا من الطحين بطرف غطاء رأسها، تضع الكمية القليلة في محماس القهوة

بحذر، المحماس الذي لا يزيد حجمه عن حجم صحن، وبعد أن تتأكّد من أن أي ذرة طحين لم تعد عالقة بطرف غطاء رأسها، تضيف قليلا من الماء، وتبدأ بتحريك المزيج، ثم تنتظر نضوجه على النار، فتوزّع الرغيف بالتساوي على أفراد عائلتها.

ذلك درس تعلّمه الناس من البدو الذين يصل بهم سوء الحال في أحيان كثيرة إلى ما هو أسوأ من هذا.

في ليالي الجوع الطويلة، كانوا يسخرون من جوعهم، ويضحكون، كلما وجدوا فسحة من الهدوء يجتمعون تحت سقفها:

وحياتكم يا جماعة ما شهدنا زور
ستين ليلة طبخنا فخذة العصفور!
عزمنا الوزر والنَّور[1] والشام و (استانبور)[2]
وظَل الشَّحم واللحمٍ حيطانّا منشور!!

فيرد آخر بسخرية لا تقلُّ عن الأولى:

إني أحنّ إلى الطعام جميعه   إلا النواشف لا توافقُ معدتي
لو متُّ جوعًا لم أذق فتَّ العدس   حتى ولو حكمتْ بشنقي أُمّتي!!
ناديتُ من لهفي وحيدًا في الدّجى   يا أيها (المشويُّ) آنسْ وحدتي
طوبى لمن يأتي إليَّ (بجاجة)[3]   محشيّة، مقليّة بالسَّمنةِ

***

اجتمع الوزير بقادة قواته، وأعلمهم أن الحصار قد طال.

- وننسحب كأن شيئا لم يكن؟!

- لا، سنفاوضهم على الاستسلام، فبعد أيام علينا أن نلتحق بالجردة[4]. ولا يمكن أن نترك مسألة كهذه معلّقة خلفنا. سيفضحنا الناس ويتندَّرون علينا من دمشق إلى مكة. قال الوزير.

- وكيف سنقنعهم بهذا؟ سأل أحد قواده.

---

[1] - الوزراء والغجر.
[2] - اسطنبول.
[3] - دجاجة.
[4] - الجردة: هي القافلة التي تحمل المؤن إلى قافلة الحج الشامي وهي في طريق عودتها من الحجاز.

- نعرض عليهم الأمان مقابل الاستسلام، ونوافق على تأجيل ما عليهم من مال الميري إلى السنة القادمة! أجاب الوزير.

***

في اليوم الخامس والثلاثين، توقّف القصف، تقدّم جنديّ فوق حصانه، يحمل راية بيضاء نحو البوابة. ظلّ يسير إلى أن أصبح على مسافة قريبة، وعندها أمسك بالقوس، ورفعه إلى الأعلى وشدَّ الوتر. أدرك الذين فوق السور أن سهما كهذا لا بدّ أن يحمل رسالة.

ارتفع السهم في الهواء وسقط خلف البوابة، فأشار لهم الشيخ حسين أن يحضروه، وهو يراقب الجندي الذي انطلق عائدا.

فكَّ الخيط الحريري الأسود الذي يلتفّ حول الرسالة، ألقاه جانبا، وبدأ بقراءتها، ثم طواها.

ألقى نظرة بعيدة على الجيش الذي يحاصره، وإلى ذلك الصّوان الكبير، فأحس بأنه ينظر في عيني الوزير الواقف على باب الصوان مباشرة. ألقى نظرة على البلدة، شوارعها وحطام بيوتها، والقبور التي حُفرت على عجل لمواراة قتلاها، وأخذ نفسًا عميقًا.

كانت مرحلة العضِّ على الأصابع بين الجانبين قد انتهت، ولم يبق سوى برهة قليلة، ضيّقة، لسماع صرخة أحدهم.

رفضت الكثرة شروط الاستسلام، وطالبت بإرسال رسالة إلى الوزير، ليس فيها سوى كلمات قليلة: جوابنا هو أن ترفعوا الحصار وترحلوا.

لم يكن هناك من ينتظر سماع رأي ظاهر، لكنه أعلن تأييده لرأي الكثرة! متحمسًا كان، ومندفعًا كقذيفة مدفع.

***

لوَّح أحد الرجال، وكان الشيخ حسين إلى جانبه، براية حمراء، رآها الجنود المحاصِرون، وما هي إلا لحظات حتى كان أحدهم يتقدّم نحو السّور.

لقد عرفوا المكتوبَ من لون الرّاية.

حين اقترب، انطلق السّهم حاملا الرسالة، فسقط أمام الجندي تمامًا، بحيث جفل حصانه.

ترجل الجندي. اقتلع السَّهم من الأرض اليابسة؛ وقبل أن يعود: سمع تلك الشتيمة التي أطلقها ظاهر فأصابت الجيش والوزير معًا!

***

في البعيد قال الوزير: لا أريد شيئًا في هذه اللحظة مثلما أريد رأس ذلـك الـ (...)!

تبادل قادة جيشه النظرات. كانت المرّة الأولى التي يـسمعون فيهـا وزيـرهم يتلفّظ بشتيمة كبيرة من هذا النوع.

وقبل وصول الجندي إليه، كان الوزير قد أعطى إشارة القصف مرّة أخرى.

قرأ الرسالة. كوّرها. ألقاها أرضًا، وداسها حتى تمزّقت تمامًا.

***

جملة واحدة قالها ظاهر، لكن الشيخ حسين تظاهر بأنه لم يسمعْها.

قال ظاهر: لقد حان وقـت الجـرْدة، وعـلى الـوزير أن يلحـق بهـا، ولـذلك، سيرحل بعد أيام مضطرًا، وما أظنه أرسل رسالته لأنه يريد استسلامنا فقط، بـل ليتمكّن، أيضًا، من اللحاق بالجردة قبل انطلاقها من دمشق بعد أيام.

أمرٌ كهذا، لم يكن سرًّا؛ كان الجميـع، في البعنـة، يعرفونـه، لكـن تقـديراتهم أخطأت؛ فبعد أيام من قصف مجنون خلط الليل بالنهار، قرر الـشيخ حـسين أن يستسلم.

في صباح اليوم الأربعين، تقدّم أحد الرّجـال بحـذر إلى أعـلى بوابـة الـسور، ورفع راية بيضاء. سكتت المدافع. رأى ظاهر الراية فاندفع نحوها، أنزلها، ونظر إلى الشيخ حسين يرجوه: يا والدي أرجوك، لا تستسلموا، سيرحلون بعد أيام!

أعطى الشيخ حسين الرّجلَ إشارة ليرفع الراية مـن جديـد، فرفعهـا ملوِّحًـا بها.

وفي الأسفل، قال رجل بأسى للشيخ: أخشى أن يكون هذا الفتى على حقّ.

الهواء والظلمة وشعلة القنديل!

تلك الليلة، كان الموت وحده يطوف في البلدة. أمضى ظاهر الليل يفكِّر في ما سيفعله الوزير به، فهو وإن صفح عن الجميع، لن يصفح عنه لتماديه في شتمه.

كان الهروب من فوق الأسوار مغامرة مكشوفة، رغم معرفته أن الجنود سينامون مطمئنين في ليلة كهذه، ليلة يعقبها استسلام البلدة.

قبل أن يبزغ الفجر بقليل، سمع ظاهر طرْقًا خفيضًا على الباب. للحظة حضر وجه صاحبه عباس. أشرع الباب، فوجئ بامرأة غريبة تقف هناك. وقبل أن يقول شيئًا، سألته ذلك السؤال الذي أمضى الليل يوجّهه لنفسه: أتعرف ما الذي ينتظرك أيها الشاب الشجاع؟!

- نعم، أعرف، ضربة سيف تطير رأسي!

- اتبعْني إذن. فلعلِّي أخلصك من هذا الوزير الظالم.

- آخذ صاحبي عباس معي إذن!

- لا تقلق على عباس. فالوزير الجالس هناك ينتظر وصول رأسكَ لا رأسه.

جرَّته من يده، فقال: لحظة. انتعل حذاءه وتناول سيفه وقوسه وتبعها.

ظلّت المرأة تسير أمامه إلى أن وصلتْ إلى بيت بمحاذاة السّور، فتحتْ بابه ودخلت. ارتبك ظاهر؛ فما الذي تريده وهي تنقله من بيت إلى بيت؟!

لاحظت ارتباكه، فقالت له: لا تقف هكذا، ستفضحنا. اتبعني.

تبعها. سبقته، ودون أن تضيّع لحظة واحدة، انحنتْ تحاول إبعاد صندوق كبير بجوار الحائط، في الوقت الذي التفتتْ فيه إليه: ما الذي تفعله؟! مدّ يدك وساعدْني. أبعدا الصندوق. فوجئ بممرّ أسود بلا نهاية.

- تدخلُ من هنا، وتسير حتى آخره. ستجد نفسك في كرْم زيتون. تأكّد من أن أحدًا لن يراك، فهذا السِّرداب لروحك ولأرواح غيرك. وحين تتأكّد من أنك في وضع آمن، لا تقف قبل الوصول إلى بلدك. مع السلامة. وناولته قنديلا صغيرًا.

في ذلك الامتداد الذي لا تبدّد وحشته سوى شعلة قنديل، زحف طويلا. وبين حين وحين، كان رأسه يصطدم بسقفه أو بأحد جانبيه؛ لكن السّرداب لم يكن ينتهي، كما لو أنه رحلة لا نهاية لها نحو باطن الأرض لا نحو سطحها!

بعد زمن لا يعرف طوله، انتهى السرداب بضربة قاسية أسالت الدَّم من جبهته. سقط القنديل من يده، وبسرعة، استطاع أن يعدّله من جديد. حمد الله أنه لم ينطفئ.

نظر خلْفه، فلم ير سوى كتلة صلدة من عتمة لم ير مثلها من قبل. امتدَّت يده، تحسّس سقف نهاية السّرداب، فأدرك أن هناك عدة عوارض خشبية صغيرة فوقه مباشرة. وضع القنديل جانبًا. ألصق كتفيه بالعوارض، وبرفق بدأ يدفعها إلى الخارج. أبصر شعاعًا رماديًا باهتًا يتسرَّب برفق، ومعه يتسرّب خيط من تراب. أخذ نفسًا عميقا، وأرخى أذنيه محاولا التقاط صوت، ما، يأتي من الخارج.

كلّ شيء كان هادئا.

انتصب أكثر، فاندفع ضوء الفجر الشاحب داخل مخرج النفق، وانساب تراب كثيف أوشك أن يطفئ شعلة القنديل. ومرّة ثانية توقّف، محاولا التقاطَ صوت ما.

الهدوء كلّه.

أصبح رأسه خارج السرداب، تأكّد من خلوِّ المنطقة كلّها. انزلق من بين العوارض. حزّت إحداها ظهره بعنف. خرج.

داميًا كان، معفّرًا، ومتعبًا، ولا شيء ينقصه مثل الهواء. ملأ رئتيه به، مرّة وثانية وعاشرة.

أعاد كلَّ شيء إلى ما كان عليه، وتأكّد من أن مخرج السرداب قد أُخفيَ تمامًا.

مسَّد الأرض ثانية براحتيه، وابتعد بحذر على أربع: وجهه لباب النّفق، وكلما رجع قليلا مسح آثاره، إلى أن وصل إلى سنسلة الكرْم. استرق نظرة باحثًا عن موقعه، فرأى البعنة بعيدة، وحولها يطوف جنود الوزير يرقصون فرحًا باستسلامها بعد ساعات.

كان لا بدَّ من أن يبدأ المرْحلة الثانية من هروبه، قبل بزوغ الشمس. حدد مساره، بما يضمن عدم رؤية جسده، وانطلق.

***

التعب والجوع اللذان نخرا جسده أربعين يومًا، طوّحا به أخيرًا، في أرض ما، فارتمى منهكا تحت شجرة بلوط كبيرة.

كان أكثر ما يخشاه، أن يعرفه أحد ممن سمعوا بالجائزة التي أعلن عنها الوزير؛ يمسك به، يقطع رأسه، ويحمله إلى ذلك الصّوان ذي الأعمدة المذهبة.

انتفض فجأة، وقد استيقظ من نومه. كان هنالك أحد الفلاحين، يتأمّله، تحت شمس الظهيرة الحارقة!

خبر استسلام البعنة كان قد انتشر؛ وقد حرص الوزير على انتشاره، لأنه كان يريد أن يسبقه إلى صيدا وصفد ودمشق وعكا وحيفا ويافا والناصرة وطبرية.

– ما الذي فعلتَه لتكون متعبًا إلى هذا الحدّ؟! لقد أمضيتُ ساعتين بجانبك وأنت لا تحسّ بي. قال الرجل.

– أنا غريب عن هذه المنطقة، وقد كانت طريقي طويلة قبل أن أصل إليك!

– أصدقني عن حالك، فإن كنتَ قادمًا من البعنة فطمّني.

حدّق ظاهر في التراب محاولا إخفاء عينيه: لقد استسلم أهلها صباح هذا النهار يا والدي.

– سمعتُ هذا، ولكنني لم أصدِّقه. وبدأ الفلاح يبكي بحرقة.

– ألك أخوة أو أقارب هناك؟

– لا، ليس لي أقارب فيها أبدًا، ولكنني أبكي ذلك الفتى، ظاهر العُمَر، الذي وصلتْ أخباره إلينا، وأخبار الجائزة التي خصّصها الوزير لمن يأتيه برأسه! وقد علمنا أن ليس له شفاعة، فقد قال الكثير بحقّ الوزير، بحيث لا يمكن أن يعفو عنه. ليتني عرفت ظاهر هذا يا ولدي، قبل أن يُمسك به الوزير!

– أنا هو ظاهر يا والدي! قالها ظاهر، حتى، قبل أن يفكِّر.

لم يستوعب الفلاح ما سمعه، فسأله: ماذا قلت؟!

قلت: أنا ظاهر يا والدي.

بكي الفلاح أكثر.

– دموعك الآن يا والدي أغزر من دموعك التي سكبتها قبل قليل.

– دموع الفرح يا ولدي، دموع الفرح.

استجمع الفلاح حواسّه من جديد، وقف، وراقب المكان، وحين تأكد من خلوه، قال لظاهر: هيا، اتبعني، هنالك مكان آمن سأنقلك إليه.

المَهمَّة الغريبة لأنصاف الموتى!

فُتِحتْ أبواب السّور. خرج أهل البعنة، وقد وضعوا مناديلهم في رقابهم؛ وخلْفهم كان الدّمار يعلن عن قسوة الأيام التي عانوها.

شيخ البعنة كان في المقدمة. خلْفه رجال البلد وفتيتها. خلْفهم رجال وشبان جرحى، وخلفهم شيوخ ونساء وأطفال. تأمل الشيخ حسين أهل قريته، وهمس لنفسه: ليس ثمة سَفر يمكن أن يعود منه البشر منهكين أكثر من الحرب. إنها سفر بعيد يلامس فيه المرء الموتَ مرات ومرات، يتابعه الموت ينهشه حينا ويختطفه حينا، ويتأمله بعد انتهائها باحثًا عن سبب جديد ليكمل عمله!

في ذلك اليوم كانوا متعبين، نصف موتى، بحيث يمكن للموت أن يتساءل: كيف لا يمكنني الآن بضربة واحدة أن أحصد من تبقّى منهم على قيد الحياة؟!

وكما لو أن وزير صيدا سمع ذلك الهمس الوحشي، نادى بصوت عال: شيخ البعنة، أولا، وعائلته!

بلحيته البيضاء المعفرة، وعينيه الصغيرتين المحمرّتين، تقدَّم الشيخ حسين حزينًا، كما لو أنه لم يضحك من قبل! جرَّهم الجنود، فأدرك الجميع أن كلَّ كلمة كُتبت في وثيقة الاستسلام قد انمحت قبل أن تُكتب! وقفوا وأمامهم الصّوان الكبير، الصِّوان الملوَّن الذي بدا، ببذخه الطاؤوسيّ، غريبا عن كل ما في السّهل.

رفع يده، ليعطي إشارة تنفيذ الإعدام. التصق عباس بأبيه، محاذرًا أن يلحظ أحد ذلك. التصق به باحثًا عن أيّ نقطة التقاء يتمكّن من خلالها العودة إليه، إلى لحمه وعظمه ومائه.

- لي طلب واحد، ما دمت لن تنفذ أيًّا من عهودك. قال الشيخ حسين للوزير.

- وما هو طلبك؟ سأله الوزير.

- أن تكون وجوهنا للبعنة حين تُطلق النار علينا!

مَعَكَ الوزير شعر لحيته بيده، وتمشّى قليلا، ثم عاد وتوقّف: لا أستطيع أن أمنحك أكثر من نصف أمنيتك، بعد ما فعلته بي وبجيشي!

رفع سبابة يده اليمنى: فلتكن وجوههم نحو البعنة إذن. قال لجنوده، وأضاف: ولكن عليكم اقتلاع أعينهم أولا!

***

تحرَّكت عربة الوزير آخر الأمر، مزيّنة بثلاثة ذيول أحصنة [1]، وخلْفه، سار الجيش. وهناك، في البعيد، كان سهل البعنة قد امتلأ بالجثث والعويل.

الشيء الغريب، أن الوزير قرر ألّا يعود إلى صيدا قبل أن يقبض على ذلك الفتى ويخوزقه! ذلك الفتى الذي عرف اسمه أخيرًا: ظاهر العُمَر. وتصاعد غيظه حين عرف أنه ليس سوى ابن عمر الزّيداني مُتسلِّم طبرية التابعة له!

إلى طبرية توجّه، على رأس جيش ليس له سوى مهمّة واحدة: خوزقة فتى!

كان قد وصل إلى دير حنا، حينما أتاه الأمر بأن يعود، لأن الجرْدة على وشك أن تتحرّك. أدرك أن الوقت حاصره بشدة هذه المرّة، فالأيام مرَّت ثقيلة، ورحلة الجرْدة طويلة. كان عليهم أن يجمعوا المؤن من بقسماط وزيت وأرز وشعير وفول وعلّيق وحبال وملابس، وكل ما ينفع الحجاج لمقابلة قافلتهم العائدة على مسيرة اثنين وعشرين يوما من دمشق، وثلاثة أيام من المدينة المنورة، في رحلة شاقة تستغرق خمسين يومًا، ذهابا وإيابا.

وقف الوزير محدّقًا في الشرق، في طبرية، وأقسم بعلوِّ صوته أمام جنوده، كما لو أنه يريد أن يُقيّد نفسَه بقسمه، كي لا يتراجع عنه: أعاهد الله إذا ما رجعتُ سالما من هذه الجرْدة، أن أمحو ذِكْرَ ظاهر هذا من الوجود! وأعادها مرتين ليُسمِعَ من لم يَسمع.

حين وصل قسَمُ الوزير إلى طبرية، التفتَ عمر الزّيداني إلى ولده وصاح: أي حياة هذه التي سيعيشها فتى مثلك وقد بدأها بمعاداة وزير؟!

لكن الأمور ستسير في اتجاه آخر لن يدركه الناس إلّا بعد زمن طويل!

---

[1] – كانت الدَّرجات تُعرف بعدد الذيول: السنجق بيك كان برتبة باشا، يرفع على عربته ذيل حصان يعلوه هلال رمز الدولة العثمانية، والوزير ثلاثة ذيول، والصدر الأعظم (رئيس الوزراء) خمسة، وكان السلطان يرفع شارة بسبعة أو تسعة ذيول أثناء الحرب، وحينما كانوا يُعزَلون كانت الشّارات تُسحب منهم.

ليلة الانتظار والقناديل الأربعة

فتح ظاهر عينيه في ذلك الصباح فوجد إخوته فوق رأسه، ولولا أن سيوفهم كانت في أغمادها، لظنَّ أنهم قاتلوه!

- تنام ليلك الطويل وتتركنا في حَيرتنا. قال سعد.

فرَكَ ظاهر عينيه بظاهر يده اليمنى: هل وصلتم إلى حلٍّ؟ سألهم.

- لم نصل. قال صالح.

- بل وصلنا. الليلة سنشعل القناديل. قال سعد.

***

كانوا يدركون أن الدَّولة تُربي متسلِّمي الميري، كما يربّون، هم، الخراف المخصصة للذبح. تطلق الدولة أيديهم، ليحصِّلوا ما لها، وتغضُّ أعينها عما يقتطعونه ظلما من الفلاحين؛ وحين تتأكد أن ما جمعوه أصبح أكبر بكثير من ذلك الذي دفعوه لها من مال، ترسل من يتخلَّص منهم ويستولي على كل شيء!

لم يكن عمر الزّيداني من ذلك النوع، إذ أدرك أن أهمَّ ما يمكن أن يفعله هو أن يحافظ على طبرية ومن فيها، وأن يدفع ما عليه للدولة، وألا يترك لها فرصة كي تنقضّ عليه طمعًا.

كان سعد ويوسف وصالح ينظرون إلى ما حولهم، ويرون المتسلِّمين يزدادون غنى، حتى أولئك الذين كانوا أكثر ورعًا وقناعة. أن تُطلق يد شخص، ما، حرَّة، دون رقيب، ستكون النتيجة واحدة دائما، فليس ثمة حدّ لجشع القوة.

***

- إذا استطعنا أن نقنع ظاهر بأن يكون الواجهة، فسيكون بوسعنا أن نفعل ما نريد، دون أن يطمع بنا أحد، ففي النهاية، هو ليس أكثر من فتى. قال يوسف.

- أظن أنكم تبخسونه حقه بنظرتكم هذه. ظاهر صغير، لكنه ليس ضعيفًا، تعرفون ذلك. قال صالح.

- لم يبق لدينا سوى حلٍّ واحد: القناديل. قال سعد.

- ولكن عليكم أن تنتبهوا، إذا كنتم تفكّرون في خداعه، فهذه لن تمـرَّ عليـه أيضًا.

***

في صدر بيت أبيهم، كانوا ينتظرون، حين دخلت نجمة تحمل أربعة قناديـل فوق صينية كبيرة، وضعتها أمامهم، وجلست تراقب.

لم يجرؤ أي منهم على الطلب منها مغادرة الغرفة.

بعينيها الحادّتين، راقبت صالح يُقطِّع الفتيلَ الذي ناولته إيـاه إلى قطـع أربـع متساوية؛ وحين انتهى، امتدّت يده إليها لتتأكد من صحة ما قام به!

تفحّصت الفتائل الصغيرة، زمّتْ عينيها، هزّت رأسها موافقة، ووضعتها في قبضتها، تاركة أحد جوانبها بارزًا، فاستلّ كلٌّ منهم فتيلَهُ.

بعد قليل كانت الفتائل قد وضعت في مكانها داخل القناديل.

خرجت من وسط صمتهم، وعادت وعبرت ثانية وفي يدها شعلة نار: عصىً طويلة يغطي القطن المغمس بالزيت رأسها، وشعلتها تتأرجح مطلِقَة خيطًا مـن دخان كثيف.

امتدّت يدها إلى سعد، فأشعل عودًا في يده، ثم إلى يوسف، صالح، فظـاهر، وبرأسها أعطتهم إشارة أن يُشعلوا النار في اللحظة نفسها، ففعلوا.

حملتْ شعلتها وغادرت الغرفة، فقد كانت تعرف أنّ وقتـا طـويلا سيمـضي قبل أن تنطفئ الشّعلة الأولى.

***

نصف السّاعة الأول مرّ، كما لو أنَ الشُّعَل قد أضيئت قبل لحظات.

كان بمستطاع أيّ منهم أن يلتفت يمينا أو شـمالا، أو ينظـر صـوب أيّ مـن إخوته دون خوف، فقد كانت القناديل في عزِّ اتقادها.

بدا سعد، بعينيه الصغيرتين وجبينه الضيق، الأكثر هـدوءًا، حـين رفـع يـده وعبث بلحيته الصغيرة مرتين باطمئنان غريب. أما ظـاهر، فقـد كـان في مكـان آخر، يرى ما أمامه ولا يراه. وفجأة، سمع صوت نجمة: *أنت وحدك القادر على تنظيم أمور طبرية، أقول هذا لأنني أعرفك. صدّقني.*

التفت ظاهر إلى مصدر الصّوت، لكنها لم تكن هناك.

***

خطوة إشعال القناديل، كانت آخر ما يمكن أن يلتجئ إليه الناس حينما يختلفون؛ حين يكون هناك أمر عظيم فيه ملامسة لأطراف الموت، لاختيار ذلك الذي ستنطفئ شعلته أولا، الذي يعتقدون أن حظّه يقول إنه لن يعيش طويلا! ولذا، فإن عليه القيام بالمهمّة الصعبة، المهمة الأصعب. ومن تنطفئ شعلته بعد ذلك، يكون من سيعيش أطول، ومهما كان عدد المختلفين في أمر يكون عدد القناديل مساويًا لعددهم.

مع اقتراب منتصف الليل، تغير كلّ شيء، العيون تحدّق في الشُّعَل المتراقصة أمامها، دون أن تستطيع اختراق فخّارة القنديل لمعرفة ما تبقّى فيها من زيت.

تعبت أعينهم، الظلمة مُحْدِقة بهم، والأشعة تزداد حدّة، بحيث تلامس مؤخرات رؤوسهم!

أكثر خوفا باتوا. يعرفون أن النتيجة حاسمة، وأنهم لن يستطيعوا تغييرها بعد أن تظهر.

رفع ظاهر عينيه ونظر إلى إخوته؛ كم كانت ملامحهم قد تغيّرت. كم أصبحوا أناسا غيرهم، لا يشبهونهم أبدًا! وفي لحظة غامضة، تسلل إليهم ذلك الحسّ الغريب: إنهم يلعبون لعبة حياتهم كلّها، وإن المسألة قد تجاوزت مسألة ترك الأقدار لتختار واحدًا منهم ليقوم بعمل المتسلِّم، بل أصبحت لحظة وداع لمن سيموت منهم أولا، ومن سيليه!

خوف ما، باردٌ وقارص، اعتصرَ أفئدتهم، فأحسوا بالموت فوق أكتافهم، كما لم يحسّوا به من قبل.

حين تأرجحت الشّعلة التي أمام ظاهر، ارتجفتْ أرواحهم بإحساس غريب، مختلط، وحشيّ ومكسور.

عادت شعلته فاستقامت، وبدتْ أكثر اتّقادا من أيّ شعلة أخرى، فلم يدروا بماذا يحسّون!

"*هل سيموت ظاهر قبلنا؟! إنه لم يعش بعد!*" همس صالح لنفسه، وبدا مستعدا في تلك اللحظة لإطفاء شعلته بين إصبعيه؛ لكن شعلته تأرجحت وبدت على وشك الالتحام بالظلام. فأحس بقلبه يثب من صدره. نسيَ شعلة ظاهر، وتجمّدت عيناه فوق شُعلته.

***

تناولتْ نجمة عباءتها، لفَّتها على نفسها وخرجت حافية كعادتها. نظرت صوب الغرفة التي هم فيها؛ لم يأتها سوى برْد الصمت الذي ضاعف من برودة تلك الليلة. وفي ساحة البيت كان باستطاعتها رؤية بقعة الماء الصغيرة وقد تحوّلت إلى جليد، الجليد الذي يفاجئ طبرية مرة كل عدة سنوات.

صهلت حليمة، صهلت كما لو أن صهيلها دعاء، فارتجف قلب نجمة. قطعت ساحة البيت وسارت إليها، قبَّلت جبهتها، وهمست لها بكلمات تطمئنها.

طويلا ظلّت بجانبها هناك، إلى أن أحسّت بقدميها تتحوّلان إلى لوحَي جليد. بصعوبة انتزعتهما من الأرض، ربّتت على عنق حليمة، وعادت إلى غرفتها.

***

مثلهم، كانت الشُّعَل الأربع تلفظ أنفاسها الأخيرة، هم الذين باتوا على وشك معرفة ترتيب وداعهم لهذه الدنيا بعد قليل!

مالت شعلة ظاهر، اعتدلت، ثم سقط رأسها في الظلام.

رفع رأسه.

كانوا قد تحوّلوا إلى شبه أموات.

قال: انتهت اللعبة، وفزتم!

لكن صمتهم أنبأه أنهم يريدون معرفة النتيجة كلها، يريدون معرفة متى سيموتون، وقد تحوّل موت كل منهم إلى ساعة تعلن موت من سيليه!

بهدوء، أدار ظاهر لهم ظهره، تاركًا الشُّعَل خلفه تلفظ أنفاسهم!

لسبب ما، كان مشغولا بشيء واحد: ما الذي سيفعله غدا!

حين نهضوا آخر الأمر مربِّتين على كتفه، في طريقهم إلى الباب، في طريقهم لذلك الضوء الذي بدأ يتسلل من الخارج، كما لو أنه يتسلل لهم وحدهم، سأله سعد: ألا تريد معرفة من انطفأت شعلته بعدك؟! ومن انطفأت شعلته بعده؟ ومن انطفأت شعلته في النهاية؟!

ظلَّ صامتا، وحين قال سعد، وقد اطمأنّ لصمته: الشّعلة الثانية التي انطفأت كانت...!

قاطعه ظاهر بصوت كم كان يشبه صوت أبيهم: الذي تستطيع اللحاق به ماشيًا لا تركض خلفه!

صمت سعد. خرجوا، وقد أحسوا بأن ذلك الفتى تغير تمامًا.

***

سمعت نجمة خطاهم تبتعد. خرجت. أمسكت ظاهر من يده، وسارت به نحو غرفته. أوصلته إلى فراشه. سوّت مخدته. استلقى بهدوء، كان متعبًا:

- أنت وحدك القادر على تنظيم أمور طبرية، أقول هذا لأنني أعرفك. صدّقني.

أحس بأنه يسمعها تقول وهي تبتعد.

- رفع رأسه وسألها: هل قلتِ شيئًا؟

- نم الآن، لدينا الكثير الذي يمكن أن نقوله فيما بعد.

***

بعد أن استيقظ وتناول طعام إفطاره ظهرًا! وقفت ونظرت إليه، كما لو أنها تذكّرت شيئًا ما كان عليها أن تنساه. ثم قالت: اتبعني!

بسرعة أدرك ظاهر ما الذي نسيته، فنهض.

ظلَّ يسير خلفها إلى أن وصلا تلك الفسحة الواسعة من الأرض التي كانت ميدانا لسباق الخيول. نظرت خلفها، فوجدته يخلع حذاءه. ابتسمت. انتظرته حتى وصل. أغمضت عينيها، وأغمض عينيه، وراحا يسيران في تلك البقعة الواسعة حافيين. انشغل ظاهر باستعادة أول مرّة جاءت به إلى هذه الساحة، وكلما تذكّرها، انشغل بتذكُّر مرّة أخرى قبلها!

قالت له وكأنها تقرأ أفكاره: لقد خطوت خطواتك الأولى هنا، لم يكن هناك من بقعة في طبرية أفضل من هذه كي تسير حافيا فوقها، فهنا الأرض مليئة بالخيول! لا تحاول استرجاع ما مرّ، وكلّه فيك الآن! أنت بحاجة لأن تسير اليوم فوق هذه الأرض وأن تحسّها، وتحسّ بكل الخيول التي عدت فوقها، أنت بحاجة لأن تتشرّبهما معًا: الأرض والخيل!

بعد وقت طال هزّته. فتح عينيه: هذا يكفي! لا أريدك أن تتحوّل منذ الآن إلى حصان، أو حتى إلى جبل، فالطريق أمامك طويل!

وقال لهم: لن أموت اليوم!

لم يفرح أيّ منهم بما قالته القناديل..

كان ظاهر أشبه ما يكون بنسمة.

حدّق فيهم، فاتّسعت عيناه البنيتان المائلتان لاخضرار عميق، فأحسوا بأن وجوده بينهم يوم وداع طويل.

حيّاهم، كما يحييهم كل يوم، كما لو أن القناديل لم تُضأ بعد، كما لو أن القناديل لم تنطفئ، ونهض.

غاب قليلا، وعندما عاد كان يلفّ رأسه بشال قطني ويلتفّ بعباءة بنية سميكة من شعر الماعز.

قفز على ظهر حصانه. كانوا صامتين. التفت إليهم وقال تلك الجملة التي عذبتهم أكثر: اطمئنوا، لن أموت اليوم!

***

صعد شمالا تاركًا طبرية خلْفه، ثم توجّه إلى الشمال الغربي، قبل أن يعود ليتّجه شرقًا، عابرًا (الطَّابْغة). ألقى نظرة من بعيد إليها. كل ما فيها هادئ، سوى أعمدة هشّة من دخان رماديّ، يعرف أنها تتصاعد من الطوابين والأوجاق.

فاحت روائح أشجار الليمون والبرتقال، فأخذ نفسًا عميقا غسل روحه. وفي البعيد رأى غابة كثيفة من أشجار الدُّفلى المحاطة بنباتات القصب، استدار حولها..

كان يعرف طريقه جيدًا.

***

بعد مسيرة ساعتين أبصر بِشْر يلوّح له. بشْر اليتيم الناحل كعود قصب، بشْر الذي انطلق حافيًا نحوه، كما لو أنه يستقبل شيخ القبيلة لا صديقه!

تعانقا. وحين سأله عن حاله، بقي ظاهر صامتًا.

- ما انتَ على عوايدك اليوم!

انتظر بشر أن يقول ظاهر شيئا لكنه ظلّ صامتا.

جلسا، لا يفصلهما سوى رأس الحصان الذي انحشر بينهما باحثًا، ربما، عن قليل من الدّفء.

- أريدك أن تعلّمني القتال بالسّيف والرّمح، أريدك أن تعلّمني القتال بكل سلاح يستخدمه اليوم بَشَرٌ.

- إبشِرْ. قال بشر، كم مرّة قلت لك: لا يليق بمن يمتطي حصانا أن يكون أقل من فارس؟!

قفز بشر بخفّة، وفي يده عصا: هذا سيفي، فلنبحث لك عن سيف مثله.

- سيفي معي. قال ظاهر. وأشرع عباءته واستلّه من غمده بحذر.

- يقاتلك بشر بعصا وتقاتله بسيف.. كيف هذا؟!

- أنت أستاذي اليوم وأنا تلميذك، وعصاك تعرف عن القتال أكثر مما يعرف سيفي!

- لكن عنقي لا يعرف ما تعرفه عصاي، فانتبه!

أغار ظاهر وقد ألقى عباءته بعيدا، فسقطت فوق ظهر الحصان. أغار كما لو أن شخصا آخر أمامه، غير صاحبه! تلقى بشر الضربات الهائجة ببراعة، ووجّه إليه ضربة بالعصا على ظهره، أسقطته أرضًا.

استلّ ظاهر يده من العشب اليابس المبتلّ، وأغار مرّة أخرى، على نحو أشدّ.

- أنت ما جيت تتعلّم اليوم، إنت جيت تقتل عدوّ، وعليك أن تنتبه إنه ما هو أنا! قال بشر لاهثًا، ومتقافزًا من صخرة إلى غصن.

فجأة انتصب ظاهر في مكانه: أين أنت؟ وحين قال له بشر: الغضب أعماك، أنا وراك! لم يبدُ أن ظاهر سمع كلامه، إذ صاح ثانية: أين أنت؟ وبدأ يمزّق الهواء بسيفه، مصدرًا ذلك الصوت الغريب الذي لا يسمعه المرء إلا عند مرور المعدن في جسد خفيّ!

جلس بشر يراقبه، حتى رآه يسقط على الأرض تعبًا.

اقترب منه: يجوز إنك قتلت إللي كنت تريد قتله، ولكن، لا بد أعلمك كيف تدافع عن نفسك حتى لا تموت!

***

صامتين، جلسوا هناك، أمام بوابة بيتهم العالية، سعد ويوسف وصالح، غير عابئين برذاذ المطر الذي كان يزيدهم حزنا وهم يستعيدون ما حدث.

وحدها كانت نجمة هناك، تتحرّك حافية، غير عابئة بشيء. ألقت عليهم نظرة، فرأت ظهورهم المنحنية وأعناقهم المائلة نحو صدورهم، كمن ينتظرون هبوب سيف في ساحة إعدام!

ابتسمت وقد وضعت راحَتي يديها على جنبيها، وقالت: لا أظنكم أفطرتم في بيت سعد، فطوركم جاهز!

مضت إلى الداخل، كان هناك فوق الحصيرة عدّة أرغفة ساخنة، زيت وزيتون وجبنة بيضاء وسبع بيضات مسلوقات.

لم يتحرّكوا.

امتدّت يدها لبيضة، دقّتها بالأرض بلطف، وبدأت بانتزاع قشرتها.

وفي الرّكن البعيد صاح ديك، وصهلتْ فرسٌ بيضاء.

عن الهدايا غير المتوقّعة!

الشيء الذي لا يمكن أن ينساه ظاهر هو وجه بِشْر عندما رآه للمرة الأولى.

من بعيد تقدّم فوق ظهر حصان، تبين له أنه حصانهم. التفتَ إلى أبيه فوجده يبتسم، يبتسم بسعادة لا يمكن تخيّلها.

كانوا هناك في واحد من حقول الخُضَر العائدة لهم بجانب البحيرة. اقترب بشر. تضاعفت دهشة ظاهر. كان يحمل سيف أبيه أيضًا! وفي لحظات قليلة أدرك ظاهر سرَّ غياب الحصان واختفاء السيف، الذي تكتّم عليهما الأب طويلا.

لاحظ عمر الزيداني حَيرة ابنه، فالتفت إليه وهمس: سأقول لك كلّ شيء، ولكن علينا الآن أن نستقبل ضيفنا ونكرمه.

- ضيفنا؟!

- نعم، ضيفنا يا ظاهر.

قبل أن يصل بشر إليهم قفز من فوق الحصان، وراح يجري نحو عمر الزّيداني، وما إن وصل حتى احتضنه بقوة. ازدادت حيرة ظاهر وهو يرى أباه يعانق هذا الفتى الغريب كما لم يعانقه هو، ابنه!

- الحمد لله على السلامة يا بشر!

- سلّمك الله يا عمّ.

- اشتقنالك يا بشر.

- هل تأخّر بشر إلى هذا الحدّ يا عمّ؟!

- لا يا بشر، أنت لم تتأخر. مثلك لا يتأخر!

- الحمد لله، لقد أمضى بشر الوقت خائفًا من أن يكون قد تأخّر. ولكنه كان متعبًا يا عمّ. وأصارحك، لقد بحث بشر عن هدية يحملها إليك، فلم يجد شيئا بين يديه. كانت أفضل هدية يمكن أن يحملها هي أن يعود ويكون لك بمثابة الابن. أنا هدية بشر إليك يا عمّ، فأرجو أن تقبلها!

- وهل هناك هدية أفضل من أن يكون لي ابن مثلك، مثل ظاهر؟! قال عمر الزيداني ذلك وهو يشير إلى ابنه.

امتدت يد بشر وصافح ظاهر، المرتبك، بحرارة.

- هل تعرف يا ظاهر مَن هذا؟!

- إنه بشر! لقد سمعتُ اسمه.

- إنه أكثر من ذلك بكثير يا ظاهر، إنه الفتى الذي سار إلى البعنة لينقذكَ، هل تعلم هذا؟

- ينقذني؟!

- نعم، حين كنتَ محاصَرًا هناك، كان بشر قادمًا لنجدتك؟

- حيَّاه الله، ولكنني لم أره هناك!

- هذه قصة طويلة يا ظاهر. سأتركك مع بشر وأسبقكما إلى البيت لتحضير غداء الضيف.

- ولماذا غداء الضيوف؟! ألم نتفق بأنك قبلتني ابنا يا عم؟

- الابن يأكل أيضًا، أليس كذلك؟! ثم ما دمت قد أصبحت ابني فإن عليك أن تكفّ عن مناداتي يا عمّ.

- صحيح والله. كيف لم ينتبه بشر إلى ذلك؟!

***

الشيء الذي لاحظه ظاهر، أن بشر الذي رآه على الحصان، غير بشر الذي يسير إلى جانبه، لقد تحوّل إلى فتى طيب، لكن ذكاءه لا يخفى.

- أعرف أنك لا تعرف بما حدث لي هناك، قرب البعنة، ولكني سأقول لك كل شيء. قال بشر.

***

كان الضّحى يسير بكسل واضح نحو ظهيرة لا يريدُ أن يبلغها! إذ بدا ذلك اليوم واحدًا من أيام الصيف التي لا تحتمل. سارا بمحاذاة الشاطئ. الهواء ساكن كالبحيرة التي بدت مثل ماسّة هائلة. قفزات الأسماك خارج الماء تُحدِث نقرات لطيفة، تتزايد حينا وتقلّ حينا. وكلما قفزت سمكة خلّفتْ دوائر رقيقة بيضاء في ذلك السّطح الأزرق الصلب الفسيح.

لم يتوقّف بشر عن الكلام. كان كلّ ما فيه يتكلّم، يداه ورجلاه ورأسه وشعره السّميك وجدائله، وعيناه اللتان تفيضان بالضوء.

أحبه ظاهر. وللحظة، اختلط وجه بشر بوجه صديقه عباس. أوشكت الدموع أن تفلت من عينيه. لاحظ بشر ذلك، فسأله: ذكرى حزينة؟!

- حزينة أمس، وسعيدة اليوم بوجودك يا بشر.
أخذ ظاهر نفَسًا عميقًا فأعاد الدموع إلى منابعها.
- هل تحبّ صيد البر أم صيد البحر يا بشر؟
- بشر يحب صيد البرّ. ثم لا تغضب مني يا ظاهر، صيد البحر للكسالى، للذين لا يريدون أن يتحركوا للحصول على قوْتِهم! لا تقل لي إنك تحب صيد البحر؟!
- لا، لا أحبه، لا أذكر أنني اصطدت سمكة في أي يوم من الأيام، ولكنني أصطاد في البحيرة أشياء أخرى غير السّمك، إنها برّي!
- برُّك؟! بشر لم يفهم كلامك يا ظاهر، أتمتحنني؟! كيف يكون الماء برًّا؟! وهل فيه غير السمك؟!
- فيه يا بشر.
- أنت تمتحنني إذن، وبشر لا يستطيع أن يعرف ما ترمي إليه.
- أصطاد البط يا بشر. ظاهر يصطاد البط! وعلى الرغم من أنه يصطاده في الماء، إلا أن عليه أن يتحرّك بين حين وحين، يكمن ويتسلل وينقضّ ويسبح أيضا.
- غلَبتني يا ظاهر، غلَبتني!

***

ثلاثة أيام أمضاها بشر في بيت عمر الزيداني، لم يتركه ظاهر خلالها. وحينما جاء ذلك اليوم الذي سيرحل فيه، قال له عمر: أتيتنا بهدية كبيرة يا بشر، كيف يمكننا أن نوفيك حقّك بهدية مثلها.
- لقد وصلتني هديتك يا والدي، لقد أهديتني أخًا، ظاهر!
تقدّم عمر الزّيداني منه واحتضنه بحرارة ثم امتدّت يده الأخرى نحو ظاهر، وجذبه نحوه، ضمّهما إليه، ثم تركهما: لا تغب عنا طويلا يا بشر.
- كيف يغيب بشر يا والدي ما دام قد وجدكم؟! كيف؟!
لكن ذلك كان آخر لقاء يجمعه بعمر الزّيداني. ففي ظهيرة ذلك اليوم الذي وصل فيه بشر إلى طبرية، بعد غياب طويل، رأى تلك الجنازة الخارجة من البيت. انقبض قلبه، وقد أدرك ما حدث، حين بحث عن عمر الزّيداني بين الناس، ولم يره. سار خلف الجنازة يبكي، حتى المقبرة؛ وهناك وقف بعيدًا، مراقبا الجثة السّاكنة التي كانت تتهيأ بصمت للعودة إلى التراب.

ضوء ضعيف في ليل حالك

في اليوم الرابع عاد ظاهر. رأوه من بعيد قادمًا. انـدفعوا نحـوه عـلى ظهـور خيولهم. غزيرًا كان المطر، جارفا التراب ممزّقا الأرض. حـين حـاذاهم، واصـل اندفاعه نحو البيت. تبعوه.

قبل أن يعبر البوابة كان صهيل المهرة البيـضاء يـشقّ حبـال المطـر الـسميكة ويضيء المكان كبرق طفل. سمعتها نجمـة، ابتـسمت، نهـضت بهـدوء صـوب الباب، أشرعتْه، ووقفتْ تنتظر. ترجّل ظاهر. اتّسعت ابتسامة نجمة أكثر. مضى إلى الرّكن، ربط حصانه بجانب الفرس البيضاء، الفرس التي كانت تتفلّت برقّة نحوه كما لو أنها مهرة صغيرة وهـو أمّهـا! ربّـت عـلى عنقهـا، حـدّق في عينيهـا الواسعتين القلقتين وقبّل جبهتها، ثـم انحنـى وقبّـل قائمتهـا الأماميـة اليمنـى: أعرف، قلقتِ كثيرًا، حقّكِ عليّ[1]!

نفضت الفرس البيضاء رأسها، فتطـاير شـعرها. ابتعـد، راقبتـه يمـضي إلى نجمة، نجمة التي احتضنته بحرارة.

حين وصل إخوته، كان يجلس في صدر البيت، وبجانبه نجمة.

- قلقتم عليّ أعرف! ولكم الحقّ في أن تطمئنوا الآن. لنُحـضر إمـام المـسجد وقاضي طبرية والمفتي ومدير سجنها شهودًا، ولنكتب هـذا المـساء كتابـا لـوزير صيدا نخبره بما عزمنا عليه!

***

في ديوان البيت الكبير اجتمعوا. وقّعوا طلب تعيين ظاهر متسلّمًا خلفًا لأبيه، مشيدين بهذا (الشاب المقدام الخيِّر صاحب الهمّة العالية والمروءة التامّـة، الفطِـن الأمين).

حين أنهى إمام المسجد قراءة صفات ظاهر، انطلقتْ من ظاهر ضحكة رغـما عنه، فالتفتوا إليه جميعًا باستنكار؛ لكن نظراتهم ارتدت أمام نظرتـه الثابتـة وقـد تحوّلت ضحكته إلى عبوس.

---

[1] - قيل إن ظاهر هو أول من قبل قدّم فرس احتراما لها!

- أضحك لأن وزير صيدا، لن يقبل برجل هذه صفاته، فهو يريد شخصًا جبانا مُقتِّرا متزلِّفا يُتقن لعق الأرض تحت نعاله كلما أتى لجمع الميري! كما لا يريده فطنا يخدع الدّولة! ولا أمينا لا يسرق الناس! قال ظاهر.

- وماذا نكتب، وقد جرت العادة أن نُدبّج مكاتيبنا على هذا النحو؟ سأل القاضي.

التفت ظاهر إلى مدير السجن، وسأله: ألستَ معي في هذا؟!

وحيّرهم أن مدير السجن أجاب بارتباك وهو يبتعد بعينيه عن عيني ظاهر: أوافقك، نعم أوافقك!

- ها هي الدّولة نفسها قد أيّدتني، أترون؟! دعوا الرسالة كما هي، ولنحذف كل ما فيها من صفات، ولنكتب إلى وزير صيدا ما يريد قراءته: المخلص للدولة الحريص على مالها وما لها من حقوق في أعناق الناس!

وقّعوا الرّسالة، وختمها القاضي وإمام المسجد ومدير السجن والمفتي.

في تلك اللحظة، دخلت نجمة حاملة طعام العشاء: طبقا نحاسيًّا كبيرًا مملوءًا بالأرز واللحم.

هبَّ صالح وتناوله من يدها ووضعه أمامهم.

كانت سعيدة بما تراه: أروني الرّسالة.

امتدّت يد سعد بها، تناولتها، تأمّلتها قليلا، وقبل أن تعيدها قالت: إن شاء المولى ستجتمعون وتكتبون رسالة تعيينه متسلِّما للجليل كلّه!

كانوا يدركون أن لا أحد يمكن أن يسخر من أيّ كلام تقوله نجمة، فاكتفوا بهز رؤوسهم بصمت، نصف مبتسمين.

- صحة وعافية، يا أهلا بكم، تفضّلوا. قالت ذلك، وخرجت.

صفا مزاج الإمام والقاضي حين رأوا كل ذلك الطعام، وقد شاع صيتهما باعتبارهما أكثر الناس شغفا باللحم على شاطئ البحيرة.

تأمّل القاضي الطبق المملوء بالطعام. امتدّت يده، اختار أفضل قطعة لحم ووضعها جانبا لنجمة.

كان ذلك نوعًا من الاحترام لربّة البيت التي عملت طويلا كي تقدّم الطعام للضيوف[1].

---

[1] - كانت العادة تقضي بأن لا تُرسل صاحبة البيت أحدًا ليصب الماء على يدَي الضيف، إن لم يفعل ذلك، كنوع من العقوبة الرّمزية.

أكلا بحريّة، كما لو أنهما وحدهما، لكنهما وجدا نفسيهما أمام قطعة لحم أخيرة بقيت فوق الأرز، في المنتصف! لم يُضع القاضي الوقت؛ مدَّ يده وحفر تحتها! تأرجحت قطعة اللحم، ثم سقطت أمامه، ولكي يُداري ما فعله قال ضاحكًا:

فَرِحَ الطعامُ لأهلِهِ فتقدَّما!

فردّ عليه الإمام:

من كثر حفْرِكَ في الأساس تهدَّما!

فانطلق ظاهر يضحك من أعماق قلبه!

***

كانت القناديل القليلة المعلّقة في الشارع تنشر ضوءها الضعيف وسط حلكة الليل الذي هبط مبكرًا، تتأرجح فتائلها وتتأرجح، وهي تقاوم هبات هواء خفيفة، وقد بدا الطقس أكثر دفئا من النهار.

لم يكن هناك من ينتبه لوجود قنديل في الشارع إلا إذا انطفأ. لكن أنظار سعد ويوسف وصالح كانت تحدّق في الشُّعَل الصغيرة المتراقصة بخوف، كما لو أنهم أمام قناديلهم التي انطفأت كلّها في تلك الليلة، مغرقةً أسئلتهم في العتمة القاسية، وقد ارتطمت بإجاباتها الأقسى.

الشّاعر وظلال الشرق والغرب!

اختفى ظاهر مـن جديـد. لكـن اختفـاءه لم يعـد مُقلقـا لأحـد، فقـد كـانوا يعرفون، أنه سيعود آخر الأمر.

وعاد،

كان مختلفًا: بدا أطول وأصلب وأشد إقبالا على الحياة من قبل.

- ألا تخشى الموت الذي يتربّص بك؟ سأله سعد.

- أخشاه، أخشاه كثيرًا. ولكن إذا بلغت عُمْر طرفة بن العبـد[1]، لا أقـل مـن ذلك، فسأكون قد انتصرتُ عليه!

- أكل ما ترجوه من هذه الحياة بلـوغ الخامـسة والعـشرين؟! سـأله صـالح بخوف.

- أهذا قليل؟! لتكن ستا وعشرين، فهناك من يقول إنه مـات وعمـره سـت وعشرون. ولكنكم تنسون شيئا مهما، وهو أن الذي قتله لم يـستطع أن يحـشره في القبر، لقد مات قاتله ولم يزل طرفة حيًّا إلى يومنا هذا.

- لست خائفا إذن؟ سأله يوسف؟!

- خائف من ماذا؟

- من الموت! صرخ سعد في وجهه.

---

[1] - وِلِدَ الشاعر طَرَفَة بن العَبْد حوالي سنة 543م في البحرين من أبوين شريفين، وكان له من نسبه ما يحقق له شاعريته الفذة، فجدّه و أبوه وعماه المرقّشان وخاله المتلمّس كلّهم شعراء. مات أبوه، وهو بعدُ حدَث، فكفِله أعمامُه، عاش طفولة مهملة لاهية طريدة، هجا الملك عمرو بن هند، فحمَّلَ هذا كلاً من طرفة وخاله المتلمّس رسالة مُغلقة، أوهمهما أنها تتضمّن مكافأة. وتروي القصّة أن المتلمّس فضّ الرسالة وعرف مضمونها، ونجا من القتل، في حين أن طرفة أبى أن يفتح رسالته ومضى إلى حتفه. فقتله والي البحرين بناء على أمر الملك: (إذا وصلك حامل كتابي هذا فاقطع رأسه)؛ وقيل إن طرفة، حين قتِل، كان في أواسط العشرينات من عمره.

- أنا أخاف من الموت، لكن انطفاء قنديلي قبل انطفاء قناديلكم، لا يمكن أن يخيفني، سأدفع الموت ما استطعت إلى خارج طبرية، ولعلي أستطيع أن أدفعه أبعد من ذلك في يوم ما!

واستدار مبتعدًا

- إلى أين؟ سأل سعد.

- إلى ما يخيفني الآن أكثر: غضبة مُعلِّمي!

***

التّجوال في شوارع طبرية عند الغروب، كان أمرًا قريبا إلى قلب ظاهر؛ فحتى، في يوم شتائي كهذا، لا يعدم المرء فيه لذة مراقبة الضجة تهدأ، والناس يرحلون عن طبرية متوجّهين إلى قراهم، أو عائدين للمدينة من الحقول والمدن البعيدة.

كان أحد صيادي السّمك، على شاطئ البحيرة، قد ألقى بحصاده النهاريّ فوق طبق من القش. إحدى السمكات كانت لم تزل حية ترتجف. اقترب ظاهر منه، تأمّلها، سأله: كم سعر السمك اليوم؟ فرد البائع: عشر سمكات بقرش واحد.

- وبكم تبيعني هذه السمكة الحية؟!

- بربع قرش، فهي الأكبر كما ترى.

أمسك بها ظاهر وألقاها في الماء.

- ما الذي فعلته؟ إنها أكبر سمكة أصطادها منذ شهر.

- هذا ثمنها؟

امتدّت يد الصياد، تناول ربع القرش، دون أن تفارق عيناه الماء. وحين استدار، لم يجد ظاهر هناك.

***

سار في الطريق خفيفًا تغمره سعادة لا يعرف مصدرها، وحين وصل إلى بيت سعد، ألقى نظرة إلى السماء. كانت السّحب الرمادية تبتعد، باستثناء غيمة رقيقة في الأفق الغربي تحاول أن تحجب، دون جدوى، ما تبقى من وهج الشّمس.

طرق الباب، سمع سعد يدعوه، دخل. كان بيت سعد واحدًا من أكبر بيوت طبرية، باحة واسعة تظلّلها نخلتان باسقتان. بيت مرتفع، توصلك للقسم

العلوي منه عدة درجات، ومن هناك يمكن أن ترى البحيرة كما لا يمكن أن تراها من أيّ بيت آخر.

حينما بلغ العتبة، فوجئ بوجود ضيف. حيّاه ظاهر باحترام كبير، وحاول أن يتذكّر أين يمكن أن يكون قد رآه.

- هذا أخي ظاهر. قال سعد.

- أنت لم ترني من قبل يا ظاهر! أنا الشيخ عبد الغفار الشّويكي، من دمشق، سمعتُ الكثير عن أبيك، فقلت آتي إلى طبرية للتعرّف إليه، لكن الموت سبقني! رحمه الله.

وصمت الشيخ الشويكي قليلا: ثم سأله: كأنك قادم من عند أستاذك؟ فكل هذه الكتب لا يحملها المرء إلا إذا كان قادمًا من هناك!

- أجل.

- وما اسمه؟

- إنه الشيخ عبد القادر الحفناوي.

هزّ الشويكي رأسه: هل حفظت يا بني كتاب الله؟

- نعم يا شيخي.

- وماذا أعجبك منه؟

- أعجبني كلّه، غير أن الذي رسخ في قلبي قوله تعالى: ((قل اللهم مالك المُلك تُؤتي الملك من تشاء وتنزع المُلك ممن تشاء وتعزّ من تشاء وتُذل من تشاء)) إلى قوله ((إنك على كلّ شيء قدير)).

- وماذا حفظتَ من الأشعار؟

- حفظت من كل باب شيئًا.

- وأي شيء استحسنته منها؟

- قول أبي الطيب المتنبي:

لتعْلَمَ مصرُ ومن بالعراقِ   ومن بالعواصمِ أني الفتى
وأني وفيتُ وأني أَبَيْتُ   وأني عتوتُ علىَ من عتا
وما كلُّ من قالَ قولا وفى   وما كلُّ من سِيمَ خسفًا أبى
ومن جَهِلَتْ نفسُهُ قدْرَهُ   رأى غيرُهُ منهُ ما لا يَرى

هزَّ الشيخ الشويكي رأسه، وسأل ظاهر: وهل قرأت من كتب التاريخ؟

- نعم.

- وما الذي استحسنتَ منها؟

- أجملها تاريخ أبي مسلم الخرساني[1] في الشرق وتاريخ عبد الله الشيعي[2] في الغرب.

اعتدل الشيخ الشويكي في جلسته، نظر إلى ظاهر طويلا، فظن ظاهر ومعه سعد أنه يبحث عن سؤال جديد، لكن ذلك لم يحدث. وبعد صمت طال، أشار إلى ظاهر طالبا منه أن يقترب، فمال بدوره، ووشوشه بضع كلمات.

هزّ ظاهر رأسه دلالة على القبول، ثم طلب الإذن منهما بالمغادرة.

***

كانت البوابة الرئيسة لسور طبرية على وشك أن تُغلق، حين سمع ظاهر رجلا في أعلى السور يصيح: لا تغلقوا الباب، وصلت قافلة نابلس.

فعاد رجلان مسلحان بسيفين وبارودتين لإشراع ما أُغلق من البوابة، ودبّت الحياة من جديد في الشارع الموصل إلى قلب المدينة، حيث تقاطر التجّار وأصحاب الحاجات والصِّبية.

دار ظاهر في المدينة دورة واسعة حتى وصل إلى برجها الشمالي، ثم عاد من جديد، وهو يراقب ذلك الشخص المكلّف بإشعال القناديل يبدأ عمله. تابعه عن قرب، إلى أن انتهى من إشعال القنديل الأخير.

قبل وصوله البيت، سمع صهيل الفرس البيضاء، فابتسم.

***

أبى سعد إلا أن يرافق الشيخ الشويكي حتى مشارف طبرية. وحين ودَّعه هناك، حلَّ رسن البغلة الموثقة بسرج حصانه، وربطه بسرج حصان الشويكي.

- ما هذا؟ قال الشويكي وقد فوجئ.

- هذا بعض ما قد تحتاجه في الطريق. وأوصيك: إحذر البدو فلا شيء يفعلونه غير السَّلب.

---

[1] - (أبو مسلم الخرساني، اسمه عبد الرحمن بن مسلم ويقال عبد الرحمن بن عثمان بن يسار الخرساني. كان ذا شأن عجيب ونبأ غريب، من رجل يذهب على حمار من الشام حتى يدخل خرسان ثم يملك خرسان بعد تسعة أعوام ويعود بكتائب أمثال الجبال ويقلب الدولة الأموية ويقيم دولة أخرى.)

[2] - (الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الصنعاني. أبو عبد الله المعروف بالشيعي، ويلقب بالمعلم، من أهل صنعاء باليمن وإليها نسبته. كان الممهّد للدولة العبيدية الشيعية الإسماعيلية، وكان ناشر دعوتهم في المغرب، من الدّهاة الشجعان.)

- اطمئن، من هنا حتى دمشق، كلّهم أصدقائي.

صافح الشويكي سعد بحرارة، وابتعد. وقبل أن يأخذه المنعطف خلف بيارة الليمون في أسفل السفح، أوقف حصانه فتوقّفت البغلة؛ واستدار، حيث رأى سعد هناك يلوِّح له.

- يا سعد!

- أؤمرني يا شيخ!

- انتبه لأخيك ظاهر.

***

في مكانه، في أعلى ذلك التلّ، بقي سعد واقفا يُفكِّر في ما قال الشويكي. يفكر في القناديل. ولم يدرِ، أيصدِّقها أم يصدِّق الشويكي ويقين عمّته نجمة! التي لولا معرفته بحجم ذلك الحبّ الذي تكنّه لظاهر لقال: إنها سعيدة بقرب رحيله!

حصان رمادي بعينين مكحّلتين

وحيدًا كان في البر، حين رأى بشْر ذلك الفارس يتقدَّم نحوه. أمسكَ بعصاه ووقف يراقبه.

كان الفارس يتقدّم خببًا على ظهر حصان رماديّ بعينين مكحّلتين، وقبل أن يصل، صاح: أنتَ بشر؟

هزّ بشر رأسه: هو أنا. ولكنك لم تقل لي من أنت؟

- اعذرني، أنا محمد المخلد من بني صخر.

وحين رأى ابتسامة الفارس، ارتخت قبضته قليلا. واصل الفارس تقدُّمه.

- *" آه لو أن لي حصانا كهذا!"* همس لنفسه.

اتّسعت ابتسامة الفارس أكثر، وحين ترجّل أمام بشر قال:

- سيكون هذا الحصان لك، وخمسون ناقة أيضًا، إن أجبتَ طلبي!

- ومن قال إنني أريد حصانًا مثله؟! سأل بشر مرتبكًا.

- نظرة الحب لا تخفى أيها الفتى، القلب فضّاح، ألا تعرف ذلك؟

صمت بشر: وما هو طلبك؟

- قيل لي إن لك ابنة عمّ يتيمة، وأنا أريدها زوجة لي.

- تريد غزالة!!

- إذا كان هذا هو اسم الفتاة التي أتحدّث عنها!

صمت بشر، وقد أحسّ بأنه تلقى تلك الطعنة التي كان يخشاها طوال عمره.

- ماذا قلت؟ أراك سكتّ!

استجمع بشر قلبه، وتذكّر ذلك اليوم البعيد الذي أغار فيه الفرسان على مضاربهم، ولم يتركوا خلْفهم أحياء سوى الصغار.

- ليس لديّ ما أقوله، عليَّ أن أتشاور مع ابنة عمّي!

- لك هذا. أعود لك بعد يومين، أهيَ مدّةٌ كافية؟

هز بشر رأسه بحزن، وراقب الحصان يبتعد، متمنيا ألا يراه من جديد!

***

جلس بشر أمام غزالة صامتًا، سألته: هنالك ما تريد قوله يا بشر!

- هناك ما أريد قوله يا غزالة، لكن الكلام صعب على بشر!

- أنا ابنة عمّك، وليس لي سواك. قل يا بشر، وأنا منصتة، ولن يكون إلّا ما تريد.

سمعا صهيل أفراس في البعيد، وواصل بشر تردّده: قل. كيف يمكن لبشر ألا يقول ما في قلبه لي؟! إن كان الأمر متعلقًا بك، فسرُّك في بير، وإن كان متعلّقا بي، فـ...

- الأمر متعلّق بك يا غزالة. قاطعها قبل أن تتمّ جملتها. لقد جاءني فارس اليوم وتحدّث معي بشأنك، لكنني لم أستطع قول شيء له!

- كان يجب أن تتحدّث معه ما دام الأمر متعلقًا بي، ألستَ ابن عمي يا بشر؟!

- إنه يريدك زوجة يا غزالة! إنه يريدك زوجة! وقال بأن مَهْرك سيكون حصانه الأصيل وخمسين ناقة!

- وماذا قلت له؟

- قلت له: سأشاوركِ في الأمر.

- وما الذي تريده منّي؟

- رأيك يا غزالة؟

نهضت غزالة، دارت حول خبائها دورتين، دون أن يكفّ عن متابعتها، مرة بعينيه، ومرة بأذنيه.

عادت، ووقفت قربه صامتة.

- ماذا قلتِ؟ سألها بارتباك.

- يا ابن عمّي، هذه طبخة إن أكلتها أمر زين، وإن تركتها أمر زين!

- أهذا رأيك يا ابنة عمّي؟

- هذا رأيي.

***

طوال يومين، كان بشر يسير على غير هدى في تلك السهول؛ ولأول مرّة أحسّ بأنه على وشك أن يصبح أعمى:

تدور الشياه، تختفي خلف الصخور وبين الأعشاب الطويلة على ضفّة النهر، عند التقائه بالبحيرة، وتظهر من جديد. وقد كان يمكن أن تكون عرضة

لهجمات ذئاب أو نمور أو حتى دببة، من تلك التي كان يصادفها المرء بين حين وآخر في تلك الأنحاء.

***

- وإذا قلتُ لك إن مهرها حصانان كهذا الحصان، ومائة ناقة؟! سأله الفارس.

- سأقول لك ما قلته من قبل، سأستشيرها.

قفز الفارس فوق ظهر حصانه، وابتعد.

- سأعود غدًا في مثل هذا الوقت.

جمع بشر شياهه، وعاد.

من أمام خيمة غزالة مرّ، متمنيا ألا تراه، لكي يقول للفارس في الغد: إنه لم يرها! لكن ذلك لم يحدث، فقد رأته، ونادت: يا بشر.

توقّف، في الوقت الذي واصلتْ فيه الشياه طريقها نحو بيت الشيخ فوّاز.

- لديك ما تقوله يا بشر؛ قله، إنني أسمعك!

- سيهبكِ حصانين ومائة ناقة!

- وماذا قلت له؟

- ما قلتُ له في المرّة الأولى. وصمتَ، قبل أن يضيف: ما رأيك؟!

- يا ابن عمي، هذه طبخة إن أكلتها أمر زين، وإن تركتها أمر زين!

ازدادت حيرته.

حكاية عن الحب والجنون!

في آخر تلك الليلة، سمع ظاهر طرْقًا على باب الحوش، وحين نهض، وفتح باب غرفته، رأى نجمة هناك في العتمة متّجهة نحو مصدر الصوت.

- لا تفتحي الباب، أنا قادم.

وقبل أن يلحق بها ظاهر، كانت قد أشرعته.

لم يكن أمامها غير ذلك الفتى الذي كان على وشك السقوط: أنا بشر، قال لها مبدِّدًا غموض العتمة.

وسمعت صيحة الاستهجان خلفها: بشر؟! ما الذي أتى بك إلى هنا، في مثل هذا الوقت؟!

- هل ستمضي الليل في توجيه الأسئلة للضيف أمام الباب يا ظاهر؟!
- تفضل يا بشر، أعذرني، ولكن، ما الذي أتى بك في مثل هذا ....؟!
- ألم تسمعني يا ظاهر؟! متى سألنا الضيف عمّا به قبل مرور أيام ثلاثة؟!
- لكنه صاحبي يا أمي!
- إنه ضيفي الآن، كما كان ضيف أبيك رحمه الله من قبل، فلا تسأله.

***

لم يكن عليهما أن يسألاه بعد ذلك، فقد بدأ يحكي، وقد اختلط جسده بألف حمّى، ساردًا كلَّ شيء؛ كلَّ ما مرّ به وبابنة عمه، حتى آخر جملة قالتها له.

هزّت نجمة رأسها وسألته: لم تكن بحاجة لقول ذلك الكلام كلّه يا بشر كي أعرف ما يمزّق قلبك. وصمتت، تناولت عباءة أخرى وألقتها فوق جسد بشر، بشر الذي تحوّلت عيناه إلى بئري ظلام.

- سأتركك مع ظاهر، فهو يعرف حكايات كثيرة تشبه حكايتك!! وإذا لم تنفعك حكاياته يا بشر، سأقصُّ عليك غدًا بعض حكاياتي!

***

صامتين جلسا؛ شعلة القنديل تتمايل أمامهما، يحدّقان فيها، لا يعرفان شعلة أي منهما هي، في تلك الليلة.

في النهاية تكلَّم ظاهر، فأحس بشعلة القنديل تتّقد أكثر. أمل ما، بعيد، مرَّ خطفا عابرًا قلبه: إذا لم تنفعك حكايتي هذه، فلا بدّ من انتظار حكاية أمي نجمة. قال ظاهر.

تطلّع بشر نحو شفتي ظاهر، منتظرا الكلمة الأولى، كما يتطلعَ ذلك الملقى في بئر لبقعة النور في الأعلى، حالمًا أن يتدلّى منها حبل نجاته.

- سأقص عليك حكاية من زمن بعيد. هل تسمعني؟

ارتبك بشر الذي كان ساهمًا يفكِّر: أسمعك، أسمعك!

- "في قديم الزمان، حين لم يكن على الأرض أناس بعد، كانت الفضائل والرذائل تطوف العالم معًا، وتشعر بالملل الشديد! ذات يوم، وللخروج من هذا الملل، اقترح الجنون، لعبة، وأسماها الاستغماية. تعرفها، أليس كذلك؟!

أحب الجميع الفكرة، وصرخ الجنون: أريد أن أبدأ.. أريد أن أبدأ! أنا صاحب الفكرة وأنا من سيُغمض عينيه ويبدأ العدّ؛ وأنتم عليكم الاختفاء! ثم إنه اتكأ بمرفقيه على شجرة، وبدأ: واحد... اثنان.... ثلاثة... وبدأت الفضائل والرذائل بالاختباء.

الرقّة وجدت مكانا لنفسها في القمر، واخفت الخيانة نفسها في كومة الطين، واندسَّ الأمل بين الغيوم!

الكذب قال بصوت عال: سأخفي نفسي تحت الحجارة. ومضى الشّوق إلى قعر بحيرة طبرية. واستمر الجنون: تسعة وسبعون... ثمانون.... واحد وثمانون.

خلال ذلك أتمّت الفضائل والرذائل اختباءها، ماعدا الحبّ، كعادته، لم يكن صاحب قرار! وهكذا، لم يعرف أين يختفي. وهذا غير مفاجئ لأحد! فنحن نعلم كم هو صعب إخفاء الحب!

تابع الجنون: خمسة وتسعون.. ستة وتسعون.. وعندما وصل إلى مائة، قفز الحبّ داخل شجيرة ورد واختفى في داخلها! فتح الجنون عينيه، وبدأ البحث صائحا: أنا آت إليكم.. أنا آت إليكم!

كان الكسل أول من انكشف، لأنه لم يبذل أيّ جهد في إخفاء نفسه! ثم ظهرت الرقّة المختفية في القمر. وبعدها الأمل، وخرج الشوق من قاع البحيرة مقطوع النّفس!

لن أطيل عليك يا بشر! لقد وجدهم الجنون جميعًا، واحدًا بعد الآخر، ماعدا الحبّ. فكاد يصاب بالإحباط واليأس. لكن الحسد اقترب منه وهمس في أذنه: الحب مختفٍ في شجيرة الورد!

التقط الجنون شوكة كبيرة كرأس رمح، وبدأ بطعن شجيرة الورد، ولم يتوقّف إلا عندما سمع صوت بكاء يمزّق القلوب. ظهر الحب وهو يحجب عينيه بيديه، والدم يقطر من بين أصابعه، صاح الجنون نادمًا: يا الهي ماذا فعلت؟ ماذا أفعل كي أصلح غلطتي بعد أن أفقدتكَ البصر؟!

أجابه الحب: لن تستطيع إعادة النَّظر إليّ، لن تستطيع.

مرّت أيام والحزن يخيم على كلّ شيء، وذات صباح عاد الجنون وقال للحب: أريد أن أصلح غلطتي، ساعدني!

- هل أنت متأكد من ذلك، أيًّا كان ما سأطلبه منك؟!

فقال الجنون: سأفعل كلًّ ما تريد.

أطرق الحبّ، وبعد صمت طويل قال:

- كن دليلي!

- أنا؟!

- نعم أنت!

وهذا ما حصل منذ تلك الأيام: يمضي الحب في الأرض أعمى، يقوده الجنون.

فما رأيك؟"

- رأيي في ماذا؟ سأل بشر.

- حبّك واضح يا بشر رغم عماك، ولكن أين الجنون الذي يقوده؟!

- وما الذي أفعله؟!

- ما الذي تفعله؟! ألم تفهم بعد ما قالته ابنة عمّك؟ إنها تريدك أنت يا بشر.

- وما الذي يمكن أن أقوله لها؟

- اطمئن، سأقول لك كلّ شيء.

لا تبحث عن عاشق

حين أشرع ظاهر عينيه في ذلك الصباح البارد، لم يجد بشر هناك. سار نحو الباب. نظر إلى الخارج. كانت الريح قد ساقت بعيدًا كل ما في السماء من غيوم، لكن الشمس لم تكن أشرقت بعد.

سمع الفرس البيضاء تصهل.

تراجع للوراء، تناول عباءته وخرج.

كان الذّراع الخشبي الذي يُغلق الباب قد انتزع من مكانه. فَتَح الباب. حدّق في جانبي الطريق. كانت طبرية تنهض في تلك اللحظات. من بعيد يأتي صياح ديكة وأصوات غامضة لكلمات من الصّعب فهمها. سمع حوافر دابّة فاستدار، كانت امرأة تمتطي حمارًا ممسكة بربطة فِجل كبيرة أمامها.

- صباح الخير يا ظاهر! جاءه صوت نجمة من خلفه، وصوت بائعة الفجل من أمامه.

- صباح الخير.

ابتعدت بائعة الفجل بحِمْلها، فاستدار نحو نجمة.

- كأنك تبحث عن شيء.

- بل أبحث عن عزيز بات ليلته عندي، ولم أجده هذا الصباح.

- لا تبحث عن عاشق، فقبل أن يعثر على نفسه لن تستطيع العثور عليه!

تأمّلها ظاهر، فسألته: لماذا تنظر إليّ هكذا؟

- تعرفين يا أمي، سأقول لك شيئًا، وأرجو ألا تغضبي مني.

- كأنني عرفته قبل أن تقوله، لأنني أراه في عينيك.

- وما هو إذن؟!

- قلْه، وإذا كان هو، سأعترف لك بأنه ما فكرتُ فيه!

- أظن أنك بحاجة إلى عريس، ما رأيك؟

- أنا؟! ولماذا أكون بحاجة لعريس، وهل سأعيش حتى الخامسة والعشرين؟!

ضحك ظاهر، فقد كان يعرف أنها على وشك بلوغ الخامسة والثلاثين.

- لماذا تضحك؟!

- أبدا، كنت أريد أن أسألك هل هذا هو الكلام الذي توقّعتِ أن أقوله؟!

- وشو بعرِّفني، إنه هوِّ والّا مش هوِّ؟!

***

صهلت الفرس البيضاء ثانية، فسار ظاهر نحوها، مسّد عنقها، وقبّل جبهتها، فلعقتْ وجهه كعادتها.

- ستبقى صغيرها الذي لا يكبر يا ظاهر، كم من مُهر ومُهرة أنجبت حليمة؟! كثير! نسيتُهم، لكنها منذ ستة عشر عامًا تفعل الشيء ذاته معك، تصهل كلما شمّت رائحتك، وتلحس وجهك كما لو أنها ولدتكَ قبل لحظات.

أمسكت نجمة ظاهر من يده، عائدة به إلى الداخل، فصهلت حليمة: لم تزل تغار مني! بعد كل هذا العمر، لم تزل تغار مني! فما الذي ستفعله حينما تأتي صبيَّة جميلة وتأخذك منّا، أنا وهي؟!

مضت نجمة ببصرها للبعيد، لا لترى مكانا، بل زمانا لن يعود أبدًا.

***

صهلت حليمة..

في ذلك اليوم الذي وجد فيه ظاهر ركبتيه، واهتدى ليديه الصغيرتين، راح يزحف نحو مصدر الصوت، متجاوزًا البسطة الواسعة أمام البيت، في اتجاه الدّرجات التي تؤدي للباحة. نظر إلى الدّرجات، ولم يعرف ما الذي يمكن أن يفعله. امتدّت يده، وقبل أن يلمس حافة الدّرجة العليا، وجد نفسه يتدحرج إلى أسفل الدّرجات. بكى، وحين وجد ركبتيه ثانية كان التراب قد كسا جسده. فَرَكَ عينيه بظاهر يده، فاختفى وجهه خلف طبقة من التراب. حين صهلت الفرس مرّة أخرى ابتلع بكاءه. عاريا كان ، إلا من قطعة قماش قطنية بيضاء تلتفّ حول خصره ساترةً قفاه.

حرّكت الفرس رأسها إلى الأعلى والأسفل تشير إليه أن يقترب. تزايدت سرعة إقباله نحوها غير عابئ بذرات التراب والحجارة الصغيرة التي راحت تنخزّ راحتيه وساقيه.

عبر من تحت العارضة التي تغلق بوابة الإسطبل الصغير، وأمام الفرس تمامًا جلس، ينظر إلى الأعلى، إلى وجهها.

انحنتْ، وبدأت بلعق جسده، في الوقت الذي تصاعدت فيه ضحكاته.

وقف والده أمام باب الغرفة، وهنـاك رآه، نـادى بـصوت خفـيض: نجمـة، نجمة.

وحين وصلت أشار برأسه إلى الإسطبل.

اندفعتْ نجمة، تحاول إبعاده عن الفرس، لكن عمر الزيداني أمسك بيدها.

طويلا راقباها وهي تعمل باندفاع أمّ تحمّـم طفلهـا. في آخـر الأمـر، رفعـت رأسها وصهلت كما لو أنها أتمّت مهمَّتها!

تقدّم عمر ونجمة بهدوء وجلسا أرضًا على بعد أمتار منه، كان يجلس مطمئنا هناك، ولعاب الفرس يلمع فوق جسده الصغير. ابتسم له والده ودعاه أن يـأتي. ابتسمت له نجمة ودعته أن يأتي، وخلْفهما وقف سعد ويوسف وصالح، يدعونه أيضا، لكنه كان يهز رأسه ويضحك دون أن يغادر مكانه.

تقدّمت نجمة بحذر نحوه، حاول أن يفر إلى الـداخل، لكنهـا أمـسكت بـه؛ وبمجرد أن ابتعدا عن الفرس البيضاء راح يبكي متفلِّتا، يريد العودة إليها.

ومنذ ذلك اليوم، سيرون المشهد يتكرّر مرات ومرات.

الخوف وحصان الفارس الغريب

وقف بشر أمام غزالة: ومن أين لي مائة ناقة، وحصانان؟!

كان مطمئنا، فقد أحسَّ أن ظاهر هو الـذي يـتكلّم، لا هـو! أولـيس ظـاهر الذي علّمه أن يقول هذا الكلام.

- وما الذي يمكن أن أفعله بمائة ناقة وحصانين، وأنا حزينة؟!!

- وما الذي يحزنك يا ابنة عمّي؟!

- يحزنني أنك رأيت ذلك الذي جاء يخطبني، ولكنك لم تر بعد نفسك!

- وما الذي أفعله حتى أراها؟

- أن تتجرأ يا ابن عمّي فتراني.

- أنا؟!

- ومن غيرك أكثر خوفًا عليّ؟! ومن غيري أكثر خوفًا عليك؟! ألا يكفيني ما تقوله النساء شماتة، خلف ظهري، وأراه في أعينهن كلما نظرن إليّ؟!

- وما الذي يمكن أن أفعله كي أخلّصك من هذا؟

- تتزوّجني يا بن عمّي!

- لكنني لا أملك شيئا يا غزالة.

- وإذا قلت لكَ إنك ستملك كل شيء إذا ما سمعتَ كلامي!

- سأسمعه يا ابنة عمّي.

- لا أريد منك الآن سوى شيء واحد، أن تفتح بـاب خيمتـك عـلى آخـره، وسأمضي أنا وبعض الفتيات لنُحضر الحطب.

- أهذا هو رأيك يا ابنة عمّي؟

- وهل تريد مني رأيًا غير هذا يا بشر؟

***

في ذلك المساء مضى بشر إلى البرّ، وفوق صخرة عالية، جلس ينتظر.

لم يمض وقت طويل قبل أن يأتي ذلك الفارس صاحب الحصان ذي العينـين الكحيلتين.

- خبِّر يا بشر!

- ابنة عمّي لا تريد نوقًا ولا خيولا.

- أخبرني ماذا تريد، وأنا أحضره.

- ابنة عمي تريد ابن عمّها زوجًا لها.

- تريدك أنت؟!!

- تريدني أنا.

أخذ الفارس نفسًا عميقا، ثم لوى عنق حصانه. راقبه بشر يبتعد، وفجأة رآه يتوقّف ويعود. وصل، فترجّل عن الحصان. امتدّت يده إلى بندقيته، وسحبها من الخُرج بمهارة فارس ماهر، ونظر إلى عيني بشر اللتين تجمّدتا فجأة.

الحَيرة

الشيء الذي لم يستطيعوا معرفته أبدًا، هو: ما الذي يدور في عقل ظاهر؟
سأل سعد نجمة: ما الذي يدور في رأس ظاهر يا عمّتي؟!
فقالت: لا أعرف إلّا ما أعرفه عنه!
وسأل صالح، فقال: صموت كعادته، ولكني لا أعرف إن كان صمته قد ازداد أو نقص منذ أن أصبح مُتسلّمًا!
وسأل يوسف، فقال: إنه ظاهر، لن تستطيع أن تعرف ما حدث معه أمس، فكيف يمكن أن تعرف ما سيفعله في الغد؟!

- سنلتقي الليلة في بيتي. قال لهم سعد.
- وهل ستدعو ظاهر؟
- لا أعرف.

الخوف مرة أخرى

بدأت الشمس تغرب، وسرت في الفضاء أولى النسمات القارصة.

ليلة أخرى بلا غيوم، وصقيع آخر سيلفّ كل شيء.

نظرت غزالة للبعيد، انتظرته، لكنه لم يعد. انتابها خوف عليه مما قد يكون أصابه، فهو في النهاية هناك، وحيد. لكنها تذكرتْ أنه كان دائما شجاعًا؛ وأنه، لا غيره، من استطاع أن يمسك بيدها في ذلك اليوم البعيد، يوم مقْتل أهله وأهلها، والاختباء بين أعواد القصب، وحين امتدت النار لتلتهم تلك الأعواد الجافة، هو الذي أمسك بتلك القِرْبة المصنوعة من جلد الماعز، نفخها، وطلب منها أن تتشبث بها، وساعدها على أن تقطع النهر إلى الضفة الأخرى.

***

سألتها البنات عن حاجتها لكلّ هذا الحطب؛ لم تُجب، وحمدت الله أنها لم تُجب. حمدت الله لأنها كتمتْ فرحتها، وخبأتها بعيدًا، فقد كان انتشار خبر زواجها كافيًا لتبديد كل ما فكّرت فيه.

لكنه لم يعد، ودون أن تنتبه وجدت نفسها تتمتم بينها وبين نفسها:

يا ولد عمّي في البعيد هناك

جاك الصديق وإلا عدوَّك جاك

لو كان، وأنا هين، كنت أفديك

لمتِّ ها السّاعة وكنت فداك

***

غابت الشّمس..

ولوهلة، أحسّت غزالة أنها ترى الشمس لآخر مرة. غابت وأطبق الليل على الوادي من كل الجهات، ليل قاس وحاد كحجارة الصّوَّان.

– ويش تعملين يا غزالة بهالليل؟! جاءها الصوت، صوت الشيخ فوَّاز من بعيد.

– بشر، وِلد عمّي ما رجع بعد.

- ومن متى تقلقين على بشر؟!

- إنه ابن عمّي يا شيخ، وتعرف معزّته.

- أدخلي يا غزالة خيمتك، برْد هذه الليلة يختلف عن برد الليالي إلـلي فاتـت. بشر ولدنا ونخاف عليه مثل ما إنت تخـافين، وإن تـأخّر أكثـر، أنـا بنفـسي راح أخرج أدوِّر عليه.

دخلت خيمتها، لكنها تركتْ قلبها على الباب.

قنديل مطفأ ودموع حارقة

بعد ساعتين سمعت غزالة حوافر حصان؛ سقط قلبها؛ لكنها تذكَّرت أن الكلاب لم تنبح. اندفعت نحو باب الخيمة، حدّقت في العتمة، رأت حصانا يقترب بلا فارسه. لم تستطع مشاهدة جسد بشر، جسد بشر الصغير الذي كان يسير بجانب ذلك الكائن بلا خُطى!

دون أن تدري وجدت نفسها تسير نحو الحصان، تسير خطوتين وتتراجع خطوة. اقترب الحصان، وفي ظلِّ قامته العالية، رأت بشر أخيرًا.

- حصان مَن هذا يا بشر؟! هل زوَّجتني رغمًا عني يا بشر؟! ماذا قلت لك؟ ما الذي أفعله بذلك الحطب الذي هناك؟ هل أشعله وألقي بنفسي فيه؟!

***

أدرك بشر أنه ميت لا محالة، التقط أنفاسه بصعوبة، وسأل الفارس: عدتَ لخير إن شاء الله؟!

- لا يعيدني سوى الخير، هذا ما علّمني إيّاه رَبْعي.

وامتدّت يده برسن الحصان نحو بشر: هذه هدية عرْسك يا بشر، فأرجو أن تقبلها!

عقدت المفاجأة لسان بشر، عقدت جسده كلّه! مما جعل الفارس يتقدّم نحوه، ويضع الرّسن بين أصابع بشر المتيبسة. ربّتَ على كتفه، وابتعد.

راقبه بشر طويلا إلى أن اختفى، وحين سمع صهيل الحصان، تأكد أنه لم يكن يحلم. تأمل الرّسن في يده، ولم يعرف ما الذي عليه أن يفعله، وما الذي يمكن أن يقوله، هل يمتطي الحصان أم يسير إلى جانبه. سار إلى جانبه. كان الفقر الذي يرزح تحته يشدّه إلى الأسفل، ويزرع قدميه في الأرض، يُثبِّتها، ويُطبق عليها، بحيث أنه، هو الذي امتطى خيولا كثيرة، ليسقيها من ماء النهر، أو ليغسلها، لم يستطع أن يمتطي حصانا كهذا، أصبح له!

***

- هذا الحصان هدية عرْسنا يا غزالة؟

- ومن ذلك الذي يمكن أن يهدينا حصانا؟!

- ذلك الذي جاء يطلب يدك مني.

أخذت نفسًا عميقًا، ثم أفرغت صدرها من كلِّ همّ.

- رجل أصيل، ولماذا تعود ماشيًا على قدميك يا بشر وقد أصبح لديك حصان؟!

- تعرفين يا ابنة عمّي، مثلي لا يمتطي ظهر حصان وسط خيام الشّيخ فوَّاز!

- أنسيت أنك امتطيت حصان الشيخ عمر الزيداني؟! اسمع يا بشر، اسمعني جيدًا يا بشر، الآن تسير مسافة نصف ساعة عن هذه المضارب، وإذا لم تجد في نفسك القوّة للعودة فوق هذا الحصان، فستجد في نفسك القوة لكي تبتعد عنّي إلى الأبد، فأرض الله واسعة!

وقف بشر يستمع إليها. كانت غزالة قد غدت فتاة أخرى، لم يعرفْها من قبل، كانت قوية وصارمة مثل زوجة الشيخ فوَّاز وأكثر!

بصمت أشارت إلى ذلك الليل الغامض خلْفه، فاستدار ومعه استدار الحصان، وراح يسير بجانبه.

صاحت به: امتط حصانك يا بشر.

راقبته يبتعد. امتلأت عيناها بدموع حارقة، انحدرت جارفةً ما تبرعم فيها من أمل.

استدارت، سارت بصمت نحو ذلك الضوء المنبعث من خيمتها، وقبل أن تغلق الباب، رفعت رأسها وأطفأت القنديل المعلّق في عمودها، أطفأته كما لو أنها تحطِّمه!

الحرّاس وحديث الموت

قال يوسف: كانت لعبة، لعبناها ليصدِّقها ظاهر، فصدقناها نحن.

لمَّ سعد لحيته الصغيرة بين أصابعه، وقال: لعبة كانت قبل أن نلعبها، ولكنها الآن حقيقة، كلّكم سمعتم عنها، وكلكم تعرفون أنها تصدُق.

- ما دام الأمر كذلك، فلماذا نجتمع إذن؟

- نجتمع لشيء مهم. إذا كان ظاهر سيموت قبلنا، فعلينا أن نفعل كل ما لدينا، لكي نحميه. قال سعد.

- نحميه من ماذا؟ قال يوسف.

- من الموت. ردّ سعد بجفاء.

- ومن يستطيع ردّ الموت يا سعد؟ سأل يوسف.

- لا أحد يستطيع ردّ الموت. أعرف. لكن أبي ردّ الموت عن ظاهر في ذلك اليوم. أبي قال: إنه رآه يحوّم حولهم يريد اختطاف وليده، ولكنه قاتله، وهزمه!

- لكن أبي لم يستطع أن يردّ الموت عن نفسه يا سعد؟! قال صالح بأسى.

- هذه هي المسألة، أنت تستطيع ردّ الموت عمّن تحبّ، حين يحس الموتُ، ربما، بكل ذلك الحبّ الذي تكنّه لذلك الإنسان؛ لكنك لا تستطيع أن تردّه عن نفسك، لأن الموت يعرف تمامًا مذاق الأنانية!

- يبدو أنني الوحيد الذي لا يفهم ما تقولون، لأنني لم أكن يوما من تلاميذ الشيخ الحفناوي مثلكم. كان عليك يا سعد ألا تُدْخلنا في تلك اللعبة. قال صالح.

- إذا أردتم أن تعرفوا ما يحدث فعلا، فإن عليكم ألا تتركوا ظاهر وحده بعد اليوم.

- أظنه مثلنا، ويفكر بما نفكر فيه الآن. لقد أخبرني أنه اشترى سمكة حية بربع قرش، وبدل أن يعود بها إلى البيت، أعادها للماء!

- وما الذي يعنيه ذلك؟! سأل يوسف.

- إنه يفتدي نفسه. ما الذي يمكن أن يعنيه فِعْلٌ كهذا؟

- ولكن الذي يفتدي نفسه يُقدِّم أضحية، أيّ يذبح، وظاهر عمل خلاف هذا!

- لا أعرف لماذا اجتمعنا، إذا كنا سنخرج من هنا أكثر حيرة. علّق يوسف.

- ولكننا اتفقنا على أن نحمي ظاهر، أليس كذلك؟ قال صالح.

- وهل كنا بحاجة للقدوم إلى هنا لنقرر أمرًا كهذا؟! فما دمنا أخوة، سيدافع كلّ منا عن أخيه. أم أننا سنجتمع ثلاث مرات أُخر لنقرر في كل مرّة أننا سندافع عن واحد منا؟! قال يوسف.

- لسبب ما، لا أعرفه، أحسّ بأن ظاهر هو الذي سيحمينا! فكلّما تذكرت ذلك الخوف الذي انتابنا عليه بعد تهديد وزير صيدا بقطع رأسه، أكادّ أجن، وفي النهاية جاء لنا الخبر الذي لم نتخيّله! قال صالح.

- تلك نعمة الله التي أنعمها على أبينا. هل تستطيعون أن تتخيّلوا أي قلب مكسور كان يمكن أن يكون قلبه، لو أنه مات قبل أن يطمئن على ظاهر؟! لكن ذلك الأمر قد حدث وانتهى. ابتعد موتٌ، ولكن هنالك ألف موت.

صمتوا طويلا.

تأمل سعد وجهَي أخويه تحت ضوء ذلك القنديل الموجود على حافة الشباك العريضة، في الوقت الذي كانا يتأملان وجهه! وكم حيّرهم أن رؤوسهم لم تكن فوق أكتافهم بل احتلت مكانها ثلاثة قناديل بثلاث شُعل ترفّ!

الرّقص على شاطئ البحيرة

خرج يوسف وصالح. جلس سعد وحيدًا، نادته امرأته أكثر من مرّة لتناول طعام العشاء، لكنه لم يسمعها، حتى حين جاءت ووقفت بالباب على بعد خطوات منه.

أحسَّت بأنه لم يكن هناك، كان غائبا إلى ذلك الحدّ الذي لم تره ولم يرها! بصمت تراجعت.

***

في تلك الأيام كان عمر الزيداني تائهًا، يبحث عن حلٍّ لقضية ظاهر دون جدوى، فكّر في إرساله شرقًا، إلى إربد أو عجلون، ليختفي، ريثما يحلّها الحلّال. لكنه كان يعرف أيضا أن الوزير، إذا ما أتى ولم يجد ظاهر، فسيقطع رأسه هو، ورؤوس أولاده كلهم. يعرف عمر الزيداني، أن لا أحد يمكن أن يمنعه من ذلك، فلم يمض الكثير من الوقت على ما فعله بشيخ البعنة وأسرته.

تتبع أخبار قافلة الحج لحظة بلحظة، وحين لم يكن هناك من أحد يحمل أخبارها، كان يجلس ويرسم خطا على الأرض، ويكتب بجانبه التواريخ وأسماء الأماكن، مقدِّرا المسافة التي قطعتها الجردة، في تلك الرحلة التي تستمرّ خمسين يوما: اليوم وصلوا القطرانة، اليوم وصلوا الحسا، اليوم باتوا على مشارف معان...

***

سيبيع كل شيء ويحمل ما يستطيع حمله، ويفرّ بعائلته، تاركًا طبرية وما فيها. هذا ما توصّل إليه عمر الزيداني في النهاية.

وانتظر.

رسم خطا آخر وتابع مسيرة القافلة العائدة، وكلما رآها تقترب من دمشق، أحس برأس ابنه يتأرجح أكثر فأكثر بين كتفيه.

ما حيَّره، أن ظاهر لم يكن يعير اهتمامًا لذلك التّهديد، بل بدا له أنه قد نسيه تماما!

- ألا يخاف؟! ألا يدرك ما يعنيه تهديد الوزير؟!

لكن ظاهر الذي كان يحلم كل ليلة بالعيون الفارغة للشيخ حسين وعباس لم يعد يعنيه شيء.

لقد تساوى عنده الموت والانتقام!

بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك! إذ راح يرسم الخطط للذهاب إلى صيدا، والبحث عن فرصة تتيح له أن ينقضَّ على الوزير بمجرد وصوله إليها.

كانت تلك أفضل وسيلة يمكن أن يحمي بها نفسه وعائلته، ولو كان الثمن الذي سيدفعه هو: حياته!

على شاطئ البحيرة، فوق تلك الصخرة التي يحبّها، صخرته، أمسك بحجر طبشوري وفعل ما كان يفعله أبوه. رسم مسار القافلة في ذهابها وإيابها، دون أن يعرف أن أباه يفعل الشيء نفسه.

نَحَلَ عمر الزّيداني؛ وترامت الوحشة في قلب ظاهر، اتّسعت، توحَّشت، واختلط غضبه بيأسه على نحو مرير.

***

في النهاية، لم يجد عمر الزيداني أمامه من وسيلة، إلّا أن يبدأ ببيع أملاكه. لقد غدت قافلة الحجّ على أبواب دمشق. وقبل أن يبيع كلَّ شيء، جاءه الخبر الذي لم يصدِّقه: لقد تمَّ عزْل وزير صيدا!

قفز عمر الزّيداني في الهواء، لوَّح بسيفه، ضحك وبكى فوق شاطئ البحيرة، ركض نحو الماء، حتى غمره، ثم عاد إلى الشاطئ، ورقص ثانية، ألقى سيفه في الهواء وراقبه يعود وينغرس في الأرض.

وفجأة، تذكّر ظاهر.

أدرك أنه سيجده هناك، فوق تلك الصخرة.

حين اقترب، قفز عن حصانه، وتركه حرًّا. شقَّ طريقه بين أعواد القصب. نادى: ظاهر.. ظاهر!

لم يأته جواب.

اندفع أكثر. لاحت الصخرة؛ لكن ظاهر لم يكن فوقها. رغم ذلك ظلّ يركض إلى أن وصلها. راح ينظر صوب الماء: لعلّه نزل ليسبح!

لم يره، كان الماء ساكنا.

لاحت منه نظرة إلى سطح الصخرة، فرأى خطَّين، تراجع حين اكتشف أنه يقف فوقهما، وكم أدهشه أن يرى أنهما خطّا رحلة القافلة في ذهابها وإيابها، وأمام كل مدينة وقرية كان هنالك تاريخ واضح!

***

اختفى ظاهر تمامًا.

بحثوا عنه، لا أثر.

انطلق إخوته كلٌّ في اتجاه. عادوا بيأس أكبر.

ما كان يُطمئن عمر الزّيداني، أن الوزير المعزول سيفكّر الآن في ألف شيء، قبل أن يخطر بباله ظاهر. كان يعرف أن عليه أن يتحرّك بسرعة للحفاظ على أمواله وأملاكه، قبل أن يجد الوزير الجديد حجة للانقضاض عليها، وربما عليه أيضًا، فالجميع يعرفون حجم ما بينهما من عداوة وصراع على ولاية صيدا.

" ولكن أين اختفى هذا الظاهر؟!"

***

إلى البعنة وصل ظاهر متوجّها إلى صيدا. وبمجرد أن دخلها، أحسّ بشيء غريب. كان الناس يرقصون في الشوارع، كما لو أنهم في عرس؛ وغناء وزغاريد النساء تنتشر في الهواء كطيور ملونة:

راح الظّالم والظالم دايما بيروحْ
مهما اتجنّى علينا وملانا جروح
ما بننسى يوم البعنة، من ظُلْمُه نجوح
والدّم الطاهر سايل على لبوابْ

راح الظالم يا ربي.. ولا تعيده
وزِيْدُهْ يا ربي ذلّ وظَلّكْ زيْده!
حَرَمْ قلبي من قلبي وفرحة عيده
يومِ رفرفْ ع البعنة زيِّ الغراب

***

مذهولًا وقف ظاهر، عرفه الناس، فاندفعوا نحوه يعانقونه؛ وقبل أن يسأل كانوا يهنئونه بعزل الوزير.

***

أمام قبور الشيخ حسين وعائلته، في تلك المقبرة التي اتسعت فجأة، وقد فوجئت بكل ذلك الموت، وقف ظاهر؛ قرأ الفاتحة، وأغمض عينيه، وحين فتحهما وجد نفسه هناك في طبريّة!

كان وصوله كافيًا لأن يعيد لعمر الزيداني لحظة فرحه على شاطئ البحيرة، فأعادها راقصًا أمام فرس ظاهر.

ثلاثة أيام تواصلت الأفراح. ذبح عمر الزيداني نصف قطيعه من أغنام وأبقار. صبحًا وظهرًا ومساءً كانت الولائم تقام.

وفي مساء اليوم الثالث، أمسكته نجمة من يده حين عاد إلى البيت، وضغطت عليها، بعد أن أخبرها بأن الأفراح لن تتوقف قبل أسبوع: ثلاثة أيام تكفي ياشيخ لكي نهنئ أنفسنا بما حدث.

- هل تعتقدين بأن ذلك يكفي؟

- يكفي يا شيخ. يكفي.

مدن النُّور.. مدن الظلام

موت عمر الزّيداني، في منتصف ذلك الشتاء، ترك لأبنائه فسحة لكي يرتّبوا أوضاعهم. كان الصيف بعيدًا، وأول مهمات جمْع الميري لن تبدأ قبل منتصف حزيران؛ مهمتهم الأولى التي إن نجحوا فيها، نجحوا في زرع أقدامهم في أرض طبرية أعمق، وإلا فإن أول ريح ستعبر برَّ الصيف ستحملهم وتُلقي بهم بعيدًا، كما تلقي بذلك القشّ الذي يتطاير فوق البيادر.

يعرف سعد، كما يعرف كلّ واحد في طبرية، أن ريح الصيف قد تكون الأرحم، لأن وزير صيدا الجديد، كما كلّ وزير جديد، سيضرب بقوة أي محاولة تهرُّب من دفع الميري، ليفرض سطوته منذ البداية، وليُقنع الدولة أنها لم تخطئ في مسألة تعيينه!

***

قرر سعد أن يُحيي تلك الليالي البعيدة التي كان ديوان الشيخ عمر الزّيداني يمتلئ فيها بالحياة. ولم تكن هناك مناسبة أفضل من وصول الشيخ سعدون أشهر حكواتي في البلاد.

احتضنه سعد، وأخبره أنه بعث إليه رسولا حين سمع بوصوله صفد. فقال الشيخ سعدون: وهل أحتاج رسولا لآتي إلى هنا وقد علمت برحيل أبيكم رحمه الله؟

- هل وصلك الخبر. صدق من قال إن الدنيا صغيرة!

***

تعمّد ظاهر أن يكون آخر من يصل إلى ديوان أبيه تلك الليلة! كانوا كلّهم هناك: إخوته، والقاضي وإمام المسجد ومدير السجن ومعلّمه الحفناوي، والشيخ سعدون. تجاوز الباب الخارجي بفرسه، حتى وصل عتبة الديوان، وهناك ترجّل.

لم يخفَ على أحد أن ظاهر قد فكَّر في كل شيء قبل وصوله؛ كان سيف أبيه معلّقًا على خاصرته، وطبنجة أبيه ذات المقبض الخشبي المطعَّم بالعاج والنحاس

الأصفر تتدلّى من حزامه فوق بطنه وقد انفرجت عباءته الزيتونية المطرزة بخيوط برتقالية رقيقة فوق قميص قطنيّ عسليّ، أما غطاء رأسه فقد كان شالا حريريا عسليا أيضًا التفّ حول الرأس عدة مرات فوق طاقية قطنية بيضاء لا تظهر. ألقى السلام، وسار نحو الشيخ سعدون الذي يتوسّط المجلس بجانب أخيه سعد، عانقه بحرارة، ثم استدار وحيّا الرجال الجالسين إلى اليمين رافعًا يده، وحيّا أولئك الجالسين إلى اليسار. في تلك اللحظة، أدرك سعد ما يدور في عقل ظاهر، وكما لو أن يدًا خفيّة راحت تدفع سعد بعيدًا عن الشيخ، وجد سعد جسده يبتعد رغما عنه، مفسحًا لظاهر المكان، بحيث يكون الشيخ سعدون إلى يساره، وسعد إلى يمينه!

منذ تلك اللحظة، أُعيد ترتيب كل ما كان غامضًا! أحس الشيخ سعدون بذلك حين التفت إليه ظاهر وقال: كلنا آذان صاغية يا شيخ، فمن أين ستبدأ؟!

(- كان يا ما كان في قديم الزمان مدينة صغيرة تحيط بها الجبال من جهتين والسهول من جهتين، وقد كان يمكن أن تكون مثل كل المدن، لأنها تقع تماما في وسط العالم، لكن هذه المدينة كانت مختلفة عن أيّ مدينة في هذه الدنيا! اسألوني: ليش؟

- ليش؟

- لأن الناس فيها لم يكونوا قادرين على رؤية بعضهم بعضا مثل خلق الله! فلم تكن هنالك شمس تضيء نهارهم ولا نجوم تضيء ليلهم. لم يكونوا قادرين على رؤية أنفسهم وسواهم، إلّا إذا أوقدوا القناديل أو النار؛ ولذا، كانت تبدو أعينهم في الليل، وهي تدور في محاجرها لامعةً مثل حُباحِب الليل المضيئة. لكن ذلك، وكما تعرفون، أطال الله أعماركم، لا يكفي ليحيا الناس ولا لتدبَّ الحياة في مدينتهم، مثل كل المدن!

في الليل، كما في النهار، يسير الرجال والنساء والأطفال مثل الظلال، وبأيديهم يتحسسون جدران منازلهم وأبوابها، بحيث كان باستطاعة المرء أن يسمع احتكاك ظلالهم مثلما يسمع احتكاك أجنحة الخفافيش!

أما الألوان فلم تكن غير خليط غريب متداخل، لا ترى منه في النهاية سوى اللون الأسود، بحيث لم يكن للون اسم واضح يدلّ عليه. أما إذا سألتموني عن الطقس! فقد كان باردًا على الدوام، والشيء الوحيد الذي تسمعه باستمرار هو اصطكاك أسنانهم!

كان الناس يعرفون بالطبع أن الشمس موجودة، والقمر موجـود، والنجـوم موجودة، فقد كان بعض أهالي سكان مدن النُّـور يمـرّون بهـم تـائهين أحيانًـا، معتقدين أن الليل قد حلّ فجأة! دون أن يعرفوا أنهم دخلوا حـدود هـذه المدينـة المبتلاة بالظلام. لكنهم بعـد قليـل يـدركون، وقـد راحـوا يـصطدمون بالنـاس ويسمعون كلمات الاعتذار، أنهم يسيرون في بلاد فيها بشرٌ مثلهم!

كان القادمون يتحدّثون عن السماء الزرقاء والبحر الأزرق الواسع، والطيور الملونة، وشعور النساء الطويلة، الـسوداء والـشقراء، والزهـور التـي تتفتّح في الربيع، والأشجار التي تعلو والأعشاب الخـضراء الطريّـة التـي يتقلّـب عليهـا الأطفال وهم يضحكون!

قال الأمير لزوجته ذات يوم، هذا أمـر غـير عـادل، فكيـف تكـون الـشمس والنجوم والأعشاب والألوان للجميع ولا يكون لنا منها نصيب؟!

كانت الأميرة فتاة ذكية، لم تأت من بيت أمراء، بل جاءت من بيـت فلاحـين طيبين، يعرفون الحكمة التي أعرفها وتعرفونها جميعا: "من جدَّ وجـد!" فقالـت لزوجها: نحن نعيش هنا منذ سنين طويلة، ولِدنا هنا ومات آباؤنا وأمهاتنا هنـا، وانتظرنا معهم وصول الشمس لكنها لم تصل؛ ولذا، ليس أمامنـا سـوى طريـق واحد: أن نذهب للبحث عن الشمس والنجوم ونطلب منهـا أن تـأتي إلينـا كـما تأتي كلّ يوم لسوانا!

أُعجب الأمير، حيّاكم الله، بـرأي زوجتـه، وقـال: سـأعلن في المدينـة أننـي سأزوِّج أختي لذلك الذي يستطيع أن يُقنع الشمس والنجوم بأن تضيء مدينتنا.

شدّت الأميرة على يد زوجها في الظلام، بعد أن بحثت عنها طويلا، وقالت: أرجو من الله أن نجد ذلك الرجل، وأرجو من الله أن تُعجَب به أختك!

فقال الأمير: نرجو ذلك، لأننا لن نزوّجها رغما عنها حتـى مقابـل الـشمس والنجوم!

وافقت أخت الأمير في اليوم التالي على خطة أخيها، فانتشر رجاله يعلنـون في الظلام، بأصوات عالية، ما قرره الملك...

وطار الطير الله يمسيكم بالخير، غدا بإذن الله نكمل الحكاية.)

تعالت أصوات الاحتجاج: لا تتركنا مُعلَّقين في الهواء يا شيخ سعدون.

- لا تكون الحكاية حكاية إلا إذا انتظرتم بقيّتها على أحرِّ من الجمر!

تأمل الحضور وجوه بعضهم بعضا، ليتأكّدوا أنهم ليسوا من سكان تلك المدينة، وقال مدير السجن لمن بجانبه: كأنني لا أراك جيدا؟!

فرد الرجل: وكيف ستراني، وأنت الذي تحشرنا في الظلام حين تريد، وتخرجنا منه حين تريد!

ضحكوا.

وصاح ظاهر: عشاء الضيوف يا جمعة!

***

في طريق عودتهم، سار ظاهر وسعد ويوسف وصالح صامتين. من بعيد أبصروا ظلَّ الحصان المتموّج على جدار بيت أبيهم؛ كانوا بحاجة لأن يقتربوا أكثر ليروا تلك القامة الصغيرة. صاح ظاهر: بشر؟! ما الذي تفعله في هذا الليل هنا؟!

- لا تؤاخذني، لقد علمتُ من العمّة نجمة أنك في الديوان، ولكنني لم أجرؤ على الذهاب إليه.

- أنت صاحبي يا بشر، وليس هناك من هو أحقّ منك بأن يكون إلى جانبي.

تبادل الإخوة الثلاثة النظرات فأحسّ ظاهر باحتكاكها!

- حصان من هذا؟ سأل ظاهر.

- هذا حصان الفارس الذي جاءني ليتزوّج غزالة؟

تضاعفَ ثقل الظلال فوق كتفَي ظاهر، فسأل بغضب: هل بعت ابنة عمّك بحصان يا بشر؟! كيف تجرؤ على القدوم إليَّ حاملا خبرًا كهذا، بعد أن اتفقنا معا على ما يجب عليك فِعْله؟! إن استقبلتكَ أنا، فلا أظن أن نجمة ستستقبلك بعد الآن!

- لكن الأمر غير ما تفكّر فيه يا ظاهر.

- تعني أنك من سيتزوجها؟!

هزّ بشر رأسه: ولكن الحكاية ليست سهلة يا ظاهر!

- أرعبتني يا رجل وجعلت هذا الليل أكثر سواداً بكلامك الغامض!

... ...

- تفضّل.

***

لوّح لهم سعد بيده متوجّها إلى بيته، فلم يروها تماما! بحيث لم يعرفوا إن كان لوَّح بها حقا أم أنهم تخيّلوا هذا! وقبل أن يبتعد، قال: لي كلام معك غدا يا ظاهر. فبدا صوته جافا وسحيقا كحفرة في العتمة.

***

صهلت الفرس البيضاء، قبل أن يجتازوا العتبة، وبعد أن اجتازوها، أمسك ظاهر برسن حصان ضيفه، ومضى به نحو الإسطبل، ومن هناك كان صوته يأتي واضحًا كظلّه المضيء وهو يحدث حليمة: كيف أنت اليوم؟ تأخرت عليك، لا بأس، ولكن ليتك كنت هناك معي لتسمعي الحكاية، ما رأيك أن آخذك معي غدًا إلى الديوان؟!

وقف بشر يراقب المشهد، غير مصدِّق عينيه، لكن المفاجأة الأكبر كانت انحناء ظاهر وجلوسه على ركبتيه أمامها، وتقبيل قائمتها الأمامية اليُمنى.

- ما الذي فعلته هناك؟! هل قبَّلت قدم الفرس؟ أم أنني تخيلتُ ذلك؟!

- لا، أنت لم تتخيّل يا بشر، إنها أمي.

- أمك؟!

- كيف نسيت أن أخبرك ذلك؟ سأحكي لك كلَّ شيء الليلة.

***

إلى غرفتها مضى يوسف وصالح، ومضى ظاهر بضيفة إلى تلك الغرفة الواسعة ليشارك ضيفه النوم فيها كما تقتضي أصول الضيافة!

***

حين سمع ظاهر ما قاله بشر، وكيف أنه لم يجرؤ منذ أيام طويلة على العودة إلى ابنة عمّه، منذ أن طلبت منه دخول المضارب على ظهر الحصان، لا ماشيا بجانبه. صاح به، ناسيًا كل تقاليد الضيافة: ما الذي ينقصك يا بشر لتكون رجلها؟! ما الذي ينقصك؟! أنت ابن عمّها، وسواء عرفوا أو لم يعرفوا فأنا أعرف أنك شجاع وفارس يتقن فنون القتال أكثر مما يتقنه أي شخص آخر رأيته في حياتي. أولم أخترك أنا معلّمًا لي في الفروسية يا بشر؟ بعصاك، وحدها، تستطيع أن تردّ عدوك، إنسانا كان أو وحشًا، فكيف وقد أصبح لك حصان؟! نم هذه الليلة، ولكن عليك أن تعرف أنك لن تكون صاحبي، ولن تطأ عتبة بيتي، إن كسرت قلب تلك الفتاة التي تنتظرك، وأحنيتَ جبينها.

نهض ظاهر، وقبل أن يخرج، ضاربا أصول الضيافة بعرض الحائط! نفخ بكلِّ ما في صدره من قوة فأطفأ القنديل!

- القنديل الذي سترى في ضوئه العالم عليك أن تُشعله بنفسك يا بِشر!

***

على باب خيمة غزالة التي حزَّها البرد ليال طويلة، وقف بشر: لم أسمع حوافر حصانك يا بشر، أعُدتَ لي ماشيًا مرّة أخرى؟!

استدار بشر، قفز فوق الحصان، وسمعتْ وقع الحوافر يخفت ويخفت وهو يبتعد.

مضى بعيدًا، إلى أن أحسَّ بأنه قطع المسافة التي تريدها.

سمعتْ غزالة وقْع الحوافر، نهضتْ، سارت نحو باب الخيمة. كانت الشمس تشرق في تلك اللحظة، حمراء قانية خلْفه، ولوهْلة أحسّت أنه يخرج من وسط حمرتها، يُولَد، وأن عليها أن تمدَّ إليه يدها للمرّة الأخيرة، أن تكون قابِلَتَهُ ليُولد تمامًا.

***

بعد عصر ذلك اليوم، حملتْ غزالة كلّ ما تجمّع لديها من حطب؛ وضعته أمام خيمة بشر، وحين أتمّت ذلك، قالت له: هالحين تروح وتعمل كل ما وصّيتكْ تعمله!

امتدّت يدها إليه بشعلة متّقدة، وقالت: هذي نار عرسك يا بشر، شَعِّلها!

تناول المشعل من يدها، غرسه بين الأغصان؛ ثم دار نصف دورة وغرسه مرّة أخرى. ببطء راحت النار تلتهم الأغصان، إلى أن اتّقدت تمامًا.

أعاد بشر المشعل إليها، فامتدّت يدها إليه براية بيضاء، وقالت: لتُكمل ما بدأته يا بشر[1].

***

[1] - كان من عادات البدو، أن من يريد أن يخطب، يحمل راية بيضاء ويدور بها بين خيام قومه وخيام القبائل الصديقة القريبة، دليلا على أنه يدعوهم لخطبته؛ وكلما مرّ من أمام بيت، يخرج صاحب البيت ويقدّم له هدية الخطبة، شاة حينا، وحينا ناقة، وحينا حصانا، ولأنهم كانوا يعرفون كل شيء عن بشر وفقره، فقد أغدقوا عليه الكثير، كعادتهم في مساعدة المحتاج.

لم تكن الشمس قد غابت، حينما سمعت غزالة، قبل أن ترى، كلَّ تلك الضَّجة القادمة من بعيد. وشيئا فشيئا، رأت ما تمنّت أن تراه دائما: كان بشر يسوق ما جَمَعَه في اتجاهها، وقد امتلأ الجو بثغاء أغنام وصهيل خيول ورغاء جِمال.

في ذلك المساء، تصاعد الغناء، وعُقِدتْ حلقاتُ الرّقص. اشتعلتْ أبدان الجميع فتطايروا كالشَّرر، بجذل، حول تلك النار التي راحوا يطعمونها حطبًا جديدًا كلّما طلبت.

وفي قلب غزالة، أشرقت أكثر من شمس.

قنديل أكبر من شمس!

في الطرف الآخر البعيد من طبرية، كان ثمة شيء يحدث، شيء مختلف تمامًا، حيث أمضى سعد ليلته الماضية ساهرًا في الظلمة، كقطعة من فحم اتّحدت ملامحها بليل كثيف لا تلوح له نهاية!

لم يكن عليه أن يرى ذلك القنديل يخبو ويخبو أمامه مرّة أخرى، لكي يدرك ما حصل: *"لقد بدأنا اللعبة قال، لكن ظاهر مضى بها بسرعة لم يتخيّلها أحد نحو نهايتها التي يريدها! كان عليَّ أن أدرك أن ظاهر لن يقبل بلعب دور الظِّل لي، أن يكتفي بالزّحف على الأرض بجانبي وورائي حيثما تحرّكت. لقد قبل بصمت شروط اللعبة، وفرض علينا أن نقبل بصمت نتيجتها، وأمام الجميع، وبشهادة الجميع."*

لم تعد مسألة الموت تؤرّق سعد، تناساها تمامًا: *"أن يموت قبلي أو أموت قبله، أو نموت كلّنا، لا يعني شيئا أمام ما قام به. لقد قرر أن يكون هو كلّ شيء، ما دمنا حمّلناه كلّ شيء. أتكون نجمة هي من دفعته إلى ذلك؟! لا، لا يمكن أن تكون نجمة، ربما القاضي، إمام المسجد. أستاذه الحفناوي؟ ربما كلّهم قد حرّضوه!"*

أمضى سعد نهاره يلعن كلّ شيء، مدركًا أن ظاهر قد قيّد يديه تمامًا، وأنه لن يستطيع أن يفعل شيئا، لأن أيّ خلاف سيحدُث الآن، سيمزّق العائلة ويسلبها ذلك الإرث الوحيد الذي تركه أبوهم: أن يكونوا مُتسلِّمين من بعده.

***

عند المساء، كان قد أصبح على وشك الانفجار، ولم يكن ينقصه سوى وصول جمعة ليستدعيه: الشيخ ظاهر ينتظرك في البيت، ويريد أن تسيروا معًا إلى الديوان!

صرخ في وجهه: أغرب منْ أمامي، أغرب!

خرجت امرأته مذهولة، وتسمّر جمعة مرعوبًا، غير قادر على التحرّك. كانت تلك هي المرّة الأولى التي يصرخ فيها واحد من أسرة الحاج عمر الزّيدانيّ في

وجهه منذ أن وطأت قدماه ديوانهم؛ منذ أن أوقد أول نار في باحة ذلك الديوان، منذ أن قدّم إليهم أول فنجان قهوة!

أدرك سعد ذلك، وقد رأى تحوّل جمعة إلى تمثال. أخذ نفسًا عميقًا، وقال: لا تؤاخذني يا جمعة، كنت أفكر في أمر آخر، كبير، يزعجني!

بعد لحظات استطاع جمعة أن يهتدي لقدميه، فاستدار عائدا: قل له، إنني قادم بعد قليل!

***

إحساس عميق بالقهر داهم جمعة، إحساس باليُتم، فراح يبكي ويبكي طوال الطريق، دون أن ينتبه أنه يبكي. يسأله من يعرفونه: ما بك يا جمعة؟! فلا يسمعهم. يخلِّفهم وراءه حائرين ويبكي: هل مات أحد يا جمعة؟! ويواصل طريقه ويبكي. وحين وصل البيت ورآه ظاهر وسأله: ما الذي حدث يا جمعة؟! ظلّ يبكي.

هزّه ظاهر، هزّه ثانية، وعندها انتبه. سأله: لماذا تبكي يا جمعة؟!

فردَّ: أنا؟! أنا لا أبكي!

طلب منه ظاهر أن يذهب ويغسل وجهه، وحين عاد سأله: هل حدث شيء؟ هل أساء إليك أحد؟

هزّ جمعة رأسه نافيًا، وقال: سيدي سعد قادم بعد قليل!

- منذ متى تدعوه: سيدي سعد؟! في هذا البيت لم يسبق أن نوديَ أحد بهذا اللقب، أنت حرّ، مثلي ومثله، فلا أريد أن أسمعها منك ثانية.

بصمت انسحب جمعة، وحين استدار ظاهر وجد يوسف ونجمة وصالح يحدّقون فيه.

***

- من يريد أن يكون شيخًا يا ظاهر، فإن عليه أن يحسن اختيار أصدقائه.

قال سعد لظاهر، وقد أدرك أنه لا يستطيع الحديث في خطوة ظاهر التي حوّلته إلى كبير للعائلة.

- ما الذي تقصده يا سعد؟

- أقصد بشْر! إذ ليس من المعقول أن يكون الشيخ فوّاز ضيفي ويكون بشر الرّاعي ضيفكَ وصديقك!

- هل هذه هي مشكلتك يا سعد، أم أن هناك ما لا تريد أن تفصح عنه؟! يا سعد أنت أهنتَ جمعة هذا المساء. أعرف هذا، رغم أنه لم يقل كلمة واحدة عما حصل. وها أنت تهينني، بإهانتك لصاحبي. بشْر سيّد نفسه يا سعد وإن كان راعيًا، وفيه من الشجاعة والنبالة والصّدق ما يفوق نبالة وشجاعة عشرات الشيوخ والمتسلّمين والأمراء الذين يملأون هذه الأرض من طبرية إلى دمشق، ومن دمشق إلى بيروت، ومن بيروت حتى مصر. أتمنى عليك أن تنسى ما قُلتَه يا سعد، لأن ذلك يعني أنك لا تهينني وحدي بل تهين عمر الزّيدانيّ الذي عدّه واحدًا من أولاده. عمر الزيدانيّ الذي أحبه الفقراء حيًّا وبكوا عليه ميتًا. لا لشيء إلا لأنه لم يتسلّم أمر الميري ليملأ جيوبه بعرق جباههم، بل ليحفظ كرامتهم ويُبقي لهم شيئا لا تستطيع يد الدّولة سرقته منهم. كل ما أرجوه منك يا سعد أن لا تخيِّرني بين شيخك وفقيري، لأنني سأختار بشر، رغم محبتي للشيخ فوّاز!

- كنت أعني، أن عليه أن يأتي بمظهر أفضل على الأقل حين يطرق بابك!

- أنا أعرف بشر يا سعد، ولن يطول الوقت قبل أن تراه بباب بيتي على الصورة التي تتمنّى أن ترى صاحبي عليها!

***

أدرك سعد أنه لم يكن يعرف ظاهر من قبل، كما لو أنهما قد كبرا تحت سقفين تفصلهما بلاد!

كان يوسف وصالح دهشين. انعقد لساناهما. توقّف ظاهر، وواجه الثلاثة: ليس من اللائق أن ندخل الديوان بوجوه عابسة كهذه، فلهذه البلاد شمس، وستكبر أكثر وتصبح كما نريدها أن تكون!

***

حين أصبحوا على مسافة قريبة من الديوان، أبصروا حشدًا لم يروا مثله منذ زمن بعيد؛ كان الناس يملأون السّاحة ويُغلقون البوابة الخارجية. وما إن صاح جمعة، الشيخ ظاهر وصل! حتى انقسم الحشد مُسفرًا عن ممر ضيق يوصل إلى باب الدّيوان.

كلّ من حضر جهّز نفسه لليلة طويلة: عباءات ثقيلة، وأغطية للرؤوس والأعناق.

حين دخل ظاهر، متمنطقًا سيفه وطبنجته، وقف الجميع. ألقى السّلام، وقال ضاحكًا: يبدو أن طبرية كلها هنا الليلة يا شيخ سعدون! صافحه بحرارة، ثم صافح القاضي وإمام المسجد والمفتي ومدير السجن. فأفسحوا له ولإخوته مكانا للجلوس.

- تأخرت علينا يا شيخ ظاهر. قال القاضي.

- لكي أجعلكم تتشوّقون أكثر. ردّ ظاهر.

- وقد شوقتنا بما فيه الكفاية!

- ولكن من أين أتى كلّ هؤلاء الناس؟ سأل ظاهر.

- يبدو أن كل من كان هنا ليلة أمس، خرج ليحكي لأهله وأصدقائه ما سمع، فكان الذي تراه.

هزّ ظاهر رأسه، فحيّاه الشيخ سعدون وحيّا الحاضرين: لن نتركهم في البرد أكثر من هذا!

- أين وصلنا، يا سيدي القاضي أمس؟ سأل الشيخ سعدون، ليبعث الحماس فيهم.

تقاطعتْ أصوات كثيرة، تشير إلى النقطة التي توقّف عندها، وكلهم لهفة.

***

تلك الليلة، كانت الحد الفاصل والأخير بين زمنين. لكن سعد، مثل ظاهر وأخويه، لن يعرفوا أبدًا بتلك الرّيح التي سيجد ظاهر نفسه،مرتبكا وضعيفًا، في مهبِّها، بعد أسابيع!

ليلة الاثنين وعرس الأمير!

لم يكن لغزالة، يوم عرسها، أمٌّ كي تحصل على بعير صغير تعويضًا لها عن ذلك الحليب الذي أرضعته لابنتها! لم يكن لديها عمّ يأخذ عدّة جِمال لأنه وافق على تزويجها لشخص آخر غير ابنه! ولم يكن بشر مضطرا لمنح الشباب شاةً، مرضاة لهم، لأنه سيتزوّج ابنة قبيلتهم ويرحل بها لمكان بعيد! لم يكن مضطرا لشراء (هِدْم)[1] يكسو به خالها حينما يذهب لإحضار العروس من خيمتها! ولم يكن له عبد، هو الفقير، ليمنحه قروشًا لأنه سيسوق بعير العروس! ولا كلابا تحمي خيمته، فيكون لها الحقّ في الحصول على (جحش الكلاب) الذي يُقطّع ويُقدَّم تكريما لها في مناسبة كهذه!

***

انتظروا آخر ليلة يوم اثنين في نهايات شهر الخميس[2]، كانت ليلة دافئة مقمرة، يكتمل فيها البدر. وقد كان من عاداتهم أن يتزوّجوا في هذا اليوم أو يوم الجمعة لاعتقادهم أنهما ليلتان مباركتان.

في تلك الظهيرة الرائقة، سار الشيخ ظاهر وإخوته شمالا. الجو رائع، الشمس تغمر الأرض بضوء رقيق، وشقائق النعمان والأقحوان تغطي الجبال والسهول، في حين كانت الأشجار في أوج تفتّحها.

على يمينهم تمتد بحيرة طبرية. راقبوا رفوف البطّ البريّ منطلقة فوق المياه بجذل.

قال ظاهر: ليس لدي أجمل من يومين، يوم ربيع ويوم خريف!

***

---

[1] – ملابس.

[2] – يطلق البدو اسم شهر الخميس، على شهر نيسان، كما أن لديهم أسماء خاصة ببقية الشهور.

من بعيد لمح بشر ظاهر وإخوته؛ امتطى حصانه، وانطلق صوبهم. قبل أن يصل بشر، كان ظاهر قد ترجّل، وترجّل إخوته. حين عانقه بشر أحسّ بأنه لا يريد أن يتركه!

- كأنك تخشى أن تأخذك العروس من صاحبك. علّق صالح.

- ما ظنّيت؟ ليست غزالة التي تحرم زوجها من إخوته!

كانت هدية ظاهر وإخوته لبشر سيفا دمشقيّا اشتروه بألف قرش. رفعه ظاهر على راحتيه برفق وقدّمه له أمام الشيخ فوّاز، فمال بشر وهمس في أذنه: كأنكما متفقان وغزالة على هذا!

فهمس له ظاهر: زمن العصا ما راح يعود!

***

عرس أمير كان عرس بشر، فقد كانت مأساته ومأساة ابنة عمه، تربض هناك في قلوب كل من يعرفون قصّتهما؛ ولذا تحوّل الجميع إلى أهل. طاردت الخيل وتبارز الفرسان، وأطلقوا النار في الهواء ابتهاجًا؛ وحين جاء راعي الشيخ فوّاز يبشره بأن فرسه ولدت مهرة، وقف وأعلن الخبر للجميع بفرح. أما المفاجأة التي لم يتوقّعها أحد فهي: أنه أهدى المهرة لبشر!

***

هبط الليل فتفرّقوا. اختلى بشر بزوجته، بدأ بخلع ملابسه، قالت له: ما الذي تفعله يا بشر؟!

ارتبك: ما الذي أفعله؟! أريد أن أنام!

- لن تنام الليلة يا بشر!

- وما الذي يمكن أن نفعله في ليلة كهذه، غير أن ننام يا ابنة العمّ؟!

- تستريح! ليس أكثر من أن تستريح! بعد ساعات ستشرق الشمس. أريدك أن تأخذ نصف الحلال الذي قُدِّم هدية إليك، وتمضي إلى طبرية، أو إلى صفد، وتبيعه، وعند العصْرية تأخذ الشَّمس بيدك وتعود!

- وما الذي أفعله بالمال يا ابنة العمّ؟!

- تشتري بيت شَعْر بأربعة عمدان.

- وإيش بعد؟

- تشتري لوازم القهوة كلّها. أما البسط والمفارش فاتركها لي.

- ولماذا نشتري كل هذه الأشياء يا ابنة العمّ ونحن لسنا في حاجة إليها؟!

- عندما تعود سأخبرك!

***

بعد أسابيع رأت غزالة الشيخ فوَّاز خارجًا للغزو، بحثت عن بشر بين الرّجال فلم تجده. جنَّ جنونها، مسرعة توجّهت إلى خيمتها، وجدته هناك نائمًا.

هزّته، فاستيقظ.

- لم أنت نائم يا بشر؟

- وما الذي يفعله عريس لم يمض على زواجه زمن طويل؟!

- ألا تعرف ما عليك أن تفعله يا ابن العمّ؟ لقد ذهب الرّجال للغزو؟!

- وهل سبق لبشر أن ذهب للغزو أو طُلب منه أن يفعل ذلك؟!

- بشر الجديد غير بشر القديم يا ابن العمّ! ما دام لديه سيف بدل العصا، وحصان أصيل بدل الحمار، ومهرة أهداك إياها الشيخ فوَّاز بنفسه! الآن تركب حصانك وتلحقهم!

- وإذا ما طلبوا مني العودة؟

- لا تعُد يا بشر، أعرف، سيقولون لك إنك وحيد ولا أهل لك! سيقولون لك ارجع وحصَّتك ستصلك! ولكن، إياك أن تقبل. تبقى معهم، وحين يعودون لا أريد أن أراك في الخلف.

- وأين يسير بشر يا ابنة العمّ؟!

- تجعل حصانك في الصّفوف الأولى، فحصانك سبوق ولن يلحق به أحد. ولكن عليك أن تتذكّر قبل هذا: حين تسوقون الحلال المنهوب، لا تسِرْ مع العبيد.

- ومع من أسير؟!

- مع الفرسان يا ابن العمّ، مع الفرسان! أما الشيء الذي لا أريدك أن تنساه أبدًا، فهو: حين تقتربون من مضاربنا تتقدّم الجميع وتحمل رمحك بالعرض.

- وبعد ذلك؟

- ما تبقى تتركه لي يا ابن العمّ. فامض على بركة الله. ولا تنس ما قلته لك.

أجنحة العصافير ولبَنها أيضا!

حين وصل الجابي في عصر ذلك اليوم الحار من شهر تموز إلى طبرية، كان ظاهر قد أتخذ أول قراراته التي ستحدّد بداية علاقته بالدولة: لقد قرر أن يدفع كل الأموال المستحقة لها!

لم يبدُ سعد راضيًا عن قرار أخيه؛ عارضه، ووقف يوسف وصالح حائرين بين رأيين لا تنقصهما الحجج.

قال سعد: لا ضرورة لأن ندفع لهم كل ما يترتب علينا من ميري لهذا العام، لكي يظل بين يدينا مال نعتمد عليه في الأيام القادمة، فلا أحد يعرف المستقبل!

ردّ ظاهر: سأعطيهم كلَّ ما لهم. لا أريد أن تكون لهم حجة علينا، وبخاصة أن هذه هي السنة الأولى بعد رحيل الوالد.

تجادلوا ليلة كاملة، لم يتزحزح أيّ منهما عن رأيه، إلى أن سمعوا صالح يقول: لنجرّب السير مع ظاهر ونرى! فانتفض سعد، وسأل يوسف: وما رأيك يا يوسف؟ فصمت.

كانت نجمة تجلس صامتة، تسمع، لكنها تتظاهر بانشغالها في إصلاح أحد أثوابها.

حينما خرجوا، سألت ظاهر: ولماذا لم تأخذ برأي سعد؟

– لسبب واحد، لا غير، يا أمي: لا أريد أن أرى أيًّا من موظفي الدّولة وعساكرها هنا أكثر من مرّة في العام!

***

سبعة أيام طوال أمضاها جابي الضرائب في طبرية، دار واستقصى وبحث وتجوّل في الأراضي التي حصدوها. تأمل المحصول، وقلّبه، باحثًا عن ثغرة يضبطهم فيها متلبسين بإخفاء جزء منه. أطلق جواسيسه، وكانت النتيجة واحدة: هذا هو المحصول كلّه.

لم يُرضِه ذلك. طلب مالا فوق الضريبة. اختار شاة ساقها عساكره، عِجلا، جرّة عسل، وأخذ بساطا من أحد البيوت!

راقب ظاهر الأمر بصمت، وحين طلب منه سعد أن يتدخّل، قال له: دعه يفعل ما يريد، ولنساعده في ارتكاب ما شاء من أخطاء، فقد نحتاجها بعد حين!

وعندما وصل القاضي والإمام وبعض رجال طبرية صارخين مساء للديوان، لم يقل غير ما قاله لسعد!

خرجوا غاضبين.

في صبيحة اليوم الأخير سلّمه ظاهر آخر قرش من مال الميري، وبدل أن يمضي الجابي مودِّعًا، قال: أريد طعامًا كافيًا، فرحلتنا طويلة إلى صيدا!

عند ذلك أعطى ظاهر أوامره بالقبض عليه، وعلى من معه!

أحاط رجال طبرية بهم، وقد كانوا يتمنّون لحظة كهذه؛ أوثقوهم، وقادوهم إلى السجن.

حاول مدير السجن أن يعترض، فهمس ظاهر في أذنه: إذا رفضت سأسجنك معهم!

هزّ مدير السجن رأسه مُذعنًا.

- شيء واحد أريده منك: أن تكرِّمهم، وأن تقدّم لهم كل ما يريدون، حتى لو طلبوا منك لبن العصافير! انتبه: لبن العصافير؛ لا أجنحتها! لأنهم إن هربوا وضعتك مكانهم!

استدعى ظاهر في المساء مدير السجن، فجاء على عجل، سأله: كيف تسير أمور ضيوفك؟!

فقال: كما أمرتَ.

- اجلس. أمره ظاهر فجلس.

بعد قليل وصل القاضي وإمام المسجد والمفتي وسعد ويوسف وصالح، وعدد من وجوه طبرية.

- جمعتكم لشيء واحد: أريد أن نكتب رسالة إلى وزير صيدا، نُعْلمه فيها بكل ما حصل. عن دفعنا الضرائب المتأخرة كلّها، وعن صمتنا على ما قام به الجابي وعسكره، وتماديهم إلى ذلك الحدّ الذي لم نستطع معه إلا أن نحبسهم!

***

بعد ثلاثة أيام وصلت رسالة من وزير صيدا تثني على التزام ظاهر بما عليه من أموال الميري، وبما أوفى به من ضرائب متأخرة، ويعد فيها بمعاقبة الجابي على كل ما فعله.

أرسل ظاهر المال في صباح اليوم التالي، لكنه ترك الجابي ومن معه في السجن حتى العصر.

إلى السجن مضى ظاهر بنفسه، فتح بابه، وأخرجهم: نرجو أن نكون قد قمنا بالواجب، بحيث لم ينقصكم شيء!

بضيق ردّ الجابي: لم تقصِّروا!

- على أيّ حال، المال سبقكم إلى صيدا!

- وخيولنا؟

- خيولكم جاهزة، وقد أُسرجت لكم، كي لا تتأخّروا.

كان ظاهر قد ترك كل ما جمعوه لأنفسهم من حلال وأشياء في الإسطبل، وحين طلب الجابي من جنوده أن يجمعوا كلّ ذلك ويتبعوه. قال له ظاهر بحنق: قلت لكم، مال الميري أرسلناه منذ الصبح!

أدرك الجابي أن عليه أن يبتعد بأسرع ما يمكنه ذلك. نكز حصانه، وانطلق، يتبعه جنوده.

أحلامك أفعالك!

كانت الأرض تحت أقدامها تهتز، أنصتت غزالة، فأدركتْ أنهم عادوا. غادرت خيمتها ووقفت وسط الطريق الذي تتوزّع حوله الخيام. لم يطل بحثها عن بشر؛ رأته مقبلا يتقدّم الفرسان حاملا رمحه بالعرض ومرخيًا جدائله، وفي عينيه نظرة نمر.

سدّت غزالة الطريق عليهم بندائها: يا شيخنا، يا شيخنا!

كانت زغاريد النساء تملأ الفضاء، ومرح الأطفال يتطاير حول الخيول العائدة.

- ما الذي تريدينه يا غزالة؟

- جيرة الله عليكم يا شيخ فوّاز، الغداء عند بشر! وجيرة الله عليك لا تردّ طلب امرأة، فطلبها لا يُرَدّ.

لم يكن على الفرسان إلّا أن يوقفوا خيولهم ويترجّلوا.

***

بعد تناولهم طعام الغداء في خيمة بشر ذات الأعمدة الأربعة، بعد أن شربوا القهوة، بدأوا باقتسام الغنائم.

كان من عاداتهم أن يكون للذي يشارك في الحصول على الغنيمة حصّة، ومن يكون أمام الخيل حصّة، وللبيت الذي يستضيف العائدين من الغزو حصّة!

اقتسموا الغنيمة، فكان لبشر النصيب الأكبر. بشر الذي لم يُصدِّق عينيه.

منذ تلك اللحظة، أصبح بشر واحدًا من أغنياء القبيلة.

حينما تفرّق الجمْع، وهدأت الجلبة، ودخلوا ساعة القيلولة، التفتتْ غزالة إلى بشر، وقالت: أنت بحاجة الآن لقليل من النوم يا ابن العمّ.

- قليل؟! قولي كثير من النوم!

- لا يا ابن عمّي. فالذي في مكانتك الآن ليس بحاجة لنوم كثير، فأحلامه منذ اليوم أفعاله!

طريق طويل وحصان موثق!

لم يكن ظاهر مفتونًا بشيء مثلما كان مفتونا بصيد البط، لكن ساعة من الزمن يقضيها على ضفاف طبرية، كانت كافية لغسله من كلّ ما عَلِقَ به من غضب أو أحزان.

إلى هناك يمضي، كلّما وجد نفسه بحاجة لهذا؛ يأخذ حليمة، الفرس البيضاء، يربطها بسرج حصانه، وعلى مهل يسير، مراعيا أنها لم تعد قوية مثلما كانت. وبقدْر ما كانت الرّحلة رحلته، كانت رحلتها أيضًا، فما إن يصل حتى يحرِّرها من كل شيء ويتركها تعدو. كان يظن أنه يراقبها، لكنها لم تكن تحبّ أن تبتعد، كانت تحرص على أن يبقى، هناك، تحت عينيها!

يجلس في ذلك المكان الأثير، بين نخلتين باسقتين، فوق صخرة منبسطة يخمشها الموج برقة. أول ما يفعله عند الوصول، هو تفقّد الأسماك؛ يُخرج من جيبه رغيفًا كبيرا، ويقتطع منه بعضه ويلقيه في الماء.

لم يكن بحاجة للانتظار طويلا، فقد كانت بحيرة طبرية مليئة بالأسماك. تندفع سمكة في البداية، فتتبعها العشرات، وعند ذلك يُلقي بقطعة أخرى من الخبز، وفي تلك اللحظة يتغيّر المشهد، فتعلو قطعة الخبز وتهبط كما لو أنها على ظهر موجة كبيرة. يراقب ويراقب، وفي تلك اللحظات تكون الفرس البيضاء قد تسللت وأصبحت خلفه، ترى الأسماك فتصهل برفق، بحيث يمكنه القول: إنها تضحك. وحين ينتهي من ذلك، وتختفي الأسماك كلها، ولا تبقى سوى سمكة صغيرة تحوم، باحثة، دون جدوى عن قضمة واحدة على الأقل؛ سمكة لم تستطع الوصول إلى أي شيء في حمى الازدحام، يلقي بقطعة صغيرة إليها، ويراقبها تقضمها بسرعة شديدة قبل عودة السِّرب من جديد.

يراقبها تبتعد، ثم يتمدّد فوق الصخرة، محدّقًا في السماء دون حراك. تبتعد الفرس البيضاء قليلا، وتقف ساكنة تراقبه، حتى يكتفي. يعتدل، ويحدّق في امتداد البحيرة لفترة طويلة، وحين ينهض يكون قد قام بكل ما تحتاجه نفسه: الانشراح والصفاء.

على عنق الفرس يربِّت، يقبِّل جبينها، ويهمس لها: هيّا بنا.

يمتطي حصانه، فيحسّ بنفسه فوق ظهر موجة يوجهها من شاطئ إلى شاطئ، قامته سارية وعباءته شراع!

ذلك الإحساس الجميل، تبدّد فجأة، حين سمع في بيارة الليمون ذلك الصراخ المجروح الذي تطلقه امرأة.

لجم حصانه، فتوقّف فجأة. حاول أن يحدِّد مصدر الصوت؛ كان يأتيه من كلّ الجهات، نكز حصانه فدار حول نفسه، كانت الفرس البيضاء تعيق حركته، حرّر رسنها الموثق بالسّرج، واندفع باحثًا. الاستغاثة تزداد قوّة، وجرْحها يتّسع، وحيرته تتضاعف.

كان من الصعب عليه أن يشقّ بحصانه طريقًا عبر البيارة. ترجَّل. وفجأة، ضاع الصوت، سقط في بئر بلا قاع، وسمع همهمة غامضة لرجل. ركض دون أن يدري أيركض في الاتجاه الصحيح أم لا. ركض، تعثّر، أدمتْ أشواك الليمون يديه اللتين كانتا تعملان على إبعاد الأغصان، وإذا به فجأة أمام ذلك الرجل الذي يُطبق براحته على فم المرأة ويُشهر سيفه باليد الأخرى في وجه ظاهر.

أدرك الرجل أن من أمامه هو ظاهر العمر؛ بلحمه ودمه، لكنه أدرك أكثر أن فضيحته ستكون أكبر من أيّ جنون يمكن أن يقترفه! أبعد يده عن فم المرأة، وتقدَّم نحو ظاهر، فبدت المرأة عارية بثيابها الممزقة تمامًا. راحت تستر نفسها، مرتبكة: أيّ جزء ذلك الذي يمكن أن تستره قبل الآخر!

تسايفا. تطاير شررٌ من كلّ نقطة التحم عندها سيفاهما. زحفت المرأة وقبعتْ خلف شجرة ترتجف. نظرة الرّعب التي أرسلتها أطارت ما تبقى من عقل ظاهر الذي أحسّ بنفسه يُغير على الرجل غير عابئ بشيء. كان سيف الرجل يهبّ قويًّا نحو عنق ظاهر، حينما انحنى ظاهر ووجّه إليه تلك الطعنة التي نفذت من ظهره. تأرجح الرّجل. كان السيف الذي في يد ظاهر، وما تبقى في الرجل من رمق، هما ما يسنده. تأرجح. لم يعرف ظاهر ما الذي عليه أن يفعله في لحظة كتلك! مرتبكا كان. لقد قَتَلَ، دون أن يعرف إن كان عليه أن يسحب السيف أم يُبقيه في ذلك الوضع إلى الأبد.

تجمّد الزمن، تجمّدت أشجار الليمون، وتوقّف الهواء جافًا لا يدخل صدره ولا يغادره، تمامًا مثل عيون تلك المرأة التي بدا أنها ماتت وهي تحدّق في مصير غامض، معقودة القدمين واليدين، معقودة الروح!

أحسّ ظاهر بسائل لزج ينساب على يده. امتلك في نفسه الجرأة ليحدِّق؛ كان سائل لزج يميل إلى السّواد قد غمر قبضته الممسكة بقبضة السيف. استلّ السيف بسرعة، وعند ذلك رأى الرّجل يهوي أمامه، كان قد مات.

انحنى ومرَّغ يديه في التراب، مرّة مرّتين. وقف، ثم عاد ومرّغهما من جديد. وتقدّم ببطء نحو المرأة، محاذرًا أن ينظر إليها: هل دنَّس بياضك؟

هزّت رأسها نافية.

- الحمد لله. زوجة من أنت؟!

- بنت صاحب الليمون. قالت بصعوبة.

خلع عباءته، وناولها إياها وظهره لها. سار نحو جثة الرجل الملقاة هناك. وحين أحسّ بأنها قد سترتْ جسدها نظر إليها: ما اسمك؟

- هنيّة.

كانت فتاة جميلة لم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها، طويلة وذات عينين واسعتين، لولا الرعب الذي عصف بهما لاستطاع أن يعرف لونهما!

- أنت تعرفين من أنا يا هنية؟!

هزَّت رأسها تؤكد أنها تعرفه.

- لقد غضبتُ لك يا هنية، فهل تعاهدينني أنك ستكتمين سرّي؟

هزّت رأسها ثانية مؤكدة.

- أريد أن أسمعك تقولينها يا هنية!

- أعاهدك.

- فلتذهبي أنتِ الآن، لأنني سأبحث عن مكان قريب أدفنه فيه.

سارت الصبية مبتعدة، تتعثّر، راقبها إلى أن اختفت. رفع أكمام ثوبه، وشدّ غطاء رأسه حول جبهته، وتوجّه إلى الجثة الملقاة هناك. وصلها. نظر حوله، كان بمستطاعه أن يسمع خطوات الصَّبية تبتعد باتجاه المدينة. قرفص، تصفّح المكان من تحت الأشجار. انتصب، أمسك سيف الرجل وسيفه بيده اليسرى، وأطبقت أصابعه على رسغ الرّجل الميت وبدأ يجره مبتعدًا.

***

أمام الفرس البيضاء وقف يبكي، مدّت لسانها ومسحت وجهه كما لم تفعل ذلك منذ زمن طويل.

هدأت روحه قليلا. قال لها بأسى: ولكني قتلتُ!

صهلت حليمة، وسارت أمامه نحو حصانه. شدّ رسنها متوجّها إلى بيته، دون أن يدري أن طريقه، منذ اليوم، ستكون طويلة.

كان الليل أمامه بكل ليليَّته!

الطريق الجديد لراعي الأغنام

استيقظ بشر مبكرًا. سألته غزالة: ها قد استيقظت! وما الذي ستفعله الآن؟!

- أسير بالحلال إلى الوادي لأرعاها.

- ما لهذا السبب طلبت منك أن تنهض باكرا.

- وما الذي يفعله بشر يا ابنة العمّ إن لم يرع الغنم؟!

- يبحث عن راع يسرح بها.

- أنا بشر الرّاعي، يكون عنده راع! ثم إنني لا آمن على حلالي مع أحد غيري!

- بشر الذي كان، لم يعد موجودا يا ابن العمّ!

- لم يعد موجودًا؟!

- لأن بشر الجديد سيدٌ من أسياد قومه.

- أنا يا ابنة العمّ؟!

- نعم أنت يا بشر، فنسبنا أصيل، ولو لم يمت أهلنا لظلّت مكانتنا عالية. كلّ ما كان ينقصنا هو المال والحلال يا بشر. وأنت الآن غني.

- ولكنني يتيم، مثلك؟

- من لديه همّةٌ يا بشر فهمَّتُهُ أمّه وأبوه وعشيرته. لا تقلق، فأنا معك!

***

غريبًا كان كلام غزالة. فكيف لبشر أن يكون سيدًا في هذه الدنيا التي تفيض أسيادًا؟!

بحث عن راع في القبيلة، فلم يقبل أحد العمل عنده: ماذا سيقال عنّي، راع وسيدي راع؟!

لم يكن صعبًا على بشر أن يجد راعيًا في مكان آخر، أتى به، ومنحه خيمته القديمة.

- هل رأيتَ! ليس هنالك أسهل من العثور على راع! ما أريده الآن منك يا بشر أن تكرم هذا الراعي، وترعاه، وتمنحه ما لا يحصل عليه أيّ راع في القبيلة. ستعطيه عُشْر مواليد قطيعك، وتمنحه ناقة خاصة به.

- ولماذا؟ لقد عملت طوال حياتي راعيًا، ولم يمنحني أحد شيئا.

- افعل ما أقوله لك يا بشر، ولتجعل كل من رفض العمل عندك يأكل أصابعه ندمًا.

- وما الذي يفعله بشر إذا ما رعى الآخرون غنمه؟

- أقول لك!

***

كانت غزالة، قد فكرت في كل هذا من زمن بعيد، ويوما بعد يوم بَنَتْ مكانتها القادمة في عقلها، بحيث لم تر في نفسها سوى سيدة من سيدات قومها. صحيح أنها لم تنكر ما قام به الشيخ فوّاز من أجلها، لكنه كان يعرف أن تقاعسه عن القيام بواجبه، سيمسّ شرفه، هو الذي كان حليفا دائما لقبيلتها؛ ولأنه يدرك، أن تخلّفه، في ذلك اليوم البعيد، عن مدّ يد المساعدة لحليفه- كما يتهامس الناس- كان السبب في هبوب عاصفة الموت على قبيلتها.

"الأصيل لا يطلب ثمنا لأصالته، فالثمن هو ذلك الإحساس الذي منحه لنفسه لكونه أصيلا".

هكذا فكّرت غزالة.

" والأصيل هو الذي يمدّ يده ليعيد من قست عليه تقلّبات الدهر إلى مكانه الذي ينتسب إليه".

يا شيخ ظاهر، نسيتَ هذه!

أمام باب الديوان وقف ظاهر متردِّدا، كان المساء قد حلّ. رأى خيولا في الباحة، ومن بينها عرف حصان الأمير قعدان، من عرب الصقر، وقبل أن يتراجع، جاءه صوت أخيه سعد من الداخل يدعوه.

لم يعرف ظاهر ما الذي عليه أن يفعله، وما الذي يمكن أن يقوله إذا ما وجد نفسه بينهم.

تراجع، فأحسَّ سعد بأن هناك أمرًا جللا. استأذن الأميرَ قعدان وخرج.

***

تلّفت سعد حوله بذعر حين أخبره ظاهر بما حدث، وقد انتحى به جانبًا:

- إن الدم لا يختفي هارقه يا ظاهر، وإذا عرف أهل طبرية أنّا أدمينْا فيهم، فكيف يكون لنا بينهم، بعد اليوم، مقام؟! قال سعد.

- والله لو رأيتَ ما رأيتُه، لفعلتَ أكثر! أيغتصب فاسق صبيّة وأقفُ متفرّجًا عليه؟! والله لا أكون من ظَهر عمر الزّيداني لو فعلتها. ثم والله لو أنني ما قتلته، لوجدت نفسك الآن واقفا مع شخص غيري يحمل إليك خبر موتي.

- خبر موتك؟! هذا ما ينقصنا الآن! اسبقني للبيت؛ سأتبعك!

في ذلك المساء تغيّر الكثير، سار ظاهر حزينا، يجر حصانا حزينا يجر فرسا أكثر حزنا. كان يودّ أن تنشقَّ الأرض وتبتلعه.

لا يعرف كيف وصل أخيرًا إلى نجمة؛ نجمة التي ارتجف قلبها، هي التي لم تره مكسورًا هكذا من قبل. سار نحوها عدة خطوات وتجمّد. انتظرته أن يتحرّك، لم يفعل. كان يحدّق في الأرض، وبين حين وحين يحدّق في يديه كما لو أن القتيل فوقهما.

سارت نحوه متجاوزة المصطبة، قاطعة الباحة الواسعة، وقبل أن تقول شيئا احتضنته.

بكى ظاهر بصمت، ثم أبعد يديها عنه وهو يستدير، محاذرًا أن ترى دموعه:

- أعود بعد قليل. قال لها، وخرج.

***

لاحظ الأمير قعدان ومن معه، أن سعد الذي خرج، لم يكن نفسه سعد الذي عاد؛ صامتًا كان، تدور عيناه في وجهه تائهتين، لا تعثران على شيء تستقران عليه.

- لستَ سعد الذي أعرفه! قال الأمير قعدان.

- ماذا؟!

- أقول لستَ سعد الذي أعرفه.

أدرك سعد أن مشكلته لا تقلّ عن مشكلة أخيه، فأسوأ ما يمكن أن يحدث، هو أن يحسّ الأميرُ ومن معه أنهم يثقلون عليه، وأنهم في غير موضع ترحيب!

أخذ قراره: هل تسمحون لي وللأمير قعدان أن نترككم لحظات؟

تبادل الحاضرون النظرات، وهزّوا رؤوسهم، وهم أكثر حَيرة من أميرهم.

***

اتكأ سعد على فرس الأمير قعدان، فأدرك الأمير أن الحدث جلل: قل يا سعد. أنا أسمعك، ولن أتركك وحيدًا حتى لو كان السلطان عدوّك!

أعاد سعد كل ما سمعه من ظاهر، والأمير قعدان يهزّ رأسه مفكِّرًا في الأمر، وباحثًا عن حلٍّ، حتى قبل أن ينهي سعد كلامه.

- والله يا سعد، إذا ما أردتَ، فسيكون هناك عشرة آلاف خيال صباح غد ببابك، ودمي ودمهم فداك!

- ليس هذا مقصدي، ما يقتلني الآن هو أين أُخفي وجهي من أهل طبرية إذا علموا بالأمر؟!

- إذن ليس هناك إلّا ما سأقوله لك. إن مضاربنا في الجليل ليست أقلّ خصبًا من طبرية، وهواءها أعدل، وتجارتها أوسع، فامض وجهّز أهلك، وسرْ معنا الآن.

- ليس هذا بالأمر السّهل. لدينا أراض ولدينا بيوت ومصالح كثيرة، ولا نستطيع أن نترك البلد هكذا؛ فالذي لا يعرف سيعرف ما حدث، لأن الناس ستقول الكثير في أبناء عمَر الذين تركوا كل شيء وارتحلوا دون أن يودّعوا أحدًا! قال سعد.

- ليس أمامك يا سعد إلا أن تسبق ظهور الدّم، بأن تبيع كلّ أملاككم خلال ثلاثة أيام، قبل انقضاء فترة حلولنا ضيوفًا عليكم؛ وبعدها تسير معنا. وإذا

سألك الناس فقل: إننا راحلون إلى بلاد صفد مع أصدقائنا عرب الـصقر، فهـي أخصب من طبرية، وسيكون لنا فيها عمل كثير.

هزّ سعد رأسه موافقا على حلِّ الأمير، وعادا إلى الديوان.

***

وجد ظاهر نفسه، دون أن يدري، في المكان الذي دفن فيه جثة القتيـل. كـان يبكي بحرقة، فيردّد ماء البحيرة نشيجه. عوى ذئب في الجبال البعيـدة، ونبحـت كلاب. وحين عاد، وجدهم في انتظاره، نجمة وسعد ويوسف وصالح.

لم يكن أمامهم من حلٍّ سوى الرحيل.

– قال ظاهر، لنبق هنا، سأخبر الناس بما حصل، وليحكم القضاةُ والـشيوخ بيننا.

– لكننا يا ظاهر، لن نعود كما كنـا في أعـين النـاس، إذا حُكِـم لنـا أو حكـم علينا.

– نحن سادة طبرية اليوم يا خالتي، فلماذا نهرب هكذا؟! قال يوسف.

– كنتم سادتها! أما الآن فليس هنالـك مـا هـو أعـلى هامـة مـن ذلـك الـدم المسفوك. قالت نجمة.

– إذن نبقى، ولا نخبر أحدًا يا أمي!

– ولكنك لن تعود كما كنت يا ظـاهر، فكيـف ستـسير عـلى أرض أخفيـت قتيلك فيها؟! ستظل تتعثر بتلك الجثة كلما مـشيت! ويظـل قـبره يـشدّك حتـى يكسر قامتكَ فلا تعود أنت. ليس أمامنا يا ظاهر سوى ما قاله سعد وأتفق عليـه مع الأمير قعدان. قالت نجمة.

***

تجمّع الناس يودّعونهم، كان الأمير قعدان ورجاله في المقدِّمة، وخلْفهم سعد وعياله وإخوته ونجمة، وجمعة، والفرس البيضاء وبقيـة خيـولهم، وعـدة بغـال عليها ثيابهم وحاجياتهم.

حاول ظاهر أن يبدو متماسكًا ما استطاع، لكن لحظـة الـوداع نفـسها كانـت تبرر كلَّ ذلك الحزن الذي سكن الوجوه.

لوّح الجميع مودِّعين، ولوّح ظاهر وأهله.

في تلك اللحظة، انبثق وجه تلك الفتاة؛ كانت تبكي، لكن بكاءها لم يُخْفِ أيّ جمال هو جمالها. ارتجف قلب ظاهر كما لم يرتجف من قبل! أيكون الخوف؟ أم أن في الأمر شيئا آخر يحسّه لكنه لا يستطيع أن تفسيره؟!

قبل أن يبتعدوا كان أحد الفتية يجري وراءهم، وبين يديه صرّة، نادى: يا شيخ ظاهر، يا شيخ ظاهر، نسيتَ هذه! نسيتَ هذه!

توقّف ظاهر، وعاد بحصانه نحو الفتى؛ وقبل أن يصله أدرك ما قد يكون فيها؛ أدرك أن الفتاة تعيد عباءته. نظر صوب الجمْع، فلم ير منهم، هناك، سوى يد واحدة تلوّح له.

حصانان على مذود واحد!

لم تكن قد مرّت سوى بضعة أسابيع، تحوّلت خيمة بشر خلالها إلى مكان يؤمّه الضيوف من كل مكان، وشاع صيت ذلك الفتى اليتيم الذي شقَّ، وابنة عمّه اليتيمة، طريقهما نحو صدارة القبيلة.

راقب الشيخ فوّاز ذلك، بقلق، وهو يرى الضيوف يتقاطرون على بيت بشر، وكل واحد منهم يحاول البحث عن صلة نسب تربطه به.

ذات ليلة قائظة، تقدَّم الشيخ فوّاز بقامته الطويلة النحيفة من بعيد، عرفه بشر قبل أن يصل، فهبَّ مرحِّبًا به.

لم يقبل الشيخ فوّاز دعوة بشر للجلوس: إن لي معك كلامًا لا يقال في بيتك! قال له.

راقبتْ غزالة ما يحدث بصمت. كان الشيخ فوّاز، في البعيد، يتحدّث ويتحدّث، فيصل بعض أحرف كلماته إليها، لكنها لم تستطع فهم ما يدور.

- لعلهما يخططان للخروج غدًا للغزو! قالت في نفسها، وامتلأت زهوًا.

واصلت النظر إليهما، كاتمة غيظها لأن بشر لم يقل كلمة واحدة؛ فلم تكن ترى سوى رأسه يهتزّ بين حين وحين، تحت ضوء شاحب.

بعد قليل مرّا أمام خيمتها صامتين، رآها الشيخ فوّاز، لكنه واصل سيره دون أن يودِّع بشر أو يلقي عليها التّحية!

أمامها وقف بشر صامتًا، سألته: ما الذي قاله لك الشيخ فوّاز من كلام تركك بعده دون لسان يا ابن العمّ؟!

- حصانان لا يُربطان على مذود واحد!

- يريدنا أن نرحل إذن! وماذا قلت له؟

- ما جاء من أجله: لن تغيب شمس اليوم الثالث بعد هذا اليوم ونحن هنا!

- تذهب إلى طبرية إذن، عند صاحبك ظاهر العمر، وترتّب معه أمر انتقالنا؟

- سيقولون ترك بشْر البدو ليجاور الفلاحين أهل المزارع!

- لن تجد يا بشر مكانا أكثر اتساعًا من قلب الشيخ ظاهر. أما الذي يحمل عار طردك من مضاربه، فلا يملك حق معايرتك بسبب المكان الذي ستختاره، حتى لو اضطرتك الأيام لأن تعمل صياد سمك!

***

عاد بشر من طبرية أكثر حزنًا مما ذهب. فقد سقط عليه خبر مغادرة ظاهر العمر وإخوته، كالصاعقة:

- وما الذي حدث ليخرج متسلِّم البلد على هذا النحو؟! أيكون هناك من طلب منه الرحيل أيضًا؟! سألت غزالة، وأضافت: إلى أين ذهب؟

- إلى ضواحي صفد، مع عرب الصقر.

***

ضاقت الدنيا أكثر.

نداء البعيد

اختطفت قرية عرّابة البطوف قلوبهم حين رأوها، كانت قطعة من الجنّة، تحيط بها الغابات؛ وسهلها الفسيح، عامر بكل خيرات الله على الأرض.

اختاروا منزلا، واشتروه. كان واحدًا من المنازل التي تذكِّرهم بمنزلهم في طبرية وبالدّيوان معًا، فسيحًا بغرف كثيرة وإسطبل. وقبل أن ينهي أهل القرية ومن حولها ترحيبهم بهم، كان البيت قد أُشْرِعَ للضيوف. وساعدهم ما بين أيديهم من مال في أن يكونوا الأكثر كرمًا.

ذاع صيتهم، فتقاطر الناس يتقرّبون منهم، وعادت لسعد مكانته، وقد انتهت حكاية تسلّم ظاهر لطبرية تاركة المستقبل غامضًا، ومعلَّقا في أعمدة الهواء!

كان حسّ ظاهر بالذَّنب يتصاعد؛ فوراءه دم لا يستطيع أن يجزم أنه لن يكون أمامه؛ كما أنه السبب في شتات أسرته وضياع مكانتها وأملاكها هناك.

لكن سعد الذي عاد لاحتلال موقع أبيه ثانية، لم يكن سعيدًا كلما نظر إلى نفسه ووجد أن قامته لم ترتفع إلى ذلك الحدّ، إلا لأنهم خسروا موقعهم كمتسلِّمين، ولأنهم يقفون فوق مأساة ظاهر! في حين، لم تفقد ليلة القناديل تأثيرها، إذ كلما انشغل سعد بشيء آخر، مرّت أمام عينيه خطفًا، فرأى الشُّعَلَ تتأرجح وتتأرجح إلى ما لا نهاية، كأنها إصبع القدر مُشهرا في وجهه. ولو سأل إخوته لقالوا له الشيء ذاته.

***

لم يكن ظاهر قد نسيَ ذلك الوداع الأخير لأجمل بقعة رأتها عيناه؛ وفي الوقت الذي بدت فيه عرابة البطوف بديلا عادلا بجماله، ظلّت البحيرة نفسها حلمه.

أمام تلك الصُّرّة التي أوصلها إليه ذلك الغلام، كان ظاهر يختلي بنفسه ويجلس طويلا. وحينما يرفع رأسه وينظر للبعيد، لم يكن يرى سوى تلك اليد الملوِّحة له، اليد التي ستلوِّح إلى الأبد.

كان يحسّ بأن عباءة هناك في داخلها؛ لكنه لم يكن يعرف أهي عباءته التي ألقاها على عُري تلك الصبيّة، أم واحدة غيرها!

تلك الليلة، قرر أن يتجرأ ويفكّ العقدتين المحكمتين.

هل كانت يده ترتعش؟ ربما، هو نفسه لم يكن متأكدًا من ذلك.

بصعوبة فكّ العقدة الأولى. أخذ نفسًا عميقًا، وتوقّف متردِّدا: أيفكُّ الثانية أم لا؟!

في النهاية اتخذ ذلك القرار الذي أجّله أياما طويلة.

راحت أصابعه تحلّها برفق. كان يريد عباءته تلك، ولم يكن يريدها! وقبل أن يحسم أمره، كان قد رآها: إنها هي. لكن ما لم يتوقّعه هو تلك الرائحة التي هبّت وملأت صدره بعبق لم يعرفه من قبل.

حاول أن يتذكّر أيَّ رائحة تلك، لم يستطع. كانت مزيجًا غريبًا.

رفعَها برفق وتشمّمها، فأحس بشيء غريب يحدث له، أحسّ بجسده يتفلّت منه ويخرج من مخابئه. كانت الرائحة تقرع فيه أجراسًا منسيّة. قرّبها لأنفه أكثر، ثم رغما عنه، فتحها؛ وعند ذلك أحسّ بشيء ما يسقط منها، تلفّت، كانت صرَّة صغيرة ناصعة البياض. بين أن ينحني ويتناولها، أو يلبي نداء العباءة التي كانت تتدافع بين يديه للالتفاف حول جسده، ارتدى العباءة؛ وما كاد يفعل ذلك حتى أخذته سَكْرَة ما.

ما الذي يمكن أن تكون تلك الصبيَّةُ قد وضعته فيها، لتستولي عليه هكذا؟! احتار، ولو لم يكن رآها تلوّح له، لتأكّد أن هناك من أرسل العباءة ووضع فيها ما يكفي من هذه الرائحة المجنونة النّداهة التي استحوذت على كل شيء فيه، لا لشيء إلا ليقتله نشوةً!

زمن طويل مرّ قبل أن يستعيد نفسه من موجة الغياب التي أخذته للبعيد، وحينها انتبه، تذكّر تلك الصرّة البيضاء، فانحنى، ورفعَها.

كان يخشى شيئا ما، كبيرا، أكثر سطوة من العباءة وأبعد نفاذا.

تحسّسها. لم يستطع معرفة ما يمكن أن يكون فيها. كانت أصابعه تصعد وتهبط في ذلك الشيء الملتفّ في الداخل على شكل حلقات.

أنزل الصرّة برفق، وجلس يحدِّق فيها.

ما الذي يمكن أن ترسله، أكثر من عباءته؟! ما الذي يمكن أن ترسله أكثر من تلك الرائحة، التي سيتذكّرها إلى آخر أيام حياته؟!

لم يكن ظاهر من أولئك الذين ينتظرون إلى الأبد. مباغِتًا عقلَه قبل أن يفكر! أخذت أصابعه تعمل، وقبل أن يفتح الصرّة كانت الرائحة قد انبثقت ثانية كنافورة ورشقته بسحرها.

بين يديه وجد جديلة سوداء كالليل!

فرَدَها، فامتدَّت بطول ذراع، سميكة، ومُحْكَمَةَ الجَدْل.

عادت الرّائحة تهبّ من جديد، عادت تهزّه وتحتضنه، تُقصيه وتُدْنيه، تُذكِّره وتُنسيه. "*أتكون قد ذهبت إلى البحيرة، في تلك الليلة المقمرة التي سبقت رحيلهم؟! أتكون قد سبقت (خميس البنات)* [1]*، وقطفت ما استطاعت يدها الوصول إليه من أزهار الليمون وسواها، وذهبت إلى الشاطئ ونثرت الأزهار في الماء وانتظرت إلى أن تشبّعت المياه والأزهار بضوء النجوم، ثم غسلت شعرها في ذلك كله، غسلته بالسماء والأرض والبحر، وأرسلتْ ما أرسلته؟!*"

نهض على عجل، تجاوز ساحة البيت وانطلق على ظهر حصانه.

تأمّلته الفرس البيضاء وصهلتْ، لم يسمعها. صهلتْ ثانية، فلم يسمعها. ابتعد.

تقدمت نجمة منها وحلّت رسنها وهي تربّت على عنقها.

قبل أن يبدأ انحداره الأخير إلى طبرية، هُيئ إليه أنه يسمع صهيلها يعلو ويعلو.

كان آخر شيء يمكن أن يفعله هو أن ينظر خلْفه، لكنه، رغما عنه التفتَ، فإذا بها تعدو وراءه.

في تلك اللحظة توقّف. بقي في مكانه مسمّرًا، إلى أن وصلته وراحت تحكّ رأسها المبتل بعرق كثيف بساقه.

نظر إلى البعيد فرأى ضبابا ناعمًا يُغطي البحيرة.

ودَّ لو يتقدَّم خطوة أخرى. ودَّ لو يستطيع أن يحمله حصانه رغما عنه إلى هناك.

لكنه عاد.

حين وصل، كانت نجمة تقف على بوابة البيت، كانت تنتظره.

دخل، وخلفه الفرس البيضاء، ربّتت على عنقها، وكأنها تقول لها: شكرًا!

---

[1] – هو في الأصل طقس سنويّ تقوم به الفتيات غير المتزوجات على شاطئ البحيرة، اعتقادا منهن أن ذلك يزيد من فرص الزواج، حين يغسلن شعرهن بالماء المُنَجَّم.

ابتسامة واسعة كنهار قصير

انتظرت نجمة أن يأتيها ظاهر ويخبرها عما يدور فيه.

لم يأت.

وانتظرت..

كان يطوف حول نفسه كمجنون يريد أن يعضّ حلمة أذنه، فلا يعضّ سوى هواء يابس وأمل مستحيل!

أخرج الجديلة، ثم أعادها من جديد برفق. تحسّسها، مسّدها، وجلس محدِّقا فيها.

"لقد كانت الفرس البيضاء على حقّ، فذلك مكان لا يمكن أن تعود إليه يا ظاهر، ذلك مكان محَرّم، لا يستطيع الجَمال فيه أن يمحو آثار الدّم. لا تذهب إلى هناك يا ظاهر، لا تذهب، لا تقترب مرّة أخرى من دم أرقته، ولا تَعد لذلك الجمال في ساحة الجريمة، فقد يكون الدّم أقوى، فيمحو الجمال ويمحوك معه أيضا..

لا تقترب أكثر مما اقتربت، لئلا تحترق بدم لن يرضى بأن تغلبه ثانية، باختطاف ما أراده مرّة أخرى!"

أصوته ذلك أم صوت نجمة يوبِّخه، وينهاه، يردعه ويعيده إلى نفسه من جديد؟!

"تعرف يا ظاهر أنها نذرتْ نفسها لك، حينما قصَّت جديلتها وأرسلتها لتتبعك. إنها تعاهدك، وتهبك حياتها. إنها لم تقسم على ذلك وهي تضع يدها على جديلتها وهي تحدّق فيك، كما يمكن أن تُقسم أيّ امرأة هنا! لا، كان قسَمها أبعد من ذلك، قَسَمٌ لا يتكرّر كثيرًا على هذه الأرض؛ تعرف ذلك يا ظاهر، ولكنك ستجد الدم بين يديك كلما عانقتها، وكلما أبحرتَ فيها سيغرقك. فكِّر في ذلك جيدًا يا ظاهر، لقد منحتَها حياة جديدة، حياة تواصل بها حياتها التي مرّت، طاهرة كما كانتْ، وسيّدة لعفّتها كما كانت. لوِّحْ لها من هنا يا ظاهر، وقل

لها بصوت عال: إن حِملا كهذا لا يستطيع حتى الحب أن يحمله أكثر من لحظة عابرة في حلم عابر!"

***

كانت نجمة تقف هناك، على حافة علِّيتها، وكأنها تعرف ما يدور.

مرّ ظاهر. ألقت نظرة عليه في الأسفل، فرأته: ظاهر الصغير القصير الذي لم يتجاوز، بعدُ، سنواته الستّ الأولى. تنهّدت.

طرَقَ ظاهر باب سعد قبيل الفجر؛ طرقه بشدّة، انتفض سعد مذعورًا، لا يفكر إلا بشيء واحد لا غير: أن أصحاب الدّم وصلوا!

دفع امرأته التي كانت ترتجف برفق، بعيدًا إلى الزاوية. استلَّ طبنجته، وراح يعبئها تحت شحوب القنديل على عجل، ولما تأكد من أنها أصبحت جاهزة، صاح: مَن؟

وقف، فتمايلت شعلة القنديل وتراقص ظلّه فوق الحائط.

تواصل الطَّرْق بشدة أقوى.

صاح: من؟

تقدَّم من الباب حذِرًا. أمسك بمقبض سيفه المعلَّق على الجدار، واستلّه، فأصدر صريرًا حادًّا، كما لو أنه اجتزَّ عنق الليل!

بسرعة أشرع الباب، وهو يصوِّب الطبنجة بثبات نحو ذلك الجسد؛ على وشك أن يطلق النار. وقبل أن يصيح ظاهر: ما بك؟! هذا أنا! كان سعد قد عرفه.

أخذ سعد نفسًا، وصاح، دون أن يستدير، ليسمع امرأته: هذا ظاهر، هذا ظاهر لا تقلقي!

كانت نجمة تواصل وقوفها هناك في الأعلى تراقب ما يدور.

وحين قال ظاهر تلك الجملة التي كانت تنتظرها: "أريد الذّهاب مع أول قافلة إلى دمشق."

- ولِمَ لا تذهب إلى دمشق؟ لِمَ لمْ تذهب إليها أصلا حتى الآن؟! قال له سعد.

فأضاءت ابتسامة نجمة العِلّية كنهار قصير! استدارتْ متوجِّهة إلى الدّاخل.

فجأة خطفها النّعاس، وحطّتْ على جفنيها ملائكةُ النّوم!

الأسرار الصغيرة لرئيس القافلة!

من بعيد رأوا دمشق، كانوا يحاولون الوصول إليها قبل مغيب الشمس، قبل أن تغلق أبوابها.

كان الجبل الكبير خلْفها مثل مارد عظيم يحمي ظهرها، ويشير إليها بيده نحو نقطة ما في الجنوب!

خفق قلب ظاهر بشدّة، وراحوا يهنئون بعضهم بعضا بالسلامة.

***

قائد القافلة الذي كان صديقا للزّيادنة، ولعمر الزيداني بشكل خاص. أمسك بيد ظاهر وقال له: سأريك ما لم تره من قبل!

كان سعد قد أوصاه: ظاهر أمانة في عنقك!

صحيح أن ليلة القناديل راحت تفقد بعض تأثيرها، لكن شيئا غريبًا ظلّ منها هناك في قلب سعد، هو ذلك الخوف الغريزي من الغامض: ماذا لو صدقت القناديل؟!

لم يكن سعد يشكّ في حرص رئيس القافلة على أخيه، لكنه رغم ذلك، أحبّ أن يطمئن أكثر؛ فذكّره بأن عليه أن يأخذ الطبنجة والسيف. فرغم كل ما حدث، لم يستطع أحد إخوته، وسعد أولهم، المطالبة بإعادة سيف والدهم. كما لو أنهم سلّموا، بأن ذلك السيف قد وجد مكانه النهائيّ في يد ظاهر.

***

لم تعترضهم أيّ صعوبات تُكَدِّر مسار الرّحلة، ساروا شمالا، إلى أن أصبحت صفد ببيوتها المتدرّجة وقلعتها العالية، إلى يمينهم؛ ثم انعطفوا شرقًا عبر واد يمكن أن يسمّى وادي التين، لكثرة أشجار التين فيه. في الأعلى كانت هناك بقايا قلعة صليبية وأسوار وتحصينات تقبع وحيدة في صمتها. وحين راحت القافلة تصعد، كان باستطاعتهم أن يروا ذلك الامتداد الفسيح إلى ما لا نهاية.

أمضوا ليلة كاملة، حتي عصر اليوم التالي، في خان يقع على أحد التلال، خان ضخم أشبه بقلعة، له ثمانية أبراج؛ يستطيع كلّ من يصعدها أن يرى ما لا يستطيع تخيّله في الأسفل، ويحسّ بنفسه قد تحوّل إلى طائر.

أمسك رئيس القافلة بيد ظاهر وراح يمضي به من برج إلى برج. تأمّل السفوح المجاورة للخان، السفوح المغطاة بأشجار البلوط والبُطم والخروب، وهاله بُعْدُه عن الأرض.

- لا تنظر إلى الأسفل، أنظر إلى هناك. ورسمتْ سبابةُ رئيس القافلة خطًا واسعًا أحاط بنصف الأفق.

وقفا صامتين. وبين حين وآخر كان رئيس القافلة يسترق النظر إلى وجه ظاهر الذي كسته أحاسيس متداخلة غريبة.

- أكل هذه البلاد بلادنا؟! سأله ظاهر.

- أنت تعرف أن كل هذه البلاد بلادنا، ولكن لماذا تسأل؟

- منذ مذبحة البعنة وأنا أسأل نفسي هذا السؤال! فكلّما فتحت عيني أجد وجه الشيخ حسين أمامي، وكلما أغلقتهما وجدت وجه ولده عباس.

- رحمهما الله.

***

كان من الصعب على الناس أن يتحرّكوا إلا مع القوافل، أو تحت حماية شيوخ البدو الذي يرسلون رجالهم حرسًا للعابرين والحجاج، ويتقاضون أجورًا مقابل تلك الحماية. ولذلك، يدرك كلّ مسافر، أن روحه ستكون مهددة، إن لم يملأ حزامه بالمال الكافي لإرضاء القبائل التي تُسلِّمهم الواحدة منها للأخرى. كانت الرّحلة بحاجة لمال الحماية ومال تكاليفها؛ وعلى المسافر أن يُحضِّر، هذا كله، قبل صيحة المنادي الذي يعلن بدء المسير. ورغم أن أفضل السفر كان مع قافلة، إلا أن القوافل كانت تتعرّض بين حين وآخر إلى هجمات ماحقة، لسلب ما تحمله، عندما يرى البدو في أوقات الشدّة، أن ما تحمله القوافل أهم بكثير من القروش التي ستُدفع لهم!

***

من عدة قاعات ومخازن كان الخان مكونًا، وفي وسطه نبع ماء، يتجمّع في بركة كبيرة محاطة بحجارة صلبة، ومبنية بإتقان؛ كما يضم غرفا لإقامة المسافرين؛

وفيه يستطيع الإنسان أن يرى التّجار السوريين: صغارهم وكبارهم، وهم يتقاطرون ليلة الاثنين.

كان رئيس القافلة قد حدّد مسار رحلته بدقّة بحيث يكون وصولهم إلى الخان مساء الأحد؛ ويمضون نهار الاثنين في بيع بضائعهم، التي جلبوها معهم، من قطن وصابون، وقمح وسمسم، وجرار عسل.

آلاف الناس كانوا يلتقون هناك.

في تلك الليلة، رأى ظاهر وجهًا آخر لرئيس القافلة، ذلك الرّجل القويّ الذي يسير إلى مشارف السبعين من عمره بقامة مشدودة وعينين حادّتين، ولحية سوداء لم يستطع الشيب غزوها. كان رجلا محبًّا للغناء والرّقص. ولم يكن صعبًا على ظاهر أن يفهم، أن ذهاب القائد إلى غرفته وعودته منها، كان لشيء واحد فقط: أن يتجرّع بعض الخمر الذي يحمله معه!

امتدّت السهرة، التي تتوسّطها نار عالية إلى ساعات متأخرة من الليل. وحين انفضّ السَّاهرون، ظلَّ صدى الضحكات يدور في المكان ويملؤه بهجة.

راقب ظاهر النار إلى أن انطفأت.

ذهب لينام.

***

فُتحتْ أبواب الخان صباحًا، فتدفَّق تجار المنطقة الصغار وسكانها. كل يحمل ما لديه من بضاعة ليبيعها. وصل أناس يقودون خيولهم ومواشيهم، ونساء يقدن الحمير التي تحمل سلال البيض والدّجاج المعلّق من أرجله وقد كفَّ عن الحركة.

وصل بائعو الزّبيب والتين والتفاح والليمون والعنب الأحمر، وصاح باعة الخواتم والأقراط وخياطو الملابس الجاهزة والاسكافيون وتجار الأقمشة والسّراجون والبياطرة، كل يدعو الناس إليه.

لم يكن ظاهر قد رأى سوقًا كهذا من قبل، سوقا يعج بالحياة والبهجة والضحكات والمفاوضات الطويلة حول سعر حمار أو غزال أو نمر صغير، أو سعر ذراع القماش الحريري القادم من الهند.

نهقت الحمير وصهلت الجياد ونبحت الكلاب وقوقأ الدجاج؛ ودون أن يدري، مرّ الوقت، وبدأ الناس بجمع أغراضهم ومغادرة الخان، لكي يضمنوا الوصول إلى بيوتهم قبل مغيب الشمس.

الليل والقناديل

أمام بوابة دمشق، صافح رئيس القافلة ظاهر، واتفقا على أن يلتقيا بعد سبعة أيام في المكان نفسه. وقبل أن يبتعد، تبعه صوت الرئيس: انتظر.

أوقف ظاهر حصانه، واستدار متوجِّها إليه: نسيتُ أن أخبرك. إن أول شيء عليك أن تفعله الآن هو أن تشتري قنديلا! فبعد قليل ستعتم الدنيا. أشعله، وأحرص ألا ينطفئ، وإلا ستجد نفسك في مشاكل أنت في غنى عنها!

- أيّ مشاكل؟! سأل ظاهر.

- لقد كثُرت السّرقات والتّعدّي على أملاك الناس، بل وقتلهم، في هذه الفترة؛ لذا، أصدر وزير دمشق فرمانا، باعتبار كل من يسير بلا قنديل خارجًا على القانون، ولصا يتصيّد فريسته في الظلام! في المرّة الماضية عانيت الكثير، حين خرجتُ ليلا وأنا لا أعرف بأمر هذا الفرمان، ولولا أن القاضي صاحبي وكذلك شيخ التجار، لتعفّنت في السّجن قبل أن أخرج! فانتبه، أنت في دمشق الآن، لا في طبرية!

***

كانت دمشق عالما آخر، عالما يضجّ بالحركة، جنود يقلّبون وجوه المارّة بحثًا عن صيد. نساء بألبستهن الملونة. فتيات بوجوههن الجميلة، الفتيات اللواتي سيعرف الكثير عنهنّ، وعن إصرارهن على حقّهن في السّفور ورفضهنّ ارتداء الحجاب كأمهاتهن!

اشترى قنديلا، وسار يجر حصانه باحثًا عن بيت الشيخ عبد الغفار الشُّويكي.

لم يكن الوصول إلى بيته صعبًا؛ فمن لا يعرف الشويكي وهو أحد أشهر علماء دمشق؟!

بين أن يذهب أو يتأخَّر قليلا ليشاهد أكثر، أخذه سحر المدينة، وفاجأته دعوات بنات الليل اللواتي صبغن وجوههن ووقفن في الشوارع بثيابهن الملونة الرّقيقة وهنّ يُغرين المارة من الشباب والرجال.

كان الجنود يمرّون بهنَّ، ويمازحـوهنَّ، أمـا الـشيوخ فيـشيحون بوجـوههم عنهنَّ، وهم يستعيذون بالله.

مذهولا كان يسير، كما لو أنه يسير في حلم، إلى أن أيقظته واحدة مـنهن بيـد تُربِّت على كتفه: ما دمتَ اشتريت قنـديلا أيهـا الجميـل، فـإن عليـك أن تـضيئه لتتمكن من رؤية حُسنك وتتمكن من رؤية حُسننا أكثر!

ارتبك؛ تركَها خلفه، ومال إلى بقالة تبيـع التّوابـل، وطلـب مـن الرّجـل أن يشعل له قنديله.

سحب الرجل عودًا خشبيًّا، وأشعله من قنديله المضاء، وناوله لظاهر.

"إيه يا دمشق، مَن لم يرك، لم ير من الدنيا شيئًا!"

لم يكن قد أنهى جملته، حين سمع صفيرًا قويًّا يأتي من الأعلى، وكتلة ضـخمة ترتطم بالشارع أمامه؛ جفل حـصانه وتراجـع خطـوتين بفـزع. صـاح النـاس، وتدافعوا باتجاهه: كان يحدّق مذهولا في الجثة التي أمامه، وقـد انبثـق الـدّم مـن عينيها وأذنيها، وانفلقتْ جمجمتُها نصفين!

- لقد ألقى بنفسه من فوق المئذنة! سمع من يصرخ ويولول.

كانت ذبالة قنديل ظاهر تهتزّ، وكم تمنى أن تنطفئ لكي لا يرى ما يراه.

كل الأشياء التي لا تراها إلا في دمشق!

وقف ظاهر أمامها مرتبكا، سمع صوتًا يقول له: "هذه نفيسة التي حدَّثتكَ عنها." كانت أجمل فتاة يراها حتى تلك اللحظة، فتاة لم يعتقد أن مثلها يمكن أن يوجد على ظهر الأرض.

كان عليه ألا يُلقي أكثر من نظرة، لكن عينيه تسمّرتا عليها. كان يمكن أن يتوقّع أي شيء، إلا أن يجد روحه هكذا، ودفعة واحدة، في مهبِّ هذا الجمال.

"كيف استطعت أن أعيش ما مرّ من حياتي بعيدًا عن هذا الوجه المضيء والعينين الخضراوين الواسعتين والقامة الطويلة الرهيف كشجرة حور"؟!

كان يريد أن يقول: موافق. كان يريد أن يصرخ: موافق! وأكثر من موافق! وأنا على استعداد لتقديم كلّ ما تطلبونه!

لكنه كان يعرف أن الموقف يُملي عليه أن يُرسل إلى أخيه سعد طالبًا إذْنه.

***

لم يكن باستطاعة أحد أن يعرف ما ينتظر ظاهر في دمشق. هل تكون نجمة قد عرفت؟ ألم تكن الأكثر سعادة وهي تدفعه بعيدًا عنها حين عانقته مودِّعة: اذهبْ، فدمشق في انتظارك! كلّ دمشق في انتظارك! أجمل ما فيها في انتظارك!

صهلت المهرة البيضاء التي بدأت الأيام تنهش جسدها بشراسة تفوق شراسة أيّ ذئب، صهلت بخفوت؛ وقالت له نجمة قبل أن يبتعد: عد لحليمة بهدية تستحقّها، فهي بحاجة إلى هذا، وأنا أيضًا!

***

أمام بوابة دمشق كان ينتظر وصول القافلة العائدة إلى عرّابة.

راقب السرّاجين المكلَّفين بإشعال القناديل وإطفائها يعملون، وقد بدأت أولى خيوط الضّوء بالانتشار، وراح الناس يتجمّعون بباب دمشق لبيع حاجياتهم، ووداع أهلهم وأصدقائهم. رأى كُتّاب الرّسائل، الذين يجدهم المرء دائما أمام بوابات المدن، يعدّون العدّة ليوم عمل طويل، يخرجون دُوِيَّ الحبر المصنوعة من قرون الحيوانات، ويضعونها فوق ألواح الطاولات الخشبية

الصغيرة، بإقدامها القصيرة؛ ثم يبدأون بقصّ أوراقهم بالأحجام التي يحتاجونها، حسب خبرتهم الطويلة. وبسكاكينهم الحادة يسوّون رؤوس أعواد القصب ويضعونها جنبا إلى جنب؛ فلا أحد يستطيع أن يعرف في أيّ لحظة ستفاجئه القصبة بانكسار رأسها.

عنوانا للمَنَعة وقوّة المدينة، كانت بوابة دمشق العالية في عينيّ الوزير، كما في عينيّ الخباز والسرّاج، وصانع الحلوى وصانع السيوف.

بدأت الشّمس تشقّ طريقها وسط غلالة الغبش، وتصعد. نظر ظاهر إلى داخل البوابة، فرأى البشر يتدفّقون في الشوارع، لكنه لم ير لا رئيس القافلة، ولا القافلة نفسها.

"قد يكون أمضى ليلته الأخيرة في خان، مع واحدة من تلك الفتيات، فهو كما يبدو في صحة جيدة!"

لقد أوحى له رئيس القافلة بذلك في الطريق، وقالها بصراحة بعد ذلك: *"باستطاعتك أن تخلع ثيابك في دمشق وترقص على هواك، دون أن يستنكر أحد ذلك. ولولا غضب سعد لما تركتك تنزل في ضيافة شيخ! أيّ معنى ذلك الذي سيبقى لدمشق، بالنسبة لشاب مثلك، إذا أغفى في بيت عِلم واستيقظ في بيت علم، ولا يعود حاملا من ذكريات الشام سوى العِلم"؟!* امتدت يده إلى كيس صغير في جيبه، أخرجه، حفَنَ بعض ما فيه، وبسط راحته أمام ظاهر: خذ، هذا سيفيدك كثيرًا إذا ما غيّرت رأيك!

أكل ظاهر خليط اللوز والجوز والزّبيب، وضحك من كلّ قلبه، حين رأى رئيس القافلة يصهل كما لو أنه تحوّل إلى حصان: أنا قادم إليكِ يا دمشق!

ثم التفت إلى ظاهر وقال: أترى جرّة العسل تلك؟

هزّ ظاهر رأسه.

- لم يسبق لي أن دخلت الشّام دون أن تكون معي!

***

تأخر رئيس القافلة؛ وفي الوقت الذي كان فيه ظاهر يبحث عنه بعينيه، كان الناس يبحثون عنه بأسئلتهم القلقة.

في النهاية أطلَّ مزهوًّا يسير بين فاتنتين جاءتا لوداعه؛ لكنه وقد أبصر الناس هناك ينتظرون، ناول كل واحدة منهما بعض المال، فاستدارتا مبتعدتين، لكنه لحقهما مُطلقا حمحمة فحْل، ففرتا ضاحكتين. وقبل أن يصل البوابة، راح يعطي

الأوامر، وقد تحوّل فجأة إلى رجل آخر، جادًّا وصارمًا، مثل قائد ذاهب للحرب.

حين انتهى من ترتيب ذلك كلّه، توجّه إلى ظاهر، صافحه بحرارة، وقال له: أخبارك وصلتني!

- كيف يمكن أن تصلك أخباري ونحن لم نلتق؟!

- يا ظاهر! ليس هناك من عين يمكن أن ترى بها أسرار كبار الشام أفضل من عين فتاة حسناء، فهمت؟!

- فهمت.

- على أيّ حال، أعطني الرّسالة.

- وكيف عرفت بوجود رسالة؟!

- يا ظاهر، يا حبيب، ويا ابن أخي الحبيب. لقد أمضيتُ عمري بين المدن مسافرًا، بحيث لم تعد تخفى عليَّ ملامح القادِم من المغادِر، من المودِّع من المستقبِل!

ناوله الرسالة. فوضعها في صدره: أتحبّ أن تقول لسعد شيئا خجلتَ من أن تقوله في الرّسالة؟!

تردّد ظاهر قليلا، ثم قال: قلْ له ألا يتأخّر في ردّ الجوَاب!

- أنت عاشق يا بنيّ! فسبحان ربي، الذي يُعمِّر القلوب بالحِسان كما يعمر الأرض بالبشر، والنهار بالشمس، والليل بالقمر والنجوم!

عانقه.

وثانية، تغيّرت ملامح رئيس القافلة، وقد عاد لإصدار أوامره.

***

راقبه ظاهر يبتعد، وحين لاحت منه نظرة لكاتب الرسائل، رأى امرأة تُخفي ثلاثة أرباع وجهها بغطاء رأسها، تُملي عليه رسالتها، وتستحثّه أن يسرع أكثر، وقد سمعت المنادي ينادي: إلى حلب بعون الله، إلى حلب بعون الله!

أحوال القلب

اختلى الشريف محمد الحسيني، بالشيخ عبد الغفار الشويكي، وسأله عن ضيفه الذي أُقيمت له تلك الوليمة الكبيرة بحضور عدد من وجوه المدينة.

أخبره الشويكي بكل ما يعرفه عن ظاهر، وعن لقائه الأول به في طبرية، حدّثه عن فطنته وذكاء قلبه، واختتم ذلك بقوله: والله، إنني لما رأيته تمنيت أن يكون ابني، ولم يغب عن بالي منذ ذلك الزمان سوى أيام قليلة؛ وحينما التقيته هذه الأيام تأكد لي إحساسي القديم. ولكن لماذا تسألني عنه كل هذه الأسئلة؟!

- لأنني أحبّ أن أعرف كلَّ شيء عن ذلك الذي سأخطبه لابنتي!

- لابنتك أنت؟!

نعم، لابنتي! فكما ترى، الوقت هو الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن يجلس في انتظارنا على العتبة، إذا ما تأخّرنا! فما رأيك؟

- لو كانت لي ابنة لسبقتكَ وزوّجته إياها.

- ولكن أنت تعرف، من الصعب عليّ كأب أن أفاتحه في الأمر؟!

- لا عليك، سأتقصّى أحوال قلبه.

***

وجهٌ واحد أطلّ وملأ عيني ظاهر، هو وجه تلك الفتاة على ضفة طبرية، حين سمع الشيخ الشويكي يسأله عن سبب تأخّره في الزّواج. ولكي يكسر حدّة السؤال مازحه: أم أنك تريد أن تخطب دون أن أكون معك؟!

أحسّ الشيخ بذلك الحزن الذي هبط وسرق البريق من عيني ظاهر.

- قل لي من هي، ولا أكون عبد الغفار الشويكي، إن لم أزوّجك إياها.

فكّر ظاهر قليلا، وقال: لو كانت هناك واحدة لطلبت منك ذلك!

- ولكن عتمة الحزن التي تملأ عينيك لا تَخفى!

- تلك عتمة حزن قديم؛ ربما حان الوقت لكي أنتهي منها إلى الأبد. قال ذلك، دون أن يعرف أن أمورًا كهذه لا يحدّدها بنفسه.

***

لم تتأخر القوافل، لكنه لم يعد يطيق الانتظار.

بعد أسبوعين وصلته الرسالة، فتحها، فوجدها هناك: الكلمات التي لم ينتظر سواها؛ ومعها ما يلزمه من مال لنفقات العرس.

حين حمل الشيخ الشويكي الخبر إلى الشريف الحسيني، رفع هذا يديه إلى السماء، وشكر الله على نعمته. وقال: لنبدأ إذن بالخطوة التالية: ترتيبات العرس؛ وليكن العرس الذي تستحقه ابنة وحيدة كابنتي!

- لظاهر طلب واحد لا غير.

- ما دام قد أصبح واحدًا من أهل بيتي، فله أن يطلب ما يريد.

- طلبه الوحيد، أن يدفع نفقات العرس كلّها.

- لكن هذا كثير عليه. فأنت تعرف، هذا أمر مكلف.

- ذلك طلبه، وطلب أخيه سعد أيضًا.

- شاب أصيل، لن أزاحمه على شيء يرفع به رأسه بين الناس. ليكن ذلك.

***

كان ظاهر مستعدّا أكثر من غيره للقبول بطلب والد العروس: البقاء في الشام.

فأمر كهذا سيغسل روحه من جديد، ويعيده لعرَّابَة البطوف إنسانا آخر، إذا ما قرّر العودة.

راقب ظاهر والدَ نفيسة، كان جسده كلّه قد بدأ يتحوّل إلى تلويحة وداع، فمنذ أن رأى ذلك الفرح الذي يرفّ في عيني ابنته، أدرك أن بمستطاعه أن يغمض عينيه باطمئنان، ويغيب!

صورة دمشق ونداء البعيد

بدا زمن الشام بعيدًا؛ زمن الشام الذي كان معلّقا بآخر أنفاس والد نفيسة، وبجسده الذي بدأ ينساب من بين أصابعهم؛ وحين لم يبق هناك سوى أطراف الأصابع، حين لم يبق هناك سوى النظرات الذابلة، أدرك ظاهر، أن لا شيء سيبقى لهما في الشام بعد رحيله.

قبل أن ينقضي ذلك العام، كان قد رحل، مخلِّفا لوريثته الوحيدة، ما لا تتخيّله هي، أو يتخيّله ظاهر.

قالت نفيسة لظاهر، وقد هدأ حزنها: سأكتب كلّ شيء باسمك الآن. فما الذي يمكن أن أفعله بكل هذا المال، لقد صدقتْ نظرةُ أبي، وأظنه ينظر إلينا الآن من السماء والفرح يملأ قلبه.

- كل شيء سيبقى على حاله، ولن أمسَّ قرشًا واحدًا من مالك، لكن لي طلبًا وحيدًا.

- كل ما تطلبه يتحقّق إن شاء الله.

لم يكن ظاهر قد حدّثها أبدًا بمسألة العودة إلى عرابة، لكن شيئا هناك، في العمق، كان يحدث، ويمضي به لذلك القرار. أتكون دمشق التي بهرته حين رآها أول مرة، هي نفسها التي بدأت تدفعه بعيدًا وهو يرى ما يراه.

- الآن، بوفاة والدك، لم يبق لكِ أحد في الشام؛ أما أنا فكلّ أهلي في فلسطين؛ طلبي أن نمضي إليهم، فالأخبار التي تأتيني من هناك، تحتِّم عليَّ أن أكون معهم، وإذا رأيتِ غير ذلك، فباستطاعتك أن تظلّي هنا في الشام، وأعود أنا، وبين فترة وأخرى آتيكِ.

نظرت إليه نظرة كلّها عتب، وقد أوشكت أن تبكي.

- أرجو ألا أكون قد أسأتُ إليك بكلامي. قال ظاهر.

- ابنة الحسيني لا تترك رجلها يعود وحيدًا بلا زوجته. حيثما ستكون أكون، لن أتركك رهينة للطرق ولصوصها، جالسةً هنا يملؤني الخوف عليك، كلما عرفت بأنك قادم، وكلما ذهبت لوداعك أمام باب دمشق.

***

كان الخوف وانعدام الأمن وسطوة المتسلِّمين، منتشرة في كل فلسطين، أما في دمشق، فقد كانت تسكن داخل أسوارها؛ فليس أسهل من أن يقبض مملوك الوزير على مَن يريد، ويأمر باقتياده للسجن وتقييده بالحديد، ليأخذ منه المبلغ الذي يحدّده على مزاجه من مال ومتاع؛ وحين لا يستطيع ذلك الرجل الدَّفع، كان أهله وأقاربه يفْدونه، وهم يعرفون، أن ذلك المال الذي سيدفعونه، هو الباب الذي من دونه لن يرى ولدهم الشمس[1]. كانت نفيسة تعرف أنها قد تجد نفسها في موقف كهذا؛ فظاهر غريب عن المدينة، وأبوها الذي كان يحميها رحل، وليس هنالك ما هو أسهل من أن ينتبهوا لظاهر الوحيد، فتخسره وتخسر كل شيء.

أفضل مكان يمكن أن يضيع فيه الدم، كانت دمشق؛ فلم يكن الوزير وجنوده الذين ينحدرون من مدن قريبة وبعيدة، مصدر الخطر الوحيد، فبعد موجة الغلاء التي عصفت بحال الناس وساقتهم إلى حوافٍّ المجاعة، بدأت ظواهر السّلب تنتشر. وفي الوقت الذي كان الوزير وقادته يسلبون الأغنياء، كان ينفّذ أحكامه ضد أولئك الذي يسرقون الفقراء: ففي ليلة العشرين من شهر تشرين الأول صدر أمر بشنق أحد اللصوص أمام الجامع الأموي، وقطع يد نشال، بعد أن علِقَتْ في الجيب الضَّيق لإمام جامع عارودك غربي الصالحية! وأصبح الناس يمرون أمام الدكاكين فلا يستطيعون التهام شيء من تلك البضائع إلا بأعينهم، وقد بلغت أوقية السَّمن خمس مصاري ونصف مصرية، ورطل الأرز بست عشرة مصرية، ومدّ الشعير بثماني مصاري، والخبز الأبيض باثنتي عشرة مصرية، ورطل الكعك بأربع عشرة مصرية، ورطل الخبز الأسمر بخمس مصاري، ورطل اللحم الشامي بثلاثين مصرية، ورطل إلية الغنم بقرش، والبيض كل اثنتين بمصرية؛ وبقدوم شهر رمضان جُنّت أسعار الخُضَر،

---

[1] – كانت المدينة مقسمة إلى قسمين: هيئة الحاكمين وهيئة المحكومين، وكانت الدولة حريصة على الفارق بينهما. الهيئة الأولى مشكلة من: الولاة، القضاة، المفتين، ضباط الجيش. وكانت أصناف الجند متفوّقة على عداها من أصحاب المراتب. والهيئة الثانية: أهل المدن، وأهل الريف، وتركت لهم الدولة حرية تنظيم أنفسهم في طوائف الحرف. وكان عليهم إعاشة الهيئة الحاكمة وتعبئة جيوبها بالمال ودفع الضرائب والمغارم، وكان جزاؤها البطش والظلم والقسوة.

فقد كانت كل مائة حبة كوسا قبل رمضان بمصرية، فلما هلّ رمضان صارت كل خمس وأربعين بمصرية، وكان كل رطل من الباذنجان بمصرية، فصار كل رطل بمصريتين، وعُدِم اللحم ، وذلك كله بسبب تقاعس الولاية عن الرقابة!

***

وجود الشيخ عبد الغفار الشويكي كان مصدر الأمن الأخير، وقد استطاع أن يقدّم ظاهر لعديد تجار الشام، لتسهيل عمله معهم.

كانت الأموال التي بحوزة سعد قد بدأت بالتناقص، كما لو أنه أقسم أن ينفقها كلها في وجوه الكرَم! صحيح أن ذلك حقّق له وللأسرة مكانة طيبة في عرابة وضواحيها، كانوا في حاجة إليها. لكن سعد وأخويه، ونجمة، كانوا يدركون، أنهم لو كانوا يملكون بئرًا من المال فسينفد ما فيه أخيرًا.

أرسل سعد إلى ظاهر بأن يرسل إليه بضائع الشام، وبخاصة، صناعاتها الحرفية النحاسية والخشبية المشهورة بمدى إتقانها، وكان يرسل بدوره إلى الشام القمح والقطن والسمسم وسمك طبرية المملّح.

هكذا، بدأت الأسرة تسترد أنفاسها.

***

أرسل ظاهر لسعد، أنه قادم إلى عرابة، وإنه سيرتب أمور التجارة بين الشام وعرّابة بالصورة التي يتمناها، باختياره الشخص المناسب مكانه. كان القرار مفاجئا لسعد، بل سقط على رأسه سقوط الصاعقة.

لكنه، وفي أعماقه، كان يدرك أن الأمور تسير في اتجاه آخر في عرابة وما حولها، وإنهم، وإن نجحوا في تجارتهم، فإنهم لن يكونوا تجارًا إلى الأبد.

فأرسل إلى ظاهر رسالة من ثلاث كلمات: نحن في انتظارك.

الدّم الثاني!

أمضت نجمة النهار كلّه في علّيتها، تراقب الشمال، متوقّعة أن ترى تلك الغيمة المباركة من الغبار التي تُعلن عن وصول ظاهر وعروسه.

لم يكن يريد العودة بصورة مفاجئة، أرسل خبرًا مع رئيس القافلة ، قبل ذلك بثلاثة أسابيع. ولأن وصول القافلة كان محدّدًا تماما في يوم الخميس؛ فأي تأخير في وصولها، يعني أن عليهم الخروج لتفقّدها والاطمئنان على أحوالها.

تأخّرت القافلة، ففي موقع بين العابسية والناعمة، أغارت عليهم قوة من البدو يتجاوز عددها الستين فارسًا. كانت القافلة تسير في أرض فسيحة على يسارها مقْلع حجارة قديم، وعلى يمينها سلاسل حجرية لكرْم زيتون كبير، حين انقضَّ المهاجمون عليها فجأة.

رئيس القافلة، ورجاله، كانوا يدركون أيّ النقاط أكثر خطورة، دائما، من سواها، وكانت تلك البقعة بالذات، مصدرَ قلق. جهّز رجاله أنفسهم، دون أن يلحظ ذلك أحد، ودون أن يتلقّوا أمرًا بذلك.

لكن الهجوم مباغتٌ دائما، ما دام العدوّ هو من يحدِّد وقته ومكانه!

استطاع المهاجمون في البداية شقّ القافلة إلى نصفين؛ وتلك خطّتهم، لكي يتمكّنوا من تشتيت قوة المدافعين عنها، وبالتالي، اقتياد تلك الجِمال والبغال والخيل الهاربة، والتسلل بها بعيدًا، في الوقت الذي يواصل آخرون منهم الهجوم بكل قوتهم.

لم يكن المسافرون بحاجة لأن يدعوهم أحد للدّخول في القتال، لأن كل شخص، في موقف كهذا، يدافع عن نفسه وماله وعياله، قبل أن يدافع عن غيره.

نظر ظاهر فوجد رئيس القافلة مشتبكًا مع ثلاثة من المهاجمين. كان يدور حول نفسه كزوبعة، بحيث لن يصدّق من يراه أن ذلك الشخص عجوز على مشارف السبعين! أغار ظاهر شاهرًا سيف أبيه. وحين رآه أحدهم مقبلا، اندفع نحوه بجنون. كان باستطاعة ظاهر أن يقتله بسهولة، لكن ذكرى قديمة مرّت

عبر جسده كسكين، جعلته يوجِّه ضربةً قويةً للمهاجم، بصفحة سيفه لا بحدِّه، لكن الضربة كانت كافية لأن تُطيح بالمهاجم من فوق جواده.

أدرك المهاجم الذي راح يبحث، مرتبكًا، عن سيفه الذي سقط من يده، أن من وجه له تلك الضربة، لم يكن يريد قتْله، وإلا لفعل ذلك بيسر.

تركه ظاهر، وتوجّه نحو المهاجم الآخر الذي انتبه في اللحظة الأخيرة إلى أن هناك من يهاجمه. كان بمستطاع ظاهر بسهوله أن يستدير ويصفعه بطرف السيف بقوة على عنقه. جاءت الضربة قوية بحيث حملته في الهواء ليحلِّق طويلا قبل أن يسقط فاقدًا الوعي على الأرض. لم يتحرّك، لكن ظاهر كان مطمئنًا إلى أنه إن قُتِلَ فإن سقوطه هو السبب!

هاجم رئيس القافلة الفارس الأخير ففرّ مبتعدًا، وحين رأى أحد الفارسين اللذين سقطا يمتطي فرسه ويبتعد، التفتَ إلى ظاهر، دون أن يقول شيئا، ومضى وظاهر في ملاحقة المهاجمين الذين تفرّقوا مبتعدين.

ما إن أحس المهاجم الذي سقط أرضًا بأن رجال القافلة مشغولون بالمطاردة، حتى نهض باحثًا عن سيفه، وقبل أن يصل إليه، رآه أحد الفتيان فاندفع نحوه حاملا عصى غليظة؛ لكن الوقت قد فات، إذ استطاع المهاجم أن يوجِّه طعنة قاتلة لقلب الفتى، الذي وقف محملقًا في نهاية النصل الذي اخترقه.

سحب المهاجم سيفه من جسد الفتى، وراح يلوِّح به أمام النساء اللواتي هاجمنه غير عابئات بشيء، فتمكنَّ من جرحه، قبل أن يمسكنَ به ويقتلنه.

***

لم يظفر المهاجمون سوى بناقتين وثلاثة بغال. طلب رئيس القافلة من ظاهر أن يتوقّف عن مطاردتهم، لكن ظاهر لم يكن مستعدًا لأن يسمعه.

تبعه الرئيس؛ الرئيس الذي يعرف أساليب البدو وكمائنهم التي ينصبونها لمن يلاحقهم، ويخصصون رجالا لهذا الغرض.

راحا يطاردانهم. وبعد قليل، تغير مسار ظاهر، بحيث صعد تلة، وكأنه هارب منهم، لا ملاحق لهم. اختفى.

نظر رئيس القافلة خلْفه، فرأى مشهد قافلته كما لا يتمنّى أن يراها رئيس قافلة. كانت مشتتة، وبدت الفوضى رهيبة، كما لو أنه هُزم. في حين يعمل رجاله والمسافرون معه ما استطاعوا للسيطرة على الحيوانات التي هاجت، وتناثر الكثير مما تحمله على مساحة شاسعة من الأرض.

***

لم تُجْدِ لوعة أمه وبكاؤها ودعواتها. فارق الفتى الحياة كشمعة. أما الجرحى من النساء والرجال، فلم تكن أي من جراحهم مميتة.

عاد رجال القافلة. بحثت نفيسة عن ظاهر فلم تجده، شقّت الحلقة وراحت تجري في الاتجاهات كلّها باحثة عنه، صاح الرئيس: إنه بخير!

- وأين الخير وهو ليس موجودًا بينكم؟! قالت بأسى.

لم يجد رئيس القافلة ما يلزم من كلمات لطمأنتها، فاستدار بعينيه بعيدًا، باحثًا عن رجاء يطلّ من بعيد. وحسنًا، أن انتظاره لم يطل، فقد رأى ناقة عائدة نحوهم، ورأى ثلاثة بغال، من تلك التي سُلبتْ. لكن ظاهر لم يظهر! انتظر رئيس القافلة، وتعلّقت القلوب في نقطة واحدة لا غير، ولم يظهر.

نكز رئيس القافلة حصانه وانطلق صوب البهائم العائدة، فتبعه خمسة من رجاله.

لم تكن نفيسة قد اهتدت لدمعها كي تبدأ البكاء، كان الرّعب وحده هو ما يشلّها؛ ما يحيلها إلى تمثال مشروخ، في تلك البقعة الدامية، ما بين دمشق وعرّابة.

***

في ذلك اليوم البعيد، قالت له: إن كان الله قد قضى بألا يكون لي ولد، فستكون أنت يا ظاهر ابني وزوجي وأبي وأهلي.

لكن ما ظلّ يحزنها أن والدها مات قبل أن يسمع منها تلك البشارة الأغلى: إنني حامل!

دارت الشّهور كرحىً عظيمة تطحن جسدها الرّهيف، دون أن تظهر إشارةٌ واحدة على قرب مجيء الفرح. ظلّ الدّم، الذي يباغتها، في موعد لا يتغير، يتدفّق بلا انقطاع، واتصل الدّم بالدّم، وتحوّل إلى شلال كانت تحلم به يجرفها كل ليلة. فيصحو ظاهر على يديها وهما تتشبثان به وهي تصيح: سأغرق يا ظاهر، سأغرق يا ظاهر.

لكنها لم تقل له شيئا عن نهر الدّم.

سأل الشيخ الشويكي ظاهر: هل أمورك بخير؟! أعني كلّ أمورك؟!

- إنها بخير والحمد لله. ولكن هذا قدر الله!

وسألتها خالتها: هل حال زوجك جيد، أعني كما يجب أن يكون حال الرّجال؟!

فهزّت رأسها كما لو أنها تقول نعم.

وسألتْها: وأنتِ؟

فأجابتها: نهر دم لا يتوقّف!

هزّت خالتها رأسها، وقالت: يحدث ذلك أحيانا! لننتظر.

لم يحدث شيء، بقي الفراغ وحده يدوّي هناك في جوفها، يدور ويدور باحثًا عن نطفة من حياة، هي الحياة كلّها بالنسبة إليها.

وقال لها ظاهر: لا عليكِ!

بكت. مسح دموعها بإبهاميه وهو يحتضن وجهها: تذكّري أنني أحببتك منذ رأيتك، ولن يغيّر هذا أي شيء في العالم.

- كنتُ أحلم بأن يهبني الله ولدًا منك، ولدًا واحدًا على الأقل، فأنا أعرف ذلك العذاب الذي اعتصر قلب أبي دائما. كان يحلم بولد من صلبه، لا ليقال: إن له ابنا فقط، بل ليتأكد من أن لي أخًا!

- سأكون ذلك الأخ، كما سأكون الأب، كما أنا الزوج يا نفيسة.

- وستكون ابني يا ظاهر، سأدللك كما لم تدلل أمّ ابنها وتحبه.

- وابنك أيضا يا نفيسة!

***

ولم يظهر ظاهر، كان الرئيس ورجاله يبتعدون. اختطفتْ التلال أجسادهم وخيولهم، وعمّ الصمت.

داروا حولهم، وقد تذكّروا أن هناك جهات أخرى يمكن أن يُطلَّ منها.

لا أحد!

وفي البعيد، رآه الرئيس يقاتلهم بجنون لم ير مثله من قبل؛ يدور ويراوغ وينقضّ ويبتعد، كي لا يمكّنهم من إطباق الحصار عليه، وقبل أن يصلوا، كان المهاجمون يفرّون.

مال ظاهر نحو رسن الناقة الأخيرة المسلوبة، الناقة التي أربكها ما يدور حولها من ضجيج، فراحت تضرب أرجلها في الأرض مذعورة، وتضرب الهواء برأسها، وتكشّ الخوف المحيط بها، كما تكش ذبابة مزعجة في يوم جهنّمي الحرارة.

مال ظاهر إلى رسنها، وحين أمسك به، اقترب منها هامسا يهدئ من روْعها.

نظرتْ إليه الناقة كما لو أنها تتعرّف إليه؛ وكما لو أنها عرفته، سارت خلْفه.

- أتموت من أجل ناقة يا ظاهر؟! دعها تذهب إلى الجحيم، فِداك!
- لا أيها الرئيس، الناقة ليست هي المسألة!

***

وصلهم العويل قبل أن يصلوا. ارتجف قلب ظاهر فزعًا، ونكز جواده، مخلِّفا الناقة التي التقط رئيس القافلة رسنها.

وصل. قفز عن ظهر حصانه، وشقّ طريقه بصعوبة بين الدموع. وهناك رأى جثة الفتى بين يدي أمّه.

سأل: من قتله؟!

وقبل أن يتمّوا كلامهم، كانت الأرض تدور بظاهر وتدور.

أمسك به رئيس القافلة وقد أحسّ به يكاد أن يسقط: ماذا بك؟!

استدار ظاهر ونظر إلى عينيه مباشرة: لن يقبل ظاهر بعد اليوم أن يُقتل الناس هكذا، لن يقبل أن يَسلبه أحد أو يَسلب سواه حتى ولو حبة تمر!

إحساس جديد سكن ظاهر، لقد تخفّف فجأة من حمل الدّم القديم الذي يثقل قلبه، بدم ذلك الفتى الذي سيحمل وزْره. وفي لحظة خاطفة أدرك أنه سيقتل ذلك الرجل على ضفة طبرية من جديد، لو أتيح له ذلك الآن.

لكن الأيام التي يمحو جديدُها قديمَها، كانت تُعدّ له اختبارًا آخر لا يمكن أن يخطر له ببال!

سورة الخيل

ظلَّ القلق يعتصر بدن نفيسة، حتى بعد عودة ظاهر إليها سالما، حتى بعد أن أوشكت أن تحتضنه، هي التي كانت تنتظر أحبابها كلهم فيه: الزّوج والأب والابن.

ومع مرور اللحظات المعلّقة بأصابع الموت، اختفت صورة الزّوج والأب ولم تبق سوى صورة الابن. لكن نظرة قوية من عينيه العميقتين، أعادت إليها رشدها. ولعل قُرْب وصولهما إلى عرابة، هو وحده الذي حال دون أن تحتضنه!

أما ما لم تعرفه نفيسة، فهو مدى حاجته هو الآخر لذلك!

كان وجه الشيخ حسين يرفّ أمامه مثل طير، وعينا عباس تتسعان أكثر فأكثر فلا يتسع غير عماهما.

كم حاول أن يتناسى قصة فقء عيني الشيخ حسين وعيني عباس، لكي يحمي نفسه من ذلك الأسى الذي يقتله لأنه خلّفهم وراءه، لكنه لم يستطع.

***

بمجرد أن عبر العتبة وعانق نجمة وسعد ويوسف وصالح، انطلق نحو الإسطبل. كان بشوق شديد لسماع صهيل الفرس البيضاء. لم يسمعه!

حين دخل، وألقى نظرة عليها، فوجئ بحالها: هزلتْ، وبدا للحظة أنها لم تعرفه! سار إليها وقلبه ممتلئ بخوف غريب. وحين أصبح على بعد مترين منها، رفعت رأسها، وحدّقت إليه بعينين متعبتين عاتبتين. حاولت أن تصهل، فلم تخرج منها سوى حشرجة لا تنتمي لزمن صهيلها العالي.

احتضن وجهها، وراح يمسّد جبينها: *"الله كم شاخت!"* نظر خلفه، فوجدهم هناك ينظرون إليه، وقد أحسّوا أي حزن ذلك الذي كان يعتصره.

كانت دمعة ثقيلة حارقة تتفلّت، حاول كبْحها بقوة، لكنها كانت تجرّه للأسفل أكثر فأكثر، إلى أن وجد نفسه أمام قائمتيها الأماميتين.

وفي لحظة لا شبيه لها، إلا مثلها، أمسكَ بحافرها برفق ورفعه. بصعوبة استجابت. هي التي كانت بحاجة لقائمتها الرابعة أكثر من أيِّ يوم مضى، أعطته إياها، وتحاملت على نفسها كي لا تسقط.

أكان من الممكن أن تعطي تلك القائمة لسواه؟!

كانوا يحدّقون بحزن، وفي تلك اللحظة أحسّت نفيسة بمعنى ذلك الكلام الذي قاله لها عن أمه الفرس البيضاء.

زمن طويل مرّ قبل أن ينهض من أمامها. نفضت رأسها، طاردة كل ما علق بجسدها من سنوات، مدَّت لسانها وراحت تلعق جبينه، كما لو أنها تقول له: الله يرضى عليك!

قبَّل جبينها مرّة أخرى، وحين استدار ليبتعد، أصدرت تلك الحشرجة المجروحة، فالتفتَ إليهم، وقال: اجلبوا لي فراشي، سأنام الليلة هنا!

بصمت انسحبوا.

لوهلة، أحست نفيسة بحرج شديد. لكن حرجها تلاشى، حين نظرت إلى وجوههم، فلم تجد أيَّ تعبير فيها يشير إلى استهجانهم الأمر!

***

بعد قليل، رأى نفيسة تعود، وهي تحمل بين يديها فِراشًا.

كم أسعده أن نفيسة، لا سواها، من أحضر الفراش. لكن المفاجأة الأكبر كانت طلبها: هل تسمحان لي بأن أكون ضيفتكما هذه الليلة؟!

عند ذلك بكى ظاهر.

***

ما إن أُغلق الباب عليهما، حتى وجدت نفسها تقترب منه، وتأخذه بين يديها. لم تكن نفيسة بحاجة لشيء مثلما كانت بحاجة إلى أن تحتضنه، منذ تلك المعركة، وكم كانت حاجته لذلك قد تضاعفت، وقد رأى ما آل إليه حال أمّه!

لو لم تحتضنه، أكان يجرؤ على أن يطلب منها هذا؟ هو يعرف أنه قاوم طويلا رغبته في أن يطلب ذلك من نجمة، يوم عاد من ضفة طبرية ملاحَقًا بلعنة أول الدم، تلك اللعنة التي تمنّى بعدها أن يُقتل قبل أن يسفك دمًا مرّة أخرى.

" - في الخيل عزّة لا يستطيع الإنسانُ أن يفهمها ، إنها تحزن ولا تبوح، وتتألم ولا تنكسر يا ظاهر. كأن ما تسرب من الفرس البيضاء إلى داخلك، لم يكن

حليبها وحده. ولكن، عليك أن تتـذكَّر أنـك إنـسان أولا وأخـيرًا." قالـت لـه نجمة.

في ذلك اليوم استعاد ظاهر كل حكاياتهم عنه، وعن الموت، وعن أبيه الـذي قاتله بالسيف كما يقاتل الرّجل الرّجل؛ استعاد أول صهيل سمعه، استعاد طعـم ذلك الحليب الذي ظلّ يـشربه، دون أن يـدري أن الحليـب كـان يـشربه أيـضا، استعاد جريه خلفها حتـى بعـد تجـاوزه الخامـسة ليرضـع منهـا مبـاشرة، وقـال لنجمة: لا أحد يستطيع أن يفصل هذا اللحم عن لحمها، ولا هـذه الـروح عـن روحها، فبقدر ما أنا موجود هنا داخل جسدي، فهذه الفرس البيضاء موجـودة يا أمي في جسدي أيضًا.

" - أنت بحاجة إلى شيء ما يُغلِّب الإنـسان فيـك عـلى الحـصان يـا ظـاهر، وجودهما فيك سيشقيكَ، وربما يقتلك."

" - ولعله ما سيحييني يا أمي. لعله ما سيحييني!"

جمعة الحيوان وطريق الغابة

أجمل ما حدث أن ظاهر وعروسه وصلا عرابة قبل احتفالات (جمعة الحيوان).

فحين أشرعت نفيسة نافذة غرفتها المطلّة على الحوش، فاجأها ذلك المشهد، الذي طالما سمعت عنه، لكنها لم تره من قبل.

كانت نجمة وزوجة سعد مشغولتين بتزيين حيوانات البيت بـالمَغْرَةِ[1]. فبدا المشهد كما لو أنه احتفاء بقدومها.

بدت الفرس البيضاء المنهكة، فرِحَة بين يدي نجمة التي تزيّنها، مُلوِّنة غرَّتها وذيلها بذلك اللون الأحمر الجميل.

استدارت الفرس برأسها، وبدت راضية عن ذلك اللون! أما البقرات، فكن أكثر زهوًا بذلك. في حين، كانت الخراف والماعز في عجلة من أمرها لكي تتقافز بعيدًا، فرحَةً، كما لو أنها تنتظر هذا العيد، عيدها، منذ زمن طويل! في الوقت الذي انشغل فيه الأولاد بتزيين الدجاج والصيصان وتلوين أجنحة وذيول الحمام وإطلاقه في الفضاء.

كان مشهد عرّابة، سماء وأرضًا، جميلا بذلك الفرح الذي يتقافز في كل بيت وشارع وساحة، وبذلك العرس المحوِّم فوق البيوت. إنه اليوم الأجمل، الذي لا بدَّ، أن الحيوانات تحسّ بكل ما يدور فيه، حيث تُترَكُ حرّةً بعد أن تُغسل وتُنظّف وتُصبَغ؛ ذلك اليوم الذي لا يجرؤ أحد فيه على ذبْح أي منها أو استخدامها في نقل أيِّ شيء، أو الإفادة من حليبها، الذي يوزع على الفقراء، حيث لا يجرؤ أحد على استخدامه داخل البيت.

إنه يوم عطلتها السنوية، عيدها.

***

---

[1] – طين أحمر يُصبغ به. والأمغر من الخيل هو أحمر الشعر والجلد على لون المَغْرَة.

دارت الفرس البيضاء، في الحوش، كما لو أنها تنتظر شيئا ما. أحسَّ ظاهر بذلك، فانطلق نحوها، أمسك برسنها المزيّن بالخرز، وخرج بها نحو السهل القريب.

كان يحرص على السير إلى جانبها، وجهه إلى جانب وجهها، يتأمّلها بين حين وحين، ويفكِّر في كل ذلك الزمن الذي مرّ. رفع عينيه إلى السماء، وكم تمنّى أن تعيش الخيل أكثر من هذا، أن تعيش مثل البشر وأكثر. ولكنه تذكّر أي عذاب ستقاسيه، لو أنه رحل قبلها. هو الذي لا يكاد يُسامح نفسه على غيابه عنها في الشام. أيكون غيابه هو الذي أنهكها، لا عمرها الذي يسير إلى نهاياته؟!

بدت الفرس البيضاء راضية في ذلك اليوم؛ وأحسّ بقوّة ما تعود إلى جسدها. وحين دخلا ذلك الحرش الكبير من أشجار الصنوبر، وسمعت العصافير تغني، رفعتْ رأسها، باحثة عن مصدر الصوت، تتلفّت دهِشَةً كطفلة.

قُبيل العصر، عاد بها إلى البيت. لم يكن ذلك الفرح الذي سكن الصغار أقل من الفرح الذي سكن قفزات الماعز في الهواء وصفقات أجنحة الحمام في الأعلى.

من بعيد رأى نفيسة تتأمّل ولدَي سعد بصمت، فوجئت به عندما اقترب، فابتعدت عن النافذة بسرعة، لتظهر من جديد من فتحة الباب.

بابتسامتها الواسعة الجميلة التي كشفت عن أجمل أسنان رآها في حياته، أقبلتْ نحوه، ودون أن تقول شيئا امتدّت يدها تمسّد عنق الفرس البيضاء وغرتها الملونة.

سارا بها إلى داخل الإسطبل.

***

- الذكريات هي الشيء الوحيد الذي يمكن أن يتغلب به البشر على الزمن، لأنهم يؤكدون لأنفسهم بها، أنهم لم يكونوا مجرد عابرين لهذه الحياة. قالت نجمة.

بسرعة انقضى ذلك النّهار، كما تنقضي الأعياد والأيام السعيدة، تاركة الذكريات الجميلة تحوّم في الهواء مثل طيور شفافة لا تراها العين.

***

قُبيل الفجر، سمعوا الخيل تصهل، والفوضى تعمّ الإسطبل، فتهيأوا بسرعة وخرجوا، موقنين أن هنالك من يحاول سرقتها. وفجأة، سمعوا تلك الصرخة المجروحة، صرخة نجمة؛ وقبل أن يصلوا، رأوها خارجة من الإسطبل بشعرها المبعثر وعينيها الذّاهلتين، فأدركوا ما حدث.

احتضنتْ ظاهر، بقوة، وهمست له: لقد ماتت وغبار الطريق على قدميها، رحمها الله. ونظرت إلى الأعلى وقالت شيئا، كما لو أنها تهمس في أذن السماء!



الجنة بجانب البحر

لقد بلغني،
أخواتي وأخوتي، أن هناك من يقول: ما يحدث لنا سببه أن ظاهر لا يريد أن يكون أقلَّ من بطل!

إن أسوأ فكرة خطرت للإنسان: أن يكون بطلا في الحرب، وهناك ألف مكان آخر يمكن أن يكون فيها بطلا حقيقيا. ولكنّ هذه الحرب فُرضت علينا، ولم نخُضها لكي نصبح أبطالا، بل خضناها لكي نكون بشرًا، كرَّمهم سبحانه وتعالى حين قال: (ولقد كرَّمْنا بني آدم) صدق الله العظيم. نحن لا نريد أكثر من أن نكون بشرًا. أما ما أحلم به، فهو أن تكونوا أبطالا كلكم بعد هذا الحصار. فالبطولة في أن تبنوا بلادكم بأمان، وأن تزرعوا أشجاركم بأمان، وألا تخافوا على أطفالكم، لأنهم محاطون بالأمان.

سيصبح كلُّ رجل بطلا حين يتجوّل في الطرقات، كما شاء، دون أن يعترض طريقه أحد، أو ينال من كرامته أحد، أو يسرق قوت عياله أحد، أو يعبث بحياته أحد، أو يقيّد حريته أحد. وتكون البطولة، حين تسير امرأة بمفردها فيهابها الجميع، لأنها بطلة على جانبيها أطياف مئات البطلات والأبطال. أريد شعبا كاملا من الأبطال، لا شعبا من الخائفين بين هذين البحرين: بحر الجليل وبحر عكا. البطولة الحقيقية في أن تكونوا آمنين إلى ذلك الحد الذي لا تحتاجون فيه لأي بطولة أخرى..

ليالي الرّعب.. والأميرة الزرقاء!

أمسك ظاهرُ الجابي الذي أرسله محمد باشا والي صيدا من عنقه، وسأله: لم أسمعك! ماذا تريد؟!

- أريد أجرة الطريق إلى صيدا؟

- ومنذ متى تأخذ أجرة الطريق من أهل عرّابة؟ هل تعمل عندهم أم تعمل عند الدولة؟

- عند الدّولة.

- أنت تأخذ ما ليس لك إذن!

وبكل ما فيه من قوّة، دفعه ظاهر فالتصق بالأرض.

أشهر رجال الدّرك أسلحتهم.

- ستموتون كلكم إن لم تخفضوها. صرخ في وجوههم.

كان الخوف يحتل ملامح الناس، كالمفاجأة التي احتلّت وجوه الدّرك ووجه الجابي الممرَّغ بالتراب؛ إذ لم يسبق أن تجرأ أحد على إهانة متسلِّم أو جاب أو عصيان أمرهما، سوى ظاهر، الذي سبقته قصته، في طبرية، إلى عرابة قبل وصوله إليها.

- يا سعد خذهم واسجنهم، وسنرى ما سنفعله فيهم!

ارتبك سعد وقد أحسَّ بظاهر يعيد ترتيب الأدوار من جديد، رأى القناديل الأربعة تتّقد أمامه وتتقد، وتتأرجح شُعَلُها وتتأرجح..

لقد عاد ظاهر لاستئناف اللعبة، من حيث انتهت، وفهم سعد: ما سيأتي شيء آخر مختلف.

اقتادوا رجال الدرك الذين ألقوا أسلحتهم والجابي. قال ظاهر: أكرموهم، مع أنهم لا يستحقون هذا.

***

وجه ذلك الفتى القتيل، كان يحوّم في عقل ظاهر، والقافلة الطافية على الدمع تتقلَّب في أوجاعها، ويدا ذلك المُغتصِب تُطبقان على عنق هنيَّة في بيارة الليمون على ضفة طبرية، وعيون الشيخ حسين وولده عباس تحدّق فيه كآبار لا قعر لها.

هل كان يبحث عن تلك اللحظة؟ هو لا يعرف جوابًا لسؤال كهذا. لكنها أتت. وأتت بقوة، وصهرته في لهيبها القاسي مرّة أخرى، وقذفت في وجهه ذلك الجابي لترى ما الذي يمكن أن يفعله.

***

واحدة من أشد ليالي الرّعب، كانت تلك الليلة التي هبطت على عرابة. أدرك الناس أن ظاهر بفعلته هذه سيكون سبب هلاكهم جميعًا، إذ يكفي أن يسمع الوالي بما حدث للجابي، حتى يخرج بنفسه على رأس جيشه لتدمير عرابة على رؤوس من فيها. لكن كثيرين رأوا أيضًا، أن الأوان قد آن للوقوف في وجه هذا الظّلم الذي لا يُحتمل؛ فقد قطع الجابي شوطًا بعيدًا هذه المرّة في إهانتهم، حين صادر كل ما وقعت عليه عيناه وأحبه، بحجة المساهمة في دعم حروب الدولة. استولى على أحصنة وبغال وحمير ودجاج، وامتدت يده إلى البسط وفرش البيوت، دون أن يجرؤ واحد على توجيه ذلك السؤال البسيط له: وما حاجة الجيش للفِراش الذي أنام عليه؟! ولم يكتف بهذا، إذ أخلى عددًا من البيوت لكي يبيت فيها عسكره؛ ولكنه بالغ، بحيث خصص بيتا لكل دركيين؛ ولم يكن في رأسه، بالطبع، سوى هدف واحد: أن يدفع أصحاب البيوت له مقابل سحبه الدرك من بيوتهم ليتاح لهم العودة إليها من جديد!

***

غابت شمس تموز وهي تجرّ نهر لهيبها وراءها.

- أصحيح أنك ستذهب إلى صيدا؟! سألته نفيسة.

- ليس هناك مكان يمكن أن أذهب إليه غدا سواها!

- تفعل ما فعلته بالجابي وتمضي إلى صيدا برجْليك؟!

- هذا أفضل ما يمكن أن أفعله، قبل وصول الخبر إلى الوالي!

صمتت نفيسة، وجنّ سعد: أنت ذاهب للموت برجليك، أتعرف ذلك؟!

- لنرى إن كنت سأتجاوز عمر طرفة بن العبد وقد بلغته! وإلا فأنا ذاهب لعُمْر آخر، لن أستطيع مواصلة الحياة إن لم أعشه. لقد مضى الزمن الذي كنا فيه ننتظر القناديل أن تنطفئ يا سعد. لم يتركوا لنا من سبيل سوى أن نُشعلها ثم

نشعلها! أحياء كنا أو أمواتا! ما مضى يا سعد لم يكن عمْرنا، ما مضى لم يكن سوى الوقت الذي منحونا إياه لنواصل عملنا من أجلهم مثل أيّ دابة، دون أن يمنحونا، حتى، يوما شبيها بيوم الحيوان لا نُذْبح فيه، وفرحة مثل أفراح الحيوان نتراكض أو نطير فيها! وصمت قليلا: غدا سآخذ الجابي، أما الجنود فسأبقيهم هنا حتى أعود.

- أنت تتحدّث عن العودة، بعد كلّ ما فعلته؟! ألا تعرف معنى ما حدث، إن كثيرًا من الناس هنا على وشك إلقائنا خارج عرابة! ولا تنس يا ظاهر أنها بلدهم، وأننا لم نزل فيها ضيوفا!

- هذه البلاد بلادك وبلادي يا سعد مثلما هي بلادهم. هذه بلاد كل من يجرؤ على الدفاع عنها، أما الجبناء، فلا بلاد لهم، لأن جبنهم هو بلادهم الوحيدة التي باستطاعتهم أن يرحلوا إليها الآن، دون أسف عليهم!

***

تسللت نجمة بهدوء. فتحت باب غرفته. كان نائما بجوار نفيسة. تأملته قليلا، ثم انحنت وهزّته برفق. استيقظ. أمسكته من يده، ومضت به نحو الباب. التفت إلى حذائه، لكنه أدرك أنه لن يكون بحاجة إليه. اجتازا العتبة. لم تكن الديوك قد استيقظت. انحدرت نحو سهل عرابة وهو يتبعها باطمئنان غريب.

- أنت بحاجة لأن تقول لهذه الأرض شيئا قبل ذهابك إلى الوزير، وهي بحاجة لأن تقول لك شيئا أيضا!

أغمض عينيه، أغمضت عينيها، وراحا يقطعان السهل حافيين مرة تلو أخرى.

وضعت نجمه يدها على كتفه أخيرا، وقالت: لنعد الآن.

وفي اللحظة التي أشرع فيها عينيه، مدت نفيسة يدها لتلمس جسد ظاهر، فأحست بأن راحتها تمسّد تلا!

***

على رؤوس أصابع أقدامها ورموش أعينها، وقفت عرّابة تراقب الشمال المفتوح على كلّ الاحتمالات. كان سعد أكثر الخائفين، فأخوه مَن أمسك بالجنود والجابي وساقهم أمامه كالقطيع، غير عابئ بهم وبهيبة الوالي والدولة التي يمثّلونها.

***

كان ظاهر قد سمع من كثيرين، عن حلم الوالي بامتلاك تلك الفرس الزرقاء العائدة لعرب الصّقر، ومحاولاته الكثيرة لشرائها، ورفضهم المتواصل لذلك.

انعطف نحو مضاربهم، وظلّ يسير إلى أن توقّف أمام خيمة الشيخ رشيد الجبر، أميرهم؛ وخلْفه عدد من رجال عرّابة، والجابي الذي كان على يقين من أن الوالي سيقتل ظاهر ومن معه فور وصولهم؛ إذ بدا بابتسامة التهديد الساخرة تلك، كما لو أنه من سيتسلّم أرواحهم بيده، كما تسلّم أموالهم.

أمام الخيمة غُرِسَ رمح طويل في الأرض، دلالة على القوة، الخيمة التي نصبت في فسحة واسعة ليراها الجميع.

أصغى الأمير رشيد الجبر طويلا لظاهر، وهو يتأمله. لسبب ما كان ظاهر يذكّره بشبابه، وبأكثر من ذلك! كان يملك العينين ذاتها، ونظرتها، والحاجبين الكثيفين، والجبهة الواسعة؛ وفي أحيان كثيرة كان يهيأ للأمير رشيد أنه يجلس مع نفسه، مع شبابه الذي كان!

قال: لك يا ظاهر وللزّيادنة مكانة في قلوبنا لا يعلمها إلا الله! ونحن أكثر الناس سعادة لأنكم جئتم وسكنتم بيننا. لكن ما تطلبه صعب.

- كان يمكن أن يكون صعبًا لو أنني طلبته من إنسان آخر غير الأمير رشيد الجبر! واعلم أطال الله عمرك، أن ظاهر العُمَر لا يمكن أن يطلب أمرًا كهذا من غيرك!

احتضن الأمير رشيد الجبر رأسه بيديه، ودون أن ينظر إلى ظاهر قال:

- غَلَبْتَني يا ظاهر، غَلَبْتني!

ومضت لحظات مشحونة، قبل أن يصفّق بيديه، ويقول: هاتوا الأميرة الزرقاء.

حين أتوا بالفرس، أدرك ظاهر أن الأمير رشيد قد تنازل له عن أجمل شيء في الدّنيا.

- لم أكن أظنها جميلة إلى هذا الحدّ! لا أستطيع أخذ فرس كهذه، حتى لو كنت أحمي بها رأسي ورأس عرّابة كلها!

- لقد منحتك إياها يا ظاهر، وليس الشيخ رشيد الجبر مَن يتراجع عن وعده. كنت أريد أن تبقوا هنا ضيوفًا ثلاثة أيام، أما وقد عرفتُ بأن ذلك غير

ممكن، فإن لي أمنية واحدة يا ظاهر: أن يكون المقابل الذي ستحصل عليه أكبر بكثير مما أنت ذاهب من أجله!

***

تلاشت ابتسامة الجابي، ما إن رأى الفرس الزرقاء مربوطة إلى سرج حصان ظاهر، ولو كان الفرار قرارًا حكيما، لغافلهم وفرَّ إلى غير رجعة.

كانت خفيفة، تعدو كغيمة، لا تكاد أرجلها تلامس الأرض، وزرقاء إلى حدّ اختلاطها بزرقة السماء كلّما بلغوا رأس تلٍّ. بين حين وحين كان ظاهر ينظر نحوها، فيحسّ أنها أغلى من أن تُمنح لأي رجل على وجه الأرض؛ وما إن أصبحوا على مشارف صيدا، حتى أحسّ بأن اقتطاع نصف لحمه حيًّا، أرحم من التّنازل عنها لذلك الوالي.

يعرف ظاهر الولاة كلّهم. إنهم ليسوا سوى وزير جشع واحد! ليس لهم همٌّ غير ابتلاع كل ما في طريقهم من مدن وقرى وجبال وسهول وأودية. يعرف أن لا أحد منهم يستحقّ عيني هذه الأميرة الزرقاء.

رآها الوالي قبل أن يراهم، جرى نحوها ناسيًا كلَّ ألقابه. تقافز كالمجنون حولها، غير قادر على أن يلمس ذلك الحلم الذي تحقّق فجأة. عاد لظاهر صوت الأمير رشيد الجبر: *"لي أمنية واحدة يا ظاهر، أن يكون المقابل الذي ستحصل عليه أكبر بكثير مما أنت ذاهب من أجله!"* فأقسم ظاهر: أنه سيجعل درك هذه الدّولة ومتسلّميها ووزرائها وسلاطينها يدفعون الكثير.

نافورة الجمال على باب صيدا

عاد ظاهر ومن معه.

خرجت عرّابة كلّها لاستقبالهم.

كان بعضهم يركض فرِحًا بعودته، وبعضهم يركض فرحًا بسلامة عرّابة.

كان مجرّد ظهوره من جديد، حيًّا، يعني أن كل شيء انتهى لصالحهم.

عادت قناديل إخوته التي رفّت أمام أعينهم، لاتقادها من جديد، وهم يرون الحياة الجديدة التي كُتبت لهم.

- ألم أقل لكم الليلة الفائتة: ذاك فتى يركض كحصان، ولن يستطيعوا اللحاق به! قالت نجمة وهي ترى شحوب وجوههم يتلاشى، والدم يعود ليجري في عروقهم!

***

كل ما يريده الوالي هو أن ينال ما يريد ويصله مال الميري، وقد تعهّد له ظاهر: سيصلك مال الميري كاملا، دون أن يُقتطع أيُّ شيء منه لي كمتسلِّم! وبنفسي سأوصله في كلِّ عام.

لم يكن محمد باشا مستعدًا لتعكير يومه الأكثر صفاء منذ حصوله على ذَنَبي حصان بمناسبة نيْله الباشوية من أجل جابِ قال ظاهر في حقه الكثير، وفي طمعه الذي يدفع الناس للظن بأن تلك القسوة وذلك الظلم سببه الدولة!

أما الطلب الذي أعاد الباشا إلى صحوه من جديد: .. وما دمتَ وافقتَ لنا يا باشا على أن أكون متسلِّمكم الأمين هناك! فكل ما أطلبه هو أن لا يأتينا درك الدّولة أيا كان السبب!

- ما الذي يعنيه ذلك؟ أتريدون أن تكونوا خارج طاعة الدّولة؟!

- ما نريده عكس ذلك تمامًا؛ أن نكون في طاعتها وتحت حُكْمها، دون أن تكلّف نفسها بإرسال جنود، نحن نعرف أن جناب السلطان بحاجتهم في معارك حقيقية خارج حدود الإمبراطورية!

- أنتَ تقدِّم أكثر مما هو مطلوب منك بكثير يا ظاهر، وهذا ما يخيفني!

- أنت تعرف أخلاقنا يا حضرة الباشا، فطاعة الدّولة كطاعة الله وطاعة الوالدين!

أطرق الوالي، ثم رفع عينيه محاولا أن يعرف أيّ شخص هذا الذي أمامه، لم يعرف.

- اذهبوا قبل أن أُغيِّر رأيي؛ قبل أن أنسى أنكَ من أحضر هذه المهرة.

كان محمد باشا يتأملها بشغف وقد أمسك برسنها سائس خيله، وتركها تدور حوله كنافورة من جمال.

بين خيارين أحلاهما مرٌّ!

سارت الأمور كما خطط لها ظاهر تمامًا، اختفى جنود الدّولة، حتى لكأن عرّابة وأراضيها قد تحوّلت إلى مناطق محرّمة عليهم. أحسّت عرابة وسهولها بذلك، فبدت في نظر أهلها أكثر اتساعا وارتفعت سماؤها أكثر.

أصبحت كرامة الناس فوق كل اعتبار، وحقوقهم خطًّا أحمر لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه. وبمقارنة أيامهم الماضية بأيامهم التالية، أحسوا بأنهم يولدون من جديد. وفي ظلّ معرفة مُتسلِّمي وشيوخ المنطقة بعلاقة ظاهر المباشرة بوزير صيدا، وحصوله على كلّ تلك الامتيازات، صاروا يتحاشون الاقتراب منه ومن عرابة[1].

أما عرب الصقر فكانوا سيف الرّعب الذي لا يستطيع أحد أن يعرف أين سيهوي. هم سادةُ السَّلب والنّهب والغزو في كلّ وقت، بحيث لم تعد الناس تجرؤ على مغادرة منازلها على طول وعرض تلك الرقعة التي تظلّلها سيوفهم!

ضجّت الناس وقد أفزعها عرب الصقر، فاضطرّ محمد باشا إلى إطلاق يد ابن ماضي، شيخ مشايخ نابلس، الأكثر إخلاصًا للدولة من نفسها، فراح يشن عليهم الغارة تلو الغارة، حتى أنهكهم.

اسودّ نهار عرب الصقر كليلهم. بحثوا عن حلٍّ بين تلك الغارات التي لا تتوقّف؛ وفي النهاية، كان لا بدّ لأميرهم رشيد الجبر أن يحسم الأمر: تعرفون أن الحكومة تظلمنا وتأخذ أكثر من ربع ما نحصّله بتعبنا! وحينما نضطر للخروج إلى الطرقات لإطعام أطفالنا، تُرسل من يحاربنا! لقد فكرتُ في الأمر كثيرًا، ووصلتُ إلى حلٍّ أكرهه أكثر مما تكرهونه. إننا بين خيارين لا ثالث لهما، إما أن نطوي خيامنا ونرحل بعيدًا عن هذه البلاد، وإما أن نجد رأسًا لنا من هذه

---

[1] - كان ظلم أحمد، شيخ جدّين، مخيما على بلاد صفد وأبو سنان ودير حنا وجدّين. في الوقت الذي كان فيه ابن ماضي المحصَّن في قلعة صانور يهبّ بنيرانه حارقًا أطراف الناصرة وقراها ومرج بني عامر وحيفا والطنطورة. في حين ظل محمد باشا صاحب اليد الطليقة التي تصل إلى كل ركن من أركان ولايته.

البلاد؛ وليس هنالك أفضل من الزيادنة على ما هم عليه اليوم من قوة ومن كرَم. كما أننا لا نشكّ في حبهم لنا، فنحن الذين أتينا بهم من طبرية وكنا عونا لهم، وهم الآن، تسلّموا عرابة واستطاعوا أن يمتلكوا قلوب أهلها وقلوب ما جاورها من قرى.

أحسّ الأمير قعدان أنهم على أبواب زمان آخر، ولكنه كان يدرك، أن طُرُقهم مغلقة، وإن لم يستطيعوا التحرّك بسرعة فإن سيل ابن ماضي سيجرفهم.

أما ظاهر، فقد كان يراقب من بعيد ما يحدث، غير قادر على أن يحدد تمامًا، في أيّ أرض سيجري ذلك السَّيل أخيرًا أو يصُبّ.

***

في ذلك المساء البارد من شهر كانون الأول، اجتمعوا في ديوان الزيادنة: أمراء عرب الصقر وظاهر وإخوته وعدد من كبار عرابة. الرّيح تهب جافة كالنّصال في الخارج، والأمير رشيد الجبر يبحث عن مدخل للحديث، لا يبدو فيه أنه في موقف ضعف.

تحدّثوا في أمرهم، أمر عرابة الذي لا يمكن أن يبقى على حاله! تحدثّوا عن يوم يُعزل فيه والي صيدا فجأة، فيجدون أنفسهم بلا غطاء! وذكّروا أنفسهم بولاة دمشق، وهي أكبر الولايات، وكيف يُعزلون من مناصبهم، أحيانا، قبل مرور عام على توليهم لها، وفي أحيان كثيرة لا يستقيم بعضهم في موقعه، حتى، نصف عام! بحيث تم تغيير، حوالي، أربعين واليا في أربعين عاما.

كل تلك الهواجس كانت تقلق ظاهر، لكنه وإن كان يخفيها، كان ينظر لبعيد يناديه.

قاطع الأمير رشيد الجبر أفكار الحضور المتضاربة، الأفكار الباحثة دون جدوى عن لحظة طمأنينة:

- مساكم الله بالخير. حيّاهم.
- مساك الله بالخير.
- أريد أن أرمي عليكم مسألة.
- تفضّل يا أمير.
- هذا رمحي. قال. ثم قبضَ على الرّمح، وأضاف: أريد أن يكون رمحي هذا واقفًا على أرض من حجر الصُّوان، فأخبروني ما الحيلة؟!
- هذا طلب محال! قال سعد.

وقال يوسف: ننقر الصّخر ونثبته داخل النقرة!

وقال شيخ من عرابة: لا أظن أن الأمير يقصد بهذا القول الرّمح فعلا، بل ما هو أبعد من هذا.

فردَّ الأمير رشيد: صدقتَ، ولكن اسمح لي، إنني أقصد الرّمح أولا.

أدرك ظاهر بسرعة، أن الأمير قد أوصى من معه بالصّمت، فقد كانوا ينظرون في وجوه الزّيادنة ومن حضر من أهل عرابة، وينتظرون الإجابة.

تركهم ظاهر يجرّبون حظوظهم، وقد تحوّل الأمر، الذي لم يكن لعبة، إلى ما يشبهها من ألعاب وألغاز ليالي السَّمر.

في النهاية، كان لا بدّ من أن يصمتَ الجميع، فقال الأمير رشيد الجبر:

- يبدو أن مسألتي صعبة فعلا؛ ولكنني لم أسمع الشيخ ظاهر!

أخذ ظاهر نفسًا عميقًا، ثم نظر إلى الأمير برهة، فراحوا يترقَّبون ما يمكن أن يقوله، بعد أن أعيا حلُّ المسألة كلَّ مَن في الديوان. رفع ظاهر رأسه، فرأى السيل على وشك أن يجرف عرب الصقر.

- إلى أين تنظر يا شيخ ظاهر؟

- إلى ما أراه هنا.

- ولكنك تنظر للبعيد، أم أن بصيرتي تخدعني؟!

- صدقت أيها الأمير، ولكن ذلك البعيد قد وصل.

- لقد عرفت حلّ مسألتي إذن؟!

- إنها سهلة أيها الأمير!

- أنتظر جوابك كما تنتظره كل هذه الوجوه الطيبة.

- هات يدك وانصب الرُّمح أمامي أيها الأمير.

امتدتْ يد الأمير رشيد ووضعت الرّمح بشكل قائم أمام ظاهر الجالس بجانبه. رفع ظاهر يده، ووضعها فوق يد الأمير، وقبض على الرُّمح.

- وبعد هذا؟! سأل الأمير رشيد.

- ها هو الرّمح ثابت كما أردتَ، فسواعد الفرسان أقوى من صخر الصُّوان أيها الأمير!

التفت إليه الأمير وقال: والله، وقد رأيتُ ما رأيتُ فإن هذا لا يمنعني من القول إنني أتيت إليك يا ظاهر.

***

حين اختلى الأمير رشيد بأمراء عرب الصّقر وشيوخهم بعد عودته، سـألهم: كيف رأيتم الأمر؟

فقالوا: الرأي رأيك أيها الأمير.

فنظر في وجوهم، ثم هزَّ رأسه وقال: لقد سلَب هذا الرجل عقلي، ولكنَّ مـا أغمّني أنه وضع يده فوق يدي، ليقول لي ولكم: إنه بهذا يملكنا، ويعلـو علينـا، وإننا لا نستطيع مخالفته. ولكن لا بأس، أرسلوا إلى عرابة مـن يخـبره بقبولنـا أن يكون رأسا علينا، قبل أن أندم.

في ذلك اليوم الغائم من أيام كانون الأول الباردة، بزغت شمس عصر زمـن آخر، لا يشبه أيّ زمن سبقه!

أحزان نفيسة وعودة الماضي

وجدتْ نجمةُ في نفيسة ابنة أعزّ من ابنة، ووجدت نفيسةُ في نجمة أمّا أعظم من أمّ!

هي لا تعرف إن كان يحقّ للمرء أن يرى أبا أو أمّا ويتمنّى أن يكونا أبويه أم لا! لكنها أوشكت أن تتمنّى لو أن نجمة كانت أمّها.

تذكر نفيسة الكثير عن (زين)، أمها؛ الكثير الذي جعلها دائما قريبة من أبيها؛ إنها على يقين من أن أمها، لو كانت حية، لما قبلت بزواجها من ظاهر.

كانت زين من عائلة كبيرة، لكنّها لم تحمل من العائلة ذلك التّواضع الجميل الذي يرفع الناس أكثر. وعلى الرغم من انحدار زوجها من أسرة شريفة، إلا أنه سايرها حتى لحظة مماتها. متنمِّرة كانت، ومستعدة لإنفاق كل ما لديهم من أجل رداء أو حِلْية جديدة سمعت عنهما، ولم يكد ينقضي الأسبوع الأول من زواجها حتى كانت قد حوّلت البيت إلى حفلة سمَر متّصلة.

لم تكن زين تتعب من التظاهر، وقد أدركت نساء دمشق الملتفّات حولها ذلك، فبالغن في مديح بيوت لم يدخلْنها، ونساء سمعن عنهن في حلب وصيدا ومصر، فراحت تسابق أطياف النسوة البعيدات لتثبت أنها أكثر سخاء من أيّ امرأة على وجه الأرض.

أما الشيء الذي أربك أهلها وأربك زوجها، فهو إنجابها لنفيسة، صاحت: لست أنا من تنجب بنتًا! وكانت غاضبة، بحيث لو كان بمستطاعها أن تعيدها لأعادتها!

لكن الحسينيّ، ما إن رأى الوليدة حتى قال بصوت عال: أيّ درة نفيسة هذه؟!

وهكذا احتار فيما بعد، هل يسمونها درّة؟ أم يسمونها نفيسة؟!

اهتدى إلى أن الدُّرّ موجود، لكن الدُّرة النفيسة هي النادرة، فقرر أن يسميها نفيسة.

***

بعد أقل من شهر كانت زين تقيم حفلة كبيرة، بمناسبة عودتها إلى ما كانت عليه: رشيقة، بعد أن تخفّفت من وليدتها.

أما الشيء الأغرب، فهو أنها، فيما بعد، لم تَـدْعُ إلى بيتهـا أيّ امـرأة حـضرتْ لتبارك لها بمولودتها، أو أي امرأة أرسلت إليها هدية بهذه المناسبة!

وحين كان إخوتها ووالداها يطلبون رؤية البنت، كانت تنتفض كما لـو أنهم يذكّرونها بفضيحة، أو يعيّرونها!

كل تلك الكراهية لنفيسة من قبل أمها، تحوّلت إلى محبـة بالغـة مـن أخوالها وخالاتها ووالدها؛ في الوقت الذي رأى فيها أبوها أميرة البيت وشمسه.

***

لم تعرف نفيسة إن كان السبب في عدم وجـود أخـوة، هـو عـدم رغبـة أمها بتكرار التجربة، خوفًـا مـن إنجـاب ابنـة أخـرى، أم أن الأب نفـسه قـد عـافَ زوجته، فلم يعد راغبا أن تمنحه ولدا أو بنتا!

في ذلك البيت الشّامي الكبير، الذي يضاهي بعدد غرفه أفضل بيوت الولاة، عاشت نفيسة مع مرضعتها التي أصبحت مربِّيتهـا فـيما بعـد. في الوقـت الـذي أصبحت فيه أسرة زين تنتظر، وبلا ضغائن، أن ترى الحسيني يعيد إليهم زين في أي لحظة.

لكن المفاجأة أنه لم يفعل.

وحين تحدّثوا معه مباشرة في الأمر. قال: لا تتحدّثوا معي في أمر يمـسّ أهـل بيتي!

بعد سنة من ذلك، أحضر له والد زوجته جاريةً بيضاء.

حدّق الحسيني في الجارية، فأدرك أنها أجمـل وجـه يمكـن أن يـراه في حياتـه، وبدت بحرير ثوبها الليلكي والشّال الأزرق الملقى عـلى كتفيهـا، مثـل عـرائس البحر.

- إن لم تقبلها، سآخذ ابنتي!

- سأقبلها! ولكن، أخشى أن أظلمها بوجودها في هذا البيت.

- يمكنك أن تكابر كما تشاء، لكنك لن تستطيع أن تعيش أعمـى مـع جمـال كهذا تحت سقف واحد!

***

لزمن طويل، ظلّت نفيسة تتعامل مع تلك المربية باعتبارها أمها. وكان أكثر ما يدهشها، تلك المرأة التي تسكن البيت نفسه، وتقيم احتفالاتها التي لا تنتهي، لكنها لا تردّ عليهم تحية الصباح أو المساء، إذا ما صادفتهم. وقبل أن تبلغ نفيسة الثانية عشرة من عمرها، استيقظت ذات صباح على صراخ جارح. سألت: ماذا حدث؟!

لم يجبها أحد، وبعد ساعات علمت أن زين ماتت.

الشيء الغريب، أن أحدا لم يحزن لموتها، ولولا حرمة الأموات، لخرج أهلها في عرسٍ في ذلك اليوم نحو مقبرة الفراديس.

***

- لم أحزن يا خالتي نجمة، إلا يوم علمتُ أن تلك المربية ليست أمي. وهم يخبرونني أن التي ماتت هي أمي! حزنت كثيرًا، وأنا أحسّ أنهم، ودون أن يدروا، قد قتلوا أمي المرضعة أمامي، وانتزعوني منها لإلقائي بعيدًا في عتمة ذلك القبر الذي من المفترض أن أمي الحقيقية دُفنت فيه.

بعد أقل من شهر صار أبي قادرًا على الابتسام، ليس أمامي فقط! وأصبح البيت نفسه يبتسم لي، الياسمين والقرنفل والفلّ، وأصبح بإمكاني أن أجلس على طرف البحْرة التي تتوسّط ساحة البيت، وأغمر قدميّ بمائها وأمرجحهما بفرح. وتحوَّلت تلك الجارية إلى فَراشة ترفّ دون خوف، حولي، وحول أبي.

***

- لو أنك أمي يا خالة نجمة!

- أنا أمك وحماتك أيضًا، ولو لم يعد ظاهر بك من الشام، لذهبت وبحثت عنك، لأنني سأعرفك من بين كل نسائها!

- وكيف ستعرفينني وأنت لم تريني من قبل؟!

- حين تقول لك نجمة إنها ستعرفك، فعليك أن تصدّقي ذلك!

صمتت نفيسة قليلا، ومن بين دمعتين قالت: كنت أتمنى أن تكون لي ابنة لأحبها كما لم تحبني أمي. كما تحبينني!

الباب الواسع

بعد عشرة أيام من اختيار عرب الصقر ظاهر زعيا لهم وللزيادنة، اجتمعوا.

كانوا يعرفون أن عليهم التحرّك سريعًا، فالناس معلّقون في حبال الوقت، وكلّما مرَّ يوم آخر تساقطوا قتلى بسيوف الدولة وظلم أعوانها.

أدرك ظاهر محنة عرب الصقر. أدرك أن اليوم الذي لك، لا يمكن أن تُراهن على أنه سيكون لك غدًا. كان يعي تمامًا، أنه اختطَّ طريقًا لا رجعة فيه.

اتفقوا على أن ينزل الأمير رشيد الجبر وعربه في المرج بين عكا والناصرة، وأن يُحكموا قبضتهم هناك، وأن يعود الزيادنة، وعلى رأسهم ظاهر، إلى طبرية.

كان ما ينقص الجميع هو وجود الشرارة التي تبرر خطوتهم التالية. وبدا ظاهر، في نظر الجميع أنه الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يراها.

***

رفضت نفيسة البقاء في عرابة: جئت معك من الشام، فلن تتركني هنا وحيدة وتذهب إلى طبرية!

أما نجمة، فكانت قد حسمت أمرها، ولم يكن هنالك من يجرؤ على الوقوف في وجه قرار تتخذه.

اختلى ظاهر بنفيسة: لن تبقي في عرابة!

- سأجهز نفسي إذن.

- ستجهزين نفسك للذهاب إلى الناصرة.

- الناصرة؟!

- نعم، الناصرة، لقد بتُّ أعرفك جيدًا يا نفيسة، ولولا وجود أمي نجمة، لأعدتك إلى دمشق. إنني أحسّ وأرى أنك وحيدة هنا، ولأني لا أريد أن أراك بعيدة عني إلى ذلك الحدّ، سأرسلك إلى الناصرة، وأرتّب أمور إقامتك هناك، ففيها كثير من نساء دمشق اللواتي يمكن أن تتعرّفي إليهن، وأجواء الناصرة غير أجواء عرابة. هناك يمكن أن تكوني في أفضل حال.

- كيف سأكون كذلك وأنت في طبرية وأنا في الناصرة؟!

- كل هذا سيكون مؤقتًا. ثم إنني أحبّ أن أكون مطمئنا عليك، فنحن نفتح بابا واسعًا الآن، لا نعرف ما الذي سيكون وراءه!

بكت نفيسة، ولكنها كانت مضطرة أن تقبل.

الحلّ القادم على الطريق

ودّعتهم عرابة بحزن، كما لو أنهم لن يعودوا.

ولكنهم، وقبل أن يخرجوا، أرسل ظاهر أخاه صالح وبعض رجاله ورجال عرب الصقر برفقة نفيسة إلى الناصرة.

عانقتها نجمة، وهمست في أذنها: لا تخشي شيئًا، لقاؤنا قريب.

فحيَّر نفيسة أن نجمة واثقة بوعودها، دائما، إلى هذا الحدّ.

***

سبقهم سعد إلى طبرية. اشترى الديوان الذي باعوه، بعد أن دفع لمالكه ما يريد، ولكنه لم يحاول التقدّم لشراء بيتهم القديم، ما إن علم أن رب الأسرة قد مات منذ أسبوعين. هبّ إلى هناك معزّيا، وقبل أن يخرج، ترك على طرف النافذة كيسين من المال، في كل منهما 500 قرش.

شراء بيوت أخرى لم يكن صعبًا، فقد كان مستعدًا لدفع ما يريده أصحابها وأكثر قليلا. وقبل أن يصل ظاهر، أقام سعد وليمة كبيرة دعا إليها المفتي والإمام والقاضي، الذين فرحوا بعودة الزيادنة، وراحوا يتحسّرون على أيامهم الماضية، وكيف أنهم باتوا أسرى ذلك الشّاويش الذي لا يرحم إلا من يدفع! حيث كان حجم رحمته دائما مرهونا بما يُحصِّله من مال غصبًا.

كان طلب المفتي والقاضي والإمام من سعد، ألا يدعو ذلك الشاويش المتسلِّم إلى الوليمة. فلم يدْعُه.

***

في صباح اليوم التالي لتلك الوليمة الكبيرة، حضر رجل إلى سعد وسأل عن الشيخ ظاهر، فقال له: إنه في عرابة. وقبل أن يُكمل سعد كلامه، استدار الرجل مبتعدًا!

سأله سعد، وقد كان على وشك إخباره أن ظاهر سيصل اليوم أو غدا: ولماذا تسأل عنه؟!

- لي حاجة عنده. وابتعد أكثر.

***

كان ظاهر قد أمضى الأيام الماضية باحثًا عن سبب لدخوله طبرية، سبب يساعده على إيجاد موطئ قدم ثابت فيها، لكنه لم يعرف، أن ذلك السبب سيكون في انتظاره في منتصف الطريق.

بعد وصوله لعَيْلَبُون انحدر نحو حطِّين، كانت أشجار الزيتون والفاكهة تملأ سهلها، فيما القرية نفسها تربض في سفح مرتفع. أما أشجار الصبّار فقد شكّلتْ أسوارًا عملاقة، لا يستطيع إنسان أو حيوان اجتيازها، كما لا تستطيع النار التهامها. ألقى ظاهر نظرة على (قرون) حطِّين، تلك السفوح العارية التي تراجعت نحوها جيوش الصليبيين أمام قوة جيش صلاح الدين، دون أن يعرف قادة تلك الجيوش أنهم بتراجعهم ذاك قد حكموا على أنفسهم بالموت عطشا، لأنهم تركوا المياه التي لا تبعد عنهم أكثر من رمية سهم، هنالك في أسفل السفح.

أبطأ ظاهر من سرعة اندفاع فرسه، تأمل ما حوله.

كل من مرّ من هناك أقسم أنه سمع صهيل الخيول وصليل السيوف وصرخات الحرب تملأ المكان.

***

على أرض حطِّين[1] وجد ذلك الرّجل نفسه وجهًا لوجه مع قافلة ظاهر. كان قد خرج وحيدًا، قابلا بكل ما يمكن أن يحدث له، قابلا حتى بالموت!

سألهم بعد أن ألقى السلام: من أين أنتم قادمون؟

- من عرابة. أجابه ظاهر.

- أنت ذاهب إليها؟

- نعم، والله، لم يبق لي سواها؛ وإن سَدَّتْ بابها في وجهي فستَسُدُّ الدّنيا نفسها الباب!

- اهدأ يا رجل! اهدأ! وما الذي يمكن أن تقدّمة عرابة إليك؟

- بل قل، ما الذي يمكن أن يقدّمه الشيخ ظاهر. لقد أشار عليَّ كلُّ من قابلتهم في طبرية، أن الوحيد الذي يمكن أن يُخرجني مما أنا فيه هو ظاهر العُمر.

---

[1] - وقعت معركة حطين الشهيرة عام 1187 م، حيث هزم جيشُ المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي جيشَ الصليبيين واجتاز بذلك الجليل كلّه وحرر سائر فلسطين.

- وماذا تريد منه؟! سأله ظاهر.

- أعذرني أيها الرجل الكريم، لا أريد أن أُمضي الوقت في الحديث وولدي في السجن هناك.

- أنت لا تُضيّع وقتك يا عمّ، لأن ظاهر هو الذي يحدِّثك.

ارتبك الرجل.

ترجّل ظاهر وأخذه من يده، وابتعد به عن القافلة حين أحسّ بأنه لا يريد التحدّث أمام الناس.

بعيدًا جلسا، وكلما كان الرجل يقول جملة، كان يتلفّت حوله خائفًا من أن يكون أحد سمعها.

لم يكن ابن ذلك الرجل غير مزارع، لم يستطع دفع كل ما عليه للمتسلِّم، فناداه المتسلِّم وقال له: لا تخش شيئا يا جريس، سأدفع ما عليك، وتردّه لي فيما بعد! فما رأيك؟

لم يصدّق جريس أذنيه. وافق؛ وبعد مرور أيام أرسل إليه المتسلِّم: عليك أن تدفع فوائد المال الذي أقرضتكَ إياه!

جُنَّ جريس: أيطلب مني فوائد المال؟! لماذا لم يقل ذلك منذ البداية؟!

ما كان يفكر فيه المتسلم شيئا آخر: لقد رأى زوجة جريس، وعاهد نفسه على الظفر بها بأي وسيلة ممكنة، وحين حانت الفرصة استغلّها.

قصَّت الزوجة شعرها، لوّثت وجهها بالسّخام، ولم يكفها ذلك. غافلتهم وتسللت إلى أعلى سور طبرية مرتين، تريد ألقاء نفسها. في اللحظات الأخيرة أمسكوا بها ومنعوها من أن تفعل ذلك.

وأصرَّ المتسلم: سآخذها ولو ميتة. لقد عاهدتُ نفسي!

أخيرًا، أمسك المتسلم بالزّوج وزجَّ به في السجن مصفَّدا بالحديد. جوَّعه، ومنع والده وأبناءه الصغار من زيارته، وقال: شخص واحد يستطيع أن ينزع عنه قيوده، ويأتي إليه بالطعام قبل أن يموت: زوجته!

لكنها كانت مستعدة للموت ألف مرة قبل أن تقبل بهذا.

صرخ ظاهر: علينا أن نسرع. وقال للرجل: هيا بنا يا عمّ، لا نريد إضاعة مزيد من الوقت.

تابعت القافلة طريقها نحو وادي الحَمام، الذي سمّي بذلك بسبب الأعداد الكبيرة من الحمام التي كانت تتّخذ شقوق صخوره أماكن للعيش. كان لذلك

الوادي الصخريّ رهبته، رغم كل ذلك السلام الذي تنشره في الفضاء تلك الرّفوف، الرّفوف التي تنطلق محلّقة كلما أحسَّت بحركة غريبة في الوادي؛ في الوقت الذي كان صوت ترقرق مياه ذلك الجدول، الذي ينبع من جنوب شرقي عَيْلَبون ويعبر الوادي ليصبَّ في طبرية، يزيد السكون عمقًا.

***

أول ما فعله ظاهر حين وصل إلى هناك مع رجاله، أن ذهب إلى الديوان، وأصدر أول أمر: احضروا إليَّ ذلك المتسلّم الشاويش.

فوجئ المتسلّم بدخول عدد من الرجال المسلحين عليه، نظر إليهم باستخفاف وواصل عمله. كان أمام الزنزانة يفاوض عددًا من الفلاحين على ما سيدفعونه مقابل إطلاق سراحهم.

انتظر رجال ظاهر أن ينتهي، وحين تأخّر، فوجئ المتسلِّم بيد ضخمة تنقضُّ على عنقه وتجرّه أرضًا نحو البوابة الخارجية.

حاول التملّص، لكنه فوجئ بأياد أخرى تمتدّ وتجرّه بقوة أكبر، ثم ترفعه من أطرافه الأربعة. صرخ طالبا تدخّل عسكره، ففوجئ بهم موثقين ومكمّمي الأفواه أمام بوابة السجن. حملوه وعبروا به المسافة من باب السجن حتى باب الديوان، أمام دهشة المارة.

سيمرُّ الكثير من الأيام الجميلة فيما بعد، لكن طبرية ستؤرخ الكثير من الحوادث بذلك اليوم. لقد رأوا ما لم يتخيّلوا رؤيته بأعينهم التي ملأها ذلك المتسلِّم خوفًا.

***

- أنا بعرْضك! صرخ المتسلِّم حين وجد نفسه بين يدي ذلك الشيخ الشاب الذي لم يسبق له أن رآه، ورأى والد جريس بجانبه.

- أنزلوه. أمر ظاهر.

أسقطوه بقوة على الأرض. زحف حتى وصل إلى قدمي ظاهر: بعرضك يا شيخ!

- أوثقوه إلى تلك النخلة، وخذوا المفاتيح منه وأطلقوا كلّ من في السجن.

- سأطلق سراحهم بنفسي يا سيدي، أتركني، أعاهدك سأطلق سراحهم بنفسي!

- لقد تأخّرت في ذلك. أولئك الرّجال، ما كان يجب أن يكونوا في السجن أصلا. والتفت ظاهر إلى العجوز، اذهب مع الرجال، وعد بابنك إلى البيت، وقبل مغيب الشمس تحضره إلى هنا مع زوجته.

***

تجمَّعت طبرية كلّها أمام السجن، عانق الناس سجناءهم، وتصاعد الغناء في باحة السِّجن:

خيي يا ظاهر يا تاجي وراسي
يا سيف الفضّة مشعشع بالماسِ
في يوم وصولك ردِّيت أنفاسي
وخلِّيت الشمس تطلع علينا

خيي يا ظاهر يا خالي وعمّي
يا عِرْق الذّهب شعشع في دمّي
مِين غيرك أهلي.. ويفرّج همّي
م احلى طبرية يوم التقينا

كان الناس بحاجة لذلك اليوم أكثر من حاجتهم لأيّ شيء آخر، بعد أن أحسّوا، أن من لم يُوضع في السجن قد سجنه ذلك المتسلم في بيته وحقله؛ حين ضيَّق أحلامهم وحشرهم، دون رحمة، في قلق لا ينتهي على أنفسهم وأشجارهم وبناتهم ونسائهم.

***

لم تصدِّق زوجة جريس حين أخبرها زوجها وحماها بما حصل. طلبوا منها أن تغسل وجهها وترتدي ملابسها، لأن المساء قد حلّ وظاهر في انتظارهم.

رفضت أن تغيّر هيئتها، قبل أن ترى بعينيها المتسلِّم موثقًا.

ظلّت تسير، تتقدَّم خطوتين وتتراجع خطوة حتى وجدت نفسها أمام الديوان. بعينيها المتعبتين المثقلتين بأسى لا مثيل له، رأت المتسلِّم موثقًا إلى جذع النخلة، تراجعت خائفة حين رأته يتفلّت. أحسّت بحركة ما خلفها، كان سكان طبرية كلّهم هناك. ارتبكت أكثر.

خرج ظاهر من الديوان، وقد تخفّف من كل تلك الملابس التي وصل بها صبحًا، بسبب ذلك الدّفء الذي يغمر طبرية في مثل ذلك الوقت؛ وأشار إليها أن تتقدّم نحوه. سارت وهي تشدُّ بيد على يد زوجها، وتشد بيد على يد حماها.

- ما طلبتُ مجيئك إلا لتري بعينيك مصير هذا الفاسق، وتطمئني.

ناولها سوطًا، وقال لها: اضربيه.

أمسكت السّوط، وتأمّلته شبه غائبة. قال لها ظاهر: لا تتردّدي.

وصاح الناس خلفها: اضربيه.. اضربيه!

تقدّمت نحوه وفي يدها السوط، لكنها كانت خائفة: وجاءها صوت الجموع: اضربيه.. اضربيه!

فجأة ألقتِ السّوط أرضًا، فتعالت احتجاجات الناس خلْفها وتأفّفهم!

نظرت إلى نعليها، فرأتهما؛ كان ملطخين بالطين والعذاب الذي خوّضت فيه مرات ومرات كي تستطيع الإفلات من ذلك المتسلّم. خلعتْ النّعل الأيمن وحملته، ونظرت إلى المتسلّم. راح يرجوها: رحمتك يا أختي!

عند ذلك خلعتْ النعل الآخر، وانحنت وتناولته، وتقدّمت نحوه، وانهالت عليه بكل ما فيها من قوة تصفعه بنعليها بجنون، والناس صامتون حولها، لا يجرؤ أحد على التنفّس، في الوقت الذي كان بعضهم يبكي فرَحا وتأثّرًا.

بعد زمن، أحسّ الناس بقطرات مطر تنزل، وتبلل ثيابهم؛ وظلّت تصفعه وتصفعه. وهبط الليل، وظلّت تصفعه، وأطلّ قمر خجول من بين غيمتين وظلت تصفعه، وأشرقت الشمس وهي تصفعه.

عند ذلك تقدّم ظاهر صوبها، وأمسك بيدها التي كانت تختزن من القوة ما يؤهلها لأن تصفعه حتى يوم القيامة.

استدارت بوجهها نحوه. كان كلّ ما علق بوجهها من رماد قد تلاشى، بحيث لم تعد ذلك الكائن البائس.

- خذ زوجتك إلى بيتك يا جريس، وحلّوا وثاق هذا الفاسق، وأركبوه جحشًا بالمقلوب، وطوفوا به في طبرية، وحين ينتهي الناس من شتْمه وصفْعه، ضعوه في السجن، وأحضروا ليَ المفتاح!

صاحب الجسد النحيل

على باب الديوان فوجئ ظاهر بذلك الجسد النحيل، فوق حصان أسود.

خفق قلبه.

صاح صاحب الجسد النحيل، وقد سحب سيفه: لنر تلك القوّة التي يقولون بأنك تملكها!

بهدوء تحرّكت يد ظاهر باتجاه سيفه، سيف والده؛ وبحركة سريعة استلّه من غمده.

تأهّب من كانوا يرافقون ظاهر، فأعطاهم إشارة أن يهدأوا.

دار صاحب الجسد النحيل حول ظاهر:

- إذا كنت تريد القتال فأنا جاهز! قال له ظاهر الذي لم يمْهله. هوى بسيفه، لكن صاحب الجسد النحيل انسحب بخفة الريح، وأغار على ظاهر.

اشتبكا طويلا. نزّ عرق غزير وغطى أذرعهما، ووجهيهما، وانساب فوق أعينهما، في ذلك اليوم البارد. وتلاحما من جديد وافترقا، وتطاير شرر كرذاذ الموج كلما التقى سيفاهما.

صاح صاحب الجسد النحيل: لقد نجحتَ يا شيخ ظاهر.

فقال له ظاهر: نعم، بالإفلات من حدّ سيفك يا بشر.

وترجلا عن حصانيهما، وتعانقا!

الحصان الثاني.. وضيفُ الضيف!

قال له ظاهر: أريد أن أعرف كلَّ ما حصل لك.

قال بشر: أنت تعرف البداية، وكيف أصبح بشر رجلا غنيًّا، وما حدث له مع الشيخ فوّاز الذي قال له: حصانان لا يُربطان على مذود واحد. في البداية ظننت يا شيخ ظاهر أنه يقصد رجلا آخر، فقلت له: صدقتَ، لأنه لم يخطر ببالي أنني الحصان الثاني. وحين قال لي: ما دمنا اتفقنا على ذلك، فمتى سترحل؟ أدركت أنه يقصدني فارتبكت: وقلت له: الآن يا شيخ، الآن!

فقال: لا. لن ترحل الآن، سأمهلك ثلاثة أيام كي ترتِّب أمورك يا بشر.

ولم أره بعد ذلك ولم يرني.

كان أول شيء فعلته أن أتيتُ إليك، لأنني لم أجد أحدًا ألجأ إليه سواك. وحين وصلتُ إلى طبرية، قالوا لي: إن الزيادنة غادروها مع عرب الصقر، فكَّرت بأن ألحق بكم، لكنني خشيت أن أُثقل عليكم لأنني سأثقل على من استضافوكم، إذا ما حللتُ ضيفًا على ضيفهم؛ فانتهى بي الأمر وبغزالة عند قبيلة في الجنوب، لكن ذلك لم يدم طويلا، كان عليَّ أن أتركهم أيضًا!

- مرة أخرى؟!

- نعم مرة أخرى يا شيخ؛ فقد أحبتني أخت الأمير! ثم صمت وقال: أنت تعرف، بشر دائما كان يظن أنه لولا قبول ابنة عمه به زوجًا، لما قبلت به أي فتاة أخرى!

- ولماذا تقول ذلك يا بشر، والله لو أن أختي شمّة، بعمرك، ولم تكن متزوجة لزوَّجتك إياها.

- أنت أصيل يا شيخ ظاهر، ولكن هذا مختلف كثيرًا عن أن تختار بشر فتاة بنفسها!

- أنت الوحيد الذي سيصيبني بالجنون يا بشر، ما الذي ينقصك؟ إنك شهم وشجاع وفارس والآن غنيّ، وما زلت تتحدّث عن نفسك بتلك الطريقة.

- إنني يتيم يا شيخ ظاهر! أم أنك نسيت؟

- يا بشر وأنا يتيم الآن، مثلك، فلا أمّ ولا أب!

- أنت تختلف عني كثيرًا يا شيخ ظاهر. أنا في المعركة يمكن أن أكون فارسًا وشجاعًا؛ ولأنني غنيّ يمكن أن أكون كريما مثل أفضل الرّجال أمام أي ضيف، لكنني يتيم أمام القبيلة ويتيم أمام كل امرأة أصادفها.

أخذ ظاهر نفسًا عميقًا، كاتمًا غضبه، ومحاولا تجاوز حالة بشر التي لا شفاء منها. ثم سأل:

- وبعد ذلك؟ ماذا حصل؟

- أخبرت غزالة بأن أمّ الأمير جاءتني وأخبرتني أن ابنتها ستهرب من المضارب مع أول عابر سبيل، وتفضحهم، إن لم أتزوجها! قلت لغزالة ذلك فقالت لي: تزوجها!

- ولكنك زوجتي وأنت الآن حامل بولدنا الأول. آه نسيت أن أخبرك بأنني أصبحت أبا. الصغير اسميته: عمر، والكبير اسميته ظاهر.

قاطعه ظاهر وقد هزّته المفاجأة: ماذا قلت؟!

- ظاهر، لقد قلت لك يا شيخ!

- ولكنك لم تقل!

- بل قلت لك منذ لحظة أن اسمه ظاهر.

أخذ ظاهر نفسا عميقا وابتسم: أكمل يا بشر، في ظني أنني سأسمع أشياء غريبة لا يمكن أن تحدث إلا معك!

***

في تلك اللحظة، وصل أحد رجال ظاهر، وقال: رجال الأمير رشيد الجبر وصلوا يا شيخ ظاهر.

- سأحضر بعد قليل.

والتفتَ إلى بشر: أكمل يا بشر.

- بشر لا يستطيع أن يُكمل ورجال الأمير رشيد ينتظرون. بشر سيقول لك ما تبقّى في مرّة أخرى. هيا يا شيخ، مَن مثلهم لا يجوز أن تتركهم ينتظرون. هيا، وأنا أستودعك الله.

- بل ستبقى هنا، وتجلس إلى جانبي يا بشر.

- أنا؟! وبحضور رجال الأمير رشيد الجبر؟!

- نعم، ستبقى يا بشر، منذ اليوم ستبقى.

الجريمة والعقاب

في اليوم السّادس لإلقاء القبض على الشاويش ورجاله، ضرب الصّقيع طبرية وما حولها، في واحدة من المرات النادرة التي تتكرر كل عدة سنوات. تجمّدت كل قطرة ماء قفزت إلى شاطئ البحيرة، وتحجّر التراب حولها بحيث تحوّل إلى ما يشبه الفخّار.

تجمّد الهواء في الجو، ولو حلّق عصفور في ذلك البرد لسقط كحجر بعد قليل!

- أمامك مهمّة يا بشر؟

- أيّ مهمّة يا شيخ ظاهر؟

- ستمضي على رأس قوة من عَساكري، وتُطلق سراح رجال المتسلّم، على ألا يغادروا طبرية أبدًا، وتُبقي على المتسلِّم في السِّجن حتى نحسم أمره، وبعد أن تكمل مهمتك الأولى، سنتحدث في مهمتك الثانية!

***

حين أشرعوا باب السجن وبدأوا بإطلاق سراح الجنود، صاح المتسلِّم بشماتة موجِّهًا كلامه لبشر: ألم أقل لكم، إنهم لن يجرؤوا على إلقاءنا في الحبس أكثر من أسبوع؟

وفي بادرة غير عادية، وقف يراقب خروج رجاله، دون أن يكفَّ عن هزّ رأسه، متوعِّدًا.

في النهاية، كان لا بدَّ من أن يسير نحو الباب، وعندما وصله، أغلقه بشر بقوة في وجهه، فارتدّ إلى الوراء فزعًا.

شتم وتوعّد ثانية، وصرخ: ألا تعرفون من أنا؟!

- لا، لا نعرف! من أنتَ؟! سأله بشر وكأنه شخص آخر يولد للتوّ.

- أنا متسلّم طبرية وشاويشها، وسترون ماذا سأفعل بكم حينما أخرج.

***

جمع ظاهر وجوه طبرية، وعلى رأسهم المفتي والإمام والقاضي، بحضور الأمير قعدان من عرب الصقر ومن معه، وكتبوا رسالة إلى والي صيدا يخبرونه فيها بكلِّ ما قام به الشاويش، وكيف أضطرّ ظاهر، متسلِّم عرابة، للتدّخل، بإلحاح من أهل طبرية وما حولها، وأن الناس، بعد أقلّ من أسبوع، وجدوا الطمأنينة والأمان، بعيدًا عن حكم ذلك المتسلّم الظالم الذي يسيء للدولة وولاتها ووزرائها وباشاواتها، لأنه لا يقوم بأي عمل إلا ويقول: هذا أمرُ حضرة باشا صيدا! مما جعل بعض الناس يصدّقون ما يقوله؛ وأنتم من أفعاله براء! ولذلك يرجوكم أهل طبرية أن تعيّنوا الشيخ ظاهر متسلّمًا للبلد، فقد كان متسلّمها من قبل، وهو يعرف الناس ويعرفونه، ونحن على يقين من أنه سيكون الأكثر حرصًا على مصالح الدّولة، بدفْع مال الميري في وقته دون تأخير، كما كان دائما. وبناءً على طلبنا جاء إلى طبرية، وقام بحبس الشاويش حماية له من غضب الناس، الذين كانوا على وشك أن يقتلوه، بسبب طمعه الذي أوصله إلى أن يأخذ من الناس حصة مساوية لحصة الدولة، كما لو أنه دولة ثانية، وأنت أيها الباشا منه براء!

وقَّع الثلاثة الرسالة.

تأمّلها ظاهر، ثم قال: محمد باشا لن يبتلع هذه الرسالة إن لم نغمسها له بحصان أصيل! فابحثوا عن حصان يجعله يوافق على ما في الرّسالة قبل أن يفضّها.

قال الأمير قعدان: ذلك الحصان عندي. وما على رسولك سوى أن يمرّ بعربنا في المرج ويقول لهم ما سأقوله له.

***

وصل رسول ظاهر في الوقت الذي أتمّ فيه محمد باشا جمْع قواته.

صرخ: لن يردّني بعد اليوم شيء! هيا، جهّزوا أنفسكم، ولا ننام قبل أن نعود برأس ظاهر! ألا يكفي أنني تسامحت معه وأعطيتهٍ عرّابة؟ ما الذي يريده أكثر من ذلك. إن مَن يطمع بطبرية، سيأتينا مُطالبا بتسلُّم صيدا بعد ذلك!

في صباح اليوم التالي، كانت قواته على أبواب صيدا، تعدُّ العدّة للانطلاق، وهو على رأسها. صاح واحد من طلائع جيشه: هناك رسول من طبرية!

نظر محمد باشا للبعيد، فلم ير غير ذلك الحصان الأزرق الذي يتهادى كما لو أنه يسير على الغيم! اختفى الرّسول من أمامه تمامًا، ولم يبق سوى الحصان والامتداد الذي يحيط به ويزيده جمالا.

- انتظروا ههنا! قال لقادة جنده، وانطلق بحصانه يستقبل بنفسه هبَّة الريح تلك، الموجة، تلك الغيمة!

دار حول الحصان سبع مرات، ولوهْلة كان على وشك أن يقفز ويعانقه. كبتَ انفعاله وصاح في وجه رسول ظاهر: ما الذي تفعله هناك؟!

بصمت اقترب منه الرسول، وناوله رسالة ظاهر. فضّها بنفسه؛ كانت إحدى عينيه تلاحق الحروف على عجل، والثانية تتابع الحصان.

- قُدِ الحصان أمامي، هيا!

كان يريد أن يستمتع بذلك الجمال كلّه، محاذرًا أن يخسر لحظة واحدة. وحينما وصل إلى بوابة المدينة صرخ: من ذلك الغبيّ الذي جاء من طبرية حاملا تلك الأخبار عن ظاهر؟! أما كان يمكن أن يتمهّل ليفهم ما حدث هناك؟

وسبق الجيشَ إلى قصره.

***

في اتجاه آخر، كان يمكن أن تتطوّر الأحداث، لو لم يسلب الحصان عقل محمد باشا؛ فما حدث بعد يوم واحد، هو أن الشاويش غافل من أتى له بطعام الإفطار وقتله، وهرب من السجن؛ لكن واحدًا من ضحاياه الكُثر عرفه، فصاح: إنه الشاويش يهرب، أمسكوا به. ولم يكن الناس بحاجة إلى أكثر من هذا.

أقفل الناس طريقه. جمح حصانه؛ فإذا به يهوي على الأرض ملوّثا بالطين. ومن حيث لا يدري، كانت الرّكلات تنهال عليه من كلّ جانب، كل شخص يتمنّى أن تكون ركلته هي القاتلة.

في تلك اللحظة، صاح ظاهر: اتركوه لي، هناك طريقة أفضل لموته!

فتراجع الناس.

***

- لم أكن أريد أن أراك على هذه الحال، في مثل هذا البرد! ولكنك أنت الذي هربت، وأنت الذي وضعت نفسك بين أيدي ضحاياك.

صاح: احمني يا شيخ، ولك كلّ ما تريد!

- وترشوني أيها الفاسق أيضًا؟! خذه يا بشر أنت وعسكرك وسوقوه إلى بيته، وفتّشوه جيدًا. لا تتركوا قرشًا واحدًا مما جمع في مخابئه إلا وتخرجوه. وإذا لم يعترف بمكان ما أخذه، أرسلوا إليّ، لأن عندي فكرة ستعجبه! بعد ذلك تحضرون كل ما سَلَب وتأتون به إلى الديوان!

كان المتسلّم على يقين من أن ظاهر يعني ما يقول، بعد أن أوثقه بتلك النخلة، بعد أن سجنه، وبعد أن أنقذ حياته في اللحظة الأخيرة التي غدت فيها روحه معلَّقة بنعال الناس.

سار أمامهم مستعدًّا لفعل أي شيء، فقط لينجو.

أخرجوا المال من خزائنَ، من فُرشٍ وحيطان، ومن تحت أكوام روث راكمها لتُخفي ما تحتها من صناديق؛ أخرجوه من بردعة حمار بالية لا يمكن أن يلتفت إليها أحد، ومن حفرة أمام عتبة البيت، يدوس ترابها الدّاخل دون يخطر بباله أن مالًا تحت نعليه! وأخرجوا عدة خيول وأبقار وأغنام شاميّة، ورأوا في قفص دبًّا صغيرًا؛ وأخرجوا سجادة وبُسُطا جميلة ومركِبًا.

سأله بشر وقد تحوّل فجأة إلى نمر: هل بقي شيء؟!

فقال: لا.

لكنهم حين ساقوه إلى ظاهر وطبرية تتفرّج سعيدة على ذلك الموكب، ووصلوا هناك. سأله ظاهر: أصدقني القول! هل بقي شيء للناس في ذمتك؟!

فردّ وهو يرتعد خوفًا وبرْدًا: لا والله يا شيخ، لا والله.

فقال ظاهر: لم تزل ظالما، لقد بقي شيء واضح لا يخفى، وإذا لم تذهب الآن وتطرق باب كل من سلبته شيئًا وتعيده إليه بنفسك، فسأجعلهم يأخذون هذا الشيء منك.

- والله لم يبق لديهم شيء عندي يا شيخ!

- بل بقي أكثر مما ستعيده إليهم!

- وما هو يا شيخ؟! قل لي وأنا أعيده!

- بقي هذا الشَّحم، شحمك، الذي ما كان يمكن أن يكون بهذه الوفرة لو لم تأكل أكثر مما يجب، فهل ستبدأ بإعادة حقوق الناس، أم أتركهم يستردّون حصصهم من هذا الشّحم؟!

تلفّت المتسلّم حوله، فرأى العيون كلّها منصبّة على جسده، وقد أحسوا فجأة بأنه أسمن جسد يرونه. أدرك هو ذلك، فقال: سأفعل كل ما تريده يا شيخ.

- اتفقنا إذن! فليذهب كلّ منكم إلى بيته وينتظر وصول حقّه.

فقال بعض الناس: نأخذ حقّنا هنا ونعود لبيوتنا.

- لا، سيُعيد كل ما أخذه إلى المكان الذي أخذه منه! هذا هو العدل.

تفرّق الناس كل نحو بيته، وقبل أن يبتعدوا، صاح به ظاهر: ولا تنس أن تمرّ ببيت تلك المرأة التي راودتْها عن نفسها.

- لم يبق لها في ذمتي شيء يا شيخ، واشهدوا أنني لا أريد مالي الذي أقرضتهم إياه.

- بل ستمرُّ ببابها، وتطرقه، وتسألها إن كان قد بقي لها حقّ عندك!

- والله إن كل ما يمكن أن تفعله يا شيخ بي أسهل عليّ من هذا.

- بل إن ما فعلتَهُ بتلك الشريفة، لا يعادله مال الكون كلّه.

غيبوبة الجابي واختفاء الشمس!

لم يكن ظاهر بحاجة إلى أكثر من هذا: انتشرت حكاية متسلِّم طبرية في قرى المنطقة كلّها، ولم يكن الناس بحاجة لحكاية يثأرون فيها من متسلِّمي قراهم والجباة معهم، أفضل من هذه. وقبل عودة رسول ظاهر بجواب باشا صيدا، كان الناس قد بدأوا يتركون قراهم سرًّا ويتسلّلون إلى طبرية، بعضهم ليقيم فيها، وبعضهم ليرجو ظاهر أن يمضي ليضمّ قراهم إليه ويطرد المتسلِّمين منها.

كان الناس يهربون وكأن الطاعون يلاحقهم.

أما أغرب ما حدث في تلك الأيام، فهو وصول متسلّم الطابغة إلى طبرية طالبا حماية ظاهر.

***

لقد خسر كثيرون أموالهم، لكن ذلك الرجل الأطول، ما بين البحرين: مقداد، متسلِّم الطابغة؛ كان مستعدًا للتخلي عن كل أمواله راضيًا، مقابل أن يترك له الجباة أغلى وأجمل شيء في حياته.

***

وصل جابي الضرائب وعدد من رجال الدّرك صباح يوم خميس. الشمس مشرقة، والدفء ينشر جناحيه على الكائنات بلطف. ساروا بمحاذاة البحيرة، كعادتهم؛ لكن ما حدث قلَبَ الدّنيا، ما إن وقعت عينا الجابي على تلك الفتاة الجميلة التي تسير صحبةَ عدد من الصبايا، خارجاتٍ من بين شجيرات خضراء.

تجمّد في مكانه كتمثال نحتته العواصف والأمطار وحرقته الشمس بأشدُّ لهيب! لكنه استطاع أنْ يرفع يده، آمرًا الجميع بالتوقّف، حتى تعبر ومَن معها. عبرتْ، وقد أخفت نصف وجهها، بعد أن فوجئت بهم.

راقبها تبتعد، مشدودًا لذلك القوام، وقد تحوّلت روحه التي علِقَتْ بها، إلى حبل مطاط يمتدّ ويمتدّ ويكاد ينقطع لفرط تشبثه بتلك الفتاة.

أخذها انعطاف، خلف الأشجار، على بعد مائة متر منه. انقبض صدر الجابي وأحس بروحه تفارقه.

- ما لك؟! سأله أحد الدّركيين.

لم يستطع الإجابة.

وسأله ثانية. وبدل أن يجيب، سقط كحجر من فوق ظهر حصانه!

ترجّل رجال الدرك بسرعة يتفقّدون رئيسهم. وهم على يقين من أنه فارق الحياة.

جسّوا نبضه. لم يكن هناك ما يدلّ على أنه لم يزل بينهم! جلبوا مرآة ووضعوها أمام أنفه، فلم تر المرآة هواءً! حاولوا إجلاسه، فارتمى على جانبه الأيسر كخرقة!

مدّدوه على الأرض، وقرأوا الفاتحة على روحه، وهم ينظرون حولهم باحثين عن حلٍّ لهذه المشكلة التي وجدوا أنفسهم فيها، بعيدين عن صيدا.

بدأوا يفكّرون في الطريقة التي يمكن أن يحملوه فيها إلى هناك، والوقت يمرّ ثقيلا.

- لم تكن الرحلة شاقة لنقول إنه تعِب!
- لم تكن الشمس حارة!
- لم يكن جائعًا، فقد أكلنا قبل ساعتين!
- لم يكن مريضًا، فقد كان يصرُّ على أن يكون في الطليعة!
- فما الذي أصابه؟! سأل أحدهم.
- تلك الفتاة!! تلك الفتاة! قال الجابي، فتناثر الجنود وقد أصابهم الهلع.

تجرأ أحدهم؛ اقترب منه، وهنأه بالسلامة: ما الذي حدث لك سيدي؟! لقد سقطتَّ فجأة عن ظهر حصانك!

- ألم تروا ما فعلتْه؟ لقد أصابتني في مَقْتل.
- مَن يا سيدي التي أصابتك؟!
- قلتُ لكم: تلك الفتاة؟
- أيّ فتاة سيدي؟!
- التي مرّت من هنا.
- سبع فتيات مررن من هنا على الأقل سيدي! فمن منهنّ؟

- تلك الجميلة؟ ألم تروها؟! عُمْي! كان يمكن أن تقتلني دون أن تنتبهوا! أأنتم جنود، لستم أكثر من حمير! أين اختفت؟!

***

لم تكن الطابغة، تلك القرية الوادعة كمياه طبرية، كبيرة، لكي يختبئ فيها أحد، فماذا وقد تعلّق الأمر باختفاء شمس!

نسي الجابي المحاصيل والدّولة وحصصها. نسي كلّ ما خطط له من اقتطاع أكبر قدر يستطيعه من مال الفلاحين ومن لحمهم، ولم يعد له سوى هدف واحد: أن يعرف ابنة مَنْ تلك الفتاة.

تمنّى أن يكون قد أحضر معه عددًا أكبر من الجنود، لأن أخذ فتاة، وربما تكون زوجة، من بيتها، ليس أمرًا سهلا.

لكن الجنون تحوّل إلى جيش تحت إمرته، يوجّهه حيثما شاء ويقلِّبُ به الأرض والسماء كما شاء، في سبيل الوصول إلى تلك الفتاة.

طاف في القرية التي لا يحتاج المرء إلى أكثر من عشرين دقيقة للمرور بكل بيوتها، طاف عشرين مرّة، ولم ير شيئًا. طاف صبحًا وضحىً وظهرًا وعصرًا ومساءً وليلًا وفجرًا وصبحًا من جديد، دون جدوى. عاد إلى الموقع الذي رآها فيه، دون جدوى. راقبه أهل القرية وقد تحوّل إلى قشة في مهبِّ ريح، دون أن يعرفوا ما أصابه.

***

كان لا بدَّ أن يجد نفسه في النهاية أمام الخيار الأخير الأصعب: أن يطلب من أهالي الطابغة الخروج والتجمّع في ساحة المسجد!

قال مقداد للجابي: قل ما الذي تريده، وأنا أحضره إليك!

أطبق الجابي فمه، لأنه كان على يقين من أنهم سيخفون ذلك الشيء الذي يريده.

- أريدهم هنا كلّهم، رجالا ونساء وأطفالا وشيوخًا! لا أريد أن تتركوا أحدًا في مكانه، حتى الميت، إن كان هنالك ميت أحضروه إلى هنا قبل أن تدفنوه!

- أنت تجعل الأمر صعبًا عليّ، لأن أمرًا كهذا لم يحدث منذ زمن طويل. كان هذا يحدث حينما كانت الدولة تريد شخصًا عاصيًا! فما الذي يمكن أن أقوله للناس، لكي يقبلوا بالتجمّع هنا؟!

- قل لهم أن يتجمّعوا، ولا شيء غير ذلك.
- أعطني مهلة حتى المساء لأدبر أمرّي معهم.
- سأعطيك، وإن لم تأت بهم سآتي بهم بنفسي!

***

استطاع مقداد أن يختلي بواحد من درك الجابي. رفض الدّركيّ أن يبوح بشيء، لكنه ما إن رأى كيس المال يخرج من جيب مقداد ويستقرُّ في يده، حتى بدأ بالتلفّت حوله.

- اطمئن. لا أحد هنا. قال له مقداد.

وقبل أن يسأله عن سرٍّ جنون الجابي، قال الدّركي، وقد امتدّت يده تختطف كيس المال وهي تسابق لسانه: إنه يبحث عن فتاة جميلة رآها عند شاطئ البحيرة صباح أمس!

اصفرَّ وجه مقداد، حتى أنه لم ينتبه لاختفاء الدّركيّ من أمامه. أدرك أيّ مصيبة تلك التي حطّت على رأسه كصاعقه. راح يركض إلى بيته. صاح في وجه امرأته: أين بدر البدور؟

- إنها في الدّاخل.

كانت امرأته أطول امرأة في الطابغة أيضًا، لكنها حين تقف بجانبه، لا تبلغ أسفل خصره!

تأمّلته ساخرة وهو يحني رأسه ليدخل إحدى غرف البيت.

- خايف عليها! لماذا؟! هل قال لك أحد أن غولا سيأكلها؟!

لكن الغول كان هنالك فعلا في الطابغة.

أمسك بدر البدور من يدها. دار حوله نفسه. لا يدري أين يمكن أن يخبئها. دار، وهو يراقب من فوق السور القرية كلّها.

كلُّ مكان كان يقف فيه مقداد، يتحوّل إلى باحة وِلدت فيها نخلة واستطالت في ثوان.

في حمّى دورانه، أدرك أن خروجه معها سيجعلهم يكتشفونه فورًا. وكم تمنّى ألا يكون طويلا إلى ذلك الحدّ في تلك اللحظة. كما لو أن ذلك الطول الذي كان بمثابة نعمة فائضة، تحوّل إلى لعنة فجأة.

" - *سأسحق الجابي بضربة واحدة، سأسحقه.*" قال لنفسه. وقد كان يستطيع. لكنه كان يعرف أيضًا أن ذلك لن يحلّ المشكلة، لأنه سيفقدُ بدر البدور

أيضًا! فبدل أن تبتعد عنه، سيبتعد عنها، وربما يأخذها دركيّ من درك الجابي دليلا لوالي صيدا على ارتكاب الجريمة!

فكّر في شخص يثق به، يمضي بها بعيدًا، إلى أن يغادروا القرية.

خاف أكثر: *"من ذلك الذي يمكن أن آتمنه عليها؟!"*

لم يجد وسيلة أفضل من أن يخفيها في البيت؛ رفع أكياسًا من القمح وأنزل أكياسًا، وحوّلها إلى جدار، وخبأ بدر البدور خلفه؛ وامرأته تراقبه، كلّما سألته شيئا أرعد وكاد يُلصقها بالأرض.

اختفت بدر البدور خلف سور القمح، بعد أن زوَّدها بكل ما يمكن أن تحتاجه، في تلك المساحة الضيّقة، من ماء وطعام وثياب وأغطية.

وخرج.

سألته امرأته: هل ارتحتَ الآن؟!

لم يلتفتْ. كان العرق يتصبب من أعلى جسده كجداول صغيرة، وتفوح منه بقوة رائحة حقل محصود للتّوّ.

***

بحث الجابي كالمجنون عن ذلك الوجه الذي يسكن رأسه، ويقبض بقوة على دماغه ويعتصره؛ لم يره بين تلك الوجوه التي غصّت بها باحة المسجد.

صرخ: قلت أريد الجميع!

تبادل مقداد مع ذلك الدركي نظرة ذات معنى. لم يفهمها الجندي تمامًا، فقد كان مقداد يرجوه ويعده بأكثر مما أعطاه! وكان الدركي يرى فيها إشارة توسّل لا أكثر!

أدار الجندي عينيه بعيدًا عن مقداد، وعند ذلك أحس مقداد بالطعنة. لكن الوقت كان قد فات على إخراجها من القرية.

وجد الجابي نفسه أمام الحلِّ الأخير: تفتيش بيوت القرية بيتًا بيتًا.

أعطى أمره، فاندفع جنوده يفتّشون.

بعد ثلاثة أيام فتشوا القرية فيها ثلاثين مرّة، أدرك ذلك الدّركي، أن سيده سيحبسهم في القرية إلى الأبد، إن لم تظهر تلك الفتاة.

– لم نفتش بيتَ المتسلِّم مقداد، سيدي! قال الدركيّ ببراءة مُصطنعة، وقد بدا ساهمًا!

– ولماذا نفتش بيته؟ إنه المتسلِّم! ولا يمكن أن يخدعنا. ردّ الجابي.

- أظن أن علينا أن نفتش بيته أيضًا، فهو، وإن كان المتسلِّم، إلا أنه واحد من رعايا الدّولة سيدي، أليس كذلك؟!

- هل تعني أن مقداد يمكن أن يخدعني؟!

- ربما سيدي. سيخدعك مضطرًا إذا كانت تلك الفتاة التي رأيتها أخته أو ابنته أو زوجته!

وقف الجابي، وتلفّت حوله، وفي البعيد لمح قامة مقداد تستطلع الجهات قلقة.

- إلى بيت مقداد. قال الجابي.

أمام الباب وقف مقداد كمارد، لكن إحساسه بأنه سيفقد بدر البدور كان يسلب منه كلّ قوته، ويحوّله إلى رجل آخر لا يمتّ لتلك القامة، ولا للقوة التي تسكنها.

رفض في البداية، ثم صرخَ، ثارَ.

- إن كنت تريد أن تقاتلنا سنقاتلك، دع الأمر يمرّ بسلام. قال له الجابي.

ابتعدت قامة مقداد. دخل الدركيون وفتّشوا، في الوقت الذي بقي فيه الجابي يراقب مقداد في الخارج.

بعد قليل خرجوا. قال أحدهم: لا شيء!

أضاءت ملامح مقداد.

- فتِّشوا مرّة أخرى. أمر الجابي.

دخلوا وخرجوا ثانية، وذلك الدركي الذي أفشى لمقداد بالسرّ أكثر حيرة: لا شيء سيدي!

أضاءت ملامح مقداد أكثر.

ابقوا معه هنا، سأفتش بنفسي.

تركهم ودخل، وبعد لحظة سمعوه يصيح: ليأت ثلاثة منكم إلى هنا.

حين دخلوا على عجل، كان يقف أمام سور القمح محاولا اختراقه بعينيه.

***

سار مقداد خلفهم طويلا يبكي، ويرجو الجابي: خذْ كلَّ ما لديَّ وأعدها لي.

والجابي يبتعد.

- خذ حياتي وأعدها لي!

والجابي يبتعد ويبتعد حتى اختفى.

***

فرحة الناس بإعفائهم من ضريبة الميري، مقابل جارية مقداد، طارت، وهم يرونه هناك مكسورًا يجري وراء الجابي، ويرون بدر البدور تتفلّت فوق ظهر الحصان كي تعود.

هبط الليل، وظلَّ مقداد هناك، لكنهم قبل الفجر تجرأوا، فتقدّموا نحوه، وحين أمسك أحدهم بيده، سار معهم عائدًا كطفل.

***

في ذلك الضحى أبصر ظاهر من بعيد منظرًا لم ير مثله: نخلة تمتطي حصانا.

دهشًا وقف يراقب إلى أن اتّضحت ملامح مقداد.

أوقف مقداد الحصان، واستند بقدميه، كعادته، إلى الأرض، فانسلَّ الحصان من تحته، كما لو أنه يمرُّ من تحت جسر!

- جاءك الناس يستجيرون بك، فهل تجير متسلِّما. قال لظاهر.

- المتسلِّم الذي يستجير بي، أقول له، بعد ثلاثة أيام يمضيها هنا في ضيافتي: عُد إلى قريتك، فهي بحاجة إليك؛ وأنا بحاجة إليك فيها هناك أكثر من حاجتي إليك هنا.

- ولكنك لن تتركنا وحيدين في الطابغة يا شيخ.

- لا، لن نتخلّى عنك ولا عن الطابغة. كن مطمئنًا.

- لكن لي طلبا خاصا يا شيخ.

- لك ما تريد.

- أريدك أن تساعدني في استرداد قلبي!

استمع ظاهر إليه؛ وحين انتهى مقداد، قال له ظاهر: نرجو ألا يكون الجابي قد ابتعد بها إلى مكان لا نستطيع الوصول إليه!

روائح الكون الزّكية

تحولت طبرية إلى عرس كبير، في مساء ذلك الخميس، حين انطلقت الفتيات صوب البحيرة، وهن يحملن كميات من الزهور؛ وضحكاتهن تتصاعد إلى السماء نافورة بهجة ملونة.

بحث ظاهر في الأفق الشرقي، فوجد القمر هناك خجولا مثل شمس شتائية. شيء ما، بعيد تحرّك في روحه. سار نحو سور المدينة، صعده، وفي الأسفل، على ضفة البحيرة، كانت الفتيات أشبه بطيور بجع ترفّ بأجنحتها ناشرة في المكان سعادة لا مثيل لها.

غابت الشمس، ارتفع القمر أكثر، فبدأن بإلقاء الأزهار صوب الماء. وبعد ساعة، كان الليل قد حلّ تماما وسطعت النجوم، فبدأ غناؤهن يرتفع بهن ويهبط مثل أرجوحة تتدلى حبالها من السماء.

يا شعري هذا الليل إلك
رفرف وطير راح أتبعك
لما راح يشوفك حبيبي
راح يغنيلك ويجي
وجهو ضاوي كالملَك

يا شعري يا مهري الحزين
يا امرنّخ ابفضة وحنين
نادي حبيبي بيسمعك
لو كان ساكن في حَلبْ
أو كان ساكن في جِنين!

كان ذلك الطقس واحدًا من أجمل طقوس طبرية. بحث ظاهر بعينيه، عبثا، عن بجعة بعينها. حين انتبه لما يفعله، استدار، فقد كان بقاؤه في أعلى الأسوار يفتح في صدره جراحا ظنّ أنها نسيته.

***

في الصباح التالي، ذهب مبكرا إلى الديوان، بعد ليلة لم تكـن صـديقة لنومه. وجد بشر في انتظاره. شربا القهوة معا، واكلا عدة حبات من التّمر التي تغزّل بها جمعة فأفاض. فقال له ظاهر: سنأكل كل ما لديك إن لم تأخذ هـذا التمـر بعيـدا عنا.

ذهب جمعة، فالتفت ظاهر إلى بشر وقال:

- أنا الآن بحاجة إليك يا بشر.

- الشيخ ظاهر بحاجة لبشر! كيف؟!

- ستكون يا بشر مسؤولا عن تكوين فرقة من أهالي طبريـة، وفرقـة أخـرى من البدو.

- أنا؟

- نعم أنت، ومن يمكـن أن يكـون أفـضل منـك لتـدريب عـسكري، لقـد درّبتني أنا، أم نسيتَ يا بشر؟

- لا لم أنس، ولكنك الآن أمهر مني؟

- أنا لستُ أكثر مهارة منك، لأنك لا تريد أن تصدّق أنك أكثر مهارة منـي، أو لعلك تجاملني!

- بل أنت فعلا أمهر من بشر يا شيخ.

- إذن أنت لا تريد أن تصدّق أنك الأمهر. سننهي هذا الموضوع، لقد اتفقنـا على أن تكون المسؤول عن تأسيس الفرقتين، أليس كذلك؟

- بشر وافق. ولكن، أتعرف يا شيخ، أحسُّ حتى هذه اللحظـة بـأنني ذلـك الطفل اليتيم.

في تلك اللحظة، أدرك ظاهر أنك إن أردت بشر الرّجل الشجاع، فضعه على ظهر فرس، أما إذا أردته بشر اليتيم الأشبه بطفل، فأنزلـه إلى الأرض، أو جـرّده من سلاحه، سيفا كان أم عصا!

- يا بشر، الأطفال وجدوا لتجميل العالم، أما الكبار فقد وجدوا لتغييره.

- ومن أنا يا شيخ بين هؤلاء وهؤلاء؟!

- أنت الاثنان يا بشر. ولكن دعنا نعود إلى حكايتك، وما حدث معك، لقـد شوّقتني.

سرح ظاهر بعيدًا، وتذكر أن سنوات طويلة مرّت، دون أن يرزق بطفل من نفيسة، رغم أنهما لم يتركا علاجًا إلا ولجآ إليه

***

في تلك اللحظة، دخل أحد رجال ظاهر حاملًا صرّة بين يديه.

- ما هذا؟! سأله ظاهر.

- هناك امرأة، لم أستطع تبيّن ملامحها، جاءت وأعطتني هذه وقالت: إنها أمانة للشيخ ظاهر!

تناولها ظاهر منه، ثم وضعها أمامه، أحسَّ بما فيها، قبل أن يفتحها، فقد هبّت منها تلك الرائحة القديمة التي ظلّت عالقة بروحه.

فكّ ظاهر العقدتين، فإذا به أمام عباءة مطوية بعناية، ضغط قليلا بأصابعه، فأحس بتلك الكتلة المستديرة اليابسة.

خفق قلبه بشدّة.

- بشر يستسمحك أن يمضي الآن يا شيخ.

- مع السلامة يا بشر، مع السلامة. قالها ساهمًا.

***

حين وجد نفسه وحيدًا، بعد حلول الليل، فتح العباءة بحرص، فبانت تلك الصرّة البيضاء الناصعة. تحسسها برهبة، ثم فكَّ عقدتيها. كانت الجديلة أمامه تتكوّر على نفسها مثل طفل صغير، وتفوح منها كل روائح الكون الزّكية.

طويلا وقف هناك، وهي في يده، إلى أن انتبه لشعلة القنديل التي توشك أن تنطفئ.

أخذ نفسًا عميقًا، ثم نفخ عليها فانطفأت.

الأسرار التي لا تقال حتى للورق

أشرقت شمس اليوم التالي واعدة بنهار أكثر من دافئ.

تجمّع الناس أمام باب طبرية، يودِّعون ويستقبلون، وجلس الإمام يكتب الرسائل للناس، رجالا ونساء. كانت الرسائل التي يرسلها الرجال إلى أسرهم توجه إلى الابن وليس إلى الزوجة، حتى لو كان هذا الابن لم يزل رضيعا! في حين تكتب الزوجات لأزواجهنّ مباشرة، أما التّجار فكان الإمام يمرّ بهم في متاجرهم، ويكتب لهم ما يريدون؛ وكذلك الأمر مع بعض أغنياء طبرية ووجوهها.

كان الإمام عبد الله، الذي احتلَّ الشيب رأسه، تمامًا، في أواسط عقده الخامس، يعرف أسرار الجميع، لكنه يحفظها في صدره، ولا يبوح بها حتى لامرأته. في أحيان كثيرة، كان يتألم، بل ويبكي وهو يرى بعض الناس يُملون عليه رسائل حزينة، وأسرارًا لا تقال حتى للورق! يعود إلى البيت يملؤه الأسى؛ وفي حالات كثيرة يصعد إلى المئذنة ويؤذّن، كما لو أنه يريد أن يوصل رسائلهم إلى الله مباشرة، ليتلطّف بهم.

امرأته كانت تعرف ذلك، فتقول الجملة التي أَلِفَها: اللهم كُن في عونهم! فيعيد وراءها: اللهم كن في عونهم. لكنها لم تسأله، في أيّ يوم، عما يعرفه.

***

قديما، حاول المتسلّم أن يعرف منه بعض أسرار الناس، وما إذا كانوا يذكرون اسمه في الرسائل التي يبعثونها لأقاربهم ومعارفهم! حاول أن يعرف عن صفقات التجار وأحجامها، وأسعار البضائع التي يأتون بها والتي يصدِّرونها. لكن الإمام عبد الله، كان يوقفه عند حدّه بنظرة جافة. وحين تمادى ذات يوم في إلحاحه، سأله الإمام: ألا تريد أن تعرف عدد الدّعوات التي يرفعونها إلى الله سبحانه وتعالى لتأخذ ربعها، ضريبةً؟! أم هل ستكتفي بعدد الركعات، وعدد المرات التي يأتون فيها إلى المسجد الذي لم أرك فيه منذ جئت إلى طبرية؟!

***

في ذلك النهار الذي بدأ ضحاه يتحوّل إلى ظهيرة صغيرة، كان الإمام خائفًا، فقد مرَّت أيام ورسول ظاهر لم يعد من صيدا. راحت أفكاره تُشرِّق وتُغرِّب: *"أيكون الباشا قد حبس الرسول؟ أو حتى شنقه! بعد أن عرف بها حدث لتسلّمه؟! أيكون قادمًا على رأس جيش ليدِّمر طبرية على رؤوس أصحابها؟! ويُعلِّق أولئك الذين وقّعوا تلك الرّسالة، من رموشهم، على بابها؟! أعرف أن ما فعله المتسلِّم لا يغتفر، ولكنّ ما فعله ظاهر به، كان أكبر إهانة لحقت برجل دولة، ربها منذ مائتي عام ويزيد! ولذلك لن يغفروا له فعلته. كان عليه أن يكتفي بعرّابة، بدل أن يأتي إلى هنا طامعًا بطبرية! وفوق هذا كلّه يأتي مع عرب الصقر الذين روّعوا الجليل بغاراتهم، وروّعوا كل مكان خارج الجليل! سيقول لك الباشا يا عبد الله: كيف تشهد زورًا وأنت الإمام؟! صحيح أنني لم أشهد زورًا، ولكنني وقّعت ما أملاه عليَّ ظاهر. وربها يكون حالي أقل سوءًا من حال القاضي، وحال المفتي. أخشى ما أخشاه أن يَعْقِدِ الوالي لحانا الثلاث ويتركنا ندور في السوق كالأرجوزات ليُضْحِكَ الناس علينا!"*

- أين وصلت يا عبد الله؟ أراك سارحًا! ما الذي يُشغل بالك؟!

التفتَ، فرأى القاضي واقفا أمامه.

- أقف أمامك كل هذا الوقت ولا تراني، أنت تفكر في أمر خطير إذن!

- أفكِّر في لحانا المعقودة!

- بماذا؟

- لا، لا أفكِّر في شيء!

- ولكنك قلت شيئًا عن لحانا! ما بها لحانا؟!

- كأنها طالت قليلا، أم أنني مخطئ؟!

تحسّس القاضي لحيته وقد لمّها بين أصابعه، حتى وصل إلى آخرها، وقال: لعلها طالت فعلا!

فجأة صاح القاضي: يا عبد الله، قد جاءنا الخبر الذي ننتظر؛ وصل رسول ظاهر.

نسي القاضي هيبته وراح يجري صوب القادمين، وعندما رأى الإمام عبد الله فرحته تلك، أيقن أنه كان أكثر خوفًا منه.

جيش من رجل واحد!

خائفًا كان ظاهر من ألا يستجيب أحد، فما لهم والالتحاق بهذه الفِرق؟ ولم يزل كل شيء غامضًا: الحاضر، ومصير طبرية. لكنه لم يُرِدْ إضاعة الوقت.

أول من وصل إلى الديوان، هو جريس زوج تلك المرأة التي انتصر ظاهر لها. قال: أحسست أن من العيب يا شيخ ظاهر أن يسبقني أحد إلى هنا ويسجّل اسمه قبلي. رحّب به ظاهر.

مرّت ساعة دون أن يأتي أحد غير جريس. اقترب ظاهر من بشر الذي يمتطي حصانه وقال له: لديك فرقة من رجل واحد يا بشر، فماذا ستفعل به؟

- سأحتل إسطنبول[1] بهذه الفرقة، لو أردتَ يا شيخ.

- إذن، لا تترجّل عن حصانك، قبل أن أطلب منك ذلك!

- لا أظنك تريد من بشر احتلال إسطنبول يا شيخ، بشر كان يمزح!

- ولكنني جاد يا بشر.

نظر ظاهر إليه، ثم انفجر ضاحكًا، وعندها انفجر بشر ضاحكًا أيضا.

مسحوا دموعهم. قال ظاهر: سندع إسطنبول الآن، كي لا نرهق جيشك في حروب بعيدة يا بشر! فقال بشر: بشر وعدك يا شيخ ولن يتراجع!

- بل تراجع يا بشر، تراجع!

***

سمعا ضجة، وحينما التفتوا، رأوا فوجًا كبيرًا من الرّجال يتقدّم نحوهم، فسأل بشر: ولماذا تأخروا إلى هذا الحدّ؟!

فأجاب جريس: لأن رجال الشيخ ظاهر طلبوا منهم أن يتجمّعوا أمام المسجد كي يأتوا معًا. ولكنني لم أحتمل الانتظار فسبقتهم!

التفت ظاهر إلى بشر، وقال له: لا أريد أن أرى قدميك على الأرض، إلا حين نكون أنا وإياك وحدنا يا بشر، فهمت؟

---

[1]- اسطنبول (الأستانة)، (إسلام بول): أي مدينة السلام، وظهر الاسم في التركية لأول مرة بمعنى ثروة الإسلام في عهد السلطان أحمد الثالث، بين عامي 1703 و 1730.

- أنت تأمر يا شيخ.

حاول بشر أن يقول شيئا، ولكنه رأى جريس يحدّق فيه، ففهمه ظاهر، اقترب منه وهمس: تستطيع أن تفعل كل تلك الأشياء دون أن تكون مضطرًا للبقاء فوق ظهر جوادك!

***

في الأسابيع التالية التي مرَّت كلمْح البصر، أثبت بشر أنه خير مدِّرب يمكن أن يظفر به جيش، إذ استطاع أن يحوّل كل تلك الفؤوس والنبابيت والمذاري بين أيدي أولئك المزارعين، بلمسة سحرية، إلى سيوف.

***

وقف ظاهر أمام الفلاحين الذي فرّوا هاربين من متسلِّمي قراهم، وصاح: ليتقدَّم أهالي سمخ.

تقدموا. فالتفتَ إلى بشر، وقال له: مسؤوليتك أن تعيدهم يا بشر إلى بيوتهم، وتُمسِك بمتسلِّم سمخ وتأتي به إليّ.

- ولكننا نريد أن نبقى هنا. صاح أكثر من صوت.

- وأرضكم وبيوتكم تريدكم هناك، وسأكون متسلِّم سمخ كما أنا متسلِّم طبرية.

- ليتقدّم أهالي المجدل.

تقدّموا. وأوصى أخاه يوسف بها أوصى بشر.

وهكذا، انتشر عسكر ظاهر نحو الجنوب والشمال والغرب، يعيدون الناس إلى قراهم، ويعودون بالمتسلِّمين إلى طبرية مقيّدين.

تهامس أهل حطِّين: ومن سيمضي معنا؟

- أنا من سيمضي معكم! قال ظاهر.

***

تأمل ظاهر طبرية وما حولها، من فوق ذلك البرج العالي في زاوية السور، كان الهدوء يغمر الأنحاء، فأيقن أن الأوان قد آن لخطوة أخرى، بعد ثلاثة أعوام طيبة لم تحظ طبرية، من زمن طويل، بمثلها.

مدينة الألف قنديل

راحت أسوار طبرية ترتفع يومًا بعد يوم، فتحوّلت المدينة إلى قلعة حصينة. أمر ظاهر بتغيير الباب، وحرص كثيرًا على ألا يكون أقلّ منعة وقوة من باب دمشق! ذلك الباب الذي طالما تأمّله، وأحس بفخر الجميع به: الوزير، والتاجر والعسكري والقاضي والضعفاء والأقوياء، والفقراء، والأغنياء، وحتى نساء الليل!

أمر برفع الأبراج، فتصاعدت من كل ناحية، فغدت طبرية مدينة أخرى، مدينة جميلة وجديدة. ولأول مرّة، أعفى الناس من عبء مصاريف قناديل الشوارع أمام بيوتهم، إذ أرسل إلى الشام وأتى بألف قنديل، وعيَّن عددًا من السرّاجين الذين ليس لهم سوى مهمة واحدة: ألا يُطفأ أيّ قنديل!

كل من كان يشاهد طبرية عن بعد، كانت تفتنه واحة الأضواء المتلألئة.

هكذا غدت البحيرة مصدر سحر طبرية في النهار، وما إن تغيب الشمس حتى تتحوّل طبرية نفسها إلى بحيرة نور.

كان ظاهر بحاجة لمزيد من البنادق والبارود، أما المدافع فكانت آخر أمر يفكِّر فيه، فهو يعرف أي مشاكل ستحدث إذا ما نصبها فوق الأسوار.

***

وقف عبد الله باشا الأيضنلي، والي الشام، وصرخ: لماذا لم تخبروني بذلك؟! أن يُعلي الأسوار ويحصّن طبرية على ذلك النحو، فهذا يعني أنه يفكر في شيء لم يفكر فيه أحد قبله!

- ولكنه منذ أن تسلَّم طبرية لم يفعل إلا ما هو مطلوب منه. قال الدفتردار[1].

وأضاف: حتى أنني لا أذكر مشكلة واحدة حصلت بيننا وبينه على أي قرش!

---

[1] - دفتردار: (دار) من أصل فارسي بمعنى صاحب؛ أما (دفتر) فأصلها من اللغة اليونانية من الكلمة diphtheria بمعنى جلد الحيوان لأنه كان يُستَعمَل للكتابة. وقد دخلت اللغة العربية من قديم، و أصبحت (الدفتر دار) تعني صاحب السجلات أي المسؤول عنها.

إنه أكثر متسلِّمي بلاد فلسطين أمانة في هذا المجال. كما أن الناس لا يشتكون منه، وهذا ما نريده، فلا شيء مثل القلاقل يجعل الدّولة تخسر مالها ورجالها!

- هذه أعرفها، ولكن، هل باستطاعة أحد أن يفسِّر لي سبب إقدامه على رفع الأسوار وبناء الأبراج وتسليح عسكره؟

- الخوف من غارات البدو! إنه يقول ذلك!

- وأنتم تصدّقونه؟! كيف يمكن أن يخاف البدوَ بعد أن حالف أكبر قوة فيهم: عرب الصقر؟! لماذا سكتّم؟! كيف استطاع أن يلهيكم بمال الميري ويُعمي عيونكم به؟!

- لكنه منذ سنوات، يفعل هذا، دون أن يُصدر عنه ما يُقلق.

- كان ذلك في عرّابة. ألم يكن في عرابة؟ ولكن ألم تفكروا بسبب تركه عرابة والنزول إلى طبرية؟

- لقد بقي أخوه سعد في عرّابة، وهو لا يتأخر عن دفع كل ما عليه أيضًا.

- ولكن، لم يجبني أحد عن سؤالي: لماذا نزل إلى طبرية؟

- لأن الناس كانت تشكو من متسلِّمها.

- لقد ذهب إلى هناك لأنها المكان الأفضل الذي يمكن أن يحصِّنه، والمكان الأبعد عن أيدي الدّولة. لهذا ذهب!

في ذلك اليوم القائظ من أيام دمشق، فكّر عبد الله باشا كثيرًا، ثم التفتَ إلى رجاله، وكعادته، كان حريصًا على أن ينظر في عيني كلّ واحد منهم مباشرة، وقال: لقد آن الأوان لإخضاع طبرية.

- لكنها لم تتمرّد! قال كتخداه[1].

- لقد تمرّدت أكثر مما تظنون!

ثم صمت قليلا، وقال: أريد أن تفعلوا كل ما لديكم لكي يُنهي عرب الصقر حلفهم معه، بالترغيب أو بالترهيب.

---

[1] - وكيله ونائبه.

حرب الرسائل وعاصفة النار!

صاعقًا وقع الخبر على رأس ظاهر: لقد أسر عرب الصقر صالح. قال يوسف.

- كيف حدث ذلك؟

- صادفنا مجموعة منهم تُغير على قافلة قادمة إلى طبرية. وبعد أن ناوشناهم فوجئنا بمجموعة ثانية، حاولنا التراجع لكن صالح لم يستطع.

استدار ظاهر بوجهه بعيدًا عن أخيه يوسف كما لو أنه لا يريد أن يراه. ابتعد يوسف ومن معه. وهم لا يعرفون كيف استطاعوا الوقوف أخيرًا أمام ظاهر، حاملين له ذلك الخبر. فكر ظاهر في الاحتمالات القادمة كلها، لكن الاحتمال الأقسى لم يخطر بباله. استعاد حديثه الأخير مع صالح في ذلك الصباح.

- سأزوّجك يا صالح مع أول ظهور للقمر التالي.

- تزوِّجني؟ يكفي أنك تزوّجت ويوسف تزوّج وسعد تزوّج، فهل علينا أن نتزوج كلنا؟!

ضحك ظاهر: سأجيبك عندما تعود.

***

كان عرب الصقر قد وافقوا على طلب ظاهر الوحيد حين اختاروه رأسًا: أن يتوقّفوا عن الغزو، وأن يكونوا معه يدًا واحدة ضد من يعتدي عليه أو يعتدي عليهم. وعدهم بأن تصلهم حصتهم من المال الذي يكفيهم، كما تصل الدولة حصتها من مال الميري.

وافق الأمير رشيد الجبر على ذلك.

- سيكون وقتكم كلّه لكم، تربّون أولادكم وترعون مواشيكم، وتتاجرون بها ...

كرر الأمير رشيد الجبر موافقته، بل وبدا سعيدا باتفاق كهذا يحميهم ويحمي أولادهم من ويلات الغزو التي تختطف أرواحهم بين حين وآخر.

حين غادر ظاهر وأخوه سعد مضارب الصقر، قال له سعد: منحتهم ما لا يمكن أن تمنحه حتى لأهلك!

- أعرف يا سعد، أعرف! ولكن إذا أردنا أن تكون هذه البلاد بلادًا، فعلينا أن نبعدهم عن الطرقات؛ فإذا ما واصل الناس خوفهم من غاراتهم لن يطمئنوا على مالهم ولا على عيالهم. أريد أن يجلس الناس في أرضهم يا سعد وأن ينزرعوا بجانب الشجرة التي يزرعونها، فإذا أخصبت أرواح الفلاحين أخصبت الأرض يا سعد.

- ولكنني لم أزل أرى أنك أعطيتَ الصقر ما لم يُعْطَ إلا لسلطان، وأخشى أن ذلك كله لن يفيد.

- وما الذي يمكن أن يفيد يا سعد؟! أن أتركهم يواصلون غاراتهم، وأنا أنظر إليهم؟! أن أتركهم يهدمون كلَّ حجر أبنيه ويفطرون كل قلب أستميله؟! سأكتفي بكل لحظة اطمئنان يحظى بها الناس ما بين بحر الجليل وعرابة، فأنا بحاجة لهذا الاطمئنان، وأنا طامع فيه أكثر من طمعهم بالمال الذي سأمنحهم إياه.

- سيأتي يوم وتجد نفسك معهم في حرب جديدة.

- أعرف. لكنني لست بحاجة لشيء الآن مثلما أنا في حاجة إلى أن أبني يا سعد.

***

نجحتْ خطة ظاهر إلى ذلك الحدِّ الذي تمنّى معه سعد أن لا يكونٍ قد قال ما قاله لظاهر في ذلك اليوم. لكن ذلك الخوف، خوف سعد، عاد وأطلّ من جديد.

راحت الغارات تتزايد يوما بعد يوم. في البداية قال الأمير رشيد الجبر: مَن يقومون بالغزو ليسوا من الصّقر، بل من قبائل أخرى تدّعي أنها من الصقر لتُفسد علاقة الودِّ القائمة بيننا!

لم يقل ظاهر شيئًا. إلى أن أمسك بعدد من رجال الصَّقر؛ وبعد تفكير، قرر أن يعيدهم سالمين إلى الأمير رشيد بصمت.

أوصى ظاهر رجاله أن يوصلوهم.

- ألا تريد أن تبعث للأمير برسالة؟! سأله أخوه صالح.

- هؤلاء الأسرى هم الرّسالة يا صالح، وليس هناك من كلام أبلغ من وصولهم إلى الأمير سالمين!

- أنت تكرمه بإعادتهم سالمين يا شيخ أم تهدّده؟!
- سننتظر ونرى كيف سيقرأ الأمير رسالتنا يا صالح. سننتظر ونرى.

***

من جديد أغاروا. فقرر ظاهر أن يشكل فِرقًا لحماية الطّرقات، وضع على رأس كل منها يوسف وصالح، وعلى الأخرى بشر وجريس وسواهم.

كانت الرسالة التالية للأمير رشيد خمسة قتلى من رجاله.

حاول الأمير رشيد أن يعرف ما إذا كان ظاهر قد قتلهم في ساحة المعركة أم قتلهم بعد أن أسرهم. قال بعضٌ: في المعركة!

وقال آخرون: لقد رأيناهم أحياء في الأسر!

جمع الأمير رشيد تلك القوة التي لن تستطيع معها أية مجموعة من مجموعات ظاهر الصّمود، وخرج بنفسه.

كان مشهد رجال الصقر هو الخديعة: عشرات من الرجال يندفعون صوب القافلة، وعشرات من رجال ظاهر يشتبكون معهم بجرأة، وقد بدت القوتان متعادلتين. لكن ذلك لم يدم طويلا. فقد كان الهجوم المباغت التالي للصقر، كافيًا لحرق الأرض ومَن عليها.

استطاع يوسف ومن معه الانسحاب من ساحة المعركة، لكن رشيد الجبر الذي يعرف صالح جيدًا، لم يُدرك في البداية أي صيد عظيم ذلك الذي وقع في يده.

***

انتظر ظاهر عودة أخيه.. انتظر أكثر؛ وتوقّع كل شيء سوى ذلك الذي حدث. وحين بدأ الخوف يتسلل إلى قلبه، أرسل إلى الأمير رشيد رسالة يقول فيها: ما انتظرتَ كل هذا الوقت إلا لأنك تريد ثمنا باهظا لرأس صالح! قل لي ما هو الثمن إذن. فصالح لا يباع بأموال الدّنيا. ولكن إذا حدث وأن عُرض للبيع فسأشتريه بأموال الدنيا كلّها. فما مطلبك؟!

- مطلبي أكبر من كل ما ستدفعه، لقد سبقك من يملك أكثر منك واشتراه! قل هذا للشيخ ظاهر حين تعود إليه.

عاد الرسول حاملا تلك الكلمات التي نقشها الرّعب في قلبه.

- هكذا إذن. أيبيع صالح؟! إن كان باعه لمن يملك مالا أكثر مني فليعلم أن أحدًا لا يملك رؤوس الصقر مثلما يملكها ظاهر!

***

أدرك الأمير رشيد أن صالح هو أفضل هدية يمكن أن يُرسلها إلى وزير الشام، يمحو به غضب الدولة عليه، الغضب الذي ظل يكبر ويكبر بسبب غارات عرب الصقر في السابق، وحلفه مع ظاهر فيما بعد!

***

صاعقًا وصل الخبر: لقد شنق وزير دمشق صالح.

***

تأرجح جسد صالح طويلا، انتفض، بحثت القدمان المقيدتان بيأس عن هواء يابس تحتهما، هواء مثل ذلك الهواء الذي تحجَّر في الرئتين؛ لم تجدا؛ فسقطتا في عتمة الأبد. استيقظ ظاهر لاهثًا، باحثًا عن حفنة من هواء. على وشك الاختناق كان.

***

- لنُعلِّم الأمير رشيد كم رأسًا من رؤوس الصّقر يساوي رأس صالح.

لم يقل ظاهر أكثر من هذه الكلمات وهو يمرّ كعاصفة من نار على مضارب الصقر.

مباغتا كان الهجوم ..

أول ما فعله ظاهر هو الإغارة على خيمة الأمير رشيد، مال واقتلع الرمح المغروس أمام بابها وكسره، وألقاه في الهواء[1]. حلّق طويلا، ثم هوى، وما إن لامس الأرض حتى اندفع جنوده في مضارب الصقر كالإعصار.

تطايرت الرؤوس في ذلك الفجر الدّامي قبل أن تُشرع أعينها لترى ما يحدث.

سقط الموت كلّه كغيمة صخرية باتساع السماء ساحقة كل ما تحتها.

لم يدم الهجوم طويلا، كان خاطفًا مثل مرور منجل في حزمة سنابل.

أوصى ظاهر عسكره: سنعبر مضاربهم دون أن نتوقّف، ونخرج من الجهة الثانية. لا أريد معركة!

***

---

[1] - يغرس الرمح ليدل على خيمة الأمير كرمز للقوة.

الذهول وحده كان يطوف بين الجثث المبعثرة، بين الخيام الممزّقة، والعيون الجاحظة التي ترى ما أمامها ولا تصدّقه.

بكى طفل لسبب آخر، وصاحت امرأة في وجهه تسكته لا لأنه يبكي، ولكن لأنها لم تستطع بعد أن تفعل ما فعله!

وكما لو أن الجميع فقدوا أرجلهم، جلسوا هناك يحدّقون برعب في ما يجري أمامهم.

بعد ساعتين، أدركت امرأة ما حدث فصاحت، ثم عمَّ العويل.

المتاهة مرّة أخرى!

- الآن، نتقبل العزاء. قال ظاهر.

تدافع الناس من كلّ جانب، حتى بدت الخيول بعدد ذرّات التراب في طبرية. ثم تلاشت، كما لو أن ريحا عاتية هبّت وحملتْها للبعيد.

***

منذ اللحظة التي اجتمعوا فيها بعد إعدام صالح، وطوال أيام العزاء، كان ظاهر قد لاحظ ذلك الأمر الغريب: كلما التفت إلى أخويه، سعد ويوسف وجدهما يحدقان فيه.

كان الصّمت مساحةً من ظلام شاسعة لا يستطيع إضاءتها ألف قنديل.

وظلّت نظراتهما تدور في الهواء وتحطّ على كتفه مثل طائر غريب.

اتسعت أعينهما، كما لو أنها تريد رؤية شيء واحد لا يطاله شك، حقيقة واحدة يمكن أن يصدّقاها. لكن الليل اجتاح النهار كما تجتاح العتمة اللانهائية شعلة قنديل.

كل شيء غدا ثقيلا، خطاهما التي أطبقتْ عليها الأرض وروحاهما.

***

صافح الواحد منهم الآخر كما لو أنهم لم يلتقوا من قبل. صافح الواحد منهم الآخر كما لو أنهم لن يلتقوا بعد ذلك اليوم.

ولم يكن الحزن وحده هناك.

ولا طيف صالح وحده.

نافورة أطياف كانت تدور حول نفسها كنخلة اقتلعها إعصار فارتفعت.

مضى سعد إلى عرابة، يداهمه حسّ بأنه لا يريد أن ينتمي لأي شيء خلفه. أن يكون حرّا من كلّ شيء، من الليل والقناديل والإخوة. وما إن وصل البيت حتى صاح بامرأته أن تحضر له ثلاثة قناديل. تأخّرت، فصاح ثانية.

أطلّت. وضعت القناديل الثلاثة أمامه، دلق ما فيها من زيت، ثم عاد وملأ وعاء صغيرًا وسكبه في القنديل الأول، ووضع المقدار نفسه في الثاني والثالث!

كان عليه أن يشعلها في لحظة واحدة، ولكن ذلك كان مستحيلا، صاح فجاءت امرأته وصاح ثانية فجاء أحد أولاده.

أمسك الثلاثة بثلاث شعلات وأوقدوا القناديل في لحظة واحدة.

طلب منهما أن يخرجا، ويُغلقا الباب خلفهما.

كان القنديل الأول قنديله والثاني قنديل يوسف والثالث قنديل ظاهر!

حدّق في الشّعَل الثلاث، الشّعَل المضيئة غير العابئة بشيء سوى فرحها بقدرتها على تبديد بحر الظلام!

تقدم الليل، *"لماذا يتقدم الليل مع أنه يعرف أنه سينتهي قتيلا على عتبة النهار"؟*

ولأول مرّة أدرك سعد أن النهار محاصر بليلين، يطبقان عليه ويدفعانه كل نحو الآخر، ليبتلعا كلّ ما أعلنه وضوحه من أسرار!

كان يتمنّى أن تتأرجح الذّبالات، لكنها كانت واثقة مثل ثلاثة نهارات، لا ريح تهبُّ عليها ولا عتمة تستطيع اللحاق بها!

وفي البعيد، جلس يوسف أمام ثلاثة قناديل أخرى. العتمة تطبق عليه من خلفه، والضوء يُشهر ثلاثة أصابع ساطعة مهدِّدة في الوقت نفسه.

في تلك الغرفة الواسعة، بدا يوسف كما لو أنه يجفّ، ويتحوّل إلى قطعة من فحم كلما اهتز قنديله.

مرّت نجمة أمام الباب المغلق، كان الضوء ينتشر من شق تحته قويًّا، كما لو أن هناك حريقًا في الداخل.

وقفت صامتة، تراقب. نسيت نفسها. انتبهت حين سمعت الباب خلْفها يُفتح ويُغلق؛ التفتت، رأت ظاهر يتقدّم؛ كان على وشك أن يسألها: ما الذي يدفعك للوقوف هنا وحيدة في هذا الليل؟! لكنه لمح ضوء ذلك الحريق المتصاعد من تحت الباب.

- عاد يوسف لإشعال قناديلنا ثانية إذن؟

هزّت نجمة رأسها.

ودون أن يدري وجد نفسه ينظر صوب الجبال التي تختفي عرابة خلفها.

هل شاهد ضوءا يتراقص أم أنه تخيل ذلك؟!

أمسكها من يدها، وقال: إنني بحاجة للنوم يا أمي، كما لم أكن بحاجة إليه من قبل.

سارت معه، يلاحقهما ما تفلّت من ضوء من تحت الباب.

***

استيقظت نجمة. لم تكن الشمس قد أشرقت، كان الليل هناك في الساحة خفيفًا ومستسلمًا، قابلا بكل ما يمكن أن يحدث له بعد أقل من ساعة!

نظرت صوب الباب. كان هناك ضوء واهن يهتزّ ويهتزّ ويزداد شحوبًا.

انطفأ فجأة. توقّعت أن يفتح الباب ويخرج يوسف، لكنه لم يخرج.

تقدّم ظاهر نحوها خفيفا كروح وشدّ على يدها.

***

استيقظت زوجة سعد، لم يكن بجانبها. خرجت. وجدته هناك جالسا أمام العتبة. كانت تريد أن تسأله شيئًا، لكنه وضع سبابته على فمه، في إشارة لها لكي لا تنبس ببنت شفة.

تراجعت وقد رأت كل ذلك الليل في عينيه.

***

بعد منتصف النهار، خرج يوسف أخيرًا بعينين محمرّتين يحاصرهما أكثر من ليل. مرّ بجانب ظاهر ونجمة. توقّف لحظة، وحدّق في وجه ظاهر. كان على وشك أن يقول شيئًا، لكنه ابتلع كلامه في اللحظة الأخيرة.

امتطى حصانه، وخرج.

***

جلس سعد ويوسف صامتين، كلٌّ يحاول أن يبدأ الكلام، لكن أيًّا منهما لم يجرؤ على قول ما يريد قوله.

قال يوسف لسعد أخيرًا: أريد أن أغمض عيني قليلا، لعلي أستطيع العثور على النوم.

رد سعد: لن تجده.

المهمة الصعبة وعلف الدولة!

مضت الأيام ثقيلة في طبرية. قسوة الانتقام لم تستطع أن تُبعد شبح الخوف، فالجميع يعرفون أن الصقر في النهاية هم الصّقر، ولن يناموا على دمهم.

لكن كل شيء مرَّ بهدوء.

انقطعت غاراتهم، في الوقت الذي استطاع فيه ظاهر أن يضمَّ مزيدًا من القرى إليه.

***

انتظر الأمير رشيد وصول مكافأته من دمشق. تأخرتْ. ولما أصبح أعزل في مرمى اليأس، وصلت قوة من درك وزير صيدا.

هبَّ الأمير رشيد لاستقبالهم، وهو يبحث في أيديهم عن هديته. لم يجدها. بحث عنها في أفواههم، لكنها ظلَّت مغلقة!

طافوا في المضارب كما كانوا يطوفون عادة، وأحصوا المواشي والخيول والجمال كما يحصونها عادة، وفي اليوم الأخير، أخبروا الأمير بما يترتَّب عليه من ميري.

صُعق الأمير رشيد:

- أهذا جزائي. أُخلص لكم وأرسل رأس شقيق عدوِّكم ويكون هذا جزائي؟!

- أنت أرسلت هدية أيها الأمير، وكما نعرف، فإن الكرماء لا ينتظرون هدايا مقابل هداياهم!

- هكذا إذن؟!

- إلا إذا كان لك كلام آخر في هذه المسألة!

- بل صدَقْتُم! صدَقْتُم!

تركهم في مضافته وخرج، وقبل أن ينعطف بعيدًا قال: أعطوهم علف الدّولة الذي يريدونه!

***

إلى دمشق وصل الرّسول السلطاني من إسطنبول حاملا كتاب عزل عبد الله باشا، وفي يوم الخميس الثامن من رمضان، بدأ سليمان باشا عمله واليًا لدمشق، التي دخلها من ناحية الصالحية دون موكب، وحين علم الأعيان والكتاب والمفتون بقدومه خرجوا لاستقباله على عجل.

وصل الخبر إلى طبرية، فأدرك ظاهر، أن اليوم الذي يضيع، لن يجده في انتظاره على بوابة الغد.

***

أمسكت وطفاء، أم الأمير قعدان، أربعة رماح وغرستها في الأرض، ثم وضعت فوقها عباءتها. رآها الأمير رشيد، العائد من إحدى الغارات، فانطلق صوبها. سألها عن السبب الذي يدفعها لأن تفعل هذا. ظلّت صامتة. ألحّ عليها، ولم تكن تريد سوى هذا! وهي ترى الرجال يتحلّقون حولها دهشين، لم تكن تريد سوى أن يراها الجميع، ويحسوا بغضبتها، بدل أن تذهب وتحدث الأمير نفسه بما تريد. تحدّثت عن التشتّت والضعف، وما فعله الأمير رشيد بصالح. دون أن تنسى أن ما فعله ظاهر كان عظيما؛ ولكنها أشارت إلى طيبة قلبه، وضرورة أن نحدثه وننال رضاه، وأن نعاهده على أن ننسى ما مرّ، وأن نعود معه كما كنا.

رفض الأمير رشيد: هل أصالحه بعد أن فعل بنا ما فعل؟

- نعم ستسامحه، فقد كنت البادئ بالظلم، والبادئ أظلم دائما. وستكتبُ إليه، كما أقول لك!

***

بعد ثلاثة أيام، وصل رسول من الأمير رشيد إلى طبرية، حاملا رسالة لظاهر.

كان ذلك آخر ما توقّعته طبرية.

قرأها ظاهر، ثم أخذ نفسًا عميقًا، وقال للرسول: أهلا بهم!

ناول ظاهر الرّسالة لأخيه يوسف قرأها، وصمت.

- ما الذي يحدث يا شيخ؟! سأل القاضي.

ناول يوسف الرّسالة للقاضي بعد أن نظر إلى ظاهر ووجده صامتا.

قرأها القاضي وصمت.

- اشرحوا لنا ما يحدث يا جماعة! ما المكتوب في الرسالة؟!

ناول القاضي الرّسالة للإمام، فدارت بين أيدي الحضور قبل أن تعود وتستقرَّ في يد ظاهر من جديد.

كل من في الديوان جلسوا يحدِّقون في وجوه بعضهم بعضًا، دون أن يقولوا شيئا.

***

بعد خروج جميع من في الديوان، ظلّ يوسف جالسا. نظر إليه ظاهر طويلا، ثم عاد وجلس.

- ما الذي تريد قوله يا يوسف؟!

- أتستقبل الصقر يا شيخ ودماء أخينا لم تجفّ، بعد، عن أيديهم؟!

- كان عليك يا يوسف أن تنظر إلى أيدينا لترى دماءهم التي تغطيها!

صمت يوسف.

- أعرف أن الصّقر لا يمكن إلا أن يكونوا أعدائي، ولكن حينما يطلبون العودة كحلفاء لي فإن عليَّ أن أوافق.

- وما الذي يجبرك على ذلك يا شيخ؟! سأل يوسف وهو يحاول كتم غضبه ما استطاع.

- ما هو أهم يا يوسف، ما هو أهم!

- وهل هنالك ما هو أهم من دم أخيك؟!

- دائما سيكون هناك ما هو أهم وأغلى من دم أخينا، ومن دمنا أيضًا: هذه البلاد يا يوسف، هذه البلاد.

أخذ ظاهر نفسًا عميقًا، ثم قال: لنستقبلهم بكرم لم نستقبل به أحدًا من قبل.

اليوم والأمس والغد

- اشتقت لظاهر وعمر يا بشر، أريد أن أراهم؟
- بل هم الذين يريدون أن يروا جدّهم؟!
- جدهم مَن؟!
- أنت. جدهم أنت يا شيخ ظاهر.
- كيف أكون جدهم ولستُ أكبر منك إلا بعامين أو ثلاثة يا بشر؟
- إنك الشيخ يا شيخ ظاهر، وما دمت كذلك فإنك أكبر من بشر بكثير!
- خذني إليهم، خذني.
- كيف يأخذك بشر إليهم هكذا، يجب أن نحضّر أنفسنا لزيارة كهذه يا شيخ.
- يا بشر! لقد قلت لي إنني جدّهم، وجعلتني عجوزًا، وسأسامحك على هذه! أما أن تقول لي بأن عليك أن تحضِّر نفسك وبيتك لزيارتي، فهذا ما لا أسامحك عليه! هل يزور الجدّ بيت أحفاده بهذه الطريقة؟!
- لا، لا يزورهم بهذه الطريقة يا شيخ. هيا بنا.

امتطى كل منهما جواده، ومضيا.

***

في الليلة الماضية، اختلت نجمة بظاهر، وسألته: صارحني، العُوْق منّك، والا من نفيسة؟!

- والله يا أمي ليس فيَّ ما يعيب.
- رجل يعني.. تمام؟!
- وهل أبدو لكِ أقل من هذا؟
- لا، أنت لا تبدو أقل من هذا، ولكن عليّ أن أسأل، مع أنني سألت نفيسة وقالت لي إن العوْق فيها. لكنني لم أصدِّقها، فهذه المستورة تحبّك يا ظاهر.
- وهذا ما يعذبني.

- أنتَ بحاجة لولد يا ظاهر، وبحاجة لامرأة، فليس من المعقول أن تكون هنا، وتكون هي في الناصرة! أعرف أنك أنت الذي يصرّ على وجودها هناك، لكن زياراتك لها بين حين وحين لا تكفي يا ظاهر.

- أنت تعرفين أنني لن أطعن قلبها بزوجة أخرى.

- لم نصل إلى شيء إذن، كلّ هذا الحديث ذهب هدرًا!

***

هادئة ونظيفة وقوية بدت طبرية في ذلك اليوم من أيام الخريف، الهواء ينشر رائحة البحيرة في الشوارع ويُغري أصحاب البيوت بإشراع نوافذها.

كان بشر، فوق حصانه، صقرًا، وقد طالت لحيته الخفيفة قليلا، وظهر فيها بعض الشيب. بخلاف لحية ظاهر الكبيرة وشاربيه الغليظين الطويلين اللذين غزاهما بعض من شيب، كما غزا لحيته.

ألقى ظاهر نظرة على بشر، فرآه شخصا آخر: *"لكَم غيرتِ الخيل هذا الفتى، ولكَم ستغيره"!*

في أحيان كثيرة يفكر ظاهر ببشر باعتباره ابنه لا صديقه، فكل تلك البراءة، التي يسميها ظاهر: الصفاء. كانت كافية لأن يعيش هذا البِشْر طفلا ويموت طفلا. لكن ظاهر كان يدرك، أن هذا الصفاء لا يكفي لكي يعيش الناس حياتهم كما يجب أن تعاش الحياة في أيّ مكان.

كان بشر ابنه الذي لا بدّ من أن يكبر وأن يصبح رجلا، لكنه لم يكن ينسى غزالة، هذه المرأة الرقيقة الصارمة التي تستحقّ أن تكون ملكة لا أقل.

حين رأت غزالة ظاهر أول مرّة في طبرية، قالت له: يا شيخ ظاهر، لا خوف على بشر ما دام معك. الآن يمكنني أن أنتبه للأولاد!

***

توقّف ظاهر أمام دكان، فهرع صاحب الدّكان إليه، فأشار إليه ظاهر: أنا سآتيك. وحين همَّ بشر بالترجّل عن الفرس، اقترب منه ظاهر وقال له: بماذا أوصيتك؟!

فاعتدل بشر، وراح يتأمّل المدينة بعيني صقر.

اشترى لأولاد بشر بعض الحلوى والمربيات الشامية، التي كانت مشهورة في طبرية والناصرة وسواها. وقال لبشر: هيا بنا.

نداءات بعيدة

الأمر الذي لم يستطع ظاهر الإقدام عليه، هو الذّهاب إلى البحيرة.

اكتفى بتأمّلها من فوق السّور وهو يتابع أعمال بنائه. وقف ذات مرة فوق البرج الجنوبي، حتى نسيَ نفسه، كان البرج يمنحه امتدادًا لا تمنحه إياه تلك الصخرة، لكنه ظلَّ يرى فيها عرشًا لروحه لا يجرؤ على استرداده.

كان أكثر ما يخشاه أن يذهب إلى الشاطئ، فيجد نفسه، رغمًا عنه، باحثًا عن ذلك القبر، رغم أنه تخلّص كثيرًا من ثِقل الدّم. كان يخشى أن يذهب فيجد تلك الفتاة بلا جدائلها!

***

عندما وصلته العباءة الثانية، لم يعرف ما الذي يمكن أن يفعله بها، كما لو أنه نسي تمامًا أن العباءات لم تُحَكْ إلا ليرتديها الناس.

تأمّلها، وفي لحظات كثيرة أحس بأن لها قوة عجيبة، فهي تتفلّت من بين يديه لترتديه، رغما عنه. أتكون الرائحة التي فيها؟ ربما. لقد تشمّمها طويلا في العتمة بعد أن أطفأ القنديل، وأحسّ لأول مرة، أن كمال الشمّ يكون في العتمة، حين يتراجع البصر، وهو يُقصى بعيدًا، تاركًا الأنف وحده مستحوذًا على حصّة العين.

يكاد ظاهر أن يكون على يقين من أنها ارتدتها قبل أن تُرسلها، ربما التحفتْ بها؛ ولعل رائحة الجديلة نفسها كافية لتضميخها بكل تلك النداءات البعيدة، بكل تلك الكلمات التي لم تُقل.

في ذلك الليل، حين عاد إلى البيت،كان خائفًا، كما لو أن نفيسة في انتظاره، نفيسة التي كان بإمكانها أن تحسّ بما تضمره عباءة جديدة دخلت بيتها بيدين خائفتين.

لكن نجمة كانت هناك، نجمة التي فاجأته في الصباح: أخفيتها أو لم تخْفِها فهي ترتديك!

ارتبك ظاهر، كان يعرف أن بصيرة نجمة أقوى من حدّة بصرها. هـي التي بدت وحدها الواقفة كنخلة، حين بدأ العمر يحني ظهور كل من حولها، ويلتهم شعرهم بحدّة بياضه.

- اذهب وتزوّج يا ظاهر.

- أتزوج من؟

- تزوج مَن تريد، إلا صاحبة العبـاءة، فلـم يـزل أمامـك طريـق طويـل، لا يمكن أن تقطعه وقدمك موثقة بحبل معقود بوتد عميق على ضفة طبرية.

- لقد تحدثنا في ذلك وانتهى الأمـر. قلـت لـك، لـن أطعـن نفيـسة بزوجة جديدة.

- لكن نفيسة قادمة يا ظاهر.

- قادمة إلى أين؟

- إلى هنا، إلى طبرية.

- ولكنني لم أرسل في طلبها.

- وصدِّقني أنني لم أرسل في طلبها، ولكنها قادمة!

- متى؟

- لا أعرف، ربما اليوم، غدًا، بعد غد، لكنها قادمة.

***

حمل ظاهر العباءة، كمن يحمـل طفـلا، ودار حـول نفـسه، لا يعـرف، هـل يذهب ويلقي بها في البحيرة مع الجديلتين، أم ماذا يفعل.

طوى العباءة ووضع الجديلتين في داخلها، ثم بسط الشّال البني الذي يغطي رأسه، ووضع كل شيء فيه، وعقده جيدًا، ونادى: يوسف. خبئ لي هذه عندك، لا أريد لأحد أن يراها، وإذا طلبتها منك ذات يوم فـلا تـأت بهـا إليّ مهـما قلـت لك.

- إذا كنت لا تريدها، فلماذا تخبئها عندي يا شيخ؟ أحرقْها!

- هناك أشياء لا يجوز أن تأكلها النار يا يوسف، وهذه منها!

***

تمنّـى ظـاهر أن تكـون الجديلـة الثانيـة آخـر جـدائلها إليـه. وتـساءل: هـل سيعرفها، إن رآها مصادفة في شوارع طبرية، بعد مرور كل ذلك الزمن؟!

لم يستطع أن يجزم. لكن أكثر ما كان يخشاه أيضا، أن يجد نفسه أمامها وجهًا لوجه، دون أن يستطيع تذكّر وجهها.

تأمل ظاهر البحيرة، حتى أحس بأنه يرى سمخ في ذلك اليوم الصافي. وعندما عاد بعينيه إلى ضفتها، أبصر مراكب الصيادين العائدة من رحلة الصيد. نزل من فوق السور ومضى نحوهم. كان أكثر ما يسعده شراء الأسماك منهم عند وصولهم صباحًا. تجمّعوا قرب الشاطئ حيث بقايا سور قديم، وأفرغوا سلالهم.

كميات كبيرة من الأسماك كانت هناك: المشط الطبراني الذي يسميه الناس سمك مار بطرس، وأسماك الشبوط والبلطي، وكميات من البلطي الزيللي الأخضر، والبلطي الجليلي، والكركور الأحمر، وتلك الأسماك الصغيرة بحجم سمك السردين.

- أعرف طلبك يا شيخ ظاهر. قال أحد الصيادين.

- الباقي عليك إذن؟

- هل تكفي هذه الكومة من السّمك أم أزيد؟!

- زد أكثر، فهناك ضيوف قادمون اليوم.

- والآن قل لي: كم ثمنها؟ لا أريد أن نعود إلى حوارنا في المرات السابقة، أنت تقول هذه هديتي! وأنا أقول لك هذا رزق عيالك.

- يا شيخ، أعطيتنا جنة على هذه الأرض وتريدنا أن نجعلك تدفع ثمن عدة سمكات؟!

- ها قد عدنا من جديد؟!

- يكفني قرشان إذن! أم أن هذا كثير؟

- قلت لك هذا رزق عيالك، فلا تحرمهم حقهم فيه. خذ، هذه أربعة!

- ولكن هذا كثير يا شيخ، كثير جدًا.

- لا تنس أن الدولة واحدة من أولادك! ولها قرش من قروشك الأربعة. أليس كذلك؟!

- والله يا شيخ إنني أدّخر لها، كما لا أدخر لأي من أولادي!

- عليك أن تصبر قليلا، عليك أن تصبر.

طفل صغير مُذنِب يأكل ببطء

حينما رأت نجمة كمّية السمك التي جاء بها ظاهر، ابتسمت، وقالت: كنت خائفة من أنك لم تعد تصدّقني.

- ومن لا يصدّق نجمة؟! ولكن ألم تري شيئا آخر تريدين قوله لي؟

- حين أرى سأقول لك! أما الآن، فلا أرى سوى كوم السمك هذا الذي عليّ أن أجهزه، لكي تأكل أفضل وأطيب (صياديّة) يمكن أن تعدّها امرأة على هذا الشّط.

- ولم لا تتركين غيرك يطبخ يا أمي؟

- أتعرف يا شيخ، أكثر ما يعجبني فيك تواضعك وكرهك للمظاهر الكاذبة، في المكان الذي تسكنه، واللباس الذي ترتديه، والكلام الذي تقوله، فلا تحرمني مما هو فيك!

***

حاولت نجمة ما استطاعت أن تؤخِّر موعد الأكل، وهي تطلّ على ظاهر ويوسف بين حين وآخر، مردّدةً: يلزمه وقت قصير لينضج!

ثم تعود بعد انقضاء القليل، وتقول: لماذا لم تفكِّر يا ظاهر بدعوة بشر وعياله. إنهم يحبون الصيادية.

- اطمئني، غزالة لا يصعب عليها شيء، لقد سبق وأن أكلتها عندهم.

- لكنها ليست كالصيادية التي أطبخها!

- طبيخك لا يُعلى عليه. أبصم لك بالعشرة على ذلك.

- ولماذا تبصم لي، ما دمت قادرًا على كتابة وثيقة بهذا وتوقيعها؟!

ضحك ظاهر، ثم لملم ضحكته وقد عبره غياب صالح خطفًا.

كان ثمة مرح دائما في كلام نجمة، ولكن ذلك لم يكن يظهر إلا أمام ظاهر وإخوته، أما إذا عبرت دجاجة، حتى، من جوارها، وهي على وشك أن تقول أمرا طريفًا، أو مهمّا، فإنها تكشّها، وحين تتأكد من أنها ابتعدت، تقول ما تريد.

***

كان لا بدّ أن تأتي بالطعام أخيرًا.

حين مدّوا أيديهم وقد التهمهم الجوع، أكلتْ ببطء مثل طفل مُذْنِب.

- أعرف أنها ستأتي. كُلي الآن.

- أنت لم تزل تثق بكلامي إذن؟! سألتْه.

- ومن يمكن أن أصدّق كلامه أكثر منكِ يا أمّي؟

- صدّق رغبتك في أن يكون لك ولد!

- ها قد عدنا إلى الموضوع نفسه، أتريدينني أن أنهي طعامي يا أمي؟!

- لا، بل سآكل معكم، ولن تنتهوا قبل أن أنتهي.

***

- أحرجتني أمس! كيف تأخرت يا نفيسة عن موعدك؟! قالت لها نجمة.

- لا أذكر أن لنا موعدًا! هل أخبرك أحد بقدومي يا خالتي؟

- لا، لم يخبرني أحد، قلبي كان يقول إنك قادمة أمس، فإذا بك تأتين اليوم.

- المهم أنها جاءت. قال ظاهر.

- لقد مررنا بعرابة، وأصرّ أخوكَ سعد أن نبيت الليل عنده، لأن ست ساعات سفر من الناصرة إلى طبرية، ليست سهلة! قالت نفيسة.

- هذا هو السبب إذن! سعد السبب. دائما هو السبب! لكن ما يحزنني أنكم خسرتم الصيادية التي طبختها من أجلكم أمس، ولم يعد الآن هناك مجال لشراء سمك في مثل هذه الظهيرة. ولكن لا بأس، غدا سأطبخها لكم.

- الأمر بيد الشيخ ظاهر، فإذا وافق على ما جئت من أجله، سنأكل، أما إذا لم يوافق، فسيكون الأمر مختلفا! قالت نفيسة، وهي تمضي إلى الداخل.

سأل ظاهر نجمة: هل تعرفين السبب الذي جاءت من أجله؟

- صدّقني، حتى لو كنت أعرف، وأنا لا أعرف، لما قلت لك، لأنني لا يمكن أن أتدخّل بين رجل وزوجته!! ولكن لم لا تسألها بنفسك؟!

- سأسألها فقط حين أعود من جدين!

المكيدة

كان عدد من مشايخ القرى المحيطة بجدِّين قد وصلوا إلى طبرية يستنجدون به. التفتّ ظاهر خلْفه، وقد أحسّ بأن هناك من يدفعه ليخطو الخطوة التالية! مرّت أمامه صفد، خطفًا، مرّت قلاعها القديمة العالية المنيعة، التي يعود كثير منها إلى زمن الصليبيين، وتوقّف هناك محدّقًا في قلعة جدِّين، القلعة التي استعصت على كثيرين قبله، ومرَّ جبل عامل[1]..

بحث عن حجّة لمهاجمة جدّين، غير التجاء هؤلاء الشيوخ إليه، فلم يجدها. كانت حكاية الظلم الواقع على الناس قد استخدمها بما فيه الكفاية لبسط نفوذه على ما يحيط طبرية من مناطق!

***

لم تمض سوى أيام قليلة على رحيل مشايخ جدّين.

دخل يوسف غاضبًا: إن عددًا من خدمنا قد هربوا.

امتطى بشر وعدد من الفرسان خيولهم لإعادتهم، قال لهم ظاهر: اتركوهم. مهما ابتعدوا سيكونون في يدي!

كان الجميع قد عرفوا بأمر شيوخ قرى جدين، وذلك الغضب الذي أطار عقل أحمد الحسين سيد القلعة، حين علم باستنجادهم بظاهر، فأمر بأن يدفعوا ضعف الميري عقابا لهم.

إلى قلعة جدين التجأ الخدم، فأرسل ظاهر كتابًا لطيفًا إلى سيد القلعة، يطلب فيه إعادتهم. رفض. فأرسل كتابا آخر؛ وعندها أرسل أحمد الحسين رسالة شتم فيها ظاهر ووعد باقتلاع جذره من أرض الله!

باشر ظاهر استعداده، شكّل قوة من ألف وخمسمائة رجل، من طبرية وما حولها، ومن حلفائه عرب الصقر الذين كانوا يسعون لمراضاته، وبدأ بتدريبهم بما يكفل له دخول القلعة؛ وردَّ برسالة، لم تكن أقل من رسالة أحمد الحسين عنفًا،

---

[1] - جبل عامل، تلك البقعة الصغيرة من أرض لبنان، وتسمى في يومنا هذا بجنوب لبنان، وكانت تسمى بلاد بشارة في زمن العثمانيين.

جعلت هذا يجنّ. ولولا أنه يعرف أن الخروج إلى طبرية، دون إذن من الدولة، ليس سهلا، لخرج من فوره وهاجم طبرية.

***

لم يكن يفصل الرّسالتين اللتين وصلتا لباشا صيدا، سوى يوم واحد، كانت الأولى من الشيخ أحمد الحسين، يطلب فيها من الباشا السّماح له بشن الحرب على ظاهر، ولم تكن رسالة ظاهر إلا صورة عنها.

فكَّر الباشا كثيرًا. جمع رجاله، وسألهم عن حلٍّ لهذه المعضلة. اقترح عليه بعضهم أن يشنّ هو بنفسه الحرب عليهما ليؤدبهما! واقترح بعضهم أن تكون الحرب على ظاهر، لأنه منذ وطأت قدماه أرض طبرية يواصل بسط نفوذه على كل ما تصل إليه يده! واقترح آخر أن يُرسل الباشا من عنده من يُصلح بينهما، لأن أيّ حرب تنشب ستؤدي في النهاية إلى الضرر بالدولة؛ إذ تغدو جباية أموال الميري صعبة بعد كل حرب.

سمعهم الباشا حتى النهاية، ثم نهض دون أن يقول كلمة واحدة، ونادى بصوت عال: احضروا كاتب الرسائل. فدخل شابٌّ على جانب كبير من الجمال والرّهافة، واتخذ مكانه خلف طاولة مزخرفة بالصّدف الملوّن.

بأناقة بسط أوراقه، وبأناقة أكثر استلَّ قلمه، ونظر نحو الباشا برقّة، كما لو أنه يقول له: أنا جاهز سيدي!

كانت الرّسالة الأولى إلى الشيخ أحمد الحسين، وفيها يطلب منه أن يشنَّ الحرب ويؤدّب ظاهر هذا. ثم قال له: لتكتب الثانية باسم ظاهر العمر، واتّجه نحو الباب مغادرًا. فلحق به كاتب الرسائل: وماذا أقول له فيها، سعادة الباشا؟!

ألقى الباشا نظرة واسعة على رجاله، وقال: كلّ ما قلناه لأحمد الحسين!

وقف كاتب الرسالة مكانه، وقد أدهشه أن يكتب رسالة واحدة لخصمين.

- حين تنتهي تعال إليّ لأوقعهما. وخرج.

***

فرح أحمد الحسين حين فضَّ الرسالة، فقرأها بصوت عال. ولم يكن ظاهر أقل فرحا منه وهو يقرأ الرسالة الموجّهة إليه!

بسرعة تحرّك الجيشان، بعد أن اتّخذ كلّ منهما موقعه على رأس جيشه.

- هذه أول حروبك يا بشر. لنعد منها منتصرين، فوالله إذا هُزمنا فيها، لن يكون لنا أمل بخوض واحدة أخرى قبل زمن طويل.

- لن يكون لنا إلا النّصر بإذن الله يا شيخ.

***

حين وصل جيش ظاهر إلى البعْنة، أصابته غصة. تلاشى ذلك الزمان الذي يفصله عن تلك الأيام، ووجد نفسه يردِّد: رحمهم الله، كما لو أن شيخها وابنه عباس وبقية عائلته قد قُتلوا قبل لحظات.

"أهي مصادفة، أن أخوض هذه الحرب أمام أعينهم؟!"

كانت قلعة جدين أمامه، وضحايا البعنة خلفه، فأحسّ بنظراتهم تثقب ظهره لفرط تحديقهم فيه.

***

لم يكن الشيخ أحمد الحسين يرى في ظاهر أكثر من عدوّ صغير سيمحقه، دون أن يكون مضطرًا للاستعانة بمنعة قلعته، القلعة التي تحيط بقرية جدّين نفسها، تحتضنها وتحصِّنها.

- لقد جاءنا بنفسه طالبًا هزيمته فلا ترحموه! أيصمدون أمامنا ساعة؟!

- بل نصف ساعة. ردّد عساكره بحماس.

- أيصمدون أمامنا ساعة؟

- بل نصف ساعة. أعاد عساكره.

- نصف ساعة إذن، إنه قَسَمُنا.

وأعطى إشارة الانطلاق، فاندفعوا كالنهر الهائج عبر البوابة الكبيرة.

***

- لم نأت إلى هنا إلّا لننتصر. خاطب ظاهر عسكره بصوت مجلجل. إن رجالا مثلكم يعرفون معنى العدالة لن يسمحوا بأن تُواصل أمهاتهم وأخواتهم وآباؤهم وأخوتهم وأبناؤهم في هذه القرى العيش تحت الظلم. لقد جاءني كثيرون منكم يشكون ظلم متسلِّميهم فنصرتكم؛ وقد حان الوقت لتلبوا استغاثة أولئك الذي استجاروا بنا من أهل جدّين وضواحيها بأن تنصروهم. كل لقمة خبز تُقتطع جوْرا من خبز هذه الأرض هي لقمة خبزكم وخبز هؤلاء، وكل حفنة قمح أو سمسم تُسلب من هؤلاء، هي حقكم كما هي حقهم. لن نعود إلى زوجاتنا وبناتنا وأخواتنا لنخبرهنّ أننا كنا أقلّ من رجال. نحن منذ أن

خطونا خطوتنا الأولى خارج طبرية أقسمنا بأن لا يكون للظلم مكان حيث نصل، ولا يكون للذل مكان حيث تكون جباهنا، ولا للخوف مكان حيث تنبض قلوبنا، ولا للقبح مكان حيث تنظر عيوننا، ولا لإهانة كرامة الناس مكان حيث تكون أيدينا وسيوفنا وإرادتنا.

لنعد أحرارًا إلى بيوتنا كما جئنا، ولنترك وراءنا هذا السهل وقد غمرناه بالعدل والأمان.

***

استدار ظاهر، وحدّق في ذلك الجيش الذي غُصّ به السّهل في الجهة المقابلة، ورفع سيفه وقال: لنذهب إليهم ونعلّمهم معنى العدل.

انطلق ظاهر فوق حصانه، فاندفعوا خلْفه. السهل يرتجّ تحت أقدام خيولهم. وعلى أطراف السّهل بدأت الغزلان تفرّ، والطيور تحلّق مبتعدة. ومن الجهة الأخرى كان أحمد الحسين، ينقضّ بكل ما فيه من قوة، ليحقق وعده لعسكره ويحققوا وعدهم له.

***

لم تكن تلك معركة سهلة، فقد مضت نصف السّاعة، ومضت السّاعة، ومضت ساعة أخرى، والحِراب والسيوف تقطر دمًا تحت تلك الشمس التي وقفتْ هناك، في المنتصف، لا تدري إلى أين تتّجه أمام كلّ ذلك الهوْل.

تطايرت الرؤوس والأذرع، وصَفَر الهواء عبر الأجساد التي تحوّلت إلى ممرات غامضة أولها دم وآخرها دم، وعثر الرّصاص بسهوله على دربه نحو فرائسه التي كانت تتطاير في الهواء عن ظهور الخيل وتسقط راجّة الأرض كحجارة كبيرة.

كانت السّاعة الثالثة لبدء المعركة تُحدِّق في ذلك الالتحام الذي حوَّل الجيشين إلى كتلة واحدة، مما أربك الوقت الذي توقف لا يتقدّم ولا يتأخر!

أما بشر، فكان أشبه بنحلة، يدور بخفّة ويهاجم. حين رأى أحمد الحسين بثيابه المزركشة، فتح دربًا إليه، وسيفه يدور في يده كمروحة حاصدًا كل من يعترض طريقه، حتى وصله.

فوجئ أحمد الحسين بذلك الجندي شبه العاري، وجسده الصغير الذي يمكن أن تلقيه أرضًا أي نسمة تهبّ! أغار عليه. وعندما التقى سيفاهما تغيّر كل شيء، إذ أدرك الحسين أنه يقاتل عدوًّا لا يستهان به. جولتان خاطفتان اشتعلتا

بينهما، لم تتركا لجنود صاحب جدّين فرصة للتدخل، إذ استدار بشر خلفه، بعد ضربة خائبة من الحسين؛ وقبل أن يستردّ ذاك سيفه من الهواء المتضمخ بالدّماء، كان سيف بشر يغوص في صدره.

بسرعة سحب السيف، وحين هوى به ثانية نحو عنقه، تلقَّت سيف بشر نصالٌ كثيرة، تمنعه. وفي اللحظة التالية، كان كل شيء قد انتهى، إذ سقط جسد الحسين فوق عنق حصانه، وانطلقت صيحة هزّت السهل كلّه: لقد قُتل أحمد الحسين، لقد قُتل أحمد الحسين.

في تلك اللحظة، عمَّ الصمت، وخطا الوقت أولى خطواته مبتعدًا، خارج بحيرة الدّم.

تشتتَ عسكرُ جدّين، وبدأ ما تبقى منه انسحابه. أدرك ظاهر أنه سيكون أمام معضلة كبيرة، إن لم يقطع الطريق عليهم ويسبقهم بعسكره إلى بوابة القلعة، فأعطى أمره باحتلال القلعة دون تأخير.

كان الكثير من عسكر جدين وعسكر طبرية قد قُتلوا، لكن عدد عسكر ظاهر قد تضاعف بالنصر الذي تحقّق. خوفه الأكبر الذي أطلّ هو أن يُغلق أهالي جدين بوابتها تاركين العسكرين يقتتلان حتى آخر فارس فيهما.

لم يحدث ذلك ، إذ لم يكن أهل جدّين أقلّ إحساسًا بالظلم من أهالي القرى المحيطة بها، وهكذا، ما إن وصل أول فارس مهزوم، حتى فوجئ بأهالي قلعته يهتفون بحياة ظاهر.

***

في ذلك اليوم بدأ عهد جديد، سيمتدّ ويمتد.

رفض ظاهر أن يكون الاجتماع بشيوخ جدّين في بيت الشيخ أحمد الحسين الأشبه بقصر.

- هذا بيته وبيت أهله، ولن يدخل ظاهر بيتا مصابًا بفقد صاحبه.

جمعَهم في أحد البيوت القريبة من قصر أحمد الحسين، بعد أن أعطاهم الأمان، ووعدهم بالعدل، وأنه سيكون حليفهم على كلِّ من يفكّر بظلْمهم وسلبهم عرقَهم وقوت أبنائهم.

قاطعه أحد الشيوخ: هذا ما نتوقّعه منك يا شيخ ظاهر، فأنت تعرف أن هذه الحرب لم نشنُّها نحن، بل شُنّت عليك بأمر باشا صيدا!!

- بل شنّت عليكم بأمر منه!

امتدّت يد الشيخ لجيبه وأخرج الكتاب: خذ واقرأ يا شيخ ظاهر، يبدو أن عليك أن ترى، لكي تصدّقنا!

بُهتَ ظاهر، فأخرج كتاب باشا صيدا الثاني، إليه، وبسطه أمامهم.

عمّ الصمت.

***

- لو كنت مكانك يا ظاهر لزحفت الآن إلى صيدا، وقتلت ذلك الباشا اللعين بنفسي. قال أخوه يوسف.

كان ظاهر يفكر في الأمر ويحدّق في البعيد، كما لو أن الجدران اختفت من أمامه.

- كأنك لم تسمعني يا شيخ ظاهر!

- سمعتك يا يوسف سمعتك، ولكنني أفكر في شيء آخر.

***

وسط دهشة يوسف التي غمرت المكان، استدعى ظاهر كاتب رسائله، وأملى عليه رسالة إلى وزير صيدا، يخبره فيها أنه استولى على جدّين، ويتعّهد بالوفاء بكل ما يستحقّ عليها من مال الميري في موعده، دون تأخير، وأن جدين ستكون مثالا لطبرية في طاعتها للوزير والسلطان. ثم وقّع ووضع ختمه. وأمر: في الصباح يحملها رسول، ولكن قبل ذهابه، أريد أن أراه لأنني سأرسل معه هدية إلى حضرة الباشا!

***

وقف الجنود المهزومون في صف طويل، فجاء بشر لظاهر، وقبل أن يقول شيئا، عانقه ظاهر: لقد كان هذا اليوم يومك يا بشر. ثم قال له: إنني أسمعك. فأعلمه بشر: الأسرى جاهزون.

- هل عاملتموهم باحترام؟!

- بكل احترام يا شيخ.

- كنت يا بشر قد رأيت في المعركة فتى أسمر قاتلني بمهارة أدهشتني، هل عرفته؟

- لا يا شيخ، ربما تعرفه أنت حين تراه.

- هيا بنا إذن، لن ندعهم واقفين تحت هذه الشمس، لئلا يحسّوا بهزيمتهم أكثر.

- أتخشى على إحساسهم، وقد كان كلّ منهم مستعدًا لقتلك؟!

- وكنت مستعدًا لقتلهم يا بشر! فلماذا تنسى استعدادي لقتْلهم، ولا تذكر سوى استعدادهم؟! لا تهزم مهزومًا مرّة أخرى يا بشر، ففي الأولى يفهم أنك هزمته كجندي، أما في الثانية فإنك ستهزمه كإنسان، وبهذا لن يغفر لك!

***

قبل أن يصل إلى ذلك الصفّ الطويل، لمحه ظاهر، فمضى نحوه. ظلَّ يسير إلى أن وقف أمامه، كان هو، ذلك الفارس الشجاع.

هزَّ ظاهر رأسه، وقال له: لقد قاتلت بشجاعة، أنا أشهد على هذا! ما اسمك؟

- اسمي أحمد الدّنكزلي سيدي.

- إذا أردت أن نتفق فلا تناديني: سيدي. فأنا لا أحب السادة أبدا!

- وبماذا أناديك ...؟قال بتردّد.

- يا شيخ، تناديني: يا شيخ ظاهر.

- حاضر يا شيخ.

- من أين أنت؟

- مغربي.

- تعرف يا أحمد أنني لم آت إلى هنا لكي أحاربك!

- أعرف يا شيخ، ولكن كان علي أن أحاربك حتى أكون وفيًّا لشيخي!

- هذا أمر لا تُلام عليه يا أحمد. لكن شيخك الآن قد قُتل، وأنا أشهد أنك دافعتَ عنه، وقاتلتَ من أجله، كما لم يقاتل أحد من جنوده.

- ويشهد الله أنني قدَّمت أقصى ما لديّ.

- سأعرض عليك أمرًا يا أحمد احترامًا لشجاعتك، وما كان يمكن أن أعرضه لو لم تقل ما قلته من كلام طيب وشجاع وواضح، كسيفك، عن سيدك.

- تفضّل يا شيخ.

- أعرض عليك أن تختار من الرجال المغاربة الذين معك من تريد، وأن تكوِّن فرقة تكون تحت إمرتك، ولك أن تختار فيها بعد ما شئت من رجال طبرية وما حولها، لأنني أريد أن يكون لديّ جيش دائم، وستكون قائده. فما رأيك؟!

- من يعاملني باحترام وأنا مَن كان خصمه، سيعاملني باحترام أكبر حين أكون معه! أنا موافق يا شيخ. وأعاهدك بأن أكون يدك اليمنى ما عشت.

- إذن، فلتبدأ منذ الآن يا أحمد. سأترك أمر هؤلاء الأسرى لك، تختار منهم من تريد، وتخلي سبيل مَن تريد.

***

قال بشر لظاهر، وهم يبتعدون: أما كان يمكن أن تمتحن وفاءه يا شيخ قبل أن تضع السيف في يده من جديد.

- لا وقت لدينا يا بشر لاختبار الناس، ألم تر أن الخذلان الأكبر يأتي أحيانًا من أولئك الذين اختبرتهم أكثر!

استدار ظاهر يراقب ذلك الشاب الأسمر الذي بدأ عمله على الفور، فابتسم. لكن الذي لم يخطر ببال ظاهر أبدًا: أيّ دوْر سيلعبه ذلك الفتى في حياته!

***

قبل أن يغادر جدّين، أوصى بأن لا يُمسّ مال شيخها القتيل، وأن يصرف معاش لأهله يليق بمكانتهم. ثم طلب من يوسف أن يحضر له الخدم الفارّين.

- هل ستقتلهم يا شيخ؟

- بل لأكافئهم. فهم أول من حسموا هذه المعركة بإخلاصهم!

***

تأمل ظاهر طبرية من بعيد، وكم أحس أنها جميلة. ولما تذكّر أن نفيسة في انتظاره هناك، نكز حصانه، وهو يتساءل عن ذلك السبب الخفيّ الذي جاءت من أجله!

الأسهل.. والأصعب

- أحمل إليك طلبين يا شيخ ظاهر، واحد في قلبي والثاني في يدي، فبأي منهما أبدأ؟!

- دائما تحيّرينني يا نفيسة. إبدأي بما تريدين. وأرجو أن تبدأي بالأسهل.

- أبدأ بالأسهل إذن! وامتدّت يدها إلى ما تحت الفراش الذي تجلس عليه، وأخرجت عدّة أوراق، وناولته إياها.

أمسك بها ظاهر، وحدّق في وجهها، كما لو أنه يريد أن يعرف ما في الأوراق.

- ماذا فيها؟

- اقرأها، وستعرف.

فضّ الورقات وبدأ بقراءتها، وهو يهزُّ رأسه. وضع الورقة الأولى جانبًا، وواصل القراءة دون أن يتوقّف عن هزِّ رأسه. ثم ناولها إلى نجمة، فبدأت بقراءتها، لكنها لم تهزَّ رأسها مثله، كانت أشبه بمن يشرب إبريق ماء ممتلئا بجرعة واحدة!

وحين رفعتْ رأسها، نظرت إلى ظاهر.

- أهذا هو الطلب السَّهل؟! سأل ظاهر نفيسة.

- هذا هو الطّلب السّهل.

- أن أزحف إلى الناصرة وأتسلَّمها؟!

- نعم أن تزحف إليها وتتسلّمها! وهذه الرسالة إليك من وجوهها، مسيحيين ومسلمين، إذ لم يعودوا قادرين على احتمال ظلم متسلّميهم، ولا ظلم مشايخ نابلس أكثر مما احتملوا، فحين يشتري أحدهم شيئا من ناصريّ، يشعره بأنه منَّ عليه إذا دفع له ثمن البضاعة التي أخذها! وأحيانا لا يدفعون أبدًا! ويكفي أن يقول: سأدفع لك في الموسم القادم، دون أن يجرؤ ناصريّ على المناقشة.

- ولكنني لم أعرف بعد، ما سيقولونه في صيدا ودمشق بشأن تسلُّمي الجدّين!

- هذا هو طلبهم! وهم يعِدون بأن يكونوا جيشك؛ وأشهد أنهم صادقون؛ وقد رأيتُ بعضهم، حين جاؤوا إليَّ بالرسالة، بعد أن علموا أنني قادمة إليك.

- والطلب الثاني؟!

- لم تقل شيئًا بشأن الأول. قالت نفيسة.

- ما رأيك يا أمي؟

- بالنسبة لي، أنا أراك فيها الآن! كلّ ما في الأمر، هل ستتسلّمها اليوم، أم تتسلمها غدًا؟!

- أيّ أنك موافقة؟

- لقد قطعت شوطًا كبيرًا يا ظاهر، وأعرف أنك لن تتوقّف.

- لن يكون هنالك معنى لكل ما قمتُ به، إن توقّفت.

- ولذلك أقول لك: تسلّمْها.

- الآن! قالت نفيسة.

- لا، ليس الآن، فدائما أقول: الذي تستطيع اللحاق به ماشيًا، لا تركض خلْفه!

صمت ظاهر طويلا، كما لو أنه يعدّ خطته، ثم قال: والآن، نأتي إلى الطلب الثاني، وأرجو ألا تمدّي يدك ثانية تحت الفِراش وتُخرجي ورقة يطالبني فيها أهل إسطنبول بأن أتسلّمها! وضحك.

- ما دام الطلب الأول قد تحقّق، فلم يعد الطلب الثاني صعبًا. قالت نفيسة.

- إنني أسمعك.

حاولت نفيسة ما استطاعت ألا تلتفت إلى نجمة، لكنها التفتت. أخذتْ نفسًا عميقًا وقالت: أريدك أن تتزوَّج! مرّت دقيقة كاملة من الصمت، لم يمر على ذلك البيت دقيقة مثلها. سأل ظاهر: فِكْرتك هذه أم فكرة أمي؟!

- بل فكرتي، إلى ذلك الحدّ الذي رتّبت فيه كل شيء، قبل مجيئي إلى هنا!

- لم أفهمك!

- لقد وجدتُ لك عروسًا ناصرية.

- أنتِ؟!

- نعم أنا، هذا أفضل من أن تبحث عنها بنفسك!

- ولكنني لا أريد الزّواج.

- قد لا تكون بحاجة لزوجة أخـرى، ولكنـك بحاجـة لأولاد وأنـا مثلـك بحاجة إليهم؛ وما دام الله قد كتبَ لي ألّا أنجبهم، فإن عليك أن تنجبهم ليكونوا أولادي أيضًا، هذا هو حقّي عليك!

- وهل تحدَّثت مع أهلها.

- حتى لو لم أتحدّث فهم يتمنّون ذلك! أنت لا تعرف علوَّ مكانتك في قلوب أهل الناصرة. لقد رأيتَهم أنت بنفسك يا شيخ، وتعرف كم يحبونك.

- دعيني أفكر في هذا.

- بماذا تفكر؟! قالت له نجمة، وأضافت: الناصرة وضعتَ خطةَ تـسلُّمها في لحظات! والآن تعجز عن أخذ قرار زواجك!

- أنت مع نفيسة إذن؟!

- لم أكن أتمنى أن أكون معها، فهي ابنتـي، ولكـن، بـما أنهـا قـررّت بنفـسها ذلك، فأنا معها، لأنكَ ابني أيضًا!

- وهل نسيتِ شعلتي التي انطفأت؟! من سيربِّيهم إذا حصل لي شيء؟!

- يا ظاهر! صحيح أنك لست ابن بطنـي، ولكننـي ربَّيتـك، وعـشتَ هنـا، ملتصقًا بهذا القلـب، سـنوات وسـنوات، وأفهمـكَ جيـدًا! فـلا تعـد لحديث القناديل ذاك، برضاي عليك، يا ابن قلبي؟

- موافق إذن.

- موافق؟! كيف توافق بهذه الـسرعة؟ كيـف؟ قالـت نفيـسة وهـي تـدّعي الغضب.

- وبعدين؟! قال ظاهر.

- عليك أن تتذكّري يا نفيسة، أنك أنتِ التي أشرعتِ هذا البـاب، وعليـك أن تتوقّعي كل شيء، ليس النسيم وحده، بل الرّيح أيضًا. قالت نجمة.

- أنت تخيفينني يا أمي، سأتراجع!

- لكن ظاهر الآن لن يتراجع، فقد زرعـتِ البـذرة، وتحوَّلـت إلى شـجرة في لحظات. أليس كذلك يا ظاهر؟

بقي صامتا.

- مهما حدث، لا شيء سيسعدني أكثر من أن أرى أولادك بين يديّ؛ لذا كان علي أن أختار العروس بنفسي، حتى تحسَّ هي بأن أولادهـا سـيكونون أولادي. والآن: ماذا ستكتب لأهل الناصرة؟!

الصعب والأصعب

- والآن، وصلنا إلى ما كان علينا أن نصل إليه وتجاهلناه كثيرًا! قال ظاهر للدّنكزلي الذي جلس بجانبه وعينه على جنوده في السهل.

- تخيفني يا شيخ! هل حدث شيء؟

- الكثير يا أحمد، ويؤسفني أن أقول لك إنك لم تنتبه!

- أنا، منذ وعيت الدنيا وجسدي ممتلئ بالعيون يا شيخ.

- وهذا ما يحيرني، لأنك لم تر بعد ما يجب عليك أن تراه بكل هذه العيون.

- قل لي يا شيخ وسترى أنني أرى!

- وما فائدة ذلك، إن كنت لم تر ما يجب أن تراه بنفسك؟! لقد سبقتك ورأيت ما عليك أن تراه، مع أنني لا أملك سوى هاتين العينين في رأسي!

- اسمح لي أن أخالفك يا شيخ ظاهر لأول مرة، لأنني لم أر إنسانا عيونه كلّها في داخله، مثلما هي عيونك، ولذا، ليس غريبا أن تكون لك البصيرة ويكون لنا البصر.

- لن أطيل عليك يا أحمد، أريد أن أزوِّجك!

- تزوجني؟!

- نعم أزوِّجك.

- ولكن لديّ جارية منذ رأيتها لم أعد أرى سواها.

- هذا سرّ عماك إذن! لقد أبصرتها أكثر مما يجب؟! تزوَّجها إذن ما دمت تحبّها إلى هذا الحدّ! لم تقل لي ما اسمها؟

- سميتها أميرة منذ اللحظة الأولى التي رأيتها فيها. ولذا، عليك أن تتوقّع أنني عرضت عليها الزواج يا شيخ.

- تعني أنها رفضت؟!

- رفضت يا شيخ!

- عجيب! ولكنك الآن قائد جيش، جيشي! لا أظنّها سترفض لو عرضت عليها الأمر من جديد!

- لقد فعلتُ، بمجرد أن وصلنا إلى طبرية.
- إذن، خيِّرها بين أمرين أن تتزوّجك أو أن تتزوج أنت سواها!
- هذان أمران صعبان، عليَّ وعليها. وإذا رفضتْ؟
- سيحلّها الحلال عند ذلك، ولكن لا أظنها سترفض.
- اسمح لي أن أسألك يا شيخ: لماذا تصرّ على ذلك؟
- لأنني أريد أن أرى أولادك. أريدهم أن يزرعوك هنا بيننا إلى الأبد. أريد أن تحسَّ أن هذه البلاد بلادك، وهي بلادك فعلا، أريد أن تحسَّ أن لك فيها أهلا وأصحابًا، ولأولادك أصحابا وزوجات وأحفادًا في المستقبل، فالجيش مهما كبر لا يمكن أن يكون عائلة، والمراتب والقصور مهما علتْ لا يمكن أن تكون أكبر من بيت يا أحمد.

***

كان الجنود يملأون السّهل، الخيول تجري والفرسان يناورون، والشمس تنحدر حمراء وراء غيمة كثيفة. لكن ذلك كلّه كان معبأ بالصمت، كما لو أن أحمد الدّنكزلي، الذي كم فتنه مثل هذا المشهد، لم يعد يرى سوى لوحة مرسومة بإتقان، رآها ذات يوم، ونسي أين رآها. كان المشهد مساحة واسعة واضحة من ذكرى قديمة، لا أكثر.

الصمت في الدّاخل

فكّر في كل ما يمكن أن يجرح مشاعر نفيسة: الاكتفاء بأبسط مظاهر العرس، والابتعاد بالعروس سريعًا عن الناصرة، إلى عرابة، فطبرية.

رفضت نفيسة ذلك: أريد أن تمضي على الأقل أسبوعًا في بيتي، وإلا فلماذا جهّزتُ كل شيء؟! لا أريد أن يشعر أحد أنك تهرب مني بعروسك! أريدهم أن يعرفوا أن ذلك قد تمّ برضاي! لا تجرحني برحيلك هكذا إلى طبرية.

- لن أستطيع أن أتزوّجها يا نفيسة وأنت في غرفة مجاورة، لن أستطيع.

- ليس لي سوى هذا الطلب يا ظاهر.

- تجعلين الأمر صعبًا عليَّ وعليك أيضًا.

- لا، ليس صعبا عليّ! لو كان صعبًا لما ذهبتُ واخترتُ لك بدريَّة، بنفسي، عروسًا.

***

على ظهر فرس وصلت بدريّة في ذلك المساء إلى بيت نفيسة.

كانت نفيسة تتقدّم الموكب ممسكة برسن الفرس وهي تغني تلك الأغنية التي علّمتها إياها نجمة:

يا دار وسَّعْها الفرح دارينِ   وخلاني أشوفك يا الأمل اِبعيني
ما بعد زينك يا بدريِّة زينِ   يا أخت روحي ليوم القيامة

من بحر عكّا حتى طبريّة   ما في مثيلك والله يا بدريّة!
يا محلى اسمك وحروفه المطويّة   مثل اللي راجع لـَمُّهْ بالسَّلامة

فجأة صمتوا.

التفتت نفيسة خلفها، وقد عمَّ الصمت، فرأت ظاهر يرفع يده، طالبًا منهم السّكوت.

- لماذا لا تغنّون؟ سألت؟ وراحت تعيد الأغنية.

تقدّم ظاهر وأمسك رسن الفرس بيد، واليد اليمنى لنفيسة بيد، ودخل بوابة البيت. تتبعهم نجمة وزوجة أخيه سعد، وغزالة، وأخته شمّة.

كانت نجمة تتقافز أمامه كطفلة، بقدميها الحافيتين. فكر ظاهر أن يطلب منها أن تنتعل حذاء في ذلك اليوم على الأقل، ولكنه أراح نفسه من جوابها!

***

كما توقّع، لم يستطع أن يفعل أكثر من أن يرفع ذلك الغطاء الذي يحجب وجه عروسه، فقد كان كلّه هناك، في غرفة نفيسة.

جميلة كانت بدريّة، وأصغر منه بعشر سنوات على الأقل.

مدَّ يده وتحسس وجهها، وأشار إليها أن تمضي إلى السرير وتستريح.

تتبعتْ مسار يده بخجل، ومضت متردِّدة. جلست على طرف السرير، تكاد تسقط.

كانت المرّة الأولى التي يشاهد فيها ظاهر ذلك السّرير. حاول أن يتذكَّر إن كان رأى ما يشبهه من قبل، لم يستطع. بدا واسعًا بحيث يمكن أن يُضَيِّع العريسُ عروسَه فيه! لكنه كان متأكدًا من أن نفيسة التي أوصت بإحضاره من الشام، وحرصت أن تريه لجاراتها، لم تكن تريد أمرًا كهذا!

أبعد كل أفكاره، كما لو أنها جدار آخر ينتصب بينه وبين غرفة نفيسة، وأنصت.

لم يكن هنالك غير الصّمت، وعينا عروسه المحدّقة به، عروسه التي أدركت ما يفكر فيه، وقد أحست بأنه خارج المكان!

***

في الحوش الواسع جلست نجمة، تحت شجرة برتقال مثقلة بثمارها، ثمارها التي بدت وقد سقطت عليها آخر أشعة الشمس. عشرات من الشموس الصغيرة الفاتنة.

للحظة أحست نجمة، بأن الليل سيسقط فجأة لو أن يدها امتدّت وقطفت برتقالة.

سمعت بابا يُغلق، التفتت، كانت نفيسة قد نهضت من جانبها دون أن تنتبه، واختفت داخل غرفتها.

وفي داخل الغرفة الأخرى، سمع ظاهر بابا يُغلق. فتسمّر في المكان أكثر.

***

بكت نفيسة بصمت.

التفتت نجمة إلى باب الغرفة المغلق، فخيِّل إليها أنها تـرى تـدفُّق دمـوع مـن تحت الباب! تعرف أن لحظة كتلك، هي لحظة نفيسة التي لا يجوز أن ينتهكها أي إنسان، بنظرة أو سؤال.

هبط الليل.

- لتبحث كل منكن عن أولادها وزوجها. قالت نجمة لشمّة وغزالة وزوجة سعد وأم العروس.

- وأنتِ يا عمتي؟! سألتها زوجة سعد.

- كان عليّ أن أحضر معي بعضًا من دفء طبرية، لأمـضي ليلتـي هنـا تحـت هذه الشجرة. ولكن لا تقلقي، فِراشي جاهز في الداخل.

***

حين خرج ظاهر، مضى وطرق باب غرفة نجمة. جاءه صوتها: وهـل تظـن بأنني عروس لأغلق الباب على نفسي حتى هذا الوقت من النهار. أدخل!

تأمّلها ظاهر، فسألته: لماذا تنظر إليّ هكذا؟

- تعرفين يا أمي، سأقول لك شيئًا، وأرجو ألا تغضبي مني؟

- كأنني عرفته قبل أن تقوله، لأنني أراه في عينيك.

- وما هو إذن؟!

- قله، وإذا كان هو، سأعترف لك بأنه ما فكرتُ فيه!

- أظن أنك بحاجة إلى سرير مريح مثل ذلك الذي في الداخل!

- أنا؟! ولماذا أكون بحاجة لسرير، وهل سأعيش حتى الأربعين؟!

ضحك ظاهر، فقد كان يعرف أنها على وشك بلوغ الخمسين.

- لماذا تضحك؟!

طريق طويل.. ليل أطول!

كان الخبر الوحيد الذي ملأ البيت بهجة، هو خبر حمْل بدرية. فلأيام طويلة، لم تعد قدما نجمة تمسّان الأرض وهي تتنقل من مكان إلى مكان؛ وحتى عندما تتعب فتجلس آخر النهار تحوك ملابس لحفيدها القادم، كانت تبدو كالجالسة على كرسي من هواء.

وحده ظاهر كان غامضًا أمام ذلك الفرح المباغت كالضوء.

لم تتحدّث معه نجمة بشيء، لم تسأله، وكم أراحه ذلك.

أصعب ما يمكن أن يجد المرء نفسه غارقًا فيه، اضطراره لتفسير شيء لا يستطيع أن يفسره حتى لنفسه!

لم يكن ينقص بدرية شيء، كما يقال، فكل ما فيها يكاد يكون مثاليا، جمالها وهدؤها وخجلها واحترامها لكلّ من حولها.

لكنها كانت بعيدة.

"*أكان يمكن أن تكون أقرب لو لم تخترها نفيسة؟*" سأل ظاهر نفسه أكثر من مرّة، وأستعاد ذلك الشحوب الذي انتشر في وجه نفيسة وراح يتكاثر كالفطر. حزن عميق، داكن، لا تستطيع الابتسامة المغتصبة أن تغطّيه. حزن كثيف يفيض منحدرًا من ملامحها غامرًا جسدها كلّه.

كلما حاول ظاهر الاقتراب منها قالت له: لا تُشغل نفسك بي، اذهب إلى زوجتك، أريد أن أرى أولادك قبل أن أموت!

- تموتين؟ ما هذا الكلام يا نفيسة. أرجوكِ، لا أريد أن أسمع هذه الكلمة منك ثانية.

- ولكنني سأموت يا ظاهر، إن لم يكن اليوم ففي الغد، أو بعد غد!

- لا أريد سماع هذا الكلام منك يا نفيسة. تعالي، اقتربي. منذ متى لم أمشط لك شعرك؟ تعالي هنا.

تنظر نفيسة حولها باحثة عن المشط، تراه، تنحني وتتناوله من فوق صندوق خشبيّ مزيّن بالصّدف، تقترب منه، تجلس أمامه، وتُسلمه شعرها!

***

بعد تسعة أشهر ولدت بدرية طفلها الأول؛ دون أن يخطر ببالها أنه سيكون طفلها الأخير.

تأمّله ظاهر، حاول أن يقبّله، لكنه ارتبك أمام تلك القطعة الصغيرة من اللحم، أعاده لأمه.

سألته نجمة: ماذا ستدعوه؟

- أنسيتِ يا أمي، أمامنا سبعة أيام.

كانت العادة الدّارجة ألا يُسمى الولدُ قبل سبعة أيام من مولده، ثم يُقصّ شعر رأسه وتُذبح له ذبيحتان، أما البنت فتُذبح لها ذبيحة واحدة!

حين نقل ظاهر نظره نحو بدرية، فوجئ بوجه نفيسة. ارتبك، أغمض عينيه وفتحهما من جديد، وإذا ببدرية تحتضن ابنها. قال: سأسميه (صْلِيْبي[1])!

- ماذا؟ سألته نجمة، ألم تُذكِّرني قبل قليل بأن أمامنا سبعة أيام؟!

- نعم، ذكَّرتك، وقد انتهت الأيام السبعة!

حزن خاطف كرصاصة طائشة مرّ في صدر نجمة، بحيث وجدت نفسها تحتضن صدرها رغما عنها.

- هل بك شيء؟ سألها ظاهر وقد لمح انقباض وجهها.

- لا يا بني، ليس بي شيء.

***

في اليوم السّابع حلقوا شعر رأس صْليبِي لأول مرة، وذبحوا ذبيحتين.

- كنت أعتقد أنك ستذبح عشرين ذبيحة فرحًا بقدوم ولدك الأول.

- ألا تذبح الناس ذبيحتين؟ هذه هي العادة!

- والعادة أن يُسمى الولد بعد سبعة أيام وليس بعد ساعات من مولده!

- هذا ما حدث!

- ولكن قل لي، متى ستخبر نفيسة؟

- لست على يقين بأن خبرًا كهذا كلّه فرح.

صمتت نجمة، ثم رفعت رأسها نحوه: هناك شيء ما يدور في رأسك يا ظاهر.

---

[1] - تلفظ اِصْلِيبِي، من الصَّلابة.

- ليس في رأسي. لو كان في رأسي لكان الأمر أسهل بكثير، إنه يدور في قلبي.

- وما الذي يقوله قلبك يا شيخ؟!

- يقول لي، هذا آخر أبنائي من بدريّة!

- أتطلّقها وقد أنجبت لك ولدك الأول؟!

- لا لن أطلّقها إلا إذا أرادت هي ذلك، هنالك شيء ما بيني وبينها يا أمي، جدار أعلى من سور دمشق، وأقسى.

***

يد عملاقة هزّت جسد ظاهر في الليلة الثامنة، وصوت هادر صرخ في أذنه: ما الذي تفعله هنا، ألم تصلك أخبار نفيسة بعد؟!

- ما بها نفيسة؟ استيقظ فزعًا سائلا بصوت عال.

- ماذا قلت؟ سألته بدريّة نصف نائمة.

لم يُجب، وعادت إلى نومها.

قفز على ظهر حصانه، وقبل أن يغادر الحوش، وجد نجمة أمامه: إلى أين في هذا الليل؟ سألته.

- سأغيب قليلا.

- إلى الناصرة إذن!

- بل إلى نفيسة!

- هل قررتَ أن تحمل إليها الخبر بنفسك، أم أنك تريد أن تعتذر لها لأنك رزقت بولد؟!

- ذاهب لأراها يا أمي، ذاهب لأراها لا غير.

***

بعد شروق الشمس بساعة، أبصر الناصرة، هناك تحت ضوءٍ أحالها إلى مدينة من نحاس.

نكز حصانه المرهق بسفر الليل يستحثّه أن يطوي ما تبقي من مسافة.

***

وصل بوابة البيت، طرقها بلطف، ثم عاد وطرقها من جديد. تردّد في أن يفعلها ثالثة، لكنه وجد نفسه مضطرًا لذلك، وقبل أن تلامس قبضته الباب سمع بابا في الدّاخل يُفتح.

لو لم يكن يعرف أن نفيسة هي التي تسكن ذلك البيت لما عرفها: نفيسة؟!
- نفيسة! ومن سأكون، إن لم أكن نفيسة؟!
- هل أنت مريضة؟ ما بك؟!
- لا شيء! وامتدّت يدها وراحت تمسح وجهها كما لو أنها تريد محو كل التعب؛ وفركت عينيها كما لو أنها تريد أن تصقل جوهرتيهما من جديد.
- ولماذا تفتحين الباب، أين خادمتك؟
- نائمة.
- نائمة وأنت على هذه الحال؟! أينها؟
- اتركها نائمة يا شيخ، لقد ظلّت ساهرة بجانبي حتى الفجر.
.. وامتدّت يدها، أمسكت رسن حصانه، وأفسحت لظاهر أن يدخل، ثم نبعته مع الحصان.
- لا تقل لي إنك آت من طبرية!
- لقد أتيت من طبرية.
- وقدتَ حصانك طوال الليل! كان عليك أن ترحم حصانك يا شيخ، إن كنت لا تريد أن ترحم نفسك. ما الذي دفعك لسفر كهذا؟!
- لا أعرف يا نفيسة، يد هزّتني فاستيقظت، وصوت أنّبني فأتيت.
- ستظل هكذا، تخاف عليّ يا شيخ! نفيسة لم تعد تلك الفتاة الصغيرة التي تخشى المدن. لقد كبرتُ يا شيخ، المدن هي التي تخافني الآن! وحاولتْ أن تضحك، فاهتزّ جسدها كلّه وغرقتْ في موجة متواصلة من سعال قاتل.
- أنت مريضة يا نفيسة، أنت مريضة.
- يا شيخ ظاهر، المرض يَمرض، أما أنا فمتعبة لا غير! أنت تعرفني! هل تذكر أنك رأيتني مريضة، مرّة واحدة، من قبل؟
- لا، لا أذكر، ولكنك مريضة يا نفيسة.
- لا أُخفي عليك يا شيخ، إن التعب يحاول أن يتسلل إليّ منذ أيام، ولكنني أطرده وأكشّه كما أكش ذبابة ثقيلة. اطمئن.
- لندخل يا نفيسة.
- سأربط الحصان وأتبعك. اسبقني، لا تخف عليّ.
- سأتولى أمره، أدخلي أنتِ.

- دعني أفعل هذا الأمر يا شيخ، فأنا أحبّ حصانك، دعني أهمس له: شكرًا لك لأنك تحاملتَ على نفسك وأتيت لي بظاهر مجتازًا ذلك الطريق الطويل والليل الأطول.

وصمتت قليلا كأنها تحاول تذكّر شيء: لم تكن الليلة الماضية مقمرة يا شيخ، أم أنني غلطانة؟

- لا لم تكن مقمرة.

- إذن دعني أشكر حصانك مرتين! اسبقني.

تركها ظاهر ودخل، كان متعبًا؛ راقب أشعة الشمس تعبر الشباك وتضيء الغرفة الواسعة أكثر فأكثر. انتظر. أوشك أن يغفو، لكن يدًا عملاقة هزّته ثانية وصوتًا هادرًا ملأ أذنيه: هل أتيت لترى نفيسة، أم لتنام؟!

كان يريد أن يخرج، ولكنه تذكّر رجاءها.

عاد وجلس.

مرَّت الدقائق ثقيلة، صهل الحصان فيها مرتين، وفي الثالثة صهل بفزع.

قفز ظاهر نحو الباب، تجاوز العتبة، وقد تذكَّر ذلك الصهيل الذي رجَّ البيت، في عرابة، يوم ماتت الفرس البيضاء.

ركض، وقبل أن يصل بوابة الإسطبل، رآها تتكئ على ركبتيها ممسكة بالقائمة الأمامية اليسرى للحصان محاولة أن تنهض. رأته، ابتسمت له، وتحاملت على نفسها. كانت على وشك أن تضع راحتها على عنق الحصان، لكن يدها خانتها، فسقط جسدها بهدوء كما لو أنه ريشة مُحلِّقة، دار في الهواء، ودار، قبل أن يستقرّ هناك عند قدمي الحصان.

ضوء أسود وطيور بلا أسماء

كم من ذكريات تستطيع اليدان أن تحملا؟ كم من زمن؟ كم من ضحكات وابتسامات؟ كم من كلمات وسهرات وبوح ودفء؟!

كما لو أنها تعرف أنه سيتأملها طويلا، استجمعتْ نفيسة كلّ ما في ملامحها، لتبدو مبتسمة، راضية، لتبدو سعيدة.

لقد فكّرت بهذا ما إن رأته، وقد عبرها سهم الموت في طريقه إلى ظلمة الأبدية. تعالتْ على ذلك الألم، وجمّعت نفسها من جديد؛ وحينما ارتخت يدها القابضة على رسن الحصان، وخذلتها، كان الشيء الوحيد الذي تتمنّاه: أن لا تنفرط ابتسامة الرّضا تلك، الابتسامة الوحيدة التي تقاوم بها الموت، لكي تترك في قلب ظاهر، للمرة الأخيرة، وجها غير ملطّخ بألم.

رفع رأسها، وأسنده إلى ركبته. سرَّح شعرها بأصابعه، فرَدَه، فبدا مثل أشعة سوداء، تومض ببريق لم ير مثله من قبل. وميض مختلف يحفّ بوجهها الأبيض.

راح يبحث عن المشط، رآه هناك فوق صندوقها المصدَّف. حاول أن يصله، لم يستطع. حاول ثانية، لم يستطع. أقل من شبر كانت المسافة التي تفصله عنه. رفع رأسها محاذرًا أن يتركه يلامس الأرض، وامتدّ بجسده كلّه. تناول المشط. أعاد رأسها إلى فخذه. بأصابعه سرَّح شعرها من جديد، قبل أن يبدأ بتمشيطه.

كلّ حركة من منبت الشعر إلى آخره، كانت رحلة بلا نهاية؛ رحلة نحو عمر مضى، وأمنيات عالقة في البعيد، رحلة إلى لحظة لقاء لا مثيل لها، وإلى شغف يتطلّع لاكتماله، وماء حائر، يتبخّر، وخضرة لم تبلغ ذراها.

سطعت الشمس قوية في الخارج. تسلل بعض شعاعها وأضاء الغرفة، وامتلأت شوارع الناصرة بالبشر، وأصواتهم التي كانت تحلِّق حوله كلمات غامضة، مثل طيور بلا أسماء.

كل شيء انتهى. لم يعد هناك سوى شيء واحد: أن يواصل تمشيط شعرها إلى الأبد. أن يبقى بجانبها إلى الأبد.

***

قرع جرس كنيسة البشارة، وارتفع صوت مؤذن جامع...، استيقظت خادمة نفيسة فزعة، بحثت عن حذائها، انتعلته وخرجت مسرعة.

رآها الحصان، فصهل.

إنه حصان الشيخ. عرفته.

التفتت إلى باب الغرفة الكبيرة، رأته مقفلا. توقّفت، غير قادرة على أن تسير باتجاهه وتقرعه.

صهل الحصان ثانية، توجّهت إليه، ربّتت على عنقه، ثم قادته نحو حوض الماء ليشرب.

عادت عيناها لباب الغرفة: لا حركة! أطلقت أذنيها: لا صوت!

أطعمت الحصان وهي شاردة.

في النهاية كان لا بدّ لها من أن تنتظر. جلست على عتبة غرفتها.

عند العصر، صهل الحصان ثانية. انتبهت. سارت إليه وربّتت على عنقه، سقته، وأطعمته.

وهبط الليل.

***

في تلك العتمة لم يعد ظاهر قادرًا على معرفة إن كان المشط لم يزل قادرا على معرفة طريقه في ذلك الشعر الطويل، أم أن النتوءات التي تعترضه ما هي إلا العتمة القاسية الهابطة فوق جسديهما كحجر.

الشيء الغريب الذي أحسّ به ظاهر، أنه ولد في هذا الوضع، وكبر فيه، وسيموت: رجل يحتضن رأس امرأته، يتشبّث بجسدها؛ وأذرع الليل تتسلل لتختطفها وترحل بها بعيدًا إلى ظلمة أقسى وأشدّ.

بكى. بكى كثيرًا. كانت دموعه تغرقه، تجرفه، وتجرفها بعيدًا.

مسح دمعه بسرعة.

أشبه ما تكون بصوت المطر في البداية، كانت الطَّرقات على الباب، ثم راحت ترتفع إلى أن تحوّلت إلى رعد.

عند ذلك سمعها ظاهر. لم يعرف ما الذي عليه أن يفعله، كيف يمكنه أن يتركها وحيدة على الأرض الباردة ليذهب ويفتح الباب.

اشتد صوت الرّعد، وخيِّل إليه أنه يرى التماع برق، أضاء وجهها طويلا، ثم عمَّ الظلام ثانية.

وعاد الرّعد هادرًا أكثر من قبل.

حملها بين ذراعيه، ومضى نحو الباب. أدار المفتاح في القفل، فتحه. وفجأة وجد نفسه وجها لوجه مع أخيه سعد.

أوشك سعد أن يقول شيئا. لم يستطع. سعد الذي جاء على عجل من عرّابة، ما إن وصله ذلك الشاب الذي أرسلته خادمة نفيسة.

عاد ظاهر وأغلق الباب من جديد.

امتلأ حوش البيت بالناس. وفي اليوم الرابع، أدرك أن الموت قد غلبه ممزقا جسدها وسارقا رائحتها ورقّة يديها وماحيًا ظلَّ ابتسامتها المحلّق في المكان. نهض. سار نحو الباب، فتحه.

كانت العتمة كلها خلفه. قال: الآن باستطاعة الموت أن يقول إنها له!

شق طريقه بين العيون الذّاهلة، وخرج.

صهل حصانه وهو يراه يبتعد. مضت الخادمة نحوه، حلّت وثاقه، فتبع ظاهر بخطى ثقيلة ليس فيها ما يشبه خطوات حصان.

جيش بلا أسلحة

منذ معركة جدين، بحث ظاهر عن وسيلة يعرف من خلالها أخبار أعدائه، أو أولئك الذين يتوقّع أن يجد نفسه معهم في حرب.

طلب الدّنكزلي، وقال له: أريد فرقة من أفضل رجال البلاد، فرقة قوية بلا سيوف.

- بلا سيوف، وقوية! كيف ذلك يا شيخ؟

- لأنني بحاجة لرؤوسهم لا لسيوفهم. أريد رجالا شجعانا وأذكياء يا أحمد. ولا أريد أن يعرفهم سوى اثنين، أنت وأنا. وحين تنتقيهم، اجمعهم في مكان بعيد وأخبرني لأنني أريد أن أراهم بنفسي. وأريد فرقة ثانية بعددهم تماما يكونون هنا، ووظيفتهم أن يتّصلوا بالفرقة الأولى.

***

في ذلك اليوم، تفرّقت تلك المجموعة التي أخذت أوامرها من ظاهر مباشرة، نحو المدن التي حدّدها لهم، بحيث لم تبق هناك مدينة كبيرة: من عكا إلى بيروت ودمشق، مرورًا بحيفا ويافا وصيدا وصور وبيروت وجبل عامل، وغزة والقدس ونابلس إلا وكانت عيونه فيها.

في كل مدينة من تلك المدن كان هناك رجلان، أحدهما رسول يتنقّل بين المدينة وبين ظاهر، والآخر لا يغادرها.

ضمن ظاهر بذلك أنه لن يفاجأ بجيش يقف فوق رأسه دون أن يعلم، لكنه سيكتشف أن هذا الدّور ليس كافيا، وبخاصة حين تطول المعارك، إذ سيجد نفسه مضطرا لابتكار وسيلة أخرى.

حرب الليل.. حرب النهار

استيقظ ظاهر في أواخر الليل، العرق يتصبّب من جسده، ويده تلوّح في الهواء، كما لو أنها تقبض على سيف.

فتحت بدريّة عينيها بفزع، وسألت: خير إن شاء الله، خير.

لم يجب.

ارتدى ملابسه على عجل، وشدّ عمامته حول رأسه، حمل سيفه وبندقيته، وسار نحو الباب.

- إلى أين في هذا الليل؟! سألت بدرية، وقد نهضت لتتبعه.

أشار لها أن تعود لتنام. أغلق الباب خلفه، وحدّق في العتمة.

أحس ببرودة الليل، حلَّ عمامته، تلثّم بها، توجّه إلى الإسطبل. صهل حصان. اختفى في الإسطبل. حين خرج، رأى بدرية ونجمة ويوسف. سار يوسف نحوه، سأله سؤال بدرية: إلى أين؟!

لم يجب. فتح بوابة السور الكبيرة. وجد نفسه مع عدد من الحراس وجهًا لوجه. قفزوا فوق ظهور خيولهم. أشار لهم أن يبقوا في أماكنهم. انطلق نحو باب طبرية المقفل، كان الحراس في الداخل ساهرين: صاحوا: من هناك؟

- الشيخ ظاهر، افتحوا البوابة.

وثانية وجد نفسه مع حراس أكثر عددًا فوق السور.

قفز الحراس فوق ظهور خيولهم: لن يخرج أحد معي!

ووصل يوسف فوق ظهر جواده: هناك مشكلة لن يحلّها أحد غيري. قال ظاهر.

خرج، وصاح على بعد أمتار من بوابة السور: أغلقوا البوابة.

تلقّفه الليل، خاطفا جسده.

راقبه أولئك الذين فوق السور، لحظات، ثم لم يبق سوى وقع حوافر حصانه. ***

كان ظاهر قد تلقى طعنة قاتلة، لم تكن الأولى، الحلم عـاد يتكـرّر منـذ أيـام؛ وكلّما كان ينهض ملوّحا بسيفه، ينظر إلى صدره، يتحسّسه، يأخذ نفـسًا عميقًـا. ودائما تقع عيناه على القنديل، فيرى شعلته تهتزّ بقوة، كما لو أن مـن طعنـه تحـوّل إلى ريح وهو يغادر الغرفة.

عرفه، لقد عرفه، رغم أنه لم ير وجهه سوى مرّة واحدة، إلا أنه عرفه.

قاوم في الليلة الأولى، والثانية، والثالثة، والعـشرين، أن يقـوم ويتبعـه، لكنـه أحس أخيرًا، أنه إن لم ينهض ويلاحقه، فلن يستطيع النوم بعد ذلك.

لم يكن سهلا عليه أن يعرف القبر، بعد كلّ ذلك الوقت، تخـبّط حـصانه بـين الأعشاب والأشجار الكثيفة، لكنه استطاع أن يشقّ طريقه بقوة، بفطرة حصان، نحو شاطئ البحيرة؛ وهناك خوّض في الماء، وفـوجئ بـالنجوم تتكـسّر في المـاء وتتبعثر، تزول.

أوقف الحصان، وترجّل.

للحظة فكر أن يُشهر سيفه! ثمة إحساس بالخطر كان يتصاعد، فهنـا الليـل، وقد يفاجئه أيّ وحش: نمر، أو خنزير بري، ذئب، أو حتى دبّ، رغـم أن آخـر دب رآه، كان منذ عام فوق تلال جدّين.

بحث طويلا: "*ذلك القتيل الذي يهاجمك كلّ ليلة، لن تـستطيع هزيمتـه يـا ظاهر في الليل، بل في النهار.*" همس لنفسه.

أشهر سيفه وغرسه في الأرض، فتراقص مقبضه في الهـواء مـصدرًا ذبـذبات غريبة، لم يسمعها من قبل، وجلس على شاطئ البحيرة، ينتظـر شروق الـشمس كي يخوض تلك الحرب الغريبة.

***

فوجئ بالشمس تغطي وجهه؛ وحصانه يحمحم إلى جانبه. لقد نام: "*كيـف نمت؟!*" تذكر سيفه فوجده بجانبه ساكنًا يراقب الجهات بصمت!

أحسّ بالبرد، شدّ عباءته حول جسده ونهـض. خبطـات مجـاديف المراكـب العائدة وأغاني الصيادين الهادئة تأتي رتيبة من بعيد.

راقبهم يُنزلون سلالهم وشباكهم، ويجرّون قواربهم الصغيرة على الشاطئ.

صعدت الشمس أكثر. نظر حوله، أحس بأنه بعيد عـن المكـان الـذي كـان يجب أن يكون فيه. كل شيء كان مختلفًا، الشاطئ والأشجار، والبساتين. امتطى حـصانه، ودار يحـدّق في الجهـات الـثلاث وظهـره إلى البحـيرة. نكـز حـصانه

فاستجاب الحصان. ظلَّ يعدو إلى أن وصل إلى تلك الصخرة الكبيرة التي طالما جلس فوقها متأملا السماء تارة والأفق تارة أخرى.

ألقى بنفسه عليها، تأمل السماء.

وتكرر المشهد ثانية:

سار متتبعا آثار خطاه التي محاها الزّمن عن التراب، ولكنه لم يستطع محوها من ذاكرته.

فجأة، سمع ذلك الصراخ المجروح الذي تطلقه امرأة.

لجم حصانه، فتوقّف فجأة. حاول أن يحدِّد مصدر الصوت؛ كان يأتيه من كلّ الجهات، نكز حصانه فدار حول نفسه، كانت الفرس البيضاء تعيق حركته، حرّر رسنها الموثق بالسرج، واندفع باحثًا. الاستغاثة تزداد قوّة، وجرْحها يتّسع، وحيرته تزداد.

... ...

... ...

بعد عشر خطوات توقّف. كان يوسف يقف أمامه، حدّق ظاهر في يده، وجدها فارغة: ما الذي تفعله هنا يا شيخ.

- حكاية قديمة، كان لا بدّ من أن أنهيها.
- ذلك الرجل؟!
- ذلك الرجل.
- جئت لتصالحه، أم لتقتله؟
- لا أعرف يا يوسف، لا أعرف.
- وماذا حدث؟
- قتلته مرّة أخرى.
- وهل استرحت الآن؟
- لا أعرف، سأجيبك يومًا ما.

فوق ذلك التلّ

كان بِشْر محاربا شجاعًا، لكن الدّنكزلي كان قائدا فريدًا، ففي أقلِّ من ثلاثة أشهر، استطاع أن يكوِّن أول جيش نظامي لظاهر العمر.

ألف وخمسمائة فارس يبدون أكثر من عددهم بكثير.

***

- حين نصبح جاهزين سترانا يا شيخ. قال أحمد الدّنكزلي لظاهر.

كان ظاهر بحاجة لأن يتمّ بناء ذلك الجيش بأسرع وقت ممكن، إذ لم يكن يعرف الخطوة التالية لباشا صيدا أو وزير دمشق بعد استيلائه على جدّين. لكنه لم يكن يريد من الدنكزلي أن يتسرع أيضًا؛ كان يريد جيشًا حقيقيًّا؛ وهو يدرك، أن تأسيس جيش مسألة لا تتكرر مرتين؛ لأن ذلك الجيش إذا هُزم في أول معاركه، سيعود به، هو، ظاهر، إلى نقطة الصّفر التي لم يكن مستعدًا للعودة إليها من جديد.

لم يكن المال مشكلة، فما يملكه وإخوته كان كثيرًا، وحصَّته من الميري التي يقتطعها مما يحصِّله، قبل إرساله إلى صيدا، كانت تنمو، وحقول القطن العائدة لهم وجدت سوقها في ما وراء البحر.

***

بعد ظهر ذلك اليوم من أيام أيلول، وصل الدّنكزلي إلى بيت ظاهر في طبرية.

تأمّله ظاهر وهو يتقدّم نحوه، فتمّنى أن يكون ولده.

- أنت تحمل أخبارًا ننتظرها بشوق يا أحمد!

- كلّ شيء جاهز يا شيخ ظاهر؛ وأتمّنى أن ترافقني لترى بنفسك.

***

حَرص الدنكزلي على أن يرى ظاهر الجيش بنظرة واحدة، ولذا استدار؛ وظلّ يصعد به ذلك الطريق الخلفيّ، حتى قمة أحد التلال التي ينبسط تحتها، واسعًا، سهل وادي الحَمام.

اهتزّ قلب ظاهر حين رأى ذلك السّهل يكاد يختفي تحت تـشكيلات الخيـل، والرماح الطويلة وسيوف فرسان ارتدوا ملابس خاصة، زاهية، أعـادت ألوانهـا الرّبيعَ لذلك السّهل الذي بدأت طلائع الخريف تعبره.

أخذ نفسا عميقا فامتلأ صدره بخليط نباتات البر من زعتر ومريمية وشـيح، وبرائحة الزعفران وسواها.

امتدّت يد الدنكزلي إلى خصره، أخرج طبنجة، وأطلق طلقة في الهواء.

كان الجنود في الأسفل ينتظرون الإشارة منذ وقت طويل.

فجأة انتشروا في كلّ الاتجاهات مشكِّلين أسرابًـا، نحـو نقـاط خفيّـة، مـا إن وصلوها حتى تحوّلوا إلى دوائر متداخلة، تظلّ تصغر حتى يغدو مركزها مكونـا من فارس واحد؛ فارس رفع راية، في اللحظة المناسبة، فراحت تخفق.

رأى الجنود الرّاية، فتغير تشكيلهم. انقسموا. وحين أعادوا تشكيل أنفسهم، كانوا قد غدوا أربع كتل تشبه مقدمتها رأس سهم.

اختفتْ راية الفارس من جديد، فأغاروا بعضهم على بعض، وخرجت كـلّ كتلة من الجهة المقابلة لها.

رفع الفارس الرّاية، فتفرّقوا في الاتجاهات الأربع، بحيث خلا السَّهل منهم.

هزّ ظاهر رأسه وهو ينظر بإعجـاب إلى الـدّنكزلي؛ وقبـل أن يقـول كلامًـا، سمع وقع حوافر الخيل يأتي من ورائه. استدار، فرأى نصف الجيش يتسلّق التـلّ مُطبقًا على القمة، ويدور حول ظاهر والدّنكزلي وبِشْر ويوسف.

رفع ظاهر سيفه وحيّاهم، التفـتَ إلى بـشر ويوسـف، فوجـدهما مـأخوذين بالمشهد. اقترب من الدنكزلي، وربّت على كتفه، وسحب من خـصره مـسدسه، وأهداه إياه.

فوجئ الدنكزلي بالهدية: أشكرك يا شـيخ، أنـت تكرّمنـي للمـرّة الثانيـة، في الأولى بثقتك بي، وقد طلبت مني تشكيل هذا الجيش، وفي الثانية بهذه الهدية.

- لقد فعلتَ الكثير يا أحمد. وسنرى الآن، إلى أيـن يمكـن أن نـصل بهـؤلاء الشجعان!

- أيّ مكان تأمرنا بالتوجه إليه، لن يكون بعيدًا يا شيخ.

- لنكتب له أولا!

***

أمسك محمد نافع، ذلك الشيخ العنيد، بالرّسالة وكوّرها، وألقى بها في وجه رسول ظاهر.

- لو دخل قلعتي هذه بعسكره، فذلك أهون عليَّ من أن يدخلها بخوفي منه. قلْ له: إذا كنت تريد قلعة صفد، فعليك أن تأتي لتأخذها بسيفك، أما البعنة وسحماتا، فعليك أن تعرف أنني لن أسمح لك بالاقتراب منهما.

انحنى رسول ظاهر، تناول الرسالة، سوّاها قليلا، ثم وضعها في جيبه، وغادر.

***

- لندعه داخل أسواره مطمئنًا الآن. سنقصّ له جناحيه في البعنة وسحماتا. ونرى ما الذي يمكن أن يفعله! قال الدّنكزلي.

- أنا أعرف البعنة يا أحمد، لذلك لن أقبل بأن تُراق على أرضها قطرة دم واحدة. أعرفها كما لم يعرفها أحد! فهناك فقدتُ أول صديق لي في الحياة، وفقدتُ الشيخ حسين، صاحب أعلى واصفى ضحكة خرجت من قلب إنسان. لقد سال الكثير من الدّم على أسوارها، وأمام بابها. أنا لا أستطيع أن أرى غير الليل كلما مررتُ من هناك، وتذكرتُ صاحبي عباس وأباه وإخوته وأهله بأعينهم الفارغة.

- وما الذي يمكن أن نفعله؟ سأل الدنكزلي.

- هديّة؛ سنرسل إلى متسلّمها هدية يا أحمد، أفضل هدية؛ سنكرمه قدْر ما نستطيع. فاخترها بنفسك، كما لو أنها الهدية التي تحبُّ أن تتلقّاها أنت!

***

- سأوصل الهدية بنفسي. قال بشر وهو يسير مع ظاهر على شاطئ البحيرة.

- لا يا بشر، الرّسول لا بدّ له من أن يترجل عن حصانه، وينحني احترامًا لمن سيوصل إليه الرسالة، وأنا لا أريدك أن تترجّل عن حصانك أبدًا، كما أخبرتك، إلا حينما تكون معي.

- الحمد لله أنك لم تمنعني من الترجّل عن حصاني في البيت.

- لا قيمة لرجولتك إن لم تأخذ أهلك وأولادك بالرّحمة يا بشر.

- أي أنك لن ترسلني هذه المرّة إلى البعنة.

- سأرسلك إلى مكان آخر يا بشر، إلى صانور.

- وما الذي يمكن أن يفعله بشرٌ بأقوى قلعة بين نابلس وعكا؟!

- أن يراها فقط، وأن يعتادها!

- ولماذا أعتادها؟! لم أعرف أحدًا استطاع دخولها، إلا إذا كان ضيفًا على شيخها! أما العسكر، فأنت تعرف يا شيخ، هذه قلعة، أعني قلعة! وحاول بشر استخدام يديه لتوضيح ما يقوله، بأن حوّلهما إلى قوس فوق رأسه، ونظر إلى أعلاه! كأن ظاهر لا يعرف تلك القلعة.

- ورغم ذلك، اذهب يا بشْر، وتأمّلها، وعد إليّ.

- لا أظنك تفكر يا شيخ في حصارها!

- إذهب يا بشر، وحين تعود ستخبرني بما عليَّ القيام به.

- أنا يا شيخ؟!

أخذ ظاهر نفسًا عميقًا، حدّق في وجه بشر وأمره: امتط حصانك يا بشر!

- حاضر يا شيخ.

سار بشر عدة خطوات إلى الخلف، أمسك برسن حصانه، وقفز فوقه.

أشار له ظاهر أن يتقدّم.

تقدَّم.

- أريدك يا بشر، أن تذهب إلى صانور.

- أنا جاهز يا شيخ!

- أريدك أن تتأمّل تلك القلعة وتعود إليَّ لتخبرني بما عليَّ أن أفعله بها.

- حاضر يا شيخ! هل أذهب الآن؟!

- غدًا يا بشر، فلديك غزالة وظاهر وعمر. امض إليهم الليلة، ولكن لا تخبر أحدًا عن وجهتك.

- حتى غزالة؟!

- غزالة! غزالة يمكن أن تخبرها بكل شيء يا بشر، كما أخبر أمي نجمّة بكل شيء. أنا لا أطمئن قبل أن أخبرها.

- وأنا أيضا يا شيخ، لا أطمئن إلا إذا بُحت بسرّي لغزالة.

- مع السلامة يا بشر. سأمضي هنا بعض الوقت، ثم أعود للبيت.

***

من بعيد رأى أهل البعنة، تلك القافلة الصغيرة المزينة تتّجه إلى باب قريتهم. استبشروا. وحين عبرت البوابة، سار عدد منهم خلْفها. ارتدى الفرسان الثلاثة الذين يقودون القافلة ثيابا تسلب الألباب، وزيّنوا الأفراس الستّ التي جاؤوا بها، كما لو أنهنّ أميرات! وفوق ظهر حصانين أصيلين، كانت هناك حوائج تمّ تغليفها جيدا بقطع من قماش ملونة، وشرائط حريرية.

كان وصول الهدية مفاجأة لمتسلِّم البعنة وسحماتا؛ ففي الوقت الذي كان فيه ظاهر قادرًا على دخول جدّين، وبسط نفوذه من طبرية إلى عرابة وحتى دير حنا وما حولها، ويحكُم مرج بني عامر بحلفائه عرب الصقر، ويهدد صاحب قلعة صفد، يرسل إليه هدية!

وليمة كبيرة تلك التي أقامها المتسلِّم على شرفهم، وكأن ظاهر واحد منهم، وحين وضع الطعام لم يجلس ليشاركهم، وقف متأهبًا في انتظار أيّ إشارة منهم، بذراعيه الممتلئتين، وفمه الواسع الذي لا تفارقه الابتسامة، وقامته القصيرة ووجهه المتغضّن المستدير كدائرة متآكلة الأطراف، وعينيه الصغيرتين اللتين ينسدل عليهما شعر حاجبيه الكثيف ليلتقي برموشه.

أمضى رُسلُ ظاهر ثلاثة أيام في ضيافته، وحينما توجّهوا إلى خيولهم، قال: وتلك هديتي للشيخ ظاهر.

التفتوا، فرأوا عدة جمال محمّلة بأشياء كثيرة، يقودها فتى حسن الثياب، جميل الوجه.

***

مرّ رجال ظاهر العائدون إلى طبرية بعرابة، كما أوصاهم سعد الزّيداني؛ ناموا ليلة، وفي الصباح حمّلهم سعد رسالة إلى ظاهر.

فتح ظاهر الرسالة، وفوجئ بما فيها: الآن عليك أن تتقدّم وتطلب يد ابنة متسلِّم البعنة زوجة لك!

كان هذا آخر ما يتوقّعه ظاهر، أمسك بالرسالة، وناولها لنجمة. قرأتها وأعادتها إليه دون أن تقول شيئًا.

- لم تقولي لي، ما رأيك بما جاء فيها؟

- الطير الذي في السماء يرى الغصن الذي سيهبط عليه أفضل منّي

- هذا ليس رأيًا.

- كنت أحب أن أكون أنا من ستخطب لك، لا أن تخطب لك الغالية نفيسة مرّة، وسعد مرّة!

***

ضاق سهل البعنة بالفرسان الذين راحوا يستعرضون مهاراتهم، لكن قلب ظاهر كان في مكان آخر. عند تلك القبور التي مرَّ بها، قبل أن يدخل. تلك القبور التي تضمّ أول صديق له، وتلك الضحكة العالية للشيخ حسين التي ابتلعها الظلام.

قبل أن يصل البوابة، صعَّد بصره إلى أعلى السّور، فرأى نفسه هناك، يتراكض من مكان إلى مكان، مُطلقًا شتائمه التي تثقب أذني باشا صيدا.

عبَرَ البوابة، وحمد الله أنه كرَّمه بدخول البعنة دون أن يكون مضطرًا لإراقة قطرة دم واحدة.

كان يمكن للعابرين أن يروا في ظاهر فارسًا أو مسافرًا أو ضيفًا، لكن أيا منهم لم ير في وجهه ضوء فرحة العريس!

خلْفه وجه نفيسة وعباس والشيخ حسين، وأمامه وجه فتاة غامض تنتظره، لا يعرف عنها شيئا!

***

- أريدك في كلمة يا شيخ ظاهر. قال متسلّم البعنة.

- ليس هناك مّن هو غريب بيننا وقد أصبحنا أهلًا.

- إنها كلمة لا بدّ لها من خلوة صغيرة.

سارا حتى وصلا إلى الحافة البعيدة من علِّية منزله، وقد لاحظ ظاهر أنه رغم قصره بدا أطول بكثير من المتسلّم!

ألقى ظاهر نظرة بعيدة باحثًا عن بيت تلك المرأة التي ساعدته في الهرب من حصار البعنة. وجده، ابتسم، وقرر أن يزورها.

- أحببت أن أقول يا شيخ ظاهر، بعد أن أصبحنا أسرة واحدة، إنني كبرت، وإنني لم أعد أملك طاقة الشباب!

- لا تقل شيئا كهذا يا رجل، فأنت أكثر شبابًا منّي.

- إنها الحقيقة يا شيخ ظاهر، ولذا أريد أن أطلب منك طلبًا وأرجو أن تجيبه.

- أنت تأمر.

- لا يأمُر عليك ظالم. إنني أحسّ يا شيخ ظاهر بما أنت مُقدِم عليه. صحيح أن أحدًا لم يقل لي شيئًا عما تفكّر فيه، ولكنني واثق يا شيخ من أنك أمل هذه البلاد اليوم وغدًا، وما دمتَ قد نشرت العدل في ناحيتكم، فستنشره في كل قرانا ومدننا. لقد عرفتُ الكثير ممن تسلّموا وحكَموا. عرفتُ الباشاوات وعرفتُ الوزراء، وأدرك تمامًا أيّ أناس هم! ولذلك أريدك أن تتسلّم البعنة وسحماتا!

- ماذا؟

- أريد أن تتسلّمها. سأتنازل لك عنها أمام ذلك الجمْع الكبير من الناس حتى يكونوا شهودًا. فكلّ من هنا يعرفون أنك دافعت عنها حينما كنت فتى، ولن تقصِّر اليوم في الدفاع عنها ومعاملة أهلها بالعدل كما تعامل طبرية وعرابة وحطين والطابغة وكل مكان وصلتَ إليه.

***

سمع ظاهر ذلك الصوت لامرأة تردّد: أريد أن أراه. أريد أن أرى الشيخ ظاهر.

قفز ظاهر من مكانه، وتوجّه نحو الصوت. كان على يقين من أنها هي؛ لكنه لم يعرف كيف أصبحت إلا بعد أن رآها. وقف مكانه محاولا استعادة وجهها في ذلك اليوم البعيد: إنكِ أنت؟!

- نعم أنا. أنا هي يا شيخ. أنا أمينة. ها أنت تعرف اسمي الآن!

تقدّم منها، أمسك بيدها رفعها ليقبّلها، سحبتْها بسرعة.

كانت قد غدت مسنّة كما لو أن الزمان أقام فيها، هو العابر لسواها دائما!

- كبرتُ، كبرتُ أكثر مما يجب. الجميع يقولون هذا.

- ما زلت كما أنتِ.

- لا تخدعني يا شيخ، فقبل قليل كنت تريد تقبيل يدي كما لو أنني أمّك! ولكنني منذ أن عرفت ما فعلتَه في عرابة وطبرية لم أعد آسفة على شيء. تعرف لقد فرحتُ بحيث أن الموت لم يعد يخيفني. أتعرف يا شيخ، كلما فكرت فيك

أصبحت على يقين من أن شبابي كلّه أمامي، وأن شيخوختي هذه ما هي إلا قناع لا أكثر. فها أنا أخلعه وألقيه أرضًا لأنني رأيتك، ألا تحسّ بهذا؟!

- أحسّه يا أمي. أحسّه. ولكن لي طلبًا واحدًا. أن تعودي معي إلى طبرية.

- إلّا هذا يا شيخ! كيف لي أن أترك بيتي بعد هذا العمر؟! كيف؟! بيتي الذي يحدّثني عنك كل ليلة! ويحكي لي حكاياتك كلّ ليلة! بيتي الذي يعرف أخبارك قبل أن يعرفها أحد، هو الذي قال لي منذ أيام طويلة، إنك ستأتي وإنني سأراك. بيت كهذا لا أستطيع أن أتركه حتى لو كنت سأراك كل يوم!

- أتقبلين أن تكوني أمي إذن؟

- ومن تلك التي لا تتمنّى أن يكون الشيخ ظاهر ابنها؟!

- اتفقنا إذن.

- اتفقنا.

- إذن، عليك ألا تقولي لا بعد اليوم، وأنا أقدم لك كل ما على الابن أن يقدّمه لأمه من واجبات.

- خدعتني يا ظاهر.

- لا يا أمي لم أخدعك. والآن، عليك أن تقومي بواجب الأم تجاه ابنها: أن تذهبي لترتّبي أمور عرسي مع أمي: نجمة.

***

نظر ظاهر إلى العروس وقد أصبحا وحيدين، كانت صورة مطابقة لأبيها. وضع رأسه بين يديه زمنا طويلا، حتى نسيَ أين وضعه!

الهدية مرة أخرى

طلب ظاهر من أحمد الدنكزلي أن يجهِّز هدية مثل الهدية التي اختارها لمتسلِّم البعنة وسحماتا.

سأله: ولمن نرسلها هذه المرّة؟!

- جهِّزها، وأحضرها إليّ هنا، وبعدها سأقول لك.

بعد ثلاثة أيام كانت الهدية جاهزة. تأمّلها ظاهر، وقال: أرجو أن تكون قد بيَّضتَ وجهي بما اخترتَ!

- لن تكون هناك هدية أفضل منها في ظنّي يا شيخ.

- ولو افترضنا أنك كنت مكان ذلك الذي سأرسلها إليه، هل ستكون راضيا؟!

- لن يكون بعد هذا الرّضا رضا.

- إنها لك يا أحمد، فاقبلها من شيخك، دون أن تقول شيئا! وبعد يومين، سنخطو خطوتنا القادمة.

كان أحمد الدّنكزلي على وشك أن يقول شيئا، لكن ظاهر قال له: لا كلام الآن!

- كلمة واحدة على الأقل!

- الكلمة لي الآن، لأنني أريد أن أسألك: إلى أين وصلتْ مسألة زواجك؟

- زواجي! إن الأمر بات أصعب.

- أتعني أنها رفضت طلب زواجك منها مرة أخرى؟!

- لقد وافقت على أن أتزوج بمن أشاء!

- ولكن لماذا؟ أيعقل هذا؟!

- قالت هل تعتقد أنني مجنونة لاستبدل موقعي حبيبة لك بأن أكون زوجتك؟!

- ولكنها تظلم نفسها بهذا!

- هذا ما حدث.

- لم تعد هناك مشكلة الآن، ما دامت وافقت.

- المشكلة أصبحت أكبر يا شيخ، فمن الصعب أن يتخلّى المرء عن حبه لأجل الزواج بامرأة قد لا يحبها أبدًا.

- وقد يحبّها!

- ها أنت قد قلتها يا شيخ: "قد يحبها"! من الصعب عليّ يا شيخ أن استبدل حقيقة باحتمال!

سَرَح ظاهر، ثم أخذ نفسًا عميقًا استعاد به نفسه. ربَّت على كتف الدّنكزلي بمحبة: أعذرني يا أحمد، لقد أوشكت أن أفسد حياتك! لقد أخّرتك أكثر مما يجب. إنها الآن تنتظرك، لا تتأخر عليها بعد اليوم. اذهب.

- وأنت يا شيخ، ألا ترى بأن عليك الذهاب إلى بيتك؟

- بيتي! لم يعد قلبي يعرفه يا أحمد، كأني دفنته معها في الناصرة.

جيش القناديل

مرّة أخرى، كوَّر شيخ صفد رسالة ظاهر وألقاها في وجه الرسول.

- هل تودّ أن تحمّلني رسالة إلى الشيخ ظاهر؟!

- كنت أتمنى أن أحمِّلك رأسك، ولكن لم يسبق لنا أن قتلنا رسولا!

- باستطاعتك أن تدحرج رأسي يا شيخ نافع، واعلم أنه سيسبق حصاني، فالشيخ ظاهر ليس بعيدًا! إذا وقفت أمام أي طلاقة في السّور فستراه!

- ماذا تقصد؟

سار رسول ظاهر نحو السّور، فتبعه الشيخ نافع ومن معه.

***

طلب ظاهر من الدّنكزلي أن يستعرض الجيش كما استعرضه أول مرّة، فامتلأ السهل المترامي أمام القلعة بنُذُر الحرب، واختفى الجيش وظهر، تداخل وتشكّل من جديد وأغار.

ساعة كاملة مرَّت دون أن تتوقّف تلك الحرب الغريبة التي لم تُهرق فيها قطرة دم.

وقبل أن يهبط الغروب اختفى الجيش كما لو أن الأرض ابتلعته؛ في حين بقيت صفد بتلالها الثلاث وبيوتها المتصاعدة كدرج نحو القمة تتابع المشهد بذهول، أما قلعتها المحدِّقة في المدى كصقر يقظ فقد بدا وكأن أجنحتها تهتزّ!

***

غادر رسول ظاهر القلعة بصمت، حاملا رسالة صامتة، في الوقت الذي راقبه فيه شيخ قلعة صفد يبتعد حتى اختفى تمامًا، في نهاية السهل.

أما أولئك الذين وقفوا على السّور فقد كان عددهم يتزايد في كلِّ لحظة، دون أن يستطيعوا إغلاق عيونهم.

***

من بعيد، كان يأتي بين حين وحين صهيل جواد، فيتردّد صداه كما لو أن هناك ألف حصان يصهل.

أُضيئت القناديل في السّهل المحيط بالقلعة. كل مائة في لحظة واحدة؛ آلاف القناديل!

أمر الدّنكزلي قادة فِرقه أن يختاروا من بين كلِّ خمسين جنديًا جنديًا واحدًا، ذلك الذي ستنطفئ شعلة قنديله أولا، ويأتوا به إليه.

عتمة الليل، وصمت الرّيح كانا يحتضنان الذبالات، ويحميانها من أن تنطفئ! في الوقت الذي تحوّلت فيه قلعة صفد نفسها إلى قطعة من ليل كثيف.

وصل ثلاثة جنود ممن انطفأت شعلاتهم جاهزين أمام خيمة ظاهر.

- وما الذي تريده من هؤلاء الجنود يا أحمد؟ سأله ظاهر.

- سأرسلهم إلى القلعة. لأن أفضل شيء يمكن أن نقوم به، هو أن نفتح أبوابها من الدّاخل.

- ومن أين سمعت بلعبة القناديل هذه؟!

- ومن لم يسمع بها يا شيخ، بعد أن اخترتها وأخوتك لتفصل في أمر تسلّم طبرية؟!

- هكذا إذن. الجميع يعرفونها؟

- نعم، وأصارحك أننا أشعلنا قنديلين ليلة معركة جدين، واحدًا باسمك والآخر باسم شيخ القلعة، فانطفأ قنديل الشيخ وبقي قنديلك!

ضحك ظاهر.

- ما الذي يضحكك يا شيخ؟

- يبدو أن القناديل تَصْدُق أحيانا!

***

مع اشتداد عتمة الليل توهّجت القناديل أكثر. وقبل أن ينتصف بقليل، دخل جندي وأعلن عن وصول رسول من قلعة صفد.

- يبدو أن الحرب انتهت يا أحمد، ولكن ليس بالقناديل التي انطفأت، بل بالقناديل التي لم تزل مشتعلة!

***

قرأ ظاهر رسالة الشيخ محمد نافع، ثم ناولها لأحمد الدّنكزلي.

لم تكن رسالة في الحقيقة، بقدر ما كانت: صكَّ تنازل عنٍ تسلُّم صفد وما يتبعها للشيخ ظاهر العمر، عن طيب خاطر، ليكون متسلّمها ولينشر العدل فيها، ويكون حاميًا لها من كل عدو خارجي...!

أعاد ظاهر الرسول، بعد أن حمَّله رسالة حيّا فيها الشيخ محمد نافع ووعد بأن يرفع عن صفد كلَّ ظلم ما دام فيه عِرْق ينبض؛ ووعد بأن تبقى حصة المتسلِّم التي يقتطعها من مال الميري، للشيخ محمد، وأن لا يُمسَّ أي حقّ من حقوقه، أو ماله، ما دام العدل هو أساس عمله، واختتم رسالته: ويسعدني أن أكون ضيف صفد يوم غد.

***

قبل أن يصل رسول صفد إلى بوابة قلعتها، أعطى الدنكزلي أمرًا بإطفاء القناديل. فأطفئت.

***

الشيء الذي لم يتوقّعه ظاهر هو ذلك الفرح الحقيقي الذي غمر قلوب الناس، وهم يستقبلونه بالأغاني والدفوف:

يا زيادنة ريت الموت ما يراكم
يا سباع البر يامَبْيَضْ ثناياكم
تمرقوا عالجرد والجرد يابس
يخضر الجرد من ريحة هواكم.

***

- كما كتبت لك في رسالتي يا شيخ محمد، أنا لن أمسّ أيّا من حقوقك.

- وأنا واثق من هذا يا شيخ ظاهر، فالذي فتح أبواب صفد بالضوء، سيحرص دائما على أن يكون ذكره فيها نقيًا وصافيًا كالضوء!

لعلّه الحنين!

محلِّقًا فوق رأسه كغيمة شاحبة، كان الحزن الذي اعتصر قلب ظاهر لفقدانه نفيسة. وفي الوقت الذي كان فيه وجود بدرية يزيد من حجم الغيمة كان وجود العروس الجديدة يجعلها أكثر كثافة!

***

ضرب الأمير رشيد الجبر يده بالأرض، وصرخ: أيحالفنا ظاهر ويحرص على أن تظل هناك مسافة بيننا وبينه؟! فأرسل إليه ظاهر، يسترضيه، ضعف ما كان يدفعه له، ويطلب منه أن يمنع عربه من الإغارة على القوافل والقرى، لأن الشيء الوحيد الذي لن يتنازل عنه هو الأمان.

حين رأى الأمير جبر ذلك، رضي، وأمر بوقف الغارات، وبعودة كل فرقة خرجت من المرج إلى المضارب.

***

وقف الأمير رشيد الجبر بباب الديوان. وصاح: يا شيخ ظاهر: لي عندك حاجة، ولا أدخل بيتك أو آكل طعامك إن لم تلبِّ طلبي!

سمع ظاهر صوت الأمير، نهض، توجّه إلى بوابة الديوان.

على بعد خطوات من عتبة البوابة الخارجية للديوان، وقف الأمير رشيد، وكأن هنالك خطا مرسومًا على الأرض بالنار، لا يستطيع تجاوزه. وخلفه كان عدد من الفرسان، وجمل يحمل هودج عروس مزيّنا! كلما تحرّك الجمل مال.

- تفضّل أيها الأمير. تفضلوا.

***

لم ير ظاهر امرأة بجمال سلمى، ولا كائنا أنيسًا مثلها. فعلى الرّغم من مشقّة الحياة في المضارب، والتنقّل من مكان إلى آخر؛ وعلى الرّغم من معرفته أن كلّ بنات القبائل تتساوى في المكانة، فكلّهن يعملن وكلّهن يذهبن لجلب الماء؛ إلا أن سلمى بدت ككائن قادم من كوكب آخر.

نظر إلى الأعلى، فرأى غيمة حزنه تتفتّت.

لكن الشيء الذي لم يخْفَ عليه، هو محاولتها المستمرة للهرب بعينيها بعيدًا عنه كلما حدثته، كما لو أنها تخبئ سرّها فيهما.

لم يسألها، قال: لعلّه الخجل. ولعلها حزينة لأنني لم ألمسها بعد! تودّد إليها، وأمضى ليلته معها في ذلك البيت الذي اشتراه لها في الناصرة، لتكون قريبة من مضارب أهلها.

في ذلك الصباح كان الحزن، نفسه، يذرع وجهها. أدرك أن عليه أن ينتظر.

بعد أشهر، رفعت سلمى عينيها لتنظر إليه للمرة الأولى، فوجد نفسه مربكًا أمام ذلك الدّمع العزيز!

سألها: ما بك يا سلمى؟!

- لا أعرف يا شيخ، ربما يكون الحنين إلى الأهل!

الفرس التي تحوّلت إلى سهم

في الوقت الذي وصلت، إلى ظاهر، رسالة من الأمير رشيد، يستفسر فيها عن أحواله وأحوال عروسه سلمى، وصلته رسالة أخرى من الأمير ناصيف النصار، أمير المتاولة[1] من بلاد بشارة.

كان ظاهر قد كتب إليه طالبًا منه التنازل عن قريتي البصّة ويارون. فكتب الأمير ناصيف إليه:"لا تظننا مثل غيرنا! فوالله إن عندنا أمام سيفك سيوفًا أحدّ منه، وبإزاء كيدك مكايد كثيرة، فالأولى لك أن تدعنا غافلين عنك في اعتدائك على جيراننا، وإلا فوالله العظيم ستندم، لأنّا نحن طالما بُغي علينا فانتصفنا من الباغي، وعاهدنا فقُمنا بزيٍّ ما عاهدنا، فدونك الأمرين، أنت ورأيك، ونحن نرى فيما يبدو منكم رأينا..".

بسط ظاهر الرسالة أمامه، وراح يقرأها، لكن أكثر ما فاجأه أنه لم يكن غاضبا! فقد كان يتابع أخبار الأمير ناصيف عن بعد بإعجاب! هذا الأمير الذي استطاع أن يقوم بكل ما قام به ظاهر: أن يبعد الولاة عن أرضه وعن ناسه ما استطاع، وأن يؤسس لحكم متضامن القوي، وأن يوحد مواقف زعماء مناطقه ويحول دون تدخل رجال الدولة العثمانية في شؤونه الداخلية. كما استطاع أن يجعل جباية الضرائب في جبل عامل مغايرة لما يحدث في بقية المناطق، حيث لم يكن يجبي الضرائب مرتين أو ثلاثاً في العام الواحد، بل مرة واحدة وبنوعٍ من الرحمة وعدم الإثقال على الناس.

***

أرسل ظاهر إلى سعد الذي استقرّ في قلعة دير حنا، بعد أن رممها، يستشيره، فكتب إليه سعد: أنا أكفيك!

مضى سعد واجتمع بالأمير ناصيف، وحاول إقناعه بالتّنازل عن القريتين. رفض.

---

[1] – شيعة جبل عامل في جنوب لبنان.

فكّر ظاهر من جديد، باحثًا عن وسيلة تجنّبه الحرب، فلم يجد، ثانية، أفضل من الهدية، فجهز هدية وأرسلها لباشا صيدا، وطلب منه أن يولّيه البصّة ويارون.

كانت المفاجأة أن الباشا قَبِل ذلك، فأرسل ظاهر من فوره قوّة طردتْ متسلِّمي القريتين. وحين علم الأمير ناصيف بما حدث، جرّد جيشًا كبيرًا، وقبل أن يتحرّك الجيش كان كل شيء قد وصل إلى ظاهر.

***

لم تكن تلك هي الحرب الأولى بين ظاهر والمتاولة، فقد كانت الحرب الأولى مختلفة، وخاطفة، ودارت رحاها في أراضي البصّة، حيث لم تكن يارون في فكر ظاهر. كانت المفاجأة التي لم يتوقّعها أحد في الحرب الأولى: تمكّن المتاولة من أسر فرس لظاهر، اسمها البريصة، وهي واحدة من الأفراس القليلة التي تنحدر من تلك الفرس البيضاء التي أرضعته.

حين علم ظاهر بذلك جنّ جنونه. كان على استعداد لأن يفعل أيّ شيء مقابل استرداد الفرس، إلى حد إرساله رسالة للأمير ناصيف، يخبره فيها، بأنه يتنازل عن المطالبة بالبصيصة [1] مقابل إرجاعهم للبريصة!

بدا المتاولة مستعدين للتّخلي عن كل شيء، أمام فتنة تلك الفرس، وحينما علموا بحجم تعلّق ظاهر بها، أرسلوا إليه: لن نعيد البريصة ولن تأخذ البصيصة!

الشيء الوحيد الذي لم يكن ظاهر مستعدًا لأن يفعله، هو أن يترك تلك الفرس أسيرة خلْفه. صاح: إنها أختي.

ولكنه بدل أن يُغير عليهم، انسحب بجيشه! حتى ظنَّ المتاولة أنه لن يعود أبدًا. ثم، وعلى حين غرّة فاجأهم، واستردّ الفرس وطلب من بِشْر أن يمتطيها وألا يتوقّف قبل وصوله إلى دير حنا. وحين اطمأن لذلك، أغار على البصّة وسيطر عليها.

لكن ذلك لم يدم طويلا، فبعد أسابيع من عودته إلى طبرية، هاجمها المتاولة وقتلوا رجال ظاهر واستعادوها.

***

[1] - البصيصة، تصغير لاسم البصَّة.

كانت الحرب الثانية، معهم، أطول حرب يخوضها جيش ظاهر، فعلى مدى اثني عشر يومًا، صمد المتاولة المعروفون بشجاعتهم وقوّتهم أمامه، بحيث تحوّل "مرج البصل" من أراضي طربيخا في الشمال، إلى نداء دم عال سمعته النّسور والعقبان فاندفعت نحو سماء المعركة تطوف، مُنتظرةً اللحظة التي تتمكّن فيها من أخذ حصّتها من الأشلاء. وحينما تعبت، وقفت بعيدًا، جائعة، تحيط بساحة المعركة تترقّب هلاك الجميع!

***

قدَّر الدّنكزلي أن حربًا كهذه لا يستطيع المرء أن يتنبأ بنهايتها، فاستأذن ظاهر: لديَّ خطة، لا أريدك أن تعرف بها! لأنك سترفضها! ولكن، أعاهدك أننا سنستطيع بها وقف هذه الحرب وحقن دمائنا ودمائهم!

هزّ ظاهر رأسه، وقال: إذا استطعت أن توقف هذه الحرب بيني وبين هذا الرجل الذي أحبه، فسيكون لك في عنقي ديْن لن أنساه!

- تحبه؟!

- نعم، أحبه يا أحمد.

***

كان على ظاهر أن يقوم بالكثير ليسدّ الفراغ الذي تركه الدّنكزلي ومن معه بمغادرتهم، لكن الأمر لم يطُل، إذ لم تغرب شمس ذلك النهار، إلا وكان الدنكزلي قد عاد.

وصل الخبر إلى الأمير ناصيف في الوقت الذي وصل فيه إلى ظاهر.

***

ترك الأمير ناصيف أرض المعركة مشتعلة خلفه، حينما بلغه ذلك الخبر الذي لم يصدّقه! ومضى نحو بيته. كانت المفاجأة أكبر من أن تُحتمل. لم يترجّل عن جواده، استدار عائدا إلى مرج البصل، بعد أن حمَّل رسوله، رسالة إلى سعد العمر.

لم يكن يفكر سوى في شيء واحد، محاصرة ما حدث، لكي يضمن عدم تطوّر الأمور في اتجاه أسوأ!

كلّ شيء كان على ما هو في البلد، إذ لم يُدمَّر شيء أو يُسلب شيء، ولم يسقط حتى قتيل واحد، لقد استطاع الدّنكزلي الإطباق على البلدة ومفاجأة من بقي فيها من رجال، والوصول بيسر إلى بيت الأمير ناصيف.

من بعيد لاحت سُحب الغبار تحاول اللحاق بفرس الأمير ناصيف التي تحوّلت إلى سهم، وقبل أن يصل كان يصيح: أوقفوا القتال، أوقفوا القتال.

فجأة، عمّ الصمت، تلاشى صليل السيوف وأصوات الرّصاص، وبدا كما لو أن الخيل قد تجمّدت في الهواء والسّهام المحلِّقة لا تعرف إلى أين تمضي!

***

وصل رسول الأمير ناصيف إلى دير حنا، بعد منتصف الليل.

فتح سعد العمر الباب، فوجد مجموعة من حرسه. سألهم عما حدث! قالوا: إنها رسالة من الأمير ناصيف، جاء بها رسوله.

- أما كان يمكن أن ينتظروا حتى الصباح؟!

- يبدو أنه واحد من الأمور التي لا تؤجل.

- وأين الرّسول؟

- ينتظرك في الديوان.

- سألحق بكم.

***

دخل الدّنكزلي وإلى جانبيه شابان صغيران، فنهض ظاهر واستقبلهما بمودّة. دعاهما للجلوس، فاستجابا بكل ما في الأمراء من أدب!

ومال إلى الدنكزلي وهمس في أذنه: ألم تجد حلا غير هذا الحلّ؟!

- تمنيت هذا يا شيخ، لكن وقف حرب كهذه، ما كان يمكن أن يتمّ بسهولة.

ربّت ظاهر على كتف الدنكزلي، ولكنه بدا مهموما، كما لو أنه يحمل جبلا فوق ظهره، ومضى يتبع الشابين.

- أنتما ضيفاي، وأرجو أن تقبلا هذه الدّعوة، التي لم أكن أحبّ أن تتمَّ بهذه الطريقة. ستكونان هنا معزَّزين مكرَّمين كأهلي، ولا أظن أن إقامتكما هنا ستطول؛ هذا ما أتمناه من قلبي؛ فليس من عادة ظاهر أن يحتجز ضيوفه.

شكر الأمير الأكبر سنا الشيخ ظاهر، وصمت.

***

يعرف الأمير ناصيف الكثير عن ظاهر وعدالته. لم يكن لديه شكّ في أن مكروهًا سيصيب ابنيه، لكن قلب الأب لم يكفّ عن الخفقان بعنف منذ وصول خبر أسرهما إليه.

حين استدعى الأمير ناصيف قادة جيشه وزعماء مناطقه، كانوا على يقين بأنه على وشك اتخاذ أكثر القرارات جنونا في حياته، لكنهم فوجئوا بهدوئه، فاندفعوا يهاجمون ظاهر ويحرضونه.

- في ظني أن الشيخ ظاهر لم يقم بما قام به إلا مضطرا! لقد أرسل أخاه سعد وأرسل الهدايا إلينا، وألقينا بذلك كله عرض الحائط. ربما كان علينا أن نتفهّم ما يقوم به هذا الشيخ، لا أن نحاربه، فكل ما حلمنا وعملنا على تحقيقه في بلادنا حققه في بلاده، ولم يحارب في يوم من الأيام سوى من نحاربهم؛ وفي الوقت الذي طارَدَنا ويطاردُنا فيه كثيرون لاختلاف المذهب، كان الشيخ ظاهر يحمي كل الناس، يحمي المظلوم والمستضعف والمسيحي واليهودي.

كانوا يحدقون فيه غير مصدّقين ما يقول، ولم يكونوا بحاجة لسماع شيء يفاجئهم مثل من تلك الجملة: كان علينا أن نعرف، أننا لا نحارب أحدا سوى أنفسنا، حين نحارب رجلا مثله.

- ما كان يمكن أن تقول هذا إلا لأنه أسر ولديك؟

- ربما كان أسرهما سببا في قول ما قلت، لكنني لا أظنه سببا في القيام بما سأفعله!

***

لم يكن الصّلح بينهما أمرًا صعبًا، إذ استطاع سعد أن يجمع ظاهر والأمير ناصيف، الذي ظهر بوجه آخر تمامًا.

تنازل الأمير عن تسلُّم البصّة ويارون مضافًا إليها بلاد المتاولة كلّها! بحيث يتكفّل ظاهر بدفع أموال الميري المترتبة على البلاد بنفسه لباشا صيدا؛ وفي المقابل، يتعهّد بأن يمنع عنهم كلّ ظلم، سواء أتى من وزير صيدا أم من سواه، وأن يكونوا حلفاءه أيضا إذا ما تعرّض لأي اعتداء.

تقدم الأميران الشابان، وقبل أن يصلا لأبيهما، احتضنهما ظاهر وأمر بأن تُحضَر هديتهما.

غالب الأمير ناصيف نفسه، ليمنعهما من الجري نحو ولديه. ظلّ في مكانه ثابتًا إلى أن وصلاه. قبَّل رأسيهما وأجلسهما بجانبه، وأشار إلى واحد من رجاله، فتقدَّم، همس في أذنه، فابتعد.

بعد قليل عاد ذلك الرجل ومعه حصانان أصيلان. نهض الأمير وقدّمهما بنفسه إلى ظاهر، وتعانقا. تأثّر ظاهر بذلك، فاستلَّ سيفه، وتناول المصحف

الذي أقسموا عليه من قبل، وأقسم: أنه، ومن معه، سيكونون يدا واحدة على كلّ من يعادي الأمير ناصيف وقومه وأنه سيعمل على أن تظل بلاد المتاولة، كما طبرية وعرابة وجدين وسواها خالية من كل ولاة العثملي، وأعلن أنه سيُسقِط ربع أموال الميري التي تتحقّق على بلاد المتاولة إكراما للأمير ناصيف.

كان قسم ظاهر بالنسبة للأمير يعني أكثر من مسألة الميري، لأنه كان يدرك أن ظاهر وحده، الآن، هو القادر على الوقوف في وجوه الباشاوات ووجوه مشايخ نابلس الموالين لهم، والدولة، ومنع أي أحد من المساس بالمتاولة، الذين ذاقوا الكثير، بسبب اختلاف مذهبهم.

***

الشيء الذي لم يتوقّعه ظاهر هو غضب أخيه سعد، فما إن ودع الأميرَ ناصيف، حتى فوجئ بسعد يصيح في وجهه، كما لو أن ظاهر لم يزل ذلك الطفل الصغير: تبسط نفوذك على أرض المتاولة، أفهم هذا! وقد سعيت بنفسي لكي أساعدك! ولكن أن تحوّلهم إلى حلفاء، أتعلم ما الذي يعنيه ذلك، إنك تعادي أهل السُّنّة كلهم في هذه البلاد وخارجها، وتطعنهم في إيمانهم!

انقبض قلب ظاهر، وتطاير شررٌ جارف من عينيه.

– لن أسمح لك بأن تقول كلمة واحدة أكثر مما قلت يا سعد! أي إيمان هذا الذي تؤلمه الرحمة وحقن الدماء وصون كرامة الناس؟! يا سعد، أنا لا يعنيني ما تؤمن به، يعنيني ما الذي يمكن أن تفعله بهذا الإيمان: تبني أم تهدم، تظلم أم تعدل، تخلص أم تخون، تسلب أم تمنح، تحب أم تكره، تصدق أم تكذب، تحرر أم تستعبد، تزرع أم تقلع، تنشر الأمن أم تطلق وحش الخوف يلتهم قلوب الناس؟ يا سعد، هؤلاء الذين يحيكون لنا المكائد هم من مذهبك ومذهبي، هؤلاء الذي يسرقون عرق جباهنا ويذلوّن أهلنا من مذهبك ومذهبي. وتقول لي: إن عليَّ ألا أحالف بلاد بشارة والأمير ناصيف، لماذا: لأننا مختلفون في المذهب؟ وهل أهل السنة مجتمعون على مذهب واحد؟! أوليس لدينا أربعة مذاهب، لم لا يكون الشيعة مذهبا خامسا، ما دمنا جميعا نؤمن برب واحد ونبيّ واحد وقِبلة واحدة وقرآن واحد، وشهادة أن لا إله إلا الله؟ والآن يجمعنا هدف واحد هو محاربة عدو واحد..

والله يا سعد، لو وقف بباب قلبي رجلان، رجل عادل من أي مذهب أو ملّة أو دين، ومسلم ظالم، لأسكنت الأول قلبي وطردتُ الثاني..

لا يا سعد: لن يكون الذي أمامك ظاهر العمر، لو فكرتُ كما تفكِّر، وإلا لحوَّلتُ السنّة إلى دين، والشيعة إلى دين، وقسّمتُ الإسلام، ومعاذ الله أن أفعل هذا. فانتبه لنفسك ولروحك يا سعد، فقد قيل دائما: للإيمان الأعمى عيون شريرة!

أخذ ظاهر نفسا عميقا دون أن ينأى بعينيه عن وجه سعد.

توقع أن يقول سعد شيئا، لكن المفاجأة كانت قد شلته، ظلّ واقفا أمام ظاهر غير قادر على التحرك، فتقدّم ظاهر منه، ووضع يده على كتفه، وقال: أرجو أن يكون ما صدر عنك، ليس أكثر من زلة لسان! وتركه في مكانه وابتعد.

***

جلس ظاهر محدّقا في شعلة القنديل التي كانت تتأرجح أمامه، انتظر وانتظر ما يمكن أن يحدث لها، وفي اللحظة التي أحسّ فيها بأن اتقادها يزداد، أغفى.

في الفجر فتح عينيه بفزع، كما لو أنه لم يغف أكثر من دقيقة، فوجئ بالقنديل ينشر الضوء. نهض.

في آخر الليل الهادئ كروح راضية، ألقى نظرة للبعيد، وهيئ إليه أنه قادر من سفوح طربيخا أن يسمع موج البحر. صلّى، وتناول إفطاره المعتاد في الخامسة، ككل يوم. رفع يديه وشكر الله على نعمته. وطلب أن يأتوه بحصانه.

***

كان الدنكزلي راضيا بالصّلح الذي تمّ؛ أما سعد، فقد أدرك أن الزمن ليس زمنه. في حين أحسّ ظاهر بصدق الأمير ناصيف، كما لم يحس بصدق أي رجل حاربه من قبل، فقد أدرك أن ذلك الصلح بداية لزمن آخر مختلف.

***

دار ظاهر في تلك المنطقة المنبسطة وتلالها الصغيرة، ثم عاد قاطعًا السهل، عائدًا إلى خيمته. فجأة توقّف. ربَّت على عنق حصانه ليجعله يهدأ. لقد خيّل إليه أنه يسمع ذلك الصوت من جديد: صوت موج البحر!

حبس أنفاسه، هدأ الحصان، وأنصت، فإذا بالصوت يأتي قويًّا، صوت موجة غير عادية، تراجع حصانه للوراء مُطلقًا صهيله!

أغمض ظاهر عينيه وأشرعهما من جديد.

في ذلك السهل الذي يبعد كثيرًا عن شاطئ البحر، ألقى نظرة على نفسه وإذا بالموجة قد بلَّلته!

انطفاء الشمس

أشرع ظاهر شباك بيته، فلم يسترع انتباهه من كلّ أولئك الخلْق الذي يملأون شوارع الناصرة، سوى ذلك الشاب البدوي المُنهك مرضًا أو مشقّة؛ الشاب الذي استدار بعينيه ما إن رأى ظاهر. وحين خطا أولى خطواته مبتعدًا، حاول أن يبدو طبيعيّا ما استطاع، رغم هزاله، لكن عودته للنظر ثانية نحو بيت ظاهر فضحتْهُ.

تجوّل ظاهر في ذاكرته مُفتِّشا عن ذلك الوجه، لم يستطع استحضاره.

أغلق النافذة، وخرج.

***

في اليوم التالي، كان ظاهر يتناول طعامه، حين وجد نفسه يسير ويتّجه إلى الشباك. لم يفتحه كاملا. من بين دفتيه، ألقى نظرة؛ وكما توقّع، وجده هناك محدّقا في البيت كما لو أنه يحدّق في فراغ بعينين مطفأتين.

بهدوء أغلق الشّباك.

نظر نحو سلمى، وجدها تدور حول نفسها. سألها إن كانت مُتعَبة أو يقلقها شيء ما. أجابت: لا يا شيخ. ما في شَيْ. لكن دورانها حول نفسها تزايد!

أغفى قليلا بعد الغداء. فتح عينيه بعد ساعة، فوجدها هناك تحاول أن ترى شيئا في الخارج، لكن الشّباك كان مغلقًا.

أغمض عينيه من جديد. فكّر في ذلك السرِّ الذي يُلصق ذلك البدويّ بالجدار في الخارج، ويلصقها بالشّباك في الداخل!

لم تكن لديه سوى إجابة وحيدة.

تنحنح، وانقلب على جنبه الأيسر حتى يتيح لها فرصة تغيير مكانها!

تحرَّكت بسرعة، وقبل أن يفتح عينيه كانت قد أصبحت في الغرفة المجاورة.

نهض ظاهر. توجّه إلى الشباك، أشرع جزءا منه، وألقى نظرة من ذلك الشقّ الصغير.

وكما توقّع..

***

- تريدين شيئًا مني؟! سألها وهو يغادر.

- سلامتك يا شيخ. سلامتك.

- إذا كنت تريدين شيئًا فسأجلبه إليك بنفسي، أو أرسله مع خادمتك، لأنني سأتأخر هذا المساء.

- لا شيء يا شيخ، سوى عودتك سالمًا.

حيّره ذلك الارتباك في صوتها أكثر!

تجاوز المقصورة الصغيرة التي تتوسّط ساحة البيت متوجِّهـا إلى الإسـطبل. تبعتْه. نظر إليها. كان وجهها مساحة لم تحظَ البراءةُ بمثلها مـن قبـل، لـولا قلـق عينيها الذي راح يثير الغبار تحت قدميها!

بمجرد أن أشرع الباب، استدار ذلك الشاب. لكن ظاهر كان حريـصًا عـلى ألا يُلقي أيّ نظرة نحوه.

نكز ظاهر حصانه. ابتعد.

طاف حول الناصرة عدّة مـرات، تأمّـل كنيـسة البـشارة تحـت ضـوء ذلـك الغروب، رآها نحاسية، مثل ذلك اليوم الذي وصل فيه إلى الناصرة، يوم رحيل نفيسة. انقبض قلبه، وهزّته فكرة غريبة أن الشمس لم تكن تغيب، بل على وشك أن تنطفئ!

عاد..

حدّق في تلك النقطة التي كـان الـشاب فيهـا، لم يجـده، أخـذ نفـسًا عميقًـا، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم!

دفع الباب برفق كعادته، ودخل. رأتـه الخادمـة، ركـضت نحـوه، أمـسكت برسن الحصان وسارت به نحو الإسطبل.

ألقى نظرة نحو البيت، كلّ شيء كان ساكنًا، وبدا الإغلاق المُحكم لشبابيكه وأبوابه جزءًا من طقوس الشتاء القارص الذي يجوب الأرض بحرابه المسنونة.

وصل الباب، سمع صوتا غريبًا. أنصتَ أكثر. كان هنالك صـوت رجـل في الداخل. انعصرَ قلبه. امتدّت يده نحو الباب لتدفعه، لكنهـا تراجعـت وتراجـع معها! دون أن يرفع نظره عن البـاب إلى أن وصـل المقـصورة، توقّـف، وصـعد الدّرجات الأربع التي توصلها بالأرض، وجلس هناك.

خرجت الخادمة من الإسطبل، رأته في المقصورة ساكنًا: هل أخبر سيدتي بحضورك يا شيخ؟

- لا، اذهبي أنتِ، سأناديك حينما أحتاجك.

- ألا تريد غطاء يا شيخ؟ الدّنيا برد.

- شكرًا لك، كما أخبرتك سأناديك حينما أحتاجك.

***

هبط الليل فلم يعد باستطاعته أن يرى نفسه في المقصورة.

أُشرِعَ بابُ البيت فجأة وخرجت سلمى، تلفتت بقلق؛ وبخوفها استطاعت أن تراه، لا بعينيها. تقدّمت نحو المقصورة مرتبكة: هذا أنت يا شيخ؟! لماذا تجلس هنا في الظلام؟!

- اضطررت أن أعود لأني شعرتُ فجأة ببعض التعب؛ وظننتُ أنك نائمة، فلم أرد إزعاجك! أظن أنني استرحت بما فيه الكفاية، وآن لي أن أعود لأتمَّ عملي.

ظلَّت واقفة في مكانها مثل تمثال إلى أن تلاشى وقْع خطوات حصانه.

بخطى واسعة عادت، أشرعت الباب وأقفلته من الدّاخل بإحكام، قبل أن تعود وتفتحه من جديد بحذر، ثم تغلقه خلفها. وقفت على العتبة، نظرت شمالا، يمينا، أمامًا، تأكّدت من عدم وجود الخادمة. دفعت الباب بيدها القابضة على مقبضه، وهمست: أسرع، أسرع!

بخطى سريعة مرتبكة جرى ذلك الشاب الهزيل عبر الساحة. دخلتْ. ومن شقّ الباب راقبته إلى أن وصل إلى البوابة الخارجية. أخذت نفسًا لكن الهواء لم يسعفها، سقطت. وجدت نفسها على ركبتيها تردد: الله ستر، الله ستر!

***

وجهًا لوجه، وجد ذلك الشاب نفسه مع ظاهر أمام الباب!

تجمّد في مكانه. امتدّت يد ظاهر وقبضت على يده بقوة: أنت تعرفني، أليس كذلك؟!

بصعوبة خرجت الكلمات جافة، بحيث جرَّحت حلقه ومزَّقت شفتيه: أجل. الشيخ ظاهر العُمر.

- ومن أين خرجت الآن؟!

- من.. من بيتك؟!

سار به ظاهر بعيدًا عن البيت، حصانه يتبعه بصمت، وشُعَلُ القناديل تتمايل في الشوارع.

هبّت نسمة خفيفة، راقب ظاهر الشُّعَل ترتجف أكثر، لكنَّ أيا منها لم ينطفئ. أخذ نفسًا عميقًا كما لو أنه يريد استنشاق تلك النّسمة كلّها. وقال:

- أصدقني صدق أخ! أو اعترف لي اعتراف مريض لطبيب! استرشدني كأب! وأعدك أنني سأقوم بواجب كل هؤلاء نحوك!

بين يأسه وخوفه ورجائه المستحيل، وقبضة يد ظاهر المطبقة عليه، قال: سلْني ما تريد.

- ما اسمك؟

- أنا غيث، ولد الشيخ صفوان.

- عروسي ابنة عمّك إذن؟!

- إنها ابنة عمي يا شيخ!

- لقد رأيتك أكثر من مرّة مقابل بيتي، ووجدتك الليلة في غرفتها!

- والله يا شيخ إنك كبير إلى ذلك الحدّ الذي يمكن فيه أن تعْذُر، وأصيل إلى ذلك الحدّ الذي يمكن فيه أن تعفو. قال غيث يرجوه.

- ما هي قصتك يا غيث؟!

- حبي لها هو قصتي يا شيخ! واعذرني على تجاوزي الحدّ! أحبها من زمن بعيد، وأبي وأبوها وأمي وأمها يعرفون ذلك، كثرٌ هم الذين يعرفون ذلك؛ ولكن حين جاء الأمير رشيد وطلبها لك، لم يجرؤ أحد على أن يرفض طلبه. سكتوا يا شيخ كما سكتُّ أنا، فمن يجرؤ على رفض طلب للأمير؟! من يجرؤ على رفض طلب لك؟! ومن يومها لم يُبق لي الحب عقلا، فأصبحت آتي إلى هنا علّي أبرِّد شوقي برؤيتها! وأما وجودي في غرفتها، فهو الجنون كلّه يا شيخ، ولكنني أقسم لك بأن كل ما فعلته أني نظرت إليها عن قرب ولم ألمسها أو تلمسني.

أطلق ظاهر زفرة قوية فأحسّ بالهواء يهب وشُعَل القناديل ترتعش وترتعش، والليل يكاد يغلبها. عاد وأخذ نفسًا عميقًا. عادت الشُّعَلُ تضيء وتراجع الليل قليلا عن أطرافها!

- وهل أنا مخيف إلى هذا الحدّ يا غيث، بحيث لا يجرؤ أحد على رفض طلب لي؟!

- بل نحن نحترمك إلى هذا الحدّ ونجلّك يا شيخ.

- الحمد لله. كدتَ تقتلني يا غيث.
- أقتل نفسي يا شيخ قبل أن أفكِّر في هذا!
- هل أنت أهل للجميل يا غيث؟
- ازرعني في مرج بني عامر وسترى أيّ شجرة صالحة أنا!
- أريدك أن تعود إلى رَبْعك، وتنسى ما حصل هنا يا غيث، تنساه تمامًا. فهمت؟!
- فهمت يا شيخ، فهمت!

***

في تلك النقطة عند الحافة الجنوبية للناصرة، وقف ظاهر يراقبه، وما هي إلا لحظات، حتى اختطف الليل جسد غيث بظلامه القابض على السهل.

***

طلب منها ظاهر أن تجلس أمامه، جلست؛ لكن عينيها واصلتا حفر الأرض بينهما. امتدَّت يدها تريد أن تلمس يده، سحب يده بهدوء مشحون. جفلتْ. راقبها. لو لم تكن زوجته لتمنّى أن تكون ابنته، أشبه بقبّرة صغيرة تحت المطر كانت.
- خير يا شيخ! قالت دون أن ترفع وجهها.
- خير يا سلمى. وصمت قليلا ثم قال: لقد خرجت هذا المساء من هنا وأنا زوجك وعدت الآن وأنا أبوكِ!
غارت عيناها في الأرض أكثر.
- سأمنحك فرصة لا يمنحها زوج لزوجةٍ، فلا تُضيّعيها يا سلمى. هل تحبّين واحدًا من قومك؟!
تردّدت سلمى، وحفرت الأرض بعينيها أكثر.
- لا تضيّعيها يا سلمى. لا تضيّعيها!
- نعم يا شيخ.
- نعم ماذا؟
- أحبُّ ابن عم لي، لا خيانة لكَ ولكن لعِشْرَة الصِّبا بيني وبينه.
- أترغبين بأن يكون الجالس أمامك أباك يا سلمى؟!

غاصت سلمى في الأرض، ابتلعتْها، وقد أطبقت عليها الفضيحة تدّقها كمسمار أعمق وأعمق. لكنها وجدتْ في نفسها القوّة لتهبّ وتلتقط قدَمي ظاهر لتقبِّلهما.

أمسكَ بها، ومنعها من أن تفعل ذلك.

- لا يا سلمى، أنت دخلتِ بيتي عزيزة وستخرجين منه عزيزة، ليست ابنة ظاهر من تُقبل قدَمي أحد، حتى لو كان هذا الإنسان أبوها!

- أنت أبي وأمي أنت أهلي، ولو خُيِّرتُ بينك وبينهم لاخترتكَ لكرمك وحِلْمك.

- لا، لن تكوني مضطرة للاختيار يا سلمى! فهذه عدالة ظالمة، لي ولهم! ما أريده منك أن تُرسلي إلى أبيك غدًا وتطلبي منه أن يحضر، ومتى وصل اشكي إليه شراسة أخلاقي وتعنيفي لك ليل نهار. وقولي له: إنك ستقتلين نفسك إن بقيتِ في هذا البيت! وحينما يأتي ليتحدَّث معي سأشكو له جهْلك ورعونتك وتصرفك في بيتك وأنت سيدته، مثل فتاة صغيرة؛ فأطلّقك!

- تطلِّقني يا شيخ؟!

في تلك اللحظة، رفعت سلمى عينيها ففاض كل ذلك الدمع العزيز الذي حبسته.

ثلاث خطوات إلى الوراء

في طريقه إلى الباب، وقف ظاهر أمام المرآة ليتأكّد من أن كل شيء على ما يرام، لكن وقفته طالت، لقد فوجئ تمامًا بذلك الوجه المتعب الذي فيها.

كان ثمة قنديل بجانب المرآة وأخر خلْفه على الحائط البعيد، تجمّدت عيناه على القنديل الذي كانت شعلته تتمايل بقوة في المرآة، على وشك أن تنطفئ.

حاول أن يتذكّر إن كان رأى القنديل الذي خلفه من قبل، لم يستطع: *" هل هو هناك فعلا، أم أنه صورة لذلك القنديل القديم، قنديلي"؟!* تساءل.

لم يجرؤ على الالتفات: *"أتخشى تلك الخرافة يا ظاهر، حتى بعد موت صالح؟ ماذا بك، أتعتقد أن قنديلك يطاردك؟ أم أن قنديله يطاردك؟!"*

أغمض عينيه وفتحهما، وكم فوجئ باختفاء القنديل من المرآة: *" ما الذي يعنيه ذلك يا ظاهر؟! ما الذي يعنيه؟!"*

عاد ليحدّق في ذلك الوجه الذي أمامه، امتدّت يداه فرفع غطاء رأسه. كل شيء على حاله، باستثناء شعرات بيضاء، لا تكاد تلحظ، ولو لم يكن ضوء القنديل الجانبي يسقط عليها بكل تلك القوة لما رآها في مثل ذلك المساء.

أخذ نفسًا عميقًا: *" ما الذي تتوقّعه يا ظاهر؟ لقد كبرت، وآن للبياض أن يبدأ بالبحث عن حصته من هذا السّواد."*

أغمض عينيه، وحين فتحهما من جديد، كان والده يقف خلفه، بشعره الأسود الكثيف الطويل!

مات عمر الزّيداني، دون أن تظهر شعرة واحدة من الشّيب في رأسه: *"لعل الله رحمه، فمات قبل أن يرى شيبي هذا، وأنا التي، الآن، لم تزل أصغر منه بعشرين سنة حين توفي."* تقول نجمة لظاهر.

كان صْلِيبي يحاول لفت انتباه أبيه، وهو يدفعه طالبا منه أن يسمح له بالذهاب معه إلى الدّيوان.

تلفّت ظاهر، ورأى ولده، ربّت على رأسه، وقال له: هيا إذن، ولنر من سيسبق الآخر!

طار ابن الثامنة فرحًا، يحاول الوصول إلى الديوان قبل أبيه. تأمّله ظاهر يركض، كان أطيب طفل رآه في حياته: خجول، إلى ذلك الحدّ الذي لا يمكن معه أن يطلب الطعام في بيته إذا كان جائعًا؛ وقنوع إلى ذلك الحدّ الذي لا يمكن معه أن ينحني ليتناول قطعة من ذهب لو رآها في الطريق. كان ولدًا لا يريد شيئا من هذا العالم. مرات كثيرة حاول ظاهر أن يُغريه بمال، أو حلوى، أو حتى بنمر صغير يحضره إليه.

لم يكن الأمر مهما لصْليبِي.

شيء واحد لا غير كان يسعده: أن يتكئ على فخذ أبيه محوّلا ذلك الفخذ إلى وسادة!

هناك كان يرتاح، وكان ينصت لكلّ ما يقال، منقّلا عينيه بين وجوه الرجال.

***

أمضت بدريّة، أم صْليبِي، في طبرية، سنة باردة تتلوها سنة أبرد. وحينما قررت العودة إلى أهلها في الناصرة آخر الأمر، كان الجميع، بمن فيهم ظاهر، ينظر إلى صْليبِي بحزن شديد، وقد تعلّقوا به. كانوا على يقين بأنه سيذهب مع أمه. لكنه فاجأ الجميع، حينما انحنت بدرية لتضعه على ظهر الحصان. تراجع ثلاث خطوات، وقال بحزم: أنا سأبقى عند أبي.

لم يسبق لقلب ظاهر أن خفق، مثلما خفق في ذلك اليوم، وهو يرى صْليبِي يختار البقاء معه. لكنه ظلّ ثابتًا.

لم يسبق له أن كان أنانيًا إلى ذلك الحدّ وهو يتطلّع بلهفة إلى تلك المفاجأة.

نظرت نجمة إلى الصغير، ونظرت إلى ظاهر. رأت وجهيهما داكنين كرغيفين سقطا في الرّماد.

كانت على وشك أن تقول شيئًا. صمتت.

قررتْ ترك الأم وابنها يحلّان المسألة.

اقتربت الأمّ ثانية من الصغير، فتراجع ثلاث خطوات أخرى.

بكت بدريّة.

- سأظلّ عند أبي، يعني سأظل عند أبي! قال، وهو على استعداد للتراجع عشر خطى إن حاولت الاقتراب منه ثالثة.

تلفّتتْ إلى ظاهر، كانت على وشك أن تطلب منه أن يقنع الصغير بالذهاب معها، لكنها لم تفعل.

- اسمح لي أن أعانقك إذن، اسمح لي أن أودّعك!

تصفح صْليبِي وجوه الجميع، واستقرّت عيناه فوق وجهها. بهدوء خطا خطوته الأولى، ثم اندفع كالمجنون نحوها، يعانقها ويقبل وجهها ويديها.

أشرق في قلبها أمل ما، بأن يكون الصغير قد تراجع عن قراره، وازداد وجه ظاهر حلْكة.

برفق أبعدها الصغير عن جسده، ونظر إليها وقال: سأزورك دائما يا أمي!

ومنذ ذلك الوقت، غدا ظاهر أسيرًا لذلك الإحساس الغريب: لقد كان صْليبِي جزءًا منه، انفصل عنه تسعة أشهر، في رحم أمه، وفوقها ثماني سنوات، وها قد عاد الآن ليكون جزءًا منه إلى الأبد!

وحيد الوحيد

- نفيسة لن تعود يا ظاهر!

قالت له نجمة، وأعادتها ثانية. وأضافت لا تجعل صْـليبِي وحيـدك ووحيـد نفسه، فهو بحاجة إلى أخوة.

عادت نجمة تنظر إلى ظاهر كما كانت تنظر إليه قبل بلوغـه العـاشرة: ذلـك الفتى الصغير الذي يحتاج لرعاية ألف عين يقظة، كي لا تجرحه نسمة، أو تمـرّ في قلبه غمامة حزن.

- سأزوّجك هذه المرّة يا ظاهر. أنا من ستختار عروسك، لا أحد غيري.

- المرّة الوحيدة التي كنتَ فيها سعيدًا يا أمي، هي تلـك التـي اخـترتُ فيهـا عروسي بنفسي، فدعيني أحاول مرّة أخرى.

- سأبحث لك عنها في طبرية، وحين أجدها سأترك الأمر لك.

- بل ابحثي عنها في الناصرة!

- في الناصرة؟! ولماذا في الناصرة؟

- هناك الكثير من الشّاميات اللواتي يسكنَّ هناك!

تأملته نجمة، كانت على وشك أن تقول شيئا ما، لكنها ابتلعت كلامها.

- سأبحثُ عنها في الناصرة إذن!

***

حين رأى ظاهر دهقانة[1]، ارتجف قلبه، وحين نطقـتْ تحييـه، ارتجـف أكثـر، كانت لهجتها الشامية الصّافية كافية لكي تفتح قلبـه مـن جديـد. للحظـة، رأى نفيسة، لكنه هزَّ رأسه. أغمض عينيه وفتحهما، ورآها من جديد!

- على بركة الله! قال.

[1] - دُهقان ودِهقان، دهاقنة: رئيس الاقليم، التاجر. وهي كلمة فارسية.

- على بركة الله. أعـادت نجمـة. في حـين بـدت دهقانـة غـير مـصدِّقة أنها ستكون زوجة لظاهر العمر الزيداني. أفلتَ الدمع من عينيهـا، وسـال جارفًـا في طريقه ملامح نفيسة.

- كنت تعرفين ما أريد تمامًا يا أمي. أليس كذلك؟

ظلت نجمة صامتة، وبعد صمت سألته: ومتى ستتزوّجها؟

نظر إلى السماء، كان القمر على وشك أن يصبح بـدرًا كـاملا. رآه يطـلّ مـن الأفق الشرقي بقوّة شمس شتائية، رغم أن الليل لم يهبط بعد.

- بعد ثلاثة أيام!

- بعد ثلاثة أيام!

- يوم الخميس!

- يوم الخميس!

رياح النّسمة وأطياف الماضي

نظرت نجمة حولها، فوجدت البيت قد عمّته الفوضى، لكنّها لم تتحسَّر على الأيام الهادئة الماضية. جلست تبتسم وتتأملّهم.

- ها قد ملأتُ لكِ البيت بالأولاد والزوجات! هل ارتحتِ الآن؟!

- أنا ارتحتْ، ولكن هل ارتاح قلبكَ؟!

صمت ظاهر.

- قلبك لن يرتاح يا ظاهر.

- لكنني حاولت أن أريحه.

- حاولت أن تريحه، ولكن ما حدث أنك ارتحت من كلامي ومن إلحاحي، إذ لم يعد بمستطاعي أن أقول لك تزوّج من جديد، وأمامي الآن صْلِيبي وعثمان وعليّ وسْعيد.

تأمل ظاهر أولاده. رأى الصغار أباهم، فاندفعوا نحوه، باستثناء صليبي الذي كان يحسّ بأنه أكبر من أن يفعل ذلك. قرفص ظاهر وضمّهم كلّهم إليه.

- وجدَّتُكم، ألا يحضنها أحد أم أنني الغريبة في هذا البيت؟!

أبعد ظاهر ذراعيه فانطلقوا نحوها يحتضنونها.

- يحماكم الله. ردّدت أكثر من مرّة.

- خنقتم جدَّتكم، يكفي!

- لا تصدّقوا ذلك، إنه يغار مني!

احتضنوها أكثر.

بعد قليل تراخت أيديهم عن صدرها، قفز عليٌّ مبتعدًا، فتبعه سْعيد، كعادته، فقد كانا من أمّ واحدة.

في حين تراجع عثمان خطوتين وجلس محدّقًا في وجه أبيه.

راقب ظاهر ونجمة عليّ يمارس لعبته المفضلة: القفز من شيء إلى شيء، محاولا ألّا يقع. اكتشف ذلك قرب البحيرة، فراح يتقافز من حجر إلى حجر، غير عابئ باحتمالات الانزلاق. كانت الأحجار الملساء هي الأفضل، إذ كان

بمستطاعه أن يتقافز فوقها، متحدّيا، بخفة ريشة، في حين، كان الأولاد الآخرون يسقطون المرّة تلو الأخرى، ويعودن إلى بيوتهم برؤوس دامية أو أذرع مكسّرة.

انتبه ظاهر لابنه عثمان، فسأله: لماذا تحدّق بي هكذا؟!

- أريد أن أسألك سؤالا يا أبي!

- تفضّل. إنني أسمعك!

- أبي! متى ستموت؟!

سقط الصمت قاسيًا على رأسَي ظاهر ونجمة.

- ولماذا تريدني أن أموت؟!

- حتى أصبح متسلِّقا مكانك!

- ولكن ليس عليّ أن أموت لتصبح متسلّقا يا عثمان! يمكن أن أظلّ حيًّا وتصبح أنت متسلِّقا أيضًا. وأعدك، سأجعلك متسلّقا حين تكبر.

- ولكنني عند ذلك أكون متسلّقا صغيرًا، وأنا أريد أن أكون متسلِّقا كبيرًا!

- إذا كان الأمر كذلك، سأفتّش لنفسي عن ميتة سريعة كي يطمئن بالك!

تابعت نجمة الحوار بقلب منقبض. نظر ظاهر إليها فوجد وجهها قد اصفرّ:

- إنه ولد صغير يا أمي. ليس سوى ولد صغير!

- كنت أتمنى أن يكون كذلك. سيتعبك هذا الولد يا ظاهر. سيتعبك كثيرًا.

- لا تخشي عليَّ، ففي قنديلي الكثير من الزّيت!

- أعرف، ولكن هناك الكثير من الرّيح يا ظاهر، الكثير من الرّيح.

***

كانت دهقانة مستعدة لأن تُنجب ولدًا في كلِّ يوم لو كان ذلك ممكنًا، لفرط محبتها لظاهر، وعلى الرّغم من مرور سنوات على زواجهما، إلا أنها واصلت النظر إليه بالعينين المتدفقتين بالدّمع، اللتين رأتاه أول مرّة. أن تكون زوجته فهذا كنز الكنوز الذي لا تستبدله بالدّنيا كلها.

أما وجه نفيسة فقد ظلّ يحلّق بينهما كفراشة كلّما احترقتْ بُعِثتْ من جديد.

لم يشرح أحد لدهقانة ما يدور في صدر ظاهر، لكنها كانت تعرف أنه حين يحتضنها يحتضن امرأة سواها، وحين ينسى اسمها فجأة وهو يهم بمناداتها، يكون على لسانه اسم امرأة سواها، وحين يعاشرها ويولدها، تلد الولد امرأة سواها!

الشيء الوحيد الذي كان يخفّف من أحزانها، أن تلك المرأة ميتة، ماتتْ! لكنها لم تكن متأكدة مما إذا كان طيف تلك المرأة يطوف حولها مواسيًا لها أم لينقضّ عليها في النهاية!

***

- أعترف لك يا أمي، لقد حاولتُ دائما أن أكون عادلا في كلّ شيء، لكن، لا سلطان لي على قلبي. وأعترف لك، لقد حاولت ألا أكون أنانيًّا، ولكنني حينما اخترت دهقانة، لم أكن أختارها، كنت أحاول بأنانية أن أستعيد نفيسة، ومِن مَن؟ من الموت! بكائن آخر حي يشبهها، لا ذنب له. وها أنا أكتشف الآن أن نفيسة لم تعد ودهقانة لم تحضر!

اكتفت نجمة بالصمت، كان يبتعد أكثر فأكثر.

***

لم تكن جارية عادية تلك التي اختارها الدنكزلي، هدية لظاهر، كانت نسمةُ أجمل بكثير من أيّ امرأة رآها، أجمل من أميرة، جاريته، بكثير. ولولا أنه يحب جاريته إلى ذلك الحدّ الذي دفعه للتضحية بكل شيء من أجلها، حتى بأولاد كان يمكن أن يُرزق بهم، لأبقاها لنفسه.

"من الصعب على المرء أن لا يكون أنانيًا أمام فتنة كهذه"! هذا ما فكَّر فيه، لكن ولاءه لظاهر، بدا أكبر من أيّ شيء في الدّنيا، منذ أن احتضنه بكل ذلك الودّ، منقذًا حياته يوم جدّين، ومحافظًا على كرامته كجندي مهزوم.

كأن الدنكزلي كان في قلب ظاهر، رغم أنه لم يتحدّث معه في أيّ يوم من الأيام بأي شيء يخص زواجه من دهقانة.

في تلك اللحظة التي دخل فيها الدنكزلي على ظاهر، تتبعه نسمة، أحسّ ظاهر للمرة الأولى بخوف ما من ذلك الرجل الذي لا يمكن أن يشك في وفائه!

تأمّلها ظاهر. تراجع الدّنكزلي خطوتين، وحين طال تأمل ظاهر لها، انسحب الدّنكزلي خارجًا بهدوء.

لم يكن ظاهر مبهورًا بذلك الجمال الشركسي وحسب، بل كان مذهولا أمام قدرة الدّنكزلي على اختيار اللحظة التي لا يمكن له فيها أن يعتذر عن قبول هدية كهذه! وسيمرُّ شهر كامل وظاهر يحدّق في ذلك الوجه، كما لو أنه وجد نفسه في مكان غريب، وراح يبحث في الجهات عن جهته. جهته التي يريد أن يقصدها، جهته التي يريد أن يتأكّد منها، لا لشيء، إلا ليختار جهة سواها!

العَهْـــد وخطوات الريح

لم تكن الناصرة بحاجة إلى حرب كي يدخلها ظاهر، إذ انطلق بهدوء من عرابة ودير حنا وطبرية وصفد، ليضمّ أطرافها إليه، ويبسط نفوذه وحمايته عليها وعلى مرجِ بني عامر.

تلفَّتَ والي صيدا حوله، فوجد أن ظاهر قد استولى على معظم الأراضي التابعة له، في الوقت الذي كانت فيه نار النزاع على مرج بني عامر تضطرم أكثر، سرًّا وعلنًا، بين ظاهر وبين إبراهيم جرار سيد قلعة صانور.

أصرّ الشيخ جرار على أن المرج من أراضيه. لم يقبل ظاهر بذلك. في الوقت الذي أدرك فيه النوابلسة أن ظاهر القوي برجاله، قد بدأ يضيّق عليهم، ويحاصر تجارتهم، باستيلائه على الناصرة والمرج.

في تلك اللحظات أحس ظاهر بأن أعداءه لم يكونوا بهذه الكثرة من قبل.

لم يكن من السهل عليه أن يجابه كل هؤلاء، فقرر أن يعمل بأقصى سرعة ممكنة قبل أن يباغتوه: جمع قادة جيشه وعلى رأسهم الدّنكزلي، واستشارهم في الأمر. طمأنه الدّنكزلي: نحن نستطيع أن نجمع ألفي جندي في ليلة واحدة.

استمع ظاهر حتى النهاية، وقال: لن أذهب إلى حرب كهذه بألفي جندي.

- ولكننا لن نستطيع الجلوس في انتظارهم هنا.

- غدًا سأذهب إلى أخوالي في الناصرة.

كان ظاهر قد بدأ ينادي أهل الناصرة بـ (أخوالي).

لم يكن عليه أن يقول الكثير، فقد كانوا في انتظاره! وقد أدركوا أن انتصار أعداء ظاهر سيعيدهم إلى ما كانوا عليه، رهائن لظلم، وصمتٍ على الذلِّ، لا مثيل لهما.

أول من استعد للالتحاق بالجيش هم التجار وأصحاب الحرف والمزارعون. وبانضمام تلك رجال الناصرة وما حولها لجيشه، عاد لظاهر بعض اطمئنانه.

وصلت إليه رسالة من الدّنكزلي تخبره: إن عيوننا أكدوا لنا خروج جيش الشيخ جرار ومن معه إلى قرية المنْسيّ، إلى الجنوب الغربي من الناصرة، وأخبره

أننا سنلتقي هناك[1]. فأرسل ظاهر إلى عرب الصقر يستحثّهم للقائه في أرض المعركة.

***

تحرّك ظاهر فجرًا قاصدًا المنْسي. حين حاذى في ذلك الفجر كنيسة البشارة، أوقف جواده، فتوقف الجيش النّاصري خلفه. بعد لحظات ترجَّل، وبخطى ضاعف الصمت قوّة وقْعها، سار نحو الكنيسة. نظر إلى السماء طويلا، ثم خطى خطوته الأخيرة؛ وأمام دهشة الجميع سجد أمام باب الكنيسة. رفع يديه المعفَّرتين بالتراب ومسح وجهه، وقال: هيْ يا ابنة عمران، جعلت اتكالي عليك بعد الله، فإن أنتِ نصرتني على أعدائي فلا أنسى لك هذه المكرمة إلى آخر أيام حياتي، ويكون زيتُ قنديلك من عبدك ظاهر على مدى الأيام.

نهض، فأحسّ بضوء هادئ يمرُّ عبر قلبه ويمسح روحه بيدين من رحمة.

قبل أن يبتعد، توقّف مرة أخرى وألقى نظرة على الكنيسة التي لم تكن العتمة قادرة على حجبها، هزّ رأسه بخشوع كما لو أنه يؤكّد وعده، وصاح: إلى المنسي، من الناصرة إلى النّصر بإذن الله!

***

قبل وصوله، لاحظ في البعيد فارسًا وحيدًا فوق تلّ صغير، حوَّلته الشمس المشرقة عن يمينه إلى تمثال أسود لا ملامح له، ولولا حركة ذيل الحصان، لكان تمثالا كاملا.

أشار ظاهر إلى بشر وفارس آخر أن يستطلعا الأمر، فاندفعا نحوه.

راقبهما ظاهر يبتعدان إلى أن وقفا بجانبه.

بعد قليل عاد بشر، وبقي الآخر.

سأله ظاهر: ما الذي يحدث هناك؟!

- إنه فارس بدوي يا شيخ يحمل إليك خبرًا يقول إنه هام؟

- وهل عرفتما من هو؟

---

[1] - كان جبل نابلس ملكا خاصًا لسلاطين آل عثمان، وكان المال المقرر عليه خمسمائة كيس في السنة، يدفعها شيوخ الجبل لوزير دمشق، ليرسلها بدوره إلى اسطنبول مباشرة. ولذا، كانت تلك أول معركة يخوضها ظاهر ضد الدولة العثمانية، لأنها الحرب الأولى التي يواجه فيها أشد حلفاء الدولة إخلاصا لها ودفاعًا عن مصالحها.

- قال: إنك ستعرفه يا شيخ!
- أحضروه إذن لنعرف حكايته.
بمجرّد أن اقترب، اهتزّ قلب ظاهر. وقبل أن يصل إليه الفارس بلحظات قفز عن ظهر حصانه وانحنى احترامًا.
- ما الذي تفعله هنا بعيدًا عن مضارب قومك يا غيث؟!
- أريدك في كلمة يا شيخ!
- ألا تستطيع قول ما تريد أمام جنودي؟
- لا يا شيخ. هذا كلام لا يقال أمام جيش ذاهب للحرب!
ابتعدا قليلا، وهناك، كانت المفاجأة التي لم يتوقّعها:
- لقد كتب الجرار وابن ماضي لأميرنا رشيد الجبر، ووعدوه بالكثير إذا ما انضم إليهم.
- وهل قبل بذلك؟
- ستجد رجال الصقر هناك في انتظارك جنبا إلى جنب مع جيوش النوابلسة.
بحث ظاهر بعينه عن حجر ليجلس عليه، وجده، توجّه إليه، لكنه في اللحظة الأخيرة أبصر جنوده يحدقّون فيه. عدل عن ذلك. وطلب من غيث: اجلس يا غيث. اجلس لا بدّ أنك متعب!
- لا أستطيع ذلك يا شيخ. لا استطيع.
- إذن، عد إلى أهلك يا غيث.
- لم يبق لي أهل أعود إليهم يا شيخ بعد هذا الذي فعلوه بك! سأبقى إلى جانبك.
- لا يا غيث.
- لا يمكن أن أكون هناك مطمئنا والأعداء حولك، أأحاصرك بهروبي ويحاصرونك بسيوفهم؟!
- قبيلتك يا غيث الآن في صف أعدائي. لن أسمح لك بأن تعاديها؟
- الحقُّ هو قبيلتي الوحيدة يا شيخ، منذ أن تعلّمته على يديك.
- وامرأتك؟ ألا تعرف ما الذي سيصيبها إذا ما رأوك تقاتل إلى جانبي؟
- امرأتي سأعود إليها بعد المعركة ونرحل إلى طبرية.
التفت ظاهر إلي بشر وقال: وصيَّتك نصيرنا يا بشر.

- اسمح لي يا شيخ، لن يكون هناك من وصية أفضل من أن تعاملني مثل أي واحد من جنودك. لم آت إلى هنا لأثقل سيوفكم بحمايتها لي، بل جئت لأكون حدًّا آخرَ لها. ردّ غيث.

- على بركة الله يا رجال، وأشار ظاهر بسيفه، فانطلق الجميع.

***

ثلاثة آلاف جندي، كان عدد عسكر ظاهر؛ جيش ما كان يمكن أن يتخيّل أنه سيكون تحت إمرته. لكن الخوف من الساعات القادمة كان يهزّ روحه بقوة.

كان الدّنكزلي قد درس أرض المعركة تمامًا، وتأكّد له أن منطقة الرَّوْحة هي الأنسب لهم. اندفع ظاهر على رأس عسكره نحو عسكر الشَّيخ جرار، دون أن يستطيع إبعاد تلك الصورة التي تحتلّ عقله: *" ماذا لو وجدتُ نفسي وجهًا لوجه مع الأمير رشيد الجبر؟ كيف سأقاتله؟ أأقتله؟ أيقتلني؟!"*

كانت الأرض تهتزُّ، والنهار ينبئ بمعركة ستستمر أيامًا. التحم الجيشان. لكن المفاجأة التي جعلت عسكر الجرار يطير فرحًا، كانت اندحار جيش ظاهر بعد أقلِّ من نصف ساعة! فأعطى الشيخ إبراهيم الجرار أمره بأن يلاحقوا الهاربين، فتلك هي الفرصة للقضاء على ظاهر، ومن معه، إلى الأبد!

تحوّلت الحرب إلى مطاردة. كان باستطاعة عسكر الجرار أن يقضوا خلالها على العديد من عسكر ظاهر، في مؤخرة الجيش المنسحب. الرّصاص يدوّي والسِّهام تطير خلفهم تتناهش ظهورهم العارية.

رجّت صيحات فرح عسكر الجرار السَّهل، وغطّت على وقع حوافر الخيل الهاربة والمغيرة. وحينما وصلوا إلى ذلك المضيق الصغير بين تلّين، واصلوا اندفاعهم؛ لكن المفاجأة كانت في انتظارهم: خمسمائة فارس بقيادة الدّنكزلي وخمسمائة أخرى بقيادة محمد العليّ زوج أخت ظاهر. وفي تلك اللحظة المباغتة القاتلة، وجد عسكر الجرار أنفسهم داخل ذلك الكمين المُعدِّ بإحكام.

فرسان الصَّقر كانوا أول الفارّين، تاركين الجرار وعسكره أهدافا سهلة لعسكر ظاهر. ولم يطل الوقت قبل أن يُقتل إبراهيم الجرار على يد الدّنكزلي، وتنتشر الهزيمة في أوصال جنوده الذين راحوا يبحثون عن مخرج بأيّ وسيلة.

كانت الخطة تقضي بملاحقة الجيش المنهزم، فلاحقوا كلّ من استطاع النجاة، حتى أبواب قلعة صانور. القلعة التي وصفها بشْر لظاهر، قائلا: إن عبور اليد في صخرة صوّان أسهل بكثير من الدّخول إلى هذه القلعة.

لكن ما أراده ظاهر قد حدث: أن تكون كلّ أراضيهم الساحلية تحت سيطرته. ولم يكن هنالك أكثر فرحًا من أهالي المرج والناصرة، الذين رأوا قوة الجرار تلك تعود إلى قفصها، وتُحْكِمُ بنفسها إغلاق الباب على نفسها.

***

على بوابة كنيسة البشارة، سجد ظاهر وصلّى؛ رفع يديه وشكر مريم العذراء. وحين وقف، واستدار أمام العيون المحدّقة به، العيون التي امتلأت، تأثرًا، بالدّمع، أصدر أمره: كلّ ما يلزم الكنيسة من قناطير الزّيت يتم إحضاره لها في كلِّ موسم، ويتم اقتطاع كرْم زيتون من كفر كنا وآخر من المجيدل، ليكونا وقْفًا أبديًّا لكنيسة البشارة[1].

***

ما إن نهض، وقفز على ظهر حصانه، حتى دار دورتين، ثم سأل: أين غيث؟

وكما لو أن غيث كان ينتظر ذلك السؤال، صاح: أنا هنا يا شيخ.

- الحمد لله على سلامتك.

- الحمد لله على النصر الذي وهبنا إياه.

- أريدك يا غيث في كلمة. قال ظاهر، ونكز حصانه مبتعدًا عن عسكره.

تبعه غيث: أؤمرني يا شيخ.

- هل رآك أحد في المعركة ممن تعرفهم؟!

- لا يا شيخ، فالصقر رحلوا كما تعرف، وهم وحدهم الذين يعرفونني.

- الحمد لله. يا غيث، الآن تعود إلى أهلك!

- هذا ما سأفعله يا شيخ.

- وتنسى أمر رحيلكما تماما إلى طبرية!

- كيف يكون هذا يا شيخ؟!

- كما أقول لك. لا تبع أهلك حتى لو كان حبّك لظاهر هو الثمن.

- أعود إليهم؟!

- نعم، تعود إليهم،وإذا كنت تعتقد أن لي دَيْنا عليك، فأنت مخطئ. لقد كان لي دَيْن على نفسي، وسدّدته حين أعدتُ سلمى إليك. ولو حدث لك شيء وأنت معي، فسأحمل ديْنا لن أستطيع سداده طوال عمري.

---

[1] - لم يزل الكَرْمان وقْفًا للكنيسة حتى اليوم.

- ولكن يا شيخ!

- كما قلت لك يا غيث.

ترجّل غيث عن فرسه، وانحنى محييًا ظاهر: ولكنني سأظل مخلصًا لـك أيـنما كنتَ يا شيخ!

- رافقتك السلامة يا غيث، رافقتك السلامة.

لوى ظاهر عنق حصانه وعاد. تحـرّك الجـيش، فراقبـه غيـث حتـى اختفـى. امتطى فرسه، واندفع خلفهم، لكنه عاد وأوقفهـا. أمـضى وقتـا وهـو يحـدّق في الجهات التي اختلطت أمام عينيه، ثم انطلق إلى جهة خامسة، لم يكن عـلى يقـين من أنها تلك التي ستوصله إلى بيته!

***

المفاجأة التي هزّت مشايخ قلعة صانور، تلك الرّسالة الجوابيـة مـن سـليمان باشا والي الشام.

كانوا قد أرسلوا إليه يطلبون نصرته بعد ما حدث في المنْسي، فكان الجـواب: اعقدوا الصّلح مع ظاهر ريثما يأتي قرار الدّولة بشأنه!

وحين رأى باشا صيدا، أن ظاهر لم يُرسل له سوى مال الميري، وأنـه حجـب كل العوائد المخصصة له كوزير؛ أرسل إلى سليمان باشا أن يسمح لـه بـالخروج لمحاربة ظاهر؛ وكم كانت مفاجأته أكبر: تريّـث، إلى أن يـأتي قـرار مـن الدّولـة بشأنه!

***

أحسّ ظاهر بذلك الخطر الكامن في الصّمت الذي أعقب معركة المنْسي.

كان يسير والدنكزلي وعدد من قادة جيشه في طبرية، حين توقف لحظة ورفع عينيه إلى حافة سورها وقال: يهيأ لي أن هذا السّور ليس عاليا بما يكفي!

فسأله الدّنكزلي: كأنك تراهم قادمين؟

فردّ ظـاهر: في مثـل هـذا الـصمت، كيـف لا يمكننـي سـماع وقْـعُ حـوافر خيولهم؟!

وحينما وقف فوق أحد الأبراج قال: برج لا نرى منـه غـير طبريـة والبحـيرة برج أعمى.

بعد ذلك بأيام، بدأ العمل على تحويل طبرية إلى قلعة.

مفاجأة.. اثنتان!

امتطى ظاهر حصانه في ذلك الفجر الهادئ، الذي يعِد بنهار طيب وشمس رحيمة، فقفز عدد من الجنود ليتبعوه. أشار إليهم أن يبقوا حيث هم.

تردّدوا.

حدّق فيهم، فأدركوا كُنْهَ تلك النظرة الصارمة.

لقد آن الأوان ليرى بعينيه تفتّح تلك البذور التي زرعها.

سار شمالا حتى نهاية البحيرة، ثم انعطف غربًا. بعد الظُّهر، انعطف جنوبًا، قبل أن يعود متوجهًا شمالا بمحاذاة البحيرة.

فرحٌ ما، عميق وآسر كان يحتضن روحه. حيث الناس يعملون في حقولهم ويرعون مواشيهم، ويبنون بيوتهم، دون أن يتعرض لهم أحد.

لا قطعان غريبة تلتهم زرْعهم، ولا سيوف تلتهم رقابهم. ولأول مرّة، لم ير إنسانا مضطرا للعمل وبندقيته أو سيفه إلى جانبه.

لم يمرّ بحقل أو قطيع أو ناعورة، إلا وتحدّث مع أصحابها.

- تسألنا يا شيخ عن حالنا، لقد نسينا كل أيام الجحيم البعيدة تلك!

وحين وصل إلى السراي قرب أذان العشاء بقليل، وجد أخاه يوسف والدنكزلي ونجمة وأبناءه في انتظاره.

- قلقنا عليك يا شيخ.

- كان يمكن أن أظل قلقًا على كل شيء لو أنني لم أقم بما قمتُ به اليوم.

***

كان ظاهر قد تسلم رسالة التاجر باول ماشوك، قنصل انجلترا وهولندا، يعلمه فيها بأن سيصل إلى طبرية بعد أيام. ماشوك الذي ظلَّ لسنوات طويلة ذلك الشخص الأمين والصادق الذي لم يتراجع عن أيّ وعد قطعه لمزارعي القطن في طبرية وما حولها؛ بل إنه لم يتردد في دفع مال الميري المترتب على الفلاحين، للدولة، والدّفع لهم، حتى قبل أن يسلّموه محصولهم.

راقب ظاهر ذلك كلّه برضا في البداية، وحينما فكّر بأسوار طبرية، فكّر بما تحتاجه إليه هذه الأسوار.

لم يخطر بباله أحد سوى ماشوك.

كان ظاهر على يقين بأن حجم الفائدة التي يجنيها هذا التاجر أكبر من أن تجعله يتخلّى عن قطن طبرية بسهولة. ولذا، ما إن وصل في تلك الظهيرة، حتى عانق ظاهر بحرارة.

- كيف هما الآن؟ سأله ظاهر وهو يشير إلى ركبتيه.

- لم يتغير شيء، أشفى بدفئكم هنا وأمرض ببرْدنا هناك!

-لا أظنك بحاجة لشيء إذن، أكثر من حاجتك لحمّامات طبرية. إنها في انتظارك.

***

في طبرية، كان هنالك حمّامان[1]، يقصدهما الكثير من أبناء البلاد والتجار والأجانب بحثًا عن ذلك العلاج السحريّ الذي يريحهم من آلامهم القاسية.

أمضى ماشوك عشرين دقيقة داخل المياه المعدنية الحارّة، محاولا اقتلاع تلك الآلام التي تفترس مفاصله، قبل أن يقفز هاربا. كانت تلك أطول مدّة يمكن أن يحتمل فيها جلده الأبيض الشبيه بالحليب تلك الحرارة. غسل جسده بالماء البارد وارتاح ساعتين.

كانت الرحلة إلى طبرية على الدّوام أكثر رحلاته نفعًا، فبقدر ما كانت زيارته لطبرية ربحا أكيدًا، كانت علاجًا أيضًا. وحين يصل، لم يكن يملّ بقاءه أسيرا لهذا الارتخاء العذْب الذي يغمر كل خلية من خلاياه، لأنه كان يعرف أن هذه الراحة هي البداية التي لا بدّ منها لرحلة العمل الطويلة بعد ذلك.

***

لم تطل زيارة ماشوك إلى طبرية، بحيث لم يتمكّن -وهذا يحدث لأول مرة- من العودة إلى الحمامات ثانية، فقد حملت الليلة التي أمضاها وحيدًا مع ظاهر، مفاجأتين غير متوقّعتين: أعلمه ظاهر أن تصدير القطن، لن يتمّ بعد اليوم من

---

[1] - أحدهما مخصص للنساء، والثاني للرجال. ويوجد في كل منهما حوض سباحة كبير جميل من الرخام الأبيض، تتدفّق عبره المياه. وهو محاط بأعمدة رخامية تحمل فوقها قبة تسمح بنفاذ البخار. ويحاط الحوض الكبير بغرف صغيرة.

خلال المزارعين، بل من خلال مجلس خاص مكوّن من عدد من تجار طبرية وفلاحيها، بمشاركة ظاهر.

- ولكن طبرية ليست دولة لتفعل ذلك؟!

- لا، طبرية ليست دولة! ولكن لم لا يكون لمن يسكنها حقوق أولئك الذين يعيشون في دولة!

أطرّق ماشوك قليلا، ثم رفع بصره ونظر إلى ظاهر، فرأى فيه اطمئنانًا غريبًا. تذكّر كل تلك التقارير التي كتبها القناصل، التقارير التي قرأ بعضها حول خطورة ظاهر وقوّته واتساع رقعة نفوذه.

بعد فترة صمت طالت، قال ماشوك:

- لك هذا.

- سنتحدث في الأسعار الجديدة إذن.

- أنت تجعل الأمور صعبة عليّ يا شيخ. هل نسيت أننا ندفع مال الميري للدولة وندفع للفلاحين، ثم ننقل القطن برًّا، وندفع الضرائب على أبواب عكا، ثم ننقله بحرًا، وكل هذا يكلّفنا الكثير.

- أعرف هذا، وأعرف أنكم رغم ذلك تربحون الكثير.

- إنك تدفعنا بيديك لأن نعتمد على قطن الجليل، بدل قطن طبرية.

- أنا لا أدفعك لذلك، ولو دفعتك فعلا، فأنا أعرف أنك ستظل بحاجة إلى قطن طبرية!

حين وصلوا إلى اتفاق مُرض آخر الأمر، فجَّر ظاهر مفاجأته الثانية: لا نريد مالا ثمنا لقطن هذا السنة!

- وما الذي تريده مقابله يا شيخ؟!

- سلاحًا، أريد سلاحًا.

في تلك اللحظة، أدرك ماشوك، أن لعبة جديدة قد بدأت على هذا الشطّ، وأنه لا يستطيع أن يرى نهايتها.

- السلاح مسألة معقّدة يا شيخ.

- والقطن مسألة أكثر تعقيدًا! مع أنها قد تبدو لبعض الناس سهلة: زرعٌ يُزرع وفلاح يجمع المحصول! لقد فعلنا الكثير كي تستطيع الوصول إلى هنا آمنًا، وتعود بالقطن آمنًا. وقبل هذا، فعلْنا ما هو أكثر كي يتاح لكل شتلة قطن أن تكبر وتُعطي؛ ولا بد أنك لاحظتَ إلى أي مدى تغيّر الوضع هنا، حينما

تغيّرت أحوال الفلاحين. هذا كلّه لم يأت مجانًا، بل دفعْنا دَمَنا، وليس مالنا فقط، كي يكون.

- أيّ قرار يتعلّق بالمال أستطيع أن أتخذه هنا؛ أما السلاح فمسألة أكبر مني بكثير، وعلي أن أتشاور بشأنها مع حكومتَي هولندا وانجلترا.

- لكنني ما زلت أرى أن هناك طريقًا آخر يمكن أن نسلكه، بعيدا عن تدّخل الحكومتين!

- ماذا تعني؟

- أعني طريقنا نحن، بعيدًا عن تدخل الحكومات!

- دعني أفكر في الأمر.

- تذكَّر أيها الصديق أن الوقت يمرّ بسرعة دائما. لا أعني هذا الوقت، ولكن كل وقت!

***

كل توقّعات ظاهر كانت في مكانها، فبمجرد أن وصله كتاب من ماشوك يعتذر فيه عن (هذه الصفقة الخطرة)، كان ظاهر قد أرسل في طلب جوزيف بلانك القنصل الفرنسي في عكا، ووقع معه الاتفاقية التي لم يوقّعها ماشوك.

أحس بلانك وهو يغادر طبرية بأنه تحرّر، وحرّر المصانع والسوق الفرنسية، من شروط ماشوك، وتحكّمه الدائم بسعر القطن الذي تحتاجه فرنسا كثيرًا، بخلاف انجلترا التي كان عليها أن تنتظر سنوات أخرى، قبل أن تصنع (موله جيني)، آلة الغزْل، التي ستقلب الكثير من الطرق المعروفة في صناعة القطن.

***

"*هل علمتْ دمشق بأمر الصفقة؟*" تساءل ظاهر. ولن يمرّ وقت طويل قبل أن يعرف الجواب.

لم يكن أمر الأسوار يخفى على أحد؛ فكيف وقد أصبح الأمر متعلقًا بأسلحةٍ فوقها؟

محاربون وأطباء!

كانت القذيفة التي سقطت وسط طلائع جيش سليمان باشا، ظهيرة ذلك السبت، الثامن من أيلول، مفاجِئة تمامًا؛ إذ استطاعت، بقتْلها أربعة عشر جنديًّا، أن تُحْدِثَ ذلك الأثر القويّ المطلوب، وأن تكون رسالة ظاهر الأكثر وضوحًا.

على عجل حمل الجنود الجثث وارتدّوا أربعة أميال بعيدًا عن ذلك البرج الذي باغتهم على نحو لم يتوقّعوه.

هلّل أهلُ طبرية وهم يرون ذلك الجيش يتراجع؛ أما ظاهر الذي يعرف أن قذيفة واحدة لن تهزم جيشًا بهذا الحجم، فقد كان يدرك أن أمامه أياما طويلة أعدَّ لها. لكنه لن ينكر أن وصول سليمان باشا، بنفسه، على رأس الجيش كان مفاجأة.

***

كانت الرسالة التي وصلتْ إلى حاييم أبو العافية من دمشق تفيد بأن سليمان باشا يعدّ العدة لحصار طبرية، وتطلبُ منه، وبقية اليهود، مغادرة المدينة قبل وصول الجيش. لكن أبو العافية الذي يدين لظاهر بالكثير، مضى إلى ظاهر من فوره، وسلّمه الرّسالة. فهو الذي سمح له بالهجرة من أزمير والإقامة في طبرية، وفتحَ له ولمن معه أبواب الرّزق، وإقامة المساكن والحوانيت وحتى الملاعب، وأنشأ لليهود الذين أتوا معه كنيسا فخما وحمّامًا جميلا ومعصرة لزيت السّمسم.

لكن ما حيّر ظاهر هو أن طبرية تابعة لصيدا، وإذا ما أراد أحد أن يتحرّك نحو طبرية، فهو والي صيدا وحده.

أكّد أبو العافية أن الرّسالة صحيحة، ولكي يطمئن أكثر أرسل رسالة أخرى إلى دمشق.

استدعى ظاهر الدنكزلي، وسأله عن عيون طبرية في دمشق، وكيف أنهم لم يعرفوا بمثل هذا الأمر الكبير. فهوّن الدّنكزلي عليه، واقترح أن يرسلوا عددًا آخر من الرجال، لأن دمشق مدينة كبيرة كما يعرف، وهي بحاجة إلى عيون كثيرة لمعرفة ما يدور فيها. فوافقه على ذلك. في الوقت الذي وصلت فيه رسالة

لحاييم من صديقيه حاييم فارحي ويوسف لوشاطي، تؤكد ما جاء في الرسالة الأولى.

بقي ظاهر على شكِّه، بحيث منع سكان القرى المحيطة بطبرية، التي وصلها الخبر، من اللجوء إليها. وتحرّك بسرعة، عاملا على تخزين أكبر قدر من المؤن والأسلحة.

***

يعرف ظاهر بكل شكاوى سليمان باشا التي رفعها للأستانة، والتي يتّهم فيها ظاهر بسلب خزينة الدّولة ثلاثة آلاف كيس[1] حصّلها من جبل نابلس في السنوات الماضية، لكن ظاهر كان قد أرسل لإسطنبول موضحًا أيضًا، أن هذا المال قد أنفقه على جيشه -بشهادة مشايخ صانور- لحماية الأراضي التابعة له، بما يضمن استمرار وصول مال الميري للدّولة!

كل ذلك ذهب أدراج الرّياح، فالوزير غريمه!

***

منذ معركة المنْسي، ضاعف ظاهر سعيه لبثّ الأمن في كلّ شبر تحت سيطرته، فشنَّ حربا شديدة ضد كل من يقوم بعمليات السّطو على القوافل، ولجم طمع المشايخ ونظّف القرى والمدن من ظلم المتسلِّمين. وحين تفجّرت تلك الأزمة الكبيرة في الناصرة، (أرض أخواله)، بين الفرنسيسكان وبين الروم الأرثوذكس تحرّك بسرعة وأصدر حكمه حول أماكن العبادة، منهيًا بذلك نزاعًا خطيرًا، بحيث لقبه أحد الرهبان، بـ (ملك الجليل).

***

الطعنة التي تلقّاها ظاهر، قوية ونافذة، في خاصرته، هي نجاح سليمان باشا في استمالة محمد العلي زوج أخته شمّة إلى صفّه، ضامنًا بذلك وقوفه إلى جانبه في حصاره لطبرية. وهكذا أصبح ظاهر محاصرًا من الدّولة وعرب الصّقر ومشايخ نابلس وقوات زوج أخته الذي ضاق ذرعًا باتساع نفوذ ظاهر.

الشيء الوحيد الذي كان يبعث الأمل في قلب ظاهر، وفي قلب أهل طبرية هو ذلك الوعْد الذي قطعه له أخوه سعد، بأن يتحرّك من دير حنّا، متى أراده، ويضرب بقوّة القوات المحاصرة.

---

[1] - جراب صغير تحفظ فيه النقود المعدنية، وأصبحت الكلمة تعني وحدة نقدية عثمانية تساوي 500 قرش.

- هذه هي الحرب الصّعبة؟ قال ظاهر للدنكزلي.

- هل لأننا محاصرون، وهم أكثر عددًا منّا؟

- بل لأن أيّ خطأ نرتكبه ونحن نحقّق النّصر سيحيل نصرنا إلى هزيمة؟!

- لم أفهم يا شيخ!

- كل المشكلات أمامنا يا أحمد، فأن يُقتَل سليمان باشا مندوب السلطان، فذلك أمر سيفوق الاحتمال، ولن تغفره الدّولة أبدًا، وأن نُهزَم نحن، فذلك يعني نهايتنا!

- نحن نسير على خيط رفيع مشدود إذن يا شيخ.

- هذه معركة تحتاج إلى طبيب بارع ليصل بها إلى نهايتها، أكثر مما هي بحاجة إلى قائد شجاع. فلنحرص على أن نكون أطباء، لا جنودًا فقط، ما استطعنا.

الليل والخوف

أكثر ما كان يحيّر سليمان باشا، جرأة ظاهر على تحويل كلٍّ من حوله إلى أعداء، حتى عرب الصقر الذين وقفوا معه وناصروه، لكن ما كان يحيّره أكثر هو ذلك السؤال الغريب: أيّ سبب ذلك الذي يدفع رجلا لأن يقاتل الدّنيا كلها، هكذا؟!

***

أهالي طبرية الذين فرحوا بالقذيفة الأولى، كانوا يعرفون أن المعركة لم تبدأ؛ لكنهم كانوا واثقين أيضًا بقوة أسوارهم، وذلك الجيش الكبير الذي أسّسه ظاهر.

طاف ظاهر متفقّدًا الأسوار في ذلك الليل الغامض كعدو. أَصرَّتْ نجمة على مرافقته. مثل ريشة كانت تسير إلى جانبه. ولو لم يكن يسمع صوتها، لما عرف أبدًا أنها هناك. قالت له، وقد اقترب الليل من منتصفه: عليك أن تنام يا شيخ.

- أنت تقولين لي هذا؟! هل تريدين السّهر مكاني؟

- ولم لا يا شيخ! وهل تعتقد أن نجمة أقلّ من أن تحرس طبرية في ليل كهذا؟!

- بل قادرة على أن تحرس العالم كلّه.

- إذن، اذهب إلى النوم يا شيخ.

- لا أظنني سأستطيع النوم قبل رحيلهم.

- أمامنا ليل طويل إذن!

- الذي يحيّرني هذه المرّة يا أمي، هو: هل سيكون الوقت حليفنا أم حليفهم؟!

- كأنك تشكُّ يا شيخ في قدرتنا على الحرب؟!

- هذه أول حرب أحاصر فيها يا أمي منذ حرب البَعْنة. كلّ شيء يمكن أن أقبله إلا خروجنا بمناديل بيضاء معلّقة في أعناقنا! مشهد البعْنة لن يتكرّر ثانية،

فتلك العيون التي اقتلِعَت أحسّها تحدّق بي وتلاحقني منذ ذلك الزّمان. وما زلتُ من يومها أتساءل: أكان عليَّ أن أنسلّ مبتعدًا، أو هاربًا، تاركًا الجميع خلْفي؟! تاركا حصتي من الهزيمة لأهل البعْنة، بحيث تكون الهزيمة كلّها لهم؟!

– كان لا بدّ من أن تخرج من هناك لتقاتلهم هنا يا شيخ! مَن كان يمكن أن يقاتلهم لو لم تكن هنا؟! هؤلاء الأتباع المتذللون والمتسلّمون المستعدون لبيع قراهم ومدنهم من أجل الحفاظ على مصالحهم؟! مَن يا شيخ؟ من هو ذلك الذي كان يمكن أن يأخذ بثأر البعْنة وتلك العيون، لو لم تكن أنت هنا اليوم؟!

– سيكون هناك أحد غيري بالتأكيد!

– لا يا شيخ، لو لم تكن أنت هنا لما كان سواك! أنظر حولك، لقد مرَّت سنوات وسنوات على ما حدث في البعْنة، فكم من رجل شمَّر عن ذراعه وخرج ليأخذ بثأر أولئك الناس؟!

– تخفّفين عني لأنني لم أمُتْ؟!

– بل أشدُّ على يدكَ لأنك حيّ!

– سيظل هذا الأمر يؤرقني يا أمي.

– وما كنتُ أقبل إلا أن يؤرقك يا شيخ. لم أبغض أحدًا مثلما أبغض أولئك المطمئنين لكلِّ شيء.

***

ذهبت طبرية إلى أولى ليالي نومها الصّعبة، الليلة التي لا تبدو مختلفة عن أيّ ليلة: تصمت الشوارع رويدًا رويدًا، وتُعتم البيوت، ولا يبقى هناك سوى القناديل التي تضيء الطرقات؛ ومن البعيد تأتي أصوات ذئاب وكلاب ضالة.

قال ظاهر لنجمة: فلتذهبي إلى النوم أنتِ. وقبل أن تجيب، دوت قذيفة مدفع وهزّت المدينة.

– الآن بدأت المعركة!

أمسكها من يدها، ونزل الدَّرجات إلى أسفل السّور.

قبل أن يصلا إلى الأرض، كان السرَّاجون، قد انطلقوا لإطفاء القناديل، كما أوصى.

سقط الليل كلّه فوق المدينة، ولم تعد هناك سوى أصوات القذائف، وانبثاقات النار من شارع هنا وسور هناك.

- فلتسهروا معهم حتى الصباح، لقد حلمتْ هذه البلدة أكثر مما يجب. قال سليمان باشا الذي وقف يتتبّع مسارات القذائف من لحظة انطلاقها إلى لحظة انفجارها. هو الذي أعدّ كل ما يضمن له العودة برأس ظاهر: عسكرًا عظيما ومدافع تكفي لتحويل طبرية ومن فيها إلى تراب. وفوق هذا كلّه أعداء ظاهر.

***

حين انطلق صوت الأذان في ذلك الفجر من مساجد طبرية، كان له معنى آخر تماما، كانت (الله أكبر) تعني شيئًا مختلفًا؛ كانت تخاطب شخصًا واحدًا في البعيد مغترًّا بقوته، لتذكِّره بأن الله أكبر منه، وأكبر من جنوده وقادته الذين تفنَّنوا في إطلاق مدافعهم، وقد حوّلوا طبرية ومن فيها إلى حقل رماية.

بعض الجنود ارتبكوا: أيواصلون القصف، أم ينتظرون انتهاء الأذان؟!

صاح أحد القادة وقد أحسّ بحَيْرَة جنده: أطلقوا النار!

صاح أحدهم بغضب: لن أقصف نداء مرفوعا إلى الله!

عمَّ الصمت من جديد، حين تردّدت أصوات جنود كثر: لا إله إلا الله، لا إله إلا الله؛ بحيث اقشعرَّت حجارة السور لذلك، والبوابة، وسطوح الدّور، والديوك المرتبكة التي لم تعد تعرف أتصيح أم تصمت؟!

حين انتهى الأذان: صاح القادة: نار!

فجاء أكثر من صوت عبر العتمة: إنهم يصلّون الآن!

في تلك اللحظة أحسَّ سليمان باشا أنه سيفقد نصف جيشه قبل بدء المعركة، فأعطى أوامره بالتوقّف. وفي داخل طبرية، حيث الدّخان يتصاعد، ودوامات الغبار تتصاعد، أحسّ ظاهر بما يحدث في البعيد، وهو ينصت لكلّ ذلك الصمت الذي نزل فجأة.

- فلتعد المدافع إلى أماكنها. أمر سليمان باشا.

أحضر الجنود البغال التي أوثقوها بعيدًا، وجرّوا المدافع.

كان سليمان باشا قد اكتشف أن أفضل وقت لجرِّ مدافعه إلى أقرب نقطة من أسوار المدينة، هو الليل، ولذا، تحرّكت المدافع بصمت، حتى أصبحتْ طبرية في مرماها، وبدأ القصف.

***

تفقّدت طبرية نفسها في الصّباح، وكانت المفاجأة كبيرة.

ليلا، أحسّ كلّ أهل بيت أنهم الناجون الوحيدون وبيتهم، من ليلة القصف الطويلة تلك؛ لكنهم حين خرجوا صبحا، لم يصدِّقوا أعينهم، كانت المدينة هي المدينة، نفسها، فوق الأرض لا تحتها! باستثناء بعض الحوانيت التي أصابها الضرر، وبعض الجدران، بل إن بيتا واحدًا لم يُهدم!

في ذلك الصباح المغبرّ الذي حجب رائحة البحيرة والأعشاب التي تغمر ضفافها، كان الناس يرون المعجزة تتحقّق أمام أعينهم.

انطلق كل منهم إلى حال سبيله كما طالبهم ظاهر من فوق ظهر حصانه وسط السوق في اليوم السابق: ستسير الحياة كما كانت تسير كل يوم، سنشتري ونبيع ونطبخ ونخبز، وسنصطاد السمك أيضًا، لأنهم لن يستطيعوا حصارنا من جهة البحيرة. وإذا كان هناك من عرس جاء موعده فسنقيمه في موعده، لن نتركهم يتحكّمون بنا وبحياتنا لمجرد أنهم يملكون مدافع أكثر منّا.

بعد أن اطمأن على أوضاع المدينة، قصد بيته، وقبل أن يصل، رأى ابنه عليّ يتقافز فوق الجدران، يتبعه سْعيد راكضًا تحتها. ابتسم، لأن الخوف لم يتمكّن من اختطاف قلوب الصغار.

إحدى عشرة رسالة!

بعد ثلاث ليلات من القصف، قال ظاهر:

- سنخرج إليهم.

- كيف يمكن أن نخرج إليهم يا شيخ، وأبوابنا مقفلة؟

- من أوسع الأبواب يا أحمد، من البحيرة. اجمعوا لي أفضل مراكب الصيادين، ثم تعالوا إليّ.

***

كانت الخطة بسيطة وسهلة، دعْهم يتقدّمون كما شاؤوا، ولكن لنفاجئْهم من ورائهم. الوراء الأكثر اطمئنانًا، ببعده عن كلِّ خطر.

في ظلمة الليل المضاءة بفضة ماء البحيرة، تحرّك عشرون مركبًا بصمت قبل أذان العشاء، الذي غدت نهاية صلاته لحظة بدء القصف.

مضت المراكب إلى الشرق قليلا، حتى اختفت، ثم راحت تتّجه إلى الشمال. ومن ذلك العمق، كان يمكن للرجال الذين أصبحوا بعيدين عن المدينة أن يسمعوا أذان العشاء، ويشاهدوا المدينة تُظلِم شيئا فشيئًا حتى تختفي، استعدادًا لليلة قصف أخرى.

***

في كلِّ مركب كان هنالك صياد، هو صاحب المركب، وهو الدّليل لمن معه. كان على أولئك الصيادين أن يختاروا أفضل النقاط وأكثرها أمْنا، باعتبارهم أكثر الناس معرفة بالبحيرة وشواطئها، لكي يوصِلوا عسكر ظاهر إليها وينتظروهم فيها، حتى عودتهم.

في تلك الليلة أرسل ظاهر مئتي جندي من خيرة رجاله، على رأسهم الدنكزلي نفسه، الذي أبى أن يكون بعيدًا عن تلك المعركة، لأنه، دونها، لن يستطيع معرفة مدى حجم قوة العدوّ.

قبل أن يقطعوا نصف المسافة، بدأت القذائف تنهال على طبرية. ارتجفت قلوب الرجال، وقد تذكّروا أولادهم ونساءهم وأمهاتهم وآباءهم تحت نار ذلك الجحيم.

أعطى الدّنكزلي أوامره: أسرعَ.. أسرعَ.

فانطلقت المجاذيف بقوة تخمش وجه الماء وتعلو في الفضاء قبل أن تعود لتخمش وجه الماء من جديد.

في البعيد، لاحت تلك الأعشاب الطويلة عند الشاطئ؛ الأعشاب التي بدت ساكنة أكثر مما يجب. نزل الرّجال من المراكب بصمت، على بعد كيلو متر واحد من مؤخرة جيش سليمان باشا.

كان الدّنكزلي الأكثر حرصًا على نجاح تلك المهمة، لأنه كان يدرك أن فكرة ظاهر تلك، يجب أن تظل خفيّة على المحاصِرين، وأن عليه أن يوهمهم أن الهجوم أتى من البرّ، ولا علاقة للبحيرة وشاطئها به، كي يضمن عودة رجاله، وكي يضمن توجيه ضربات أخرى ليلة بعد ليلة.

دار حول الخيام المطمئنة، حتى الجهة الشمالية الغربية، ومن هناك راقب المعسكر.

دويُّ المدافع كان كافيًا لإخفاء آثار وقْع أقدامهم في تلك الأرض المهتزّة! تسلّلوا عبر كروم العنب وأشجار التين والليمون، وساروا بمحاذاة تلك السناسل الحجرية الطويلة. ثم كمنوا.

حين أصبحوا قادرين على سماع أصوات الجند وأحاديثهم، اختفى صوت موج البحيرة تمامًا، ولم يبق هناك سوى بعض الرّوائح المألوفة التي، عبثًا، كانت تحاول الإفلات من سطوة رائحة البارود.

هل كان صوت المدفع أقوى هنا، أم صوت انفجار القذيفة هناك؟

في السّاعة العاشرة من ذلك الليل المرتبك بوميض المدافع، انقضَّ الدّنكزلي ومن معه على الحرّاس بسهولة؛ لأن آخر ما كان يمكن أن يتوقّعه أولئك الحراس هو وصول الأعداء من خلفهم. ثم واصلوا اندفاعهم مختبئين بصوت الانفجارات حتى الخيام. اجتاحوها بسيوفهم، وحرابهم وسهامهم، حتى تلك النقطة التي كان باستطاعتهم أن يروا فيها صِوان سليمان باشا، بقبابه الثلاث، الأشبه بقصر.

لم يكونوا يريدون التقدّم أكثر، كانت تلك المسافة كافية لكي يُطلق مائتا رجل مائتي سهم نحو ذلك الصِّوان وحراسه، وينسحبوا.

في لحظة واحدة انطلقت السِّهام، مخلِّفة وراءها ما يشبه أزيز قذيفة تعرف طريقها جيدًا.

وقبل أن تسقط في الجهة الأخرى، كان الرجال ينسحبون، دون أن يكونوا مضطريّن لإطلاق رصاصة واحدة، كما خططوا لذلك تمامًا.

***

في داخل صِوانه، أبصر سليمانٍ باشا بأم عينه، كيف نبتت للقماش السَّميك مخالب، مثل أيّ قدمي وحش ينقضُّ على فريسته.

كانت المخالب قد بزغت حادة متوعِّدة من الأعلى ومن الجهة الشمالية الغربية، وسقط بعضها عند قدميه. تراجع للوراء ومَن معه، متوقعًا هجمة أخرى، لكن ذلك لم يحدث.

هجمة أخرى كانت كفيلة بموت كلّ من في الدّاخل.

وللحظات، طالت، أحسّ بأن الزّمن قد توقّف. انتظر، وانتظر، وعيناه تتصفّحان قماش الصِّوان من كل جانب.

كان صوت المدافع غير قادر على ابتلاع صوت نبضاته، وقد أدرك أن ما حدث هو رسالة موجّهة إليه، يقول مرْسلها: نحن أقرب إليك بكثير من قربك إلى طبرية.

في تلك اللحظة،أدرك أنه بدأ حربًا وأنه، وحده، الذي يستطيع أن ينهيها.

***

خارج الصِّوان:

تناثرت الجثث في كل مكان في المعسكر. أما الدّم فقد كان ينزًّ من ثقوب الخيام التي سقطت أرضًا على من فيها.

شُكِّلت فرقة على وجه السرعة لملاحقة المهاجمين، لكنها عادت بعد ساعات: ليس هناك من أثر لهم!

في الصباح عادت الفرقة من جديد، وفتّشت المنطقة حجرًا حجرًا، وحين لمحوا آثار أقدام في بعض الكروم، جاؤوا بأصحابها مقيّدين إلى صِوان سليمان باشا.

***

بعد أقل من ساعتين؛ في ذلك الضّحى؛ تقدّم جندي من جيش سليمان باشا يحمل راية بيضاء من باب طبرية! وظل يسير إلى أن وصل. هبط، وأنزل ذلك الحِمْل من فوق ظهر البغلة التي تتبعه، فأنزلوا حبلا. ربط ذلك الكيس الكبير به، وتركهم يرفعونه، في الوقت الذي استدار فيه مبتعدًا.

أحسّ أولئك الذين فوق السور بثقل الكيس. امتدَّت أكثر من يد لتساعد. حين وصل الكيس إلى الحافة، شدّوه، وأنزلوه في الممر الحجريّ العريض لأعلى السور، وقبل أن يفتحوه، ارتجفت قلوبهم وقد أحسوا أيّ رسالة تلك التي فيه.

***

تأمل ظاهر أحد عشر رأسًا، تأمل الأعين المشرعة على العماء؛ وعندها أحسّ بمدى الخطأ الذي تحوّل فجأة إلى خطيئة، حينما لم يسمح لكل أولئك الفلاحين، بالدّخول إلى طبرية والاحتماء بأسوارها.

قفزة الكلب الأبيض

كانت المهمة التالية للدّنكزلي مختلفة تمامًا.

على مدى عشر ليال، ومن بوابة البحيرة، انطلق عسكر ظاهر في ثلاث جهات وليس أمامهم سوى مهمة واحدة: إحضار فلّاحي القرى المحيطة إلى طبرية، أو ترحيلهم إلى عرابة ودير حنّا وعبلِّين وصفد والناصرة..

لم تكن المهمة سهلة في ذلك الليل الذي بات فيه جيش سليمان باشا أكثر يقظة، وقد أمر بتسيير مجموعات صغيرة من الجنود لاستكشاف المنطقة، ليلًا، نهارًا.

الطابغة، كانت أول قرية عليهم إجلاؤها، والتوجّه بسكانها نحو عرابة، لأنها تقع مباشرة خلف الجيش المحاصِر.

في ذلك النهار، وصل رسول ظاهر إلى مقداد، متسلّمها، يخبره بأن يكون على استعداد للرحيل؛ لكنه لم يخبره بالسبب، وإلى أين يمكن أن يتوجّه أهل القرية.

وصل جنود ظاهر بعد منتصف الليل بساعتين؛ كل شيء في القرية هادئ ومخيف كقنبلة داخل مدفع.

ذلك الصمت دفعهم لأن يكونوا أكثر حذرًا، فكلُّ شيء يمكن أن يحدث، كأن يعرف سليمان باشا بالخطة، فيكمُن لهم، أو أن يخرجوا من القرية مع الناس فيجدون الجيش في انتظارهم. لكن ما كان يخيفهم أكثر هو أن يبكي صبيٌّ في ذلك الليل، أو يصهل حصان أو ينهق حمار، أو تجرح الحوافر والخطى غفوة الليل، فينتبه الأعداء.

كمّموا أفواه الخيول والبغال والحمير، ولفّوا أرجلها بقطع سميكة من القماش وربطوها جيدًا، أما الأطفال فكان أمرهم أكثر تعقيدًا.

كان رسول ظاهر قد أخبر مقداد أن تقوم النساء بإرضاع أبنائهن جيدًا، وأن لا يتركنهم ينامون أبدًا في ذلك النهار! استغرب مقداد طلبًا كهذا. إذ كيف يمكن للشيخ ظاهر أن يفكّر في الأطفال ونومهم وجوعهم وهو المحاصَر؟

ولأيّ سبب؟! أما الأطفال الأكبر سنًّا، فطلب أن يناموا ما بعد الظهيرة قدر استطاعتهم، ولو كان ذلك رغمًا عنهم!

الرسول الذي عاد ليلا مع عسكر ظاهر، سأل مقداد: هل نفذتم أوامر الشيخ؟

– كلّها. والجميع في انتظاركم. والآن، إلى أين؟ سأل مقداد.

– إلى عرّابة ودير حنا.

– إلى عرّابة ودير حنا؟! في مثل هذا الليل؟!

– لا تخشوا شيئًا؛ لقد جهّز الشيخ سعد العُمر كل ما يلزم لاستقبالكم، إلى أن تنتهي هذه الحرب.

كان مقداد أطول شخص ما بين بحر الجليل وبحر عكا، حتى قيل إنه الوحيد الذي يستطيع أن يعرف ما في المدن وهو خارج أسوارها.

لم يكن عليه أن يضع قدمه في الرِّكاب ليمتطي حصانه في أيٍّ يوم من الأيام! أي منذ أن امتطى حصانا في العاشرة من عمره. كان يزعجه أن قدميه ترتطمان بكثير من الصخور والنباتات دائما، ولذا، تكونان دائما مجرَّحتين. أما ما كان يزعجه أكثر فهو حديثه مع رجل قصير! إذ كان النّظر إلى أسفل كفيلًا بأن يصيبه بالدّوار. ومنذ أن اكتشف هذا الأمر، أصبح يُحدِّث قصار القامة وعيناه مثبتتان على خط الأفق البعيد.

وصولٍ رسول ظاهر كاد يكشف سرّه الذي يخبئه، لقد حرص ظاهر على إرسال الثّعلب، وهو رجل قصير، ونحيف، يفخر بقدرته على التّسلل والاختباء، أكان الوقت ليلا أم نهارًا.

لم يستطع مقداد أن يراه وهو يقترب؛ فوجئ به تحت قدميه مباشرة؛ وحين تكلَّم، انتفض قلب مقداد، ووجد نفسه مضطرًّا للالتفات إلى أسفل، وهناك رآه! دارت الأرض قليلا، لكن مقداد استطاع تمالك نفسه واستعادة بصره ورأسه حين نظر إلى البعيد.

لاحظ الثعلب أن مقداد لا ينظر إليه، أزعجه ذلك، صرخ: إنني هنا!

– أعرف أنك هنا! ما الذي تريده؟ وواصل تحديقه في البعيد.

– كلّمني، أريد أن تكلّمني.

– ألا تسمعني؟! ألقى الثعلب نظرة إلى قمة مقداد، ولأول مرّة أحس بأن الأرض تدور به. خفض بصره.

- بل أسمعك، ولكن لم لا تنظر إليّ؟!

- ما الذي تريده؟

- أريد أن تنظر إليَّ حين تكلّمني، ألا تعرف من أنا؟

- لا، لا أعرف! من أنت؟!

- أنا الثعلب!

- أهلا بك. وواصل مقداد النظر إلى البعيد.

- إن كنت لا تحترمني، فاعلم أنني رسول الشيخ ظاهر العُمر إليك.

- رسول ظاهر؟! سأل مقداد ونظر إلى الأسفل، فدارت الأرض به ثانية.

امتدت يد مقداد وتحسستْ أعلى السّور، رفع عينيه، وانزلق بجسده حتى جلس على التراب.

- أنجلسُ هنا؟! أليس هناك ديوان للقرية نتحدّث فيه؟!

- تريد أن تتحدّث معي في الدّيوان؟ اسبقني إليه إذن.

نادى مقداد بأعلى صوته، تجمّع بعض الرجال، فقال: خذوه إلى الديوان، سأتبعكم بعد قليل!

***

الأمر الغريب الذي فوجئ به عسكر ظاهر، شرط مقداد: لا أتحرّك من هنا إذا كان الثعلب سيرافقنا!

- إنه أفضل دليل، ألا تعرف هذا؟

- إذا كان الأمر متعلقًا بدليل، فأنا أفضل دليل بين البحرين!

- ولكن الشيخ ظاهر أوصى بأن يرافقنا الثعلب!

- وصية الشيخ ظاهر على رأسي، ولكن أرجوكم أن تعيدوه. وصمتَ، وصمتوا، كلّ منهم يحدّق في وجوه من حوله باستغراب.

بعد لحظات قال مقداد: أنا متأكد من أن الشيخ ظاهر سيحتاجه هناك أكثر مما سنحتاجه هنا!

- أمر الله. عُدْ يا ثعلب. لعل الشيخ ظاهر بحاجة إليك هناك أكثر منّا فعلا!

***

بسرعة عملوا على تجهيز القافلة، قافلة الصّمت الممتلئة بضجيج الخوف الذي يهزّ القلوب الكبيرة قبل الصغيرة.

حين تحرّكت القافلة، جرى وراءها أكثر من كلب، نهرّها الناس، وندموا. عوت، فعادوا إليها.

كان على كل صاحب كلب أن يتكفّل بتكميم كلبه جيدًا. قاومت الكلابُ، لكنها أذعنت أخيرًا وقد أحسّت أن ذلك هو السبيل الوحيد للسّماح لها بمرافقتهم.

وساروا..

***

في البعيد كانت القذائف تتساقط على طبرية دون توقّف، وقد تضاعف غضب سليمان باشا على الحجر والبَشر فيها.

راقبت القافلة ذلك الوميض المجنون لرعود الموت، فأحسّ كل شخص فيها بامتنان خاص لظاهر، وما فعله.

حِسُّهم بالأمان كان يتزايد مع كلِّ خطوة يخطونها بعيدًا، لكن ذلك كلّه انفرط دفعة واحدة. لقد أحسّت الكلاب بشيء غريب. حاولت أن تنبح. أنشبت مخالبها تحاول تمزيق الكمامات التي تغطي أفواهها، لم تستطع. صاءت وأخرجت حشرجات مخنوقة، لكن ذلك لم ينفع أيضًا. كانت قد توقّفت هناك خلف القافلة، في الوقت الذي واصلت فيه القافلة تقدُّمها.

فوجئت الكلاب تمامًا بذلك الخرس الذي أصابها فجأة.

أما المشكلة الأكبر، فهي أن أحدًا لم ينتبه لجنونها في تلك العتمة الشاملة.

نظرت الكلاب في عيون بعضها بعضا؛ اندفعت في الاتجاه المعاكس كما لو أنها تريد العودة إلى الطابغة. في تلك اللحظة، أحسَّ مقداد بغياب كلبه. بحث عنه، لم يجده. استدار، وحدّق في البعيد وقد أشرع عينيه على آخرهما، وعند ذلك لمح كلبه الأبيض، الذي لم يفطنوا للونه، وإلا لكانوا عفّروه برماد موقد أو طابون! كان الكلب يجري، وفي تلك اللحظة، رآه يطير في الهواء وينقضّ على كتلة من الظلام، ويبقى معلّقا في الأعلى، يتلوّى. أدرك مقداد ما يدور، وقد انطلق صهيل حصان مذعور خلفهم، فاندفع عندها عسكر ظاهر إلى الوراء.

في ذلك الليل، دارت معركة صغيرة، قُتل فيها كلُّ رجال دورية الجيش المحاصِر، دون أن يتمكّنوا من إصابة أي من رجال القافلة ومن يحرسونها، أولئك الذين كان عددهم يفوق عشر مرات، على الأقل، عدد جنود فرقة الاستطلاع.

كان الأمر المحزن هو موت الكلاب كلّها، الكلاب التي لم تكن مخالبها قادرة على ردّ الموت في ظلٍّ تحييد أنيابها.

بكى مقداد كلبه الأبيض بحرقة في تلك الليلة، وكم أسعفه أن الليل كلّه كان هناك، في ذلك السّهل الصغير.

أصرَّ على أن يحمل جثة كلبه، في حين اكتفى أصحاب الكلاب الأخرى، برفع الكمامات عن أفواهها، وقد داهمهم حسٌّ عميق بالذَّنب، رغم عِلْمِهم أن تلك الوسيلة كانت وحدها الكفيلة بحمايتهم وحمايتها.

***

جاء صوت الأذان من أماكن بعيدة، فأحسّوا به يجيء من فوقهم ومن تحتهم، ومن كلّ الجهات.

وفي البعيد، بعيد طبرية ذاك، كانت ألسِنة النار تتصاعد من داخل المدينة، وأصوات الإنفجارات تتلاشى.

صعدت القافلة أكثر، وقد بدأ برْد ليل أيلول يزداد ضراوة، في تلك الارتفاعات.

قبل أن يصلوا إلى عرابة، انتشرت خيوط الشمس تضيء السّهول والتلال، وفاح خليط من روائح نباتات برية وأوراق أشجار سقطت على أعتاب ذلك الخريف. وأضيئت الأرض أكثر، فرأوا عشرات الرجال والنساء ينتظرونهم هناك على مشارف عرابة.

جدار الغبار وعش الدبابير!

انتظر سليمان باشا انطلاق المدافع.

لم يَسمع شيئا.

انتظر أكثر.

فأصبح الصمتُ أكبر.

خرج من صِوانه. امتطى حصانه. تناثر الخدم والمماليك والعبيد وقد أحسّوا بغضبه، صاح: لمَ لا يبدأ القصف؟!

صمت الجنود، الجنود الذي لم يحرّكوا مدافعهم باتجاه طبرية كما يحدث كلَّ ليلة.

أعاد سؤاله؛ وفي تلك اللحظة، أحس برائحة غبار. عطس بقوة.

ثم عطس ثانية وثالثة ورابعة، حتى نسيَ سؤاله!

لكن أحد قادة المدفعية، انتهز الهدوء الذي أعقب عطسة سليمان باشا الأخيرة، وأجاب: لم تبق لدينا ذخائر مولاي.

- لم تبق لديكم ذخائر؟!

- أجل مولاي.

- وأين ذهبت ذخائركم؟!

- إلى طبرية مولاي!

- ولم يبق شيء؟!

- لا مولاي. لم يبق شيء.

عادت رائحة الغبار بقوة أكثر، فأخفى وجهه بمنديله، مبتلعًا عطسته، وقبل أن يبتعد، صاح: ليلحق بي القادة.. كلّهم!

***

- لماذا لم تخبروني بذلك؟ صاح بغضب.

- كنا على وشك أن نخبرك، ولكننا انشغلنا هذا النهار بمجموعة من رجال أمسكناهم يهرِّبون السلاح إلى ظاهر.

- كيف يمكن أن يهرّبوا السلاح إلى مدينة نحاصرها؟!

- نحن نحقق معهم مولاي، وكل شيء سيتّضح.

- ومتى سيتضح؟! تقولون إنكم أمسكتم بهم في النهار، ألم يتّضح شيء بعد؟!

صمت القائد.

- أريد نتيجة في الصباح، وإلّا!

- حاضر مولاي.

قبل أن يخلو الصِّوان تمامًا، أحس ثانية برائحة غبار، لكنه كتم عطسته، إلى أن رآهم يخرجون.

عطس بقوة، لكنه كتم الصوتَ بمنديله؛ وصاح بأحد خدمه أن يذهب ويحضر جاريته، رِحَاب.

خرج الخادم على جناح السرعة، تجاوز الأوتاد والحبال بمهارة، كما لو أنه يراها، في ذلك الليل. كانت خيمة رحاب بعيدة بعض الشيء عن صِوان الباشا؛ فقد آثر دائما ذلك، لأنه كان يرى أن المسافة، مهما قصرَت، تحشده بالشّوق إليها! ومجرد انتظار وصولها كان يبعث في جسده عاصفة قوية من الرّغبة، هي متعة كاملة بحدِّ ذاتها!

سمع صفيرًا ما، رفع رأسه، كان يأتي من أعلى الصِّوان. تلاشى الصفير، ثم عاد من جديد أقوى.

خُيِّل إليه إن الجهة الغربية من الصِّوان تهتزّ، نظر نحوها، فوجدها تخفق فعلا. استغرب أن يكون هناك هواء في مثل ليلة كتلك، وقبل أن ينادي خدمه ليسأل، اهتز الصِّوان بشدة، وانطلق الصفير من كلِّ ثقب مرَّ فيه سَهم.

نظر إلى الأعلى، فوجد الصِّوان ينتفخ ويتمايل.

للحظة فكَّر أن يغادر، ولكنه كان يعرف، أن الصِّوان، رغم ذلك، يبدو كمبنى قويّ إذا ما قورن بأي خيمة أخرى في المعسكر، وحتى خيمة رحاب.

بعد دقائق، فتحت الرّيحُ باب الصِّوان بقوّة؛ أغمض عينيه اتقاء للريح والغبار؛ تناثرت البُسط وانقلبتْ طاولة صغيرة فوق كرسيّه المخمليّ المذهَّب. تأرجح الكرسيٍ قليلا، ثم سقط فانكسرت نرجيلته؛ وعندها انتبه إلى ثيابه الواسعة التي رفّت على جانبيه كأجنحة. لمّها بيديه.

استطاع أحد الحراس أن يغلق الباب بسرعة، لكن الفوضى كانت قد عمّت، إذ حملت الرّيح من الخارج أوراق أشجار جافة وأغصانًا صغيرة وكميّة لا يمكن تخيلها من الغبار.

وتعالى الصفير من جديد من جانب الصِّوان ومن سقفه. أما في الخارج، فقد أُقفل الجوّ تمامًا، بحيث تحوّل المدى إلى حائط من غبار سميك لا تستطيع أي مدفعية في الدّنيا أن تهدمه!

حين دخلت رحاب، كان شعْرها قد تحوّل إلى نتشة جافّة وقد طار غطاء رأسها، وبدت في حالة من الفوضى يُرثى لها. استدار سليمان باشا بوجهه بعيدًا عنها. كانت في تلك اللحظة أقبح جارية رآها في حياته. ولولا أنه يعرف أنها غير ذلك لطردها.

انطفأت كلّ رغبة جاست جسده، ولم يبق هناك سوى الصّفير الذي أخذ يعلو ويعلو؛ صفير من كلِّ الجهات! وعند ذلك أدرك أن عليه أن يغادر الصِّوان الذي غدا أسوأ من أيّ عشٍّ للدبابير.

من الجهة الشرقية خرج نحو خيمة رحاب، رحاب التي سارت خلفه تتعثّر.

كل شيء تحوّل إلى غبار، المدى والخيام، والخيول التي تتفلّت والبغال؛ العربات التي انقلبت، وبعض الخيام التي حلّقت في الهواء، وتلك التي تشبّث الجنود بحبالها؛ في الوقت الذي راح يعمل فيه آخرون على دقّ أوتادها أعمق وأعمق.

حين دخل سليمان باشا خيمة رحاب، ورآها تقفل الباب خلْفها، أوشك أن يطردها. كانت قد أصبحت في حال أسوأ بكثير. لكن الشيء الذي لم يتوقّعه، هو أي حال أصبح حاله. ابتلع كلماته، وقد رأى الخيمة تهتزّ. كلمة واحدة منه، كانت كافية لتدفع الرّيح للإلقاء به وبها خارجًا. هذا ما أحسّه. صمتَ.

ارتجّت الخيمة أكثر، وأكثر، لكنها ظلّت ثابتة.

كان أكثر من ثلاثين جنديًّا في الخارج، تبعوه، يمسكون بحبالها بشدّة، ليمنعوها من أن تطير خلف الخيام التي طارت. ولكي لا يجعلوه يحسّ بوجودهم، لم يفكِّروا أبدًا في دقّ أوتاد جديدة، لأن ذلك وحده كان كفيلا بأن يُطيّر النوم، الطائر من عينيه أصلا، ويدفعه إلى تأنيبهم لأنهم لم ينصبوا الخيمة، منذ البداية، كما يجب!

***

عادت رحاب إلى ما كانت عليه قبل العاصفة المباغتة، استطاعت أن تستحمَّ وترتب نفسها من جديد. أبصرها تتقدّم نحوه، فتغير مزاجه فجأة، رفع طرف الغطاء وأشار إليها أن تندسّ بجانبه.

في الخارج كانت العاصفة أقوى ولا تحتمل؛ فالجنود الذين كانوا هناك، غدوا فجأة بين عاصفتين! لكن أيًّا منهم لم يستطع فعل شيء، سوى أن يقبض على الحبال أكثر، وقد كانوا جميعًا، أسرى فكرة واحدة لا غير: ماذا لو أفلتتْ الخيمة من بين أيديهم وطارت في الهواء، مخلِّفة تحتها سليمان باشا ومحظيته عاريين كما ولدتهما أمهما؟!

.. وتراخت الأيدي حول الحبال!

الرسالة القاتلة وأنين البيوت!

مع وصول الذّخيرة الجديدة التي طلبها سليمان باشا من حيفا وعكا ودمشق، تحوّلت طبرية إلى غيمة من غبار، وكما لو أنه كان واثقًا من موت كلّ من فيها بعد ذلك القصف، جهّز السّلالم اللازمة لتسلّق الأسوار. لكنه فضّل ألا يقترب الجيش من طبرية قبل أن يتعفّن أهلها، ويشمّ رائحتهم من مكانه الذي هو فيه!

***

انقشعت الغيمةُ في اليوم الرّابع مع توقّف القصف.

وثانية خرج الناس من بيوتهم، وكلّ منهم على يقين أنه النّاجي الوحيد!

لكن الموت الذي اختطف جزءًا من السّوق، لم يظفر بالكثير من الأرواح.

تقدّمت فرقة صغيرة من جيش سليمان باشا حاملة السّلالم؛ تقدَّمت وهي على ثقة أنها لن تكون بحاجة إليها.

اقتربوا أكثر، فوجئوا بأن غيمة الغبار لم تنقشع تمامًا، وتقدّموا.

أصبحوا على بعد مئات الأمتار من باب المدينة، دون أن يستطيعوا رؤية شيء.

أصبحوا على بعد مئة متر، على وشك أن يواصلوا، أو أن يعودوا، فكل الاحتمالات واردة.

في ذلك المساء الدافئ من نهايات أيلول، دوَّت طلقة، ثقبت المدى بيسر، قبل أن تستقرَّ في رأس أحد الجنود.

وعلى السور صاح جريس: لقد قتلته.

ربّت ظاهر على كتفه. ونظر إلى بشْر.

صوَّب بشْر، لكن الجنود كانوا قد تواروا وراء سنسلة حجريّة.

حدّق بشر بعيني بدويٍّ قادرتين على تمييز أيّ حركة في البعيد. وبعد لحظات أطلق النار.

- هل أصبتَ أحدًا منهم؟ سأله ظاهر.

- كانوا عشرة، قتل جريس واحدًا، فلنرَ كم عدد الذين سيهربون!

خلف السنسلة الصخريّة، جلس الجنود يعدّون ما تبقّى لهم من ساعات في هذه الحياة. أدركوا أن انسحابهم تحت شمس كتلك، سيجعلهم فريسة سهلة. قرّروا مواصلة الاختباء إلى ما بعد مغيب الشمس.

- لن يتقدّموا أكثر، ولن ينسحبوا الآن. سنخرج إليهم! قد نستطيع أسر بعضهم؛ فآخر ما يفكِّرون فيه الآن هو أن نقاتلهم خارج الأسوار. قال يوسف.

- سأكون أول من يخرج لملاقاتهم. قال بشْر.

وقال جريس: وأنا معك!

التفت ظاهر إلى الدّنكزلي. وجده صامتًا.

- ما رأيك؟ سأله.

- لن يخرج إليهم أحد. قال الدّنكزلي.

- إنها فرصتنا للإمساك بهم. قال جريس.

- بل فرصتهم للانتقام. قال ظاهر. ستكونون مكشوفين لهم. رجل حيّ هنا، أفضل لنا من عشرة جنود ميتين من جنود الأعداء هناك. هم يستطيعون إحضار سواهم، ولكننا لا نستطيع.

***

قبل أن يتفرّق الرّجال، وصلت رسالة غريبة من وزير صيدا عن طريق البحيرة، تقدّم الرّسول يحيط به بعض عساكر ظاهر: تكلّم، قال له ظاهر!

- لا أتكلّم إلا معك يا شيخ، فالكلام الذي أحمله إليك من سيدي وزير صيدا لا يستطيع أن يسمعه أحد سواك!

- إذن اتبعني.

سار ظاهر عدّة خطوات، في الوقت الذي كان فيه عساكره يفتّشون الرّجل تفتيشًا دقيقًا.

لم يكن معه شيء، فقد أخذوا منه سلاحه حينما فتشوه في المرّة الأولى.

- إنني أسمعك.

نظر ظاهر صوب البحيرة، فرأى مئات الأسماك تطفو ميتة على سطحها، وبعضها على الشاطئ.

استدار بوجهه مواجهًا رسول الوزير.

- قل ما لديك. لا أحد يسمعنا هنا.

لم تكن رسالة طويلة، كما لو أن وزير صيدا لم يكن يريد أن يضيِّع مزيدًا من الوقت: سيدي أرسل يقول: اثبتْ في وجه سليمان باشا، وتحيَّن الوقت الملائم كي تخرج وتقتله! لا خوف من قتله! سأقف معك، وسأكتب للسلطان وأخبره بأنك قتلته لأنه اعتدى عليك ولأنك كنت تدافع عن نفسك!

- أهذا كلّ ما قاله سيدك؟

- لم أُنقص كلمة ولم أزدْ كلمة!

عاد ظاهر لمراقبة أمواج السمك الهالك الذي يتأرجح بين البحيرة والشاطئ. كانت الرّيح الغربية الهادئة نعمة تلك الأيام، وهي تحمل للبعيد رائحة الأسماك النافقة، وتكنسها نحو الجهة الشرقية للبحيرة.

- هل هناك رسالة منك يا شيخ أحملها إلى سيدي الوزير؟

- ستمضي ليلتك هنا، وتغادر مساء الغد، فسلامة رسول الوزير تهمّنا كثيرًا. ولكنني أريد أن أسألك: ما الذي يتوقّعه الناس في الخارج بشأن طبرية؟ ماذا يقولون؟

تردّد الرسول.

- أصدقْني القول، فأنت ضيفي.

- لا أكتمك يا شيخ، هناك غضب يسكن الكثيرين منهم. فهم يقولون: أتُدمَّر مدينة مثل طبرية بالقنابل ونحن نتفرّج؟! إنها المرّة الأولى يا شيخ التي يحدث فيها أمر كبير كهذا.

- هذا هو الكلام الطيب! فماذا يقول الآخرون؟ أصدقْني القول.

تردّد الرسول ثانية.

- قل ما لديك، فلو لم أُرد سماع الحقيقة ما سألتك.

- يقولون إن طبرية إن لم تسقط بيد الوزير اليوم فستسقط غدًا، لأنهم يعرفون أي قوة هي قوة وزير دمشق، فوراء الوزير الدّولة والسلطان وليس وراء طبرية سوى نفسها يا شيخ!

- ولكن طبرية لم تسقط كما ترى.

- لا أكتمك يا شيخ، بعض الناس تقول هذا الكلام ندمًا، لأنهم لا يستطيعون فعل شيء، وبعض الناس تقوله لأنها تريد أن ينتهي الأمر بسرعة فلا تظلّ منشغلة بما يحدث هنا! فمن صيدا حتى دمشق لا كلام للناس سوى طبرية وما يحدث فيها، وهذا أمر يقلقهم كما يقلق الدّولة.

- وهل ترى بأن قتْل سليمان باشا سيُنهي ذلك كلّه؟
- أعذرني يا شيخ، لا استطيع أن أضع نفسي في المنتصف بين رسالة حملتُها إليك وقرار ستتخذه أنت!
- ما قلتَه يكفي.

***

لم يقل ظاهر شيئا حول رسالة وزير صيدا؛ بقي صامتًا. دار في الشوارع، يساعد الناس، ويرفع الحجارة التي أغلقت الطّرقات ويُصلح أبوابا تكسَّرت ويعيد البضائع إلى المخازن التي أصابها الضرر، ويوزّع الحلوى على الصغار، الذين انشغلوا بالتقاط شظايا القنابل، ويوصيهم بعدم الاقتراب من أي قذيفة لم تنفجر؛ كعادته منذ بدء الحصار.

رغم الأسابيع القاسية، ظلَّت الأمور في طبرية على حالها، إذ لم ينقص المدينة شيء. وكما تعهّد ظاهر وأوصى، بقيت الأسعار كما هي، ولم يفتقد الناس أيّ سلعة مهمة، وظلّت البحيرة ذلك المخزن الهائل من الأسماك، رغم كلّ ما قتلته القذائف التي سقطتْ فيها.

***

اختلى ظاهر بالدنكزلي، وطلب منه أن يرسل لرجال طبرية في دمشق، أن يشيعوا بين الناس مدى قوة طبرية، رغم كل النار التي صُبّت عليها، وأن يتحدثوا عن يأس سليمان باشا ورغبته بالعودة إلى دمشق لولا حسّه بالعار لأنه هُزِم في الحقيقة.

أعجب الدنكزلي بذلك، وأرسل في طلب عدد من الرجال، وأوصاهم بأن يقوموا ببث الشائعات في دمشق، وأن يكونوا حريصين على أن يُبدوا تعاطفهم مع الوزير اليائس المهزوم، كي يصدّقهم الناس أكثر.

***

- سيكونون أكثر جنونا هذه الليلة، حينما يعود جنودهم الذين حاولوا الوصول إلى أسوار المدينة. توقّع الدّنكزلي وأيّده ظاهر.

أعطى ظاهر أوامره: لا تُضيئوا القناديل الليلة.

كانوا قد واصلوا إضاءتها طوال الأيام الماضية، حتى ما قبل أذان العشاء، حيث يدور السرّاجون ويجمعونها خوفًا عليها، بعد أن فقدوا الكثير منها بسبب القصف.

***

- عاد الجنود بعد أن فقدوا اثنين منهم. قال أحد قادة الجيش لسليمان باشا.

- كل الوقت أمامنا، فدعوا وقت طبرية يصبح خلْفها، كم بقي على خروج قافلة الحج؟

- شهران سيدي.

- في شهرين نستطيع احتلال عشرين مدينة كطبرية، أليس كذلك؟!

- بالتأكيد سيدي!

- ما أريده منكم: أن تقصفوا كلّ مكان تصلنا أخبار عن وجود، أو احتمال وجود، ظاهر فيه. أما الأمر الثاني فهو أنني أريد منكم أن تقصفوا قلب المدينة، الأسوار لا تعنيني الآن، سنبذِّر قذائفنا عليها دون جدوى. حين أدخل طبرية لا أريد أن يقال إن سليمان باشا قتل الأسرى. أريد أن أدخل وأراهم كلّهم قتلى. وبعد سبعة أيام، أرسِلوا فرقة صغيرة ولنر هل سيكون هناك من يستطيع إطلاق النار على جنودنا!

***

إنه الجحيم ثانية.

لم يكن قد تبقّى الكثير من بيت ظاهر، فقد دُمِّر تمامًا، ولأنه كان يتوقّع ذلك، نقل عائلته منذ البداية إلى بيت بجوار السور الجنوبي، لكن نجمة واصلت زيارة البيت مرتين في اليوم على الأقل.

- أما زلتِ قلقةً على البيت، لقد دمّروه تمامًا، وأنتِ رأيتِ ذلك يا أمي! يكفيك قلقك على الأولاد.

- الأولاد في أمان، أما البيت فأنا قلقة عليه، أخشى أن يدمِّروه أكثر يا شيخ!

- ولكنهم دمَّروه يا أمي!

- هناك أشياء كثيرة ما زلنا بحاجة إليها، تحت الرّكام!

- بنفسي سأحضر إليك ما تحتاجينه. فقط أخبريني.

- لن تستطيع أن تحضر ما أريده أبدًا!

- وما الذي تريدينه يا أمي؟!

- أحبّ أن أتفقّد البيت لأرى إن كان بحاجة إلى شيء يا شيخ، لأنني طوال الليل لا أكف عن سماع أنينه!

- أمي!

- لا، لستُ مجنونة يا ظاهر، لستُ مجنونة! وابتعدتْ

***

اقترب جريس من ظاهر وقال له بخجل: أتعرف يا شيخ، لقد حرموني وزوجتي وأولادي من الاحتفال بعيد زواجنا الذي يحلّ اليوم.

- ولماذا يحرمونكم؟! نحن نقاتلهم كي لا نمكّنهم من حرماننا ممّا نحب.

- ولكنني يا شيخ فكرت بدعوتك، ولا أجد معنى لاحتفالي وزوجتي بهذه الذكرى الجميلة، إن لم تكن بيننا، بعد أن فعلتَ ما فعلت من أجلنا!

- ومن قال إنني لن أكون معكم؟!

- هذه الحرب يا شيخ!

- هذه الحرب لن تستطيع إغلاق طريقنا إلى المحبة. سأكون معكم الليلة!

***

في بيت جريس جلس ظاهر متأمّلا البيت الصغير المضاء بقنديل ملوّن، القنديل الذي علم ظاهر فيما بعد أنه لا يضاء إلا في هذه المناسبة! وأمامه أطفال جريس الثلاثة، يحدّقون في القنديل فرحين، كما لو أن الحرب بعيدة عنهم ألف ميل.

كان الارتباك واضحا على جريس وزوجته التي كانت تتنقّل بسرعة بين الغرفة والخارج، تريد أن تُنهي كل شيء بأقصى سرعة.

- على مهلكِ يا أختي، لمَ أنتِ مستعجلة إلى هذا الحدّ؟!

- كيف لا أستعجل يا شيخ والحرب على أبوابنا؟!

- انسي الحرب قليلا، ولا تدعيهم ينتصرون علينا بسرقة هذه اللحظة الجميلة منا.

غابت قليلا، ولكنها عادت بسرعة، كما لو أنها لم تسمع شيئا مما قاله ظاهر، حاملة خمسة كؤوس من شراب الليمون.

ناولت أحدها لظاهر ولكل من أبنائها واحدًا. وانتزعت خاتم عرسها، وكانت على وشك أن تضعه في الكأس الخامس. فأوقفها ظاهر.

- أنتما لا تضعان الخواتم في كأس ليمون! أليس كذلك؟

- نعم يا شيخ، قال جريس بتردّد.

- أحضري كأس نبيذكما وافعلا ما تفعلانه دائما! فلم آت اليوم إلى بيتكم لأحرِّم عليكم ما حلّله دينكم. احضروا نبيذكما واتركا لي وللأولاد كؤوس الليمون!

- لكن، لا يجوز هذا بحضورك يا شيخ! قالت زوجة جريس.

- الذي لا يجوز هو أن يكون حضوري سببًا في إفساد طقسكم الجميل الذي سمعت أن أزواجًا كثر يقيمونه في هذه الذكرى.

بتثاقل خَجِل نهضتْ زوجة جريس وخرجتْ. طال غيابها، إلى حدٍّ اعتقد ظاهر، معه، أنها لن تعود! لكنها عادت، وفي يدها كأس لا يكاد النبيذ يغطي قعْره!

وضعته أمامها، خلعتْ خاتمها ومسحته بقطعة قماش مبتلة، ووضعته في الكأس، وفعل جريس الشيء نفسه. ثم رفع الكأس وهو ينظر إلى أبنائه، وقال: ليغمر الربّ حياتكم بالمحبة، كما غمر حياتي وحياة أمكم بالمحبة، ولتتسرب السعادة إلى قلوبكم مع كل جرعة من هذا النبيذ الذي يحتضن قلبي وقلب أمكم وعهدنا المقدس بأن نحبَّ بعضنا بعضا، ونضحي من أجل بعضنا بعضا، ونرعى ونخلص لبعضنا بعضا. وشرب جرعة.

امتدت يد جريس بكأس النبيذ لامرأته فشربت جرعة؛ وامتدت أيدي أبنائهم إلى شراب الليمون، ويد ظاهر، فشربوا. أخرجت خاتمها وجففته ووضعته في بنصرها الأيسر، ثم ناولت الكأس لزوجها ففعل ما فعلت.

***

سار ظاهر وإلى جانبه جريس متّجهين إلى الأسوار: كأني أحس بأنني أصبحت أقوى يا شيخ. وعلى استعداد لأن أموت من أجل حماية لحظة كهذه؟

- بل ستعيش كثيرًا من أجل لحظة كهذه.

الصّيحة التي تستَّرت بالظلام

اكتشف سكان المدينة أن أكثر البيوت أمانًا هي تلك الملاصقة للأسوار. فالتصقوا بها، باحثين عن أيّ مسافة تؤويهم. ومن هناك كانوا يراقبون بيوتهم تختفي أمام أعينهم.

لم يعرف أحد ذلك الذي صاح في منتصف الليل، فغطى صوته على انفجارات القنابل والانهيارات: إنهم يريدون ظاهر والزّيادنة، فلماذا نموت نحن؟! أين جيش سعد الذي سمعنا عنه ولم نره؟!

سمعها ظاهر بأذنه. كانت صيحة كافية لأن تزلزل الأرض تحت قدميه. التفتَ فرأى الجميع يحدّقون فيه: أخوه يوسف والدّنكزلي والقاضي وبشْر.

- هل نبحث عنه ونُحضره إليك يا شيخ؟!

- مَنْ؟

- ذلك الذي صاح قبل قليل.

- لا، لا تحضروه.

- ولكنه يدعو الناس إلى التمرّد يا شيخ. قال الدّنكزلي.

صمت ظاهر قليلا، ونظر إليهم فلم ير غير بعض من بياض عيونهم.

- هل تخشاني الناس إلى هذا الحدّ، بحيث لا يقولون ما في قلوبهم إلا في الظلام؟!

لم يُجب أحد. فأضاف ظاهر: هذه الصيحة ليست صيحته وحده. لنر ما الذي يمكن أن نفعله! هل تعتقدون أن نجمة نامت؟

- مَن ينام في ليل كهذا يا شيخ، إنها تجلس هناك في انتظار عودتنا لا بدّ. قال يوسف. ثم أضاف: ولكن ما الذي تريده من نجمة في مثل هذا الوقت من الليل؟!

- ستعرف في الصَّباح.

***

تصاعد القلق في قلب سليمان باشا، إلى ذلك الحدِّ الذي أمر فيه بإرسال جاريته إلى الشام، لأنه لم يعد يُطيق ملامسة أحد أو الاقتراب من أحد.

استبدل صِوانه الذي مزَّقته السّهام، بآخر أقوى. وما إن انتهوا من نَصْبه حتى أمسك قوسًا وأطلق سهمًا نحو الصِّوان. ارتدّ السَّهم، ثم أمسك رمحًا وطعن الصِّوان فكانت النتيجة واحدة، بحيث لم يُخلِّف رأسُ الرّمح سوى نتوء صغير!

أمسك بندقية أحد ضباطه ووجّهها نحو الخيمة! فأدرك الجميع أن الباشا جنَّ تمامًا.

في اللحظة الأخيرة أنزل البندقية وناولها لصاحبها، وقد تذكر أن الصِّوان الذي لا يخترقه الرَّصاص لم يُصنع بعد!

- رأيي أن تصالحه! قال كتخداه عثمان باشا.

- أصالح مَنْ؟!

- تُصالح ظاهر يا باشا! فالوقت يمرّ بسرعة، والطقس يتغيّر، وبعد قليل سيدخل الشتاء، والمسافة بيننا وبين خروج قافلة الحج تتناقص بسرعة.

- أهذا كلامك أم أنك تعيد ما يطلبه السّلطان يا عثمان؟!

- كلام السلطان فوق كلّ كلام سيدي، ولكنني أرى أن الوقت لا يعمل لصالحنا!

- سأطلب منْحي خمسة عشر يومًا لأتمّ المهمة التي أتيتُ من أجلها. لم يحدث أن عاد سليمان باشا يا عثمان مهزومًا من قبل، ثم من يهزمني: طبرية؟! هذه المدينة الصغيرة التي لا توازي أيّ حارة من حارات دمشق!

- لنعمل إذن كل ما نستطيع قبل انقضاء هذه المُهلة سيدي.

***

لم يصدِّق سليمان باشا أن رسولا من ظاهر قد وصل. لكنه استعاد دَوْر القويّ الذي لا يتراجع. رفض مقابلة الرّسول: قولوا له: الباشا ليس له سوى مطلب واحد: أن تفتحوا أبواب طبرية وأن تخرجوا ومناديلكم في رقابكم!

- لكنه أرسل أمّه، سيدي! قال عثمان باشا.

- أمّه؟!

- نعم أمه، فمن عادة الناس كما تعرف سيدي، أن تُرسلَ الأمُّ أو امرأة أخرى قريبة للأمير أو الشيخ للتّفاوض، كنوع من التّواضع والخضوع اللطيف للطرف الآخر! أي لنا سيدي!

- وما الذي تراه يا عثمان.

- أرى أن تقابلها سيدي، فلعل ذلك يُنهي ما نحن فيه من ارتباك! فها نحن بعد أكثر من شهرين في مكاننا وهو في مكانه.

- أحضروها إليَّ إذن.

- إنها بالباب سيدي.

***

انتقى ظاهر واحدًا من أفضل الخيول الأصيلة، يصل ثمنه إلى ألف قرش، هدية لسليمان باشا، وأوصى نجمة أن تجلس مع الوزير وتعرف مطالبه؛ ولم تكن هناك رسالة أوضح من قبوله للهديّة، أو رفضها. فإذا رفضها فإن ذلك يعني أنه لا يريد التّفاهم، وإذا قبلها فالصّلح وارد!

تأمّلها ظاهر فوق ظهر الحصان، فسألته: لماذا تنظر إليّ هكذا؟

- تعرفين يا أمي، سأقول لك شيئًا، وأرجو ألا تغضبي مني؟

- كأنني عرفته قبل أن تقوله، لأنني أراه في عينيك.

- وما هو إذن؟!

- قله، وإذا كان هو، سأعترف لك بأنه ما فكرتُ فيه!

- أظن أنك بحاجة إلى حصان أقوى وأفضل من هذا، ما رأيك؟

- أنا؟! ولماذا أكون بحاجة لحصان، وهل سأعيش حتى الخمسين؟!

ضحك ظاهر، فقد كان يعرف أنها على وشك بلوغ الستين.

- لماذا تضحك؟!

***

تأمل سليمان باشا الرّسولة بقامتها المتوسطة وعينيها المشعَّتين. كانت ممتلئة بنفسها كما لو أنها المُنتصرة! وضاعف إحساسه هذا، ذلك الحصان الأصيل الذي يُمسك به الفتيان الأشداء الواقفون خلْفها.

حين وقعت عيناه على قدميها ارتبك، كانت حافية كعادتها. فكَّر في معنى ذلك! لم يصل إلى نتيجة. هل يكون ذلك نوع من التوسّل؟ أو ربما الاستهزاء به؟! لم يعرف.

أدركتْ نجمة ما يفكر فيه، فقالت: هكذا أنا دائما يا باشا، لم انتعل حذاء من قبل، حتى يوم عرسي! لقد طلب الشيخ ظاهر مني أن انتعل حذاء قبل القدوم

إليك، ولكني رفضت، لأنني على يقين من أن الحرَّ لا يجبر الناس على فعل ما لا يريحهم!

- تفضّلي. قال سليمان باشا، وأشار إلى كرسيّ بجانبه.

- اسمح لي يا باشا أن أجلس هنا على هذا البِساط. لأنني لم أبتعد عن هذه الأرض يومًا!

- تفضّلي.

جلست نجمة، لكن سليمان باشا راح يفكّر في كلّ كلمة قالتها، فأحسّ بأنه أمام امرأة داهية، وأن ظاهر لم يرسلها عبثًا.

- هذه هدية الشيخ ظاهر إليك. قالت نجمة، وهي تشير إلى الحصان خلْفها، دون أن تنظر!

عاد سليمان باشا لتأمّل الحصان، ازداد إعجابا به، فحسم الأمر: وقد قبِلنا الهديّة!

- الحمد لله، هذا يعني أن الخير فيما سيأتي. علَّقتْ نجمة.

- ليس لي سوى طلب واحد، لا غير، أن تفتحوا أبواب طبرية، وتخرجوا إليَّ ومناديلكم في رقابكم!

- هذا ليس طلبًا يا باشا. هذا أَمْرٌ؛ فجنابكم لم ينتصر ونحن لم ننهزم!

- بل هُزمتم، منذ اللحظة التي وصلتُ فيها إلى هنا!

- لقد جئتُ يا باشا لحقن دمائنا ودمائكم، وكلي أمل أن تساعدني في هذا.

- لا تقلقي على دمائنا، فورائي برّ الشام كلّه، وأستطيع إحضار مئة جندي مقابل كل جندي يموت!

- أعرف هذا يا باشا. كلنا نعرف هذا يا باشا! ونعرف أن من نفقده في طبرية يصعب علينا أن نعوّضه حتى بواحد، وليس بمائة؛ ولكن من نفقده من أولادنا نحزن عليه مثل ذلك الذي يمكن أن تفقده أنت يا باشا، حتى لو أحضرت مئة مكانه!

- أأنتِ أحرص مني على دم جنودي؟!

- جنودك بشَر مثلنا يا باشا! ولذلك يحقُّ لي أن أخاف عليهم!

- ما هي مطالبك؟

- مطلبنا يا باشا أن تنسحب بجيشك وأن نُسدّد، مقابل ذلك، كلّ ما في ذمتنا للدولة من مال الميري.

- أما مطلبي فهو أن تفتحوا أبواب المدينة، وتستسلموا، وأن أُمسك بظاهر وأحمله معي إلى دمشق، فقد أقسمتُ أنني سأفعل هذا قبل أن أتحرّك منها!

- أتأخذ ولدي ليُعدم هناك كما أُعدم من قبله أخوه صالح؟!

- هذا مطلبي!

أطرقتْ نجمة، ثم التفتتْ إلى الباشا مباشرة. حدّقت في عينيه طويلا، إلى أن أبصرته يغيّر اتجاه نظره نحو قدميها، وقالت:

- اسمح لنا يا باشا بالذهاب.

- مع السلامة.

نهضت نجمة، ربّتت على ظهر الحصان، كما لو أنها تودّعه، وسار خلفها الفتيان الذين أتوا معها، الفتيان الذين كانوا ينتظرونها في الخارج.

***

راقبها سليمان باشا تسير حافية، متوقِّعًا تعثُّرها، في أيّ لحظة بحجر، أو انغراس شوكة قاسية في قدميها، لكن ذلك لم يحدث. ظلّت تسير بهدوء، كما لو أنها تسير على رمل شاطئ، إلى أن وصلت حيث الخيول التي جاؤوا عليها. وضعتْ قدمها اليمنى في الرِّكاب، وقبل أن تمتطي الجواد، نظرت نحو سليمان باشا فوجدته يحدِّق فيها؛ فظلت قدمها داخل الرِّكاب لحظات، إلى أن أدرك أن عليه أن يغضّ بصره كي تستطيع امتطاء الحصان. أخيرًا أدرك ذلك، وما إن ابتعد بعينيه، حتى كانت فوق الحصان تبتعد.

- يقولون إنها التي ربّت ظاهر بعد موت أمه. قال سليمان باشا.

- نعم سيدي، ربته هي وفرس أصيلة؟ ردّ عثمان.

- ماذا؟

- معرفة عدونا أمرٌ ضروريّ لكي ننتصر عليه سيدي! ولذلك سأخبرك بقصة ظاهر من أولها.

- ولكن لا تُطِل!

حين بدأ الكتخدا عثمان بسرد حكاية ظاهر، نسيَ سليمان باشا أن الحكاية حكاية عدوّه، فسأل يستحثه: وماذا بعد؟

استفاض عثمان باشا، وفوجئ بالسؤال ثانية: وماذا بعد؟

- كأنك أحببتَ حكايته يا باشا!

انتبه سليمان باشا لذلك فقال: يكفي، هذا يكفي!

- ولكن هنالك أمرًا آخر في الحكاية سيدي.

- قلت لك، هذا يكفي!

***

حين رأى أهل طبرية نجمة ومن معها، من فوق الأسوار، عائدين، دون ذلك الحصان، استبشروا؛ بل كان بعضهم على وشك أن يهنئ الآخرين على ذلك النجاح الذي لا بدّ أن تكون قد حقّقته.

- كانت أفضل رسول يمكن أن يرسله ظاهر إلى سليمان باشا! قال أحدهم.

- الآن تقول هذا الكلام! أنسيتَ بأنك قلت في الصباح: ألم يجد ظاهر غير هذه العجوز ليرسلها؟!

الصّيحات!

كان الوجوم قاسيًا كحجر، وقد احتلّ ملامحَ الناس.

وقف ظاهر على واحدة من الدّرجات الصاعدة إلى أعلى السور، والناس تحدّق فيه.

التفت يمينًا، شمالا، وأمامه، محاولا لمّ الجميع.

كلّ أهل طبرية تحوّلوا إلى قلب واحد وأذن واحدة.

أشار ظاهر لنجمة أن تصعد وتقف إلى جانبه.

تردّدت قليلا، فأعاد طلبه. صعدت ووقفت إلى جانبه وعيناها تتصفّحان وجوه الناس، وبين حين وحين تنظر إلى ظاهر.

كانت قوية وصلبة كعادتها.

- لقد سمعتُ من يصيح ليلة أمس: إنهم يريدون ظاهر والزّيادنة، فلماذا نموت نحن؟! ولذلك أرسلتُ أمي نجمة إلى سليمان باشا هذا النهار؛ أرسلتها لتوصل إليه مطالب طبرية، وتسمع مطالبه. لقد أرسلت إليه أقرب امرأة إلى قلبي على هذه الأرض؛ تواضعًا وأملا في أن يفهم رسالتنا كلنا إليه. يريد أموال الميري، نعم. قالت له أمي ستصلك أموال الميري كاملة. سيصلك حقّ الدولة! لكنه طالب بأن تخرجوا ومحارمكم في رقابكم أذلاء، وأن تهزِموا طبرية بأنفسكم بأن تفتحوا أبوابها التي لم يستطع جيشه الوصول إليها.

حقّ الدولة أن تأخذ الميري، أما إذلال الناس وتمريغ كراماتهم في الوحل فليس حقّ الدولة؛ لأن الكرامة التي وهبنا إياها ربنا ليست مُلكًا للدولة، وحريتنا ليست مُلكا للدولة، وأرواح أبنائنا التي تُنتزع من أجسادهم، منذ شهرين، ليست مُلك الدولة. ومن يقول إن كرامته وحريته وروحه للدولة، لن أمنعه من الذّهاب. سأفتح له باب طبرية بنفسي، وليذهب عبدًا إلى حيث شاء.

وسمع من يصيح: أين جيش أخيك سعد؟! وآخر: أخرج بجيشك يا ظاهر إلى الوزير واقتله!

- أنا لا أفكّر على هذا النحو، لأنني أرى أبعد من هذا. قال ظاهر.

لن أطلب من أخي سعد أن يوافيني بعسكره إلا في حالتين: الأولى عند قدوم وزير صيدا بعسكره إلى طبرية، ففي هذه الحالة، أي عند وصول وزير صيدا بعسكره، سأطلب من سعد أن يتقدّم ويباغتَ سليمان باشا في معسكره، لأن الناس عندها ستقول إن وزير صيدا هو الذي هاجم وزير دمشق، لأن هذا الأخير اعتدى على طبرية التابعة لولاية صيدا، وهذا ما أرجوه وأبتغيه، لأني لا أريد أن يقال: إن الشيخ ظاهر قام على وكيل السلطان أمير الحج وقتله فتتعطل قافلة الحج ويقول الناس إنني قاتل.

أما الحالة الثانية التي سأطلب فيها من سعد أن يتدخّل، فهي تلك الحالة التي سأعمل على ألا نَصِلَها، وهي: إذا أفلح سليمان باشا في الوصول إلى الأسوار وشرع في نقْبها، ولم يعد بالإمكان صدّه بطريقة أخرى، فعندها، وعندها فقط، أدعو أخي سعد إلى نجدة طبريّة.

تعلمون، أخوتي وأخواتي، وأهلي، أننا حتى الآن لم نخسر، ولم ينقصنا شيء، إن قوَّتنا اليوم هي كما كانت عليه أمس؛ فرجالنا أقوياء وأسوارنا منيعة؛ فلماذا نخرج إلى الوالي ونقتله؟! ونحن نستطيع؛ فأتحمل وأحمِّلكم معي مسؤولية قتله، ونحمِل جميعًا نقمة السلطان. كل ما أرجوه أن أحافظ على بلدي وأحمي شعبي، وأن يرحل الوالي ويكفينا أذاه. فكونوا على حذر، وحاربوا حرب دفاع، اقتلوا كل من يقترب من الأسوار، وأما القتل لغير ذلك فتجنبوه.

لقد بلغني، أخواتي وأخوتي، أن هناك من يقول: ما يحدث لنا سببه أن ظاهر لا يريد أن يكون أقلَّ من بطل!

إن أسوأ فكرة خطرت للإنسان: أن يكون بطلا في الحرب؛ وهناك ألف مكان آخر يمكن أن يكون فيها بطلا حقيقيا. ولكنّ هذه الحرب فُرضت علينا، ولم نخُضها لكي نصبح أبطالا، بل خضناها لكي نكون بشرًا، كرَّمهم سبحانه وتعالى حين قال (ولقد كرَّمْنا بني آدم) صدق الله العظيم. نحن لا نريد أكثر من أن نكون بشرًا. أما ما أحلم به، فهو أن تكونوا أبطالا كلّكم بعد هذا الحصار. فالبطولة في أن تبنوا بلادكم بأمان، وأن تزرعوا أشجاركم بأمان، وألّا تخافوا على أطفالكم، لأنهم محاطون بالأمان. سيصبح كلُّ رجل بطلا حين يتجوّل في الطرقات كما شاء دون أن يعترض طريقه أحد، أو ينال من كرامته أحد، أو يسرق قوت عياله أحد، أو يعبث بحياته أحد، أو يقيّد حريته أحد. وتكون البطولة، حين تسير امرأة بمفردها فيهابها الجميع، لأنها بطلة على جانبيها أطياف

مئات البطلات والأبطال. أريد شعبا كاملا من الأبطال، لا شعبا من الخائفين بين هذين البحرين: بحر الجليل وبحر عكا. البطولة الحقيقية في أن تكونوا آمنين إلى ذلك الحد الذي لا تحتاجون فيه لأي بطولة أخرى.

أخواتي، أخوتي وأبنائي، لو كان الثّمن الذي يمكن أن تحصلوا عليه هذا الذي حدثتكم عنه، لحملتُ رأسي بين يديّ وخرجت لأسلمه إلى سليمان باشا! لكن كلّ واحد منكم يعرف، كما تعرف كل مدينة وقرية حوصِرت قبل طبرية، أن الذي يطلب رأسًا لا يكتفي إلّا بكل الرّؤوس، فهل بينكم من يستطيع تقديم رأس أمّه أو ابنته أو ولده أو أخيه أو أخته أو زوجته إلى سليمان باشا؟!

- معاذ الله.

- معاذ الله.

راحت الصيحات تتوالى، وامتلأت قلوب الناس بالقوة من جديد، لوح بشْر من فوق حصانه بسيفه، وربّتت نجمة على كتف ولدها: الله ينصرك.

معادلات خفية!

- لقد ندم الوزير على ما صنع بك، ولكن كبرياءه تـأبى عليـه طلـب الـصّلح منك! لذلك، نرجو أن تحاول معه مرّة ثانية، بأن ترسل أمّك، ونحن سنقف معهـا في مفاوضاتها مع الوزير، ويقيننا أنها لن تعود فارغة اليد هذه المرّة.

استمع ظاهر والدنكزلي إلى كل ما قاله الرّسول؛ الرسول الذي أوضح لهم: أن سليمان باشا لا يريد أن يخرج من هنا دون أن يحقّق شيئًا، وأنـه تعـب مـثلما تعبـتم؛ وهو يحسّ بما يدور في رؤوس قادة جنده، وجنده أنفسهم؛ فقد مـلَّ الجميـع هـذه الحال، فلا طبرية سقطتْ ولا هم قادرون على محاصرتها إلى الأبد!

انتحى ظاهر بالدنكزلي مرّة أخرى، وسأله رأيه.

- أظن أن رأينا واحد يا شيخ. لنحاول مرّة أخرى.

- هذا إذا قبلت نجمة الذهاب!

***

حين وصل ظاهر إلى البيت الصغير الذي التجأوا إليه بجوار الـسور الـشمالي، أبصر ولده عليّ يتقافز كالقردة فوقه. أوشك أن ينادي، لكنه خشي أن يربكه النداء فتزل قدمه، فيسقط. راقبه، وهو يستعيد أيامه هو، فوق سور البعنة.

ما إن رأته نجمة حتى سألته: أتريدني أن أذهب الآن أم غدًا؟

- إلى أين؟!

- إلى معسكر سليمان باشا.

- ومن أخبرك بهذا؟!

- قدماي الحافيتان اللتان نظر إليهما حينما كنت أنظر في عينيه!

- كنت تعرفين إذن أنه سيطلبك؟!

- سليمان باشا يائس يا ظاهر، لقد صنع قفصًا جيدًا لك، واكتشف بعد ذلـك أنه لا يستطيع الخروج منه.

- ستذهبين إذن؟!

- بالطبع سأذهب. ولكن من أجلي، لا أريد أن تحمّلني هدية كتلك التي حمّلتها لي أول مرّة! لقد كان الوزير أقل من حذوة حصان، حينما أخذ الحصان ولم يقبل بالصّلح!

- هذه عليّ، سأختارها بنفسي يا أمي.

- لا أظنك ستستطيع فعل أمر كهذا، فأنت كريم بطبعك، ولن تقبل أن يقال: أنظروا أية هدية بائسة هذه التي أرسلها ظاهر! سأختار هديتك إليه بنفسي هذه المرّة يا شيخ.

***

سارت نجمة في الطرقات تفتش عن هدية. قررت الذهاب إلى تاجر خيول، فالخيل هي الهدية الأفضل في كل زمان!

أشارت إلى حصان أبيض وسألت: أللبيع هذا الحصان؟

- لك؟! لا. تستطيعين أن تأخذيه، لأن إطعامه أصبح عبئًا.

- وهل هناك غيرك ممن لا يستطيعون إطعام خيولهم؟!

- الكثير، ولكننا لا نستطيع أن نتحدّث في أمر طعام الخيول ونحن نفكر في طعامنا.

- خيولنا جائعة إذن؟!

- وأكثر من جائعة.

- نعود لما بدأنا به. حصان كهذا كم يساوي لو أننا خارج الحصار؟

- خارج الحصار، 500 قرش.

- سعره مرتفع!

- أعطيك إياه بثلاثمائة، بل بمائتين.

- ليست المسألة كم ستبيعني إياه، المهم أن أعرف سعره الحقيقي.

- والله يا أمّ الشيخ لم أفهم شيئًا.

- لا عليك. وذلك الحصان الأحمر في الزاوية؟ كم سعره خارج الحصار؟!

- مئتان. ولكنني سأبيعه لك بـ..

لم تتركه يكمل: سعره مرتفع. وذلك المرقَّط؟

- خارج الحصار أبيعه بمائة قرش وأنا سعيد.

- الآن بدأت تفهمني. خذ ثمنه، وناولني رسنه!

***

- ما هذا يا أمي، والله لو أهداني سليمان باشا حصانا كهذا لخرجت عليه وقاتلته في معسكره!

- ألم أقلْ لك إن الكَرَم من طبعك؟!

- وكم سعر هذا الشيء؟

- مائة قرش.

- مائة قرش يا أمي!

- كأنك تنسى قيمة مَن ستقوده إلى هناك: أمّك! كأنك تنسى أن إرسالك لي، إليه، هو القيمة الكبيرة التي عليه أن يشكر الله عليها ألف مرّة!

- لا، لم أنس.

- بل نسيت يا ظاهر!

- والله إنني لم أنس.

- بصراحة، هذا الحصان كثير عليه!

ابتسم ظاهر.

- أنت موافق إذن؟!

- بالطبع يا أمي، والله لو حمَّلتك دجاجةً، هدية له لأصبح ثمنها ثلاثة ألاف قرش.

- أتعني أن ثمني ثلاثة آلاف قرش يا شيخ؟! وضحكت.

- بل أنت أمي التي لا أبيعها بالعالم وما فيه.

***

من بعيد شاهد سليمان باشا نجمة تتقدّم فوق ظهر حصانها، وخلْفها ذلك الحصان المبرقع، فانقبض قلبه. استدار ودخل خيمته، وحين وصلت، تقدّم أحد حرّاسه، وأخبره بوصولها: دعْها تنتظر قليلا!

لم تترجّل نجمة عن حصانها، بقيت هناك تراقب المعسكر وتتأمل طبريّة. لكن انتظارها طال. أحسّت بأن زمنًا طويلًا ذاك الذي فصل قدميها عن التراب. كم يضايقها هذا. قررت ألا تترجّل قبل أن يخرج.

آلمتها قدماها أكثر، كما لو أنهما محشورتان في مدينة نمل جائع!

فكَّرت في أشياء كثيرة، لكنّ النّمل ظلّ هناك.

التفتتْ إلى الأرض فوجدتها تناديها: هيا، بسرعة انزلي والمسيني!

رفعتْ عينيها وتأمّلت السماء المُنذرة بمطر.

ولم يَدْعُها أحد!

لم تعد تحتمل أكثر. أتنزل فتفركُ قدميها بالتراب لحظة ثم تعود إلى ظهر الحصان؟ أم تستدير عائدة إلى طبرية، وليكن ما يكون؟!

دون أن تفكر طويلا، رفعت ساقها اليسرى بسرعة وأنزلتها، فركتها بالتراب، وعادت ثانية إلى ظهر الحصان.

تأمّل الحراس ذلك باستغراب.

قدمها الثانية كانت لم تزل هناك في بيت النّمل!

فكّرت نجمة بعمرها الذي مرّ، أجرت حسابات كثيرة بدءًا من يوم رحيل عمر الزّيداني، إلى ذهابهم إلى عرّابة وعودتهم منها، وصولا إلى لحظتها تلك. اكتمل الرقم في رأسها، تكدَّرت. حذفت عشر سنوات؛ ابتسمت، فبدت مزهوّة بنفسها وهي تمتطي حصانًا لا تجرؤ الصبايا على الاقتراب منه!

جاء الصوت قاطعًا لأفكارها: تفضّلي، الباشا في انتظارك.

ترجّلت كاتمة لهفتها، وحين وضعت قدميها على التراب فركتْها وفركتْها. كانت أشبه بمن تسحق كائنا غير مرئي بغضب شديد! تأمّلها الجنود باستغراب، محاولين أن يفهموا شيئًا لا يستطيع أحد أن يفهمه سواها.

بدأ الهواء يعود إلى رئتيها من جديد، وأشرقت عيناها بذلك الوميض الطافح بالرِّضا!

دخلتْ.

***

رحَّب بها سليمان باشا، ودعاها للجلوس. نظرت إلى حيث يشير، فلم تجد ذلك البساط الزّاهي الذي جلست عليه في المرّة الأولى. فهمت: كالحصان يكون البساط!

- اعتذرتْ له: طال جلوسي على ظهر حصاني بحيث لم تعد بي رغبة في الجلوس.

- كما تريدين.

- لقد جئتكَ ثانية يا باشا رسولةً للشيخ ظاهر، وكلي أمل أن نتّفق على ما لم نتّفق عليه في المرّة الأولى.

- لقد فكّرت بعرضك الأول طويلا، أن أنسحب وآخذ مال الميري. ولكن هذا لا يكفيني. هذا العرض قد يُرضي الدولة، ولكنه لا يُرضيني!

- ولكنك ممثل السّلطان هنا يا باشا!
- أنا لم أنس هذا، ولكنني رجل أيضًا، ولي مطالبي.
- وما هي مطالبك؟
- أن يدفع ظاهر مال الميري الجديد والمكسور عليه وأن يهدم جانبًا من البرج!
- وما الذي سيناله الباشا حين نهدم جانبًا من البرج؟!
- على الأقل، أكون قد حقّقت جزءًا من وعدي لنفسي!
- سأحمل طلبك إلى الشيخ ظاهر، ونرى. اسمح لي أن أعود فأنا لا أستطيع الوقوف طويلا!

ظلّ سليمان باشا جالسا في مكانه، إلى أن سمع وقْع حوافر حصانها تبتعد، نهض مغتاظًا. أشرع باب صِوانه، فوجد نفسه وجها لوجه مع ذلك الحصان الهزيل، فلم يتمالك نفسه، إذ وجّه إليه ركْلة، جعلت الحصان ينطلق مبتعدًا محاولا اللحاق بنجمة.

***

من فوق السّور، شاهدوا نجمة تتقدّم، وخلفها في البعيد يركض حصان مرقّط مذعور.

***

- لن أقتلع حجرًا واحدًا من البرج، فهذا البرج بالنسبة لي كما هو الشّراع للسفينة. قال ظاهر. وأضاف: ثم والله لو طلب مني أن أُطفئ قنديلا واحدا مقابل أن ينسحب من هنا، الآن، لما أطفأته. لقد منحتُه أكثر مما يستحق: أن يعود إلى دمشق محتفظًا ببعض ماء وجهه، أما وقد تمادى إلى هذا الحدّ، فلن يأخذ شيئًا مني.

عم الصّمت، وبعد قليل قطعته نجمة: أنا عائدة إلى البيت.

***

أضيئت القناديل من جديد؛ ورغم الضباب الذي هبط غامرًا البحيرة برماده المضيء، ظلّت طبرية تتلألأ مثل مركب كبير يرسو على الشاطئ..

رياح مختلفة بعد أيام خمسة!

توقّف القصف تمامًا، وهبط هدوء غريب لم تألفه المدينة من قبل؛ المدينة التي أوشكت أن تنسى كيف كانت تعيش قبل الحصار.

بعد خمسة أيام هبّت ريح مختلفة، لم يتوقّعها أحد، وأصابت الجميع بالذهول: لقد كانت القذائف تتساقط قادمة من جهة البحيرة!

لم يصدّقوا الأمر، إلا حينما اعتلوا السّور، ورأوا مركبين كبيرين في البحيرة فعلا، ومنهما كانت تنطلق القذائف!

- كيف؟! تساءلوا، ولم يصلوا إلى جواب.

***

كان سليمان باشا قد فكّر طويلا، ووجد أن في يده ورقتين لم يلعبْهما بعد! أما الأولى فهي إحضار مركبين للتضييق على طبرية من جهة البحيرة. أرسل إلى صيدا وأمر بإحضارهما. تلكأ وزير صيدا قليلا، لكنه ضحك في النهاية، لأن وصول مركبين إلى طبرية عبر البرّ طُرفة تجعل المرء يضحك إلى آخر أيام حياته!

لكن المركبين وصلا، دون أضرار كبيرة، فقد استطاعت الجِمال: سفن الصحراء! أن توصل سفن الماء حتى الشاطئ، وعبر طريق طويل مستو، دون أضرار تُذْكَر.

أما الورقة الثانية، فقد ألقاها بعيدًا عن عيني عدوّه كمفاجأة أخيرة قاتلة!

شظايا الليل والهدف الخفيّ

- أين يمكن للمراكب أن تنام يا أحمد؟
- في البحيرة بالطبع يا شيخ.
- ليس في صِوان سليمان باشا إذن؟!
- أهذا اختبار يا شيخ؟
- لا، ليس اختبارًا، ولكني أستغرب كم أصاب وصول المركبين الناس بالخوف.
- ما الذي تفكّر فيه يا شيخ؟
- هذان المركبان لا يصلحان سوى ليوم واحد، وقد انقضى ذلك اليوم يا أحمد!
- دع المهمة لي إذن.
- لا أريد أن أراهما في الصباح على وجه البحيرة.
- لن تراهما أبدًا.

***

عند منتصف الليل، بدأت السماء تتلبد بغيوم كثيفة، وملأت الهواء رائحة مطر. ماج ماء البحيرة، بحيث كان باستطاعة أولئك القاطنين على حافة السور الغربي أن يسمعوا ارتطام الموج، وقد هدأ الليل تمامًا.

المراكب التي خرجت مرّات كثيرة، وحرمت جيش سليمان باشا النوم، عادت مجاديفها تخمش الماء مندفعة صوب هدفها.

كان يمكن أن يكون التوغّل في شمال الماء خطِرًا، لولا معرفة الصيادين بأدقّ مسارات بحيرتهم. لكنهم كانوا، هذه المرّة، يخرجون إلى هدف لا يعرفون موقعه تمامًا.

قدّر أحمد الدّنكزلي أن المرّكبين سيكونان قريبين من موقع المعسكر، فتوجّه إلى هناك بنفسه على رأس قوة من خمسة عشر مركبًا، هي أكبر مراكب طبرية.

ازداد الضباب كثافة، بحيث توقّعوا أن يجدوا أنفسهم يصطدمون بواحد من المركبين، أو بهما معا، فجأة.

كان ذلك هو الخوف الوحيد الذي انتابهم.

تحسسوا شاطئ البحيرة بمجاديفهم، والهواء البارد أمام مراكبهم بأيديهم.

لا شيء.

كثرٌ هم الذين فكروا في العودة، وقد انتابهم ذلك الحسّ: أن يكون سليمان باشا قد حمل مراكبه إلى المعسكر! أولم يحملْها من صيدا إلى هنا؟!

لكن الدّنكزلي قرر أن يجرب موقعًا آخر. أن يبحث في الجهة المقابلة، في الشّرق.

لم يكن الأمر سهلا، فقد كان عليهم أن يقطعوا عرض البحيرة، بحيث سيكلّفهم الأمر إضاعة ما يقرب من ساعتين.

الصيادون وجنود ظاهر، كانوا يعرفون أن القضاء على المركبين، ربما يكون أفضل ما يمكن أن يُقدَّم إلى طبرية صبيحة اليوم التالي، وأقسى ضربة يمكن أن توجّه إلى سليمان باشا.

بحث أكثر من واحد منهم عن أثر لطبرية. كانت المدينة قد اختفت تمامًا.

لم تكن البحيرة صغيرة، لأن مراكبهم لم تكن كبيرة بما يكفي، بحيث تجتازها طاوية الماء والزمن والضّباب الكثيف.

داروا طويلا. ثم حدث ذلك الأمر الذي كانوا يخشونه، لقد اصطدم أحد مراكبهم بواحد من مراكب سليمان باشا.

حُبست الأنفاس، وتوقّف التجديف. لم يستطع قائد المركب الصغير التراجع، جمد في مكانه، كما جمدت قلوب من فيه.

توقّعوا هياجًا وصياحًا وطلقات تمزِّقهم! لكن ذلك لم يحدث!

كان الوقت في صالحهم وقد قاربت الساعة الرّابعة صباحًا، فقد كان الإنهاك والاطمئنان يُثقلان أعين بحارة سليمان باشا كما يُثقل الضباب أعينهم.

بعد أقلّ من دقيقة، سمعوا خطى تتقدّم فوق سطح المركب الكبير، وظهر شبح فوق ظهره، لعله الحارس، ينحني ويحدّق في الماء بصعوبة باحثًا عن شيء ما.

كان على بعد أربعة أو خمسة أمتار لا أكثر ممن حبسوا أنفاسهم في المركب الصغير، لكن قتامة الماء والظلال الشّاسعة لم تمكِّنه من أن يرى شيئا، في حين، كان هو في الأعلى هدفا مثاليًّا من مسافة كهذه.

انطلق صوت السهم، ومرّ خاطفًا من فوق رؤوس أولئك الجاثمين في المركب الصغير، واخترق جسد الحارس.

حتى عبور سهم في جسد شبح في ليل مثل ذلك الليل، كان أشبه بقذيفة تنفجر في الظلام، مدوّية وقاسية.

تمايل الجسد؛ صدرت عنه أنّة أشبه بصرخة لم تصل حنجرةً، ثم وقع في الماء محدِثًا ذلك الدَّويّ الذي لا يتمنّى سماعه أولئك الرّابضون في المراكب الصغيرة.

أدرك الدّنكزلي أنه لا يستطيع الانتظار أكثر من ذلك، وبمجرد أن أوقد الشّعلة التي في يده وتقدّم صوب المركب، حتى أوقد الآخرون شُعلهم.

تأرجحت الشُّعَل في الأيدي، وتسارعت خبطات المجاديف في الماء. كان المركب أكبر مما تصوّروا. لكنهم كانوا قد أعدّوا العدّة لتلك اللحظة.

الشيء الوحيد الذي أرّقهم أنهم لم يروا المركب الثاني.

تطايرت صرر البارود المشتعلة صوب المركب، وتراجعت المراكب الصغيرة، وفي اللحظة الأخيرة، أبصر جريس ظلّ المركب الثاني، فأمر من معه في المركب أن يتوجّهوا إليه بسرعة. تردّد الجميع، لكنه صرخ: ليس هنالك وقت!

حين كان على بعد عشرين مترًا، انفجر المركب الأول، فتبعثر الضباب وتساقطت أشلاء الليل على سطح البحيرة مضيئة مثل آلاف القناديل.

في لمحة واحدة امتلأ سطح المركب الثاني بالجنود، وبات المركب الصغير هدفا سهلا. أدرك الدنكزلي خطورة اللحظة، فأمر بإطلاق النار نحو الجنود. تمايلت الأجساد وسقط بعضها في الماء؛ في الوقت الذي استطاع فيه الجنود الآخرون الانبطاح وإطلاق الرّصاص، ولم يكن هنالك هدف أسهل وأوضح من ذلك المركب الذي صار على بعد أمتار منهم تحت ضوء نيران المركب المشتعل.

لكن الذي لم يعرفوه، أن تلك المسافة كانت كافية لكي يُلقي من في المركب الصغير صُرر بارودهم بيسر، طارت الصُّرر في الهواء لتسقط على ظهر المركب الكبير. ارتبك الجنود، وقد أدركوا أنهم سيتحوّلون إلى أشلاء بعد لحظات، فبدأوا بإلقاء أنفسهم في الماء.

كان انفجار المركب كافيًا لكي يدمّر كل ما حوله.

ومن جديد تناثر الليل ممزَّقًا فوق الماء.

***

استيقظ سليمان باشا مذعورًا على صوت الانفجارات. كان على يقين من أن ظاهر قد اجتاح المعسكر.

لكنه حين وصل باب صِوانه، أدرك أن الانفجارات بعيدة.

كان الجنود يحاولون بصعوبة مشاهدة ما يحدث في البعيد، التماعات ضعيفة مخنوقة وسط الضباب، لكن الانفجارات كانت تدوّي كالرّعد.

لم يكن عليه أن يسأل عما حدث، شتم وتوعّد، وأقسم أن مصير طبرية سيكون أقسى من مصير المركبين.

سرّ الأيام القادمة

بدا الأمر في البداية كذبة كبيرة لا يمكن لأحد تصديقها.

قال ظاهر للدنكزلي: إن عيوننا في معسكر سليمان باشا واثقون من ذلك.

- ولكن ذلك مستحيل! إنه على وشك مغادرة المعسكر؟!

- ربما هي طلقته الأخيرة.

***

بعد الغروب بقليل شاهد الناس من فوق الأسوار ذلك المارد الذي يخرج من وسط البحيرة ويتقدّم نحو الشاطئ بثقة.

أشهر الحرّاس أسلحتهم، ووجّهوا سهامهم وبنادقهم إلى ذلك الجسد الذي لم يزل بعيدًا عن مرمى الأسلحة.

وفي داخل المدينة دبّت الفوضى.

أحسّ ظاهر بما يحدث، سأل: ماذا هناك؟!

- المَرَدَة تهاجم المدينة! قال فتى وهو يركض مبتعدًا.

نظر ظاهر إلى أعلى السور فرأى ذلك الصمت الذي يخيّم فوقه. بسرعة تقافز فوق الدّرجات حتى وصل. كان الجميع مستعدّين لإطلاق رصاصهم وسهامهم. نظر ظاهر نحو البحيرة ورأى ذلك المارد يظهر شيئا فشيئا.

- هذا مقداد. صاح ظاهر. أخفضوا أسلحتكم.

- مقداد. أيّ مقداد هذا؟ تهامس عدد من الرجال، وقد باتوا على يقين من أن لظاهر علاقة بالجن!

- إنه مقداد متسلم الطابغة. لا تخشوا شيئًا. إنه منّا.

راحت قامة مقداد تطول كلما اقترب من الشاطئ أكثر فأكثر، وحينما وضع قدمه على الشاطئ، كان أطول كائن يراه فرسان ظاهر.

- إنه مقداد فعلا! قال أكثر من رجل ممن يعرفونه.

- هل كان بهذا الطول دائما، أم أنه أصبح أطول؟!

تحلّق الناس حول مقداد، ينظرون إلى الأعلى، حيث رأسه؛ وفي لحظة خاطفة، ألقى مقداد نظرة على ذلك الطفل الصغير الممسك بثوب أمه باكيًا، فدارت الأرض به. أوشك أن يسقط. تمالك نفسه، وجلس، مدّعيا التّعب!

عمّ خبر وصول المارد طبرية، ففرح الناس، وتقاطروا، وبخاصة أولئك الذين طالما سمعوا عنه ولكنهم لم يروه.

تأمل ظاهر المشهد بسعادة. كانت المرة الأولى التي يرى فيها الناس سعداء إلى هذا الحدّ، منذ بدء الحصار.

***

انتحى ظاهر بعد صلاة العشاء بمقداد. كان القصف قد توقّف تمامًا منذ تدمير المركبين، لكن الهدوء لم يكن قادرًا على خداعهم.

- ما الذي جاء بك؟ كان يمكن أن تُقتل بسهولة، فليس هناك هدف أوضح منك يا مقداد!

- ما أتى بي إلى هنا سرٌّ كبير يا شيخ.

- نحن اجتمعنا لكي نسمعك.

- سليمان باشا يريد أن يدخل إلى طبرية من تحت السّور يا شيخ!

- تقصد: يريد أن يثقبه!

- لا يا شيخ. لقد بدأ بحفر نفق تحت الأرض. بعضهم يقول إنه يريد دخول طبرية بهذه الطريقة، وبعضهم يقول إنه يريد تدميرها بزراعة البارود وتفجيره تحتها!

- ومن أخبرك بهذا يا مقداد؟

- أناس يحبّونك يا شيخ. هناك الكثير ممن يحبونك حتى في معسكر سليمان باشا. وحين وصل الخبر إليَّ، وهم يعرفون مكانتك عندي، قلت: سرٌّ كهذا لا أكون مطمئنًا إن كان في صدر رجل غيري، فجئتُ.

- كيف سأشكرك يا مقداد؟! سأله ظاهر.

- تشكرني يا شيخ بعودتهم خاسرين بإذن الله!

***

مال ظاهر نحو مقداد وهمس له: هل سمعت أخبارًا عن جاريتك؟!

- لا والله يا شيخ، مع أنني كلما وقفتُ، وتلفتُّ حولي، اكتشفتُ بأنني لا أريد أن أرى شيئًا، أو أحدًا، مثلما أريد أن أراها؟!

- اطمئن يا مقداد، سنجدها، اطمئن! ثم قال على مسمع من الجميع: سيأخذك أخي يوسف إلى بيته، لتنام، فأنت بحاجة إلى هذا.

- ولكن..

- فلتسترح يا مقداد، أم أنك لا تثق برجالي الذين سيحرسون نومك؟!

- كيف يا شيخ؟ كيف؟

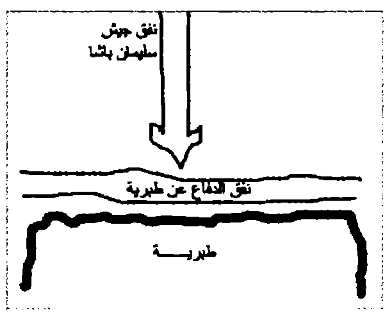
- اذهب إذًا واسترح.

***

في الخارج تجمّعت السُّحب، لكن الأمطار لم تسقط. كانت طبرية بحاجة إليها، فبسقوطها تمتلئ الآبار في البيوت، وتغدو حياة سليمان باشا ومن معه في المعسكر أصعب.

الفكرة التي طرحها الدّنكزلي كانت أكثر جنونًا من فكرة سليمان باشا: ليس أمامنا سوى حل واحد: أن نحفر نفقًا حول الجهة التي يحفرون نفقهم فيها، وحينما يَصِلون، سيجدون جنودنا داخل النفق في انتظارهم!

لم يتكلّم أحد، ظلّ الجميع صامتين، فرسم الدّنكزلي على التراب: هذا هو السّور. ورسم خطا آخر وقال: هذا هو نفقهم. ورسم خطا عرضيًّا وقال: هذا هو نفقنا وفيه سنقاتلهم:



- علينا أن نبدأ منذ الآن. قال ظاهر.

- علينا أن نبدأ منذ الآن.

الشيء الوحيد الذي لم يكن هناك من هو متأكد منه، هو: منذ متى أعطى سليمان باشا أوامره بالحفر! كان عليهم أن يسابقوا الزّمن فوق الأرض، فأصبح عليهم أن يسابقوه في ظلمة جوفها!

***

بعد ثلاثة أيام من عمل لا يتوّقف، وصلوا خلالها الليل بالنهار، كان لديهم نفق طوله خمسون خطوة على الأقل.

بدأوا من منتصف السّور، في الجهة المقابلة لمعسكر سليمان باشا، وتفرّعوا يحفرون في الجهتين المتقابلتين.

وقف ظاهر وسط النّفق، وقال، نريده أعلى وأوسع، في هذا الضِّيق لن نستطيع قتالهم.

كان شهر رمضان هو آخر شهور الحصار ونعمة الله على طبرية، إذ بدا الناس أكثر زُهْدًا، وبدا العطش وقلّة الطعام، جزءًا من الصيام، لا من نتائج الحصار!

أسبوع واحد وينتهي الشهر. فكّر ظاهر في ذلك كثيرًا. لكن يقينا ما سكنه: سليمان باشا لن يستطيع أن يُمضي الشّتاء على مشارف طبرية، فقد ناله ما ناله، ولا بدّ له أن يقود قافلة الحج، شاء ذلك أم أبى. أسبوع واحد، هو محاولته الأخيرة للوصول إلى قلب طبرية.

التفت ظاهر إلى السماء ورأى الغيوم تزداد كثافة وسوادًا، وجاء رعد من مكان بعيد، ذكّره، وذكّر أهل طبرية بليالي القصف.

لكن قطرة واحدة من المطر لم تسقط.

***

قبل ثلاث ليال من ليلة العيد، تغيَّر كل شيء: فزعت طبرية في البداية، لكنها حين أدركت ما يدور اندفعت إلى الطرقات؛ كان البرق والرّعد يهزّان الأرض، والأمطار تتدفّق بشدّة لم يروها من قبل، كما لو أن السماء كانت تجمِّع غيماتها واحدة فوق أخرى كي يكون كل ذلك المطر!

لكن الأمر الذي لم يخطر ببال أحد، أن الأمطار التي لم تنقطع يومين، داهمت نفق سليمان باشا مُغرقة كلَّ من فيه من جنود.

طوال الليل استمرّ تدفّق أنهار السماء، حتى فاضت آبار البيوت كلّها، وفي صبيحة اليوم التالي، أشرقت شمس خجولة، وفي المساء كان باستطاعتهم أن يروا هلال شهر شوال.

***

صبيحة يوم العيد، وصل رسول من طرف سليمان باشا عارضًا الصّلح.

- لا، لن أذلّ نفسي أكثر مما فعلت، لن أرسل إليه أحدًا! قال ظاهر.

أكّد له الرسول أن الأمر مختلف هذه المرّة، لأن الجنود ملّوا القتال، وقافلة الحج الشامي على وشك التحرّك، وأن الوالي سيقبل بما لم يقبل به من قبل.

- أرسل له أخاك يوسف يفاوضه.

- هل أرسل إليه يوسف فيأخذه رهينة؟! وإن لم يستطع دخول طبرية به، سيحمله معه إلى الشام ويشنقه هناك، ليقول للجميع إنه قهر ظاهر. هذا لن يكون!

لكن ظاهر وافق على إرسال يوسف أخيرًا، شريطة أن يرسل سليمان باشا قائد جنده ضمانا لعودة يوسف.

***

برفقة غلامين يسوقان عشرة جمال، صعد يوسف التلّ متوجِّها إلى صِوان سليمان باشا، متوقِّعا أسوأ الأمور. لكنه كان قد وصل إلى ما وصل إليه ظاهر وسليمان باشا من ضرورة الخروج من مستنقع الحصار هذا.

فوجئ سليمان باشا بهدية ظاهر. مال عثمان باشا نحو أذن سيده وهمس: أنظر كم هو متواضع وحليم هذا الشيخ! فمع علْمه بفشلنا يرسل إلينا الهدية تلو الهدية. لم أر في حياتي من هو أكرم وأدهى وأطيب وأذكى من هذا الشيخ!

التفت سليمان باشا نحو عثمان، فتدارك عثمان: بالطبع جنابك يسبقه بمسافات!

***

كانت المفاوضات أسرع مما توقّع يوسف؛ فمطالب سليمان باشا كانت قد تقلّصت وغدت بحجم غروره الضّامر: أوافق على الانسحاب من طبرية شريطة أن تدفع مال الميري المكسور.

- الشيخ ظاهر غير موافق على هذا الآن! كان هذا عرضه في البداية، أمّا بعد ما أصاب طبرية من خراب، فهذا المال يلزمه لإعادة إعمارها!

- أهذا ما أوصاك بأن تقوله لنا؟!

- هذا ما أوصاني به.

أطْرقَ سليمان باشا ثم رفع رأسه.

- إذن لم يبق لي سوى طلب واحد: أن يهدم صفّين من حجارة البرج.

- لن يعترض على هذا، ولكن بعد أن يكون جيشكم قد ابتعد مسافة ثلاثة أيام عن طبرية!

- أريد ضمانة لكي ينفِّذ هذا الشّرط.

- إن كنت تريدني ضمانة فسأمضي معك إلى الشام، وحين تصِلها، تطلق سراحي ويطلق ظاهر سراح قائد جندك الذي ستتركه في طبرية.

- لا أريدك أنت ضمانة، بل أريد واحدًا من أبنائه.

- وأنا أقول لك إنه موافق. فابنه ليس أغلى من أخيه، كما أن أخاه ليس أغلى من ابنه.

- اتفقنا إذن. ولكن، عليه أن يتذكّر أنني عائد إليه في العام المقبل بجيش لن يستطيع الوقوف في وجهه ساعة واحدة!

- لننفّذ الآن ما اتفقنا عليه، أما العام القادم، فهو في علم الغيب يا باشا!

***

تأمّل ظاهر أولاده الخمسة الذين اصطفّوا أمامه: صْليبِي، عثمان، عليّ، سْعيد، وأحمد. وابنته الصغيرة عليا التي اندست بينهم بسنواتها الثلاث عابسة!

تأمّل وجوههم، كما لو أنه يراهم لأوّل مرّة. ثم عاد وتأمّلهم من جديد.

- أنت تعرف تمامًا من ستختار يا ظاهر. فلا تتأخّر أكثر من ذلك! قالت نجمة.

- وأنتِ، هل تعرفين؟!

- دع أولادك يخرجون الآن، فلم تكن بحاجة إلى أن توقفهم هذه الوقفة باحثًا عمن سترسله رهينة!

تفرق الأولاد، حين أشار إليهم بابتسامة حزينة أن يبتعدوا، لكن عليا بقيت واقفة بانضباط غريب، مقلدة وقفة أخوتها. أشار إليها، اقتربت، فضمها بحنان إليه.

- هل ذنبه أنه يشبهني؟! هل ذنبه أنّ فيه عزَّة أمير وشجاعة فارس ولفتة حصان؟!

- لا يا ظاهر، ليس هذا ذنبه، فأنت وطبرية كلّها بحاجة إلى فتى يدرك كل من رآه سبب منعة طبرية وسرَّ قوّتها!

رياح المستقبل

في صباح السبت، الأول من كانون أول سنة 1742 تحرّك جيش سليمان باشا العظم نحو الشام، فتدفّق البشر على طول الطريق المؤدّي إلى دمشق، لا لرؤية الوزير وجيشه، بل لرؤية إنسان واحد لا غير: عليّ بن ظاهر العُمر، الفتى الذي أطلق عليه الناس ابن النمر، الفتى الذي استطاع أبوه أن يقهر أعظم وزراء السلطنة ويردّه مهزوما بعد اثنين وثمانين يوما من الحصار.

***

نظر إليها من بعيد، فبدت طبرية بعيدة، إلى ذلك الحدّ الذي تساءل معه سليمان باشا: كيف استطعت الوصول إليها؟! لكنه رغم ذلك أقسم أمام قادة جيشه، أنه لن يهنأ له بال قبل أن يدمّرها على رؤوس من فيها، ويعود حاملا بيده رأس ظاهر ليكون فُرجة لأهل الشام في السنة المقبلة.

ألقى نظرة على الفتى الصغير، فوجده ثابتًا فوق حصانه، واثقا كما لو أنه أمير.

- سيتعب في النهاية، وينهار مُلصقًا وجهه بظهر الحصان. قال سليمان باشا لنفسه.

لكن ذلك لم يحدث. أزعجه هذا، بحيث انتابته رغبة جامحة في أن يصفع الفتى، أو يدفعه بقدمه ليتمرّغ في التراب، فقد يتواضع.

بمعجزة، لا أقل، استطاع أن يكتم سليمان باشا غضبه، وهو يحدق إلى عليّ طوال الطريق، لكن كل شيء تغير ما إن أصبحوا أمام باب دمشق!



الجنة بين بحرين

قبل مرور عام واحد،
أحس الأجانب المقيمون في عكا بشمس جديدة تبزغ وباطمئنان لم يعرفوه من قبل، فتدفّق على عكا يونانيون وقبارصة. وقد أدرك الجميع أن ليس هنالك من ربح يمكن أن يجنيه المرء، أكبر من ربح يأتيه من مدينة يتمّ بناؤها.
وكما كانت الأسوار ترتفع، كانت الطرقات تتّسع وأبواب الميناء تتّسع، والبيوت الجديدة الكبيرة التي بناها التجار تتكاثر، وأصبحت المدينة تستقبل في اليوم الواحد ألف جمل محمّل بالبضائع، تعود من حيث أتت محملة بالبضائع.
فتحت أبواب المدينة لتجار روسيا وإيطاليا وفرنسا ومالطة والبندقية، فامتلأت بالمنسوجات القطنية والصوفية والسّكر والأسلحة والورق والأواني الزجاجية، وعادت السفن التي جاءت، محمّلة بهذا كله، ممتلئة بالقطن والكتان والصوف والصابون والقمح والزيت والسِّمسم...

ساعد قوي.. قلب منهك

أرسل ظاهر إلى زوج أخته محمد العلي رسالة بعد رحيل جيش سليمان باشا خائبًا: سأنسى كلّ ما حدث، ولنبدأ صفحة جديدة. لقد أعماك الطمع، وخيّل إليك أن طبرية ستكون لك وستكون متسلّمها. وها قد رأيت، لقد تفتتَ سيف سليمان باشا على أسوارها، وهو أعظم ولاة السلطنة، فارحم سيفك يا محمد، إنه أوهى من أن يواجه حجرًا واحدًا من حجارة أسوارنا. تكفيك الدّامون وشفاعمرو[1] وتلك البلاد الممتدّة حتى قرية الشيخ بْريك يا محمد، وأعاهدك أنك ستظلّ متسلّما لها ما دمتُ حيًّا.

لوَّح محمد العلي برسالة ظاهر في وجه زوجته، وقال ساخرًا:

- أخوك يهدّدني يا شمّة. أخوك يهددني!
- أخي لا يهدّدك يا محمد، أخي يعدك ويعاهدك.
- أيعدني بما هو لي؟! هذا أسوأ بكثير مما لو كان يهدّدني!
- لو كنت مكانك يا محمد لكتبتُ إليه، فهو في النهاية ابن عمّك، وأخي، وخال أبنائنا وبناتنا.
- بل أنا زوج أخته ووالد أبنائها!

***

حين وصلته رسالة سليمان باشا العائد لحصار طبرية من جديد، أرسل إليه محمد العلي، بأنه سيكون في انتظاره في قرية لوبية قرب طبرية. جمع جنوده. وفي ذلك الفجر اللاهب من أواخر شهر آب، وبعد عام واحد من ذلك الحصار الكبير، غادر محمد العلي بيته. لم يكن قد ابتعد كثيرًا، حين أوقف حصانه واستدار ملقيًا في وجه شمّة تلك الابتسامة الساخرة.

---

[1] - ينسب كثيرون الاسم لقصة القائد المسلم عمرو بن العاص الذي كان مريضًا عندما مرّ منها ولما شرب من نبعها المسمّى بـ (عين عافية) -ما زال موجودا حتى يومنا هذا- شفي من مرضه فصاح جنوده "شفاء عمرو" ومن هنا جاءت التسمية!

كم تمنتْ ألا يلتفتَ، ولكنه التفتَ. كم تمنتْ أن يصمتَ، ولكنه قذف في وجهها تلك الابتسامة المتوعِّدة. راقبته يبتعد، فبدت المسافة التي تفصلها أكثر اتساعًا من كل صحارى الدّنيا.

دخلتْ. بسرعة راحت تلملم أشياءها: إلى أين؟! سأل أولادها.

- إلى خالكم. إلى طبرية. لعل أباكم لم يدرك بعد مَن أولئك الذين سيحاصرهم هناك! يريد أن يكون بطلا، فليكن له ذلك، ولكن على أولاده وامرأته إن استطاع!

***

وصلت أخبار ذلك الجيش الجرار إلى طبرية. كل قرية كان الجيش يصلها، في طريقه من دمشق، كانت تُرسل رسولا منها، لكي تحذِّر ظاهر.

مئات الرُّسل كانوا يتدفّقون على طبرية، وهم لا يحمِلون سوى خبر واحد. مئات الرّسل الذين أرهقتهم المسافة، لكنهم لم يكونوا مستعدين لوصول جيش دمشق قبلهم إلى الأسوار.

ووصلتْ شمّة حاملة في عينيها الحزينتين الخبر الأكثر ثقلا على قلب ظاهر.

لم تتكلّم، قالت: أريد سيفًا، وطبنجة. وحين أمسكتْ بها، شدَّت غطاء رأسها وعَصَبتْ به جبينها. رفعت طرف ثوبها وعقدتْه في زنارها، وتوجّهت نحو السّور.

راقبتها نجمة تبتعد، وهي تهمس لنفسها: *أيّ اختبار هذا الذي تُلقيه، يا ربي، على قلب هذه المسكينة؟!*

***

تحدّث الرّسل عن أسلحة جديدة لم يروْها من قبل، وصلت من إسطنبول. تحدّثوا عن أخشاب شجر الأرز التي تكفي لصنع أسطول. وتحدّثوا عن عساكر لا عدد لها.

كان الدّنكزلي الذي يسمع ذلك كلّه يُنقِّل عينيه بين ظاهر وبشْر وبقية قادة الجند.

- أتريد أن تقول شيئا يا أحمد؟

- لا شيء يا شيخ، لا شيء.

- إذن فلنستعد لملاقاتهم.

ابتعد أحمد الدنكزلي والآخرون، راقبهم ظاهر، ثم التفت فرأى نجمة واقفة في عليّة السّراي الذي أعيد بناؤه. صعد إليها.

- تريدين أن تقولي شيئا يا أمي؟

- نعم. اخلع حذاءك واتبعني.

- الآن؟

- الآن يا شيخ، أنت لست بحاجة اليوم لشيء مثلما أنت بحاجة إلى قوة هذه الأرض، كي تكون فيك.

خلع حذاءه، وهبط الدّرجات نحو الباحة.

- لا تتكلّم، إنس كلّ شيء، سوى إحساسك بالتراب الذي تحت قدميك.

راحت نجمة تسير إلى جانبه، وما هي إلا لحظات حتى كانت قد تلاشت، وتلاشى الكون كلّه، ولم يبق سوى قدميه والتراب، وبعد أقل من نصف ساعة كانت قدماه قد اختفتا، واختفى التراب، ولكن الحسَّ بالتراب لم يختف.

هزَّته نجمة: فلنعد الآن.

كانا قد وصلا إلى شاطئ البحيرة، انتبه. تلفّت حوله، فرأى مئات النساء والرجال يسيرون حفاة مثلهما.

أراد أن يتكلّم؛ فأشارت له نجمة أن يصمت.

وعادوا.

***

قبل وصول أيٍّ من عساكر سليمان باشا إلى طبرية، وصل خبر مرضه.

لوهلة، انتاب ظاهر ذلك الإحساس العميق: إنها خدعة! ووجد نفسه لا يثق سوى بشيء واحد: الانتظار!

انتظر.

كان قد فعل الكثير كي لا يقع في أخطاء الحصار الأول: طلب من الفلاحين أن ينضمّوا إليه في طبرية، وحصّن المدينة وأعلى أبراجها؛ ولم يكن السلاح مشكلة، بعد أن استطاع الحصول عليه مقابل صفقات القطن.

ظلت الأخبار تأتي، صبحًا ومساءً؛ لكنها تحوّلت فجأة، كما لو أنها الريح، في اتجاه آخر: سليمان باشا يُحْتَضَر!

- يحتضر؟!

وفي اليوم الرابع، بلغت الأخبار أقصى شدّتها: لقد مات!

- مات؟!

الأخبار المؤكدة حملها رجال ظاهر أنفسهم، الرجال الذين تسللوا عبر البحيرة: الجيش بدأ الانسحاب عائدا إلى دمشق!

عند ذلك أصدر ظاهر أوامره بالخروج لملاحقتهم وسلْب كلّ ما معهم.

لقد تقطّعت أمعاء الوزير قبل أن ينفِّذ عهده لنفسه ولعساكره بالعودة إلى دمشق حاملا رأس ظاهر.

في تلك الظهيرة المثقلة بلهيب صيف لا مثيل له، فُتحت بوابات طبرية، وبعد أقل من ساعة، أدركوا الجيش المنسحب، وبدأت تلك المعركة التي حسمها موت الوزير قبل أن تحسمها سيوف جيش ظاهر.

تفرّق الجنود، ولم يكن هناك ما هو أسهل من قتْلهم في تلك الفوضى.

راح الجنود الهاربون يتخفّفون من كلّ ما يحملون: أسلحتهم وأمتعتهم. أما المدافع، فبدأوا بإلقائها داخل الآبار أو دحرجتها نحو الوديان، كي لا يستولي عليها ظاهر. لكن السرعة التي تقدّم بها جيش ظاهر حالت بينهم وبين إلقائها كلّها.

بعودته إلى طبرية حاملا كل تلك الأسلحة الكافية لتأسيس جيش جديد، تغير كلّ شيء.

***

كانت تلك السنة أخصب السنوات التي عرفتها طبرية، جمعَ المتسلّمين في السّراي وأمرهم أن يكتفوا بالخُمس، بدل الربع، ضرائب ميري. وحين اعترض بعضهم، قال بحزم: إذا أخصب الفلاحون أخصبت الأرض، وكفاني وكفاكم غنىً أن نراهم أغنياء.

***

القلب الوحيد الذي ظلّ منهكا بحزنه: قلب شمّة.

لقد انتصرت طبرية، لكن كلَّ شيء بالنسبة لها انتهى.

كان الجميع يتوقّع منها أن تُلقي سيفها وطبنجتها، وتحلّ ذلك الشّال المعقود على رأسها بإحكام. لكنها لم تفعل.

ظلّت صامتة. تنهض صبحًا؛ تتجهّز، وتمضي إلى أعالي الأسوار، في انتظار بداية معركتها.

تلك الذّكريات القاسية

نظر ظاهر إلى الغرب، فوجد أن كل الطرق إلى عكا أصبحت سالكة.

امتطى حصانه، وانطلق إليها يرافقه عدد من جنوده.

أمضى ليلته الأولى في خان الإفرنج؛ وفي اليوم الثاني، وبينما هو يتجوّل في شوارع المدينة، فوجئ بنفسه وجهًا لوجه مع محمد العلي.

كانت المفاجأة صاعقة بالنسبة له: *" ها هو، زوج أختك، حليف سليمان باشا الميت، أمامكَ يا ظاهر، وها أنت في مرمى طبنجته أيضا!"*

أشار ظاهر إلى رجاله، فأطبقوا على محمد العلي. لم يتدخّل أي من الفرنسيين والأجانب في الأمر، وقد رأوا أنهم ليسوا طرفًا في ذلك الموقف المعقّد.

نكز ظاهر حصانه فانطلق الحصان، ثم عاد، وانطلق من جديد وعاد؛ كما لو أن الحصان غدا في تلك اللحظة أفكارَه التي أصبح نهبًا لها. وحينما توقّف أخيرًا، صاح بجنوده: إلى طبرية!

***

كل شيء كان يتوقّعه ظاهر إلّا أن يجد نفسه وجها لوجه مع محمد العلي. كم تمنّى ألا يجمعه به مكان منذ تلك الطعنة التي زرعها عميقًا في ظهره، حين حالف سليمان باشا مقابل وعد كاذب. وحاصر بحراب جنده طبرية. كم تمنّى ألا يجمعه به مكان منذ تلك الطعنة التي زرعها عميقًا في قلبه، بعد أن فعل ما فعله ببِشْر!

"لو لم تأتِ شمّة، إلى طبرية، لو لم تترك زوجها هناك في الدّامون، أكنتَ ستجرؤ يا ظاهر على فعل ما فعلتَه. إنه في النهاية أب أبناء أنتَ خالهم.؟!"

***

طوال الطريق، راح ظاهر يروِّض غضبه، كما يروّض حصانًا جامحًا؛ وقد نجح كثيرًا، لكن الغضب عاد وقذفه في الجوّ إلى أبعد مدى، فحدّق في السماء التي بلا حدود، فلم ير غير فراغها!

كان يمكن أن يغفر لمحمد العلي كل شيء، إلا موت بشر وغزالة، وعمر وظاهر الصغيرين.

في ذلك اليوم البعيد، فاجأت غزالة بشر بذلك الطلب- الأمنية: لقد جئنا من مضارب عربنا وسكنّا طبرية، وحدث الذي لم أكن أتوقعه، أنني أحببتها! لقد رأيت بحر الجليل، ولا أريد أن أموت قبل أن أرى بحر عكا.

- تريدين الذهاب إلى عكا؟

- ولم لا يا ابن العم، فالأمان انتشر، وقوافل طبرية إليها لا تتوقّف، فلا تحرمنا من أن نرى البحر الكبير!

تحدّث بشر مع ظاهر، فقال له ظاهر: لا تحرمهم من هذا يا بشر. بحر عكا غير بحر الجليل، خذهم، لا تتأخر. من لم ير البحر لا يستطيع أن يقول إنه رأى الدّنيا!

وحين قال له بشر، سنخرج مع أول قافلة. قال ظاهر، بل تخرجون، غدًا أو بعد غد، برفقة فرقة من جنودنا.

كانوا قد أصبحوا على بعد نصف ساعة إلى الغرب من صفّورية، حين وجدوا أنفسهم أمام فرقة يقودها محمد العلي. قبل أن يكمل بشْر طرْح السّلام، كان محمد العلّي قد امتشق سيفه وأغار عليه. صاح بشْر الذي لم يعرفه: أنا بشر، من جيش ظاهر! لكن السَّيف واصل اندفاعه. بسرعة، استطاع بشر أن ينحني محتميًا ببطن فرسه وقد تعلّق بركاب سرجها الأيمن. وهو يصيح برجاله أن يبتعدوا بغزالة وولديه.

استدار محمد العلي، وأغار ثانية، لكن بشر كان قد عاد إلى ظهر فرسه، واندفع بعيدًا. فتابعتهم السِّهام ممزقة أجسادهم. استدار بشر ثانية ليُغيْر، ففوجئ بصرخات امرأته وولديه، التفتَ خلفه فوجدهم ممزقين بسهام لا عدد لها. جنّ، وواصل اندفاعه ومن معه. لكنهم فوجئوا بعاصفة قوية أخرى من مئات السِّهام التي انطلقت صوبهم، وأصاب عدد منها بشر في صدره وبطنه.

استطاع بعض رجاله الانسحاب على عجل، في الوقت الذي واصل فيه هو هجومه، وكأن كل جيوش العالم معه.

سقطت فرسه، وسقط بشر، لكنه وقف وتقدّم مشرعًا سيفه. هبّت السهام من جديد. غاصت في جسده خارجة من ظهره. التفتَ وراءه، فرأى عائلته جثثا هامدة. راح يزحف محاولا الوصول إليهم، لكن موجة جديدة من الأسهم انطلقت نحوه من جديد. عشرات منها انغرست في جسده. رفع رأسه، فرأى محمد العلي يُعطي أمره مرّة أخرى! فطارت الأسهم عاليا، وبصعوبة استطاعت الوصول إلى جسده بسبب وجود مئات السهام التي انزرعت فيه.

نظر محمد العلي إلى تلك الجثث التي تناثرت، وضحك: لنر كم دمعة سيذرف ظاهر فوق أجساد هذه القنافذ!

***

بعد ساعات وصل ظاهر ومعه بعض الجنود الذين نجوا، بحث في تلك الساحة الواسعة التي أشار إليها الجنود، فلم ير غير جمهرة من النسور والعقبان تتصايح، تندفع وتتراجع متعاركةً. ترجّل عن حصانه وراح يركض نحوها. طارت. وفي تلك اللحظة، لم ير سوى أربع قنافذ ضخمة هامدة.

ارتجف قلبه، تقدّم أكثر، فأبصر الوجوه والأصابع الغارقة في الدماء الناشفة.

حين سمع خطوات الرجال خلفه، رفع يديه بموازاة رأسه مشرعًا راحتيه. فتراجعوا بعيدًا بصمت.

بعد زمن طال كأنه العمر، انحنى وبدأ بسحب السهام من جسد بشر، ثم من جسد غزالة وجسدَي عمر وظاهر الصغيرين، في الوقت الذي راح فيه صياح النسور والعقبان يتعالى أكثر فأكثر، وقد رأته يسرق فرائسها! وهبط بعضها قريبا منه يرفّ بجناحيه ويصيح، دون أن يجرؤ على التّقدم.

كان جسد بشر قد تقطّع تمامًا. انحنى ظاهر ليحمله، فارتفع صياح النسور والعقبان وخبْطُ أجنحتها أكثر فأكثر.

نظر إليها بعينين مجنونتين، وعاد وانتصب، فصمتت جميعها. هدأت كما لو أنها تحوّلت إلى حجارة.

في تلك اللحظة الغريبة، تراجع ظاهر، تاركا الجثث الأربع في مكانها، وهو يحدّق في الجوارح التي راحت تتقدّم نحوها بحذر.

على بعد مائة متر أحسّ بكعبه الأيمن يرتطم بحجر؛ توقّف، ثم جلس، دون أن يرفع عينيه عن النسور والعقبان التي راحت تلتهم الأجساد على عجل.

اقترب أحد رجاله، وقال هامسا: النسور تأكلهم يا شيخ!

فرفع ظاهر يده، وأشار له أن يجلس بجانبه، فجلس.

بعد نصف ساعة تقدّم آخر، وقال: علينا أن نأخذهم وندفنهم يا شيخ.

فرفع يده ثانية، وأشار له أن يجلس، فجلس.

بعد ساعة، كان كل رجاله قد جلسوا يحدّقون حيث يحدِّق.

- حرام هذا يا شيخ. والله حرام!

التفت ظاهر نحو مصدر الصوت وقال شبه هامس: وما الحرام في ذلك؟!

- يجب أن نحملهم إلى طبرية لندفنهم.
- تريدون إعادتهم للتراب؟!
- أوليسوا مثل بقية خلق الله من تراب، وإلى التراب يعودون؟!
- دعوهم. فليحلِّقوا قليلا مع هذه النسور والعقبان، فقد يرون البحر الذي تمنّوا رؤيته. لا تستعجلوا زجّهم في العتمة، دعوهم. سيعيشون في أجساد هذه الطيور الآن، ويموتون فيها بعد، كلما مات نسر أو عقاب فوق تلك القمة، أو تلك، أو تلك. وخبأ وجهه.

غابت الشمس، ثم أشرقت من جديد. أبعد راحتيه عن عينيه، فلم يكن قد تبقّى منهم سوى بعض العظام.

وقف وسار نحوها، فرَدَ عباءته على الأرض، وبرفق وضع ما تبقى منهم فوقها، وعقَدَها، ثم حملها فوق ذراعيه، كما يحمِل طفلا وليدًا، وظل يسير على قدميه، ورجاله خلفه، حتى وصل إلى طبرية.

***

أصبحت المسافة بين عكا وشاطئ بحر الجليل أطول مسافة يقطعها ظاهر في حياته! كلما كان يجتاز جزءا منها تطول أكثر. مرّة يفكر في قتل محمد العلي في الطريق، ومرّة يفكر في حبسه. مرّة يطلّ وجه شمّة وعيون أبنائها، ومرّة عظام بشر وغزالة وولديها، ومرّة تدوّي في أذنيه مدافع سليمان باشا، فتحتلّ رأسه تلك الظلمة القاسية التي أطبقتْ على سماء طبرية وقلوب أهلها.

لكن الطريق انتهى في النهاية، مثلما تنتهي كل الطرق التي يعرف الناس محطتهم الأخيرة فيها!

نظر صوب جنوده، وقال: لا أريد أن أراه، ولا أريد لأحد أن يراه. ولتنسوا جميعا أنه لدينا!

***

في ذلك الصباح الذي وصلوا فيه إلى طبرية، رأى ظاهر أخته تخرج متوجّهة كعادتها نحو أعالي الأسوار. ألقتْ عليه تلك النظرة المرهقة؛ ولوهلة كان على وشك أن يقول لها شيئا، لكنه امتنع في اللحظة الأخيرة.

حينما اجتمعوا مساء، قال ظاهر: لقد قمنا اليوم بضم شفاعمرو والدّامون وضواحيها لطبرية! ولم يضف شيئًا غير ذلك.

***

في صبيحة اليوم التالي، نهض مبكرًا كعادته، وتناول طعام إفطاره المعتاد؛ لكنّ ما كان يؤرّقه أكثر من أي شيء آخر هو: ما الذي ستفعله شمّة حين تستيقظ!

انتظر كثيرًا. أشرقت الشمس، وارتفعت، حتى بات على يقين من أن شمّة خرجت دون أن يراها. نهض. سار نحو المكان الذي تنام فيه في السراي. قبل أن يصله، ظهرت نجمة. أشارت إليه من بعيد أن يبقى في مكانه. توقّف. حين وصلته أمسكتْ به من يده وابتعدا: دعْها. إنها نائمة!

الحياة.. أو ما يشبهها!

مضى الزمن الذي كان فيه ظاهر يخشى الولاة، وجاء الزمن الذي يخشى فيه خلْعهم! فسعد باشا الذي خلِف عمّه سليمان، وسيمتدّ حكمه لولاية دمشق أربعة عشر عاما -وهو الشيء الذي لم يظفر به وال من قبل- كان حريصًا على ألا يكون بينه وبين جيش ظاهر أيّ تماس.

***

جلس ظاهر يراقب قوافل الجمال المحمّلة بالقطن والقمح والسمسم والسمك المجفف الذاهبة إلى عكا.

قال للدّنكزلي: يا أحمد. كل هذه الجِمال لنا؟!

- بالطبع لنا يا شيخ!

- أتعرف ما نحن بحاجة إليه اليوم؟

- لا أدري يا شيخ، فالتجارة لم تعد بأيدي الأجانب، والأمن يعمّ منطقتنا والحمد لله.

- نحن بحاجة لأكثر من ذلك يا أحمد. نحن بحاجة للبحر الكبير، بحاجة لمكان، إذا ما جلسنا على شرفته نستطيع أن نرى العالم منه ويرانا العالم.

- أنت تفكر في عكا إذن يا شيخ!

- أنا لم أفكر إلا فيها منذ سنوات، وحينما كنا نمضي إلى صفد وجدِّين والناصرة وسواها، لم أكن أفكر في هذه المدن والقلاع، بل في عكا.

- لكن عكا تعني الكثير لوزير صيدا يا شيخ. كما تعني الكثير للدولة.

- أعرف هذا، ولكننا لم نقطع هذه المسافة من القتال من أجل حقّنا وحقّ الناس لننهزم أمام أسوار عكا المهدّمة! للدولة يا أحمد موانئها من يافا إلى صوْر إلى بيروت. ولن نستطيع أن نحقق شيئا إذا ما بقينا هنا على حافة هذا البحر المغلق والمدينة المحاطة بالجبال من كل جانب!

***

لم تكن قوة متسلّم عكا تتعدّى المائة جندي؛ يحفظون الأمن ويجبون الضرائب. لكن المتسلِّم وجنوده أيضًا، كانوا أسرى داخل تلك الأسوار المهدّمة التي لا تحمي أحدًا، فهم لا يجرؤون على مغادرة المدينة، لأن البدو، وبخاصة عرب الصقر الذين لا يعرف المرء متى تهبّ رياح هجماتهم، يترصّدونهم كما يترصّدون سواهم.

هكذا غدت الحياة، أو ما يشبهها! سجينة خلف أيّ حجر يمكن أن يحمي من يحتمي به، وتحوّلت السهول الخصبة الممتدّة من حيفا إلى رأس الناقورة، إلى أرض قاحلة تغمرها المستنقعات وتعصف بها الأمراض.

***

في ليلة مقمرة طلب ظاهرُ القاضي والمفتي والإمام، فحضروا. أملى على الإمام رسالة موجّهة إلى متسلِّم عكا، يخبره فيها بأن عليه مغادرة المدينة! وكتب رسالة أخرى إلى سكانها: من يبقى فيها لا يلومنَّ إلا نفسه!

في ذلك الصباح الذي انطلق فيه رسول ظاهر إلى عكّا، انطلق رسول آخر إلى وزير صيدا، طالبا منه أن يسمح له بتسلّم عكا، بعد أن غدت خالية! متعهدا له بأن يوفي بكل ما عليه للولاية من أموال. ومتعهدًا بأن يعمّر المدينة وينشر الأمن في ضواحيها كما نشره من قبل في طبرية وسواها.

***

راقب ظاهر رسوله إلى صيدا يبتعد، فسألته نجمة: كأنك تعرف جواب الوزير قبل أن يصلك!

- بل قولي: هذه رسالة لا أنتظر جوابها يا أمي!

بمجرد أن توارى الرسول خلف التلال الغربية، صاح ظاهر: إلى عكا.

وما هي إلا دقائق حتى بدأ ثلاثة آلاف جندي بالتجمّع، كما لو أن الأرض انشقت وأخرجتْهم.

الشمس وأجنحة النوارس

شدّ على يد ضْليبِي، فخطا ضْليبِي نحو أبيه وعانقه طويلا قبل أن يُفسح لأخوته عثمان وأحمد وعلي وسْعيد معانقة أبيهم.

- مسؤوليتك طبرية يا ضْليبِي. فلتكن أكثر خصبًا وعدلا وأمانًا مما كانت عليه.

- ستبقى شيخها ومتسلِّمها حيثما كنت يا أبي.

- أستودعكم الله.

التفت إلى نجمة وقال: أنتِ جاهزة؟!

- جاهزة، ولكن أكثر ما يتعبني أنني لن أمضي إلى عكا على قدمي.

- هذا يعني أنك ما زلت والحمد لله قوية وبحاجة إلى عريس!

- أنا يا شيخ، ولماذا العريس؟ من يسمعك تقول هذا يعتقد أنني سأعيش حتى بلوغ الستين!

ضحك ظاهر، ضحك من كل قلبه، حتى نزلت دموعه.

- تضحك؟ اللهم اجعله خيرًا.

- ليس هنالك من خير أفضل من وجود عريس.

- والله! سأظل في طبرية، إن واصلت هذا الكلام.

وقبل أن يلملم ضحكته، لمح ذلك الفتى الذي راح يتقدّم باتجاهه، حاملا تلك الصرّة. رأته نجمة. حوّلت نظرها للبعيد، كما لو أنها لم تنتبه.

خفق قلب ظاهر بشدّة. وحيّره ذلك، حيّره أن هذا القلب لم يزل قادرًا على رجِّ صدره بكلِّ تلك القوة. تناول ظاهر الصرّة الصغيرة. التقت عيناه بعيني يوسف، فتذكر يوسف الصرّة التي سلّمه إياها ظاهر قبل سنوات. انتظر يوسف[1] أن يناوله

---

[1] - ارتحل يوسف العُمَر إلى عكا بعد ذلك ومنها إلى قرية عبلِّين الساحلية، واستقر فيها. كان متدينا عاقلا وحكيما منصرفا إلى إقامة الأبنية والجوامع، وهو الذي بنى جامع طبرية سنة 1743 كما بنى جامع عبلِّين سنة 1767 ودفن فيه. نُقل عنه: الناس رياح فابتعد بقنديلكَ قبل هبوبها!

ظاهر الصرّة، وبنظرة واحدة يخبره أن عليه الاحتفاظ بها كما احتفظ بأختها. لكن ظاهر لم يفعل، وقد رأى الفتى، الذي ابتعد، يحدّق فيه من خلف الخيول.

وضعها في الخرج الأيمن مباشرة. تلك كانت الوسيلة الوحيدة التي لا تتيح له أن يتشمّمها. لكن رائحة ما، طيف رائحة أفلتَ، لم تكن الرائحة التي يعرفها. أيكون قد نسي الرائحة. أتُنسى الرائحةُ كما تُنسى الوجوه؟ أيعمى الأنف كما تعمى العين؟!

نكز حصانه فجأة، فوجئ الحصان بذلك فقفز، قبل أن ينطلق.

أوقفه ظاهر، ونظر صوب نجمة: نسير على بركة الله.

بعد نصف ساعة من طبرية. قالت له هامسة: يهيأ لي أن حصانك مرهق يا شيخ، أتُراه يحمل أحدًا غير فارسه، ولكن ضعف بصري يمنعني من أن أراه؟!

***

في نهايات ذلك الصيف، كانت رائحة المستنقعات والأكوام العالية لمخلَّفات صناعة الصابون المحيطة بعكا، تملأ الجو برائحة خانقة. لاحت لهم الأسوار المهدمة، فبدت عتبات المدينة وكأنها مثقلة بحرب دامية، رغم أن ظاهر لم يكن مضطرا لإطلاق رصاصة واحدة كي يبسط يده عليها.

- رائحة لا تحتمل. أعرف ذلك. قال لنجمة، كما لو أنه يعتذر.

- ستزول!

- ومستنقعات..

لم تتركه نجمة يكمل: ستجفّ!

- وأسوار مهدمة.

- ستُبنى من جديد!

- ومدينة صغيرة!

- ستُعمَّر! وهل تعتقد أنني جئت معك لو أنك لم تعدني بكل هذا؟! ثم أوقفت حصانها والتفتت إليه:

- كأنك خائف يا شيخ!

- نعم يا أمي، أنا خائف، فلا يمكن أن أكون ظاهر الشجاع الذي تعرفينه، لو أنني خفت من الاعتراف لك بأنني خائف! فما أفكر فيه كبير إلى درجة أنني لا يمكن إلا أن أخاف عليه، حتى قبل أن يوجد تمامًا.

وابتسم، محاولا مغالبة كل تلك الأحاسيس الجياشة:

- ثم ستتعبين معنا. كان يمكن أن تبقي في طبرية إلى أن نعيد بناء عكا.
- هذا ما لم أكن مستعدة له يا شيخ. أتعرف ما الذي يجعل قلبي متعلّقًا بطبرية دائما؟
- ما هو يا أمي؟
- ما يجعل قلبي متعلّقًا بها، أنني رأيتها تكبر على يديك، كما رأيتك تكبر على بديّ، وليس هنالك ما هو أجمل من تذكُّر ولدكَ طفلا، ومدينتك طفلة أيضا! شغلني هذا الأمر كثيرًا يا شيخ في الأيام الماضية؛ وفي لحظات كنتُ على وشك أن أقول لك: لن أترك طبرية! ولكنني فكّرت: أنا لن أراك من جديد طفلا يكبر، ولكنني سأرى مدينة طفلة تكبر على يديك. أتراني يا ظاهر، وقد شختُ، لم أعد قادرة على مراقبة الأولاد يكبرون أكثر وأكثر ويبتعدون، فأصبح مرأى المدن وهي تكبر أمامي أرحم؟!
- والله يا أمي، لا أعرف من أين تأتين بهذا الكلام، الذي يفيض حكمة؟!
- قلت لك، عليك أن تسير حافيًا لتفهم الأرض ونفسك أكثر، ولكنك لا تطاوعني دائما.
- وكيف لا أطاوعك يا أمي، وهل كان يمكن أن أكون ما أنا عليه اليوم لولا مشيي حافيا إلى جانبك؟!
- لكنك استبدلت قدميك بحذاء! أيستبدل الإنسان حياةً بجلد حيوان ميت؟!
- أعدكِ، سأسير معك حافيا كما تريدين، ما إن نجفِّف هذه المستنقعات ونرفع تلك الأسوار.
- وهل تعتقد أنني سأنتظر إلى ذلك الحين. عليك أن تحسّ بهذه المدينة يا ظاهر اليوم، كما أحسستَ بطبرية أمس، حتى تتذكّرها أكثر عندما تكبر. هناك أناس كثيرون، يا شيخ، يسيرون على هذه الأرض لكنها لا تحسّ بهم، لأنهم لم يحسّوا بها بعد. ولذلك، طال الوقت أو قصر ستُلقي بهم بعيدًا عن صدرها؛ وأعرف أن الواحد منكما: أنت والأرض؛ أحس بالآخر، ولكنك بحاجة لأن تقترب منها أكثر.
- أعدك إذن، غدًا بعد صلاة الفجر سنسير معًا على رمل الشاطئ.

- أتعرف يا شيخ، أنا لا أعتب على أبي، رحمه الله، إلّا في شيء واحد: أنه عندما سمّاني نجمة، أبعدني كثيرًا عن الأرض، ومنذ أن وعيت اسمي لا شيء عندي أهمُّ من اختصار المسافة بيني وبينها.

***

تعالى صوت النوارس. ملأت الجوّ بأجنحتها، فبدت الشمس أشبه بطفل صغير يحاول الاختباء خلف أجنحتها دون جدوى.

وفي اللحظة التي عبروا فيها باب عكا، رأوا ذلك القرص الأحمر المهيب، يختفي في البحر.

***

لم يكن ثقل الهواء الجاثم على الصدر، والحرارة التي لا يطفئها موج البحر، والبعوض الذي يئز في الظلام ككائنات خرافية، وحدها ما سرق النوم من عيني ظاهر.

بحث في الظلام عن حذائه، وجَدَه، دسَّ قدميه فيه. وكمن يتذكّر شيئا غاليًا نسيه طويلا، وتذكّره فجأة، عاد وخلع الحذاء، وخرج، محاذرا أن يزعج النائمين.

كان جنوده يملأون المكان. تمنّى لو أن بِشْر هنا، فقد كان يستحق أن يرى بعينيه ما حققه بدمه!

صعد الحجارة الكبيرة وجلس قبالة البحر.

لم يكن ثمة شيء يمكن أن يقف بينه وبين الرّيح القادمة من بعيد. ريح هادئة رطبة، عبرت البحر دون أن تعرف أن ثمة رئتين جائعتين لهذا الهواء تنتظرانها هنا.

***

هدر البحر، غاصت قدماه في رمل الشاطئ أعمق وأعمق، لم يعد جسده هناك، لم يعد يحسّ به، كان قد تحوّل إلى سلسلة طويلة من ذكريات لا غير.

على صوت نجمة فتح عينيه: مرّة أخرى تسبقني يا شيخ لتختلي بالبحر.

استدار. كانت نجمة تتقدّم نحوه، وخلفها هناك ذلك السور العالي. خلفها عكا الجديدة!

امرأة جميلة في بلاد واسعة

- منذ زمن لم يأتنا أحد يشكو يا أحمد؟!

- الحمد لله يا شيخ، كل الطرقات أصبحت آمنة، ولم يعد هناك من يجرؤ على إلحاق الأذى بالناس. قال الدنكزلي.

- لكنني لست مطمئنًا أيضًا!

- ولماذا لا تكون مطمئنًا يا شيخ؟!

- أريد أن تُحضر لي واحدة من أجمل البنات إذن!

- من أجمل البنات؟! ولماذا يا شيخ!

- أخطأت، أريد أن تحضر لي أجمل بنت في الجليل.

- وما الذي تريده منها؟

- أحضرها يا أحمد، وإذا ما سألك أحد قلْ له إن الشيخ يريدها في أمر.

خرج أحمد الدنكزلي من سراي ظاهر حائرًا، وهو يتساءل عما يدور في رأس الشيخ: *"هل يريد أن يتزوّج؟! ولكن الناس لا تتزوج هنا بهذه الطريقة"!*

بعد يومين وصلت صبية جميلة، وبرفقتها أخوتها الذين لم يقبلوا أن تمضي وحدها، حتى لو كان الشيخ هو من يطلبها!

طلب من نجمة أن تأخذها إلى الدّاخل، وجلس يتحدّث مع أخوتها.

حين خرجت كانت الأساور والعقود الذهبية تكاد تخفيها!

تأمّلها كل من هناك، فغمرت حيرتهم عكا وشاطئ بحرها.

- اسمعي يا ابنتي، أريدك في أمر ضروري، ووالله لو أن لي ابنة جميلة مثلك لأرسلتها مكانك! فهل تقبلين بعمل شيء كنت سأرسل ابنتي إليه لو أنها مثلك؟!

- أنا حاضرة يا شيخ.

- أريدك أن تخرجي من هذا السّراي وتطوفي في أنحاء الجليل وحيدةً.

- وحيدة يا شيخ؟!

- نعم.

- وكل هذه الحليّ تغطّيني؟!

- نعم يا ابنتي.

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك تعودين إلى هنا.

تردّدت الفتاة، فطمأنها ظاهر، لو كنت أعرف أن أقلّ مكروه يمكن أن يصيبك لما أرسلتك. أحبّ أن أتأكد من شيء يا ابنتي، ولن أتأكد منه إلا إذا أرسلتك في هذه الرحلة.

التفتتْ إلى أخوتها، فوجدتهم يهزّون رؤوسهم موافقين.

***

راحت الفتاة تصعد جبلا وتنزل واديًا، وتخرج عن الطرقات، وتعبر حقولا، قرى ومدنا.

بعد أربعة أيام عادت إلى ظاهر.

متعبةً كانت.

طلب من نجمة أن تعتني بها، فأخذتها. أسلمتْها إلى عدد من النساء اللواتي يعملن في السّراي. وحين انتهين، جاءت نجمة وزيَّنتها بكل ما كانت تتزيّن به من أساور وقلائد، فتساءلت الفتاة: هل سيرسلني مرّة ثانية؟!

- اطمئني لن يرسلك.

حين خرجت، أحسّ ظاهر بأن تعب الجسد ليس أكثر من جلد ميت ما إن تتخلّص منه حتى يتورّد الجسد من جديد.

- كيف كانت رحلتك يا ابنتي؟

- متعبة قليلا يا شيخ، هذا كل شيء!

- وهل اعترضك أحد؟

راحت الفتاة الجميلة تفكّر، ثم قالت: لا يا شيخ. ولكن أحدهم سألني حين رآني وحدي: إلى أين تذهبين؟!

- وغيره، ألم يعترضك أحد؟

- واحد من رجال الصقر يا شيخ، ولكنني حين أخبرته أنك أنت من أرسلني. قال شيئا لم أفهمه بغضب وتركني.

نظر الشيخ إلى فرسانه، وقال لهم: أريد أن تحضروهما إلى هنا!

فخرج فرسانه على عجل. وما هي إلا لحظات حتى سمعت خطاهم يعودون، وهم يدفعون رجلين أمامهم! فرسانه الذين كانوا يراقبونها خلال رحلتها عن بعد، محاذرين أن تراهم.

سألها ظاهر: أهذان هما؟!

نظرت الفتاة إليهما غير مصدقة عينيها، وهزّت رأسها: هما يا شيخ!

أشار ظاهر أن يأخذوهما، فاختفى الرجلان ثانية.

- هل سأعود إلى أهلي الآن يا شيخ؟!

- نعم، ولكن هذه المرّة ستعودين فوق حصان ومعك فرساني، فقد وعدت أخوتك أن أوصلك إلى باب البيت سالمة.

وقفت الفتاة تهم بخلع ما عليها من حليّ، فسألها ظاهر: ماذا تفعلين؟!

- أُعيدها يا شيخ.

- تعيدينها لمن يا ابنتي، وهي لكِ؟

- لي؟!

***

في صبيحة اليوم التالي، عُلّقت مشنقتان بباب عكا، تأمّلهما الداخلون والخارجون دون أن يفهموا شيئًا، وبعد صلاة الظهر أُحضِر الرجلان وتم شنقهما.

وأعلن ظاهر:

- فليعلم الجميع: سيكون هذا جزاء كل من يعترض طريق امرأة أو رجل أو قافلة في هذه البلاد!

عكا والبحر!

راقب ظاهر الجنود الذين يملأون الشوارع، ويملأون عيون الناس دهشة، فقد انضم كثير من رجال البدو لجيشه، حينما بدأت السهول تضيق عليهم، لفرط ما طاردهم وحال بينهم وبين الوصول إلى الطرقات والقرى.

كانت مهمته الأولى إقصاءهم بعيدًا، كي يتمكّن من العمل على تجفيف المستنقعات، وإزالة كلّ التلال القاتلة من مخلّفات صناعة الصابون. وحين تمَّ له ذلك، أعلن أنه سيرحِّب بكل من سينضمّ منهم إلى جيشه، وأنه سيعفو عن كل من أساء إلى الناس في مالهم وأرواحهم.

بحذر وصلت مجموعة من رجال البدو الضامرين، بعد أن غدا الموت بالنسبة إليهم أرحم من البقاء في البرِّ مطاردين من قبل قوات ظاهر.

وكما لم يتوقّعوا: رحّب بهم ظاهر بنفسه، وحرص على أن تتمّ معاملتهم بأفضل صورة؛ وفي غضون أسابيع قليلة، كان يمكن للناس مشاهدتهم يطوفون في شوارع عكا ببنادقهم الحديثة وطبنجاتهم، وثيابهم العسكرية النظيفة.

هم أنفسهم لم يصدّقوا ما صاروا عليه!

***

لم تصل رسالة من وزير صيدا، الوزير الذي قُيِّدت يداه لأن دمشق كانت تدير ظهرها وكأنها لا تعرف بما يقوم به ظاهر. دمشق التي لم تعد معنيّة إلا بما يدور في دمشق وحدها.[1]

جمع ظاهر وجوه المدينة، وطلب منهم أن يكتبوا إلى وزير صيدا من جديد، فكتبوا، مؤكِّدين له أن ظاهر وحده من استطاع أن يحمي مدينتهم من العُرْبان

---

[1] - أوْلى سعد باشا وزير دمشق اهتمامه لولايته، فأنشأ المباني العظيمة التي ليس لها مثيل في الشرق، مثل قصر العظم المشهور الذي بني عام 1751، وفرض الطاعة والنظام على عسكره ووضع حدًّا لتعدياتهم على الرعية، كما كان متساهلا في إعطاء القروض، فلا يتقاضى أكثر من ستة في المائة فائدة عليها! ولعل هزيمة عمّه سليمان، وموته في حملته على طبرية، من أسباب إحجامه عن إعادة التجربة ثانية!

القادمين من الأراضي الدّاخلية، والقراصنة القادمين من مالطا، الذين كانوا ينشرون الرّعب على طول الساحل، وفي عكا بالذات. وأنه وحده من استطاع أن ينشر الأمن والأمان فيها.

قبل أن تصل رسالتهم إليه، وصلهم خبر وفاته، وإذا بالرسول يعود بالرسالة في اليوم التالي!

بسرعة بدأ ظاهر العمل على انجاز كل شيء دفعة واحدة، الأسوار والبوابتين العظيمتين، والقلعة، التي بنى في داخلها السّراي، لسكنه.

كانت أخبار الصراع على صيدا تتوارد إلى عكا كل يوم. كل يريد الوصول إلى كرسيّها. واستمر ذلك شهورًا طويلة، إلى أن جاء الخبر: بتولي أحمد آغا مهامه وزيرًا لها.

لكن كل ما أراده ظاهر كان قد تمَّ[1].

***

قبل مرور عام واحد، أحس الأجانب المقيمون في عكا بشمس جديدة تبزغ وباطمئنان لم يعرفوه من قبل، فتدفّق على عكا يونانيون وقبارصة. وقد أدرك الجميع أن ليس هنالك من ربح يمكن أن يجنيه المرء أكبر من ربح يأتيه من مدينة يتمّ بناؤها.

وكما كانت الأسوار ترتفع، كانت الطرقات تتّسع وأبواب الميناء تتّسع، والبيوت الجديدة الكبيرة التي بناها التجار تتكاثر، وأصبحت المدينة تستقبل في اليوم الواحد ألف جمل محمل بالبضائع، تعود من حيث أتت محملة بالبضائع.

فتحت أبواب المدينة لتجار روسيا وإيطاليا وفرنسا ومالطة والبندقية، فامتلأت بالمنسوجات القطنية والصوفية والسّكر والأسلحة والورق والأواني الزجاجية، وعادت السفن التي جاءت، محمّلة بهذا كله، ممتلئة بالقطن والكتان والصوف والصابون والقمح والزيت والسِّمسم.

***

ذات يوم كان ظاهر يسير في أحد الأسواق، سمع تصايحًا بين رجلين، فتوجّه نحوهما، وقبل أن يصلهما، قال الأول: ستندم كثيرًا إن لم تدفع لي ما عليك!

فردّ الثاني: لو كانت عكا تخاف هدير البحر لما جلست على الشاطئ!

---

[1] - كتب الرحال سلكويست الذي زار عكا: لو أراد السلطان نفسه بناء ما بناه ظاهر من أبنية، لاحتاج إلى سنين كثيرة.

عند ذلك، ابتسم ظاهر، ابتسم من كلِّ قلبه. ولكنه عاد ولملم ابتسامته.

رآه الرجلان مقبلا، فتباعدا.

- أتتقاتلان، هنا، في عكا؟!

- المعذرة يا شيخ! قالا معًا.

- اتبعاني لأرى سبب خلافكما.

سار أمامهما، وقلبه عامر بنشوة لم يحسّ بها منذ زمن طويل.

في الديوان[1]، أخبره كل منهما بسبب الخلاف، فهزّ ظاهر رأسه، وقال للرّجل الثاني: لم تكن صاحب حقّ! وعليك أن تعيد إليه ماله. أمعك المال الذي يطلبه منك؟!

- لا والله يا شيخ.

- سأدفع له من جيبي إذن، وتدفع لي أنت فيما بعد!

امتدّت يد ظاهر إلى حزامه وأخرج كيسًا مليئًا بالمال. حلَّ عقدته وأعطى الرجل الأول ماله. وقال له: توكّل على الله. فهبّ واقفًا غير مصدّق عينيه.

وحين همّ الرجل الثاني بالانصراف قال له ظاهر: إلى أين؟!

- عليَّ أن أبدأ العمل من فوري حتى أردّ لك الدَّين يا شيخ! فإذا كنت حصَّلتَ له دَينه في لحظات، فأنت أقدر على تحصيل دَيْنك، مني، حتى قبل أن تطلبه!

- ومن قال لك إن لي دَيْنا عليك؟!

- رنين المال في جيب ذلك الرجل الذي ابتعد فرحًا!

- لا. أنت لا تدين لي بشيء، فقد سددتَ دَينك لي حتى قبل أن أدفع للرجل!

- وكيف كان ذلك يا شيخ؟

- لقد قلت شيئًا أعجبني!

- وما الكلام الجيد الذي يمكن أن يقال في لحظة شجار ويُقدَّر بالمال؟

- لقد قلت شيئًا جميلًا عن عكا، وعدم خوفها من البحر. أعِدْه!

جمع الرجل نفسه باحثًا عما قاله، وأعاد جملته ثانية بتردد: لو كانت عكا تخاف هدير البحر لما جلست على الشاطئ!

- نعم. إنها هي، ولكن أريد أن أسمعك تقولها بقوة أكبر.

---

[1] - الديوان هو سجل مجلس السلطان، أو مجلس الحكام والولاة.

فأعاد الرجل: لو كانت عكا تخاف هدير البحر لما جلست على الشاطئ!

- انطلق في سبيلك الآن. ولا أريد منك سوى شيء واحد: هو أن تُعيد ما قلْته كلما كان لذلك موقع في حديث مع من تعرفهم!

***

بعد أيام سمعها ظاهر على لسان امرأة، وبعدها على لسان طفل، ثم على لسان رجل، كانت الكلمات تختلف قليلا لكن معناها لم يكن يتغيّر.

***

حين وصل الدّنكزلي إلى بيت ظاهر، قالوا له: سبقك الشيخ إلى أعلى السور.

من بعيد، استطاع ظاهر أن يميّزه من بين مئات الناس، ظلّ يراقبه، إلى أن وصل. كان الدّنكزلي يلهث.

- ما هذا يا أحمد؟ هل تراك تلهث فعلا أم أنني أتخيّل هذا؟!

- ألهثُ يا شيخ؟

- هل ما زالت أمورك جيدة؟!

- والله لو كانت جيدة لما رأيتني لاهثًا! البرَكة فيك يا شيخ!

- أنا؟! إن لدي علّة مختلفة يا أحمد، هي أنني ألهث عندما أنزل درجات السّور! لكنني حين أصعد لا أحسّ بأي إعياء!

ضحك الدنكزلي: وما الجديد في هذا يا شيخ؟! منذ عرفتك وأنت هكذا!

- تجاملني يا أحمد، ولكن لا بأس. سأختبرك في شيء آخر غير صعود الأسوار. أنظر إلى هناك.

- إلى أين، إلى هناك، جنوبًا، هل تستطيع أن ترى حيفا من هنا؟

- الصقر المحلِّق لا يستطيع أن يراها من هنا يا شيخ عبر هذا الغبش.

- ولكن العجيب في الأمر أنني أراها يا أحمد.

الأسئلة الصعبة!

لم يتعلّق قلب ظاهر بطفل، مثلما تعلّق بحفيده الجهجاه ابن ولده عثمان.

- منذ متى لم يزرْني الجهجاه يا عثمان؟!

- لا أعرف يا شيخ.

- إذن هيا بنا، فقد تغيّر الزّمان، فيما يبدو، فأصبح على الكبير أن يذهب لتقديم فروض الاحترام للصغير!

توقّف ظاهر أمام حانوت. همَّ عثمان بالدخول وراءه، فقال له: هذا أمر بيني وبين أولادك!

اشترى بعض الحلويات التي يعرف أنهم يحبونها، الحلويات التي ما إن يراها ظاهر حتى يعود له زمن الشام كلّه عابرًا مخيلته خطفًا.

كانت عكا مكتظة في ذلك المساء، حتى أن عثمان، لم يجد طريقًا له، إلا من بين أرجل الجِمَال. يراقبه ظاهر ويتعجّب، ففي حين كان السيف أغلى الأشياء على قلب ابنه عليّ، والجلوس والاستماع إليه على قلب صْليبِي، وطلب الهدوء على قلب أحمد، وصيد سمك البحر، الذي لا يشبه سمك طبرية، على قلب سْعيد، كان السير بسرعة تحت أرجل الجمال أحب الأشياء إلى قلب عثمان.

في البداية، كان ظاهر على يقين من أن جملا ما، أو ناقة، ستسحق ضلوع ابنه ذات يوم، لكن ذلك لم يحدث، فلم يعد يخشى عليه شيئا. لقد خُلق مراوغًا، بكلامه وجسده أيضا!

أما الجهجاه، فكان طفلا مختلفًا تمامًا، لا يتوقّف أبدًا عن طرح الأسئلة. وهكذا قطع ظاهر الطريق، وهو يفكر في أي أسئلة تلك التي سيطرحها عليه حفيده.

***

بمجرد أن رآه يدخل البوابة، ركض نحوه وقفز كجندب كبير وتعلّق برقبة جدِّه. ظلّ ظاهر يسير إلى أن جلس، وقبل أن يسأله عن حاله، سأله الجهجاه:

- نحن في يوم الثلاثاء يا جدّي أليس كذلك؟!

- نحن في يوم الثلاثاء.
- أي أن الثلاثاء هو اليوم يا جدي، صحيح؟!
- صحيح!
- ولكنني حين سألت أبي عنه أمس قال لي إنه الغد! وحين سأسأله عنه غدًا، كما سألته عن يوم الجمعة الماضي، فسيقول لي: إن الثلاثاء اسمه أمس. فما الصحيح يا جدّي؟!

أطرَق ظاهر، وحين رفع رأسه كان يبتسم.

- كأنك وجدتَ الحلَّ يا جدّي؟!
- الصحيح! إنه كلها، إنه اليوم والأمس والغد.
- لا، لا يمكن أن يكون ثلاثة أشياء يا جدّي.
- بل يكون، لأن اليوم يشبهك!
- كيف يشبهني الثلاثاء يا جدي؟ هل أنا الثلاثاء؟!
- لا أنت الجهجاه، أليس كذلك؟
- نعم أنا الجهجاه.
- اتفقنا إذن. اليوم أنت ولد، ثم ماذا تصبح حينما تكبر؟
- شابًا.
- وحينما تكبر أكثر؟
- أصبح عجوزًا، مثلك يا جدّي!
- أنا عجوز؟! لا علينا! ولكن يا جهجاه، ما اسمك وأنت طفل؟
- الجهجاه.
- وأنت شاب؟!
- الجهجاه!
- وأنت عجوز مثلي؟!
- الجهجاه أيضًا.
- يعني أنت الولد والشاب والشيخ. أليس كذلك؟
- هذا صحيح.
- وكذلك يوم الثلاثاء يا جهجاه، فهو الأمس واليوم والغد.
- هل أنا الآن أمس أم اليوم يا جدي؟!
- أنت...، حيّرتني، إذا نظرنا إليك كيوم الثلاثاء، فأنت اليوم الذي لم ينته!

- هذا غير معقول يا جدي، إذا كنت، الآن، أنا اليوم، فماذا سأكون غدا، وأنا موجود اليوم؟

- غدا، أنت الغد يا جهجاه.

راح الجهجاه يقلِّب الإجابة في رأسه زامّا عينيه حينًا ورافعًا حاجبيه حينًا، فالتفت ظاهر إلى أمه وسألها: من علّمه هذا كلّه؟!

- أنت تعرف، منذ أن تكلّم، لا يفعل شيئا أكثر من أن يسأل. قالت. فحين وصلنا إلى عكا، وقف أمام النافذة وسألني: ما هذه؟ فقلت له: نافذة. فقال: لماذا لا يكون اسمها نحلة؟ فقلت له: لأنها نافذة. فقال: سأسميها سمكة إذن. ومن يومها لا يفعل سوى هذا، حتى أجبرني في النهاية على أن أقول له: أغلق السمكة! لأنني لو لم أقل له ذلك، فإنه لا يتحرّك من مكانه!

***

مجرد أن خرج ظاهر، طارت ابتسامته، تذكّر ابنه عليّ، وكيف رجع قاسيا من دمشق، بعد مرافقته لسليمان باشا. كل ذلك الحبّ الذي حاول ظاهر أن يغدقه عليه، لم يكن أكثر من مطر على صخرة صوان. سأله عما حدث هناك. في البداية لم يكن يجيب، وحين كبر قليلا، أصبح قادرا على الفرار إلى مواضيع مختلفة.

في ذلك اليوم البعيد، وقبل أن يصلوا إلى بوابة دمشق، التفت سليمان باشا إلى عليّ، فرآه ثابتا، كما لو أنه لم يمتط الحصان إلا قبل لحظات! *"أيدخل هذا الولد دمشق مرفوع الرأس وأدخلها مطأطئا؟!" انفجر دفعة واحدة؛* لوى عنق حصانه، واندفع صوب عليّ كما لو أنه يُغير عليه، ورفسه بكل قوته، نافثا كل حقده! سقط عليّ أرضًا. تعالت ضحكات الجنود. نفض عليّ ثيابه ومسح دمًا سال بغزارة على وجهه مُغلقا عينه اليمنى ومسببا له ألما فظيعًا؛ أغمض عينه اليسرى، وبتلك العين الغارقة في الدم نظر إلى وجه سليمان باشا وأقسم: سأقتلك لما فعلته! فرفسه سليمان باشا ثانية، لكن عليّ تراجع بسرعة، فلم يتأذّ.

في ذلك اليوم، أطبق عليٌّ على صرخته بكل ما في أضلاعه من قوة كي لا يسمعها أحد، وحدّق بغضب أمامه كأنه يرى صورته في المرآة، وأقسم: *"تلك آخر مرّة ستسمح فيها لإنسان أن يسخر منك يا عليّ"!*

الجنّة المجمّدة والهروب المقدّس!

أكثر ما كان يحرص عليه حسين باشا، أن يدخل الشام كما لم يدخلْها أي وزير قبله. فها هو بعد انتظار طويل، وعمل شاق يصبح وزيرًا لدمشق خلفًا لأسعد باشا. لقد دفع الكثير من ماله كي يصل إلى هذا المنصب، دفع كل أمواله تقريبًا، وحين بات على مشارف اليأس، قال له أحمد آغا رئيس الحجّاب في الأستانة: مبروك!

في ضحى ذلك الخميس، دوَّى قرع الطبول إيذانا بوصوله في موكب عظيم من الخيالة والمشاة المدججين بالأسلحة المزخرفة والزينة الشاملة! ولم تكد شمس اليوم التالي تشرق إلا وكان الأفندية والأعيان يتواردون إلى السّراي للسلام عليه؛ وهناك، وجدوا الناس في انتظارهم، يرشقونهم بالحجارة ويلاحقونهم بالشتائم: عودوا من حيث أتيتم أيها المنافقون الذين لا تفعلون شيئا سوى إعانة الحكّام على ظلم البشَر!

كان على حسين باشا أن يتحرّك بسرعة؛ فأصدر أمرًا بتخفيض ثمن البضائع حتى عاد سعر الخبز إلى سابق عهده بثلاث مصاري، وكذلك بقية الأسعار.

لكن الأسعار الجديدة ما لبث أن عادت متجاوزة ما كانت عليه في السابق، وجاء صقيع آذار قاتلًا بحيث لم يُبق ثمرة على شجرة، أو شتلة في حقل، إلا وأحرقها بذلك البرد الذي لم يروا مثله.

عاد الطقس واعتدل؛ لكن الصقيع ضرب ثانية، وإذا بالحقول والمزارع والبساتين كلها تموت. ولم تكن الغوطة تشبه شيئا مثلما تشبه جثة جنّة مجمّدة. وفي الوقت الذي أصبح فيه الشتاء على مشارف الرّحيل، هبّت موجات مختلفة؛ موجات من دم هزَّت دمشق واختطفت النّوم من عينيها: ففي منتصف الميدان قُتل رجل. وفي تربة البرامكة وجدوا ثلاثة أشخاص مذبوحين. وبعد ذلك بأيام هاج الجنود المغاربة وهاجموا سراي الباشا، وأطلقوا النار على الناس فقتلوا عشرة، وأحرقوا بعض المحلات. وعثر الناس على امرأتين ذبيحتين في تلّة باب الصغير!

بصعوبة استطاع حسين باشا السيطرة على الأمور من جديد؛ لكنه أدرك أن لا شيء سيساعده على البقاء أفضل من تجريد قوة كافية للقضاء على ظاهر! محوّلا أنظار الدّولة وأهالي دمشق إلى مكان آخر: سأمحوه! قالها، كما لو أنه يُكمل جملة سليمان باشا الذي اختطفه الموت على مشارف طبرية.

لكن موعد قافلة الحج الشامي داهمه قبل أن يُنفِّذ وعده.

فتحوّلت القافلة إلى طوق النجاة، والابتعاد عن دمشق باتجاه مكة هروبا مقدّسًا!

***

ركل حسين باشا التراب فتبعثر، مشكّلا عاصفة صغيرة، راقبها قادة جنده، دون أن يجرؤ أيّ منهم على قول شيء.

بجسده القصير وعينيه الغائرتين، وأصابعه القصيرة السميكة، بدا حسين باشا أشبه بقنبلة تتدحرج، وكلما لامست شيئًا انفجرت، ثم عادت تتدحرج من جديد لتنفجر مرّة أخرى وأخرى!

راقبه قادة جنده يبتعد وقد قفز فوق حصانه مثل مخلوق غريب.

ألقى نظرةً على القافلة، وصرخ بأعلى صوته: لن أدفع لهم قرشًا واحدًا، هؤلاء البدو، قُطّاع الطّرق!

قافلة من ستين ألف حاج وجندي، كان مشهدها كافيًا ليملأ قلبه بغرور يضاعف حجم جسده عشر مرّات على الأقل. ولم يكن هناك غرور على ثقة بيقينه في أيّ يوم من الأيام، مثل غرور الجهل!

***

راقب رجالُ بني صخر وبني عَنِزَة وبني عطيّة وبني عقيل والسَّرديَّة وحلفاؤهم، بصمت، القافلة وهي تمرّ، وبدوا كما لو أن الأمر لا يعنيهم بعد أن سمعوا ما قاله الوزير لرُسلهم.

استداروا عائدين، تواريهم الكثبان المضاءة بوهج شمس نيسان الليّنة، كما لو أنهم لن يعودوا إلى الموقع الذي كانوا فيه أبدا.

ابتسم حسين باشا، وتلفّت صوب بعض قادة جنده الذين حذّروه، وقال: كنت أعرف أنهم أجبن من أن يواجهوا جيش الشّام. وها أنتم ترون ذلك بأعينكم!

لكن أحدًا من الحجاج، أو الجنود، لم يطمئن لعبور القافلة بذلك السّلام الغريب.

***

ذات مساء وصلته أخبار ما قام به حسين باشا، ورفْضه دفع الأموال للبدو، فأدرك ظاهر أن عليه التحرّك بسرعة أكبر لتحصين عكّا وحيفا.

اختلى بنجمة، قال لها: حمدا لله أنك لم تذهبي في قافلة الحج تلك!

كانت نجمة قد أعدّت كلّ شيء لرحلة العمر الطويلة إلى مكة، لكن وصول أخبار تولي حسين باشا حُكم ولاية دمشق، وتهديداته لظاهر، جعلتها تعيد النظر في كلّ شيء. لكن ما فاجأ ظاهر أنها راحت تدعو كل من تعرفهم بألّا يسيروا مع حسين باشا.

بعضهم سمع كلامها، وبعضهم أحسّ أن دعوتها هذه ما هي إلا بسبب موقف حسين باشا من ولدها!

- حسنا أنك لم تذهبي.

- أتحسّ بما أحسّ به يا شيخ؟!

- كنت سأقلق عليك كثيرًا.

- ولكن قلبي لم يهدأ، فلسبب ما بتّ أخشى على تلك القافلة؛ وقد تستغرب يا شيخ، حتى حسين باشا أنا قلقة عليه! صحيح أنه عدوّك، ولكن ما قد يصيبه سيصيب الحجاج كلّهم.

ثقيلة مرّت الأيام، فالاحتمالات كلّها كانت تنبئ بما لا يتمنّاه قلب أو تتطلّع إليه روح.

***

أشهر قاسية مرّت، ودّعت فيها الأرض ربيعًا لم يعمّر طويلا، وصيفًا متشققا لاهثا!

واثقا كان حسين باشا في طريق عودته؛ فها هو يقهر البدو، ويعيد ترتيب العلاقة معهم *"باللغة التي لا يفهمون سواها: القوة"* وها هو على وشك أن يخطو خطوته التالية: التخلّص من ظاهر إلى الأبد!

كان على يقين من أنه سيستطيع بهذا أن يمسك بزمام الشّام ثمانية وعشرين عاما! أيّ ضعف ما حكمها أسعد باشا!*" ذلك الوزير الرّخو الذي لم يكن يهمّه*

سوى جمع المال وبناء القصور، حتى لو رأى شتجيّ[1] يمتطي أمّه! ما الذي كان يجعل ذلك الأفّاق يسكت عن استيلاء ظاهر على حيفا؟ ما الذي جعله يسكت عن استيلاء ظاهر على الطيرة والطنطورة وسواها وهي تابعة لدمشق؟"

***

حدّق حسين باشا في الأفق فرأى لونًا آخر، كامدًا، غير لون الصحراء.

خفق قلبه، لكنه تماسك من جديد. نظر إلى مَن حوله، فرآهم يحدّقون في ذلك السّور الطويل الذي يسدّ الطريق ويُغلق الأفق.

أعطى أوامره بالتوقّف، وهو يعرف أن أمرًا كهذا بحاجة للكثير من الوقت كي تنفِّذه قافلة طولها أميال.

كان على وشك أن يرسل أحد جنوده لاستطلاع الأمر؛ وقبل أن يفعل ذلك، أبصر عباءة عظيمة قادمة من بعيد، ترفّ.

مرّة ثانية خفق قلبه بشدّة. ومرّ وقت طويل قبل أن يدرك أن العباءة الكبيرة ليست سوى عشر عباءات سود!

رجال أشداء، سمرٌ، نحاف، بعيون صقرية، وأيد جافّة ولحى معفّرة، وقفوا أمامه.

أحاط جند حسين باشا بهم، لكن أولئك القادمين كانوا يعرفون جيدًا ما الذي يريدونه.

على غير عادتهم، لم يلقوا السّلام؛ وقال أحدهم: لم نكن نريد أن نقطع طريقكم وأنتم ذاهبون إلى الله! رغم تنكّركم لعهودكم معنا! لكن الأمر مختلف الآن، لأن طريقكم إلى بيوتكم لا يُلزمنا بأن نكون كرماء معكم. تدفعون ما عليكم، وتمضون في سبيلكم، لا نريد أكثر من هذا. فما بنا رغبة أن نرى نقطة دم تراق على هذا الأرض.

– ما أعطيناكم إياه في طريقنا إلى مكة نعطيكم إياه، نفسه، في طريقنا إلى دمشق. قال حسين باشا.

صمت ذلك الرجل البدويّ طويلا، وقال: لو كنت مكانك لكان لي رأي آخر؛ فأنت بعيد عن دمشق، وبعيد عن مكّة، والشيء الوحيد الذي أنت قريب منه، هذا. وربّت على سيفه ولوى عنق حصانه!

---

[1] – قاطع طريق!

راقبهم حسين باشا يبتعدون، إلى أن تحوّلت عباءاتهم إلى عباءة واحدة عملاقة من جديد.

***

كان البدو قد اختاروا الموقع الأمثل لهم، لخوض معركتهم: فضاء مفتوح صالح لعبور رياحهم وتمزيق القافلة بسهولة.

لا حجر ولا سور ولا شجرة، ولا حتى كثيّب رمل صغير.

الكثبان على الجانبين، بعيدة، والشمس في السماء تُنذر بجحيم لا مثيل له.

صاح حسين باشا: استعدوا.

حين وصل الخبر أخيرًا إلى أولئك الذين في نهاية القافلة، وجد بعضهم أن أفضل وسيلة للنّجاة هي العودة من حيث أتوا: صوب مكة!

قبل أن يبوحوا بما فكّروا فيه، نظروا في عيون بعضهم بعضا وانطلقوا. لكن المفاجأة كانت صاعقة، فما أمام القافلة كان وراءها أيضًا، فارتدّوا عائدين!

حتى تلك اللحظة، لم يكن البدو أكثر من أناس لا يريدون سوى التّذكير بعهد قطعته قوافل الحجاج على نفسها، منذ أيام الدّولة العباسية، بأن تدفع لهم، ما دامت القوافل تمرّ من أراضيهم، وتنعم برغد حمايتهم، فجاء حسين باشا ونقض ذلك العهد بغروره. وها هم قادمون من كل الجهات لتذكيره بالتراجع عن هذا.

عاد حسين باشا ورفض الدّفع من جديد، وحينما أرسل لهم رسولا يخبرهم بذلك، قتلوه في الحال!

***

أظلمت الدّنيا في لحظة واحدة، فعاصفة الجنون التي هبّت من الجهات الأربع، كانت قادرة على سحق تلك الكتل الآدمية التي انفرطت كالرّمل باحثة، دون جدوى، عن جَمل أو حصان تختبئ وراءه، وقد تطايرت السِّهام واندفعت السيوف والرّماح عميقًا في كلّ جسد أمامها.

غُصّت الصحراء برئات مخنوقة بالدّم، وأشلاء ممزقة وخيول وجمال نافقة.

لم يتركوا القافلة تلتقط أنفاسها، فقد كانت العاصفة تهب فتتلوها عاصفة.

أما الشيء الوحيد الذي بدا وكأنه اقتُلِعَ من الأرض، إلى الأبد، فهو: الرّحمة!

بعد ساعات، كان الهجوم قويًّا كما لو أنه لم يبدأ سوى منذ لحظات.

بحث حسين باشا عما يحميه فلم يجد.

قرب العصر، أدرك بعض من في القافلة أن الجِمال والخيول الهائجة استطاعت أن تشقّ برعبها، هاربةً، جدارَ ذلك الجحيم.

تبعوها.

لكن الصحراء نفسها كانت تُطْبق عليهم ثانية.

استطاع بعض الجنود والقادة، بصعوبة، العثور على مخارج مستحيلة، ومعهم تسلل حسين باشا منطلقًا فوق حصان قويّ نحو نقطة لا يراها، دون أن يخطر بباله أن ينظر وراءه لحظة.

***

ما إن بدأت الشمس تميل باتجاه الأفق الغربي، حتى انجلى كلّ شيء. موت في كلّ مكان؛ وعويل نساء يملأ الفضاء الذي اتّحدتْ حمرتُه بحُمرة الدّم الذي غطى الرّمال.

غابت الشمس.فهدأ كل شيء!

ابتعد المهاجمون قليلا؛ وأوقدوا نارهم التي أحاطت بالقافلة كحبل مشنقة.

كانت أصوات الضحكات تصل واضحة مشحونة بانتصارها، وبين حين وحين يتصاعد صراخ امرأة أو فتاة من اللواتي اختلى بهنَّ المهاجمون.

حتى الصباح استمر احتفالهم بالانتصار؛ وعند الفجر هبَّت ريحهم ثانية.

كان كلّ من في القافلة أسرى رعب طاحن، وقد رأوا أنفسهم وحيدين لا أحد يحميهم.

لم يترك المهاجمون رجلا إلا وعرّوه ولا امرأة إلا وعرّوها. عشرات الآلاف كانوا عراة هناك، كما لو أن البشرية لم تهتدِ بعد للثياب!

في حمَّى الرّعب، بزغت فكرة مجنونة لواحدة من النساء، سكبت الماء-الحياة، على الأرض؛ وبذلك الطين، راحت تغطي جسدها ساترة ما بين فخذيها وصدرها. فتبعتها نسوة كثيرات.

لكن ذلك لم يشفع لهنَّ، إذ انطلق المهاجمون يفتّشون عن كل ما خفّ وزنه وغلى ثمنه؛ في صرر الثياب وفي أخرجة الجمال النافقة. وحينما رأوا أحدهم يبتلع خاتمًا شقّوا بطنه. وهكذا، لم تبق بطن كبيرة توحي بوجود شيء في داخلها إلا وشقّوها! ثم استداروا إلى النساء يفتشون فروجهنّ وأدبارهنّ باحثين عبر الطين الناشف، الذي سدّها، عن كلّ ما يلمع!

حين ابتعدوا، كانوا على يقين من أنهم لم يتركوا خلْفهم ما يستحقّ؛ فقد استولوا على كل شيء، المال والجمال والبضائع والنساء الجميلات ونصف الجميلات والمحْمَل الشريف والعلَم النبويّ وأسلحة الجيش الذي أُبيد تمامًا.

هدأ كل شيء فجأة. نظر من بقي على قيد الحياة حوله، فلم يكن هناك سوى الرّمال التي بدت مجرد شاهدة خرساء.

في ذلك الليل، ليلهم الثاني، حملت الرياحُ رائحة الدّم واللحم، فتقاطرت الضباع والهوام والذئاب بأعينها الجائعة من كلّ مكان.

***

بعد يوم طويل أعمى، اهتدى حسين باشا، ومن بقي معه، إلى تلك الجهة التي تشير إلى غزّة. فهي مدينته، ومسقط رأسه وفيها أهله وأقاربه.

***

وصلت الرّايات البيض إلى دمشق مثقلةً بعار الهزيمة.

فانفجرت المدينة كلّها تبكي، بشرها وحجارتها ونهرها وأسوارها وقلاعها وأبوابها.

وضع الجنود في يد المتسلِّم، نائب الوزير، ستَّ رسائل، من بينها واحدة من حسين باشا تطلب منه الخروج لنجدة القافلة. فتناساها، وهو على يقين من أن أحدًا لا يستطيع تقديم شيء لقافلة تفصلها عن دمشق كل تلك المسافات.

أحسَّ الناس بذلك فاندفعوا نحو السّراي يرشقونه بالحجارة والشتائم. وحين يئسوا، نادوا بجمع الدّواب والطعام والملابس للخروج لنجدة من بقي على قيد الحياة. فكادت دمشق أن تخلوا من سكانها بسبب العدد الكبير الذي غادرها.

بعد أربعة عشر يومًا، وصلت قوافل النجدة، لكن الأمر كان قد فات.

***

ضجت البلاد منادية بقطع رقبة حسين باشا وكلّ من له يد في وقوع المأساة. بحثت الدولة عن كبش فداء تُسكت بدمه غضب الناس، فلم يكن هناك من هو في متناول يدها أفضل من أحمد آغا رئيس الحجّاب! فهو الذي قاتل طويلا، بالمال والنفوذ، من أجل تعيين حسين باشا واليًا[1].

---

[1] – كان الولاة يبتاعون مناصبهم بالرّشى أو بالمزاد من دار السلطنة في اسطنبول، والمزايد الأكبر هو الذي يفوز، وكذلك بعض المناصب الأخرى كالدفتردار. وقد تعاقب على المنطقة

في صباح السابع والعشرين من تشرين الثاني سنة 1757، وفي يوم المولد النبويّ، قُطِع رأس الآغا في إسطنبول، وتمَّ عرض رأسه للناس وإلى جانبه كتب بخط عريض:

(هذا جزاء الرجل الذي كان سببا في هلاك الحجّاج)

***

بدأت الدولة البحث عن حسين باشا، مُعطية الحقّ لكلّ من وجده بقطع رأسه، فكتبَ حسين باشا إلى السلطان يخبره أن ظاهر المتمرّد على الدّولة، والرّافض أن يطيعها، وسعد باشا، الوزير المخلوع، الذي يريد الانتقام من الدولة التي عزلته، هما من حرّضا البدو على نهب القافلة[1].

لم تقتنع الدولة بكل تلك الاتهامات، لكنها كانت بحاجة إليها دائما للتخفّف من وزرائها وباشاواتها لتعيين غيرهم والاستيلاء على أموالهم.

لم تجد الدولة صعوبة في الوصول إلى سعد باشا، فقُطع رأسه وحُمل إلى إسطنبول مع أمواله التي تفنّن عثمان باشا الكرجي[2]، وزير دمشق الجديد، في اجتراح المعجزات كي يصل إليها، بالتعذيب والتهديد.

أما ظاهر، فقد تركت الدولة أمره لعثمان باشا الكرجي ليختار الوسيلة الأمثل، للتخلّص منه!

في النصف الأول من القرن 18 أكثر من 40 وزيرا (واليا)، لذلك كان الولاة يرهقون رعاياهم بالضرائب، فيغتصبون ويسخّرون ويختلسون ليعوضوا ما دفعوه ثمنا للولاية.

[1] - بعد تحقيق طويل صفح الباب العالي عن حسين باشا، وعينته الدولة واليا على مرعش في جبال طوروس، لكنه ما لبث أن مات مقتولا. أما المحْمَل الشريف، فقد استطاع عمر المحاميد شيخ حوران إرضاء البدو، فدفع لهم 170 قرشا مقابل إرجاعه! فحُمِل إلى دمشق على جمل وقد ستروه بثوبه الأخضر التّحتاني.

[2] - كان يلقب بالصادق، فقد كان من مماليك أسعد باشا العظم، وكان هذا يحبه لنباهته، فلما قُتل أسعد باشا عام 1758 وضبطت الدولة أمواله، طلبوا من عثمان بصفته من المقربين قائمة بتلك الأموال، فجاءت مطابقة لقائمة الدولة! فلقّب بالصادق، وفي بعض الروايات أن عثمان هذا هو الذي غدر بولي نعمته وكشف عن أمواله لغرض في نفسه.

صائد الرائحة في شوارع عكا!

جالسا في بيته كان، حين انتفض فجأة، وكأن أفعى لدغته، وهو يصيح: لقد حان وقت الغداء!

نظرت إليه امرأته وهزّت رأسها، لكنها كانت مضطرة أن تقول تلك الجملة المعتادة: هل أعدّ لك الطعام؟!

- وماذا طبختِ؟

- حفنة أرز مع القليل من اللبن والفول.

- سأخرج! وحينما تجوعين كُلي منه قليلا، ودعي البقية للعشاء!

لملم ثوبه الخفيف الرّثّ، ونهض. ردّه على جسده وخرج.

***

الشوارع المكتظة بالمارّة والجِمال والباعة والحرارة اللاهبة في ذلك اليوم من حزيران؛ الحرارة المشبعة برطوبة لزجة، كانت كافية لردْعه عن أن يخرج، لكن فترة الظهيرة، كالصّباح والمساء، لا يمكن أن يُمضيها في البيت.

كان إبراهيم الصَّبَّاغ أنْحل أهل عكا، بحيث كانت أضلعه النافرة سببًا أساسًا في اهتراء ملابسه! أما عظام وجهه فكانت مستدقّة على نحو غريب؛ في الوقت الذي تبدو فيه عيناه على وشك التّدحرج لفرط جفاف الجلد المحيط بهما وشدّة ضعفه.

وقف إبراهيم الصبّاغ، وبنظرة سريعة تصفّح الشارع العريض المؤدّي إلى بوابة برّ عكا، المسماة: بوابة السِّباع. دبّت في جسده قوة استثنائية، عوّضت تأخرّه عن الخروج أكثر من ساعة.

بعد عشر خطوات، أراح عينيه من مهمة البحث، تاركًا لأنفه المهمة الكبرى.

وقف أمام باب الحانوت الأول، وألقى السّلام. حاول جريس، صاحب الحانوت، بعينيه المطفأتين ووجهه المتغضّن، أن يُخفي الطعام بسرعة، جريس الذي تبع ظاهر إلى عكا، بعد أن أقسم أنه لن يسكن مدينة إن لم يكن ظاهر متسلّمها.

– أهذا طعام يؤكل يا جريس، أرز ولبن وفول؟! سيقتلكَ هذا، ويُفسد معدتك أيها الرجل! أين اللحم؟!

– هذا أفضل ما في البيت أيها الطبيب والمعلِّم!

– يا رجل، عليك أن تأكل جيدًا، لكي تعمل جيدًا وتفكِّر جيدًا، وأنت تعرف البقية، أي أن تكون رجلا جيدًا مع رحيل النهار!

وصمت قليلا وكأنه يحاول تذكّر شيء:

– آه، أنساني حديثي عن طعامك أمرًا مهما. كم بقي لديّ في ذمتك من دين؟!

– 57 قرشا.

– لا تتأخّر عن موعد دفْعها. وإلا، فذنبك على جنْبك كما يقال!

– أعرف، ستصبح 67 إذا دخل الشهر الجديد..

– ولكنني أفكر بإخبار الشيخ ظاهر بأمر هذا الدّين، سيدفع لي، ثم تدفع له بعد ذلك، فما رأيك؟[1] سأله الصبّاغ.

– ما هذا الكلام أيها الطبيب؟ ما هذا الكلام؟ أتريد أن تُثقل عنقي بكرم الشيخ ظاهر؟!

– لننس أمر الدَّين ودعْنا نأكل ما قسَم الله لنا! تفضّل، تفضّل! قال جريس.

بسرعة جلس الصباغ وبدأ الأكل، وكأنه في سباق.

– ألا تخشى أيها الطبيب على معدتك من طعام كهذا؟!

– بالطبع أخشى، ولكنني لا أحبّ أن أدعك تأكل وحدك! فالطعام الذي نأكله وحدنا، دائما، لا طعم له! كما أن الشياطين حين ترى الإنسان يأكل وحيدًا، تأتي وتجلس معه وتشاركه طعامه دون أن يدري!

– هذه والله أصدقها أيها الطبيب! ولكن يهيأ لي أن الطعام لا يفقد طعمه تماما لمجرد أننا نأكله وحدنا!

---

[1] – وضع ظاهر مجموعة من القواعد لتنظيم وتسهيل حياة الناس، فإذا باع تاجر بضاعة، ولم يكن لدى الشاري مالا، يدفع ظاهر عنه، وحين يتوافر المال مع الشاري يأتي ويدفع لظاهر؛ وبذلك أوقف ظاهرة الرّبا وظاهرة البلص، حيث يأخذ الأقوياء من الضعفاء ولا يدفعون لهم. كما أمر الولاة بإقراض كل فلاح لا يستطيع زراعة أرضه بسبب ضيق اليد، ودون فائدة. ومنعَ الولاة من أن يأخذوا أيّ مال إضافي زيادة على الميري، وأعلن أن سيعلِّق كل من يأخذ منهم رشوة من قدميه، ولو كانت الرشوة قرشًا، وأنذر الولاة: إذا ما نُهِبَ عابر سبيل في أقاليمهم، ولم يعرفوا الفاعل، فالوالي يدفع للمنهوب كلّ ما سُرق منه.

- عليك أن تتمعّن في هذا وأنت تأكل طعامك ذات يوم وحيدًا!

- الحقيقة، إن فرصة كهذه لم تُتح لي من قَبل أيها الطبيب!

- الحمد لله، لقد كفاك الله شرّ هذا الاختبار إذن!

راح جريس يتناول طعامه بسرعة، فقبل أن يبتلع ما في فمه، يدسّ لقمة جديدة بأصابعه الخمس.

- يا رجل. لماذا تأكل بهذه السرعة؟! إنك تمنع معدتك من أن تتنفّس. ستخنقها بهذه الطريقة!

- منذ زمن طويل لم يعد أمر معدتي يهمّني أيها الطبيب!

راح الطعام المخصص لشخص واحد، في الأصل، يختفي. لكن، وكما يحدث دائما، تبقى هناك لقمة أخيرة. تأمّلها الصبّاغ، ثم وكعادته، لم يمدّ يده إليها! فقد كان ذلك يعني له الكثير، فتعفّفه هذا، درسٌ كبير لنفسه ولمن يشاركه الطعام! وبترْكه تلك اللقمة الأخيرة، كان يحسّ بأنه أكبر وأقدر على مقاومة أهوائه وحاجاته. وأن بمستطاعه أن يمنح الآخرين شيئًا، وهو يفهمهم: إنني أرفع منكم منزلة وأخلاقًا!

نظر جريس إلى اللقمة بطريقة أخرى. تأمّلها في الصحن، وقال: الحمد لله! ورجع بظهره قليلا إلى الوراء مربّتا على معدته، كما لو أنه يربِّت على ظهر خروف سمين!

في تلك اللحظة أحسّ الصبّاغ بأن جريس قد وجَّه إليه ضربة قوية على رأس معدته.

لوهلة، فكّر في أن يقول له: حرام أن تُلقي بها يا رجل، فالطعام نعمة! وقبل أن يُعلِّق جريس، يمدّ الصبّاغ يده ويختطفها. لكن ذلك لم يحدث، إذ بسرعة خاطفة رفع جريس الصحن وهو يردد: بِس، بِس، بِس!

كما لو أنها كانت تنتظر من سنين، ظهرت القطة فجأة، فوضع لها الصحن على الأرض، فانطلقت تلتهم اللقمة الأخيرة بنهم، وحين انتهت منها، راحت تلحس الصحن.

- كيف تسمح لها بالأكل من الصحن نفسه الذي تأكل أنت وعيالك فيه يا رجل؟!

- ألم يخلقها الله مثلما خلقنا وخلق الكلب أيضًا؟!

- ما الذي تعنيه بقولك هذا؟

- أعني أننا في الصباح والمساء نُبقي لكلبنا شيئًا في الصحون ليأكل.

- أيأكل كلبكم أيضا من صحونكم؟!

- لقد قلت لك ذلك منذ زمن طويل أيها الطبيب المعلِّم! ورغم أنك حذرتني، إلا أنني، والحمد لله، لم أمرض، كما لم يمرض أحد من عيالي!

- أن تسمح للقطة، فهِمْنا هذا، ولكن للكلب!

- أيها الطبيب! أن تشاركني طعامي هذه المخلوقات الطيبة، أفضل من أن تشاركني إياه الشياطين! أليس كذلك؟!

***

كما لو أن أفعى ثانية لدغته، انتفض إبراهيم الصبّاغ مرة أخرى. ونهض متوجِّها إلى الخارج، وقبل أن يصل، مدّ يده وتناول قطعة حلوى، ثم التفت خلفه، فرأى جريس يحدّق فيه:

- قطعة حلوى لتغيير طعم الفم قليلا. أنصحك بها! قال وهو يغادر.

لكنه بدل أن يضعها في فمه، زجّها في جيبه!

***

في الطريق راح يتصفّح وجوه المارة ويربّت على بطنه شاعرًا بفراغه! شمّ رائحة لحم تفوح قبل أن يرى الفتى الذي يحملها. التفت بسرعة، وسأله: من أنت أيها الولد؟!

- أنا الصبيّ الذي يعمل في دكان محمد تاجر القماش.

- عليك أن تسرع لكي لا يبرد طعام معلمك! لا بد أنه الآن يقاسي شدّة الجوع!

هزّ الفتى رأسه موافقا، واندفع بسرعة أكبر. فتبعه الصبّاغ بخطى سريعة محاذرًا أن يفقده في زحام عكا.

الفارس الذي سابقَ حصانه!

أحسَّ صْلِيبِي بشيء غريب، فرفض المشاركة!

كان ما قاله أخوه عثمان تجاوزًا لا يمكن تخيّلـه، تقبّلـه ظـاهر برحابـة صـدر ورجاحة عقل، لا يمكن تخيلّهما أيضًا.

قال عثمان لأبيه: ألا ترى أن الأوان قد آن لكـي تـستريح يـا شـيخ؟! فـنحن كبرنا، وباستطاعتك أن تعتمد علينا، وكما ترى لقـد اسـتطاع كـلّ منّـا أن يـدير المنطقة التي سلّمته إياها والحمد لله، كما تتمنّى!

وقف ظاهر، وسار حتى نهاية تلك الحديقة الرائعـة للـسّراي. فمنـذ أن رأى حدائق الشام تمنى في أن تكون له حديقة مثلها ذات يوم. وحين صارت لـه، بـدأ يحسّ بأنه ما تمناها، إلا لأنها كانت عنوانا لزمن آخر.

قطف خمس وردات حمر، وعاد. ناول كلًّ واحد من أبنائه وردة.

كانوا كلهم هناك: صْلِيبِي، عثمان، علي، سْعيد، أحمد.

تأمل عثمان الوردة الحمراء، وقال: كأنك قبلتَ بما قلتُه يا شيخ؟!

- لا، الشيخ لم يقبل بما قلتَه يا عثمان. صحيح أن كلّ واحد منكم قام بما عليه أن يقوم به تجاه المنطقة التي تسلَّمها، ولكن خبرتي تقـول: إن الـسنوات الأولى لا تستطيع أن تغيّر أحدًا، ما يغيِّر المتـسلِّمين والحكـام طـول بقـائهم في مناصـبهم؛ وعلي أن أنتظر لأرى كم ستتغيّرون!

- لكننا أبناؤك يا شيخ! ونحن نستحق أن يكون لنا نصيبنا في ما لديك!

- دائما أنت هكذا يا عثمان، أتذكُر ذلك اليوم الذي سألتني فيه: متى ستموت يا أبي؟! وحين سألتك: لماذا؟ أجبتَ: لكي أصبح متسلِّما.

بارتباك ردّ عثمان:

- أذكُر يا شيخ، أذكر، فأنت تذكّرني بهذا دائما. لكنني كنت أيامها صغيرًا.

- وهل كبرتَ يا عثمان؟!

ترك ظاهر السؤال معلّقًا؛ السؤال الصّعب المترفِّع عن سماع إجابة لـه، وعـاد يسير إلى نهاية الحديقة. تمهّل كثيرًا أمـام ياسـمينة بيـضاء تـسلّقت الـسور، مـلأ صدره برائحتها وعاد.

تأمّلهم طويلا، ثم قال: أمركم غريب فعلا! هل تعتقدون أنني ضممتُ عكا وحيفا والناصرة وسواها، لأوزّعها على أولادي؟!

- توزِّعها على مَنْ إذن؟ سأل عليّ.

- كأنكم لم تعرفوا بعد ما يفكر فيه الشيخ! قال صُليبِي.

- وبماذا يفكر؟ سأل عثمان.

نظر ظاهر إلى صُليبِي بعين راضية.

- لا تقل لنا إن الشيخ سيوزّعها على الناس؟! قال عليّ.

- كيف تكون لهم وأوزّعها عليهم؟! سأله ظاهر. هل تطلب مني أن آخذها منهم وأمنحكم إياها؟! هـذه الأرض ملكهـم، وسـتبقى. لكـن النـاس كانـت بحاجة لأشياء لا بدّ من توافرهـا. ألم تلاحـظ ذلـك يـا عـليّ؟! أرض المـزارع لم تصبح له إلا بعد أن سيجناها بالأمان، والتاجر لم تـصبح قافلتـه لـه، إلا بعـد أن نظّفنا طريقه من اللصوص والغارات. وصاحب المركب لم يصبح مركبه والبحر له، إلا بعد أن حوّلنا قراصنة مالطة إلى ضيوف يقبلون بـشروط ضـيافتنا، حـين أجبرناهم على تسليم أسلحتهم لجنودنا قبل السماح لهـم بـدخول عكـا. والـذي يريد أن يتاجر وفَّرنا له كلّ ما يريد. هل تعتقد أن الناس الـذين جـاؤوا إلى عكـا من كل الجهات، وحتـى مـن وراء البحـر، مـن فرنـسا واليونـان ومـن قـبرص وصقلية وسواها، كما جاؤوا من بيروت وصيدا وصور ودمـشق نفـسها، كـانوا يريدون الرِّبح وحده؟! لقد جاؤوا يبحثون عن سقف ينامون تحتـه بـلا خـوف، ويذهبون إلى كنائسهم وكُنُسهم ومساجدهم بلا خوف. قال ظاهر.

- أنت تبني دولة يا شيخ إذن! هل تقول إنك تبني دولة دون أن نعرف؟!

- بل بنيتها ولم أزل أبنيها أمامك يا عليّ، ولكنك لم تـرَ ذلـك، لم تـر أمامـك، أنت وعثمان، سوى عقبة واحدة، هي هذا الشيخ العجوز!

- لماذا لا تختار، إذن، من بيننا، من يكون وريثـا لـك؟ فـالأعمار بيـد الله! أو، دعنا نحن نختار؟! أولست أنا قبل غـيري الأحـقّ بهـذا؟! أنـا الـذي أرسـلتني رهينة مع سليمان باشا يوم طبرية، حين لم تجد أحدًا سواي ترسله! أولست أنا من تحوّل أمام باب الشام إلى فرجة، وأنا أتلقى رفسات الباشا؟! قال عليّ.

- أنت غاضب مني إذن، منذ ذلك اليوم؟!

- بل أكثر من غاضب، فتلك كانت الإهانة الأولى والأخيرة التي وجِّهت إلي في حياتي، ولن أنساها ما حييت!

- كان غيرك يموت في تلك الأيام يا عليّ، وأنت تحاسبني على قطرات من دمك سالت؟!

- بل على كرامة مُرّغت في التراب!

- وهل ستسترد كرامتك المهدورة إذا ما وضعتك مكاني؟! قال ظاهر وهو يبتسم بسخرية، وأضاف: هل تعتقد أن هذه البلاد قطعة أرض أو قصر أو قطيع أغنام أملكه، لأورّثك إياها أنت وأخوتك؟!

- ولمن هي إذن وأنت حاكمها؟! سأل عثمان.

- كأنك لم تسمع كلمة واحدة مما قلت! هذه البلاد ليست لي يا عثمان. كل ما فعلته أنني جمعت سواعد أبنائها التي كانت متفرقة، وقلوب أهلها التي كانت خائفة، وكرامة رجالها ونسائها وأطفالها التي كانت مهدورة. ثم تأتي إلي وتسألني أن أختار من يرث هذا كله؟! هل تريد مني أن أورثك سواعدهم وقلوبهم وكرامتهم؟! هذه أشياء لا تورّث يا عثمان! لأن الأصل أن يكون لديك أنت ساعدك كي لا تطمع بسواعدهم، وقلبك كي لا تحتلّ قلوبهم وكرامتك كي لا تصعد فوق كرامتهم! وليكن معلوما لديكم أنكم لستم أكثر من خدام لهؤلاء الناس، وإذا ما علمت أن أحدكم تجاوز هذا الحد، وارتفع عليهم حتى بحجر يضعه تحت قدميه، ولا أقول باستعلاء، فلا يلومنّ إلّا نفسه.

أخذ ظاهر نفسًا عميقًا. كان وجهه الأبيض قد غدا طافحًا بالدّم. لكن نظرته الثاقبة المخيفة كانت تسوطهم. وعاد يحدّق في عثمان:

- كأنك تستعجل موتي يا عثمان! صرخ في وجه ابنه وقد تحوّل إلى نمر.

- أنا؟! ومن قال ذلك يا أبي؟!

- بل أراك تستعجله، عيناك تفضحانك، عيناك تقولان ما لا تستطيع قوله: إلى متى سيعيش هذا الشيخ؟! هل نسيه الموت؟! أتريد أن تكون عدوّي يا عثمان؟

بدأ عثمان يرتجف: أنا؟ لا يا شيخ، ومن أكون حتى أجرؤ على معاداتك؟!

استعاد عثمان خطفًا كل أعداء أبيه، والمصير الذي آلوا إليه[1].

---

[1] - لاحظ عثمان، قبل أن يلاحظ أخوته، أن كل من عادى أباهم من الولاة والوزراء إما عُزل وإما قُتل! وحين بدا الأمر لعثمان وكأنه الحقيقة الوحيدة، صار يُسمي كل ما ينتابه من

هل كان هو أول من لاحظ ذلك؟ أم أن بقية أخوته رأوا ما رآه، ولكنهم لم يجرؤوا على التحدّث في الأمر، حتى مع أنفسهم؟!

أسند الشيخ ظهره إلى الحائط، فبدا بوجهه الأبيض المحمرّ، وحاجبيه الكثيفين ولحيته البيضاء الطويلة أشبه بقديس.

- لن أعطيك أكثر مما أعطيتك يا عثمان، ولن أصبر عليك أكثر، لقد تجاوزت حدودك.

- يا شيخ كنت أمازحك لا غير!

- بأن تقول لي بأن الأوان قد آن لكي أستريح؟!

***

أحسّ ظاهر بأن عليه تجاوز الغيمة السوداء التي انتشرت في السّراي، فهُمْ في النهاية أبناؤه الذين لا غنى له عنهم؛ وحوار كهذا لا يمكن أن يستمرّ إلى الأبد.

- أتعرف يا عثمان، لقد غيّر هذا العجوز رأيه قليلا! ما رأيك أن يمنحك ما تريد، إذا ما تغلّبت عليه؟! قال ظاهر وهو يبتسم.

- أتغلب عليك في ماذا يا شيخ؟

- نتسابق! نمضي بخيولنا إلى الشاطئ ونتسابق!

- وكيف يمكن أن أسبقك يا شيخ، وحصاني ليس كحصانك؟!

- ما زلت تظنّ أنك قادر على أن تتغلّب على الشيخ إذن؟! لكن المعضلة قائمة في حصانه؟! سنخرج كلّنا إلى الشاطئ. وسأعطيك حصاني وأركب حصانك. فما رأيك؟! ومن يسبقني، له ما يريد.

صمت قليلا وهو يتصفّح وجوه البقية.

رفض صْلِيبِي المشاركة في السّباق، ورفض سْعيد وأحمد، وفاجأهم عليّ حين قال: ما دمتَ أعطيت حصانك لعثمان ، فأنت قررت يا شيخ أن تعطيه كل شيء، لأننا سنخسر!

ضرب ظاهر جبينه بأطراف أصابع يده اليمنى، وقال: كيف فاتتني هذه يا عليّ؟! كيف فاتتني؟! ولكن لا تيأس. لديّ حلّ. أتسابق أنا وعثمان، وإذا ما تغلبتُ عليه، أسابقك، بأن آخذ حصانك، وتأخذ أنت حصاني أيضًا، فما رأيك؟!

- سيكون حصانك مرهقًا عندها يا شيخ، بعد انتهاء السِّباق مع عثمان!

أحاسيس سيئة تجاه أبيه بكل الأسماء، إلا العداوة! وهكذا، كان يترقب دائما بخوف النهاية التي سيسفر عنها نزاع أبيه مع الوزراء وسواهم، منتظرا يوما تتغير فيه النتائج!

- وكيف فاتتني هذه يا عليّ؟! وصفع جبينه ثانية. ثم صمت قليلا: أتعرف يا عليّ، يعجبني أنك تفكّر في كلّ شيء. ولكن أطمئنك، هناك حلّ بسيط: نتسابق أنا وعثمان اليوم، وإذا ما سبقته أتسابق وإياك غدًا، وعندها تأخذ حصاني الذي يكون قد استراح، وآخذ حصانك. فما رأيك؟!

- وإذا سبقك عثمان.

- ما كنت أحبُّ أن أسمعك تشكّك في قدرة هذا الشيخ يا عليّ! ولكن اطمئن، لكل مشكلة حلّ: إذا سبقني عثمان، تتسابق معه غدًا، كلٌّ على ظهر حصانه، ومن يسبق سأعطيه ما يريد.

تابع صْليبِي الحوار وهو قابض على رأسه، دافنًا إياه بين راحتيه. وحين رفع رأسه وجد الشيخ يحدّق فيه.

***

ربّت عثمان على عنق حصان أبيه، صهل الحصان وهو يدير رأسه نحو ظاهر، كما لو أنه يريد أن يفهم ما يدور! فاقترب منه ظاهر ومسح وجهه براحتيه مداعبًا جبهته.

هدأ الحصان.

- أترى شجرة الليمون تلك؟ نتسابق حتى نصلها. على أن يأتي كل منا ولو بورقة من أوراقها. قبل أن يعود إلى حيث نقف.

امتطى كلّ منهما حصان الآخر. نظر حصان ظاهر إليه من جديد، لكن ظاهر تحاشى أن تلتقي نظراتهما. وفي اللحظة التي أعطى فيها أحمد الإشارة انطلقا.

راقبهما عليّ وصْليبِي وأحمد وسْعيد يبتعدان. بعد دقيقتين كان عثمان قد تجاوز والده بمسافة ليست بالقصيرة!

راح قلب عليّ يخفق بشدّة، وهو يتبادل مع أخوته نظرات سريعة ذات معنى.

أدار صْليبِي ظهره، محدّقا في الاتجاه الآخر، بينما كان عثمان يواصل تفوّقه.

- كأنك لا تريد رؤية الشيخ يُهزَم يا صْليبِي؟! قال عليّ.

- لا ضرورة لانتظار جواب تعرفه! لسؤال ما كان يجب أن يُطرح أصلا يا عليّ!

- ماذا تعني؟

- لديك عينان وتستطيع أن ترى بهما، لا تقل لي يا عليّ إنك تريد مني أن أقول لك ما الذي تراه!

في البعيد، مال عثمان وخطف عددا من أوراق الشجرة قبل أن يستدير عائدًا، في حين كانت المسافة التي تفصل ظاهر عن الشجرة ليست قصيرة، لكنه وصلها آخر الأمر، مال واختطف بعض أوراقها واستدار.

لم يكن الشيخ الذي أقبلَ هو نفسه الشيخ الذي كان ذاهبًا.

بدا بجسده الذي كبر فجأة غير ذلك الشيخ الذي يعرفونه، وبدا حصان عثمان تحته مثل كائن أسطوريّ، من تلك التي يقال إنها موجودة في بلاد الجان! كان الحصان تحته يطير، لا تلامس قوائمه الأرض. أما حصان الشيخ الذي يركبه عثمان، فكان وحده من ينثر التراب عاليا كلما غاصت إحدى قوائمه فيه أو ارتفعتْ.

مع اندفاع لا مثيل له، كان لا بدّ للشيخ من أن يحاذي أخيرًا ابنه. حاذاه.

توقّع عثمان أن ينظر والده إليه، أن يُلقي عليه نظرة ذات مغزى؛ لكنه لم يفعل. واصل اندفاعه إلى الأمام، كما لو أنه لا يسابق أحدًا غير نفسه.

وصل الشيخ إلى حيث ينتظر أولاده. وحين رأوه يواصل اندفاعه تفرّقوا مفسحين له المجال. في الوقت الذي بقي صْلِيبِي في مكانه تكاد تقتلعه ريح مرور الحصان. رفع رأسه وراقب والده يبتعد ويبتعد إلى أن اختفى.

ترجّل عثمان عن ظهر حصان أبيه، نادمًا، لأنه زجّ نفسه في تجربة كان في غنىً عن لهيب نارها.

حاول أن يقول شيئا، ثم صمت. استطاع استجماع كلمات مرتبكة أخيرًا، وقال: من كان يصدّق أن شيخًا مثله يستطيع أن يفعل هذا؟!

- الخيل تصدّق ذلك، الخيل، لأنه يعرفها أكثر مما تعرفها، أكثر مما يعرفها الجميع يا أخي. أظن أن علينا! أن نفكر كثيرًا قبل أن نُغضب رجلا تعرفه خيولنا أكثر مما تعرفنا! قال صْلِيبِي دون أن يستدير.

بدأت الشمس تعوم على وجه الماء، تاركة فوق البحر نهرًا من ضوء لامع كثيف. وفي الوقت الذي وقفوا فيه ينتظرونه يطلّ من الجهة التي أخذته، فاجأهم صهيل الحصان من خلفهم. استداروا بجزع: كيف لم يسمعوا وقع حوافر الحصان خلفهم؟! وتأكد لهم أنه كان يطير فعلا، إذ لم يروا خلفه أيَّ أثر للغبار[1].

---

[1] - يرى دي فولني في كتابه (رحلات إلى سورية ومصر) أن السبب المباشر في خلاف ظاهر مع أبنائه هو رفضه أن يسمِّي من بينهم وريثا له.

الطعنة الخفية!

كان ظاهر على وشك امتطاء حصانه ليخرج. أحسَّ بدوار غريب، أمسك بالسَّرج، وتحامل على نفسه.

نظر صْلِيبِي إلى أبيه من إحدى النوافذ المطلّة على ساحة السّراي، واستغرب الأمر.

انتظر.

مرّت اللحظات ثقيلة، تأرجحت يد ظاهر قليلا، وتأرجح معها جسده. غامت عيناه، وفجأة سقط كحجر مرتطمًا بالأرض.

انطلق صْلِيبِي مسرعًا نحو أبيه كعاصفة مجنونة. وصله، قلَبَه على ظهره.

جسّ نبضه. أحس به ضعيفًا.

تحلَّق حوله الجنود الذين كانوا أمام الباب في انتظاره؛ ووصلت دهقانة، كانت على وشك أن تصرخ، لكنها كتمت صرختها.

- ليذهب أحدكم ويستدعي طبيبه سليمان. صاح صْلِيبِي.

انطلق بضعة جنود لإحضار الطبيب، وطلب صْلِيبِي من البقية أن يحملوه إلى الداخل.

***

في الوقت الذي كان فيه صْلِيبِي يدور حول نفسه كرأس نخلة اجتزّته عاصفة، كان سليمان الصِّوان يفعل الكثير في الداخل، محاولا الوصول إلى سبب المرض.

خرج مرّة، وسأل إن كان الشيخ قد أكل أو شرب شيئًا غير عادي!

كان الجواب في انتظاره: لا.

بعد نصف ساعة خرج وقد اربدَّ وجهه، واحمرّتْ عيناه:

هل اشتكى الشيخ من ألم ما، صباح اليوم، أو أمس؟!

وكان الجواب في انتظاره: لا. وزاد صْلِيبِي: لم يكن به شيء، حتى أنه تسابق مع أخي عثمان أمس وسبقه!

اختفى الطبيب في الداخل، جسّ نبض ظاهر، بالكاد كان يستطيع الإحساس به، قرّب مرآة من أنفه، فلم يظهر أي أثر لهواء يخرج من أنفه. عند تلك اللحظة داهمه الخوف.

.. وصلت نجمة هائجة: ما الذي حدث لولدي؟

صمتوا.

- ما الذي يحدث في البيت ولا أعرفه؟!

- لا شيء جدتي، صدّقيني لا شيء.

- بل شيء كبير يا أحمد، هل ولدي ظاهر بخير؟!

- بخير يا جدتي، بخير!

انطلقت صوب الغرفة التي فيها ظاهر والطبيب.

حاول صْليبِي اعتراض طريقها، لكن قوة جبارة أزاحته جانبًا متجاوزة دهقانة وسْعيد ويوسف السّلال وزير ظاهر.

دفعت الباب ودخلت، ففوجئ بها الطبيب، وقبل أن يفتح فمه بكلمة، انحنت نحو جسد ظاهر متحسّسة يده.

***

ليلة أمس، امتطى جواده تاركًا أولاده خلفه على الشاطئ، عائدا إلى السّراي، إلى ذلك الكرسي الطويل، كرسيه المفضّل، بجانب إحدى النوافذ الواسعة المطلّة على الغرب. من هناك كان يمكنه أن يشم هواء مختلفًا، ويترك بصره ليرحل بعيدًا فوق عتمة المياه.

حين وضع جمعة أمامه طعام العشاء، لم يره. أكل، ولكنه لم يعرف أنه أكل، إلا حين رأى أواني الطعام الفارغة على الطاولة أمامه!

نام.

لا يعرف كيف نام.

نهض.

لا يعرف كيف نهض.

سمع صوت الأذان، غادر غرفته.

كانت أمواج البحر تضرب الأسوار في حركة رتيبة قوية.

توضأ، وصلى.

سار نحو العلية المطلة على باحة السّراي الشرقية، أسند يديه إلى السور الصغير، وكم فوجئ أن حصان عثمان وحصان عليّ لم يكونا هناك. راح يفكر في السبب الذي يدعو عثمان لمغادرة البيت هكذا. لكنه لم يفهم السبب الذي يدعو عليّ لفعل ذلك أيضا! لم يصل إلّا إلى فكرة واحدة لا غير: *" طوال عمره كان عليّ يتصرّف كما لو أن أحدًا لا يمكن أن يكون ندّا له! إنه شجاع وقوي إلى ذلك الحدّ الذي يستحقّ فيه اعتزازه الكبير هذا بنفسه!*[1] *ولكن الذي يحيّرني: هل أحسّ بأنني يمكن أن أسبقه؟! ولذا لم يجد بدّا من الرحيل تلافيا للحظة كهذه، يراه فيها أخوته منكسرا أمام هذا العجوز الذي لا يريد أن يُريح أو يسترح؟! أم تراه...؟!"*

قطع ظاهر حبل أفكاره بصمت لا مثيل لحدته ونفاذه: *"أم تراه يظن أن أباه أقلّ من أن يكون ندًّا له أيضا، بحيث يتواضع ويسابقه؟!"*

في تلك اللحظة، أحسّ ظاهر بتلك الطعنة تعبره بقوة، فصدرت عنه أنّة قوية. تلفّت حوله خائفا أن يكون أحد قد سمعها.

لم يكن هناك أحد.

حاول أن يحدّد المكان الذي تلقى فيه طعنة الألم القاسية؛ وفوجئ أنه لم يستطع ذلك؛ كما لو أن جسده ليس له.

تحامل على نفسه، سار إلى الداخل، صلّى الفجر؛ وحين جاء جمعة ووضع الطعام أمامه، لم يجد في نفسه رغبة في مدّ يده إليه.

عادت تلك الحربة الخفية، وضربت من جديد.

صاح طالبا من جمعة أن يأتي ويرفع الطعام. لكن جمعة لم يأت.

" وعثمان؟! هل تكون قسوتَ عليه يا شيخ أكثر مما يجب؟! أعرف أنك لا تملك جوابا على سؤال كهذا باعتبارك أباه! وهو جواب بسيط وواضح: نعم. فهل تملك جوابا آخر باعتبارك (ملك الجليل) كما دعاك ذلك القس الناصري، فتسرب اللقب كالنار في الهشيم وسار على ألسنة الناس؟

أنت لم تقسُ عليه يا شيخ، لا كأب ولا كحاكم لهذه البلاد، لقد أعطيته الكثير، وصبرت عليه، وتظاهرت أحيانا كثيرة بأنك لا ترى ما يفعله! وتجاوزت مسألة جشعه ورغبته المجنونة في اختفائك عن هذه الأرض، وصمتَّ، ولم تجد في النهاية سوى أن تلقنه درسا صغيرا، صغيرا للغاية، وأن تتركه خلفك، لعله يدرك أيّ رجل هو، وأيّ رجل هذا العجوز!"

---

[1] - رفض علي أن يزوج بناته، حتى لا يتحكّم بهنّ الأزواج!

وصل جمعة: بالهنا والشفا يا شيخ. قالها قبل أن ينظر إلى الطعام، وحين رآه لم يُلمسْ، سأل: أنت لم تأكل بعد يا شيخ؟!

- ليست بي رغبة يا جمعه! ارفع الطعام!

قبل أن يختفي جمعة خلف باب الديوان الواسع، ضربت الحربة من جديد، ولم يكن له إلا أن يعرف المكان في المرّة الثالثة، المكان الذي طارت يده اليمنى نحوه: بين كليته وأسفل بطنه.

أشرقت الشمس، تذكّر أن عليه الخروج، فأمور عمل كثيرة تنتظره، هناك، في الديوان.

***

كان يوسف السّلال واحدا من أقرب المقربين إلى ظاهر، فقد كانت بينهما علاقات تجارية مذ كان ظاهر في طبرية، وأثبتت السنوات الطويلة أن يوسف السلال لم يخدعه أبدًا، كما أنه لم يتردّد لحظة في مدّ يد العون لظاهر بالمال إن احتاجه أو بالبذور اللازمة للزراعة في طبرية وما حولها. ولذا، لم يفكر ظاهر بأحد سواه وزيرا ما إن استقرت الأوضاع في عكا، وغدا تنظيم الأمور بحاجة لكل ما يُسيّر أمور دولة[1].

***

أكثر ما كان يسعد ظاهر أن يوسف كان متعلّما وذكيًّا، وعربيًّا أصيلا، وعلى الرغم من أن كثيرين رأوا أنه أغرق دواوين ومجالس ظاهر بالمسيحيين من ملّته: الكاثوليك؛ إلا أن ظاهر لم يُعر كل ذلك اللغو اهتمامًا؛ وحين تصاعد الأمر أكثر، جمع كبار رجال عكا ممن يستشيرهم في الأمور المهمة وقال تلك الكلمات التي قطعت كل قول: هذه الدواوين والمجالس وجدت لخدمة أهل البلاد، صغيرهم قبل كبيرهم، وإذا ما سمعت عن رجل في آخر الأرض، يقال لي إن لديه العلم والخبرة والأمانة لخدمة الناس، فسأسير إليه على قدميّ، مسلما كان أم مسيحيًا أم

[1] - أنشأ ظاهر ديوانا ينحصر عمله في ضبط الأموال الأميرية وجباية الضرائب والمكوس واستيفاء رسوم السياحة إلى الأماكن المقدسة من الحجاج القادمين من الخارج، وكان بحاجة لمن يحل مشاكل الناس بموجب أصول الشريعة والدين، فعين الشيخ عبد الحليم الشويكي مفتيا والشيخ محمد أفندي قاضيا، وقسم الجيش إلى قسمين، فرقة مشاة يقودها أحمد الدنكزلي، وفرقة من الفداوية وقوات الاحتياط من أبناء البلاد ومن حلفائه المتاولة وسواهم، إضافة إلى قوات أبنائه، وكان يلجأ لهؤلاء في أوقات الشدة. وكان يصل عددهم إلى عشرات الآلاف.

يهوديًا، فكما جاء الناس إلى هنا واختاروا السكن إلى جانب أهل عكا بكامل حريتهم، فليس لعكا إلا أن تحتضنهم وتحتضن حريتهم معهم! ويشهد الله وتشهدون، أنني لم أقف يومًا حجر عثرة في طريق بناء كنيسة أو كنيس أو مسجد، وأن كل من فرّ من صيدا والقدس ونابلس وبيروت وسواها هاربا من الظلم، لن أقبل، ما دمت حيا، أن يستقبله أحد من أهل هذه البلاد بالظلم الذي تركه وراءه.

لكن الشيء الذي لم يكن يعرفه ظاهر هو تلك الحرب الخفيّة بين سليمان الصوان- طبيبه، وبين الوزير، بعد أن اكتشف الوزير أن ظاهر لا يتردّد في الأخذ بكثير من آراء طبيبه في ما يتعلق بأحوال الناس. وقد بلغ الأمر حدّه الأقصى، حين أسرَّ بعضهم للوزير بأن الطبيب ينقل لظاهر الكثير من أخباره!

***

عند المساء، خرج الطبيب للمرّة الخامسة، حائرًا، وقابلا بأيّ حلٍّ يقترحه الآخرون، وقد أفزعه أن يكون موت ظاهر على يديه!

- سنأتي بالصبّاغ. قال الوزير.

- فلتأتوا بمن تريدون! تحرّكوا. صاحت نجمة.

الشيء الوحيد الذي لم يخطر ببال طبيب ظاهر، أن يأتي يوم يقترح فيه أحدهم استقدام إبراهيم الصباغ لعلاج ظاهر، ويبقى صامتًا! نظر صوان إلى الوزير، وتبادلا نظرة ذات معنى.

- فلنبحث عن الصبّاغ إذن. قال الطبيب، وقد بدا مستعدا للخروج مع الباحثين، هاربًا من كل شيء، لولا أن الواجب يحتّم عليه ألا يغادر المكان.

هبطت على عكا عتمة مباغتة، فانطلق السرّاجون يسابقون الوقت، لإضاءة قناديل الطّرق!

كانت المشكلة التي تواجههم: أين سيعثرون على إبراهيم الصّباغ، أو على المعلّم؟ كما يدعوه أكثر الناس.

ليلتان في ليلة واحدة

لم يكن في بيته، كما توقّعوا؛ لكن الجملة التي قالتها زوجته رغم ذلك، كانت مفاجئة: وهل يمكن أن يكون هنا في وقت كهذا؟! تنبّهت إلى أن من يسأل عنه هم الجنود هذه المرّة، فسألتهم وهم يبتعدون: هل فعل شيئا، أم تراه فعل شيئا كبيرًا جعلكم تأتون بعد موت النهار!

- بل نريده في أمر مهم. قال أحد الجنود.

- تريدونه في أمر مهم وتغادرون؟! ليبق على الأقل واحد منكم هنا إذن، لأن هنالك شيئا لا يمكن أن يستغني عنه في هذا البيت، هو النوم!

تشاور الجنود على عجل، فعاد أحدهم بخطى بطيئة. أغلقت امرأة الصبّاغ الباب، وأسند الجندي ظهره إليه، كما لو أنه يخشى أن يمرّ الصبّاغ عبره دون أن يراه.

راحت ظلالهم تتسابق فوق الجدران، وتتقاطع. تسبقهم حينًا، فيعودون فيسبقونها، وشُعَل القناديل تتراقص على جانبيّ الطريق مرتبكة، كلما مسحت عتمةً عن جدار سارع ظلٌّ وأعادها!

***

سار إبراهيم الصبّاغ في الشوارع، مغلقًا عينيه، ولاعنًا ذلك اليوم الذي صُنعت فيه القناديل، ولاعنًا أكثر، ذلك الذي خطرت بباله فكرة إخراجها من البيوت وتعليقها في الشوارع! كان الضوء يُفقِد أنفه نصف مهارته، على الأقل، وهو ينتصب كجدار بين أنفه والرائحة!

لم يكن يفرض نفسه ليلا على أيّ بيت ليس له ديْن في ذمة صاحبه. فهو يعرف أن طرْق باب بيت، وفي الليل، غير عبور باب حانوت مشرع في وضح النهار!

في النهار، لا يهمّه شيء، ما يهمّه فقط، هو نوعية الطعام التي يحظى بها؛ ولذا، لم يكن يتردد في البحث عن إفطار آخر أو غداء آخر في محلٍّ آخر، إذا لم يستطب ما أكله في المرّة الأولى. أما في الليل فيتواضع أكثر، ويقبل بالمبدأ. أي أن يكون هناك ما يؤكَل، دون النظر إلى نوعيته.

أغمض عينيه وسار، مرّة يحرك رأسه إلى اليمين ومرة إلى الشّمال. يصطدم أحيانا ببعض الناس، فيلعن الضوء الضّعيف الذي لا يتيح حتى لرجل، مُشرع العينين مثله، أن يرى!

حين يشمّ رائحة، يتوقّف. يمضي دقائق وهو يحاول معرفة الطعام الذي تنتمي إليه. إذا أعجبته، وكانت خارجة من بيت أحد ممن يدينون له، يطرق الباب، حريصا على ألا يُضيّع لحظة واحدة. أما إذا كان البيت لرجل غير مدين له، فإنه ينتظر قليلا لكي يحظى بأكبر قدر من الرّائحة، قبل أن يواصل طريقه، لاعنًا التّرف الذي أصبح الناس يحظون به منذ قدوم ظاهر!

كان قد فقد الأمل في العثور على ما يأكله. فكر في المسافة التي تفصله عن بيته، أحس بأن سيسقط في منتصفها مغشيًّا عليه إن لم يتناول ما يسد به نداء معدته.

تصفّح الجهات حوله، وقرر البحث في شارع آخر. كان قد وصل إلى البوابة البحرية، تاركًا الجامع المعلّق خلْفه. سار بمحاذاة السّور صاعدًا شمالا، إلى أن أصبح بموازاة خان الإفرنج، عبر عددا من الشوارع والأزقة؛ وحين أصبح الخان على يمينه، دار حوله إلى أن رأى سوق ظاهر[1] بأقواسه العالية. فكر في أن يعود ويتّجه غربًا، لكن الوقت كان يمرّ بسرعة. استدار إلى جهة سراي ظاهر. من بعيد استطاع أن يرى طرف برج الخزينة ناتئا فوقه. في تلك المنطقة المنخفضة قرب السّراي، كانت هناك شوارع وأزقة حافلة بمساكن التجار والموسرين التي لم تخذله أبدًا.

متزاحمة كانت الأصوات تأتي من داخل القلعة، والأضواء تشقّ طريقها عبر العتمة، ماسحةً الليل بوهجها، بتسارع لم يره من قبل!

بعد قليل أدرك أنه سيموت جوعًا إذا ما واصل الانشغال بقلعة ظاهر وأضوائها. لكنه عاد يفكر: أتكون هناك وليمة كبيرة، ولم أعرف بأمرها؟!

توقّف، وصوّب أنفه نحو القلعة، كما لو أنه مدفع، وانتظر.

- لا شيء!

بسرعة أكبر، كان عليه أن يتحرّك. تحرّك، وبعد لحظات لم يكن قادرًا على تحديد مكانه بالضبط، فلم يعد يعنيه موقع قدميه بل موقع معدته في نهاية الأمر.

لم يطل بحثه بعد ذلك. قرب بوابة خان الشّونة داهمته رائحة ثَمِلَ بها، التفت يمينا وشمالا، لمح البوابة، فعرف أين وصل.

---

[1] - أصبح يسمى فيما بعد: السّوق الأبيض.

سار نحو الرائحة، وكم سرّه أنها متسللة من بيت الحلّاج عبد الحميد الغـزّيّ. الذي ترك مدينته غزة منذ سنوات باحثا عمن يعلّمه العزف على العود، فانتهى به الأمر عازفًا على الوتر اليتيم لِمحلج القطن!

طرق الباب مرّة، مرّتين، حتى خيّل إليه أنه أخطأ، وأنه يطرق باب أناس ناموا وشبعوا نومًا. لكنه لم يكن ممن يستـسلمون بـسرعة، وقـد تحـوّل نـداء معدتـه إلى عويل. حين أُشرِع الباب أخيرًا، لم يجد أمامه سوى ذلـك الوجـه المـتجهِّم، الـذي زادته الظّلمة تجهُّما.

أدرك الصبّاغ أن عليه أن يضرب بسرعة، فضرب: لم آت في هذا الليـل إلا لأن بي حاجة للمال الذي أعطيتك إياه!

أوشك الرجل أن يسقط: الآن أيها المعلم؟! الآن؟! من أين آتيـك بالمـال وقـد أظلمت الدنيا!

بقي الصبّاغ واقفًا في مكانه؛ لا شيء يُشغله أكثر من قوّة الرّائحة التي تعبر إليه من فوق كتفَي الحلاج.

- فهمت أن لا مال لديك الآن! وقد أكون أتيتكَ في وقت غير ملائم! ولكـن، أتبقيني واقفًا هكذا بالباب!

- لعن الله الشيطان، اعذرني أيها المعلّـم، فطلبـك أربكنـي! تفـضل، تفـضل. وصاح الرجل: جاءنا ضيوف. فدبَّت الحركـة مـن جديـد في البيـت الـذي كـتم أنفاسه.

قبل أن يجلس الصبّاغ، قال له الحلاج: كنا على وشـك البـدء بتنـاول عـشائنا، أستحلفك بالله أن تشاركنا ملحنا وخبزنا!

- كنت تعشيتُ، ولكن، لا بأس! سآكل معك القليـل مـا دمـت مـصرًّا عـلى ذلك!

غاب الرجل، فانشغل الصبّاغ بتأمّل ما في الغرفة الواسـعة مـن أشـياء، لكـن أكثر ما لفت انتباهه ذلك الإبريق النحاسي الصغير الموضوع على حافة الشباك.

بعد قليل عاد الرّجل، وبين يده صينية من القش، يبدو أنه وضع فوقها كل مـا في البيت من طعام.

انتظر الصبّاغ أن يدعوه الحلاج لكي يمدّ يده ويبدأ، فلم يتأخر!

كانت الدّعوة تعني له الكثير؛ يمكن أن يموت جوعًا، إن لم يسمعها!

أكلَ، أكلَ كثيرًا، ولم ينس أن يقول: والله إن طعامكم طيب إلى درجة أحسّ معها أنني لم آكل منذ أيام!

ابتسم الحلاج، وراح يحثه على الأكل أكثر! ولم يكن له إلا أن يستجيب وهو يرى ذلك الدجاج المحمَّر الخارج من الطابون لا بدّ، منذ لحظات.

حين انتهى أخيرًا، أراح ظهره للجدار، وأخذ نفسًا؛ لكنه لم يستطع أن يملأ به صدره لأن معدته تجاوزت منتصف رئتيه.

أما في الخارج، فكانت أنفاس الجنود قد تقطّعتْ، لفرط ما سألوا وبحثوا عنه.

***

كان لا بدّ له من أن يغادر بيت مضيفه في النهاية، فطلب الإذن بالمغادرة. تمسّك به الحلاج: أيها المعلم، لم يزل الليل طفلا!

- ولكنني لم أعد ذلك الشاب كما ترى، فالطّريق إلى البيت طويل مهما قَصُر.

حينما وقف بتثاقل واضح، امتدّت يده إلى الإبريق النحاسي، قلّبه بين يديه بإعجاب: لم أكن أعتقد أنهم ما زالوا يصنعون أباريق جيدة كهذه!

- إنهم لا يصنعون مثلها فعلا. ولكن يسعدني أن تتقبلّه هدية؟

- لا. لا يمكنني أن أفعل هذا، فهو بالتأكيد يعني لك الكثير!

- ما دام الإبريق عندك فهو لم يغادر بيتي!

- أحرجتَني والله! قال الصبّاغ بصوت متلعثم.

- لا حرج، إنك تكرّمني بقبول هديتي.

- الشكر لك، كلّ الشكر لك.

***

كانت تلك واحدة من عادات الصبّاغ التي لا يتخلّى عنها أبدًا، إذ لا يمكن أن يغادر مكانًا إلّا ويأخذ منه شيئا أحبه، وكم يغدو مسرورًا حينما يظفر بشيء ثمين جميل نادر. لكن، لو كانت أذنا الصبّاغ تملكان حدّة ودقّة أنفه، لسمع الكلام الكثير الذي قيل بمجرد أن صُفِق بابُ الحلاج خلفه. لكنهما لم تكونا كذلك!

***

أمام بيته، لمح ذلك الجندي الذي يستند بظهره إلى الباب، وكم هزّه رعب أن يكون مضطرًا لتقديم طعام العشاء له. وما إن رآه الجندي، حتى راح يركض نحوه، فسقط قلبه. دون أن يدري أن جبالا لا حدود لارتفاعها ستحطّ بعد قليل على كتفيه!

النّسمة التي عبرت

بلا حراك فوق السّرير ارتمى جسد ظاهر.

مدّ الصبّاغ يده وتحسّس نبضه.

- تأخرتم! صرخ في وجوههم، كما لو أنه شخص آخر.

كانت كلمته كافية لبثّ الذّعر في قلوب الجميع. تراجع سليمان الصّوان، طبيب ظاهر، خطوتين، كما لو أن الصبّاغ سيصفعه! في الوقت الذي أحسّ فيه الوزير السّلال بأنه كان أقل بكثير من المسؤولية التي أُلقيت عليه في هذا الاختبار الصّعب.

- تلزمني حقيبتي. عليَّ أن أمضي لأُحضرها. قال الصبّاغ.

- سنُحضرها لك. قالها سْعيد، ورِجْلاه لا تكادان تحملانه.

- وهل ستعرف ما الذي ستضعه في داخلها من أدوية حين تذهب؟!

صمت سْعيد.

- جهّزوا لي حصانا بسرعة!

- كل الخيول جاهزة. ردّد أكثر من صوت.

سار نحو الخارج ونظراته تنهال عليهم مثل سياط جهنّميّة، وهو يحدِّث نفسه: *الآن يأتون إليّ؟! الآن؟! المريض هو الشيخ والآن يأتون إليّ؟!*

بصعوبة استطاع امتطاء الحصان رغم مساعدة صْليبِي له. نكز الحصان فتحرّك. أشار صْليبِي لعدد من الجنود أن يرافقوه. وحين ساروا خلْفه قليلا، قال: عودوا سأرافقه بنفسي.

كان الصبّاغ أصغر من ظاهر بخمس سنوات على الأقل، لكن الزمن الذي أمضاه على الأرض ماشيًا ببطء، سلب منه الكثير من القوة التي اكتسبها ظاهر فوق ظهور الخيل.

بسرعته المعتادة: المشي! كان يقود الحصان. ولو لم يكن صْليبِي يرى فيه كل تلك الشيخوخة، لصفع الحصان، ولكنه كان يخشى أن يسقط الصبّاغ وتنكسر رقبته، في وقت لم يكونوا بحاجة إليه مثلما هم بحاجة إليه اليوم.

بعد خمس دقائق لم يعد صْليبِي يحتمل أكثر، اقترب منه، واختطفه من فوق ظهر الحصان ووضعه أمامه وانطلق. تاركا حصان الصبّاغ في مكانه وقد تخفّف من حمْله.

دبّ الذّعر في الصبّاغ: ستقتلنا يا بنيّ!

- بل سنقتل أنا وإياك الشيخ إن سِرْنا لبيتك ببطء! أرشدني، أين بيتك؟

***

اندفع الحصان في الشوارع كالرّيح، كلما حاذى قنديلا تراقصت شعلته وتراقصت حتى بلوغ حواف العتمة. مئات القناديل كانت ترفّ، ولو تذكّر صْليبِي، في تلك اللحظة، كلّ ما قيل له عن ليلة القناديل في طبرية، لكان أكثر حرصًا في انطلاقته.

توقف فجأة أمام الباب الذي أَشار إليه الصبّاغ: هذا بيتي.. هذا بيتي!

فاندفعت قائمتا الحصان الأماميتان في تراب الشارع كمحراثين.

اختلط الغبار بالليل، فانبجس لون غريب تحت ضوء القنديل المعلّق أمام الباب؛ لون لم ير صْليبِي مثله من قبل.

لم يكن الصبّاغ قد تأخر، لكن صْليبِي راح يطرق الباب بعنف يستحثّه. خرجت امرأته ملتفّة بوشاح أسود وهي ترجوه: ارحمه يا بني. إنه عجوز!

قبل أن تستدير، ظهر الصبّاغ، تجاوز صْليبِي نحو الحصان. وصله. حاول امتطاءه لم يستطع. طلب منه صْليبِي أن يناوله الحقيبة ويصعد، لكنه تمسّك بالحقيبة أكثر.

في النهاية، استطاع صْليبي مساعدته. قفز خلفه، فاندفع الحصان يعدو من جديد. حين وصلا بداية الشارع الذي أتيا عبره، ارتجف قلب صْليبِي بقوة، كانت القناديل كلّها مطفأة، باستثناء واحد أو اثنين، وفي تلك اللحظة أوشك أن يبكي. معتمًا كان الشارع، لا أثر فيه للحياة، وغدا صوت وقع قوائم الحصان قادرًا على ابتلاع صوت البحر.

لكن الطريق لم تكن طويلة.

***

راحوا يفسحون الممرّ، ملتصقين بالجدران، لكي لا يؤخِّروا وصول الطبيب. وصل باب الغرفة أخيرًا. حدّق في كلّ من فيها بنظرة واحدة، وقال: كلكم إلى الخارج!

فوجئوا بالسّهولة التي أطاعوه فيها، حتى نجمة، وجدت نفسها تتراجع قبل أن تتساءل: ولماذا عليّ أن أخرج أنا أيضًا؟ وتبعها الوزير.

سليمان الصّوان طبيب ظاهر، كان يقبض على طرف السرير بأصابع متيبسة، كما لو أن السرير سيفرّ بعيدًا حاملا الشيخ إلى عتمة اللاعودة.

- وأنت أيضا! قال له الصباّغ.

- أنا ماذا؟!

- وأنت أيضا أخرج. لقد قدّمتَ كلَّ ما لديك. قال الصبّاغ ذلك، ويداه تبحثان داخل الحقيبة، وقد دبَّت فيهما حياة جديدة.

ارتخت أصابع الصّوان عن عمود السرير، لكن قدميه لم تحملاه بعيدًا، فصاح الصبّاغ: فلتأخذوه إلى الخارج!

أمسكه صْليبِي من يده وسار به. ولما وصل الباب، كان على يقين أنها المرّة الأخيرة التي يعبر فيها عتبة السّراي!

- أغلِقوا الباب. صاح الصبّاغ.

وقبل أن يغلقوه قال: ولا أريد أحدًا أمامه، لا أريد أحدًا في الممرّ!

بدأ الممرّ يخلو. تسلّلت الأجساد بعيدًا، كما لو أنها الماء يتسرب داخل الرّمل.

وعمَّ الصمتّ. صمتٌ جلّل الساحة والسراي. هدأت الأحصنة، حتى لم يعودوا قادرين على سماع تنفّسها الثقيل، وبدا البحر وكأنه ابتعد عن الشاطئ أميالا. أما الوقت، فقد أطبق فوق صدور الجميع مثل رحى عملاقة، يطحنهم، ويطحنهم، دون رحمة.

***

ارتفع صوت أذان الفجر في جامع ظاهر (المعلّق)، وبعد نصف ساعة، رأوا شبح الصبّاغ يتقدّم باتجاههم منهكًا. قبل أن يصلهم، تراخت قدماه وسقط قرب البوابة!

صرخت دهقانة، فامتدّت يد نجمة بسرعة وأغلقت فمها.

بأربع خطوات كبيرة استطاع صْليبِي الوصول إلى الصبّاغ.

- هل حدث شيء لا سمح الله؟!

- إنني بخير! اتركوني. لا تقتربوا مني أبدًا. احملوني إلى أي فراش! أريد أن أنام.

انحنى صْلِيبِي وحمله، كان أشبه بطفل، خفيفا تكاد نسمة الفجر التي عبرت، في تلك اللحظة، أن تسرقه من بين يدي صْلِيبِي.

مدّده على الفراش في الداخل، وقبل أن يخرج صْلِيبِي سمعه يهمس: ايقظوني بعد ساعتين لأطمئن على الشيخ!

ليلة الصبّاغ

أشرع ظاهر عينيه بوهن، عاد وأغلقهما. وكما لو أنه لمح شيئا نسيه من زمن طويل، عاد وأشرعهما من جديد ليتذكّره.

ثلاثة قناديل تضيء الغرفة بكل ذلك الشحوب الذي يحتاجه شخص يرحل، أو شخص يقطع الليل على صهوةِ نصفِ الموت الذي يسمونه النوم!

النائم نصف ميت. ألا يقولون هذا؟! النائم المريض ماذا يكون؟! والنائم المريض الذي يصحو ولا شيء حوله سوى هذا الشحوب ماذا يكون؟! هل تكون حركة جفنيه سببًا كافيًا لإطفاء القناديل وسط ذلك السكون؟ أم إغلاقهما؟!

لم يعد هناك.. غاب..

كان يقف وحيدًا، شبه عار، وثمة أيد تقذفه بكتل لزجة حادة، تسقط على الأرض ولكن شوكها ينغرس في لحمه عميقًا.

زمن طويل مرَّ، قبل أن يدرك أنه يُقذف بعشرات القنافذ. عشرات الكرات الإبرية التي تخفي واحدًا من أرق وأطيب وأدهى الكائنات.

.. وجاء صوت من بعيد، صوت يعدو باتجاهه، وصلَه، لكن صاحبة الصوت لم تصل. إنه على يقين من أنها نجمة، أمّه، قالت له: لا ضرورة لأن تراه يا ظاهر، لا ضرورة لأن تراه، لقد تحوّل إلى قنفذ.

وصرخ، لا يمكن لبِشْر أن يتحوّل إلى قنفذ!

وأقسمت له أن هذا ما حدث، وأن من رأوه لم يصدّقوا أعينهم!

وغاب صوت نجمة، وحضرت هي؛ كانت صامتة. انتظر أن تقول شيئا، لم تقل. سألها: إلى أين ذهب صوتك؟!

لكن طعنة ما، يعرفها، فاجأته من جديد، صرخ، لكنها لم تسمعه، وسألها: أين ذهب صوتي؟!

ورآها تقترب أكثر وتشدّ على يده، كما لو أنها تعزّيه. التفتَ، كانت تشدّ على يده فعلا، لكن يده لم تكن هناك، وتمنى أن تشدّ على اليد الثانية، فلعلها لم تزل موجودة!

نظر إلى حيث هي، لم تكن هناك. فكّر بقدميه، لكنه لم يجرؤ على النظر حيث هما. تحسسَ رأسه، لحيته، عنقه، صدره، وجاءت الطعنة من جديد، صرخ. لكن نجمة لم تسمعه، كيف لم تسمعه نجمة؟!

سار في الممرّ، توقّف أمام الخزانة المصدَّفة، فتحها. كانت نفيسة في الدّاخل تنتظره، وسألته: لماذا لم تفتح لي الباب؟ لقد طرقته كثيرا ألمْ تسمعني؟! وسارت نحوه. وضعتْ قدمها الأولى على الأرض، وحين وضعت الثانية اختفت.

تلفّتَ حوله، لم يكن هناك أحد، كانت القناديل ترفّ وترفّ. نظر إلى الأعلى وجد عباس هناك ملتصقًا بالسّقف!

- ما الذي تفعله هناك؟ سأله ظاهر.

- لا شيء. إنني أنتظرك، لمَ تأخرت؟!

- انزلْ، انزلْ هنا، ما رأيك أن نذهب إلى البحيرة؟!

- بل اصعد أنت! أنا لا أستطيع النّزول!

قفز ظاهر في الهواء، لامسَ ثوب ذلك المُتدلّي، وقفز مرّة أخرى وإذا به يمسك بقدميه. تركهما وتراجع للوراء، كانتا قدَمَي أخيه صالح. سأله صالح وهو يبتسم: كيف اعتقدت أنني عباس؟!

- لأنك كنت عباس.

- لكنني صالح!

بحث عن كرسيّ يضعه تحت القدمين المعلَّقتين في الفراغ. لم يجد. جرَّ السرير بصعوبة، لكنه حين رفع عينيه باحثًا عن صالح لم يجده.

وجاء صوت من مكان بعيد؛ جاء من أمامه ومن ورائه وعن جانبيه. وأحسّ بيد تربّت على كتفه. استدار، كانت امرأة، امرأة نصف وجهها شاب، ونصفه الآخر عجوز متغضِّن، نصف شعرها أسود ونصفه أبيض! ولها جديلتان، واحدة بيضاء وواحدة سوداء! حاول أن يتذكّر أين رآها، فقالت له: هل نسيتَني، أنا تلك الفتاة بجانب البحيرة، هنيّة! جئت لأشكرك! وأخبرك أنني بيضاء لم أزل، ناصعة كرامتي كما تركتها! فسألها: ومن هذه المرأة العجوز التي جاءت معكِ؟ وهو يشير إلى نصف وجهها الثاني، فقالت: كنت أعتقد أنك ستعرفها! وبدأت تبكي. لكن النصف العجوز كان حزينًا فقط. لم يبك. وامتدّت يد هرمة وأمسكت باليدِ الصَّبية على الجانب الآخر، وهي تقول: قلتُ لكِ إنه لن يعرفكِ! ألم أقلْ لك إنه لن يعرفكِ؟ هيا بنا، لقد تأخّرنا، لقد سقط الليل من ساعتين فوق البحيرة. لا

أريد أن أضيّعكِ، فهمتِ؟! سأسير أمامك، فمهما كان الليل حالكًا سترين جديلتي البيضاء هذه!

ابتعد الجسد وهو يسير جانبيا، لا إلى الأمام. النصف العجوز إلى الشرق والآخر إلى الغرب. ظلّت الجديلة البيضاء تتراقص في العتمة، إلى أن وصلت طبرية وهو يراها!

حاول أن يتذكّر أين هو: إنني في عكا. قال. وفجأة استيقظ.

أشرع عينيه، لكنه لم ير شيئا. كان الضوء قويًّا، وقاسيًا كالعتمة.

- صباح الخير! قال صْليبِي وقد رآه جالسًا في السرير.

- صباح النور! كأن جمعة نسي اليوم أن يُحضر لي طعام الإفطار؟!

- سأحضره بنفسي.

وفجأة تذكّر الطعنات؛ الأصوات التي تأتي، والبشر الذين لا يأتون! والمرأة الشابة العجوز، والقنافذ التي تُلقى على جسده العاري!

- كأنني كنت مريضًا يا صْليبِي؟!

- كثيرًا يا والدي.

- هل تستطيع أن تحضر لي طعامي، أم...؟!

- أستطيع يا والدي، أستطيع.

***

سمع ظاهر خطوات صْليبِي راكضة في الممرّ، فاستغرب ذلك.

وصل صْليبِي إلى الجزء الآخر من السّراي. كانوا هنالك كلّهم: نجمة وأحمد وسْعيد ودهقانة. طمأنهم بأن الشيخ استيقظ وطلب طعام إفطاره. وحين همّوا بالذهاب، قال لهم: اتركوه وحده الآن.

- كيف أتركه وحده؟! قالت نجمة وانطلقت تركض في الممرّ الطويل.

***

في ديوان السّراي، كان السّلال والدّنكزلي يراقبان بصمت الصبّاغَ نائما: كيف الشيخ؟ سأل الدّنكزلي.

- بخير. لقد استيقظ وطلب طعام إفطاره.

- الحمد لله، الحمد لله.

في تلك اللحظة تململ الصبّاغ، وهمس: استيقظَ؟ الحمد لله.

أسند ظهره إلى الحائط قليلا. تأمّل وجوههم، وقبل أن ينهض امتدّت يده باحثة عن حقيبته، كما لو أنه هو الذي وضعها هناك، بنفسه، تناولها، وقال: سأعود إلى بيتي الآن!

- ألا تريد أن تراه، وتعرف ما إذا كان قد شفي تمامًا أم لا؟! سأله صْليبِي.

- لقد استيقظ، ألم تقل إنه استيقظ؟

- نعم.

- خلاص، لقد انتهى عملي!

مدّ صليبي يده إلى جيبه، وتناول كل ما فيه من نقود. وقبل أن يخرجها قال الصبّاغ: أرجوك، لا تخرجها من جيبك! أتريدني أن آخذ مالا مقابل تطبيبي للشيخ؟!

لم يخرج صْليبِي يده من جيبه، إلا بعد أن أرخى أصابعه وأعاد النقود إلى قعرها. سار مع الصباغ حتى بوابة السّراي. طلب من الجنود أن يوصلوه إلى بيته، فقال، لا عليكم. أريد أن أتمشّى قليلا!

سأله صْليبِي: هل ستعوده بعد الظهر أم في المساء؟

- لا ضرورة لذلك! ألم تقل إنه استيقظ؟!

***

راقب الشارع المزدحم أمام باب السّراي. هل يذهب إلى البيت؟ يضع الحقيبة ويعود؟ أم يتجوّل قليلا في الأسواق، ثم يعود إلى البيت وينام حتى الظهر؟!

كانت الرائحة التي عبرت أنفه، كفيلة بحسْم الأمر!

حديث أخير مع الملاك

اختلى ظاهر بنفسه، ما إن تعافى، وأمامه تلك الصرّة التي عمل الكثير على ألا يفتحها، الصرّة الجديدة التي وصلته.

أكثر ما حيره أن الجديلة التي فيها كانت ناعمة وصغيرة، بخلاف تلك التي كانت سوداء وسميكة آخر مرة. تأمل لونها الكستنائي ومر عليها بسبابته، خائفًا أن يجرحها.

***

سألته نجمة وقد رأته فوق ظهر حصانه وحوله فرقة صغيرة من الجنود: إلى أين؟

- إلى طبرية. أريد أن أرى صْليبي!

هزّت نجمة رأسها؛ فالصرّة التي وصلت ليلة مرضه، تسلّمتها بنفسها، من أحد الخدم الذي استلمها.

***

شاع خبر وصوله إلى طبرية. عانق صْليبي، وقبل أن يستريح، قال له: أريد أن أرى طبرية؛ وعندما وصل الباب، فوجئ بالناس يملأون الساحة أمامه.

حيّاهم، وبعد أن تحدث معهم قليلا، عاد إلى الداخل.

بعد ساعات غادر السراي من بابه الخلفي. سار حتى وصل بيارة الليمون. كان البيت الذي يتوسّطها قد غدا من طابقين، وكبيرا على نحو ملفت. مضى نحو البوابة الكبيرة واجتازها، حتى وصل إلى باب البيت. كانت رائحة الليمون تملأ الجو بعبق لا مثيل له. طرَق الباب، وانتظر، ثم طرقه ثانية. بعد قليل، وصلت فتاة صغيرة لم تتجاوز الرابعة، وقبل أن يرى وجهها، رأى ذلك الفراغ المتأرجح مكان جديلتها الثانية الغائبة.

نادت الصغيرة: أمي. فظهرت امرأة في منتصف عقدها الرابع، جميلة. كم كانت تشبه هنيّة في ذلك اليوم البعيد. وفاجأته: الشيخ ظاهر؟!

هز رأسه، كما لو أنه يقول: نعم.

- ولكن لا يمكن أن تكوني هنيّة!

- لا يا شيخ. هنيّة، أمي!

امتدت يده وأخرج الجديلة من جيبه: هذه جديلة صغيرتك؟!

- إنها هي يا شيخ. أرسلتها إليك كما أوصت أمي.

- لستم مدينين لي بشيء لتواصلوا إرسال هذه الجدائل الغالية.

- ذلك نذْر أمي في حياتها، ووصيتها بعد رحيلها! فلا يغضبك هذا، أنت لا تستطيع أن تتخيّل، يا شيخ، كم نحس بأننا جميلات حينما نرسل إليك جدائلنا! وإذا ما أردت أن تتحدّث مع أمي في الأمر فهي هنا. وقبل أن يجيب ظاهر، صاحت: أمي. فأطلّت تلك المرأة مثل ملاك أبيض على العتبة، رقيقة كنسمة، وعجوز تكاد تتحوّل إلى طفلة لفرط رقّتها.

وقف ظاهر مبهورًا أمامها، كما لو أنها النقاء نفسه.

- تفضّل وأكرمنا بزيارتك يا شيخ. قالت.

- بيتكم عامر بأهله يا خيَّة! كنت أقول لابنتك..

- سمعتك يا شيخ، وسمعتُ ما قالته لك! ليس مثلك من يمكن أن يسلبنا ما منَحَنَا إياه من بياض! فاتركنا نزداد اكتمالا بما نرسله إليك منّا!

انحنى ظاهر وقبّل رأس الصغيرة، وحينما اعتدل، وجد هنية تنشر ابتسامتها الراضية؛ فابتسم لها بدوره، وأعاد: ولكن، أرجوكم، لا ترسلوا ...

ولم يكمل.. استدار وابتعد؛ وصوت المرأة الشابة يحوّم في روحه: أنت لا تستطيع أن تتخيل، يا شيخ، كم نحسّ بأننا جميلات حينما نرسل إليك جدائلنا!

عجْن الماء!!

- لقد وصل الوزير. قال الحارس الواقف بباب سراي ظاهر.

- دعوه يدخل.

ما هي إلا لحظات حتى كان الصبّاغ يجتاز العتبة بملابسه الرثّة نفسها، وهيئته التي تذكّر بشقاء متسوِّل.

هزّ ظاهر رأسه وهو يحدّق إليه.

- والله إنني أسمع كلامك يا شيخ، وأعرف كلَّ كلمة تريد أن تقولها! ولكن ما لها ثيابي؟! أليس من الأفضل للإنسان أن يكون التّواضع شيمته لا التكبّر؟! والبساطة مظهره لا الخيلاء؟! أنظر إلى الناس، يأتون شاكين باكين، وحين يرون ملابس وزيرك يخجلون من ملابسهم الفاخرة! وحين يقارنون صحتهم بصحتي، يخجلون من عافيتهم!

- لهذا السبب بالذات أريدك أن تغير مظهرك وتعتني بنفسك يا إبراهيم؛ لأن من يراك يبتلع نصف شكواه!

- وما الضرر في ذلك يا شيخ؟ هذا الأمر يفيدك. ألا يفيدك هذا يا شيخ؟

- يفيدني؟! والله إنني لا أعرف بماذا يفيدني، ولكن الشيء الذي لا أشكّ فيه هو أنه يضرّهم!

- يا شيخ ألم يقل نبيكم عليه السلام: "من جرّ ثوبه خُيلاء لا ينظر الله إليه"؟

- قال، وقال عليه السلام "إن الله يحبّ أن يرى أثر نعمته على عبده".

- يا شيخ! أوليست هذه الملابس نعمة؟!

- هذا أمر لا شكّ فيه! دونها ستكون عاريا!

- ها قد قلتَها بلسانك! كلّ ما أتمناه ألا تُشغل نفسك يا شيخ بهذا. اعتبرني مثل السيدة الوالدة نجمة. إنها لا تسير إلّا حافية، أليس كذلك؟! فهل يُنقص هذا من مكانتها ذرّة؟! وما ثيابي هذه، التي لا تعجبك، إلا وجه آخر لحفائها!

- يا إبراهيم، هي حافية، نعم، ولكن لو كان حذاؤها ممزقًا لصحّ لك أن تقارن ثيابك به! ولكنك لا تخلع هذه الثياب منذ عرفتك! على الأقل، هي تغسل أقدامها خمس مرات في اليوم.

- ومن قال يا شيخ إنني لا أغسل هذا الثوب؟!

- تغسله مرّة كل شهرين أو كل شهر لفرط خوفك عليه! ولو كنت تغسله خمس مرات في اليوم لما فتحتُ فمي!

- ولكنني يا شيخ لو غسلته خمس مرات، لما خرجتُ من بيتي! ولكان عليّ أن أجيئك عاريًا!

ضحك ظاهر: إلّا هذا!

- اقتنعتَ إذن؟!

- ومن لا يقتنع ما دامت هذه حجّتك؟! لنعد إلى موضوعنا الذي أتيت من أجله. هل أحضرت المال؟!

- خمسة آلاف قرش كاملة يا شيخ. ها هي.

- سنعيدها إليك بعد شهرين؟

- لا أحب أن أسمعك يا شيخ تحدد موعدًا لإعادة المال إليّ! كأني قلِقٌ عليه! وأنا لست كذلك!

- بل أريد لك أن تعيش شهرين على الأقل! لأنني على يقين أنك لن تموت ولك في ذمتي أو ذمة الآخرين دَين!

- والله يا شيخ، وصدّقني! لقد قابلت الكثير من الناس، ولم يفهمْني أحد مثلك!

- وهذا ما يحيّرني أيضًا! إنك تفهم كل ما أفكّر فيه، ولا تتردّد أبدًا في عمل أي شيء أحتاجه.

- أهذا ظنّك بي يا شيخ؟!

- وهل تعتقد أنني عيّنتك وزيرًا لغير هذا؟ أم أنك تعتقد أنك أصبحت وزيري لمحبتك للتّواضع وكرهك للخيلاء؟!

***

لم يكن السّلال قد فرح بالتخلص من سليمان الصوان، طبيب ظاهر، حينما اكتشف أنه في مهبّ رجل لا مثيل له[1].

كان السّلال يعرف الصبّاغ: ومن لا يعرفه في عكا وما حولها؟ فهو أبخل غني، لكنه تحوّل إلى أشهر وأفضل طبيب منذ أن شفي الشيخ ظاهر على يديه.

***

- ما الهدية التي تحب أن أقدمها إليك يا إبراهيم، فأنا مدين لك بدين حتى لو أعدته كله فسأظل مدينا لك بأضعافه؟!

- خير هديه تقدِّمها إليَّ اليوم، وكل يوم، أن أراك تنعم بالصّحة يا شيخ!

- وكيف يقولون إنك لا تحب شيئا مثلما تحب المال؟!

- لا أظنك تصدّقهم يا شيخ! إنه الحسد! ولا شيء غير الحسد الذي قيل فيه:

لله شرُّ الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتلَه!

- على أي حال، ألا تريد أن تخبرني بعد مرور كل هذا الوقت عن علّتي.

- ما دمنا انتهينا من أمرها، فلا ضرورة لكي نتذكّرها يا شيخ!

- سأتجاوز هذه إذن إكرامًا لك، لأسألك عن سببها!

- ما دمنا تغلّبنا على السبب فقد بَطُلَ مثلما يبطل العجب! فهو لم يعد موجودًا.

- سأتجاوز هذه أيضًا لأسألك عن الدواء الذي استخدمته!

- لا ضرورة لمعرفة اسم دواء لا يعرف المرء أيّ مرض أشفى!

ضحك ظاهر وقال: والله إن فيك كرمًا لم أر مثله، وبخلا لم أر مثله، وطيبة لم أر مثلها، ومكرًا لم أر مثله، وهيأة لم أر مثلها ،وعلْمًا لم أر مثله!

- اسمح لي أن أخرج بسرعة يا شيخ، لأنني أخشى أن تستيقظ النّخوة فيّ فأتبرّع للخزينة بالمال الذي أتيتك به، بعد كل هذا المديح!

---

[1] - أحسّ السّلال بأن رياحًا قادمة ستهبّ، وأن عليه الابتعاد قبل وصولها! ومن بينها بدء تألق نجم الصبّاغ، وحسه بأن دولة ظاهر باتت في خطر، بسبب عداء عثمان باشا له، وخلافات ظاهر مع أبنائه، فجمع أمواله وأمتعته في زورقين، وتسلل هاربًا، لكن ظاهر علم بالأمر، فألقى القبض عليه وسجنه، ثم ما لبث أن أفرج عنه.

وصول السفينة الفرنسية

فجر العاشر من أيار 1761، استيقظ سكان حيفا على أصوات قذائف المدافع، كانت المدينة ترتجّ، وصياح النوارس الهاربة صوب البرّ نذير شؤم. انتشرت الفوضى في المدينة، لكن أحدًا من سكانها لم يعرف ما الذي عليه أن يفعله.

أيام الأمان التي حظيت بها المدينة تطايرت أجنحةً مذعورة! وبدت حيفا الجديدة، التي لم تجفّ أسوارها وسطوح بيوتها، بعدُ، فريسةً سهلة لهدير القنابل.

في ذلك الفجر، كان البحر هادئا ورماديا على نحو غريب. تقدّمت السفينة، وكل من فيها على يقين من أنهم اختاروا اللحظة الملائمة لتنفيذ أوامر عثمان باشا: مباغتة حامية المدينة والاستيلاء عليها وإعادة ضمّها إلى دمشق من جديد.

ذلك كلّه تطاير مع بدء انهيال قذائف المدافع عليها، حين اقتربت من الشاطئ. كانت أخبار قدومها قد سبقتها.

فوجئت السفينة بحجم النار. حاولت التّراجع، لكن ذلك كان مستحيلا، فالنيران التي بدأت بالتهامها دفعتْ بحارتها للقفز في الماء والالتجاء إلى البرِّ في محاولة مستميتة للخلاص، لكن بنادق جنود ظاهر وسهامهم كانت تكنس الشاطئ على نحو مرير!

تناثرت الجثث على الرّمال، وتصاعدت النيران عالية مُسرِّعةً شروق الشمس!

***

لم يكن إرسال سفينة أو أسطول هو الأمر المفاجئ، بل كانت جنسية السفينة هي الأمر الصاعق: أيتحالف الفرنسيون مع عثمان باشا الكرجي بعد كل هذا الذي قدّمته لهم؟! قال ظاهر بغضب.

راحت النيران التي التهمت السفينة الفرنسية في ميناء حيفا، تمتدّ وتمتدّ، حتى حاصرت كل خان ومتجر ومصلحة فرنسية في عكا! ولم يكن ظاهر رحيمًا؛ إذ لم يستثن أحدًا منهم، حتى أولئك الذين كانت تربطه بهم علاقة شخصية، وجدوا أنفسهم في أتون تلك النار الغاضبة.

لكن الشيء الوحيد الذي لم يكن يخطر ببال فرنسيي عكا، هو مغادرة هذه المدينة التي غدت مصدر ربح، يعدهم في كل يوم جديد، بربح أكبر.

كان ظاهر يعرف النقطة المؤلمة في الذّراع الفرنسي، ولم يكن له إلا أن يضغط أكثر!

أوقف كلَّ السفن التي كانت تتهيأ للإبحار ببضائعهم، واستولى على البضائع، وأعلن أنه سيدفع ثمن كل بضاعة لم تُسلَّم لهم بعد! في الوقت الذي ترك فيه باب ميناء عكا مُشرعًا لمن يريد منهم أن يسافر! وقال تلك الجملة القاطعة: لنر كيف ستعمل مصانع نسيجهم. وأعطى أمره: لا قطن لفرنسا بعد اليوم!

عاش الفرنسيون أسوأ أيام حياتهم في عكا؛ وأدركوا أن عليهم التحرّك بسرعة لكي لا تتفاقم خسائرهم.

أرسلوا إلى سفير بلادهم في إسطنبول يطالبونه بالتحرّك لإعادة الأمور إلى ما كانت عليه سابقًا. لكن ذلك لم يكن ممكنًا، إذ أخبره (الرئيس أفندي)[1]، أن الباب العالي لم يعد يحتمل اتساع نفوذ ظاهر وتمرّده، وأن إخضاعه بات أمرًا ملحًّا، وأن على الفرنسيين الموجودين في عكا أن يصبروا قليلا ويحتملوا.

***

جنّ عثمان باشا الكرجي في دمشق، وأحسّ بخطئه، فقد كان عليه أن يتّعظ من الهزائم التي ألحقها ظاهر بوزراء دمشق، وأن يعرف أن إرسال سفينة لاحتلال حيفا كان أكثر قراراته غباء، بعد أن منحه السلطان الفرمان الذي حلم به للقضاء على ظاهر.

ها هو يسقط أيضا صريعًا على أبواب حيفا، وقد كان عليه أن يرسل مائة سفينة ليدكّها ويدكَّ عكا فوق رأس ظاهر.

في تلك اللحظة القاتمة، أشرقت فكرة لم تخطر لعثمان باشا من قبل: سأهدم قلعته من داخلها!

---

[1] – وزير الخارجية.

ورَقَة بألف وجه!

رفض سعد العمر أن يذهب للقاء عثمان باشا الكرجي في دمشق، فهو لم ينس أبدًا شنْق أخيه صالح في ميدانها؛ في الوقت الذي كان فيه على يقين من أن عثمان باشا لن يأتي للقائه في دير حنا!

بعد مراسلات طويلة، اتّفقا على اللقاء في قرية (فيق) على مشارف طبرية.

لكن ذلك كلّه، لم يكن كافيًا لزرع بعض الطمأنينة في قلب سعد.

تردّد كثيرًا، بل وفكّر في أن يرسل رجاله خلْف رسول عثمان باشا ليخبروه أنه تراجع. همَّ بذلك! وقف رجال سعد ينتظرون طويلا ذلك الأمر الغامض الذي يتردد في إعلانه. صرفهم، ثم استدعاهم مرّة أخرى، وصرفهم!

نقمة سعد على ظاهر، كانت قد أصبحت أكبر من خوفه على حياته! فها هو ظاهر *"الذي وقفتُ إلى جانبه ونصرته مذ كان طفلا، وقاتلتُ معه لا يفكّر لحظة بالالتفات إليّ! كما لو أنه يعتقد أن دير حنا وعرابة كثيرة على هذا الأخ العجوز! ها هو، كغيره، دائما، يقرّب الابن الذي من صُلْبه على ذلك الأخ الذي من صُلب أبيه!"*

لكنه لم يكن يعرف أن الرياح كانت تسير في الاتجاه الذي يتمنّاه، هنالك، في شفاعمرو!

***

في ذلك الضّحى، المضاء بشمس طيبة وبنوّار اللوز والأزهار البريّة اليانعة، خرجتْ تلك المُرضعة الشابة، من بيت عثمان الظاهر، باكية تتعثّر. كلّما ارتطمت بشيء، وقد عميتْ أقمارُها، تصاعد بكاؤها أكثر، حتى وجدت نفسها في بيتها.

وصلت أخبارها إلى زوجها، فجاء يركض مجنونًا؛ لكن لسانها لم يستطع حمْل كلماتها كما استطاعت قدماها حمْلها من سراي عثمان إلى بيتها.

كانت تبكي، كما لو أن الإنسان لم يخلق إلا ليبكي، ولا شيء غير ذلك!

بدأ الناس يتقاطرون على بيت تلك المرأة، مرضعة ابن عثمان، وقد هزّتهم حكايتها التي باتت على كلّ لسان. المرأة التي لن تتوقّف عن البكاء، قبل أن تذوب!

ذات يوم غالبت، بحر الدّموع الذي جرفها وغلبته، وقالت كل شيء دفعة واحدة.

ولم يكن كثيرًا:

- لقد حاول عثمان ظاهر الاعتداء عليّ!

كانت تلك واحدة من أكبر الصّدمات التي رجّت البلاد، بعد أن أدرك الجميع أن زمن الاعتداء على امرأة قد ولّى منذ اتساع حكم ظاهر.

***

أمام ظاهر وقف عثمان منكّسا رأسه، متوقّعا كلّ شيء. كانت يد ظاهر تقبض على السيف بقوة؛ وألف سبب يدعوه لأن يقطع رأسه!

تلك الفتاة على شاطئ بحيرة طبرية كانت أمامه ترتعد، وتصرخ طالبةً منه أن يصون عفّتها، وكان دم ذلك الرجل يسيل ملطّخا مقبض السيف، وقبضةَ ظاهر.

وقفتْ نجمة على بعد خطوات متوقّعة كل شيء! في النهاية، وجدت نفسها غير قادرة على البقاء، سارت؛ وفي طريقها إلى الباب، رفعت يدها ومسَّت كتف ظاهر الأيمن، برفق، دون أن تقول شيئا! وظلت تبتعد كما لو أنها تريد أن تختفي.

أشار ظاهر إلى رجاله. تقدّموا نحوه. كلمة واحدة قالها، وابتعد: اشنقوه.

ارتجف جسد عثمان، كما لو أنه يتدلّى من مشنقة، ووصلت الكلمة التي قالها ظاهر بكل ذلك الخفوت اليائس إلى كل أذن في السّراي!

تردد الحرّاس، فأعادها ظاهر مرّة أخرى، وبالخفوت اليائس نفسه: اشنقوه!

عاد صدى الكلمة يتردد قويًّا، وانتقل ليدوّي في كل غرف السراي. لكن أحدًا لم يجرؤ على الخروج.

ارتفعت الحبل في الهواء، ودار حول بوابة السّراي، وسقط من الناحية الأخرى. أمسكه أحد الحراس وعقده.

عاد ظاهر ونظر خلْفه، بعد أن أحسّ بأنهم هيأوا المشنقة.

جرّوا عثمان، وقد تحوّل جسده إلى خرقة بالية. كانوا يهمّون برفعه على ظهر حصان بعد أن ثبّتوا الحبل حول رقبته. فقال ظاهر: لا. لا يستحق أن يموت فوق ظهر حصان. أحضروا أي شيء، طاولة، كرسيًّا، حمارًا، أي شيء..

تركوا عثمان، واستداروا يبحثون عن شيء آخر يرفعونه عليه. وقبل أن يبتعدوا، كان الجهجاه بن عثمان قد وصل. رأى الحبل حول عنق أبيه، قفز عن الحصان حتى قبل أن يوقفه، وأمسك بقدمي جده بغتة، يقبلهما، ويرجوه: من شان الله، لا تشنقه يا جدّي.

ارتعد جسد ظاهر، انحنى وبسرعة رفع حفيده، وصرخ في وجهه: قم، لم يخلقك الله لترتمي على حذاء أحد.

وأبعده عن جسده.

راح الجهجاه يبكي ويبكي بصمت، وظاهر يراقب دموعه التي تتساقط على التراب.

أحضر الحرّاس كرسيًّا، ورفعوا عثمان فوقه، دون أن يقاوم، كما لو أنهم يشنقون شخصا آخر، كما لو أنه لا يعي أنه هو الذي سيموت بعد قليل.

حين رأى الجهجاه أباه فوق الكرسي، والحرّاس يشدّون الحبل ناحيتهم، سقط مغشيا عليه.

انحنى ظاهر بسرعة، تحسس صدره، اطمأن إلى أنه بخير، حمله، وقال للحراس: لا تنزلوه عن الكرسيّ، فليبق هناك، إلى أن تأتي تلك المرأة، فهي الوحيدة التي يمكن أن تحلّ الحبل عن عنقه، لا أنا، ولا أيّ واحد في الدنيا. أرسلوا من يحضرها، فهي صاحبة الأمر في حياته وموته منذ هذه اللحظة.

***

عندما وصلت المرأة في صباح اليوم التالي، كان عثمان على وشك الموت، تسلّخت رقبته، بعد ليلة أمضاها والحبل حول عنقه. كلما غفا سقطت رقبته، فحزّها الحبل وجرّحها.

حرص ظاهر على ألا يكون حاضرًا هناك، تركها مع حارسين، لتقرر حرّةً ما الذي تريده. ظلت واقفة لا تدري ما الذي يمكن أن تفعله، حتى الظهيرة، وعندما ارتفع أذان الظّهر، نظرت إلى الحارسين، وقالت: سامحته! واستدارت خارجة.

***

جالسا كان ظاهر وبجانبه الجهجاه في ديوان السراي، عندما دخل عثمان على هيئة قتيل:

- لقد منحتكَ تلك الشريفة حياة جديدةً، وهذه هي المرّة الأخيرة التي يمكن أن يمنحك أحد فيها حياةً بعد أن سلبته حياته. قال له ظاهر، وأضاف تلك

الجملة التي سيمرّ وقت طويل قبل أن يفهم عثمان معناها: سأُخلي سبيلك الآن، ولكنني لن أظلم أعدائي مرّة أخرى!

***

وصل عثمان بيت المرأة ليشكرها، كما أمره ظاهر. طرق بابها مرة مرتين، دون جدوى، وللحظة نسي ما منحتْه، فأغار نحو الباب يريد أن يحطمه، وقد أحسّ أنها تهينه بتركها إياه في الخارج! أمسك به رجاله وقادوه بعيدًا.

أيام كثيرة مرّت، وليلة الرّعب الملتفة حول عنقه تزداد اطباقا، لكنّه ظلّ يفكر في ذلك المعنى الكامن في تحذير أبيه: *" ما الذي يعنيه العجوز بقوله: لن أظلم أعدائي مرّة أخرى؟!"*

***

طافت تلك الحكاية البلاد مرات ومرات، وعندما وصلت إلى أذني سعد، قرر أن يتحرّك بسرعة.

***

لم يكن لقاء سعد بالوزير عثمان باشا الكرجي مريحًا بالنسبة له، فطوال اللقاء لم يبارحه ذلك الحسّ العميق بالخيانة! أشبه برجل قرر التحوّل إلى قاتل كان، بقـدْر خوف ضحيته الأولى منه، هو يخشى عملية القَتْلَ، نفسها، أكثر!

لكن الوزير بدا واثقًا، بل ومقنِعًا وهو يؤكد لسعد أنه الشخص الأمثل لخلافة ظاهر، فالدّولة تحبّه، ولم تسِل بينه وبينها، في أيّ يوم من الأيـام، قطـرةُ دم واحـدة، حتى عندما حاصرت قوات سليمان باشا طبرية اثنين وثمانين يوما! كما أنه خير من يُسيِّر الأمور بعد ظاهر.

***

في طريق عودته من (فيق) لم يتوقّف سعد في دير حنا إلا ليشرب جرعـة مـاء. شخص واحد، لا غير، كان هناك في رأسـه؛ إذا كـسبه، سيـضمن الـتخلّص مـن ظاهر إلى الأبد. حين وصل شفاعمرو، أدرك أن ابن أخيه عثمان، كان في انتظـاره! كان الناس يتداولون تفاصيل ما حدث، ويضيفون إليها الكثير، ويتندّرون، وهـم يصفون حجم تذلل عثمان. لم يكن سعد بحاجة لبذل الكثير من الجهـد كـي يُقنـع عثمان، بل بدا له أن عثمان مستعد للزّحف إلى عكا وقتْل أبيه لو اسـتطاع، في تلـك اللحظة.

راح سعد يقنعه بالتريّث. دعاه للتفكير بشخص ثالث يكون معهم، شخص قريب من ظاهر! فكرا في أحمد، وسْعيد، وعليّ الظاهر.

استبعد عثمان أحمد وسْعيد ووصفهما بالغلامين المدللين؛ وحين ذكر سعد اسم عليّ، قال عثمان: لا أشك في أنه سيكون معنا، ولكن ما إن نتغلب على العجوز حتى نراه ينقضّ هو بنفسه على رقابنا. أقول لك هذا كما لو أنني أرى كل شيء أمامي!

لم يكن عثمان يخشى أحدًا، بعد أبيه، مثلما كان يخشى عليّ: نريد رجلا نستطيع وضعه تحت جناحنا، لا رجلا يعتقد أن أجنحته أكثر اتساعًا من أجنحتنا وأقوى.

أطرق سعد طويلا، وحين رفع رأسه بدا هرمًا على نحو فاجأ عثمان، وجعله يتساءل في نفسه: *هل أنا مجنون لأحالف هذا العجوز؟!* لكنه تذكّر أن هذا العجوز هو حليف وزير دمشق الآن! أما الفكرة التي أنعشت روحه، فهي أن التخلّص من سعد سيكون سهلا فيما بعد!

كانت المؤامرة تنمو في رحم المؤامرة، وفي رحم الثانية تنمو مؤامرة أخرى.

تأمل سعدٌ عثمانَ، وفكّر: *"لم أره ذكيًا إلّا في وصفه قوة أخيه عليّ، وسوى ذلك، لم تبدُ عليه يومًا أيٌّ من علامات الذكاء! فقد كان أهوج، ولا يستطيع كبح جماح نفسه، لا أمام امرأة ولا أمام قرش. وهذا النوع من البلهاء لا شيء أسهل من التخلّص منهم! سأرسل إليه جارية جميلة، بل نصف جميلة! بعد أن ننتهي، وقبل أن يُكمل ليلته معها، ستكون قد وضعتُ له سُما يكفي لقتله عشرين مرّة!"*

- أنت تفكر في أمر عظيم؟! سأله عثمان.

- ماذا؟!

- قلتُ: أنتَ تفكر في أمر عظيم.

- وكيف عرفت؟

- لأن خبزك قابع فوق نارك الحامية منذ نصف ساعة يا عمّ، حتى أن الدخان يمكن أن يُرى متصاعدًا منك في العتمة!

ضحك سعد: أتعرف يا عثمان، يحقّ للمرء أن يسيء بك الظن كيفما شاء، أما ما لا يستطيع إساءة الظن فيه، فهو أنك شاعر!

- أشكرك يا عمّ. وبدا محرجًا أمام مديح عمّه المفاجئ.

كان عثمان معروفا بقصائده التي يحفظها كثيرون، ولكنه لم يكن وحده من أبناء ظاهر الذي ينظم الشِّعر.

***

- كريم الأيوب الزّيداني! قال سعد.

- ماذا؟!

- ليس لنا سوى كريم الأيوب الزّيداني، زوج أختك عَليا، فهو الشخص الذي لم يسبق لظاهر أن كان له معه أيّ مشاكل.

- ولكنه زوج أختي. ثم ما الذي يدعوه للقبول بمشاركتنا مهمّة كهذه؟! لا أظنه يوافق.

- بل سيشاركنا، فقد علمتُ أنه يُضمر حقدًا، ويقول: ها هو ظاهر يعيّن أولاده ولاةً على البلاد، ولا يرى فيَّ سوى جندي يحرس أبواب قلاعه!

- لم أسمع بهذا الكلام من قبل يا عمّ. قال عثمان.

- لقد قاله.

- إذن، لا يمكن أن يكون يقصد ما فيه. فلا شيء ينقصه.

- الدجاجات تأكل وتشرب، والديوك تصيح وتتبختر في فناء بيت الوالي، ولكنها لن تكون أكثر من ذلك. الفرق بين الدجاج والبشر يا عثمان: أن البشر يعون ما هم فيه، ولا يكتفون بما تكتفي به الديوك!

- أنت تخيفني يا عمّ! ولكن لا بأس بأن تحاول أنت! وأن تتذكّر أن هذا الرأي هو رأيك، وليس رأيي، فقد تدفع رأسك ثمنًا لهذا!

- اطمئن يا عثمان. أنا أعرف كريم، هذا، منذ ولدته أمّه. سيكون على استعداد لتقبيل يديّ لأنني تذكّرته في أمر كبير كهذا!

***

أمسك كريم بكتاب سعد العُمر، وقلّبه في يده، كما لو أن للورقة ألف وجه!

شيء ما سكنه: إن كلَّ كلمة تخبئ في جوفها سرًّا من نوع ما، رغم أن سعد لا يطلب منه سوى شيء واحد: أن يخترع حجّة للخروج من عكا لمقابلته في دير حنا، وأن يحرص على ألّا يعلم ظاهر بأمر هذه المقابلة!

***

سأل ظاهر: لم أر كريم منذ يومين، هل يعلم أحد مكانه؟!

- قيل لي إنه ذهب إلى الناصرة لقضاء حاجة له هناك.

- إلى الناصرة إذن! الغائب حجَّته معه كما يقال! علّق ظاهر، لكنه بدا مهمومًا على نحو غير عادي!

الأضلاع والحجارة!

بعينين خبيرتين، راقبته نجمة، راقبته كما يراقب صقر كلَّ حركة على الأرض وهو ثابت هناك في السماء كغيمة صغيرة لا تغلبها الرِّيح.

- أراك مهمومًا يا شيخ!

- ليس كثيرًا، ولكنّ أمر السفينة الفرنسية هذه عكَّر كل شيء. وعليَّ أن أجد حلا، فبعد أشهر سيكون موسم القطن قد حلّ!

- أهذا ما يقلقك؟!

- وما الذي يمكن أن يقلقني أكثر من هذا يا أمي، فالقطن، كما تعرفين جزء مهم من تجارة هذه البلاد وحياة أهلها[1].

- بيننا وبين موسم القطن شهور، وسيحلّها الحلَّال! وصمتت قليلا، قبل أن تضيف: لم لا نذهب أنا وإياك إلى حيفا؟ أظن أن الناس بحاجة إليك بينهم بعد ما حدث، كما أنني بشوق لرؤية هذه المدينة، التي أظنها بحاجة إليك أيضا، فهي لم تزل طفلة، ولعلنا، أنا وأنت، نمسك بيدها وننزل بها للبحر!

- كنتُ أفكِّر في الذهاب إليها.

- وهناك شيء أنت بحاجة إليه اليوم أكثر من أيّ شيء آخر!

- وما هو يا أمي؟

- حين نصل حيفا سأخبرك!

***

لم ينم ظاهر تلك الليلة، دار في السراي، صعد القلعة، غمره هواء البحر. كم تمنى أن يملك أجنحة تحمله إلى الشاطئ، أو أن يستطيع بقفزة واحدة تجاوز

---

[1] - بدأت صناعة القطن في انجلترا بالقطن الأحمر الوارد من عكا وصيدا، وكان القطن يزرع أيضا في اللد والرملة - وبالطبع طبرية-، إلا أن القطن الذي كان يزرع في الجليل حظي بشهرة النوعية الأفضل، "قطن دي أكرو" أي: القطن العكاوي، وكان من أهم العلامات المميزة في فرنسا. ووصل حجم تصدير القطن عبر ميناء عكا عام 1750 إلى 3,742,750 كغم.

T

الثلاثمائة أو أربعمائة متر التي تفصله عن الموج! جلس متأمّلا المدينة المضاءة بالقناديل، لكن حلكة الظلام، فوق البحر، كانت تشدّه وتشدّه إلى أعماقها.

في كل يوم أتى فيه إلى هذا الموقع، ومهما كانت همومه ثقيلة، كان صوت موج البحر كفيلا بمحو كل تلك الهموم، بغسْلها. لكن عقله وقلبه ظلّا معلّقين بوقع حوافر فرس كريم الأيوب التي كانت تبتعد، ويهيأ إليه أنه يسمعها.

حين دخل غرفته آخر الليل، لم ير منها سوى تلك الشُّعَل المتأرجحة، وقد مسّتها ريح البحر. تأرجحت الشُّعَل وتأرجحت، وفجأة عمّ الظلام!

هل سهر حتى الصباح محدِّقا في المكان الذي فيه القناديل آملا أن تتّقد الشُّعَل من جديد؟! هو نفسه لا يعرف، لكن الشيء الأكيد أنه لم يُسلِّم بانطفائها.

- إلى حيفا إذن! قال لنجمة وهو يبتسم، ما إن أشرقت الشمس.

***

أمضى ظاهر النصف الأول من يومه، في حيفا الجديدة، مع الدّنكزلي وعدد من الجنود، طائفين. كانت رائحة المدينة طازجة مثل رائحة الموج في الصباح، وبدا الهدوء الذي يحتضنها جزءا من كونها أصبحت بمنأى عن اعتداءات القراصنة التي انهكت حيفا العتيقة.

اعتلوا أسوارها، فانبسط الأزرق الكحليّ أمامهما بلا حدود. مال ظاهر إلى الدّنكزلي، وسأله: لقد فعلتَ الكثير من أجل هذه البلاد يا أحمد، ولكنك لم تسألني شيئًا!

- أسألك ماذا يا شيخ؟

- أن أعيّنك واليًا مقابل ما قدَّمتَ! مقابل إخلاصك وتفانيك من أجل خير هذه البلاد!

- ولكنني قائد جيشك؟

- ألا يطمح قائد جيشي بشيء. بأن يكون واليًا على الناصرة أو على حيفا هذه؟!

- لا يا شيخ، منذ التقيتك عاملتني كقائد! وهذا يكفيني. حين يكبر طموحي أكثر من ذلك، فإن عليك التخلّص مني فورًا، لأن ولائي لك يكون قد ضَعُف! ثم هل يطمح الطائر بشيء أكثر من كونه طائرا؟!

- عجيب أمرك يا أحمد. تأمله ظاهر، وأضاف: قلت كلاما جميلا، منذ زمن لم أسمع مثله. ولكنني أحب أن أسألك، وآمل ألا تعتبر هذا تدخلا في علاقة الطائر بجناحه: لقد وصلني أنك طلّقت زوجتك! هل هذا صحيح؟!

- صحيح يا شيخ، ولعلها لم تكن زوجتي منذ البداية؟!

- أوَلم تتزوجها على سنة الله ورسوله؟!

- نعم يا شيخ، ولكن هل يكفي هذا؟! أنت تعلم أنني تزوّجتها مكرهًا، فحين بدأت أميرة، تشيخ، قالت لي: "عليك إن تتزوّج من واحدة إن لم تُردها زوجة ترعاك، فأنا بحاجة إليها لترعاني!" أنت تعرف هذا كله يا شيخ.

- أعرفه، ولكن الذي لا أعرفه ولا يعرفه أحد: لماذا طلّقت زوجتك؟!

- ما كنت أحبّ أن أتحدّث في هذا الأمر، لحسّي، ربما، بأنني ظلمتها!

- لم أفهم شيئا، أوضحْ، ولو قليلا!

- كنت عند أميرة ساهرًا ذات ليلة، كانت مريضة؛ وإذا بالباب يُدقّ بعنف، سمعته من الدّاخل حتى قبل أن يفتحه الحراس. لم يستطع أحد منْعها، فهي زوجتي في النهاية! وحين وصلت باب غرفة أميرة راحت تدقّه بعنف أشدّ، وتصرخ: "أين أنتَ؟ ألستُ زوجتك؟! ألا أستحقّ أن تكون في بيتي لا في بيت هذه الجارية العجوز؟!" مع أنني كنت، والله، عادلا معها يا شيخ، ولم أنم ليلة في بيت أميرة إلا ونمتُ مثلها في بيتها! كنت أعرف أنها تغار من أميرة، لكنني لم أعرف أنها قابلة للجنون أيضًا. أزعجني هذا الأمر يا شيخ! ولو لم تكن أميرة مريضة لما انزعجتُ إلى ذلك الحدِّ، ربما! لا أريد أن أطيل عليك. فتحت الباب، وفوجئت بنفسي أسألها: من أنتِ؟! فردَّت: ولا تعرفني أيضًا؟! أنا زوجتك! فسألتها: زوجتي؟! فقالت: نعم زوجتك! فقلت لها: أنتِ طالق إذن! وأغلقتُ الباب.

صمت الدنكزلي، وشرد بنظره بعيدًا.

- أهذه هي الحكاية إذن؟! سأله ظاهر.

- هذه هي الحكاية التي خبأتها عن الجميع يا شيخ؛ وأعذرْني حتى عنك!

- لا عليك يا أحمد، لا عليك. يذكِّرني هذا الذي سمعته منك بما حدث لمتسلم الطابغة؛ فحين عثرنا له، بعد سنوات طويلة، على جاريته في صيدا، لم يكن قد تبقى فيها جمال يذكِّر بالزمن الذي سميت فيه بدر البدور. كانت قد فعلت كل شيء ليكرهها ذلك الجابي الذي اختطفها: شحبت وهرمتْ، وأهملت نفسها حتى

لا يقربها. للحظة فكَّرتُ ألا أعيدها لمقداد، كي لا أكسر حلمًا تعلّق به طويلا، وقد كنت أراه بين فترة وأخرى يطوف حول السّراي ليذكّرني بوعدي له. لكنـه حـين رآها اندفع نحوها، كما لو أن شيئا فيها لم يتغـير، وراح يـشكرني ويـشكرني حتـى أنني للحظة شككتُ في عقله! إلى أن تذكرتُ أن هذا هو الحب! وإن لم يكن مجنونا على هذا النحو وأعمى فهو ليس حبًا.

وسرح ظاهر، ابتعد، كما لو أن أفكاره حملت جسده معها!

نظر الدّنكزلي إلى وجه ظاهر، ثم تجرأ وسأل:

- كأني ألمح حزنا في عينيك يا شيخ؟

- حزن كبير. لكنني لم أدرك سببه بعد!

- إن كنت أستطيع رفعه عن صدرك، فأنت تعرفني يا شيخ.

- هناك حجارة إن لم يرفعها المرء بنفسه عن صدره، ستتهـشم أضـلاعه أكثـر حين يرفعها غيره!

***

تأمّلت نجمة الكرمل، وقالت: جبل كهذا يستحق أن يحلـفُ النـاس برأسـه! هل رأيت حيفا اليوم؟!

- رأيتها يا أمي، إنها تنمو وتتسع وتصبح أجمل، وتغدو يوما بعد يوم كما تمنّيت أن تكون.

وقفت نجمة تنظر إلى البحر، وهي تردّ الـشمس عـن عينيهـا براحـة يُـسراها المنبسطة: لكنك لم ترها كلّها يا شيخ.

- إن كنت أتذكر فقد رأيتها كلّها.

- أنت لن تراها كلّها إلا إذا صعدتَ الكرْمل معي!

- أتريدين أن تصعدي الكرمل؟! هل تستطيعين؟!

- وهل تعتقد أنني جئت إلى هنا لشيء غير هذا؟ وضحكتْ.

- كأن ضحككِ جدٌّ!

- نعم، ولكنني بحاجة إلى من يرافقني!

- وليس هناك غيري بالتأكيد!

- اخلع حذاءك، واتبعني.

وقبل أن يقول شيئًا كانت قد سبقته!

- أنت بحاجة لصعود جبل أكثر من أيّ يوم مضى يا شيخ! قالت وهي تبتعد.

تلفّتَ ظاهر حوله غير مصدق: *أتصعد الجبل وهي في هذا العمر؟!* همس لنفسه.

- سمعتُك! لن تتركني أصعده وحدي، أليس كذلك؟!

***

شاقًّا كان الأمر في البداية، فهو لم يسر حافيًا منذ زمن طويل إلا على رمل الشاطئ. وخزته الحجارة وبقايا النباتات الجافة. فكّر في أن يتوقّف قليلا ليأخذ نفسًا، لكن نجمة كانت تسير بين أشجار الصنوبر والبلوط، مثل ريشة، لو لم يكن يراها لما سمع وقْع خطاها.

- أنت تتبعني يا شيخ، بدل أن تصعد الجبل!

تنبه ظاهر أنه لا يفعل سوى هذا فعلا.

- اصعد الجبل يا شيخ، اصعده، كما يجب على رجل مثلك أن يصعد جبلًا! ولنجعل الجبل تحتك يحسّ بأن هناك حصانا، أو حتى جبلا يصعده! حين نعود إلى عكا، أريد أن أرى الكرمل فيك هناك أيضًا! انسني ولترم بعيدًا كل ما يُقصيك عنه. لقد مضى الزمن الذي كنت فيه بحاجة لاندفاع الخيلَ، وجاء الزمن الذي تحتاج فيه إلى قوة الجبال أيضا!

بعد دقائق راحت نجمة تتحوّل أمامه إلى طيف، وكذلك الأشجار. ولم يعد هناك وجود لتلك الحجارة والأعشاب الجافة تحت قدميه، كان يغوص في الجبل، والجبل يغوص فيه. كان يرتفع، كما لو أن أجنحةً ترفعه، ويرتفع الجبل فيه.

مرّوا على بعد مئة متر من مقام الخَضر، لكنهم لم يروه، ومرّوا بقبة كنيسة مار إلياس، ولم يروها.

قرب القمة هدأت الرّيح! فبدت كيدٍ عملاقة رحيمة تهدهده. هل كان يسير وعيناه مغمضتان؟! هو لم يعد يذكُر! لكنه على يقين أنه فتحهما حين أحس بالرّيح. وعلى بعد خطوات منه، رأى نجمة جالسة فوق حجر تنتظر وصوله.

كان يريد أن يقول شيئا، ولكنها بإشارة إلى شفتيها أوقفته.

جلس ملتصقًا بها. منذ زمن بعيد لم يلتصق بها على هذا النحو.

بدأت الشمس تغيب، فبدا شعر لحيته الأبيض مصبوغًا بالحنّاء. نظر إليها وهمس: دعينا نهبط الجبل من جديد.

- فقالت، بل نصعده ثانية، في طريق عودتنا.

صعداه ثانية!

نصف الجريمة!

كل شيء كان قد أعدّ، ولم يكن ينقصهم إلا حضوره.

جلس كريم الأيوب أسيرًا للمفاجأة، حين راح سعد يشرح له -بوجود عثمان الظاهر- ما يفكران فيه. لكنه حاول أن يبدو متردّدا ما استطاع أيضًا، وهو يسألها حينا ويجيب على أسئلتهما حينًا آخر. فقد أدرك أن عنقه قد بات رهينة سيفيهما، لأن سرًّا كبيرًا كهذا لن يسمح لأحد أن يتجاوز عتبة البيت إن لم يعد سرّه الخاص أيضًا. وهذا ما طمأن سعد قليلا.

- ولكنني زوج ابنته يا شيخ سعد!

- مهما كان غاليًا عليك، فهو علينا أغلى! لا تؤاخذني إذا ما قلت كلامًا كهذا، فهو في النهاية أخي، وهو والد عثمان الجالس أمامك! لكن بعض الأمور لا تحسمها القرابة بل مصالح الناس! وها قد رأيتَ، لقد هاجمته دمشق بسفينة فرنسية بمباركة الباب العالي؛ وقد تصحو ذات يوم فتجد أسطول فرنسا وأسطول السلطنة يحاصران عكا. وعندها، لن تجد مكانا تربّي فيه أولادك! هذا إذا نجت المدينة ومن فيها! أنت تعرف يا بنيّ، أن إنقاذ هذه البلاد لن يأتي إلّا بعودة ولائها للباب العالي. وأستطيع أن أقول لك، وعلى لسان وزير دمشق نفسه: لقد انتهى أمر ظاهر! ولم يعد أمامنا سوى أن نتحرّك بسرعة، حتى لا نذهب ضحية لسنوات عصيانه التي طالت؛ فإذا ما وصل جيش الدولة لن يسأل: من كان مع ظاهر ومن كان ضده؟!

- والشيخ عثمان! ماذا يقول؟

رفع عثمان رأسه ونظر في عينيّ كريم مباشرة: تسألني رأيي وأنت أعلم به يا كريم. أنت تعلم أنني تحدّثت مع العجوز، حين لم يجرؤ أحد على التحدّث معه! وتعرف ردّه. وقد كان يمكن أن يريح نفسه ويريحنا مما نحن فيه الآن لو استمع إليّ. هل تعلم يا كريم أيّ حزن هذا الذي يعتصرني الآن، وأنا أفكر فيما أفكر فيه؟! إنه أبي في النهاية، كما قال عمّي الشيخ سعد. لكن الأمر لم يعد يحتمل أكثر. فإذا لم

نتحرّك، سنجد أنفسنا غير قادرين على إيجاد مكان يؤوينا، حتى، شاطئ طبرية، الذي إن تفضّل واستقبلنا، فسيستقبلنا لا كمتسلّمين، هذه المرّة، بل كشحادين!

- دعوني أفكر إذن. قال كريم.

- لم ندْعُكَ لتفكّر، بل دعوناك لتقرّر! ولكن، ولأنك في النهاية واحد من أبنائنا، سنتركك تفكر حتى الصباح، ونتمنى، مع بزوغ الشمس أن تكون قد اتخذت القرار. أما الآن، فأريدك يا عثمان في كلمة.

نهض سعد فتبعه عثمان؛ وقبل أن يبلغا الباب، تبعهما كريم بسؤاله:

- وما الذي سأناله إذا ما اشتركتُ معكما؟!

استدار سعد، تأمّله قليلا، ثم قال: وهل تعتقد أننا نسينا أمرًا كهذا. عكا نضمنها لك! وسنُقنع وزير الشام بأن يولّيك على حيفا أيضا! أما أنا فلا أريد أكثر من دير حنا وعرابة وما حوْلها، وهي لي الآن؛ فقليل دائم خير من كثير زائل كما يقال! أما عثمان، فلا يطلب سوى شفاعمرو والقرى القريبة منها! والتي يأبى ظاهر أن يسلّمه إياها! وأحب أن أنبّهك لشيء مهم: إياك أن تعتقد أننا زاهدان حين نكتفي بهذا! لأن هنالك شيئين إن خسرناهما لن ينفعنا شيء بعدهما: هذان الرأسان يا كريم. ولذلك، تذكّر أنك ستكون الرابح الأكبر فرأسك سيبقى لك، وفوقه عكا وحيفا، فماذا قلت؟!

- دعوني أفكر!

- كما تشاء.

لم يكونا قد استدارا بعد حين تبعهما بسؤاله الثاني: وما المطلوب مني مقابل ذلك؟

تبادل سعد مع عثمان النظرات، وأطرق قليلا، ثم قال:

- أن تغتال ظاهر! فأنت القادر على الاقتراب منه إلى الحدّ الذي يمكّنك من ذلك!

- أغتال ظاهر؟!

- إلا إذا كنت تعتقد أن رأسه أغلى من رأسك وفوقه عكا وحيفا؟!

أطرق كريم، وحين رفع رأسه، قال: دعوني أفكر!

- لك هذا. قال سعد. وتمهّل قليلا وهو يستدير، متوقّعًا سؤال كريم الثالث. لكن كريم لم يسأل. فخطا نحو الباب يتبعه عثمان.

كان على وشك أن يفتحه، حين استدار، وقال: لا بدّ أن لديك سؤالا آخر هو السؤال الأصعب الذي لم تزل متردّدا في طرحه!

- نعم، لم يبق لدي سوى سؤال واحد، إن سمعتُ إجابةً واضحة له، سأعلمكم بقراري الآن، وليس غدًا!

عاد سعد، لكن عثمان استند بظهره إلى الباب.

- ومن يضمن لي أنكما ستنفّذان وعدكما لي؟!

- الله يشهد على ذلك. قال عثمان.

- الله يشهد على ذلك. أعاد سعد.

- هذه شهادة تُسألانِ عنها يوم القيامة، أمام الله! ولكنني بحاجة إلى شهادة أحاججكم بها في هذه الدنيا إن لم تُنفذا العهد الأول!

- أنت تعرف يا كريم أن مثل هذه العهود لا تُكتب. قال سعد، وعاد إلى مكانه الذي كان يجلس فيه.

- وأنا لا أستطيع القيام بأمر كهذا دون كتاب موقّع منكما ومن شهود أثق بهم!

- وهل تعلم ما تعنيه كتابةُ تعهّد مثل هذا؟! إننا نقامر برأسينا. قال عثمان، وبعد قليل أضاف: أنا لا أوافق على هذا.

- لنعتبر الأمر منتهيًا، فأنا أعرف سرّكما بقدر ما تعرفان سرّي. قال، وكأنه يفتح باب نجاته!

- لنفكّر في حلٍّ آخر يرضيك يا كريم.

- لا أقبل سوى بعهد مكتوب يُمكنني أن أظهره غدًا أمام وزير دمشق أو سواه!

- وأنا لن أوقّع تعهّدا كهذا، قال عثمان.

- بل سنمنحه هذا التعهّد يا عثمان! فما دمنا نعرف أننا سنُوفي به، فلماذا لا نمنحه إياه؟!

- وأريد شهودًا؟

- أنت تجعل الأمر مستحيلا وتفضح أمرنا منذ البداية! قال عثمان بغضب.

- أنا موافق، مَن تريد؟ قال سعد.

استدار عثمان هامًّا بالخروج، فتح الباب. طلب منه سعد ألا يغادر الغرفة قبل أن يتفقوا على ما اجتمعوا من أجله. عاد وأغلق الباب.

- الشيخ رشيد الجبر، أمير عرب الصقر، أريده شاهدًا. قال كريم.

- لك هذا. قال سعد بلا تردّد، وأضاف: فالأمير رشيد يعاني أضعاف ما نعانيه من سطوة ظاهر ويده الطويلة!

- لكن الشيخ عثمان لم يوافق بعد.

نظر سعد إلى عثمان، فوجده يرسم دوائر وهمية على الأرض بأصابع قدمه اليمنى.

- فلننته من الأمر الآن يا عثمان. قال سعد.

- لكنني أحذّرك يا عمّ، أنت نفسك قلت قبل قليل: إن مثل هذه العهود لا تُكتب!

- إن لم نثق بكريم، فلن نثق بأحد. لن أثق بك، ولن تثق بي. فلنتصافح.

نصف الجريمة الثاني!

في آخر الليل، وصل رسول من ظاهر إلى ابنه عثمان. حين أشرع عثمان الباب، فوجئ بالرسول والجنود الذين معه. طلبوا منه أن يرتدي ملابسه على عجل، لأن والده يريده.

حاول عثمان التملّص، لكنه أدرك استحالة ذلك، إذ بدا الجنود على استعداد لحمْله رغمًا عنه إلى عكا.

دخل ليرتدي ملابسه. نظر إلى الشباك، سار نحوه، فتحه، كان بودّه أن يقفز هاربا. هبّت ريح الفجر. تأرجحت شعلة القنديل، وتأرجح ظلّه على الحائط. أغلق الشباك، وخرج، بعد أن أخبر امرأته بأنه ذاهب للقاء الشيخ.

أحاط به الجنود من كل جانب. كان الهروب مستحيلا.

أمرٌ واحد كان يقلقه، أن يكون كريم قد وشى به وبسعد.

في الطريق، سأل: إن كان الشيخ قد أوصى بإحضار أحد غيره! وكم فوجئ أن أحدًا لم يجب؛ تصرّفوا كما لو أنهم لم يسمعوا السؤال!

تزايد القلق، عصَرَ قلبه، وبدأ العرق ينزُّ منه غزيرًا كالمطر، كثيفًا كالوحل.

كم تمنّى لو أن الطريق إلى عكا أقصر. كم تمنّى لو أن عمّه سعد لم يُعط كريم ذلك العهد المكتوب: *"إن لم يكن كريم قد خاننا، فلعل الكتاب وقع في يد ظاهر، فلم يزل هذا العجوز قادرًا على الإحساس بهبوب العواصف قبل الجميع!"*

أوشك أن يسأل عن أخبار كريم. تذكّر أنهم تظاهروا بعدم سماع سؤاله الأول. وبعد تفكير، حمد الله أنه لم يسأل. فإذا كان كريم قد وقع في قبضة العجوز، فإن ذلك يعني تجريمه لنفسه بهذا السؤال.

مرّوا بمشارف الدّامون بعد شروق الشمس بساعتين. كانت ممتلئة بالحياة: أصوات نايات الرّعاة تتقاطع في الجو، وغناء المزارعين يملأ الحقول.

صعدوا أحد التلال مخلِّفين القرية وراءهم؛ وهناك في القمة، فوجئ بأنه رغم كل ما فيه، قادر على التقاط روائح الزعتر البريّ والبابونج التي كانت تفوح بقوة، كلما داس حصان على إحدى شتلاتها. وفي البعيد رأى شجرة تين يانعة، كانت

أوراقها خضراء وكبيرة إلى ذلك الحدّ الذي لم يسبق له أن رأى مثيلا لها. *"خضرة كهذه، كيف يمكن أن تتفتّح فوق تل؟"* سأل نفسه. ونظر تحت التينة، لعل جدولا أو نبعًا يمرّ من هناك، لم يجد.

من بعيد وصلت ضحكات عدد من الفتيان الفَرحين. بعد قليل حاذاهم الموكبُ الصغير. كانت طيور الحجل تتفلّت في أيديهم محاولة الفرار دون جدوى. ألقوا السّلام، وكم أحسّ بحاجته لهذا السّلام!

***

تردد ظاهر عندما مدّ عثمان يده لمصافحته. كان ذلك واضحا كشمس، لكنه صافحه في النهاية بحرارة نجم صغير بعيد! فتزايد رعب عثمان، وعاد العرق يتصبب أكثر توحُّلا وغزارة من جسده. أحسّ ظاهر بأن عليه أن يتصرف بودّ أكبر مع ابنه، كي يستطيع الوصول إلى ما يريده!

- تحتاج إلى حمَّام! لا أعرف إن كان البارد أم الساخن أفضل لك! قال ظاهر.

لم يجد عثمان تفسيرًا لكلام أبيه.

- سأراك بعد ساعة! أم تُراك تريد وقتا أطول لحمَّامك؟!

- ساعة تكفي. ردّ عثمان، ولا شيء لديه سوى أمنية واحدة، أن يعرف ما حصل.

في الحمَّام، وقد غدا عاريًا، راح يفكّر في الأمر: *"لو أراد قتلي لقتلني! لو كان يعرف شيئا لما استقبلني بكل هذا الودّ! لكن من يستطيع أن يدرك ما يدور في رأس هذا العجوز؟!"* تمنّى أن تتاح له فرصة أن يلمح، ولو من بعيد، كريم الأيوب. ليطمئنّ على الأقل أن كل شيء يسير على ما يرام.

أنهى حمَّامه بسرعة، وما إن أشرع الباب حتى وجد نفسه وجهًا لوجه مع كريم. ارتعب، بحيث تراجع خطوات إلى الوراء.

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟ سأله كريم وهو يتلفَّت برعب.

- بل قلّ لي أنت، هل عرف العجوز بما دار بيننا؟!

- وكيف سيعرف؟! إذا لم يعرف منك أو من سعد، فلن يعرف مني!

كان الحوار هامسًا مثقلًا بالخوف.

- لا تفعل شيئا مما اتفقنا عليه قبل أن أطلب منك ذلك. فاهِم؟! قال عثمان.

- فاهِم! سأمضي الآن، وها أنا أوصيك، إياك أن يخدعك الشيخ بشيء؟ قال كريم. وابتعد.

نظر عثمان ليتأكَّد من أن أحدًا لم ير شيئا أو يسمع. وبدل أن يخرج، عاد وأغلق باب الحمّام على نفسه.

لم يسعفه الهواء المثقل بالبخار. بدت رئتاه غير قادرتين على استيعاب ولو جزء بسيط منه.

أحسّ بالاختناق. فتح الباب بسرعة وخرج.

ما إن رآه ظاهر حتى قال له: الحمّام بعد السّفر متعة لا تُسرَق على هذا النحو! ودعاه للجلوس قبالته.

***

تحدّثا في كل شيء، عن الجهجاه وأخوته؛ وعن أخيه عليّ، وإذا ما كان يراه. أخبره ظاهر بما قامت به السفينة الفرنسية كما لو أنه يبوح له بسرٍّ! وسأله عن رأيه في الأمر، وماذا عليه أن يفعل! ثم أمضى بقية الوقت في الحديث عن الخيل وعن صعوده الكرمل برفقة نجمة!

سمعا الأذان، فنهضا وصلّيا معًا. بعد ذلك تناولا طعام الغداء برفقة نجمة، وبعد انتهائهم. قال له ظاهر: الحمّام وسرقته سرقة! أما القيلولة، وقد حان وقتها، فعليك أن تستمتع بها كما شئتَ وشاء تعبك!

***

تقلّب عثمانٍ محاولا النوم. كان ذلك مستحيلا.

حدّق في الشُّباك العالي الذي تمرّ منه الرّيح صوب الشّباك الذي يقابله.

كان هواء الخارج المثقل بالرطوبة يولدُ من جديد هواء صافيًا ورقيقًا بين النافذتين. غلبه التعب فأغفى، لكن طرْقا شديدًا على الباب أيقظه: "الشيخ ينتظرك في الديوان!". قال له جمعة. واستدار عائدًا.

***

طلب ظاهر من جمعة أن يغلق الباب، وأن يحرص على ألا يقترب منه أحد.

تصاعدت دقّات قلب عثمان، حتى أنه راح يعتصر صدره محاولا كتْمها.

- أيوجعك شيء؟! أراك تشدّ على صدرك! هل أستدعي طبيبي؟!

- لا، ليس هناك حاجة لذلك. وأبعد يديه عن صدره.

أخذ ظاهر نفسًا عميقًا، دون أن تفارق عيناه وجه ابنه: أنت تعرف يا عثمان، أنني ما طلبتك إلا لأمر عظيم!

هزّ عثمان رأسه موافقًا. حاول أن يبتلع ريقه. كم كان جافًّا!

- سأختصر يا عثمان. لقد بلغني أن أخي سعد قابل وزير دمشق في (فيق) وأنهما وضعا خطة للتخلّص منّي. هل سمعتَ بأمر كهذا؟!

- لا يا شيخ. لو كنتُ سمعت لجئت إليكَ من فوري!

- أنا لا أشكُّ في ذلك! ولذا، أحببتُ أن أتحدّث معك أنت، دون أخوتك، لأن عمّك سعد يثقُ بك كثيرًا!

- أتريدني أن أستدرجه في الكلام لأعرف منه كلّ شيء؟!

- أريدكَ في شيء أكبر من هذا بكثير، فأنت تعرف أن أباك يعرف ما يدور في إسطنبول وفي دمشق! فما بالك بذلك الذي يدور في رأس عمّك سعد!

أخذ ظاهر نفسًا آخر، عميقًا، وقال: سأعطيك شفاعمرو؟ ألم تكن شفاعمرو حلمكَ دائما. سأعطيك إياها مقابل ما ستفعله!

- أنت تأمر يا شيخ وأنا أنفّذ. سواء أعطيتني شفاعمرو أو لم تعطني إياها!

- اتفقنا إذن!

- على ماذا؟

- سأخبرك بكل شيء غدًا صباحًا، قبل أن تنطلق إلى دير حنا!

***

لم ير عثمان في حياته قنديلا مثل ذلك القنديل الذي يتدلّى من ذراع معدني مثبّت في حائط ديوان سراي عمّه سعد! وكم أدهشه أنه لم ير الوعاء الذي يُملأُ بالزيت تحته، كان الفتيل يمر عبر أنبوب طويل كأنبوب النرجيلة، ويختفي في الجهة الأخرى من الحائط.

سأل عمه: ما هذا؟! فقال له: إنه قنديلي! وصلني أمس. وفي غمرة حماسه أمسك عثمان من يده، وسار به نحو القنديل، وطلب منه أن ينفخ بكل قوته عليه! تردّد عثمان، لكن سعد ألحَّ؛ فنفخ، فقال له سعد: بشدة أكبر! نفخ عثمان بشدة أكبر، فلم تتحرك الشعلة أبدًا! فقد كانت الكرة الزجاجية المزيّنة بالبرتقالي والبنفسجي والأحمر، التي تحتضن الشعلة محكمة تمامًا، حيث لم يكن باستطاعته رؤية الفتحات الصغيرة في أعلاها.

عند ذلك قال سعد بزهو: حتى العاصفة لا يمكن أن تطفئ قنديلا كهذا! وشرح له أنه أوصى بإحضاره من إسطنبول، وأن من صنعه لم يصنع مثله من قبل، لأنه قنديل لا ينطفئ أبدًا.

- لا ينطفئ أبدا! كيف؟! سأل عثمان.

- فأمسكه سعد من يده ثانية وقاده خلف الجدار، وهناك فوجئ عثمان بأن فتيل القنديل موضوع في برميل ممتلئ بالزيت، ذي غطاء محكم، وأن فتيله يلتفّ كما لو أنه أفعى بيضاء لا حدّ لطولها!

- ما هذا يا عمّ؟!

- كما قلت لك، هذا قنديلي الذي لا ينطفئ، فلا فتيله ينتهي، ولا زيته ينضب! لأنني أحرص على أن يكون البرميل ممتلئا بالزيت دائما!

***

بعد حديث طال عن القنديل، ومحاولات عثمان أن يظل دهشًا به وبطريقة صنعه، بدأا يتحدّثان في أمر كريم الأيوب، وما إذا كان سينفِّذ العهد. فطمأنه عثمان: مقابل عكا وحيفا سيقتل السّلطان نفسه! وحاول أن يضحك.

- لكني لن أطمئن إلّا بعد أن أرى رأس ظاهر بعينيّ هاتين!

- ستراه يا عمّ، ستراه. وعليك أن تتذكّر أن كريم قد قطع أكثر من نصف الطريق، حينما وضع ذلك العهد المكتوب في جيبه.

- أرجو ذلك يا عثمان، فأنت تعرف ذلك العجوز. وزراء دمشق لم يقدروا عليه!

- أعرف يا عمّ، ولكن الحَذِرَ يؤتى من مأمنه! ألم تقل العرب ذلك؟!

- سننتظر، ولكنني لا أريد لهذا الانتظار أن يطول.

- ولا تريد لخطتنا أن تفشل يا عمّ؛ لأن على كريم أن يختار الوقت الملائم لما سيقوم به؛ فأيّ خطأ قد يوقعه؛ وإذا ما وقع سنقع معه لا قدَّر الله.

- أظن أن علينا أن ننام، فالأيام ستكون طويلة في انتظار وصول ذلك الخبر الذي لا خبر أبهجَ منه!

- سننام!

نهض سعد وسوى فراشه، وكذلك عثمان. لكن سعد عاد وتذكَّر أنه لم يخفض ضوء القنديل، فسأله عثمان: إلى أين؟

- لن نستطيع النوم مع كل هذا الضوء!

- ولكن احذر أن ينطفئ تمامًا يا عمّ.

- وكيف يمكن أن ينطفئ، ألم أقل لك إنه قنديلي؟!

كانت العادة السائدة تقضي أن ينام صاحب البيت في الغرفة نفسها التي ينام فيها ضيفه، لكي يلبي له أيّ حاجة تطرأ. وهكذا، وجدا نفسيهما تحت سقف واحد.

بعد أقل من نصف ساعة ارتفع شخير سعد. رفع عثمان رأسه، وتلفَّتَ حوله في أرجاء الغرفة، كما لو أنه يريد أن يتأكّد من عدم وجود أحد سواه! وعلى ركبتيه وراحتيه راح يتقدّم نحو عمّه، إلى أن وصله.

وقف، فاتحًا ساقيه بحيث أصبح عمّه بينهما، وانحنى ببطء نحو عنقه، وما إن أحاط به حتى راح يشدّ عليه بكل ما فيه من قوّة.

حاول سعد أن يدفع عثمان، لكنه اكتشف أن يديه كانتا حبيستين تحت ركبتي ابن أخيه.

جحظت عينا سعد، فقد كانت المفاجأة نفسها كفيلة بقتله، أكثر من يدي عثمان اللتين غاصتا في عنقه أكثر فأكثر، كما لو أن عثمان يريد قطع ذلك العنق الضعيف بيديه العاريتين.

بعد أكثر من نصف ساعة، نهض عثمان من فوق جسد عمّه، عائدًا إلى فراشه!

أربعون يوما وعهد صادق!

صبيحة اليوم التالي لمقتل سعد، صاح عثمان وبكى، وهو يحتضن عمّه، ويشير إلى تلك الأفعى المقتولة في الرّكن!

لم يشكّ أحد بشيء، فالجميع يعرفون أيّ علاقة تربطهما.

أغلق عثمان الباب، وأرسل في طلب ظاهر.

حين وصل، أخبره بكل شيء. دخل ظاهر وحده، رفع الغطاء عن وجه سعد، ثم أعاده بسرعة.

***

في اليوم الأربعين، صفا الجو من جديد في عكا. تفرّق آخر المعزّين بسعد عائدين إلى مدنهم وقراهم.

كانت المرّة الأولى التي يقام فيها عزاء بهذا الحجم، منذ رحيل عمر الزّيداني. وقد أصرَّ ظاهر على أن يكون كذلك.

***

من عِلِيَّة السّراي المطلِّ على البحر وقف ظاهر وبجواره كريم.

- أتعلم يا كريم؟كانت الأيام الماضية أقسى أربعين يومًا عرفتها في حياتي.

- أعلم يا شيخ. أعلم!

- كنت أريد أن أجعلك واليًا على حيفا. ولكنني منحتكَ ما هو أغلى بكثير منذ زمن بعيد: ابنتي، زوجة لك. ثم إنني لا أريد لعثمان أن يعرف أن ما وعداك به، قد منحتكَ إياه.

- لا أريد سوى سلامتك يا شيخ.

***

استعاد كريم تلك الليلة البعيدة حينما وصلتْه رسالة عثمان: *"أيمتحنني الشيخ ظاهر بهذه الرسالة؟!"*

ظلّ كريم يردِّد سؤاله طوال ليلتين، وحينما رأى الشيخ ظاهر في السّراي مجتمعًا مع عدد من التجار الفرنسيين الذين جاؤوا يرجونه السماح لهم باستئناف

العمل من جديد، ويتبرأون من تواطؤ حكومتهم مع الباب العالي ضده؛ حينما رآه هناك، وأرسل إليه ظاهر تلك النظرة الخاطفة؛ أدرك أن الرسالة لم تكتب إلّا بعلم الشيخ، وما هي إلا امتحان، بعد أن أصبح الشيخ متوجِّسا من أبنائه وأصدقائه وأعدائه في تلك الفترة!

***

كانت الرسالة بين يدي ظاهر تتلوّى كثعبان ضخم، فمنذ زمن طويل لم يُفزعه أمر كهذا، لكنه تمالك نفسه. ربّت على كتف كريم براحة قوية، حين قال: أرجو الله ألا تكون هذه الرسالة اختبارًا لي! فردَّ ظاهر: يمكن أن أختبر الناس كلّهم، لأنني أعلم أن الدنيا هناك تختبرهم من ورائي، أكثر مما أختبرهم مئات المرات! أما أنت يا كريم، فلن أختبرك أبدًا، أتعرف لماذا؟ لأن لحم ابنتي وقلبها بيني وبينك، ولا يمكنني اجتياز هذا السّور حتى لو كان رأسي هو الثمن. اذهب إلى أخي سعد، ولتستمع إليه، ولتعرف كلّ ما يفكِّر فيه؛ وها أنا أدعو الله أن يكون الأمر خيرًا.

- ولكنني قبل ذلك، عليّ أن أعاهدك أنني لن أخون عهدًا قطعته لك؛ ولن أطعن قلب زوجتي بخيانتي لأبيها، ولا أبنائي بخيانتي لجدِّهم.

- أشكرك يا كريم. أشكرك!

لكن ظاهر فوجئ، حين وجد نفسه يطلب من كريم -ذي الملامح الدقيقة والعينين العسليين المخضرَّتين، والقامة الطويلة، كأبناء الفرنسيين- أن يعاهده ثانية: أريد أن أسمعها مرّة أخرى يا كريم، ليس خوفًا مما يمكن أن يحدث؛ ولكن ربما، رغبة في أن أسمع عهدًا صادقًا يخرج من القلب ويسكن في القلب، في هذا الزمان الصعب!

أعاد كريم قسمه، فربّت ظاهر على كتفه براحة ملؤها الحب، وقال له: فلتختر الوقت الملائم والحجّة الملائمة لغيابك.

دموع لموت العدو!

أخرج ظاهر كتاب سعد وعثمان الذي يتعهّدان فيه لكريم بمنحه عكا وحيفا من جيبه، وراح يتأمّله. لكن عينيه كانتا قد استقرّتا فوق اسم واحد، هو اسم الأمير رشيد الجبر!

لم يؤلمه شيء، في علاقته بالصقر، مثلما آلمه تحريضهم لعثمان ابنه، وسعد أخيه وكريم زوج ابنته، على قتله.

رآهم يتجوّلون داخل السّراي بحرابهم وسيوفهم، وعلى ظهور خيولهم يعبرون السراي من باب إلى باب. وحينما كان يغفو، يحسّ بهم متحلّقين فوق سريره.

أكثر ما كان يهمّه، عدم وصول الشكّ إلى كريم. راح ينتظر الفرصة الملائمة لتأديبهم. في حين بدا عثمان مستعدًا لتقديم أيّ شيء في سبيل إرضاء أبيه، لكي يظفر بشفاعمرو.

كتب ظاهر إلى الأمير رشيد أن يردع رجاله، وأن ينفّذ الاتفاق الذي بينهم بعدم التعرّض للناس والقوافل. ونبّهه إلى أن الحوادث في تزايد، وأنه لن يسكت عن ذلك!

كان الأمير رشيد الجبر مغتاظًا بسبب اختفاء سعد! فقد كان نجاحهم في التخلّص من ظاهر يعني تحرّرهم من سطوة قبضته، وعودتهم ملوكًا لمرج بني عامر وما حوله، يتحكّمون في كلّ شيء، ويفرضون شروطهم على الداخلين والخارجين والمقيمين حسب رغبتهم. لكن الأمير رشيد، الذي فكّر كثيرًا قبل أن يذهب لتقديم واجب العزاء بسعد، كان عليه أن يُخفي كلَّ تلك المشاعر.

حين وصل الأمير بعد عشرة أيام من بدء تقديم العزاء، تعامل معه ظاهر، كما لو أنه أول الحاضرين، وحرص على أن يكرمه وأن يضعه إلى جانبه.

تبادل الأمير رشيد وعثمان نظرات خاطفة، بدا واضحًا منها أن عثمان قد اختار موقعه إلى جانب أبيه. أما كريم، فقد حرص على ألا ينظر إلى أيّ منهما، كان يبدو حزينًا، كما لو أن موت سعد، كان موت كلّ ما هو جميل في حياته!

لكن عرب الصقر لم يوقفوا تعرّضهم للناس حتى في تلك اللحظة التي كان أميرهم جالسا إلى جوار ظاهر.

***

بعد أسابيع من انتهاء العزاء، وصل رجل من الناصرة إلى عكا، يشكو عرب الصقر الذين اعترضوا طريقه وسلبوه بغلين محمّلين بالبضاعة وهو في طريقه إلى الشام.

طلب ظاهر من الرّجل أن يجلس. وفي الحال، كتب رسالة إلى الأمير رشيد يطلب منه فيها أن يعيد البغلين إلى الرّجل دون أن تنقص بضاعته شيئًا. وكعادة الولاة في تلك الفترة، كان يضع الختم على ظهر الورقة مقابل توقيعه تمامًا، إذا كان راضيًا! أما إذا وضع الختم على وجهها فذلك يعني أنه ختْمُ الغضب!

أعاد ظاهر قراءة الرسالة، وكل مَن حوله ينتظرون أين سيضع ختمه. وأولهم صاحب البغلين. أمسك بالختم وضع الورقة على الأرض أمامه، ووجهها نحوه، وختمها. لكنه لم يرفع الختم، ظلّ ضاغطًا عليه، وحينما رفع يده، كانت الورقة قد ارتفعت مع الختم بسبب التصاقها به.

حررّها بهدوء، كما يحرر طائرًا سقط في شَبك، وناولها لصاحب البغلين.

***

أمسك الأمير رشيد الرّسالة المطويّة، وعيناه تبحثان عن ختم ظاهر خلْفها؛ لم يره؛ فأمسك بها وألقاها نحو أحد رجاله الذي قرأ فيها أمر ظاهر لعرب الصقر بإعادة البغلين والبضاعة المنهوبة: "لقد كتبتُ لكم مرارًا أن تقفوا عند حدِّكم، وإلى الآن لم تستجيبوا! إن الرجل الذي يقف أمامكم حضر إلينا منهوبا وهو في الطريق العام، فبوصول أمري هذا إليكم، يجب عليكم أن تنظروا في مَن نهبه من عربكم، وأن تُرسلوا إلينا غريمَه السّارق وتُرجعوا المنهوب إلى صاحبه.."

صرخ الأمير رشيد: أويجرؤ على تهديدي بسبب بغلين؟! ونظر إلى الرجل:

- هل تعرف غريمك الذي تقول إنه سرقك؟!
- لا. أجاب الرجل.
- إن كنتَ لا تعرف غريمك فأنا لا أعرفه أيضًا!

***

غُصَّ وادي المِلح، جنوبي عكا بالعساكر. كان غضب ظاهر قد وصل إلى ذلك الحدّ الذي لن يقبل بعده بعودة شوكة الصقر للنموِّ ثانية.

موحشًا غدا المكان، رغم كلِّ ما احتشد فيه من بشر.

من بين كل الجموع، استطاع ظاهر أن يلمح الجهجاه فوق ذلك الحصان الأسود القويّ.

نكز حصانه كالملدوغ متوجّهًا إلى ابنه عثمان. حين وصله، صرخ: كيف تسمح للجهجاه أن يأتي؟!

- أنا، أنا لم أسمح له يا شيخ، ولكنك تعرفه، لا بدَّ أن محبته لك هي التي قادته لأن يتبعك.

- الآن يعود من حيث أتى. سمعتَ. الآن.

كان الجهجاه قد بلغ الرابعة عشرة من عمره، ولم يكن يفتنه شيء سوى وجوده إلى جانب جدّه.

انطلق عثمان نحو ابنه، ثم عاد ظاهر ليحتلَّ موقعه: رأس حربة في مقدمة جيشه.

لم يكن الصّقر أقل عددًا ولا عدّةً، وقد أدركوا أن تلك السماء لن تستوعب شمس ظاهر وشمسهم معًا.

في ذلك الصباح المجلل برائحة الخيل، والقابع خلف ذلك البخار المتصاعد من رئاتها ساخنا كيوم من أيام الصيف في طبرية، فُتحتْ أبوابُ الدّم فجأة، وبدأت معركة ظلّت مستمرة حتى منتصف النهار؛ معركة كان يمكن أن تتواصل أيامًا وأيامًا.

في الدّروب الضيّقة لذلك الجحيم، راح كريم يراوغ ويراوغ، إلى أن وجد نفسه وجهًا لوجه مع الأمير رشيد. هل كانت المفاجأة هي التي أربكت الأمير أكثر من قوّة خصمه، وهو يرى كلَّ ذلك الغضب في عيني حليف الأمس- كريم! في الوقت الذي كان يتوقّع أن يراه بعينين كسيرتين لا يملك الخونة غيرهما.

أغار كريم عليه، حاول الأمير رشيد، وقد أعاد جمع شتات نفسه، مقابلة الهجوم بمثله. اشتبكا طويلا، وفي لحظة خاطفة استطاع كريم أن يشقّ طريق الموت بسيفه إلى صدر الأمير. ترنّح الأمير. وصرخ كريم: هذه لأنك خنتَ الشيخ. وسحبَ سيفه وطعنه ثانية: وهذه لأنك اعتقدتَ أن باستطاعتك أن تحوّلني إلى خائن. وهذه لأن..

لكن الأمير سقط عن حصانه، قبل أن يتمّ كريم جملته.

استدار كريم يقاتل، دون أن يكفّ عن ترداد جملته الناقصة: وهـذه لأن قلـب الحرِّ لا يمكن أن يكون له ثمن.

فوجئ كريم كمن فوجئ غيره بجنود ظاهر يصيحون: لقد قُتل الأمير رشيد! لقد قُتل الأمير رشيد!

***

وصل أحد الجنود إلى الشيخ ظاهر وهو يصيح فرحًا: أُبـشِّرك يـا شـيخ، قُتِـل الأمير رشيد! أبشِّرك يا شيخ قُتل الأمير رشيد!

تصلّبت يد ظاهر الممسكة بالسيف، ولولا أن ذلك الصقريّ الذي كان يقاتله، قد شلّته مفاجأة قتْل أميرهِ، لاستطاع بـسهولة أن يوجّـه الطّعنـة الأشـد فتكًـا إلى صدر ظاهر.

واصل الجندي اندفاعه، حتى وصل: أُبشّرك يا شيخ، قتل أمير الصقر!

استجمع ظاهر نفسه، وصرخ في وجه الجندي: انـصرف مـن هنـا! انـصرف! رشيد الجبر رجل لا يُبَشَّر بقتْلِهِ. انصرف من أمامي وإلا قتلتُك!

فوجئ الجندي تمامًا. سار عدة خطـوات، ثـم توقّـف، توقّـف في مكانـه مثـل حجر، والجنود يتدافعون حوله من كلّ جانب.

تراجع رجال الصقر منهزمين، فتبعهم جنـود ظـاهر. وبعـد مـسافة، أوقفـوا الملاحقة.

أمام تلك الجموع الهائلة من الجنود، عاش ظاهر نصره الحزين، وهـو يـستعيد رحلته الطويلة، في لحظات، مع ذلك الأمير الذي لم يعد له مـن مكـان الآن سـوى جوف الأرض.

لكن ظاهر، لم يعرف أن هناك حزنًا أمـرّ، يطـوف في الهـواء، باحثـا عـن ثغـرة للإطباق على قلبه وعقله!

الخيل التي التهمتْ حوافرها!

كان الجيش قد قطع نصف الطريق عائدًا إلى عكا، عندما اقترب عثمان من أبيه وسأله: هل رأيت الجهجاه؟!

بُهت ظاهر.

وتعالت الأصوات من مقدمة الجيش ومنتصفه ومؤخرته: هل من رأى الجهجاه؟!

كلّ جندي وقائد صرخ: هل من رأى الجهجاه؟!

آلاف المرات تكرَّر السؤال، إلى أن اكتشفوا أنهم كانوا جميعًا يصرخون.

عمّ الصمت، وبدا وكأن الخيل التهمتْ حوافرها فلم يعد لدورانها حول نفسها صوت.

لوى ظاهر عنق حصانه، وعاد باتجاه وادي المِلْح.

مرّ أمام الجنود كما لو أنه طيف، كما لو أن جسده تبخّر ولم يبق فوق الحصان سوى ثيابه الفارغة.

استدار الجيش كلّه عائدًا.

وكم طالت الطريق، حتى أحس كلّ جندي أن هذا الجيش الذي انتصر قبل ساعات، ما هو إلا جيش مهزوم، يجرّ ذيول خيبته وانكساره نحو بلاده التي لن تَفتح له أبوابها!

***

بحثوا عن حصانه، لم يجدوه. كان وجود الحصان سيعني شيئًا. بحثوا في المناطق المحيطة بالمعركة، تحت الأشجار ووراء السناسل وبين الأعشاب المتيبسة. بحثوا بين ما تبقّى من قتْلى الصقر، ولم يجدوا أي شيء.

قرر ظاهر: لن تعودوا قبل العثور عليه!

حلّ المساء، ولم ينالوا من بحثهم غير حلكة الليل التي غدت أصلب؛ حلكة الليل التي رمتهم بعماء شاسع.

في الصباح، الصباح الذي انتظره ظاهر كما لم ينتظر صبحًا في حياته. قال عثمان لأبيه: لعلّه عاد!

- وهل طلبتَ منه أن يعود إلى عكا؟!

- بل طلبت منه انتظارنا، هناك، خلف ذلك التل.

عادوا، وقد تحوّلت الدنيا كلها إلى أمل وحيد: أن يكون الجهجاه قد سبقهم إلى عكا.

لم يكن هناك!

***

أظلمت الدنيا أكثر في عيني ظاهر، وحين جاء المساء، بدا العالم في نظره ليس أكثر من قطعة فحم.

فكّر في احتمال أسره؛ لكنه استبعد أن يأتيه من يقول: الجهجاه لدينا، فبماذا تفتديه؟!

- *"أفديه بالعالم!"*

لكن أحدًا لم يسأل، وأُغلقت الجهة التي قد يصل منها النُّور؛ تحوّلت إلى جدار يصل الأرض بالسماء.

كان اليوم الثالث هو الأقسى؛ لكن ظاهر القابع تحت وطأة كلِّ ذلك اليأس، لم يكن يفعل شيئًا آخر غير رعاية شعلة الأمل الرّاجفة في قلبه.

عند المساء، أقبل رجل من بعيد فوق حصانه، وحينما أصبح على بعد ألف خطوة من البوابة البريّة، بوابة السِّباع، توقّف. تحوّل إلى عمود ملح.

كان الجنود على وشك إغلاق البوابة. انتظروا الرجل أن يتقدّم ليدخلها؛ فلا يصل إنسان مدينةً لينام خارج أسوارها فوق حصانه!

انتشرت أخبار الرّجل، فصعد كثير من أهل عكا الأسوار يراقبون ذلك الفارس الذي بدأ الظلام يختطف قامته ويُلقي بها بعيدًا في جوفه.

أمر الدّنكزلي، الذي كان يسير قرب البوابة، عددًا من الجنود استطلاع أمر الرجل ووقفته الغريبة، حين أحسّ بخطورة الأمر.

طار الجنود فوق ظهور خيلهم؛ لكنهم حين وصلوه، تجمّدوا مثله في المكان!

- بحقّ الله، ما الذي يحدث هناك؟!

وأعطى أمره لعدد آخر من الجنود أن يذهبوا بسرعة.

وتجمّدوا!

عند ذلك أمسك الدّنكزلي برسن حصان أحد الجنود، وقفز فوقه.

بدت المسافة التي تفصله عن الرجال الذين تحوّلوا إلى تماثيل، أبعد مما كان يظنّ، ولكنه وصلهم. ومن بينهم عبر، حتى أصبح أمام الرجل الذي كان يحمل بين يديه جثة الجهجاه.

تمالك الدّنكزلي نفسه وصرخ في جنوده: اذهبوا وهيئوا الناس لملاقاة حبيب الشيخ وقرّة عينه! ولوى عنق حصانه وقد فاض دمعه.

سار عدة خطوات. أحسّ بأن الرجل لم يتحرّك: اتبعني. قال له بلطف.

- لا أستطيع ذلك سيدي. لا استطيع. لا أستطيع أن أدخل على الشيخ وأنا أحمل هذا الجزء الغالي من قلبه بين يديّ!

تقدّم الدّنكزلي منه، وتناول جثة الجهجاه برفق، وسار، فتبعه الرّجل.

وعلى باب المدينة هناك كان نهر الحزن يهدُر.

***

احتضن ظاهر حفيده، وسار به حتى وصل ديوان السراي، استدار عندما تجاوز العتبة، وأغلق الباب بقدمه.

راح يتأمّله ببكائه الحارق، وقلبه المفطور.

- نحن في يوم الثلاثاء يا جدي أليس كذلك؟!

- نحن في يوم الثلاثاء.

- أي أن الثلاثاء هو اليوم يا جدي، صحيح؟!

- صحيح!

- ولكنني حين سألت أبي عنه أمس قال لي إنه الغد! وحين سأسأله عنه غدًا، كما سألته عن يوم الجمعة الماضي، فسيقول لي: إن الثلاثاء اسمه أمس. فما الصحيح يا جدي؟!

أطرق ظاهر، وحين رفع رأسه كان يبتسم.

- كأنك وجدت الحلّ يا جدي؟!

- الصحيح! إنه كلها، إنه اليوم والأمس والغد.

- لا، لا يمكن أن يكون ثلاثة أشياء يا جدي.

- بل يكون، لأن اليوم يشبهك!

- كيف يشبهني الثلاثاء يا جدي؟ هل أنا الثلاثاء؟!

- لا أنت الجهجاه، أليس كذلك؟

- *نعم أنا الجهجاه.*
- *اتفقنا إذن. اليوم أنت ولد، ثم ماذا تصبح حينما تكبر؟*
- *شابا.*
- *وحينما تكبر أكثر؟*
- *أصبح عجوزًا، مثلك يا جدي!*
- *أنا عجوز؟! لا علينا. ولكن يا جهجاه، ما اسمك وأنت طفل؟*
- *الجهجاه.*
- *وأنت شاب؟!*
- *الجهجاه!*
- *وأنت عجوز مثلي؟!*
- *الجهجاه أيضا.*
- *يعني أنت الولد والشاب والشيخ. أليس كذلك؟*
- *هذا صحيح.*
- *وكذلك يوم الثلاثاء يا جهجاه، فهو الأمس واليوم والغد.*
- *هل أنا الآن أمس أم اليوم يا جدي؟!*
- *أنت...، حيّرتني، إذا نظرنا إليك كيوم الثلاثاء، فأنت اليوم الذي لم ينته!*
- *هذا غير معقول يا جدي، إذا كنت، الآن، أنا اليوم، فماذا كنت أمس، وأنا موجود اليوم؟*
- *غدا، أنت الغد يا جهجاه!*

***

رأى الجهجاه هزيمة رجال الأمير رشيد، صاح فرحًا بكل ما فيه من قوة، جفل الحصان، وانطلق يعدو خلف خيول الصّقر. حاول كبح اندفاع الحصان، لم يستطع، وحاول مرّة ثانية، لكن الحصان تحوّل إلى صخرة متدحرجة لا قوة له على وقف اندفاعها.

انتبه رجال الصقر لذلك الفارس الذي يتابعهم فوق حصانه الأسود المجنون. وحيدًا كان يتقدّم. فتوقّفوا، ولم يكن يلزمهم الكثير من الجهد كي يقتلوا الفارس وفرسه، حتى قبل أن يصلهم، وأن يختطفوا ما تبقي له من هواء في رئتيه بحرابهم غير عابئين ببراءة ملامحه، أمام هول فقدانهم أميرهم.

حيث قتلوه، تركوه وسط بركة دم صغيرة.

***

لم يكن عرب الصقر في ليلهم القاسي قد صدّقوا بعد أن أميرهم مات، وأنه لـن يعود، حين ارتجت الأرض تحت خيامهم.

كان يمكن أن يتوقّعوا أيَّ شيء، سوى هذا الذي رأوه.

أطبق جيش ظاهر على خيامهم كالجنون، مدمِّرًا كلَّ شيء، وقاتلا كلّ من، وما يتحرّك. عاصفة مـوت لا مثيـل لهـا؛ كـما لـو أن الجحـيم قـد سـقط فجـأة فـوق رؤوسهم!

كانوا يفرّون يائسين باحثين عـن مكـان لم يعـد لـه وجـود. تفرّقـت خـيلهم، وتناثرت صرخات نسائهم وأطفالهم في الجهات دون جدوى.

وحين هدأ كل شيء في النهاية، لم يكن قد تبقى في تلك المـضارب سـوى قـتلى من كلّ الأعمار، أما البقية الباقية فقد فرَّت مبتعدة.

تلفّت ظاهر حوله، بثيابه الملطخة بالدماء، فرأى ما لم يتمنّ أن يـراه في حياتـه. هبط عليه صمت مرعب ثقيل، فاستدار عائدًا، بعينين لن يستطيع إغلاقهما لـزمن طويل، وفم لم تعد الكلمات تصدر عنه، وأذنين قصيّتين لا يصلهما صوت!

لن يعيش هزيمة أقسى من هذا النـصر. تلـك كانـت الفكـرة الوحيـدة التـي أنشبت مخالبها في صدره وقبضت على قلبه كأنياب أفعى.

عن الدم والرمح والضيف الغامض!!

أظلم السراي، وغدا تحرّك واحد من أهل البيت أو خدمه ضجةً لا تحتمل.

أما في الخارج، فقد كان الناس يتقاطرون من كلِّ أنحاء البلاد لتقديم واجب العزاء بموت الجهجاه، والرجال يدورون في حلقات رقص حزين بسيوفهم المنكّسة وثيابهم السوداء، وخيولهم المجللة بالسّواد أيضا.

ما إن انتهى اليوم الأخير، حتى سار ظاهر نحو ديوانه في السّراي وأغلق الباب.

جلست نجمة أمام بابه المغلق وحيدة، تحاول ما استطاعت أن تطرد أي أحزان جديدة قد تُطبق عليه! جلست حارسة لقلعةٍ سقطت، وغدت عارية إلا من عريها.

لم تفكّر لحظة في الدّخول؛ فمثله، كان شتاء الدم الملتهب يتساقط غزيرًا على قلبها.

ستة أيام كاملة، لم يُفتح بابه، وحينما سمعت صرير الخشب خلْفها في اليوم السابع، كان ظاهر يقف هناك، نحيلًا، وضعيفًا، حاسر الرّأس، بوجه يكاد خداه أن يلتصقا الواحد منهما بالآخر. وخلْفه كان ظلام غريب يملأ الغرفة ويفيض.

تحامل على نفسه، حتى وصلها. وقف قليلا إلى جانبها، وبصعوبة استطاع الجلوس.

كانت نجمة تحدّق في الأرض، غير قادرة على أن تنظر إليه مرّة ثانية. ستموت إذا ما تأكد لها أن ما رأته قبل لحظات هو أمر حقيقي! دفنت عينيها في التراب.

سمعت حشرجة تنفّسه، وهيئ إليها أنه يريد أن يقول شيئا، لكنه لم يقل. بعد نصف ساعة، سمعت حشرجته مرة أخرى، وحين تحدّث، بدا صوته واهنًا، مثل قدميه اللتين كانتا قابعتين أمامها كطيرين نافقَين.

- لم يخلق اللهُ وحشا كالإنسان! ولم يخلق الإنسانُ وحشًا كالحرب! قال، وصمت.

عند ذلك رفعت وجهها ونظرت إليه، لكنها لم تجرؤ على مدّ ذراعها لتشدّ على يده.

***

عاد من بقي حيًّا من عرب الصقر ليلمّوا أشلاءهم وحياتهم الممزقة، مرتحلين إلى ضواحي الناصرة.

كان اختفاء الأمير رشيد الجبر قد خلّف هوّة في حياتهم. لكن أمرًا كهذا ما كان يمكن أن يستمر إلى الأبد.

ذات مساء، سارت وطفاء، أم الأمير قعدان، نحو خيمة الأمير القتيل، وبيدها رمح، وما إن أصبحت على بعد خطوات من بابها حتى غرسته في الأرض، وواصلت طريقها إلى داخل الخيمة. كان الأمراء والشيوخ كلّهم هنالك مجتمعين. قالت: لا أتحرّك من هنا قبل أن أراكم تختارون من بينكم أميرًا علينا.

تبادل أمراء الصقر النظرات، وهم يعرفون أيّ امرأة تلك التي أمامهم، المرأة التي لم يستطع حتى الأمير رشيد أن يعصي لها أمرًا.

- أراكم صامتين! لقد صبرت طويلا وأنا أنتظر أحدكم أن يغرس الرّمح الذي انكسر بموت الأمير رشيد، ولكنني لن أتحرّك قبل أن أراكم تختارون أميرًا علينا.

- ولكنّ دم الأمير رشيد لم يجفّ بعد!

- وأنا آمركم باسم الأمير رشيد أن تنفذّوا ما طلبته منكم.

بخجل راحوا يتحدّثون في الأمر.

- ما دمتم بدأتم، فسأغيب ساعة ثم أعود لأسمع قراركم!

استدارت والأعين تتابعها، وحينما عادت، رأت ابنها الأمير قعدان يتوسّط المجلس.

هزّت رأسها، وقالت: أرجو الله أن تكونوا أصبتم! وابتعدتْ، وهي على يقين من أن قرار الحرب على ظاهر لن يتأخر.

لم يكن قرار شنّهم الحرب مفاجئًا، إذا ما اتُّخِذ، لكن ما أرّق ظاهر هو ذلك السؤال الصعب: كم من دماء ستُسفك في الحرب القادمة؟!

***

من بعيد رأت وطفاء ذلك الفارس يتقدّم نحو خيمتها. عقدتْ غطـاء رأسـها بإحكام حول رأسها، ونفضت بعض الـتراب والقـش العـالق بثوبهـا، ووقفـت تنتظر وصوله.

كانت الشمس خلْفه تحيله وحصانه إلى تمثال أسود لا حياة فيه سوى حركته في اتجاهها، وظله الذي يسبقه.

وصلها. ألقى التحية، فدَعتْه للدخول.

سألته: من الفارس؟!

- أنا يا وطفاء!

- ومن أنتَ؟

- ظاهر يا وطفاء! ظاهر العُمر. قال وهو يرفع الغطاء عن وجهه.

- أتقتل أميرنا وكبارنا وصغارنا ثم تأتينا وحدك؟!

- أهكذا ترحبين بضيفك يا وطفاء؟!

- مرحبا بك يا ظاهر! مرحبا بك!

- ألا تقولين مرحبا بك يا بنيّ؟! كأنك ما زلت تعتقدين أن الأمير قعدان أكثر فروسيّة مني؟!

- يخسأ الأمير قعدان! والله أنني لم أر من يجرؤ على فعل ما تفعله الآن، ولا أظن أنني سأرى مهما عشت.

- العُمر كلّه لك يا أمي، والصحة إن شاء الله.

جلست تحادثه، وبين حين وآخر، تعود وتسأله: وكيف هي أمّك، نجمة؟!

- بخير يا أمي بخير! أعطاكما الله الصحة والعافية.

- الله كريمٌ يا ظاهر، أعطاني وأعطاها من الصحة وطـول العُمْـر مـا نـستحقّ وأكثر! ولكن، كلما منحنا الله شيئًا من هذا، اختطفتموه بحروبكم التي لا تنتهي!

كان ظاهر على وشك أن يقول شيئا، إلا أن نظرته تجمّدت. كانت قامة الأمـير قعدان تُغلق الباب. وقد تجمّد أيضًا أمام هول المفاجأة.

- أدخل يا بنيّ. إنه الشيخ ظاهر العُمر، ضيفي! ألا ترحب بضيف أمّك؟!

تلعثم الأمير قليلا، قبل أن يهتدي للسانه: أهلا بالشيخ ظاهر!

***

أمضى ظاهر الليل كلّه ساهرًا والأمير قعـدان. تعاتبـا، ثـم اسـتعادا حـوادث الأيام القديمة، وتعاتبا ثانية. واعتذر الواحد منهما للآخر على ما أصابه؛ وفي آخـر

الليل، عاهده الأمير قعدان أن يتسالما وألا تكون بينهما حرب بعد اليوم. فطلب منه ظاهر : ثم أريد أن أسمع منك كلمة - عهدًا، تقول لي فيها إنك لن تساند ولدي عثمان أو سواه من أبنائي ضدي. فوعده الأمير قعدان بذلك.

***

أحس ظاهر بذلك الثقل الذي أنهك قلبه وهدّ جسده يتلاشى رويدًا رويدًا في طريق عودته إلى عكا. ولم يعد يحلم سوى بذلك الأمل الذي تفتّح هناك في وعد الأمير قعدان: لا حرب مع الصقر بعد اليوم! ولو كان يستطيع رؤية الجهة التي ستهبّ منها الحرب القادمة، لما أحسَّ بتلك الرّاحة أبدًا!

المستحيلات على طريق إسطنبول!

لم تعد دمشق نفسها، دمشق التي يستطيع المرء من فوق جبلها العظيم أن يمسك القمر بيده. ويطلّ على جنة غوطتها فينسى كل ما في الكون من متاعب. لقد تحوّل وزيرها عثمان باشا الكرجي إلى حبة قمح في مقلاة، ما إن تسلّم رسالة من السلطان، تنهاه عن مهاجمة ظاهر:

- متى سيفهمون حقيقة نواياه؟!

- يا باشا، ما نسمعه أن ظاهر يمهّد الطرق لكل مدينة وقرية يضمها، بتمهيده الطرقَ الأصعب في إسطنبول نفسها. قال الدفتردار.

- وهل يمكن أن يكون السلطان غافلا إلى هذا الحدّ؟!

- بالطبع لا يا باشا! ولذلك منحَنا فرصة مهاجمة حيفا بحرًا، كما تذكر، لكن سوء الحظ كان لنا بالمرصاد!

- فليفسِّر لي أحد ما يحدث إذن!

- ما ننساه دائما، كما قلتُ، أن لظاهر حلفاء من كبار الموظفين يقنعون السلطان بصدق نوايا ظاهر، ويدللون على ذلك بقيامه بدفع كل قرش من الميري وزيادة!

- علينا أن نوقع بينه وبين السلطان إذن.

- وهل تظنّ أننا لم نحاول يا باشا، لقد حاولنا، وكما ترى ها هو جواب السلطان في يدك.

انتبه عثمان باشا للكتاب في يده، رفعه وأراد أن يلقيه أرضًا. رأى العيون تحدّق فيه. أدرك أن خبر إلقائه للكتاب أرضًا سيصل إلى إسطنبول قبل وصول الكتاب إلى الأرض!

- عليكم أن تُشيروا عليّ بما نفعل، لقد استلّ حيفا من بين يديَّ الموثقتين بكل تلك التعليمات السلطانية. حيفا التي هي مُلك دمشق. في البداية ادّعى أنه يريد تنظيف طريق عكا - حيفا من اللصوص، وأنا لا أشك لحظة أنه هو من اخترع مسألة اللصوص! ثم قال إنه سيحمي المدينة من القرصان، القرصان أنفسهم

الذين يتجوّلون في وضح النهار في عكا بعد أن فتح لهم البرّ. وحين أرسل إليه السلطان بعض المدافع لحماية حيفا، ادّعى أنها مدافع ضعيفة، لا تفي بالغرض، وحملها إلى عكا ووضعها فوق أسوارها! وقام وبنى حيفا الجديدة ليُحكِم قبضته، منها، على جبل الكرمل ومنافذه من وإلى بلاد فلسطين، ويمهّد الطريق لسلامة جنده وتجارته بين شمال البلاد وجنوبها، ويربط الساحل الفلسطيني من ناحية قيسارية بمرج بني عامر وبلاد صفد!

- الحصرم الذي نضرسه اليوم وضعه في فمنا ذلك الوزير الليّن أسعد باشا، فلولاه لما كانت حيفا اليوم ولا عكا في قبضة ظاهر، ثم جاء بعده ذلك المجنون حسين باشا..

- قلت لكم: أنا لا أريد أن أنظر خلفي. صرخ عثمان باشا. إنكم تجرونني لزمن مضي وانقضى. ما أريده هو أن يفهم السلطان بأي طريقة أنه ما بنى حيفا الجديدة إلّا لتكون بعيدة عن مدافع أسطول السلطنة نفسها، إذا ما جدّ الجد، وأكثر أمانا! وما هدم حيفا العتيقة ليبني (العمارة الجديدة) كما يسميها، ويحيطها بسور وثلاثة أبراج من ناحية البر، وبرج آخر ضخم يزوده بالمدافع، يطل على الخليج، إلا لأنه يفكر فيما هو أبعد من حيفا!

- أبعد من حيفا يا باشا؟! تساءل الدفتردار.

- نعم، أبعد من حيفا، فلا أظن أن السلطنة عرفت داهية مثله!

- هل صحيح أنه أطلق على برج المدافع هذا: برج السلام، يا باشا؟! سأل الدفتردار، فتجاهل الوزير سؤاله.

سار عثمان باشا حتى وصل الباب الموصل إلى خارج القاعة الكبرى.

تبادل كل من هناك النظرات باحثين عن سبب يدعوه لعدم مواصلة الحديث حتى الوصول إلى نتيجة، لكنه إذ بلغ الباب التفتَ خلفه وقال: سأعزلكم جميعًا، وأعني جميعًا، إن لم تعثروا على حلّ!

وخرج.

***

كان ظاهر قد بنى، فعلا، قاعدة من كبار الموظفين الذين يُكرمهم ويحتفي بهم كلما جاءوا لزيارة الأماكن المقدسة وسواها، من التاجر الأرمني يعقوب آغا،

الصديق الأقرب لقزلار باشا رئيس خدم السلطان[1]، إلى سليمان آغا السلحدار[2] الذي أصبح صديقًا لظاهر بعد موت يعقوب، قبل أن تتبدل أحواله.

***

- كم سنة عمره، ابن سليمان آغا؟
- أثنتا عشرة سنة. لماذا تسأل يا شيخ؟
- هذه هي السنّ التي لا يسلبُ فيها لبَّ الفتى شيء مثلما يسلبه حصان أصيل!
- أرسلوا إلى الآغا أفضل هدية، ولابنه أفضل حصان.
- وبماذا سينفعنا الآغا وهو منفي الآن في قبرص؟!
- ادعوا الله أن يكون في قبرص حينما تصلونها!

- ***

فرح سليمان آغا بالهدايا الكثيرة التي أرسلها ظاهر، وطار قلب ابنه الوحيد، حين رأى ذلك الحصان الأصيل.

- عجيب أمرُ الشيخ ظاهر! أتدرون! إنه الوحيد الذي أرسل إليَّ هدية منذ أن وصلتُ إلى هنا منفيًّا! فأنتم تعرفون، حين تكون فوق الكرسي تكون سيد الناس، وحين تنزل عنه لا يعود أحد يعرفك، حتى كلابك! فكيف يمكن أن أردَّ جميل الشيخ؟

- لقد أرسل الشيخ رسالة إليك. قال رسول ظاهر. ومدّ يده بالرسالة إلى سليمان آغا.

فضّ الرسالة وبدأ بقراءتها. بعد قليل راح يهز رأسه، مردِّدًا بين حين وآخر: عجيب، عجيب! وهو يواصل القراءة: (لي حاجة أرجو أن تقضيها لي، وهي أن تمنع عثمان باشا الكرجي من محاربتي! وتردعه عن محاولاته الخبيثة لسلخ حيفا عن بلادي التي هي بمقام شريان الحياة لها...)

---

[1] - قزلار: المشرف على الحريم في القصر السلطاني (رئيس الخصيان) وأصبح من مراكز القوى داخل القصر حينما ضعفت الدولة. وكان مقامه ثالث المقامات بعد السلطان ووالدة السلطان! والمسؤول عن تربية ولي العهد. ويذكر أن 5000 آلاف شخص كانوا يعيشون في القصر السلطاني، من بينهم 1200 موظفًا في قسم المطابخ السلطانية!

[2] - السّلحدار، المشرف على أمور التسليح، ومخازن الأسلحة.

التفت سليمان آغا إلى الرّسول وقال: لا أظن أن الشيخ قد نسي أنني منفي هنا! فكيف يطلب مني أن أردع له وزير الشام، وأنا بالكاد أستطيع طرد ذبابة تحلّق قرب أنفي في هذه الجزيرة؟!

راح سليمان آغا يفكِّر في أمر رسالة ظاهر. يفكر في هذا الشيخ الذي تجاوز الخامسة والسبعين من عمره. أيكون قد بلغ أرذل العمر فعلا؟! أيكون قد نسيَ أنني منفي؟! ولكن، لو كان ذلك، لقالوا له: سنرسل هديتك إلى الآغا، وتناسوا الأمر لأنه سينساه!

بعد أربعة أيام، وصل رسول السلطان حاملا له فرمانا (خط شريف).

أمسك سليمان آغا الفرمان بيده، وهو على يقين أنه يحمل أمر نفيه إلى مكان أبعد! لكنه ما إن فضَّه، حتى فوجئ بما فيه، فالسلطان يعيده إلى منصبه القديم سلحدارا، ويطلب منه أن يتوجّه فورًا إلى الأستانة!

***

في السفينة المتوجِّهة إلى إسطنبول، كان السؤال الوحيد الذي يتردّد في ذهن سليمان آغا: هل كانت للشيخ ظاهر يد في هذا الذي يحدث لي؟! هل أصبح على هذه الدرجة من القوة برجاله المحيطين بالسلطان، بعد أن ظنّ بعضهم أن ساعده هزل وضعف منذ ذلك اليوم الذي مات فيه صديقه يعقوب؟ هل...

لم تنته أسئلته،

وانتهت الطريق إلى إسطنبول.

كل الطرق الشائكة إلى حيفا

ظهيرة الثلاثاء السابع من حزيران عام 1766، وصل القبجي[1] مسعود بيك إلى دمشق حاملا فرمانا سلطانيًّا. كانت الحرارة قد راحت تتصاعد منذ اليوم الأول من الشهر، وما إن جاء اليوم السابع حتى ظن الناس أن دمشق، كلها، لا بدّ ستحترق.

لا شيء يروى عطش الأعشاب الجافة كالنار!

اشتعلت عدة حرائق في الأعشاب الجافة في بستان، فانتقلت النار بسرعة غريبة إلى البساتين المجاورة! اندفع الناس نحو حقولهم يطفئونها؛ أما أولئك الذين لم تشتعل حقولهم بعد، فقد وقفوا كالحرّاس على كل زاوية من زواياها، متوقّعين اندلاع النار في أيّ لحظة، في الوقت الذي بدأت فيه رؤوس بعضهم تغلي، وبين لحظة وأخرى يهرعون لواحد منهم سقط أرضًا!

بين سحب الدّخان المتصاعدة استطاع مسعود بيك أن يشقَّ طريقه بصعوبة نحو بوابة دمشق. وقد كان أرسل رسولاً إلى الوزير عثمان باشا الكرجي قبل يوم من وصوله، ليتيح له فرصة استقباله بالطريقة اللائقة التي تُظهر وفاء وزير لسلطانه.

كان الدفتردار ومفتي دمشق وقاضيها وقائد جيش الولاية في انتظاره هناك.

سار الموكب حتى سرايا عثمان باشا، حيث حلَّ مسعود بيك ضيفا فيها.

طلب مسعود أن يتركوه قليلا ليغتسل ويغفو، قبل أن يلتقي الوزير.

بعد ساعتين، سأل الوزير عنه فقالوا: لم يزل نائمًا. وبعد ثلاث ساعات أُخر، سأل، فقالوا: إنه نائم! عندها أصدر أمره: أيقظوه!

كان عثمان باشا يعرف أن الطريق طويلة من إسطنبول. فرحلة البحر طويلة إلى بيروت، كما أن الرحلة من بيروت إلى دمشق في ذلك الحرّ الجهنمي ليست سهلة. لكنه كان يعرف أنه لن يستطيع النوم قبل معرفة ما في الفرمان السّلطاني!

---

[1] - رسول السلطان الخصوصي في البعثات ذات الأهمية الخاصة والسرية مما كان يوفد للولايات.

الفرمان الذي انتظره طويلا، وهو لا يحلم إلا بشيء واحد: أن يحمل إليه أمرَ شنِّ الحرب على ظاهر.

حاول عثمان باشا الكرجي التظاهر بأن الأمر لا يعنيه، حينما أمسك بالرسالة؛ حتى أنه وضعها بجانبه. راح يسأل الرسول عن الرحلة وتفاصيلها وأخبار إسطنبول، لكن بعض ارتباك أصابه حين سأل: وكيف هي أخبار المحترم سليمان آغا السّلحدار؟!

- لفرط ما هي أخباره جيدة، خلتُ أنها وصلت إلى دمشق قبلي، إنه الأقرب اليوم إلى عظمة مولانا.

لسبب ما، أحسّ عثمان باشا بأنه قرأ الفرمان قبل أن يفتحه! فقد غدا جواب مسعود عنوان ما فيه.

لم يكن بمستطاعه ترك فرمان السلطان ينتظر أكثر من ذلك إلى جانبه. امتدَّت يده إليه. فتحه بهدوء. وبعد لحظات كان الجميع قادرين على قراءته، حتى، قبل أن يحدِّثهم عثمان عمّا جاء فيه. انقبض وجهه بصورة لم يروها من قبل. كان أشبه بإنسان على وشك تلقّي صفعة لا يُتيح له مقامُهُ إلا أن يتلقاها ويداه مضمومتان إلى جانبيه! رفع رأسه بصعوبة في النهاية، ونظر إلى الرسول: أيأمرني السلطان إذن بأن التجئ إلى الشّرع لكي يفصل ما بيني وبين ظاهر؟!

- إذا كان هذا هو ما جاء فيه، فهو هذا إذن؟!

- أن أجلس قُبالة ظاهر، وأن أرضى به ندّا تحت سقف واحد؟! وهل الدولة العلية أضعف من أن تحاربه؟!

- عثمان باشا! الدولة العليّة تستطيع أن تحاربه، ولكن الدّولة العليّة ليست على استعداد لأن تفقد هيبتها، إذا ما قُدِّر له أن ينتصر! فأنت تعرف كم من وزير من وزراء دمشق هُزم أمامه بما فيهم أنت أيها الباشا! وأنت تعرف، والدولة العليّة تعرف، أن ظاهر الذي يبسط نفوذه اليوم على معظم بلاد فلسطين، استطاع أن يُنشئ جيشًا كبيرًا، واستطاع أن يكسب دولًا كبرى بعلاقاته التجارية والسياسية معها، ولم تعد هناك دولة واحدة لها قنصل في بيروت أو صيدا أو.. دمشق! إلا ولها قنصل في عكا يُسيِّر أمور رعايا بلاده وعلاقات بلاده مع ظاهر.

- كان يجب ألا تنتظر الدولة إذن كي تصل الأمور إلى ما وصلت إليه!

- ومن قال إن الدولة انتظرت يا باشا، فمنذ وجوده في طبرية تحاول القضاء عليه، وقد منحتْكَ الإذن بمحاربته أيضا كما تعرف! ولكنها كلما حاصرته في

مدينة، كبر فيها، ونبتَ له فرع في مدينة أخرى. وها أنت ترى، لقد أصبحت كلّ البلاد الممتدة ما بين البحرين في يده، ولم يعد هناك من يستطيع الوقوف في وجهه.

توقّف الرسول فجأة عن الكلام، كما لو أنه تذكّر شيئًا مهمًا ما كان عليه أن ينساه، وقال: عليَّ أن أحمل فرمانا آخر مثل الفرمان الذي أتيتك به إلى ظاهر. فقد طال هذا النزاع بين عكا ودمشق أكثر مما يجب!

***

لم يكن ظاهر أقل غضبًا من عثمان باشا الكرجي وهو يقرأ الفرمان؛ فقد أدرك قبل أن يُنهيه أن حيفا والطيرة والطنطورة باتت مهدّدة بأي حكم يصدر، كما هي مهدّدة بأيّ حرب يمكن أن تُشنّ. شدّ إبراهيم الصبّاغ على يد ظاهر، وقال: لا تقلق يا شيخ، سيظهر الحق، ويكون إلى جانبك!

***

كان عثمان باشا قد يئس تمامًا، وبدا جلوسه قبالة ظاهر هزيمة أكبر من أيّ حكم يصدر لصالح ظاهر: ستكون وكيلي في الشَّرع!

- أنا يا باشا؟! قال مسعود بيك.

- نعم أنت؟ وهل هنالك من هو أفضل منك؟!

كانت تلك هي الضربة الوحيدة المتقنة، التي أحسّ عثمان باشا أنه وجّهها للدولة، وهو يعيد الأمر برمته إليها. فإذا ربحتْ، فهذا ما يتمنّاه! وإذا خسرتْ فستكون هي الخاسرة، لا هو! ففي النهاية، الفرمان فرمان السلطان، ومسعود رسوله: *"لا يريدونني أن أشنَّ الحرب على ظاهر وأؤدبه، فلينتزعوا حيفا من بين يديه على طريقتهم إن استطاعوا!"*

"إن استطاعوا! أم إن أرادوا؟!"

سقط قلب عثمان باشا، أحسّ بانشطاره نصفين: أيكون سليمان آغا السلحدار قد رتّب الأمر بدقّة، بحيث تكون حيفا لظاهر، حينما أقنع السلطان بإصدار هذا الفرمان؟! وأكون أنا قد مهّدت الطّريق لذلك بطلبي من مسعود أن يمثّلني في مجلس الشَّرع؟!"

لكن الوقت كان قد فات، فمسعود بيك كان قد ترك دمشق، وأصبح على ظهر السفينة التي حملته من صيدا إلى عكا.

***

اجتمع علماء عكا والقاضي والمفتي وعدد من العلماء الذين حضروا مع مسعود بيك من دمشق، وعقد المجلس. أعلن مسعود أنه وكيل عثمان باشا بموجب الكتاب الذي معه. تأمل الجميع الكتاب، وهزّوا رؤوسهم موافقين.

تشعّب الحديث وتتالت الحُجج، وفوجئ الجميع بقدرة مسعود بيك على المحاجَّة. تحدّث ظاهر عن حيفا التي أهملتها دمشق وتركتها فريسة للقراصنة وقطاع الطُّرق، وعن أهلها الذين افتقدوا الأمان، ولولا ذلك لما كان فكر، أبدا، في ضمّها إلى عكا.

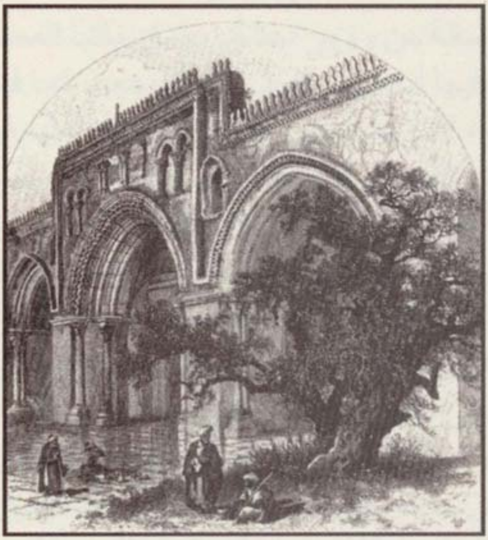
- لو كان الولاة والمتسلِّمون يحتكمون لحجة مثل هذه لضاع الحقّ وفَقدت السلطنةُ كثيرًا من أراضيها! كما لو أنك يا شيخ تأخذ أولاد كلّ رجل فقير، وتحرمه منهم، لأن أباهم لا يملك الطعام الذي يكفيهم! قال مسعود.

- وهل عليه أن يتركهم يموتون في كنف أب ليس له حجّة لكي يبقوا له سوى أنه أبوهم؟! قال إبراهيم الصبّاغ.

تلفّت مسعود بيك نحو مصدر الصوت، وصرخ: هذا مجلس سلطاني ومجلس شرع شريف، وأنا قبجي باشا سلطان ووكيل وزير الشام! وأنت رجل نصراني، ومن هو في مقامك لا يجب أن يُسمح له أصلا بأن يكون حاضرًا في هذا المجلس! وفوق ذلك، تتجرأ وتردّ لي الجواب؟! أخرج في هذه الدقيقة، لا أريد أن أرى وجهك في هذا المجلس العظيم!

احمر وجه مسعود بيك، واسودّت الشّامات الثلاث الكبيرة على جانب وجهه الأيمن قرب فمه، وارتفعت شفته العليا، التي لا يستطيع إغلاقها أصلا، فبدت مثل علامة استفهام؛ في حين سقطت كلماته القاسية كالحجارة فوق رأس الصبّاغ الذي تجمّد في مكانه، قبل أن يلملم شتات نفسه، بعد أن هُدرتْ كرامته على ذلك النحو المرّ، ونهض. وقبل أن يصل الباب، صاح به ظاهر: إلى أين؟! انتظر!

وقف إبراهيم الصبّاغ وقد أدرك أنه يعيش أقسى لحظات حياته -لأنه لم يكن يتصوّر أن لحظات أقسى بكثير سيعيشها بعد زمن!- عمّ الصمت، وتبادل الجميع النظرات متوقّعين حدوث أيّ شيء، لكن ظاهر حسم الأمر بسرعة: يا مسعود بيك أنتَ وكيل عثمان باشا، وأنا وكيلي إبراهيم الصبّاغ هذا! وكل ما يثبتُ على وكيلي فهو ثابت عليّ. واشهدوا بذلك أيها العلماء وأنتم الموجودون في هذا الديوان.



عذاب الجنّة

في البداية

وصلت رسالة من وزير دمشق عثمان باشا المصري إلى ظاهر، يخبره فيها أنه لن يواصل الحرب معه، كما فعل وزراء دمشق السابقون، لأنه على يقين من أن تعدّياتهم عليه في السنوات الأخيرة، كانت سبب كل الحروب. ولم يكد ظاهر يطويها، حتى وصلته رسالة أخرى من (الصدر الأعظم، رئيس الوزراء) يبلغه فيها أحرَّ تحياته وتمنياته بطول العمر والصحة، ويدعوه إلى تناسي كل ما مرّ، وفتح صفحة جديدة!

كانت تلك هي المرّة الأولى التي يكتب فيها (الصدر الأعظم) كتابا مباشرًا إلى ظاهر، فكل ما كان يصله، من قبل، هو كتب الوزراء التي لم تحمل يومًا سوى التهديدات.

تلفّتَ ظاهر حوله، فوجد أن كلَّ ما يريده قد تحقّق، فها هو يسيطر على الجنوب كله، ويبسط حكمه على عكا ويافا وحيفا والجليل وبلاد إربد وعجلون وأجزاء من سورية وحوران وصيدا وسواها؛ في حين أن صوْر كانت في يد حلفائه المتاولة، وبيروت في يد حلفائه الشهابيين. ولم يبق للدولة سوى ميناء طرابلس في الشمال. لكنه كان يدرك أن رضا الدّولة على من يقف في الجانب الآخر من مصالحها لا يمكن أن يكون مطمئِنا أبدًا. إلا أن الدولة قطعت مسافة أبعد حينما أرسلت إليه فرمان عفو سلطانيّ حمله رسول سلطاني دخل عكا في موكب احتفالي لم تر المدينة مثيلا له.

عند ذلك بدأ خوف ظاهر يكبر أكثر فأكثر!

وقد كان على حق!

هبوب الخيام السّود!

ثار أهالي شفاعمرو حين علموا برغبة ظاهر تعيين ابنه عثمان واليًا عليهم. نزل الخبر على رؤوسهم كالصاعقة. فقد كانت سيرته قد سبقته، وفاحت رائحة فسوقه وظلمه في أنحاء البلاد.

وصل عدد من شيوخ شفاعمرو سرًّا إلى عكا، التقوا بظاهر، وأخبروه: الموت أفضل من وجود عثمان بيننا[1]!

طمأنهم، أنه سيردع كل من يفكر في أن يظلمهم: سواء كان الأمر متعلقًا بابني أو بسواه.

***

في البداية دفع عثمان، كما دفع أبناؤه الآخرون مال الميري المترتِّب عليهم، لكنهم راحوا يتباطؤون بسبب بذخهم وتصرّفهم الدائم كأمراء وأبناء لحاكم البلاد! ولم يكتفوا بذلك: راحوا يضاعفون من حجم الضرائب على الناس، الضرائب التي كانت السبب في نشر الشقاء، حينما كان الوزراء والولاة في دمشق وصيدا يرفعونها كما يريدون لملء جيوبهم.

رفضوا دفع مال الميري المتراكم عليهم. أرسل ظاهر إلى ابنه عليّ في صفد، وسْعيد في صفورية، وأحمد الذي تولّى دير حنا بعد مقتل سعد، وعثمان في شفاعمرو، إنذارًا أخيرًا. لكن النتيجة كانت نفسها.

كان عثمان أشدهم غضبًا، وهو يقرأ إنذار أبيه في شفاعمرو؛ شفاعمرو التي أصبحت عتبة حلْمه الأكبر،إذ يستطيع القفز منها بسرعة، ليكون أول الواصلين

[1] - في فترة حكم ظاهر، تقاسم أهالي شفاعمرو بترتيب من ظاهر، أراضي المشاع، فيما بينهم: الدروز والمسيحيون. وكانت عشرات العائلات السورية المسيحية وصلت إلى شفاعمرو أيضا، بسبب انتشار الأمن والاستقرار والتسامح.

إلى عكا إذا ما مات العجوز فجأة! عثمان المتطلّع إلى لحظة السيطرة على البلاد كلها، من سراياه التي بناها[1]، وأحسن تحصينها.

أما صْلِيبِي الذي كان يُسيِّر أحوال طبرية، كما لو أن ظاهر لم يتركها. فقد واصل دفع ما عليه، كما واصل العمل على تطوير المدينة وزراعتها دون كلل.

***

ذات صباح، جهّز ظاهر موكبًا كبيرا محملا بالهدايا، قاصدا مضارب الصقر. ولم يكن له سوى طلب واحد.

لم يجد صعوبة في إقناعهم بالخروج لتأديب أبنائه، لإحساسهم بأن حروبهم مع ظاهر يجب أن تنتهي، ولتلك الغريزة المتأصّلة فيهم والتي تدعوهم للخروج لشنّ الغارات، ربما!

***

أفاق أولاد ظاهر في شفاعمرو وصفورية وصفد، فإذا بالخيام السّود تحاصرهم من كل جانب، بحيث لم يكن باستطاعة أحد أن يخرجِ أو يدخلِ إلى مناطقهم. ولم يتردّد عرب الصقر في شن الهجمات القاتلة على كلِّ جندي أُرسل لاستطلاع الأمر. فهم يعرفون أنهم خارجون لقتال أبناء ظاهر، أما الحوار مع هؤلاء الأبناء، فيكون مع ظاهر فقط!

ضاقت السهول حولهم، ثم ضاقت الأسوار، فالبيوت، إلى ذلك الحدّ الذي بدأوا يحسّون فيه بأنِ ثيابهم ضاقت عليهم أيضًا.

كان لا بدّ من حلٍّ؛ من وسيط بينهم وبين أبيهم؛ ولم يجدوا، كالعادة، أفضل من صْلِيبِي.

برايات بيض خرج عدد من رجال صفد، ساروا إلى شفاعمرو جنوبا، ثم انعطفوا قليلا، شرقًا، إلى صفورية، يرافقهم بعض رجال الصقر.

لم يجد عليّ سبيلا سوى إرسال رسالتين لأخويه عثمان وسْعيد يعلمهما فيهما بضرورة عقد صلح مع أبيهم.

---

[1] - كان الطابق السّفلي للسراي/ القلعة، إسطبلات للخيل، والعلويّ لسكنه، وقد نقش على بابه هذه الأبيات التي يعتقد أنه هو الذي كتبها!:

قفْ على دار بها الحُسنى تجلّت بالزيادةْ
دارة البدر بها الليث استوى والعود عادةْ
شادها عثمان ذو الإحسان من أعطي السيادةْ
فانظر التاريخ سهلا هذه دار السعادةْ

ثلاث رسائل وجدها صْلَيبِي بين يديه، وكلّها ترجوه التوسّط لإنهاء حصار الصقر.

***

استيقظ ثلاثتهم ذات صباح، متوقّعين المشهد نفسه، لكنهم فوجئوا برحيل عرب الصقر، وبوصول رسائل من صْلَيبِي إليهم، يخبرهم فيها بأنه فعل ما عليه، وأن عليهم أن يفعلوا ما عليهم.

لم يتأخّر أولاد ظاهر بتنفيذ الاتفاق، ولم يكن ظاهر يريد أكثر من هذا.

مصيدة الرياح!

- لقد نظرنا كثيرا إلى الشمال بحيث حجبْنا الجنوب عنّا. قال ظاهر لوزيره إبراهيم الصبّاغ.

- تقصد مصر يا شيخ؟

- أقصد مصر وما يدور فيها أيضًا! فقد سبقتنا وحققت ما لم نحققه بعد، استقلالها عن السلطنة.

- لكن وضعنا مختلف هنا يا شيخ.

- أعرف يا إبراهيم، فقربنا من دمشق وإسطنبول لعنة لا يرفعها سوى شيء واحد!

- وما هو يا شيخ؟

- سأعلمك إذ يحين الوقت.

حدّق ظاهر في ذلك الجنوب، وراءه اتساعه وبعده: طريق طويل إلى غزة، وطريق أطول من غزة إلى الإسكندرية، وطريق طويل إلى القاهرة.

نظر إلى الكرمل في تلك الظهيرة الهادئة، ولم يخطر بباله سوى شيء واحد، أن يصعده مرة أخرى مع نجمة؟

- *أتراني أستطيع بعد هذه السنوات؟!* سأل نفسه.

رحل ظاهر بعيدا بأفكاره، ولذا كان على الصبّاغ أن يكرر سؤاله مرتين: كنت أريد أن أستسمحك يا شيخ ببناء كنيسة للطائفة في عكا؟

- أتستسمحني في بناء مكان للعبادة؟! إذهب وابنهِ.

- كنت أعرف جوابك، ولكنني أحببت أن أسألك!

- كأن أحوال المصبنة التي أنشأتها جيدة؟!

- على أفضل ما يرام والحمد لله؟

- وتجارتك؟

- تجارتي! ماذا أقول؟! إن إنشغالي بأمور الناس أثّر عليها قليلا!

- ولكنك لم تزل تربح؟ أليس كذلك؟!

- الحمد لله!

- الحمد لله على ماذا؟ فنحن نحمده في السّراء والضراء؟

- الحمد لله على هذه السراء.

وصمت الصباغ قليلا، ثم قال: وهناك أمر آخر يا شيخ.

- ما هو؟

- تعرف أن كثيرا من الموارنة قد وصلوا إلى الناصرة واستقروا فيها، لعلمهم بأنها أفضل مكان يمكن أن يكونوا آمنين فيه، وقد أرسلو إليّ رسالة، يطلبون فيها أن تسمح لهم ببناء كنيسة في الناصرة، فما رأيك؟

- حين نعود لعكا، سأكتب لهم، وسأوصي بتخصيص قطعة أرض لبناء كنيستهم كما يريدون. لكنه قاطع نفسه! وقال: ولماذا ننتظر حتى نعود إلى عكا، اكتب لهم: "لقد سمحنا إلى أعزازنا نصارة الناصرة الموارنة أن يستدعوا لهم رجل دين من طائفتهم، وذلك لأجل زيادة استقرار أحوالهم، وأن يكون لهم كنيستهم الخاصة بهم.."

***

بعد ثلاثة أيام من عودته والصبّاغ من حيفا، وصله خبر تمرّد ابنيه: عليّ وسْعيد ثانية، كان كل منهما قد طالب بضم مناطق جديدة له.

رفض ظاهر، وأصرَّ: لا أعطيهم أكثر مما أعطيتهم، وكتب لهما: كي تكون للناس كرامة حاربت أعدائي. وكي يكون لهم حقّهم في الأمان وتربية أولادهم دون خوف، حاربت أعدائي. وكي أملأ هذه الطرقات بالأمان، حاربت أعدائي. وكي لا أسمح بسرقة أحد في حقله أو بضاعته أو تجارته أو خيمته أو بيته، حاربت أعدائي. وها أنتم، لم تتركوا لي خيارًا سوى أن أحاربكم وأنتم تقومون بما قام بها أعدائي. سأحاربكم حتى أكون عادلا مع أعدائي! إذ لا يصحّ أن يقال: لقد حارب ظاهر أعداءه لتلك الأسباب، ونكّس سيفه حينما ارتكب أبناؤه الفظائع نفسها! سأحاربكم ما دمتم تقفون بيني وبين أي هدف حاول أعدائي أن يمنعوني من تحقيقه!

***

وصل ظاهر إلى صفورية، فوجد أن سْعيد قد فرّ منها هاربًا إلى قلعة أخيه عليّ في صفد. تبعه، محاولا الابتعاد عن تلك الأودية العميقة التي تنتشر فيها الغابات الكثيفة؛ الأودية الحافلة بالحيوانات الكاسرة كالدببة والنمور والضباع. كانت

أخبار الجيش الذي خرج به ظاهر قد نشرت الرّعب في أوصالها. إذ أحضر معه مدافع قيل إنها المرة الأولى التي تستخدم في الحروب، وبنادق جديدة لم ير أحد من قبل مثلها.

لم يُضع الدّنكزلي الوقت، نصب المدافع وصوّبها إلى القلعة. رآها عليّ، فداهمه الخوف لأول مرّة في حياته، هو أشجع فرسان البلاد.

رفع الدّنكزلي يده، ليعطي إشارة بدء القصف، لكن ظاهر أوقفه.

- لنمنحها فرصة أخيرة! وأرسل رسالة يطالبها فيها بالاستسلام.

رعبٌ ما تحرّك في قلب ظاهر، وخلخله، حينما تذكّر وجهَي الحسن والحسين، ابنَي عليّ. وخطفًا مرَّ وجه الجهجاه أمامه.

تذكّر ظاهر ذلك اليوم الذي زحف فيه على عليّ؛ يومها، لم يجد عليّ جيشا يوقف به جيش أبيه سوى ولديه! ألبسهما أفضل الثياب، ووضع في رقبة كلّ منهما محرمة بيضاء وأرسلهما إليه. جنّ ظاهر حين رآهما، مزّق المحرمتين، واحتضنهما، وأرسل لابنه: أقسم بالله أنني سأقتلك بيديّ إذا ما رأيتهما، أو رأيتكَ، خارجًا بلا سلاحك وفي عنقك محرمة بيضاء!

كان ذلك واحدا من المشاهد التي أشرعت باب الذكرى على ألم عظيم.

***

انتظر ظاهر عودة الرسول برسالة، لكنه لم يعد، وقبل الغروب بقليل، رأوه مقبلا. حين وصل، ناول ظاهر الرسالة، فقرأها: أولم تقل يا أبي إنك ستقتلني إن رأيتني أخرج بلا سيفي مستسلما لعدوّي وفي عنقي محرمة بيضاء! أعدكَ: أنا لن أستسلم بعد اليوم.

نظر إلى الدّنكزلي وأصدر أمره: لك صفد، فافعل بها ما شئت!

***

لم تكن صفد تلك المدينة السّهلة. تذكّر ظاهر يوم دخلها بالقناديل، وكم تمنى أن يدخلها بالقناديل ثانية، وهو يرى القذائف تطير لتقع فوقها موقدة كل تلك النيران المجنونة.

مساء اليوم التالي، وصل رسول من إسطنبول حاملا رسالة إلى ظاهر. فتحها، وإذا بعيونه، فيها، يخبرونه أن عثمان باشا الكرجي في الطريق إليه، وأن خطته تقضي بأن يُشيع أنه خارج للدّوْرة السنوية لجمع الميري، ولكن الهدف الحقيقي هو الزّحف إلى عكا.

لم يشكّ ظاهر في الأمر، ولم يتردّد، فهو يعرف أن عثمان باشا الذي خسر حيفا بالشّرع، لن يقبل بهذه الخسارة، طال الزمن أم قَصُر.

أعطى أوامره بوقف القصف، وتراجع الجيش بعيدا عن أنظار المحاصَرين؛ في الوقت الذي راح يكتب رسالة إلى ولديه، يطلب منهما فيها إعداد عشاء لثلاثة أشخاص! لأنه يريد أن يطلعهما على أمر في غاية الخطورة!

فوجئ عليّ وسْعيد بالرسالة، بعد أن يئسا في العثور على مخرج ينجيهما من حصار ظاهر، هما اللذين لم يتوقعا أن تُدك صفد بالمدافع، المدافع التي ظنا أنها لتهديدهما لا أكثر.

كان عليّ على يقين من أن رسالته الأكثر تأثيرا: ولداه، قد استخدمها من قبل، ولو أعاد إرسالهما مرة ثانية، فإن ظاهر سيأخذهما ويكتب له: لن تراهما أبدًا لأنني لا أقبل أن يعيشا في كنف رجل لا يتردد في أن يذلهما كلّما وجد نفسه عاجزًا!

***

تراجع رجال عليّ عن الأسوار، وأُشرِع باب المدينة واسعًا، ووصل الحسين فوق حصان أبيض حاملا رسالة شفوية لجدّه.

امتطى ظاهر حصانه، وسار إلى جانب الحسين حتى اختفيا خلف الأسوار.

لم يكن الدّنكزلي أو كريم الأيوب مع قرار ظاهر الذهاب بمفرده. لكن ظاهر أكّد لهما: لن يحدث لي شيء وأنتما هنا، أما إذا أتيتم معي، فمن ذلك الذي سيحسبون له حسابا إذا ما فكّرا بارتكاب فعل مشين؟!

***

مدّ عليّ يده ليصافح أباه خائفًا من أن لا يصافحه، لكن ظاهر شدّه إليه وعانقه، وكم كانت مفاجأة عليّ كبيرة! وبالطريقة نفسها عانق سْعيد. وقبل أن يدعوه عليّ للجلوس كان قد جلس!

أكلوا بصمت. وحينما انتهوا، قال ظاهر: لقد وصلتني رسالة من إسطنبول، يخبرني فيها أصدقائي هناك، أن الهدنة التي منحها ليَ السلطان بعد أن حكم الشّرع لنا بحيفا، لم تكن أكثر من خدعة. فقد أصدر (خط شريف) بقتلي وبقتل كلّ أبنائي، وأن تُحمل رؤوسنا إليه. أما تنفيذ الأمر فقد أوكِل لعثمان باشا، وهو في طريقه إلينا، وحجته أن هذه القوات هدفها جمع الميري وأنها لا تختلف عن أي دوْرة سنوية يخرج وزير الشام على رأسها، وكل ما يخطط له هو أن يباغتنا.

***

حين اجتمعوا في المعسكر بعد ساعات، اختلفوا في الطريقة التي سيواجهون فيها جيشا بهذا الحجم، وقد علموا بأن جيش دمشق قد خرج فعلا.

- إن مهاجمة عثمان باشا من قِبلنا بجيش يوازي جيشه، ستنقلب ضدنا، فحجته أنه خارج للدَّوْرة السنوية، وإذا ما هاجمناه سيقال: نحن الذين أخللنا بالهدنة. قال عليّ الظاهر.

- وهل ننتظر وصول الرياح إلى أبواب بيوتنا؟! قال كريم الأيوب.

- إن جلسنا هنا ننتظرهم، نكون بهذا قد حكمنا على أنفسنا بالهلاك. قال الدّنكزلي. والتفت إلى ظاهر وسأله: لم نسمع رأيك يا شيخ.

- ستسمعونه، ولكنني أحبُّ أن أسمع آراء الجميع أولا.

بعد جدال طويل، قال عليّ ظاهر: أطلب من الشيخ أن يوْكِلَ إليَّ منفردًا أمر القضاء عليهم! كل ما أريده خمسمائة جندي من خيرة رجالنا!

بدا طلب عليّ أشبه بالجنون، فها هو جيش، يقال، إن دمشق لم تحشد جيشًا مثله، عددا وعدّة يأتيهم، وها هو عليّ يطلب السماح له بالخروج لملاقاته بخمسمائة جندي!

- لك يا عليّ ما تريد. اختر الرجال الذين تريدهم، وتوّكل على الله. قال ظاهر.

***

كانت خطة عليّ بسيطة، أن يتقدّم ليلا، ويختفي نهارًا، حتى يصل إلى مكان يعسكر فيه جيش عثمان باشا، في طريقه إلى عكا.

كل شيء توقّعه عثمان باشا، إلا أن يُهاجَم معسكره وجنوده نيام.

مباغتًا وقاتلا كان اندفاع عليّ وجنوده. صاح الجنود الأتراك، ودبَّ الفزع فراحوا يطلقون النار على بعضهم بعضا، وتزايد الرّعب أكثر حين صرخ أحد الجنود: عليّ الظاهر يهاجمكم، علي الظاهر يهاجمكم[1]! وأشار إلى ذلك الفارس الذي يتقافز من ظهر حصان إلى أعلى خيمة إلى ظهر حصان، حاصدًا كل ما في طريقه كمنجل القدر!

في ذلك الليل الممزّق بالصرخات ونيران البنادق، لم يجد عليّ صعوبة في شق طريقه إلى خيمة الوزير عثمان باشا الكرجي الذي فرّ هاربًا، تاركًا جنوده وعتاده خلفه.

---

[1] - يقول فولني في كتابه (رحلات في سورية ومصر) إن اسم عليّ الظاهر قد أوقع الذعر في قلوب الأتراك وفعل في نفوسهم أكثر من فعل السيف.

دخل عليّ خيمة الوزير، فلم يجد صعوبة في العثور على (الخط الشريف) الذي تحدّث عنه أبوه، وغنم خنجر الوزير وكل أسلحته من سيوف ورماح وبنادق ومدافع، وحين همّ بأخذ نرجيلته الطويلة المزخرفة، المتربّع على حافتها المعدنية السّفلى ثلاثة أسود ذهبية، تذكر كره أبيه للمدخّنين، فركلّ النرجيلة بقدمه وخرج!

لقاء الجهات!

بهزيمته الأخيرة أمام هجوم علي الظاهر، وجد عثمان باشا الكرجي وزير دمشق نفسه وولايته على شفير الإفلاس، ففرض ضرائب جديدة، رفضت الناس دفعها؛ فما كان منه إلا أن جهّز قواته، لا لتحصيل الضرائب، بل لنهب كل مدينة رفضت الدّفع. بدأ بالمدن والقرى القريبة، وحين انتهى منها زحفت قواته على الرّملة، حاصرها ثم دخلها ونهبها، وتوجّه إلى غزة، وحين وقف علماؤها في وجهه دفنهم أحياء! ثم زحف إلى الخليل ونهبها، وما كاد يستريح حتى جاءته أخبار تمرّد يافا فجنّد قوة سحقتها. وهكذا، وجد سكان الجنوب أنفسهم، بما فيهم الأجانب، والفرنسيين بشكل خاص، مضطرين للرحيل شمالا إلى عكا، ليكونوا في حماية ظاهر.

***

التفتَ ظاهر حوله، أحسّ بأنه بحاجة إلى حليف قوي آخر، غير المتاولة والشهابيين، ولم يكن هناك أفضل من علي بيك الكبير في مصر[1].

كان يبحث عن أفضل طريقة يمكن أن تكون بداية للتّعاون بينهما، حين قال له وزيره إبراهيم الصبّاغ: أظن أنها في هذه الرسالة! رفعها الصبّاغ، ثم بسطها أمام الشيخ. قرأ ظاهر اسم صاحب الرّسالة قبل أن يقرأ أيّ كلمة فيها. كانت موقّعة من ميخائيل فخر رئيس دواوين مصر.

---

[1] – علي بيك، مملوك شركسي، اسمه الأصلي يوسف بن داود ولد عام 1728 تقريبا، وقع في يد اللصوص حين كان فتى في الثالثة عشرة من عمره، وعُرض للبيع في القاهرة، وظل يتنقل في الخدمة إلى أن عمل لدى إبراهيم بيك شيخ البلد (مصر). حين بلغ الثامنة عشرة أعتقه سيده إبراهيم وزوّجه. أظهر شجاعة غير عادية، فعيّنه إبراهيم سنجقا، ثم عضوًا في مجلس السناجق الأربعة والعشرين. بعد مقتل إبراهيم بيك انتقم لسيده، واشترك في كل مؤامرة لترقية مملوك أو عزله أو قتله، وكان محرك مؤامرة قتل رضوان بيك الذي خلف إبراهيم بيك، وفي عام 1764 تولي مشيخة البلد وإمارة الحج. قطع علاقته باسطنبول وطرد الوالي العثماني وسكّ عملة جديدة باسمه، وفي ربيع عام 1770 هاجم البلاد الحجازية برا وبحرا فاستولى على مكة وجدة وسواحل البحر الأحمر، ولقب بسلطان مصر وخاقان البحرين وخُطب باسمه في المساجد.

راحت أسارير ظاهر تضيء بفرح يتضاعف مع كل كلمة؛ وحين انتهى، نظر إلى الصبّاغ وابتسامته الواسعة تضيء وجهه: أكاد لا أصدّق عينيّ!

***

كانت أخبار علي بيك الكبير وتمرّده على الباب العالي ورفضه دفع الضرائب تتوارد إلى عكا، ولم يكن من أخبار تضيء قلب ظاهر أكثر من أن يرى أنه ليس الوحيد الذي يبحر عكس تيار السّلطنة.

هزّ الصبّاغ رأسه بقلق وقال: ولكنك تعرف يا شيخ أن ما يحدث في مصر لا طاقة لنا به، حيث لا يستطيع والٍ أو سنجق أو شيخ بلد أن يُدير ظهره لأحد، لأن الطعنة دائما جاهزة! ثم أطلق ذلك السؤال الماكر: أتظن أنك قادر على إدارة ظهرك لهم ذات يوم، إنهم لا يفعلون شيئًا إلا وهم يضمرون في السرِّ عكسه؟!

- لا. لن أستطيع، بل لن أفعل، ولكنني بحاجة إليهم يا إبراهيم!

- كما ترى يا شيخ!

لم تكن الرّسالة تحمل سوى طلب واحد، هو رغبة علي بيك في شراء عدد من الدّروع.

قال الصبّاغ: ما دام الأمر كذلك، وهناك رغبة لديك في أن تبيع بعض الدّروع التي عندك، فأعطني يا شيخ بعضها، لأرسلها إلى صاحب الرسالة!

- أنت تستعجل الأمور يا إبراهيم، على مهلك! أريد أن تكتب لميخائيل تخبره أن الدّروع التي يطلبها ليست موجودة سوى عند الشيخ ظاهر! لكن المذكور ما هو بتاجر سلاح حتى يبيعكم ما تطلبونه، ولكنه سيكون سعيدًا إذا ما قَبِلَ علي بيك هذه الدّروع هدية من الشيخ!

***

في ذلك المجلس الباذخ المضاء بألوان الوسائد والفرش الزاهية، جلس علي بيك بعمامته الكبيرة المضاءة بجوهرة ورديّة فوق جبينه، وردائه الأزرق الطويل المفتوح من الأمام، وسرواله الأبيض العريض، يستمع إلى رئيس ديوانه يقرأ رسالة وزير ظاهر.

كان المشهد نفسه يتكرّر: أساريره تضيء بفرح مع كلّ كلمة يسمعها، وابتسامته تحتلّ كامل وجهه، وشارباه الخفيفان على وشك أن يتحوّلا إلى جناحين مُحلِّقين!

- أتعرف يا ميخائيل، الدّنيا لم تزل غريبة! نرسل طلبا لشراء عدّة دروع، وإذا بنا نحصل على حليف أقوى من عشرة آلاف دِرْع! أكتب للشيخ ظاهر وأعلمه أنني قبلتُ الهدية.

***

جهّز الصبّاغ الدّروع وأرسلها بحرًا، وعددا من أفضل الخيول وأرسلها برًّا، وكتب لعلي بيك باسم ظاهر: لقد سرّني قبولكم هديتي، وها أنا أرسل إليك خمسة وسبعين درعًا، وكلّي سعادة، وأنا أتابع أخبار انتصاراتك بعون الله جلّ جلاله على كل مَن ضادُّوك. وكل ما أرجوه من حنوِّكم السّماح لمن يحملها بأن يُجنِّد عددًا من المغاربة الموجودين في مصر، لأننا في أمس الحاجة إليهم لردِّ عدوان عثمان باشا وزير دمشق، عن بلادنا.

***

كان ذكر اسم عثمان باشا الكرجي كافيًا ليوقد في صدر علي بيك نيرانا لم تخبُ أبدًا. فعداوته لعثمان بدأت منذ أول لقاء لهما في مكة! حين كان عليٌّ على رأس قافلة الحج المصري وعثمان أميرًا للحج الشّامي، ولم تكن هذه العداوة بحاجة لأن تكبر أكثر، وقد بلغت أوجها! لكن فرار عدد من المماليك المعادين لعلي بيك إلى دمشق ورفض عثمان باشا إعادتهم إلى مصر، وصل بالعداوة إلى حدودها القصوى.

لكن ذلك لم يكن السبب الوحيد. كان علي بيك يعرف أن كل ما مرَّ هو الذّريعة، لأنه منذ أن أمسك بمقاليد الحكم بدأ ينظر إلى الشام كامتداد لا بدّ منه[1].

***

"إني قبلت ما أرسلته بكلِّ محبة، ولرسولكم أن يُعيِّن العدد الذي يريد من المغاربة ليحاربوا إلى جانبكم، فأنا على علم بما تعانونه من مشاكل مع عثمان باشا، ولقد أصدرنا أمرنا الشريف بتوجّه تجريدة إلى عندكم، ووضعنا على رأسها إسماعيل بيك سرّ عسكر[2]، وقد أمرناه أن يكون في طاعتكم كيفما أمرتم، واعلم أنني قد اتخذتك، منذ اليوم، بمقام والدي، ومن كان عدوك فهو عدوي..!"

---

[1] - في رسالة من القنصل الفرنسي في صيدا لحكومته، يكتب: "إن الفكرة الشائعة أن أعمال علي بيك وظاهر العمر نتيجة لكراهية مشتركة لعثمان باشا، لا أساس لها من الصحة.. إن سلوك هذين الثائرين يجري حسب برنامج أوسع.. إنهما يقفان نفس الموقف العدائي من كل باشا يحاول أن يضع عقبات في طريق رغبة كل منهما بالاستقلال".

[2] - سر عسكر: لقب كان يعطى لقائد الجيش، أو رئيس الأركان، أو لقادة الجيش في الولايات.

***

على شاطئ عكا، كان ظاهر والصبّاغ يسيران، التفت الصبّاغ إلى قدمَي ظاهر الحافيتين، وقال: أفكر في أن أفعل ما تفعله يا شيخ: السير حافيًا!

- أظن أن هذا هو الشيء الوحيد الذي لا أريدك أن تفعله.

- ولماذا يا شيخ؟!

- لأنني لا أريد أن أمنحك فرصة أن تكون بخيلا أكثر مما أنت عليه اليوم!

- أو تظنني يا شيخ بخيلا فعلا؟!

- وهل يحتاج الأمر إلى دليل؟!

- كل ما في الأمر يا شيخ أنني أحب المال وأقدّره!

ابتسم ظاهر وهو يتابع موجة قادمة.

- دعنا نغير الموضوع يا إبراهيم، فمثل هذا الموضوع لا تكون صريحًا فيه حتى وأنت جالس مع نفسك!

- إذن دعني أسألك سؤالاً يا شيخ: هل راودك الشكّ في أنني سأخسر أمام مسعود بيك في مجلس الشرع في قضية حيفا؟

- إذا أجبتني على سؤالي، أكون قد أجبتك!

- وما هو سؤالك يا شيخ؟

- سؤالي: كيف استطعت أن تهزم مسعود بيك؟!

- الأمر بسيط يا شيخ، فالمحاجّة ذكاء، والذكاء هو أن لا تمنح خصمك - بإجابتك على سؤاله الذي يوجهه إليك- فرصةً لصياغة سؤال لاحق!

عاصفة الجمال والأطياف الغائبة!

كان موت أميرة، أقسى هزيمة زلزلت الدّنكزلي، وأحالت حياته إلى مرارة، لم تستقرّ في قلبه فقط، بل امتدّت لتحتلَّ حتى رؤوس أصابعه.

في مجلس العزاء، تحوّل إلى شخص لا يُرى. وبعد ذلك اعتزل الناس. أحسّ ظاهر بحزنه، وهو يستعيد موت نفيسة. تركه يغالب أحزانه. وحين وصلت أخبار تحرّك إسماعيل بيك من مصر إلى عكا لتعزيز قوّة ظاهر، لم يستطع أن يحمل إليه ذلك الخبر السعيد! فقد بات يخشى الفرح أمامه، كما يخشى تلك المؤامرات التي تحاك في البعيد!

في اليوم الرابع عشر لاعتكافه، نهض الدّنكزلي، مثل أيّ جندي يُدعى لحرب، اغتسل وشذّب لحيته وشاربيه قليلا، ثم استدعى الحلاق ليكمل المهمّة.

لم يكن يريد أن يراه أحد، فيتذكّره فيما بعد، على تلك الحالة المزرية!

أما ما لم يستطع إخفاءه فهو ذلك النّحول الذي مرّ على جسده كسكين مختطفًا الكثير من لحمه، وذلك الانطفاء الذي جرَّد نظرته من بريق رائق لا يسكن عيني رجل إلا إذا كانت هناك امرأة، كأميرة، تملأهما.

***

يعرف ظاهر أن في قلب كل إنسان طيفُ إنسان غائب، مفقود. يعرف أن هناك امرأة يمكن أن ينساها المرء بعد أن تُدير ظهرها! وأن هناك امرأة يمكن أن ينساها بعد أيام، أو شهور! وأن هناك امرأة ينساها بامرأة ثانية أو أكثر! وهناك امرأة ينساها، ليس بامرأة تأتي بعدها، بل بامرأة سبقتها! وهناك امرأة تأتي وتعيد ترتيب القلب من جديد، كما لو أنها المرأة الأولى! لكن هنالك دائما امرأة واحدة تسكن القلب وتراقب ساخرة كل النساء اللواتي يعبرنه غريباتٍ!

لم يكن حال ظاهر بعيدًا عن حال الدنكزلي. ولعلَّ هذا ما دفعه للتحرّك بسرعة، باحثًا عن امرأة تحتلّ، ولو جزءا، من المكان الذي كانت تحتله أميرة!

أرسل إلى أحد أصدقائه في إسطنبول أن يعثر على أجمل جارية رأتها العين ويرسلها إليه على جناح السرعة. لم تصل الجارية، فأرسل إليه رسالة أخرى،

فجاءه الردّ: لقد طلبت يا شيخ أجمل جارية يمكن أن تراها العين، وها أنا كلما اخترت واحدة عثرت في اليوم التالي عمَّن هي أجمل منها، فماذا أفعل؟!

فأرسل إليه ظاهر: افتح عينيك أكثر، ولكن لا تتأخر!

في ظهيرة السابع والعشرين من شهر آب من عام 1770، وصل ذلك المركب الذي انتظره ظاهر أخيرًا، حاملا تلك الجارية الكَرْجيّة[1] التي لم تر العين مثلها! فطارت أخبار جمالها لتملأ عكا وما حولها، وتصل إلى الدّنكزلي الذي لم يُثر فضوله سوى شيء واحد: لماذا لم يحدِّثه ظاهر بأمرها. لكن الأمر انتهى به للقول: ربما لم يكن الشيخ نفسه على علم بوصولها، لأنها أرسِلتْ هدية إليه!

***

طلب ظاهر من زوجته دهقانة، التي هرمت وضعفت على نحو غريب، أن تعتني بالجارية، لكنه لم يخبرها بشيء مما يُفكر فيه. بدت دهقانة مستسلمة لأمر وجود جارية جديدة، بعد موت جارية ظاهر الشركسية؛ الجارية الوحيدة التي دخلت بيتها، وماتت منذ سنوات طويلة. أمرت خادماتها أن يفعلن أفضل ما لديهنّ لكي تستريح الجارية الجديدة. لكن ما كان يؤلمها حقًا، ليس تخيّلها بين ذراعَي ظاهر! بل لأن دهقانة كانت حزينة وهي ترى نفسها تتسللُ بعيدًا من بين ذراعَي الحياة!

سألتها دهقانة عن اسمها، فقالت: باتريشا.

فقالت لها: ولماذا هذا الاسم الصعب؟! وأسمتها: عيشة!

توقّعت دهقانة أن يسأل الشيخ عن الجارية، لكنه لم يسأل! وسألتها: هل رآك الشيخ ظاهر؟ فهزّت عيشة رأسها نافية ذلك!

احتارت دهقانة أكثر. انتظرت. لكن أغرب ما حدث أن دهقانة بدأت تستلطف عيشة، ثم أحبّتها، وقد رأت فيها رقّة لا يجب أن تغادر السّراي.

كانت عيشة بشعرها الأحمر وعينيها الواسعتين الخجولتين الذكيتين، وابتسامتها المشمسة، التي كانت تخفيها كطفلة، وجسمها الرّقيق كنسمة، وقامتها المعتدلة كمهرة أصيلة، قادرة على أن تحوّل السراي إلى جنة صغيرة، تُنسي كل من يراها جمال تلك الأزهار التي تملأ الحديقة.

ذات مساء، طلبت دهقانة من خادماتها أن يُحضرن سريرًا آخر ويضعْنه في غرفتها؛ وحين جاء وقت النوم، أمسكتْ عيشة من يدها، وأخذتها إلى غرفتها

---

[1] - أي من بلاد كرجستان في جبال القفقاس. جورجيا حاليا.

هي! فوجئت عيشة، لكن دهقانة شجعتها بابتسامة، فاستجابت. ظلّت تسير بها إلى أن أوصلتها إلى السرير، رفعت الغطاء القطني الخفيف المزركش بورود أقحوانية بيضاء وصفراء، ودعتْها لتنام! تردّدت عيشة، ثم استجابت أمام إيماءة رقيقة. استلقت في السرير، فبسطت دهقانة الغطاء ثانية فوق جسدها، وذهبت إلى سريرها.

تلك الليلة نامت دهقانة بسلام لم تحسّ بمثله منذ سنوات، أما عيشة فقد كانت تبكي فرحا، محاولة كتْم نشيجها بيدين رقيقتين لم تُخلقا ليعصف بهما مثل هذا النشيج!

***

عادت عاصفة وصول عيشة تهبّ من جديد. أما المفاجأة فكانت تلك الشائعة التي سرت، ووصلت إلى الدّنكزلي، والتي تقول: إن الجارية الجميلة ستكون هدية الشيخ إليه! وليس هناك دليل، على ذلك، أكبر من أن الشيخ لم يرها بعد ولم يقترب منها!

غضب الدّنكزلي، وقد أحسّ أن حبَّ ظاهر له بات أقسى من أن يُحتمل! فها هو يسعى بإحضاره الجارية إلى محو ذكرى امرأة يعرف الشيخ أنها لا تُمحى.

أما ظاهر، فكان يراقب الدّنكزلي باحثًا عن اللحظة الملائمة ليقدِّم عيشة إليه؛ في الوقت الذي أصبح فيه الدنكزلي أكثر تجهُّمًا من قبل.

زمن طويل مرّ على وفاة أميرة، زمن طويل مرّ على وصول عيشة.

أما دهقانة، فبدأت تحسّ من جديد، أن ذلك الوقت لم يعد ملائمًا لموتها. في حين اكتشف الدّنكزلي أنه بات مهتمًا على نحو غريب بمتابعة أخبار عيشة! وبلغ الأمر ذروته حين وجد نفسه يفكِّر فيها ذات ليلة! غضب ولعن وأحسّ بالذّنب. ولكن الحقيقة الوحيدة التي لم يستطع إنكارها: أن النوم هجره!

***

فجأة غيرت الرّيح مجراها، وقد بدأت الأخبار تتوارد من دمشق ومصر حاملةً براعم مستقبل مختلف. ولم يكن الدّنكزلي بحاجة لشيء، مثلما كان بحاجة لحرب، هي وحدها التي يمكن أن تنسيه ضياعه بين امرأتين، واحدة طواها الماضي وأخرى يخبئها المستقبل!

نصرٌ.. كالدّمعة!

تكتبُ المصادفات نهاياتِ كثير من الأحداث، بطريقة لا يمكن تخيّلها. هذا ما أحسّ به إبراهيم الصبّاغ وهو يستعيد كل تلك الأحداث التي مرّت، وتقاطعت، ولم تتلامس على نحو غريب:

سمعت دمشق بخبر خروج إسماعيل بيك للوقوف إلى جانب ظاهر في عكا.

رسم الصبّاغ خطا على الأرض، يشير إلى حركة قوات إسماعيل بيك، يصل مصر بغزة فالرملة.

ثم رسم خطا آخر من دمشق يدل على خروج عثمان باشا الكرجي لملاقاة القوة القادمة في يافا لقطع الطريق عليها قبل أن تصل إلى عكا! وخطا آخر لخروج قوات عرب الصّقر الذين استمالهم الوزير عثمان لقطع الطريق على قوات ظاهر، بين عكا والرّملة، لكي يمنعها من دخول الحرب إلى جانب المصريين.

أرسل ظاهر قوة من جيشه بقيادة ابنه عثمان، وحينما وصل مخاضة نهر المقطع[1]، علم أن الصقر ينتظرونه هناك، فرجع إلى عكا خائفًا.

جنّ ظاهر، فخرج بنفسه على رأس جيش لمحاربة الصقر لشقّ طريق العبور إلى الرّملة، ولكنه حينما وصل إلى هناك، لم يجد أيّ رجل من رجال الصقر الذين انسحبوا بمجرد أن علموا أن قوات عثمان الظاهر فرّت خائفة منهم عائدة إلى عكا! وهكذا، حين وصل ظاهر بقواته إلى المخاضة لم يجد عرب الصقر، فواصل طريقه إلى الرّملة بسلام!

***

ألقى ظاهر نظرة على القوات المصرية، فبهره حسن تنظيمها وملابسها وأسلحتها. كانت حملة استطلاعية رائعة، تضم بضع مئات من الفرسان مع كامل عتادها من الخيام والجبخانات والعربات وقرب المياه المحمولة على الجمال، والمطابخ والطبول والزمور.

---

[1] - ينبع نهر المقطع من جبلي فقوعة شمال شرقي جنين، والطّور جنوب شرقي الناصرة، يخترق مرج بني عامر مترنحا ويصب في البحر شمالي حيفا.

في المساء، وبينما هو مجتمع مع إسماعيل بيك-الذي رأى فيه ظاهر شخصا مستعدًا للوقوف مع كل من يُصدر له أمرًا، لفرط رخاوته أو ربما مَكْره!- وصل رسول من الوزير عثمان، حاملا رسالة يتوعّد فيها إسماعيل بيك بهزيمة ماحقة، ويخبره أنه سينصب خيامه غدًا فوق تل الفخار على أبواب عكا ويدخلها ليقضي على ظاهر!

كل شيء كان يمكن أن يتوقّعه الوزير إلا أن تأتيه رسالة جوابية من ظاهر الذي سبقه إلى الرملة: لقد جئتُ إلى الرملة لأكفيك مشقّة الطريق إلى عكا!

بمجرد أن استلم الوزير عثمان رسالة ظاهر القادمة من الرّملة، أدرك أن المعركة قد حُسمت لصالح ظاهر وإسماعيل بيك، فبدأ انسحابه من يافا عند منتصف الليل.

لم تكن السّاعات الثلاث التي تفصل الرّملة عن يافا عائقًا يمنع ظاهر وإسماعيل بيك من ملاحقة عثمان باشا، وقد وصلهما خبر انسحابه، فبدأت أكبر مطاردة عرفتها البلاد منذ زمن طويل.

الشيء الوحيد الذي لم يكن سيسمح به ظاهر هو: إفلات الوزير. وهكذا، قرر اللحاق به مهما كانت النتائج.

كانت رقّة طقس نهايات شهر تشرين الثاني قوّة أخرى إلى جانبه.

انطلق الوزير عثمان، واصلا الليل بالنهار، لاغيًا أيّ فكرة بشأن الاستراحة أو النوم. ولكنه ما إن بلغ قرية قاقون قرب مدينة طولكرم حتى بدأ بسماع ورؤية طلائع جيش ظاهر والجيش المصري. تلفّت حوله باحثًا عن ملجأ، فلم يجد ملجأ أفضل من مواصلة الطريق إلى الشام! فراح يتخفّف من كل ما يحمله، ولم يكن هنالك أثقل من المدافع، فألقى بعضها في الآبار وترك بعضها.

كان يمكن أن تنتهي المعركة بنصر لا مثيل له، نصر لم يُلوِّثْ جبينَهُ بأي قطرة دم، لكن ظاهر الذي أتمّ الثمانين من عمره في ذلك العام، سقط مريضًا بمجرد أن أوقف جيشه مطاردة الوزير.

***

كانت ليلة مرضه القاسية في عكا، نزهةً إذا ما قورنت بتلك الحمّى التي وجدته فريسة سهلة، مُنهَكَة ومطعونة بثمانين سنة من الانتصارات والأفراح والأحزان والقوة والضعف!

دبَّ الهلع في قلب إسماعيل بيك، وقد رأى نفسه غريبا في أرض لا يعرفها، وحليفه الذي يلقاه للمرة الأولى يخوض حربا خاسرة مع عدو لم يسبق أن هُزِمَ من قبل: الموت!

قاوم إسماعيل كثيرًا كي لا يدخل إلى خيمة ظاهر ويراه، فيضعف أكثر، لكن الواجب كان يفرض عليه ذلك.

في مساء مثالي أُعدَّ للاحتفال بأسهل وأجمل نصر، هبطت غيمة سوداء على قلوب كلّ مَن في ذلك السهل.

فإسماعيل بعيد عن مصر، وجيش ظاهر في أرض باشوات وبكوات نابلس الأوفى لدمشق ووزرائها.

على عجل، بعد صلاة العشاء، تحرَّك عدد من رجال ظاهر، على رأسهم كريم الأيوب، في رحلة، كانت الأطول، رغم قصرها، باتجاه الشمال الغربي، قاصدين عكا. وصلوها قبيل الفجر بقليل. كانت مهمّتهم محدّدة ومحفوفة بالمخاطر، حيث أمرهم الدّنكزلي بألا يعرف أحد بما يحدث للشيخ، وأن كل ما عليهم هو إحضار وزير ظاهر وطبيبه إبراهيم الصبّاغ.

***

أفاق إبراهيم على دقّات خفيفة على باب غرفته، فتح الباب بحذر، وإذا بأحد خدمه يعلمه بأن حراس البيت يقولون: إن هناك من يحمل له رسالة عاجلة ومهمّة من الشيخ ظاهر.

حين دخلوا، رفضوا الكلام بحضور أحد، فصرف إبراهيم الحراس والخدم، وأغلق الباب.

بعد أقل من عشر دقائق كان يمتطي حصانه بصعوبة، ويمضي معهم في رحلة طويلة. ساروا بمحاذاة البحر، فمروا بحيفا فالطِّيْرَة فعتْلِيْت فالطّنطورة، وعندما وصلوا إلى جنوبي قيسارية، انعطفوا شرقًا نحو قاقون فوصلوها ضحىً.

لم يستطع الصبّاغ الترجّل عن حصانه، كان الإعياء قد هدّ جسده النحيل المنهك بثقل السنوات، ما اضطرهم إلى حمْله وإنزاله. لكنه ما إن رأى ظاهر ملقى كجثة مستسلمة لغيابها، حتى نفض جسده واستعاد بعض قوته. وقد كان هذا الإحساس بالقوة يملأ جسده وروحه دائما كلما وجد نفسه على مقربة من فِراش أحد المرضى. شمَّر عن ساعديه؛ فها هو مرّة أخرى على وشك دخول معركة جديدة مع الموت!

***

كان البقاء في قاقون أمرًا مستحيلا. بعد أن فقد ظاهر أيَّ حسٍّ بمن حوله؛ كما لم يكن ممكنا أن يتمّ علاجه في تلك الخيمة، كما رأى الصبّاغ. أما بقاء الجيش في تلك الأرض، فكان أمرًا مستحيلا، لأن احتمالات محاصرته ستغدو أمرًا أكيدًا إذا ما شاع خبر مرض ظاهر.

استعرض الصبّاغ بسرعة الأماكن التي يمكن أن يَنقل إليها ظاهر، فلم يجد أفضل من الناصرة، ففيها سراي ظاهر، وهي الأقرب إليهم بكثير من عكا.

في صباح اليوم التالي، تحرّك الجيش إلى الناصرة، بعد أن وضعوا ظاهر داخل عربة مغلقة جُهِّزت بسرير.

***

وجد إسماعيل بيك في الناصرة، المدينةَ التي يتمنّاها، بعد كل تلك المخاوف التي عصفت به، وكادت تقضي عليه وعلى جنده. لكن قلقه على ظاهر لم يتراجع، فبعد مرور أربعة أيام، ظلَّ وضعه على ما هو عليه رغم كلِّ ما بذله الصبّاغ من جهد في علاجه؛ الصبّاغ الذي أدرك أنه في سباق مع الزمن أيضًا، وليس مع الموت وحده، لأن انتقال ظاهر إلى عكا، هو أفضل وسيلة لضمان سلامته.

هواجس الحرب والحبّ!

"يمكن أن تداوي الحرب بالحبِّ! ولكن هل يمكن أن تداوي الحبَّ بالحرب؟! ما الذي يحدث لك؟" سأل الدّنكزلي نفسه في الطريق إلى عكا.

كان سرير ظاهر يتأرجح داخل العربة، ويتأرجح معه زمن بأكمله، والدّنكزلي بجانبه يتأرجح أيضًا، غير قادر على معرفة أيّ ميناء يمكن أن ترسو فيه سفينته، إذا ما حدث مكروه لظاهر!

"أنت على وشك الخروج بعد هذا الزمن عاريًا من أي شيء، لقد ذهبت أميرة إلى غير رجعة، وها هو ظاهر ينسلُّ ببطء مبتعدًا، إن لم يكن اليوم فغدا."!

هو يعرف أن أول شيء سيفعله أبناء ظاهر: التخلّص منه، قبل سواه! لأنه لم يكن في أي يوم من الأيام قريبا منهم. هو يدرك أنهم يكرهونه، ولا سيما عليّ وعثمان وسْعيد. ألم يحاصرهم ويطاردهم ويحاربهم من أجل ظاهر؟ فما الذي يمكن أن يفعله: *"أألتجئ إلى صُليبِي في طبرية لأقضي ما تبقى لي من سنوات بهدوء على شاطئ تلك البحيرة؟"*

كل سؤال كان يفتح بابا على مخاوف أكبر.

"آن الأوان لكي تخرج من هنا يا أحمد. لقد كنت وفيًا لظاهر الحيّ، ولكن ما الذي يعنيه أن تكون وفيًا لظاهر الذي يموت؟! بأن تموت إلى جانبه؟! ليس هذا هو الوفاء! هذا هو ما يسمونه الهلاك! لقد أعطاك الكثير، أنت لا تنكر ذلك، ولكن أيّ معنى لهذا الكثير الذي سيتلاشى فجأة بمجرد موته؟! أنا على يقين من أن أول شيء سيفعله عثمان الظاهر هو إلقاء القبض عليك وزجّك في عتمة لن تخرج منها أبدًا، بعد أن يُصادر كل ما منحك إياه الشيخ. هذا إذا لم يقتلك ويمثّل بجثتك ويجرّها في شوارع عكا لتكون عبرة لكل خلق الله!"

" ولكن الشيخ لم يزل يفكر فيك يا أحمد، كما لم يفكر حتى في أبنائه! أنظر كم كان بجانبك حين ماتت أميرة. وإذا صح أن تلك الجارية الكرجّية التي يتحدّث الناس في عكا عن جمالها، قد أحضرها هدية لك، فهو يفكّر فيك يا أحمد أكثر مما

يفكر في نفسه. أكثر مما فكر في أحد من رجاله أو أبنائه. فتمهّل! ولتنس كل تلك الأفكار السوداء التي تتسرّب إلى يديك معاولَ لحفر قبر للشيخ قبل الأوان!"

***

اقترب كريم الأيوب من الدّنكزلي، وسأله: منذ خروجنا من الناصرة أنظر إليك ولا أراك؟!

- ما الذي تعنيه يا كريم؟

- كأنك في مكان آخر، مكان بعيد؟

- صدقت، فمرض الشيخ يعذّبني كثيرًا، إذ لم يسبق لي أن رأيته ضعيفًا هكذا!

- ولكنني أحس أن شعلة الشيخ التي تتمايل الآن أمام ريح هذه الحمّى ستتّقد ثانية، فأوان انطفائها لم يحن بعد. في قنديله الكثير من الزيت، صدّقني، وستثبت لنا الأيام ذلك!

- هذا ما نتمناه جميعًا يا كريم، لكننا لا نستطيع إلّا أن نخاف ونحن نراه معلّقا هكذا بين الحياة والموت.

- نخاف عليه: أجل. ولكن أن نحفر له القبر بهواجسنا: لا!

***

كان ظاهر في الداخل يتابع حوارهما وإلى جانبه إبراهيم الصبّاغ.

- هل الأمور سيئة إلى هذا الحدّ يا إبراهيم؟

- ما هو السيئ فيها؟! بهزيمة الوزير عثمان ضممتَ يافا التي فرّ متسلِّمها لينجو بجلده، وضممتَ الرملة وغزّة وكل الساحل الفلسطيني حتى الحدود المصرية!

- أقصد: أمور صحتي؟

- صحتك؟! كما سمعت كريم يا شيخ، لم يزل قنديلك ممتلئًا بالزيت. ولكن ما الذي تحسّه أنت؟

- أفضل بإذن الله. أتعرف يا إبراهيم، من الصّعب أن أموت الآن. أنا أعرف أن الأعمار بيد الله، ولكنني لن أموت هكذا بضربة حمّى، هذا لا يليق بي يا إبراهيم! وبخاصة بعد أن بلغت ثلاثة أضعاف عمر طَرَفَة بن العبد!

- الشاعر طرَفة؟

- حكاية قديمة، سأقولها لك ذات يوم!

- سأسمعها بكل تفاصيلها، ولكن، عليّ أن أطلب منك أن تطيعني وتستريح الآن.

راح ظاهر يسعل، وحينا التقط أنفاسه قال: حين نصل إلى عكا، أريد أن توقف العربة في تل الفخار وتأمرهم بإحضار حصاني، لأنني لن أدخل بابها على سرير.

- ولكن يا شيخ.

- مقابل حصاني، سأعطيك ما تريد، سأنام حتى وصولنا إلى هناك. اتفقنا؟

- اتفقنا!

- ولي طلب أخير قبل أن أنام، أريدك أن ترفع طرف غطاء العربة، لأنني أظن أننا وصلنا إلى تلك المنطقة التي كلما مررت عبرها، وقفت طويلا أتأمّلها.

كانت واحدة من أجمل المناطق بين الناصرة وعكا[1].

***

على ظهر حصانه، متقدِّما جيشه وجيش إسماعيل بيك، دخل ظاهر عكا، ولم يكن له سوى أن يفعل ذلك: *" أَبَعْدَ ذلك النصر العظيم تدخل العاصمة بجسد مهزوم؟!"* هكذا كان يفكر.

ما إن وصل السّراي، حتى أحس بطعنات الحمّى تمزّق جسده دون رحمة. امتدّت أكثر من يد لتساعده، لكنه بنظرة واحدة أبعَدَ الجميع. التفتت نجمة إلى الدنكزلي، فأخطأ فهم نظرتها، همسَ: أأساعد الشيخ؟! هزّت رأسها كما لو أنها تقول: لا، ثم اقتربت منه وسألته ذلك السؤال الغريب: ألديك كلام تقوله في زيت قنديل الشيخ؟! فانتفض برعب: أنا؟! لا، لا! وتوقف فجأة؛ في الوقت الذي واصل ظاهر طريقه إلى غرفته، تتبعه نجمة ودهقانة والصبّاغ وكريم الأيوب.

***

[1] - سيصفها الرّحالة وليم هـ. ديكسون بعد سنوات قائلا: كل شيء ينمو هنا.. كلّ تلٍّ بمثابة كرْم عنب، وكلّ قاع حقل حبوب. وهنا تمتزج أشعة الشمس بالأمطار المنعشة! في كلّ منعطف تجد مناظر مشابهة لمناظر ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا. وتذكِّرك التلال المكسوة بأشجار الدّوالي، الغنية بالعنب الأبيض والأسود، بما تشاهده في وادي (الراين).. فيجد الإفرنجي فيها مناظر تذكره بمناظر بلاده!

راح الشتاء يتقدّم برْدًا وعواصف. ثار البحر، وضرب البرق الأرض بسيوف لهبه، وهطل مطر غزير لم يشهدوا مثيلا له منذ زمن بعيد.

لم يكن هناك من شيء يمكن أن يطفئ نيران الحروب أفضل من المطر. فحين يهطل تختفي الجيوش، ولم يكن ظاهر في مرضه بحاجة إلى شيء أكثر من حاجته إلى هذا.

***

في اليوم الأول من السنة الجديدة، فتحتْ نجمة عينيها، فوجدته فوق رأسها: أما زلتِ نائمة حتى الآن؟! تعالي معي، بي رغبة شديدة لأن آكل كثيرًا. أين جمعة؟

- اجلس يا شيخ، اجلس. ساعدُّ لك الطعام بنفسي هذه المرّة!

- ولماذا لا يعدّه جمعة؟

تردّدت نجمة، ولكنها أدركت أن ظاهر لا بدّ أن يعرف في النهاية!

- جمعة مات يا شيخ، جمعة مات!

- لَم لم تقولوا لي؟! ثم كيف مات؟! لقد لمحته بكامل صحته بينكم يوم عدت إلى عكا!

- جمعة قُتل يا شيخ، وجدناه في غرفته ميتًا بعد عودتك إلى البيت بأيام.

- قُتل؟ ومَن له مصلحة في قتل جمعة؟!

- هذا ما لا نعرفه. فطبيبك يقول إنه أجبر على تناول السمّ. ولذلك لم أعد أسمح لأحد بأن يعدّ طعامك منذ ذلك اليوم.

احتضن ظاهر رأسه براحتين متعبتين، وراح يستعرض كلَّ الوجوه التي تدخل السراي وتخرج منه، خطفًا. وكم حيّره أن كل الوجوه تلاشت ولم يبق أمامه سوى وجه ابنه عثمان!

بِحار هائجة

لم تر عكا موجًا عاليًا مثل ذلك الذي رأته في شباط ذلك العام، هدر البحر مثل وحش موثَق، واندفع بكل ما فيه من قوة نحو المدينة، حتى قيل: لولا أسوارها العالية لابتلع كلّ ما فيها.

ولم يكن البحر وحده الذي يصطخب بكل ذلك العنف. بحار داخلية كثيرة كانت هائجة.

اختفى عثمان الظاهر، ووصلت أخبار تقول إنه التجأ لجبل الدروز، وحين وصله كتاب من أبيه يطالبه بالعودة إلى عكا، كتب لأبيه: كيف يمكن أن أريك وجهي بعد عودتي خائبًا من المخاضة؟!

هزّ ظاهر رأسه وقال: يتستر بحيائه ليستُرَ قبْحَهُ!

أما الدّنكزلي فقد عاد الدّم يجري في عروقه من جديد، فها هو الزّمن يعطيه فرصة أخرى بشفاء ظاهر تمامًا من مرضه!

قال له ظاهر: سنخرج اليوم لتفقّد عكا. تأمله الدّنكزلي وهو يسير إلى جانبه فبدا له أن كل من يرى ظاهر سيجزم أنه لم يتجاوز الستين بعد!

- أتعرف يا أحمد، يهيأ لي أن مرضي امتدّ أربعين عامًا لا أربعين يومًا.

ذِكْر كلمة الأربعين جرف قلب الدّنكزلي إلى مكان وزمن بعيدين، إلى ذلك اليوم الذي جمعهما! لكن ظاهر أعاد قلبه إلى مكانه حين قال له: لك عندي مفاجأة!

لم يسأل الدّنكزلي: ما هي؟!

استاء ظاهر من لا مبالاته؛ لكنه سيكون أسعد الناس بعد ذلك بساعات لأن الدَّنكزلي لم يسأل!

***

ساروا حتى برج كريِّم، استدار ظاهر ونظر خلفه، فرأى قلعته كما لم يرها من قبل، لون جديد مختلف كان يكسو حجارتها؛ وصوت الحياة يملأ المدينة بصخب غير عادي، كأن المدينة كلّها قد تحوّلت إلى سوق. نزلوا من البرج وساروا بمحاذاة

السور، حتى وصلوا إلى الشارع الكبير المؤدّي إلى خان الإفرنج، داروا حول الخان، ثم اتجهوا شمالا إلى السّوق، وقبل أن يصلوه، وقف ظاهر وتأمل تلك القطعة الواسعة من الأرض، وقال: أظن أن علينا أن نبني خانًا جديدًا هنا بجانب البوابة البرية!

- إن سألتني يا شيخ عن رأيي، فأظن أننا بحاجة لبناء خان في الفسحة الموجودة أمام البوابة البحرية، فالتّجار والبحّارة بحاجة إليها كثيرًا هناك.

- ما دام هذا رأيك، فيمكن أن نبني الاثنين!

***

تجوّلوا في السوق، السوق الذي تحوّل إلى عرس ما إن رأى التجّار والناس ظاهر بينهم، وكل منهم يدعوه للدّخول وهو يصافحه. لكنه كان حريصا دائما على أن يزور جريس ويطمئن على أحواله.

- كيف حالك يا جريس؟ وكيف عائلتك؟

- بخير والحمد لله يا شيخ.

اقترب جريس من ظاهر وهمس له: سنكون أسعد الناس إذا ما حضرت يا شيخ إلى بيتنا، ففي يوم الأحد يكون قد مرَّ على زواجي بامرأتي خمسون عاما!

- لن أتأخر! همس له ظاهر، فأشرق وجه جريس.

حين خرجوا من السوق، اتجهوا نحو القلعة من جديد، وقبل أن يصلوها، تأمل ظاهر السماء في ذلك الضحى، فتأكّد له أن ليس هنالك يوم أجمل من هذا اليوم لجولة كهذه.

فجأة توقّف، في أحد الأزقة، وقد وجد نفسه أمام رجل عريان يتدافع الناس لتقبيل يديه تبرُّكًا!

كان وجود ذلك الرجل كافيًا ليُنسي الناس كل ما حولهم. مرّ أكثر من رجل أمام ظاهر بوجوه طافحة بالسعادة: ما الذي يحدث هناك؟ سأله ظاهر.

- إنه أحد أولياء الله الصالحين يا شيخ!

- أشار إلى جنوده أن يحضروا الرّجل العاري ويتبعوه؛ واستدار عائدًا إلى السراي. حين وصله، أرسل في طلب وزيره إبراهيم الصبّاغ والقاضي والإمام وعدد من وجوه عكا، وعندما وصلوا طلب إحضار الرّجل العاري.

دخل الرجل ممتلئا بذاته غير آبه بشيء.

كان على وشك أن يجلس، فطلب منه ظاهر أن يبقى واقفًا!

بدت بعض علامات الارتباك على الرّجل، لكنه داراها بقراءة آيات من القرآن.

أشار له ظاهر أن يتوقّف. وحين فعل، سأله: أنت تعرف القرآن الكريم جيدًا، أم أنني مخطئ؟!

- صدقت يا شيخ. إني أعرفه جيدًا.

- لقد رفعت عن صدري حجرًا كبيرًا بجوابك هذا. لأنني كنت أريد أن أسألك شيئا، وتردّدتُ؟

- اسأل ما تريد يا شيخ؟

- أريد أن تقول لي: في أي سورة من القرآن الكريم، أو في أيّ حديث، أجاز سبحانه وتعالى كشف العوْرة والمشي في الأسواق كما كنت تفعل؟!

تدخل القاضي وقال: يا شيخ، أنا أجيبك عنه! لا يوجد شيء من هذا لا في القرآن ولا في الحديث الشريف، ولكنك تسأل وليًّا مسلوب العقل!

مال ظاهر إلى القاضي وسأله هامسًا: أيعلم مسلوب العقل الماضي أو يدري بالآتي؟

فأجاب القاضي: لا يا شيخ.

- اتفقنا إذن.

وقف ظاهر، وفي لحظة خاطفة استل سيفه وأمسك بالرجل من كتفه وجذبه إليه بقوة: وحياةْ رأسي يا رجل إذا لم تصدقني فيما أسألك ضربت عنقك بالسيف. قل لي، أمس، ماذا كان؟

- الخميس!

- وغدا ماذا يكون؟

- السبت.

التفت ظاهر إلى القاضي وسأله: أيعرف مسلوب العقل هذا؟!

هزَّ القاضي رأسه نافيًا، وأكد هزّة رأسه، بأن قال: لا. أيضًا!

- ولماذا تهين نفسك على هذا النحو؟ سأل ظاهر الرجلَ العاري.

- الحاجة يا شيخ، والله لولا الحاجة ما فعلتُ هذا!

- خذوه، وأعطوه ما يستر جسده؛ ولكن لا تجعلوه يغادر فلي معه كلام آخر.

سار الرجل العاري يتعثّر، كما لو أنه كوم تراب ذرته ريح بصورة مباغتة.

- يا إبراهيم، يهيأ لي أن ما ندفعه من صدقات للناس لا يحلّ مشاكلهم.

- وما الذي تراه يا شيخ؟

- أريد أن ترسلوا من يُحصِي عدد الفقراء في عكا، المسيحيين قبل المسلمين، ويدوّنوا أسماءهم، وفي نهاية كلِّ شهر، تدفعون لهم ما يكفيهم. وإذا ما رأيت أحدًا منهم يتسوّل، سأجلده. أما الرّجل العاري هذا فأعطوه ما يكفيه حتى نهاية الشهر وأخبروه بما أمرْنا به.

***

كانت خطوة ظاهر التالية، تقديم الهدية للدّنكزلي في ذلك المساء. فسأله وهو يغادر السراي: أتستقبلني هذا المساء؟

- البيت بيتك يا شيخ، أهلا بك في أي وقت.

أنهار خفيّة!

حدّق الدنكزلي في المرآة، فرأى رجلا آخر غيره، ودَّ لو يمسك بالسيف ويطعنه ألف طعنة ليستريح منه إلى الأبد!

"لكم تغيَّرت يا أحمد! أأنت الذي هنا؟! أم أنك ذلك القابع في المرآة هناك؟! ففي لحظة لا يعنيك غير النّجاة من ظاهر، وفي لحظة لا يغويك أكثر من أن تكون إلى جانبه؟! في لحظة تتعلّق بذكرى أميرة كما لو أنك ممسك بيدها في السرير، رافضا أن تبتعد عنك دقيقة! وفي لحظة أخرى تحتلّك إشاعة عن جارية فلا تفكّر إلا بسواها؟! أين أنت؟! أتريد البقاء مع ظاهر أم تريد الابتعاد عنه؟! مع أميرة، أم تتطلّع لأيّ امرأة أخرى تطلّ وتنسيك إياها، وحتى، قبل مرور عام؟!" لم كنت مخلصًا لها، إذن، كلّ ذلك الإخلاص؟!"

تلفّتَ حوله، كان بيته الكبير قد غدا خاليًا من كل شيء: من الأسرَّة العالية المجللة بالأقمشة الحمراء والصفراء والبنفسجية، ومن الطاولات والكراسي والسجاجيد والنحاسيات والزهريات الخزفية الكبيرة والصغيرة المصنوعة في بلاد الهند وإسطنبول والصين وسواها. وكم هاله أن الجدران فقدت ملامحها هي أيضًا، حين انمحت الزّخارف التي تزيّنها واختفت السيوف المعلّقة عليها. أما الأقواس فكانت تهبط لتلتقي ببلاط الأرضية العارية.

نفض رأسه، لكن شيئًا لم يتغيَّر!

***

جلس ظاهر فوق كرسيّ البلوط الطويل المزين ظهره بزخرفات دقيقة لأشجار النخيل والطيور والخطوط الحانية لكؤوس مزينة بحروف عربية، وطلب من أحد خدمه أن يدعو زوجته دهقانة. في مزاج رائق كان، مزاج لم يحسّ بمثله منذ سنوات. استدار نحو النافذة تاركًا يده اليسرى تستريح على حافة الكرسي. كان البحر أمامه هادئا، والنسيم يمرّ عبر النافذة الغربية صوب الباب المفتوح خلْفه، كنهر خفيّ.

حاول أن يستنشق أكبر كمية من الهواء، ارتفع صدره حتى النهاية، حبس الهواء في رئتيه طويلا، ثم أخرجه.

كان على وشك أخذ نفس عميق آخر، حين سمع وقْع خطى. التفتَ، كانت دهقانة هناك. استدارَ ناحيتها وربّت على الكرسي يدعوها للجلوس إلى جانبه.

جلست. استغرب أن يراها حزينة إلى ذلك الحدّ: لم أرك من قبل حزينة هكذا! كأنك يا أم العيال لم تعلمي بعد أنني شفيت من مرضي!

- بل أعلم يا شيخ، وهل هنالك ما يمكن أن يفرحني أكثر من تعافيك؟

- ولكنني لا أرى سوى وجهك الحزين!

- لأنني أعرف ما الذي تفكر فيه يا شيخ، بشأن عيشة. بحق الله، ألا تفكِّر بإرسالها اليوم إلى الدنكزلي؟!

- وكيف عرفتِ أنني سأرسلها اليوم؟!

- يا شيخ، إذا كان لي في قلبك معزّة، بالله عليك، دعْها في هذا البيت، لأنني لم أعد قادرة على الاستغناء عنها!

- ذلك غير ممكن يا أمّ العيال.

- أنظر إليّ يا شيخ، طوال حياتي لم أطلب منك شيئًا! حاول أن تتذكَّر إن كنت طلبت منك أن تلبي لي رغبة في نفسي! فلا تكسر قلبي في هذا العمر وأنا أطلب أول وآخر طلب منك!

أطْرَق ظاهر، ثم استدار بوجهه ناحية البحر.

- ثم إن عليك أن تراها يا شيخ، فأنت والله أحقُّ بها من أيّ إنسان آخر!

- تريدينها لي يا أمَّ العيال؟!

- فلتكن جاريتك يا شيخ، إذا كان ذلك يُبقيها في البيت!

وفجأة نادت: أدخلي يا عيشة!

كانت عيشة في الممرّ الطويل، قرب الباب تنتظر إشارة دهقانة.

قبل أن تدخل خفق قلب ظاهر، وقد أدرك أن امرأته تُلقي به في امتحان، لا بدَّ أنها تعرف نتيجته. وحين أطلت عيشة قفز إلى قلبه بيت شعر لعبد الخال الدمشقي، وللحظة كاد يقفز إلى لسانه:

أمن قطرات الطلِّ جسمكِ أم أصفى.. فقد كادت الألحاظُ ترشفه رشفا!

بُهر ظاهر بذلك الجمال الآسر. تجمّدت عيناه فوق وجهها، التفتتْ إليه دهقانة: لا تكسر قلبي بإرسالها إلى أي مكان آخر، إلا إذا أرادت هي ذلك!

- ماذا؟!

- قلت، لا تكسر قلبي بإرسالها إلى أيّ مكان آخر، إلا إذا أرادت هي ذلك!

- لكنني لم أحضرها إلى هنا لتُريد؟!

- يا شيخ، أنت تعرف الله، ونحن نعرف أنك ما وصلت إلى عكا وحيفا والناصرة وسواها إلا لشيء واحد، أن تحفظ كرامة الناس وتصون حقهم وتمنع استعبادهم!

- تقتلينني بكلامك هذا يا دهقانة؟ فلم أفعل كل ما فعلته ليذكِّرني أحد بما عشتُ حياتي كلَّها من أجله، وكأنني نسيته؟!

- لك الأمر إذن يا شيخ، لقد قلتُ ما لديّ!

رفع ظاهر وجهه ونظر إلى عيشة من جديد، من قدميها إلى رأسها. وكم حيّره أن قلبه خفق بطريقة لم يحسّ بها منذ زمن طويل.

- وما الذي يمكن أن أقوله للدّنكزلي وقد أخبرته بأنني سأزوره اليوم؟! كنت حدثته عن هدية سأحضرها إليه!

- تستطيع أن تهديه الدّنيا بأسرها يا شيخ، ولن أزعل، أما عيـ...!

- فهمتُ، فهمتُ! قاطعها وهو يهرب بعينيه بعيدًا عن ذلك الوجه الملائكي العذب.

وعاد ينظر صوب البحر.

انتظرته دهقانة، ليقول شيئًا، لكنه لم يكن ينظر إلى البحر، كان يركبه مبتعدًا، وحينما عاد من رحلته الغريبة تلك، سأل:

- أتريدين البقاء في هذا البيت يا عيشة؟

- أنا أريد لا غير ذلك!

- لا تريدين غير ذلك؟!

هزَّ رأسه غير قادر على أن يحدّد طول المسافة بين وعده للدنكزلي ومشاعره المتشابكة:

- اذهبي الآن!

استدارت عيشة. تابعها ظاهر. كانت أشبه بغزالة أسطورية بين مئات الغزلان، هبّ هواء رقيق من النافذة باتجاه الباب، وكأنه يتبعها، فحلّقت خصلات من شعرها أمامها، ثم دارت نصف دوْرة وحلّقت في الهواء قبل أن تعود ثانية إلى كتفيها.

في تلك اللحظة، أدرك ظاهر أنه لا ينظر إلى امرأة جميلة بل إلى الجمال نفسه!

***

وصل أحد حرّاس الدّنكزلي، وجده أمام المرآة! قال له: الشيخ ظاهر قادم لزيارتك سيدي. أخبرونا، سيصل بعد قليل.

ألقى نظرة أخيرة على ذلك الرجل القابع في جوف المرآة، وهز رأسه: أنا قادم!

حين تحرّك، تحرّك الرّجل. وحين سار مبتعدًا عن المرآة، انتابه حسٌّ عميق بأن الرجل الآخر يتبعه، فاستدار!

أخذ نفسًا عميقًا أمام البوابة، ووقف ينتظر.

لحظات، ليس إلا، وإذا بظاهر يتقدّم. لكن ما حيّره أن أحدًا لم يكن معه، سوى حرّاسه الفرسان!

انقبض قلبه. وحين نظر إلى وجه ظاهر، أحسّ بأن الرجل قد صغر عشر سنوات منذ الظهيرة حتى المساء! لو لم يعرفه لأقسم أنه لم يتجاوز الخمسين من عمره!

انقبض قلبه أكثر؛ القلب نفسه الذي ابتهج ضحىً حين رأى ظاهر في الستين!

كان ظاهر يحاول ما استطاع السيطرة على تلك الأحاسيس المتضاربة التي تعتصره: كان فرحًا وحزينًا، قويًّا وضعيفًا، وفيًّا وناكرًا! لكن الشيء الذي فاجأه: إحساسه بأن الثمانين تبعد عنه ثلاثين سنة على الأقل!

***

اختلى بالدّنكزلي؛ ودون مقدّمات، أخبره بكل ما حدث، وكيف أن دهقانة استحلفته بالله أن يُبقي عيشة لها، لأنها لم تعد تطيق العيش دونها، وأن طلبها كان أول طلب تطلبه منه في حياتها، ولذلك..

قاطعه الدّنكزلي: لا عليك يا شيخ. فهي في النهاية أمّ عيالك، كما أن آخر شيء يمكن أن أفكر فيه وجود امرأة أخرى في بيتي غير أميرة، أنسيت أنني تزوّجت من أجلها وطلقت من أجلها؟!

- لم أنس، ولكن حقك عليّ أن تعرف ما حدث يا أحمد.

- وقد عرفتُ يا شيخ، وها أنا أعود وأقول لك: لن تدخل امرأة عتبه هذا البيت بعد أميرة، حتى لو أتت هدية منك؟!

- كنت ستُحرجني وترفضها إذن؟!

- ما عاش الدّنكزلي، لو رفض هدية منك؟!

- إنك تحيّرني يا أحمد!

- كما كنت ستحيّرني يا شيخ لو أتيتَ بها!

كلُّ ما في قسمات وكلمات الدّنكزلي كان ثابتًا، كما لو أنه يواجه عدوّا ماهرًا في ساحة حرب. لكن الذي لم يخْفَ على ظاهر، أن الأمر مختلف: ففي الحالات التي يبدو فيها البشر مصرِّين على أن يبدوا أقوى مما هم عليه فعلا، يكونون قد بلغوا درجة ضعف تفوق ضعفهم المعتاد بكثير!

في تلك اللحظة، أحسَّ ظاهر أنه خذل الدنكزلي، لكن التراجع بات أمرًا من الماضي.

ذلك الطفل النائم!

"إذا كان حبُّ الشباب قاتلا، فليس هنالك من يد سحرية، تُحيي، أفضل من يد الحبّ وهي تمُرّ على قلوب الشيوخ!" هذا ما فكر فيه ظاهر وهو يستعيد وجه عيشة الذي لم يره سوى مرّة واحدة.

"الله! ما الذي يمكن أن يفعله هذا الوجه بي لو أنني تصبَّحتُ به وتمسَّيتُ به؟!"

لم يكن ظاهر ذلك الشخص العجوز أبدًا، في عين نفسه، أو عيون سواه! فهو لم يزل قادرًا على أن يمتطي حصانه عشرين ساعة متواصلة، وفي الوقت الذي فقد فيه أولاده نصف أسنانهم، لم يفقد، ولو سنا واحدا، ولعل ذلك ما كان يحببه دائما بالابتسام.

لكنه لم يستطع أن يمحو ذلك الفارق الهائل في السنِّ الذي يفصل بينه وبين عيشة وهو يتخيلها أمامه. هذا الفارق الذي يربض هناك في الدّاخل رافضًا الزوايا الضيقة التي حُشر فيها.

راح يكبح جماح شوقه لرؤيتها ثانية، رغم معرفته أن أمر اقتران عجوز بصبيَّة أو وجود جارية شابّة تحت عباءة عجوز، لم يكن من الأمور المستهجنة أبدًا! إلا أن ثمة شيئا ما، كان يدفعه للتراجع خطوة، كلّما دفعه الشوق نحوها خطوة.

كان يمكن أن يتواصل الأمر هكذا، إلى زمن طويل، لكن الجمال نداهة، وسطوته لا تشبهها سطوة أخرى.

قاومَ ثانية.

راقبته دهقانة، فرأت فيه خليطًا عجيبًا من شيخ وفتى! حيوية ما، لا تَخفى تفتّحتْ في خطواته، وأزهار لم ترها من قبل غمرتْ وجنتيه!

كانت ممتنّة له، ممتنة إلى ذلك الحدّ الذي يمكن أن تفعل من أجله أيّ شيء. أما عيشة، فبعد أن كانت تتلفّت حولها خائفةً خروجًا لا عودة منه، فقد كانت تطير بين غرف السراي مثل فراشة تملأ قلب كلّ من رآها غبطةً. ولن يمضي أكثر من

أسبوع قبل أن يحسّ الجميع أنها كانت موجودة منذ أول يوم بني فيه السراي، بل إن السراي لم يوجد إلا لتكون فيه!

***

في بيت جريس جلس ظاهر متأمّلا البيت الحجري الجميل بأقواسه الحانية، وذلك القنديل الملون الذي حوّل الجدران إلى لوحات، وأمامه وعلى جانبيه زوجة جريس وأولادهما وبناتهما وأحفادهما.

- لماذا تؤخران فرحتنا بكما. قال ظاهر.

- لأننا لا نريدك أن تخرج يا شيخ من بيتنا والله!

- هيا، لنبدأ.

خرجت زوجة جريس، وعادت تحمل بين يديها عددا كبيرا من كؤوس البرتقال، وكأس نبيذ كبير!

وضعت كؤوس البرتقال أمام ظاهر وأحفادها، وكأس النبيذ أمامها. خلعتْ خاتمها ومسحته بقطعة قماش مبتلة، ووضعته في الكأس، وفعل جريس الشيء نفسه. ثم رفع الكأس وهو ينظر إلى أبنائه وبناته وأحفاده، وقال: ليغمر الرب حياتكم بالمحبة، كما غمر حياتي وحياة أمكم بالمحبة، ولتتسرب السعادة إلى قلوبكم مع كل جرعة من هذا النبيذ الذي يحتضن قلبي وقلب أمكما وعهدنا المقدس بأن نحبَّ ونحيا لبعضنا بعضا، ونضحي من أجل بعضنا بعضا، ونرعى ونخلص لبعضنا بعضا. وشرب جرعة.

امتدت يد جريس بكأس النبيذ لامرأته فشربت جرعة، ودار الكأس على أولاده وبناته إلى أن عاد إلى أمهم من جديد فارغًا. فامتدت يدها وأخرجت خاتمها وجفّفته ووضعته في بنصرها الأيسر، ثم ناولت الكأس لزوجها ففعل ما فعلت، في الوقت الذي تحوّل البيت كله إلى معبد.

كان تأثير ذلك على ظاهر يفوق المرّات السابقة كلّها.

امتدت يده إلى كأس البرتقال وشربه على مهل وهو يتأمل وجوههم وابتسامات أطفالهم. ثم قال فجأة: كدت أنسى هديتكم، وامتدت يده تحت عباءته ليخرجها.

***

دخلت نجمة عليه فوجدته في كرسيه الطويل. في الجو لسعة برْد، لكن النافذة كانت مشرعة على آخرها، وصوت البحر قويّ كما لو أنه في الغرفة.

لم ينتبه لدخولها، ظلَّتْ تسير إلى أن جلست بجانبه. في تلك اللحظة رآها.

- لم أسمعك تدخلين؟

- وكيف ستسمعني وأنا الحافية، وكل ذلك البحر يهدر فيك؟!

- تعرفين يا أمي، لو كنتُ في حيفا لصعدت الكرمل الآن!

- لكنني ما كنت سأصعده معك! إلا إذا حدثتْ تلك المعجزة التي لن تحدث، وقالوا لي إن أباك سيعود غدا!

- على لسانك كلام، يهيأ لي أنه وصلني.

سمعا خطوات تقترب، التفتا نحو الباب، فإذا بدهقانة تصل، تجاوزت العتبة، ولكنها التفتت خلفها فجأة، وتراجعت. اختفت لحظة، وحينها أطلّت من جديد، كانت تدفع عيشة برفق أمامها، وهي تقول لها: لا تخجلي، إنه الشيخ ظاهر!

مرّة أخرى، وجد ظاهر نفسه في مهب ذلك الجمال، حاول أن يغضّ بصره، لكن قوّة غريبة كانت تمنعه. وجد نفسه محدّقا فيها، غير مصدِّق أن كل هذا الجمال موجود على الأرض، ورأى القناديل المعلّقة فوق جدران الغرفة تتّقد وتتّقد فاضحةً سرَّه الذي فتَّش بسرعة عن مكان يختفي فيه، فلم يجد سوى تلك العينين العسليتين الفاتنتين، لم يجد سوى أن يلتجئ لذلك الذي يهرب منه.

نهضت نجمة على مهل وخرجت، فتبعتها دهقانة، وكأنهما لا تريدان إيقاظ طفل نائم! وعندما استطاع إبعاد عينيه أخيرًا عن عيشة، اكتشف اختفاءهما. لقد افتُضِحَ سرّه أكثر مما يجب!

سارت عيشة ثلاث خطوات، ثم جلست أمامه على بساط مزركش، من تلك البسط التي أحضرها إسماعيل بيك من مصر هدية له.

تأملها ساعة أو يزيد، غير قادر على أن يقول لها ولو كلمة واحدة. كان أكثر ما يدهشه أن سلطان الحب هو سيد السلاطين، وأن القلب ليس أكثر من مركب صغير ألقى ببحّاره خارجه، كي يُسلم نفسه لأعلى الأمواج!

- *"في قديم الزمان، حين لم يكن على الأرض أناس بعد، كانت الفضائل والرذائل تطوف العالم معًا، وتشعر بالملل الشديد. ذات يوم، وللخروج من هذا الملل، اقترح الجنون، لعبة، وأسماها الاستغماية. تعرفها، أليس كذلك؟!*

......

ملأ الجو صوت أذان العشاء قادمًا من الجامع المعلّق، وعندها فقط، أدرك ظاهر أن السماء مدّت يدها إليه تساعده: اذهبي واستريحي يا عيشة!

كطفلة مجروحة نهضت. سارت نحو الباب، وحين وصلتْه استدارت وقالت بلهجة محببة: تصبح شيخ على خير!

ابتسم لها: تصبحين على خير يا عيشة.

***

تلك الليلة، صلّى العشاء. صرف حراسه. ثم مضى وحيدًا إلى البحر. خلع نعليه، ورفع ثوبه حتى خصره، وعَقَدَهُ. كان الهواء باردًا، أما رطوبة الرّمل فكانت مزعجة في البداية؛ لكنه نسيها بعد دقائق. وحينما وصل إلى تلك الحالة التي لا يعود فيها قادرًا على تذكُّر إن كان يملك رجلين أم لا، تغير كلّ شيء. لكن أكثر ما كان يملؤه بهجة هو ذلك الإحساس الغريب أن عيشة كالبحر والريح والرمل والفجر قد سكنته إلى الأبد!

منذ تلك اللحظة، أحس ظاهر بأنه لا يريد أكثر من أن تكون عيشة في حياته؛ ولتكن من تكون: زوجة أو ابنة أو جارية، لا يهمّ. ولتكن هي ما تريد، مثل طائر على الشباك، يملأ البيت بغنائه ولكنّ حريته كلّها فيه.

***

قبيل الصبح عاد إلى السراي، وجد نجمة قد استيقظت.

- توقَّعتُ أن تتبعيني إلى الشاطئ.

- كان ذلك صعبًا، فالبحر هذه الليلة لم يكن قابلا للقسمة على اثنين!

- هنالك أمور، يا أمي، حين تمسك بك لا تمسك بك بيديها هي، بل بيدي القدر! سأنام قليلا، وفي الصباح نتناول فطورنا معًا.

هزّت نجمة رأسها موافقة، وهي ترى ظاهر يغيّر موعد إفطاره لأول مرّة في حياته.

***

تحلَّقوا صبحًا حول تلك الطاولة القصيرة يتناولون طعام إفطارهم، تلفتت دهقانة حولها، وسألت: أين عيشة؟! لمَ لم تأت حتى الآن؟! نادوها.

بحركة سريعة، أفسحتْ دهقانة لعيشة مكانا بينها وبين زوجها، وبعد قليل راحت تقترب منها خفية، وتدفعها نحو ظاهر!

لامسته. سرت قشعريرة عذبة في جسده. بدأوا يأكلون. وقبل أن ينتهوا، وصل كريم الأيوب حاملا إليه رسالة خاصة. تناولها، قرأها، وفجأة وقف، طالبا من كريم أن يتبعه.

خيط دم سميك!

لم يعرف ظاهر إن كانت الرسالة التي حملها كريم، قد وصلت في أفضل وقت، أم في أسوأ وقت ؟! كان على وشك أن يقول لكريم: اذهب وسأتبعك، لكنه تحامل على نفسه، وقال: سنمضي معًا!

- إلى أين؟

- إلى بيت الدّنكزلي، سنجتمع هناك، وأرسلْ إلى إسماعيل بيك ووزيرنا الصبّاغ أن يلحقانا.

استغرب كريم أن يكون الاجتماع في بيت الدّنكزلي: في بيت الدّنكزلي؟!

- في بيت الدّنكزلي!

***

كان وصول ظاهر إلى بيت الدنكزلي في ذلك الصباح أمرًا غريبًا. احتضنه ظاهر، وقال له محاولا تجاوز غرابة اللحظة: لم أر أفضل من بيتك مكانًا لعقد هذا الاجتماع بالذات!

شاحبًا بدا الدّنكزلي على نحو غريب، وحين رأى إسماعيل بيك قادمًا، أحسّ بأن اللحظات القادمة تحمل الكثير من المفاجآت.

- أحببت أن يكون الاجتماع هنا، لأنه المكان الأفضل لمناقشة خطوتنا التالية. هذه الرسالة، كما يعرف إسماعيل بيك، هي رسالة علي بيك إلينا. وهو يعدُّ العدّة الآن لتجهيز قوة بقيادة وزيره وولده محمد أبو الذهب، لنتوجّه جميعًا إلى دمشق.

كان ذكر اسم دمشق وحده، كافيا لإثارة انتباه الجميع.

- إلى دمشق؟! سأل الدّنكزلي، غير مصدّق ما سمعه.

- إلى دمشق، أجاب ظاهر، لكن معضلتنا الوحيدة هي جيش أغوات وبكوات[1] نابلس، لأن دمشق ستحرِّكه ما إن يصلها خبر قدوم الجيش المصري، كما حرَّكت متسلِّم يافا لاعتراض سبيل قوات إسماعيل بيك في الرّملة.

[1] - منحت الدولة آل النمر لقب (أغوات) وآل طوقان لقب (بكوات).

- لكن جيش أغوات وبكوات نابلس قوي يا شيخ.

- أعرف يا أحمد، لهذا إن لم نستطع الوصول إلى نابلس، فلن يستطيع أبو الذهب الوصول إلى هنا، وإذا لم يستطع الوصول إلى هنا، فكيف يمكننا أن نصل إلى دمشق؟!

- ولكن دمشق؟! أعاد الدّنكزلي.

- لقد صبرنا كثيرًا. تحمَّلنا، وقاومنا اعتداءات الدولة علينا بما فيه الكفاية، وآن لنا أن نغيّر الأدوار لمرّة أولى، وأخيرة، بكسر شوكة وزراء الشام.

***

كما لو أنها لم تنم! حين استيقظ ظاهر وجد عيشة في انتظاره بابتسامتها الواسعة الكافية لمرور شمس كاملة عبرها.

- ما الذي أيقظك باكرا يا عيشة؟

- أن تذهب لا أريد دون يا شيخ أراك. وأنا عملت إفطاراتك!

- أنتِ؟

- شيخ أنا، أم تُحسِّب شيخ طعامي مثل كلاماتي مش جيدًا؟

- إذا كان طعامك مثل كلامك فهو أفضل طعام. ولكن سأصلي أولا.

***

حين عاد ظاهر وجدها في مكانها، كما لو أنها لم تتحرّك.

وضعت عيشة الطعام أمامه، الطعام نفسه الذي يتناوله كل فجر. ووقفت تنتظر بلهفة، إن كان سيحبه أم لا.

- لماذا تقفين؟ اجلسي. وربّت على الفراش يدعوها.

ترددت قليلا، فربّت ثانية، وقبل أن تجلس، قال لها: بل اجلسي هنا قبالتي! أحب أن يكون هذا الوجه الصبوح أمامي، فالجمال توأم النصر!

جلستْ: لماذا لا تأكلين؟! سألها.

تلفتت خلفها وقد أحست بأنه يدعو سواها. وحين لم تجد، سألت: شيخ أنا؟! أنا شيخ؟!

- نعم أنتِ يا عيشة. أنتِ.

فامتدت يدها مترددة، وحين وضعت اللقمة الأولى في فمها، أستند ظاهر إلى الحائط، يتأملها، ويردّد: سبحانك إلهي! سبحانك!

***

فاجأ إبراهيم آغا النّمر متسلّم القدس قاسم النمر متسلمَ نابلس بحضوره المفاجئ، حاملا معه أخبار زحف ظاهر العمر. بسرعة تمّ حشد أكبر عدد من القوات للدفاع عن المدينة، وترميم أسوارها وبواباتها. تسلَّم آل النمر مهمات الدّفاع عن القسم الشرقي، وتسلم آل طوقان مهمة الدّفاع عن قسمها الغربي؛ وقبل أن يصل ظاهر إليها، كانت المدينة قد زُنِّرت بإثنتي عشرة ألف بارودة!

في أوائل نيسان، وصل ظاهر إلى سفح جبل عيبال بعد رحلة شاقة، لم تستطع أزهار الربيع التي غمرت السهول والجبال التخفيف من متاعبها، بسبب المعدّات والمدافع التي أحضرها معه. كان يعرف أنه يطلب المستحيل، حين أرسل تلك الرسالة إلى المدينة التي باتت تحت رحمة مدافعه، طالبا تسليم مصطفى بيك طوقان الذي اعترض طريق سليمان بيك في الرّملة، وإلّا فإنه لن يتوقّف عن قصف المدينة قبل تدميرها على من فيها!

لم يطل انتظار ظاهر، فقد وصل أحمد بيك طوقان شقيق مصطفى، محمّلا بالهدايا قبل غروب الشمس، وليس له سوى طلب وحيد: أن يرسل الشيخ وفدًا للتفاوض!

وافق ظاهر بسهولة أدهشت إسماعيل بيك والدّنكزلي وبقية قادة الجيش.

- ما تستطيع الحصول عليه بالسِّلم، لا تَخُضْ من أجله حربًا! صارحهم بما يفكِّر فيه، وهو يرى أحمد بيك طوقان يبتعد، فبدوا راضين.

كانت فرحة نابلس بقبول ظاهر التفاوض كبيرة، وهم يرون بأعينهم ذلك الجيش المُطْبق على مدينتهم. ولم تكد الشمس تغيب، حتى راحت القناديل تضيء كل تلك المشارف التي اعتادوا رؤيتها معتمة!

- أيرسل وفدا للتفاوض وهو يملك كل تلك القوات؟! تساءلوا.

كلّ الشكوك التي قضّتْ مضاجع أهل نابلس تلاشت، حينما رأوا تلك المجموعة من الفرسان تتقدّم نحو بوابة مدينتهم.

***

اختار ظاهرُ كريمَ الأيوب والشيخ ناصيف زعيم المتاولة على رأس وفد، يرافقهما ستون فارسا.

فتحت أبواب المدينة، ففوجئ الوفد برجال نابلس المسلّحين وقد اصطفوا في أربعة صفوف طويلة، من بوابة المدينة الشرقية حتى باب الخان الشرقيّ، ومن

باب الخان حتى باب دار مصطفى بيك طوقان؛ وفي ساحة البيت الواسعة وفوق سطحه تجمّع أكثر من ألف رجل مسلح بالبنادق.

لكن الاستقبال كان طيبًا وحارًا!

أدرك كريم أن استعراض القوة، هو رسالة نابلس التي لا يمكن أن يحمِلها رسول! لأن الذي وجِّهت إليه، عليه أن يستلمها بعينيه! لكن كريم الأيوب لم يهتزّ، فبعد تناولهم طعام الغداء في بستان البيت بحضور الأغوات والبكوات والأفنديّة، وقف بثبات وأخبرهم بشروط ظاهر.

***

- تسليم أسلحة نابلس هو الشرط الأول! أما شرطه الثاني فهو أن يخرج أحمد بيك ومصطفي بيك للقاء الشيخ ظاهر، فيلبسهما الفروة، ويعيِّن الأول متسلِّما للقدس والثاني متسلِّما لنابلس، قال كريم الأيوب. وقد كانت العادة السائدة تقضي بأن يُنصِّب الوالي المتسلِّمَ بتلبيسه فروة، وكان المتسلِّم يقوم بتقديم هدية للوالي.

ردّ مصطفي بيك بغضب: سلاحنا لن نسلِّمه، ولن نخرج إلى ظاهر ليباركنا بتعيينه لنا متسلِّمين بأمر عكا، نحن مَن عيَّنتنا دمشق!

- ثم من يضمن لنا أنه سينصِّبنا فعلا؟! من يضمن لنا أننا سنعود برؤوسنا إلى نابلس بعد مقابلته؟! قال أحمد بيك طوقان.

***

ثانية، سار كريم الأيوب ومن معه من الفرسان أمام فوهات البنادق المتوعِّدة عائدين إلى معسكرهم في (كرْم القاضي)، لكن الأمل باتفاق لم يكن قد قُطع تمامًا، إذ وعدوه أن يتدارسوا الأمر ويرسلوا الجواب في مساء اليوم ذاته.

- إنهم يماطلون ليس إلّا! ولكنني سأنتظر، فمن العار أن يموت أيُّ إنسان في أيام جميلة كهذه! قال ظاهر.

***

كانت نابلس قد اكتست بلون نحاسي مع اقتراب غروب الشمس. تغيَّر لون العشب والأزهار البرية التي غمرت كل شيء، وبدت بأشجار اللوز والرّمان والتين التي تملأ واديها جنّة لا مثيل لها بين جبلي عيبال وجرزيم.

من بعيد أقبل عدّة فرسان، على رأسهم أحمد طوقان مصطحبًا جوادين أصيلين هدية. ألقى ظاهر نظرة سريعة على الجوادين وشكره، وصمت.

أدرك أحمد بيك طوقان أن الوقت قد حان ليتكلّم، فأعاد كلَّ كلمة قيلتْ لكريم، وأضاف: لم نتوصّل إلّا لما توصَّلنا إليه، يا شيخ، وأخبِرْنا رسولك به!

– ولماذا تأتيني حاملا قرارًا أعرفه. تريدون أن أدمِّر نابلس على رؤوسكم؟! سأدمِّرها على رؤوسكم! قال ظاهر.

أحسَّ أحمد طوقان أنه سار برجليه إلى المصيدة، فأطرق مفكِّرًا، وحين رفع رأسه قال:

– يا شيخ، هذا ما لا يريده أحد منّا. دعني أحاول معهم مرة أخرى! وأعِدك أنني سآتي بأخي مصطفى إليك، فما مرادنا إلا أن نكون مثل عيالك!

لم يكد أحمد طوقان يعبر بوابة نابلس، حتى استدار بحصانه ثانية معطيًا الأمر بالهجوم. لكن الهجوم لم يكن مفاجئا، لأن كلَّ من في معسكر ظاهر كانوا يرون نابلس واضحة كراحة الكفّ.

لم تدم المعركة طويلا، فقد عاد المهاجمون وتحصَّنوا في المدينة من جديد مع هبوط الليل.

– تلك هي المرّة الأخيرة التي نسمح لهم بالخروج فيها إلينا. قال ظاهر.

فتَحَتْ الشمسُ عينها في صباح اليوم التالي على هجوم كبير على بوابة المدينة، لكن المدافعين عنها استطاعوا ردّ المهاجمين.

فرح رجال نابلس وهم يرون تراجع قوات ظاهر، لكن هذه القوات عادت من جديد وهاجمت، ومع إغماض الشمس لعينها في المساء، كان ظاهر قد شن سبع هجمات، دون أن يستطيع دخول المدينة.

غمر الهدوء من جديد سفح الجبل، الوادي، والجبل المقابل؛ لكن كلَّ من كانوا هناك وقفوا يترقّبون العاصفة. لم تهبّ! وفي اللحظة التي بدا فيها أن ظاهر سيكتفي بحصار المدينة، استطاع نقل مدافعه سرًّا إلى قرية رافيديا، وتحت جحيم نيرانها اندفعت طلائع فرسانه نحو المدينة، وظلّت تتقدّم حتى وصلت إلى جدران جامع الخَضرة والبساتين المحيطة به.

لم يكن هنالك من مكان تدور فيه معركة طاحنة، أفضل من المقبرة! فبين قبور الزّاركيّة- المقبرة الغربية لنابلس، كان بمستطاعه الموت أن يقرأ اسمه بوضوح، اسمه الذي راحت السيوف والبنادق تحفره في أجساد الكثيرين. وقبل الظهيرة بقليل أعطى ظاهر الأمر لجنوده بالتراجع إلى كرْم القاضي.

تفقد المهاجمون والمدافعون أنفسهم، فوجدوا أنهم خسروا الكثير من الأرواح.

***

ما إن اقترب رسول ظاهر مرّة أخرى من بوابة المدينة بعد العصر، حتى أُشرعت البوابة على عجل. طلب ظاهر منهم أن يرسلوا أحد علمائهم لمفاوضته، فاجتمعوا على عجل واختاروا واحدًا. وصل الشيخ لطفي، الذي يحظى بمحبة البكوات والأغوات والناس أيضًا إلى معسكر ظاهر، وبعد مفاوضات طالت حتى منتصف الليل، اتفقا على (المتاركة): يرحل ظاهر بقواته مقابل أن تتعهّد نابلس بألا تتعرّض له أو لحلفائه أبدًا.

***

في نهايات نيسان تحرك ظاهر عائدًا إلى عكا، وكم هاله أن ذلك الربيع قد احترق مبكرًا على غير العادة، تحت لهيب شمس لا تنتمي لخضرة ورقّة هواء ذلك الشهر.

***

أما عثمان الظاهر فكان يتابع ما يدور عن بعد، وما إن تأكّد من أن أباه وصل عكا، حتى امتطى حصانه قاصدًا نابلس، ضيفًا على مصطفى طوقان، معلنًا سخطه على كل ما يقوم به أبوه!

لم تكن أزهار ربيع نيسان التالي قد تفتّحت، حينما وصلت أخبار عصيان نابلس من جديد. لكن أشياء كثيرة كانت تغيرت بين ربيعين سيربطهما خيط دم سميك!

عن الحروب وأحوال القلوب!

أفضل سبب لانتهاء حرب هو العودة، حيًّا، للقاء امرأة!

هذا ما أحس به ظاهر وهو يجتاز عتبة السّراي، وفي خطوة فاجأت نجمة ودهقانة، كان أول سؤال يسأله بعد عودته: أين عيشة؟!

كانتا على وشك تبادل تلك النظرات التي تُضمر كل تلك الأسئلة الماكرة، لكن دهقانة كانت أوهى من أن تنظر نظرة مثل تلك.

- هل تشكِين من شيء؟ سألها ظاهر.

- وما الذي يمكن أن أشكو منه، وقد عدتَ سالما؟!

***

في الطريق إلى نابلس. في الليالي التي أمضاها هناك. في طريق عودته؛ تساءل: *ماذا لو كان الجنود قادرين على قراءة ما في هذا القلب؟!*

انقبض، ابتسم: وأعاد طرح السؤال من جديد بطريقة أخرى: *ماذا لو كنت أستطيع قراءة ما في قلوب هؤلاء الجنود وقلوب قادتهم؟!*

سرح بعيدًا، فلم يرَ سوى قلوب مضاءة بحضور امرأة، وقلوب تتلهف للقاء امرأة، وقلوب معتمة بفراق امرأة. أما تلك القلوب الفارغة، فلم ير رؤوس أصحابها!

أسعده أن قلبه ورأسه مضاآن بذلك النور الشفيف لفراشة تطير القناديل نحوها ما إن تراها!

" ها أنت تعود وتتذكّر القناديل! هل انطفأ قنديلك في ذلك اليوم البعيد أم أنه كان يخبئ ضوءه، يدّخره، لكي ترى كلّ ما رأيته، وتعيش كلّ ما عشته يا ظاهر حتى هذا اليوم؟!

مَن يعرف!"

" ولكن، أتريدها لأنك تحبها، أم تريدها لأنك تحبّ أن ترى الدّنيا تكافئك بها؟! فأنت سعيد بما قمتَ به حتى اليوم، أليس كذلك؟! لا تنكر! أم تريد أن تكافئ نفسك بنفسك بها، رغم كل ما مضى من عمر! رغم ما تبقّى؟! وهو قليل!

لا تنكر! أم تريدها تلويحة الوداع الأجمل التي بتّ تحتاجها أكثر فأكثر مع كل شمس يوم تغيب؟!

أنت تسأل لأنك تريد أن تطرد الجواب الذي تعرفه! أليس كذلك؟!

من يعرف!"

" ما دام الأمر كذلك، فلتدع الأمر لها، لتقرر هي ما تريد، لا ما تريد أنت!

ولكنها ليست حرّة يا ظاهر، رغم كل تلك الحرية التي منحتها إياها لتقرر! بل لعلك لم تمنحْها الحرية إلا لكي تختارك، أليس كذلك؟!

من يعرف!"

"أنت الآن كلّ شيء يا ظاهر، ألف حالة في حالة، وحالة موزّعة على ألف حالة، أتراها فكّرت في عودتك، أتراها انتظرتك مثل نجمة ودهقانة؟

من يعرف!"

" فلتبعد عنها يا ظاهر، فكل هذه الأسئلة ليست سوى ذريعة للوصول إليها، أليس كذلك؟!

من يعرف!"

"لنقلب المسألة ونسأل: ماذا لو تهَرَّبتْ منكَ، ماذا لو ابتعدت، هل سيُغضبك هذا؟

- أراك سكتَّ!

- هذا لأنها أنتْ! ألا تراها؟!"

***

- ما الذي يحمله العائد من هدايا حين يعود لأهله بعد الحرب؟ سألته نجمة، حين اعتذر بأنه لم يحضر لها شيئًا. وأضافت: أي هدية أجمل من أن تعود إلينا حيًّا ومنتصرًا يا شيخ.

- والله يا أمي، ذلك لا يكفي أحيانا!

ووصلت عيشة.

"أتراها أصبحت أكثر جرأة أم أكثر خجلا؟!

من يعرف!"

- كيف حالك يا عيشة؟

- مليحة يا شيخ. الحمد لله. لا أريد سوى سلامتك!

- لغتك تتحسّن بسرعة يا عيشة. وابتسم.

- لقد تدَّربتْ على ما قالته كثيرًا، بحيث أعادته ربما ألف مرّة! قالت دهقانة.
- صحيح يا عيشة؟
- شيخ صحيح!
وضحك ظاهر هذه المرّة من كلِّ قلبه.

***

توقّعوا أن يأكل، ثم ينام، لكنه طلب من حراسه أن يستعدّوا لأنه بشوق للتجوّل في عكا.
بعد أقل من ساعتين عاد، كانت الشمس قد بدأت تغيب وفي الجو بعض رطوبة خفيفة.

***

أمضى بقية ليله في قراءة الرسائل الموجّهة إليه، كانت أمامه مقسّمة إلى ثلاثة أقسام: الأهم، فالمهم، فالأقل أهمية.
على وشك النوم كان، حين جاءت عيشة راكضة بفزع تخبره أن ستّها ليست بخير.
أستطاع أن يفهم خوفها، أكثر مما فهم كلامها، فنهض مسرعًا.
- سلامتك يا أم العيال، ماذا أصابك؟ سألها.
- كنت سأموت قبل أيام ولكنني لم أحب أن أموت وأنت بعيد يا شيخ!
- لقد كنتِ في أفضل حال طوال اليوم، فما الذي حدث ؟!
- لم أكن بخير يا شيخ، ولكني حاولت أن أكون بخير كي لا أجرح عودتك إلينا سالما بمرضي!
- اذهبوا وأحضروا الصبّاغ بسرعة. قال ظاهر لخدمه.
- لا يا شيخ. لا ضرورة لذلك، فقد عشتُ بما فيه الكفاية!
- ماذا أقول أنا يا دهقانة؟! هل عليَّ أن أموت إذن لأنني أكبر منكِ؟
- بل عليك أن تعيش يا شيخ، عليك أن تعيش، ووصيتي عيشة! حافظ عليها يا شيخ، فقد كانت أفضل رفيقة لروحي منذ أن دخلتْ هذا البيت، ولن تجد أفضل منها رفيقة لروحك!
دخلت نجمة راكضة نحو سرير دهقانة، وفي اللحظة التي التقت أعينهما، ابتسمت دهقانة، وقالت: خشيت أن أغلق عيني قبل أن أراكِ.
وأغلقتْ عينيها.

***

لم تكن دهقانة تلك المرأة التي استطاعت أن تملأ مكان نفيسة، لأن كل نسائه اللواتي تزوَّجهن، لم يستطعن مجتمعاتٍ أن يملأن ذلك الفراغ! لكن دهقانة كانت طيبة، ولعل قسوتها الوحيدة عليه، أنها لم تُظْهر يومًا أي نيّة في احتلال عرش نفيسة.

تصرّفت كمهزومة دائمة في معركة!

وفهم ظاهر ذلك؛ وحين فهمه، حاول أن يعطيها أكثر، ويصونها أكثر، لكنها كانت قابضة على جمرة هزيمتها وكأن تلك الجمرةَ نصرُها الوحيد!

***

اختفت عيشة، لم تعد تظهر.

بعد أيام من انتهاء العزاء فوجئ ظاهر بنجمة تدخل عليه.

كان نهر الهواء الخفيّ يعبر النافذة محاولا الوصول إلى الباب المفتوح دون جدوى، وهو جالس هناك غير قادر على القبض برئتيه على أيّ حفنة هواء عابرة من ذلك الهواء المُنهك بعبور البحر!

اعتدل، ونظر إليها: ماذا هنالك يا أمي؟!

- عيشة، إنها ترفض مغادرة سرير دهقانة، ومنذ أيام لم تأكل شيئا ولم تشرب!

- كلِّميها يا أمي، كلِّميها.

- وهل تعتقد إنني لم أفعل. إنها تموت. كلّ من في السّراي حاول أن يُثنيها عمّا تفعله في نفسها، إلا أنت! ولا أظنها سترفض لك طلبًا إن ذهبتَ إليها وواسيتها.

- أأواسيها في امرأتي يا أمي؟!.

- بل تواسي امرأتك لأن عيشة كانت وصيّتها الأخيرة إليك!

***

" أتراك عدت من الحرب لوداع دهقانة، أم لتكمل لقاءك بعيشة يا ظاهر؟! مَن يعرف!"

الطريق إلى دمشق

لم تبق مدينة أو قرية إلّا وأحسّت بذلك الزّلازل.

آلاف الفرسان والجنود، كانوا يتوجّهون شمالا، بقيادة محمد أبو الذهب[1]، الذي لم يكن يحمل من علي بيك سوى أمر واحد: كنْ في طاعة الشيخ ظاهر، وافعل كل ما يطلبه منك.

إلى نابلس وصل الخبر، فدار عثمان الظاهر حول نفسه كدبّور بجناح وحيد، لا يعرف ما الذي يمكن أن يفعله!

أُغلقت جهاتُ الأرضِ في وجهه؛ فها هو العجوز يزداد قوة. لكن تلك الجهة التي خالها لن تُفتح أبدًا، أُشرِعَتْ فجأة بوصول رسالة من أبيه تدعوه للعودة إلى عكا على وجه السرعة. خاف في البداية، لكن الرسالة كانت مطمئنة.

بوصول عثمان الظاهر إلى عكا، اكتمل لقاء الأخوة الخمسة. فأمر ظاهر جيشه أن يتحرّك للقاء أبو الذهب في غزة، بعد أن عيّن كلَّ واحد منهم، إضافة للدّنكزلي وكريم الأيوب، قائدًا على إحدى الفِرق، وعين ابنه عليّ قائدا لثلاثة آلاف فارس، ومعهم سار ناصيف النصار على رأس قوة جاءت لنصرة ظاهر.

على أرض غزة التقى الجيشان، وكم كان باهرًا مشهد الجيش المصري، المكوّن من خمسة آلاف فارس يرافق كل واحد منهم اثنان من جنود السراويل القصيرة، وألف وخمسمائة جندي مشاة، وألفان من الخدم، ومئات من المتعهدين الذين تنحصر مهماتهم في تأمين الطعام والشراب، ومرافقون من الصناع والتجار،

---

[1] - هو عبد الله الخزندار الجركسي، اشتراه علي بيك في أوائل ستينات القرن الثامن عشر، وأصبح قائدا للقوات المصرية بعد تفرّد علي بيك بالسلطة في مصر. سبب تلقّبه بأبي الذهب، أنه حين لبس الخلعة السنجقية بالقلعة، صار يفرّق البقاشيش ذهبًا. وفي حال ركوبه ومروره جعل ينثر الذهب على الفقراء حتى دخل إلى منزله فعُرف بذلك، لأنه لم يسبق أن فعل ذلك أحد ممن تقلّدوا الأمريات، واشتهر عنه اللقب وشاع. فكان لا يضع في جيبه إلا الذهب، ولا يُعطي إلا الذهب ويقول: أنا أبو الذهب، فلا أمسك إلا الذهب!

تتبعهم قوافل من الجمال والبغال والحمير التي تحمل المؤن والذخائر والمدافع والخيام.

كان اللقاء الأول بين قادة الجيشين المتحالفين هو أول المعارك! في ظل قرار ظاهر البقاء في عكا.

جلس محمد أبو الذهب ينتظر وصول قادة ظاهر في الصوان المخملي الأشبه بقصر متحرّك أكثر من أي شيء آخر: بطانته من الأطلس الأحمر، وأعمدته وأوتاده من النحاس الأصفر المطليّ بالذهب وأرضيته مفروشة بسجاد موزي اللون مزيّن بأوراق شجرية كبيرة حمراء ونيلية.

ما إن وصل أبناء ظاهر والدنكزلي وكريم وناصيف، حتى دعاهم للقائه، قبل أن يجفّ عرقهم.

لم يخْفَ على أحد منهم أن محمد أبو الذهب يعمل على ترتيب الأدوار منذ البداية.

تردّد عليّ في الذهاب، ووافقه سْعيد وعثمان الرأي: ما دام قد أتي ليكون تحت إمرة أبينا فعليه أن ينتظر حتى نبني صواويننا وندعوه!

- وهل ستدْعونه إلى لخمسة صواوين أم أنكم ستدْعونه إلى صوان أحدكم وينتهي الأمر؟! سأل الدّنكزلي.

- إلى صواني ندعوه. قال عليّ.

أحسّ كريم بما سيقوله عثمان، فقال: أظن أن أفضل ما نفعله هو أن نمضي للقاء الرجل في صوانه، فهو قادم لنصرتنا، وليس من اللائق أن نعامله كأجير!

- من يريد الذهاب فليذهب، لكنني ما زلت أرى أن على الناس أن يأتوا لأبناء الشيخ، لا أن يذهب أبناؤه إلى الناس! قال عثمان.

***

كانت غيوم آذار الرّمادية واقفة في السماء كما لو أنها مثبتة بالرِّماح! أما البحر، فكان يتقدّم موجةً ويتراجع اثنتين! في حين امتلأ الشاطئ بعشرات آلاف النوارس المتطلِّعة لبقايا الأطعمة.

اختلى الدّنكزلي وأيوب وناصيف النصار بصْليبِي وأحمد. قال الدّنكزلي: إذا ما أصرّوا على مثل هذا الرّأي فأظن أننا لن نغادر غزة أبدًا! وطالب صْليبِي بأن يتحدّث معهم ويقنعهم لئلا يحسّ أحد بأن جيش ظاهر ما هو إلا مجموعة من الفرق المتناحرة.

كلّ محاولات إقناع عليّ وعثمان لم تُجدِ، ولم يكونوا مضطرين للحديث مع سْعيد، لأنهم يعرفون أنه سيأخذ برأي أخيه عليّ. لم يبق أمام صْلَيبِي إلا أن يذهب مع الآخرين، تاركًا لقاء أخوته الثلاثة بمحمد أبو الذهب أمرًا معلّقا في عنق الغيب.

قبل أن يروا وجهه، رأوا تلك الجوهرة الزرقاء التي استقرت في منتصف عمامته، مشعّة كنجم، وقد نبتت لها ريشتان على جانبيها كجناحَي طائر على وشك التحليق!

لم يكن أقل من ملك بثيابه الحريرية وقفطانه الطويل ذي الأكمام الواسعة[1] المطرَّز بخيوط ذهبية تنتشر على شكل قرون وغْل ضخمة، كما لو أن منبتها صدره، وذلك السيف المعلّق بخاصرته في غمد ذهبي، أيضا، مزيّن بالحجارة الكريمة والنقوش.

صافحهم بحرارة أدهشتهم، دون أن يكفّ عن الابتسام. ودعاهم للجلوس. لكن مخاوف عليّ وعثمان وسْعيد، الغائبين، راحت تتجسّد أمامهم: فها هو بعد لحظات من جلوسهم يواصل الحديث معهم واقفًا. وحين صفّق، ظهر اثنان من خدمه، يحملان كرسيًّا أحمر مخمليًا أشبه بعرش. وضعاه فوق مصطبة خشبية مغطاة بالسجاد والوسائد الملونة وانسحبا؛ الكرسي نفسه الذي سيجلس عليه مستمتعا بمشاهدة سبعة آلاف رأس مقطوعة بعد ذلك!

عندما جلس في النهاية، كان قد حدّد موقعه، كقائد للجيش. ودون أن تفارقه الابتسامة سأل: قيل لي إن الشيخ عثمان والشيخ عليّ والشيخ سْعيد معكم!

- إنهم معنا، ولكنهم مُتعَبون قليلا! قال صْلَيبِي.

أطلق أبو الذهب ضحكة ماكرةً، وقال: مُتعَبون؟! ده كلام! هل أنتم متأكدون أن باستطاعتهم تحمّل الطريق إلى دمشق؟!

***

لم يسأل عليّ وعثمان وسْعيد عمّا حدث، وقيل، هناك في صوان أبو الذهب، لأن الأربعة الذين قابلوه، خرجوا صامتين؛ حتى أن أحدهم لم يودِّع الآخر في طريقه إلى صوانه.

- لقد حذَّرتهم. قال عثمان.

وحين التفت، لم ير عليّ وسْعيد إلى جانبه!

---

[1] - كلما كانت الأكمام طويلة واسعة دلّ ذلك على مركز صاحبها الرّاقي.

***

مثل عرسان وعرائس أُجبروا على الزّواج، كانت الابتسامات المختلسة على شفاههم باهتة، عندما تحرك الجيش بأعلامه المرفرفة، محفوفًا بالزّغاريد والأغاني والدّعوات له بالنصر. في حين كانت الأحاديث عن قوته أفضل وسيلة لشقّ طريقه إلى دمشق، في الوقت الذي تحوّلت فيه كل قرية أو مدينة وصلها إلى ساحة احتفال.

***

كان عثمان باشا الكرجي يسابق الزَّمن، محاولا الوصول إلى دمشق عائدًا من مكة، على رأس قافلة الحج. وقد استطاع أن يفعل المستحيل ليصلها قبل جيش ظاهر. التقى بولاة حلب وطرابلس وكليس الذين حركتهم الدّولة للدفاع عن دمشق. بسرعة استطاع تحصين المدينة متوقِّعا وصول القوة الزّاحفة في أي لحظة.

في الثالث من حزيران وصلت العساكر المصرية وقوات ظاهر إلى ثغرة كوكب جنوب غربي دمشق، وقبل أن تلتقط أنفاسها، خرجت إليهم قوات الولاة المتحالفة مع عثمان باشا وهاجمتهم.

لم يستطع الولاة الثلاثة الصمود أكثر من ساعتين، إذ فرّوا تاركين عثمان باشا وولده محمد وحيدين في سهل داريا الغارق في الدماء.

لكن عثمان باشا ثبتَ، فقد كانت خسارته لدمشق خسارته لكل شيء.

غربت الشمس، أشرقت من جديد، ثم غربت وأشرقت من جديد. وفي لحظة بات فيه الطرفان على يقين من أن المعركة لن تتوقّف قبل فناء الجيشين، أغار علي الظّاهر على قوات عثمان في هجمة عاصفة، فوجد عثمان باشا نفسه يقاتل، دون أن يدري ، في داخل دمشق. ولم يكن هناك ما يثير فزع جند الشام، أكثر من عليّ الظاهر، الذي ترك حصانه، وراح يقفز راكضًا من ظهر حصان إلى ظهر حصان آخر كالرّيح، كما لو أن ظهور الخيول ليست سوى سناسل أو أدراج، غير عابئ بفرسانها، إن كانوا من جنوده أو جنود أعدائه، حاصدا الرؤوس على نحو يثير الذّعر!

ساحقًا كان الهجوم الذي أشرع الطريق لبقية القوات المهاجمة للتقدّم بيسر حتى حيّ الميدان.

***

أحسّ علي الظاهر أن هذا هو الوقت الأمثل للقاء محمد أبو الذهب، بعد أن عرف الأخير من هو عليّ!

في ذلك المساء الذي خيّمت فيه رائحة الموت ودخان الحرائق، واحتل الرّعب أسواق المدينة وحاراتها وشوارعها، ولم يبق لدمشق سوى أولئك الجنود الذين أغلقوا باب القلعة على أنفسهم، توجّه علي الظاهر إلى صوان محمد أبو الذهب، يتبعه سْعيد. دفع الحراس بغرور، وظلّ يسير إلى أن وصل المكان الذي يجلس فيه. جلس بجانبه، ثم سحب عددًا من الوسائد القريبة من محمد أبو الذهب ووضعها تحت كوعه الأيمن متكئًا عليها، قبل أن يصافحه أو يردّ السّلام!

ابتلع أبو الذهب الإهانة، رغم وجود كل ذلك العدد من قادة جنده، واستدار نحو عليّ مُرحِّبًا به، ومادّا يده لمصافحته.

توقّفت يد محمد أبو الذهب في الهواء لحظات باحثة عن يد تمتدّ، فارتبك سعيد، الذي أوشك أن يمدّ يده، لينقذ الموقف، لكني خشي غضبة عليّ إن فعل. وقبل أن يستردّ أبو الذهب يده، امتدّت يد عليّ، وصافحه؛ لكنه أحس أن عليّ يصارعه أكثر مما يصافحه وهو يقبض على يده بكلِّ تلك الشدّة. وعاد الهواء إلى صدر سْعيد ثانية!

مرّر أبو الذهب راحته المحمرّة على عُثنونه[1]، ثم بأصابع متوترة راح يفرك النسر الذهبي المرصّع بالزمرد والياقوت في نهاية قلادته.

***

لم يستطع ضوء ذلك القمر أن يخفِّف من حدّة عتمة ليل دمشق. أظلمتْ شوارع المدينة، واختفت منارات الجامع الأموي، كما اختفت آثار عثمان باشا الكرجي ومن قاتلوا معه، ولزم علماء المدينة وقضاتها وشيوخ تجارتها منازلهم في انتظار ما سيسفر عنه النهار التالي.

ما كان لأحد أن يعرف أيّ شيء سيظهر تحت ضوء ذلك الفجر.

أطلت شمس الجمعة متردّدة، مثل طفلة تغادر البيت لأول مرّة. لكن محمد أبو الذهب، حسم الأمر بسرعة، حين أرسل فرمان علي بيك إلى علمائها، طالبا منهم تسليم المدينة وإلا سيكون مضطرًا لحرْقها:

"هذا الفرمان الشريف صدر من ديوان مصر القاهرة، المحروسة المعالي، دامت لها المفاخر والمعالي. بأمر مِن مَنَّ به الكريم المنّان، على أهل هذا الزمان،

---

[1] - اللحية الصغيرة أسفل الذقن: (السكسوكة!)

الذي عمّ فضله وإحسانه، أهل القرى والبلدان، وأغرم أهل الجور والطغيان، أمير الأمرا الكرام، وعظيم الكبرا الفخام .. أمير الحاج سابقا.. وقيّم مقام مصر القاهرة حالا..

ثم من بعد مزيد السّلام والتحيات، والأمن والبركات، وجزيل النعم والخيرات.. إلى حضرة العلما العالمين والفقها والمفتين، بشريعة سيد الأنام، وقضاة الإسلام، وأرباب المناصب والحكام، والخاص والعام، من أهالي دمشق الشام، أعزهم الله بنور العقل وأحكامه، وأجارهم من الظَّلَمة وظلامه... فالذي يحيط كريم علمكم وزكي فهمكم، أن الأمة لا تجتمع على الضلالة، وقد علمتم ما صنعه عثمان باشا في أرضكم من الظلم والجهالة، وأنه اعترض الحجّاج والزوَّار، وسلط عليهم الأشرار والفجّار، بالأذية والأضرار...وتعدّى حدود الدين وفعل ما لا يليق بالمسلمين... فلما بلغنا عنه ما بلغ.. فبادرنا إلى سوء أعماله بالنقض.. فالقصد منكم ترك الظالمين، والبعد عنهم أجمعين، فاجتهدوا فيما يرفع عنكم الشرور، ويجلب لكم الفرح والسرور.. فلا تدعوه يقيم في أرضكم ولا بين عيالكم... والخير يكون والصعب يهون، بعون مدبر الكون والسّلام."

***

لم يكن سهلا على دمشق أن تجمع علماءها، في الوقت الذي لم تكن فيه بعد قد جمعت قتلاها، لكن سرعة انتشار ما جاء في فرمان علي بيك، كانت تفوق سرعة الشائعات التي راح الناس يتناقلونها عن فرار عثمان باشا الكرجي وولده.

رياح مُعاكسة!

تتبّع ظاهر أخبار أولاده، وما حدث في غزّة من خلاف بشأن لقاء محمد أبو الذهب؛ وتضاعف قلقه، حينما وصلته أخبار، قبل بلوغهم الشام، تؤكد له أن ولديه عليّ وعثمان، لم يكلّفا نفسيهما لقاء محمد أبو الذهب بعد!

جمع كبار رجال عكا، من المفتي إلى القاضي إلى الصبّاغ، وصولا إلى رئيس الحامية، وأخبرهم بأنه سيترك عكا أمانة بين أيديهم، ويتوجّه إلى الشام.

لم يكن أيّ منهم مع ذهاب الشيخ إلى هناك.

– وما الذي ستفعله يا شيخ، فالجيش وصل إلى دمشق الآن، والمعارك بدأت لا بدّ. وهذا الطريق أطول من أن تقطعه بعدد قليل من الجنود! فالصقر عادوا وانقلبوا علينا، والمعاهدة مع النوابلسة أوهى من أن تتكئ عليها بعوضة! ولذا، ليس لك سوى أن تنتظر، وأن تكتفي بإرسال الرّسائل إلى أولادك. قال الصبّاغ.

كان الصبّاغ يتكلّم في الوقت الذي كان فيه ظاهر يحاول رسم خط رحلته إلى دمشق، دون أن يكون مضطرًّا للمرور بأراضي النوابلسة وأراضي حلفائهم، وأماكن تحرّكات عرب الصّقر. وقد وجد الطريق، لكنه لم يستطع ضمان غياب الخطر.

مقيدًا بقيَ ظاهر في عكا، منتظرًا وصول أخبار تبدّد مخاوفه، فهو يدرك أن معركة دمشق هي أكبر معركة يخوضها، وأن تحقيق النّصر فيها، سيكون ذرْوة استقلال البلاد ما بين البحرين وأبعد. دون أن تغيب القدس عن باله؛ لكنه أدرك أن معركتها ستنتهي، مثل كل معارك المدن التابعة لولاية عثمان باشا الكرجي ما إن تسقط دمشق.

***

في صبيحة يوم الاثنين، وصلته أخبار الانتصار، فأُطلِقَ الرّصاص في الهواء وأُطْلق الشّنك[1]، وامتلأت شوارع عكا بالأعراس التي وصلت بين بابي البرِّ والبحر. وهبط الليل، دون أن تتوقّف الأغاني أو يتوقّف قرع الطبول ونفخ الزّمور.

---

[1] – كلمة تركية معناها إطلاق المدافع بمناسبة الفرح.

أما في ليل دمشق، فكانت رياح أخرى تهبّ لتذرّي كل ما قبضته الأكف!

***

وصل العلماء ورجالات دمشق إلى صوان أبو الذهب، ليسلِّموا بأن المدينة طاعت له، وليرحبوا به.

بعد أن أكرمهم، سار معهم حتى السّراي، واستقرّ فيه، وأرسل فرمانا بالأمان لكل إنسان.

كان يعرف، أن انتصاره سيبقى مجروحًا ما دامت القلعة صامدة. كلّف عددًا من العلماء بمحاورة أولئك الذين تحصّنوا فيها، لكن المحاصَرين رفضوا؛ فلم يبق أمامه سوى أن يقصفها، وهو على يقين من أن حصاره وضربه لها سيطولان.

المفاجأة التي لم يتوقّعها، أن القلعة لم تصمد، فبعد ظهيرة طويلة وليل أطول من القصف، أطلّ نهار اليوم التالي حاملا بشرى استسلام القلعة. وبمجرد أنْ رأى المحاصِرون السُّنجق النبويّ فوق جدرانها، توقّف القصف.

أما عثمان باشا وولده، فقد استطاعا الإفلات، في حمّى تلك الفوضى، هاربين إلى مدينة حماة، وهناك بدأ يجمع فلول عساكره المهزومة من جديد.

***

بعد ليلة من الاحتفالات طويلة، راح علماء دمشق ورجالاتها، وقادة الجيش يغادرون السراي! بمن فيهم أبناء ظاهر، الذين حضروا جميعًا، باستثناء عليّ وعثمان.

كان إسماعيل بيك على وشك الخروج، حين قال له أبو الذهب: أحتاجك في شيء!

عاد إسماعيل وجلس.

تلفَّت أبو الذهب حوله، ولأول مرّة أحسّ أنه يرى السّراي فعلا، السراي التي حجبتْ أعداد الناس جمالها. كان مفتونا بكل شيء تقع عليه عيناه، من الأخشاب المزخرفة التي تغطي الجدران، إلى النوافذ المنمنمة والبسط والنحاسيات وتلك اللمسة الرقيقة الباذخة التي مرّت على كل ما هو موجود وكسَتْه بسحرها الخاص، والزّهريات العملاقة التي تفوقه طولا!

راقبه إسماعيل بيك بصمت، وفي اللحظة التي التقت فيها أعينهما سأله أبو الذهب: لقد راقبتك الليلة، وحيّرني أنك الشخص الوحيد الذي لم يكن فرِحًا بالنصر الذي تحقّق!

- أنا، مولاي؟!
- لا أعرف إن كان هناك أحد غيرك أمامي وأنا أحادثه دون أن أدري!
تردّد إسماعيل بيك، وبعد لحظات قال:
- في فمي ماء يمنعني من الكلام، مولاي!
- ما دمنا وحدنا، فيمكنك أن تبتلع هذا الماء أو تتخلّص منه، لأنني بحاجة كبيرة للاستماع إلى رجل مخلص مثلك.
- لقد وصلني أن الدولة العلية غاضبة، وقد يمتدّ غضبها إلى مصر إن لم تعُد الأمور إلى مجاريها!
- أعرف أنها غاضبة! كيف يمكن لها أن تكون مسرورة ونحن نقتطع دمشق من جسدها؟!
- لكنها ستتحرّك وتضربنا هناك، في مصر، وعندها لن ينفعنا شيء هنا، فأنت كما ترى، لا يقيم لنا أبناء ظاهر وزنا! وكلّما تذكرتُ الطريقة التي دخل بها عليّ الظاهر علينا، وجلس إلى جانبك، دون أن يحفظ مقامك، أكاد أجن والله! وها أنت كما تراهم قوم جبابرة، لم تستطع الدولة العليّة أن تفعل معهم شيئا منذ أكثر من خمسين سنة! ويكفي أن تتذكّر كيف كان عليّ يتنقل فوق الخيول كجني طائر قاطعًا رؤوس الجنود!
- لا عليك يا إسماعيل. أنت تضخم الأمور، فظاهر العمر لا تنتظره سوى النهاية التي لقيها شيخ العرب همّام على أيدينا[1]. أيظن هؤلاء العرب أننا سنحني لهم رؤوسنا من جديد. لقد مضى ذلك الزّمن الذي كان فيه المملوك عبدًا لهم، وها أنت ترى مصر المحروسة ومن هم سادتها اليوم!
- أرى يا مولاي ذلك كلّه، أراه! لكننا هنا في أرض ظاهر العمر، ولسنا في مصر، والغريب ضعيف! ويضعف أكثر فأكثر كلما ابتعد عن أرضه! فما نحن هنا سوى نخلة حُمِلتْ من برِّ مصر إلى برِّ الشام، ومهما عجَّلنا في غرسها من جديد، لا نستطيع أن نضمن أنها ستعيش!

---

[1] - استطاع شيخ العرب همّام (1709-1769) أن يقيم دولة عربية في الصعيد، متحدّيا سلطة المماليك، وقاتل علي بيك ومحمد أبو الذهب، واستطاع الانتصار عليهم في عديد المعارك، لكن محمد بيك استطاع مراسلة ابن عمّ همّام وقائد جيشه في المعركة الأخيرة، واستماله ووعده برئاسة بلاد الصعيد بعد التخلص من همام، فتقاعس وهُزِمَ، ولما علم همّام بذلك، وبزحف المماليك، خرج من فرشوط، عاصمته، ومات بعد ثلاثة أيام مكمودا مقهورا. وبموته زالت دولة الصعيد من ذلك التاريخ وكأنها لم تكن!

- لكنك تنسى يا إسماعيل أننا زرعنا النخلة وحملت النخلة وأعطتنا ثمرة هي هذا النصر!

- كل هذا صحيح يا مولاي، ولكن النخلة لم تزل غريبة، ولعل حَمْلها هذا أتى معها! ولكننا لم نره إلا هنا!

تشعّب الحديث كثيرًا إلى ما بعد منتصف ذلك الليل؛ وفي نهايته أطلق إسماعيل بيك تلك الجملة الماكرة: مولاي، الدّولة العلية ليست غاضبة عليك، بل على علي بيك، فهو حاكم مصر! وهو الذي أمر بإرسال هذا الجيش، وهو الذي حالف المسكوب[1] الذين يفتح لهم ظاهر العمر موانئ عكا وحيفا ويافا ليتزوّدا بما يريدون، في الوقت الذي تخوض فيه الدولة أشدّ وأطول حروبها معهم! وهم كما تعلم أعداء للدين وللمسلمين!

وصمت إسماعيل بيك قليلا، مظهرا تردّده من جديد.

- لم يزل في فمك ماء يا إسماعيل.

- ربما، مولاي.

- إذن فابتلعه أو تخلّص منه، لأنني لا أريد أن تخرج من هنا وهو في فمك!

- إذا خُيِّرتَ بين أن تكون واليًا على دمشق أو على مصر المحروسة، مولاي، فماذا تختار؟!

- ما الذي تعنيه يا إسماعيل؟!

***

تحت جنح الليلة الثامنة، وصل رسول من عثمان باشا الكرجي قادمًا من حماة.

كانت أفكار محمد أبو الذهب قد تبلبلت بما يكفي، ولم يكن هناك من وسيلة لإرباكه أكثر من وصول ذلك الرسول الدّاهية، الذي استطاع بمساعدة إسماعيل بيك أن يزرع الرّعب في قلب أبو الذهب، ويجعله يعيد حساباته، بعد أن أكّد له أن الدولة العليّة ستكون معه وتنصره وتُعطيه مصر إذا ما ترك دمشق!

لم ينم محمد أبو الذهب تلك الليلة، توقّع حدوث كل شيء، أن يكون ما قيل حقيقة، أو أن يكون مؤامرة حيكت بمهارة، تنتهي بالتخلّص منه، لخيانته.

لكن الشمس أطلّت، ولم يحدث شيء.

---

[1] - الرّوس

على عجل أرسل يستدعي علماء دمشق ورجالاتها. لم يكن بعضهم قد وصل حين راح يخبر الحاضرين: إن سبب مجيئنا إلى الدِّيار الشّامية كان لأجل مقاتلة عثمان باشا، ولو لم يكن عثمان فيها لما قاتلناكم، ولما تعرَّضنا للقلعة التي ظننّا أنه التجأ إليها. فلما تحققنا من ذهابه، وأنه ليس فيها، تغيّر الأمر، فما مُرادنا بلدتكم ولا إضراركم وأذيتكم، فهذه بلدة مولانا الأعظم السّلطان مصطفى خان، أيد الله خلافته إلى يوم الدّين، وكل ما نرجوه ألا يكون قد وقع من عسكرنا أذية لأحد من أهل الشّام!

لم يصدِّق علماء دمشق ورجالاتها آذانهم، وهم يبحثون عن كلمات محايدة يودِّعون بها جيش أبو الذهب.

أما الجنون، فقد راح يعصف في معسكر أولاد ظاهر.

وحينما وصل علي الظاهر والشيخ ناصيف النصار والدّنكزلي عند أبو الذهب لاستطلاع الأمر، بعد ما وصلتهم الأخبار، قابلهم بجفاء، وبجملة قاطعة، أنهى بها اللقاء: من يريد منكم أن يمنعني من العودة إلى المحروسة فإن عليه أن يقاتلني إن استطاع!

في تلك اللحظة، أدرك عسكر ظاهر، أنهم باتوا وحدهم؛ ولم يكن أمامهم سوى أن يفعلوا ما فعله جيش أبو الذهب: اقتلعوا خيامهم، وحملوا أرزاقهم ومعداتهم على عجل، وتوجّهوا جنوبًا في فوضى، كما لو أنهم جيش مهزوم.

يومُ ظاهر

وجها لوجه وجد ظاهر نفسه أمام عثمان باشا!

أغار عثمان باشا الكرجي عليه، كان أشبه برمح معبأ بلهيب الكراهية.

كلُّ سنوات العداء تجمّعت في تلك الهجمة، وقد أحسَّ أن الزمان أنصفه بأن ألقى بوجهه هذا العجوز، أخيرًا!

في تلك اللحظة، لم يكن ظاهر وحده الذي يقاتل متَّقيا هبوب النصل القادم؛ كان حصانه يقطع نصف دائرة ليغدو خلف حصان عثمان باشا.

بسرعة خاطفة، راوغ ظاهرُ ووجَّه تلك الضربة الصّاعقة، لكن عثمان باشا انحنى، فحزَّ السيف الهواء بقوة كان لها صرير.

ها هما يلتقيان أخيرًا، ليس على أسوار عكا، كما خطط عثمان، انتقاما لما حدث لدمشق، بل على ضفاف بحيرة الحولة، حيث قطع ظاهر عليه الطريق!

استدار عثمان باشا ثانية، فأحسّ ظاهر بأنه لم يكن يقاتل وزيرًا بل فارسًا صلبًا.

أغارا، موجِّها كلٌّ منهما ضربة إلى الآخر، فالتقى السيفان. تطاير الشرر. لكن شدّة الضربة أطاحت بالاثنين من فوق ظهرَي حصانيهما.

على رمل الشاطئ الغارق في الدّم سقطا، وكل منهما قابض على سيفه.

هائجًا اندفع عثمان باشا نحو ظاهر الذي لم يكن قد نهض بعد، لكن ظاهر كان أقرب لقدمي عثمان من قُرب سيف عثمان إلى صدره هو، فوجّه إليهما تلك الضربة التي جعلت عثمان يطير في الهواء ليتحاشاها، وإذا به يتعثر ويسقط.

في تلك اللحظة الضيّقة كالقبر نهض ظاهر، وثانية وجد نفسه وجها لوجّه مع عثمان.

- فلنر ما الذي تستطيع فِعْله أيها العجوز، أكثر مما فعلته!

وهاجمه ثانية. ترنّح ظاهر؛ لكن النّصل لم يلمسْه.

- كأني أقاتل ميْتا، ألا تستطيع أن تتماسك أيها العجوز، كي أفتخر قليلا حين أعود برأسك إلى دمشق؟!

حدّق ظاهر فيه، خلع فردة حذائه اليمنى ودفعها جانبا. وخلع اليسرى ودفعها جانبا، وأغلق عينيه. فجاءه من بعيد صوت نجمة: *"أناس كثيرون يسيرون على هذه الأرض لكنها لا تحسّ بهم، لأنهم لم يحسّوا بها بعد، وأعرف أن الواحد منكما أحسَّ بالآخر، ولكنك بحاجة لأن تقترب منها أكثر."*

ذهل عثمان باشا وهو يراه واقفًا أمامه، بسنواته الاثنتين والثمانين كما لو أنه يُسْلِمه رقبته عن طيب خاطر! فاندفع صوبه، كان ظاهر قد بدأ يحسّ بالأرض تتسلل إليه، بترابها وأشجارها وبهدير بحارها وباتساع سهولها وقمم جبالها، وقبل أن يصل إليه عثمان أشرع عينيه، وفي تلك اللحظة أدرك عثمان برعب أيّ عدوّ ذلك الذي يواجهه.

انطلق ظاهر يدور حوله، يوجّه إليه الضربات ويتلقّاها بيسر أفقد عثمان باشا صوابه. كان يدور باطمئنان وثبات غريبين، كما لو أنه يكش ذبابة مُزعجة لا أكثر. وفي لحظة فاصلة، اندفع صوب عثمان، فتراجع عثمان باشا، وجهه لظاهر وظهره للبحيرة. وتراجع أكثر، إلى أن راح الماء يغمره، وظاهر لا يتوقّف عن توجيه الضربات المتلاحقة إليه.

أدرك عثمان باشا أنه على وشك أن يغرق، ضرب بيديه الماء، فأفلتَ سيفه منه وسقط. كان يريد أن يصرخ. كان يموت! وعلى طول الشاطئ كان هنالك جيش بأكمله يتقدّم، دافعًا جيش عثمان باشا للموت غرقًا.

وقف ظاهر يراقب عثمان باشا الذي تحلّق حوله عدد من جنوده يحمونه من السِّهام التي تلاحقهم، ويمضون به بعيدا إلى وسط البحيرة.

التفت ظاهر، فوجد الجميع يحدّقون فيه، الشيخ ناصيف النصار وأبناؤه عثمان وعليّ وصْليبي وأحمد وسْعيد.

اقترب عليٌّ منه، وقال: كان هذا اليوم يومك يا شيخ!

استدار ظاهر مضاءً بتلك الابتسامة الرّاضية. سار إلى المكان الذي خلع فيه نعليه، انحنى نحوهما، فهبَّ أحد الجنود مسرعًا ليساعده في ارتدائهما، فاعترضه ظاهر بسيفه، وتناولهما.

- ألن تنتعل حذاءك يا شيخ؟! سأله الدّنكزلي.

***

لم يكن ظاهر قد نفض غبار الحرب عن جسده، حين وصلته، والأمير ناصيف الذي لم يزل معه في عكا، أخبار أوامر الدولة للأمير يوسف الشهابي، بالزحف على

جبل عامل وتأديب المتاولة بعد هزيمة وزير دمشق، فأرسل ظاهر للأمير يوسف يعده بأنه يضمن وصول مال ميري جبل عامل إليه، ويطلب منه أن ينتظره لأنه سيحضر بنفسه ويسوّي الأمر.

مزّق الأمير يوسف رسالة ظاهر بغضب، وسار بجيشه حتى بلغ قرية كفر الرمان فأحرقها، وواصل زحفه نحو النَّبطيَّة.

التفت ظاهر إلى ابنه عليّ، ولم يكن مضطرا لقول كلمة، إذ نهض عليّ ومعه الأمير ناصيف وتعاهدا: النصر أو الموت! وانطلقا يسابقان الزمن على رأس جيش من خمسمائة فارس، باغت جيش الأمير يوسف ومزقه شر تمزيق.

كان النصر ساحقا، ومهيأ لاحتضان نصر آخر سريع وخاطف، فواصل جيش ظاهر مطاردة الجيش المهزوم حتى صيدا، وقبل أن يصلها، وصلت أخبار هزيمة الأمير يوسف، وأخبار المطاردة، ففر العساكر تاركين المدينة.

باسم ظاهر، أُعلن الاستيلاء على صيدا، وبعد أيام التقى عليّ والشيخ ناصيف النصار بقنصل فرنسا في المدينة، حاملين له رسالة من ظاهر تطمئنه، وتؤكد له حرص ظاهر على صيانة مصالح الفرنسيين في المدينة.

وقبل أن يغادراها صدر أمر ظاهر بتعيين أحمد الدّنكزلي واليًا على المدينة.

***

أدرك ظاهر أن عليه أن يقصّ أجنحة دمشق كلّها، بعد معركتين فاصلتين استطاع بهما القضاء تماما على هيبة الدولة وهيبة ونفوذ حلفائها، ولم يكن هناك أفضل من حصار دمشق نفسها بالسيطرة على أربد وعجلون؛ فأرسل ولديه أحمد وسْعيد على رأس قوة تسلَّمت البلدين، وولده عليّ على رأس قوة أخرى تسلّمت حوران، فصادروا كل أموال الوزير وأموال الميري فيها.

كانت الضربة قاسية بحيث تقطَّعت طرق الجنوب إلى دمشق، وتحوّلت دمشق نفسها إلى مدينة أشباح مع انعدام البيع والشراء وانقطاع طرق المسافرين إليها والخارجين منها.

إلى عكا عاد ظاهر، وقد أحس بأنه أعاد ترتيب وضع البلاد، بعد انسحاب محمد أبو الذهب المذلّ المريب من دمشق.

حين رأته نجمة حافيًا ابتسمت وقالت له، قبل أن يهبط عن حصانه: أخيرًا فعلتها.

- لم أفعلها وحدي، فقد كنتِ هناك أيضًا معي على شاطئ الحولة.

من باب السراي، رآها تندفع نحوه، طائرة مثل فراشة كعادتها، راقبها تتقدّم، وتتقافز بفرح، فأحسّ بالهواء يرفعه عن ظهر الحصان، فتشبث بالسَّرج! كان على يقين من أنه إن لم يفعل ذلك، ستنبت له أجنحة أمام عكا التي خرجت كلها لاستقباله.

لكن ما لم يفكر فيه أحد، حدثَ: كل أولئك الذين سمعوا عن عيشة، رأوها أخيرًا. ولم يكونوا بحاجة إلى أكثر من هذا كي يتحوّلوا إلى رُسل لجمالها في الجهات الأربع!

***

لم تكن المدافع قد توقّفت عن إطلاق الشنك، ولم تكن الأغاني وليالي الاحتفالات قد انتهت، حتى بعد مرور أسابيع من سيطرته على صيدا، وما خلَّفه ذلك من زلازل في أنحاء السّلطنة، حين وصل إلى عكا قبجيّ سلطاني حاملا رسالة من الباب العالي لم يعد لها أيّ معنى بعد كل تلك الأحداث الكبيرة!

كان ظاهر يستريح في داخل السراي، مستلقيًا، ورافعًا قدميه على ذراع ذلك الكرسي الطويل، تاركا جسده لممر الهواء البارد في ذلك الحرّ، عندما لمح الرسول السلطاني ينظر إليه من خلال الشّباك.

في تلك اللحظة أدرك ظاهر ما يدور في رأس الرّسول، فدعا واحدًا من رجال حاشيته ممن يتقنون التركيّة، وطلب منه أن يذهب إلى الرسول ويقول له: إني لست كما تحدّثه نفسه! قد أخذني الغرور والعجب بسبب انتصاري على عثمان باشا الكرجي وأخذي لصيدا، حتى أجلس هكذا رافعًا رجْلي. لا والله وتربة أبي،

عُمَر! بل سبب ذلك التّعب من الرّكوب وألم داء البواسير! وقد مرّت عليَّ اثنتا عشرة ساعة ما تركت ظهر جوادي خلالها، وما جلست هذه الجلسة إلا لكي أرتاح من هذا الوجع!

راقب ظاهر القبجيّ الذي كان يستمع لكلام الرّجل الذي أرسله يهزّ رأسه وينظر إلى الدّاخل باستغراب. وعندما عاد الرجل سأله ظاهر: ماذا قال لك؟

– لقد قال يا شيخ: لا إله إلا الله الذي لا شريك له، كيف يعرف هذا الشيخ أحاديث النفس والضمائر؟!

***

طارت فرحة الدنكزلي بصيدا، ما إن وصلته رياح تلك المدائح في جمال جارية ظاهر: *"أتكون صيدا محاولته لإرضائي بعد أن ضنّ عليّ بتلك الجارية؟!"*

حاول أن يتناسى، لم يستطع. وحاول مرة أخرى. وقف أمام المرآة، ولعلها المرآة نفسها التي وقف أمامها وزراء صيدا واحدًا بعد الآخر: *"أتريد أن تُلقي بنفسك في عذاب آخر يا أحمد؟! هل تريد أن تتعلّق بها فيختطفها موت أو يختطفها عدو؟! فلتحمد الله أن غيرك سيتعذّب بها!*

أنت تريد العذاب لظاهر إذن! هل أصبحت تكرهه؟ لأنه اختطف عذابك منك، وأراحك منه؟ أم لأنه اختطف حلمًا أنت لم تره حتى في نومك؟! أهذا هو الحبّ يأتي ثانية ويعصف بك؟ تمهّل يا أحمد: أنت لم ترها، وتفعل هذا بنفسك، فماذا ستفعل لو أنك رأيتها؟!"

حصار الباشاوات السبعة!

- ستعود إلى الشام ثانية، وتفعل كلّ ما يطلبه منك ظاهر! قال علي بيك لمملوكه وولده أبو الذهب.

- لن أعود إلى الشام إن كنت سأرى ثانية ظاهر وأولاده!

صمت علي بيك، ثم أطلق تلك الابتسامة الماكرة: الأمر متروك لك، ففي النهاية أنتَ ابني، ولا يمكن أن أقف مع ظاهر وأولاده ضدك!

في تلك اللحظة، رأى أبو الذهب بداية تفتّح بذرة المؤامرة.

***

كان اغتيال أبو الذهب صعبا وحوله كل أولئك المماليك المتنفّذين المخلصين.

إلى الباب العالي كتب أبو الذهب محاولًا اختصار الطريق، متّهمًا علي بيك بأنه هو من حرّضه على الذهاب إلى دمشق، وذكَّر بحِلْفه مع "المسكوب الكفار بهدف القضاء على دين الرسول وإرغام الناس على اعتناق المسيحيّة!"

أما أخبار أبو الذهب فكانت تصل أولا بأول إلى سيّده علي بيك الذي أطبق عليه ذات ليلة لاعتقاله، لكنه تمكّن، من خلال عيونه المبثوثة، أن يفلت.

***

ملكًا للبحر المتوسط كان الأسطول الرّوسي قد أصبح، منذ أن أرسلته الملكة كاترينا الثانية لمهاجمة السواحل التركية. اتصل علي بيك بالكونت ألكسي أورلوب، قائده، طالبا منه مدّه بالأسلحة في حربه ضد الدولة العثمانية. فأرسل إليه أورلوب: سنكون في خدمتكم ضد العدوّ المشترك.

إلى الإسكندرية كانت السفن الرّوسية تتّجه، محمّلة بالأسلحة والذخائر، وقبل وصولها بقليل، جرّد علي بيك قوّة على رأسها إسماعيل بيك للتخلّص من أبو الذهب الذي لم يجد مكانا يلتجئ إليه أفضل من الصعيد.

وصل إسماعيل بيك، رفيق حملة الشام، إلى الصعيد، وبدل أن يحارب أبو الذهب، عانقه وانضمّ إليه، ومعًا، انطلقا عائدين بجيش واحد إلى القاهرة!

لم تستمر معركة (سهل المصاطب) سوى ساعات قليلة. انهزم علي بيك فيها. وما هي إلا ساعات، حتى أعلن محمد أبو الذهب، في ذلك الجو الاحتفالي، ولاءه للسلطان، وتعهُّدَه بدفع كل أموال الميري المترتّبة على خزينة مصر.

في ذلك الليل الحالك في نهايات نيسان، تلفّت علي بيك حوله، مجروحًا بالهزيمة وخيانة ولده! فلم يجد جهة تفتح أبوابها له، سوى جهة ظاهر.

لم تكن الطِريق سهلة إلى عكا، فما إن شاع خبر توجّهه إليها حتى قطع النوابلسة طريقه على مشارف يافا، لقتْله، ومنع انضمامه، ومن معه، إلى قوات ظاهر.

بسرعة تحرّك ظاهر، وهزمهم، مُخلِّصا علي بيك من موت آخر يتربّص به، ورافقه حتى حيفا، وعلى أبوابها نصب خيامه.

***

انقضي شهر أيار، وبدأت ملامح صيف لاهب تحرق الأرض.

في خيمة علي بيك، جلس ظاهر متأمِّلا حليفه الذي يلقاه لأول مرّة.

***

وصلت السفن الروسية إلى الإسكندرية، لكن كلّ شيء كان قد انتهى. فتبعت علي بيك إلى عكا ورستْ في مينائها[1]. ومنذ تلك اللحظة ستتغير أشياء كثيرة، ففي غمرة انهماكه في التجهيز للعودة إلى مصر لاستردادها، كان علي بيك ومماليكه يخوضون الحربَ تلو الحرب إلى جوار ظاهر، وبانضمام السفن الرّوسية إليهما، غدا البحر لهما مثل البر. ولم تعد أيّ سفينة قادرة على التحرّك في المنطقة، فيما بعد، إلا إذا كانت تحمل إذنا خاصًا موقّعا من ظاهر العُمَر.

***

كل شيء بدا في سباق مع الزمن، وإذا كان البشر يحسون ببطء نهر الزمن أحيانا وبتدفّقه أحيانا، فقد تحوّلت الأيام والشهور إلى نهر هادر، فلم يكد يُعزل عثمان باشا الكرجي وابنه درويش بعد معركة الحولة، حتى عينت الدّولة محمد باشا العظم. وقبل عودته من قافلة الحج، عيّنت عثمان باشا المصري وزيرًا لدمشق خلفًا له!

كان ارتباك الباب العالي يتزايد، أمام قوة ظاهر، لكن ذلك لم يدم طويلا.

---

[1] - يُذكر هنا أن ظاهر استغل بحنكة فترات انشغال السلطنة بحروبها الخارجية، وعلى رأسها حروبها مع روسيا، لبسط سيطرته على مدن ومناطق جديدة.

أرسلت إسطنبول إلى وزير دمشق الجديد أمرًا بالتحرّك لاسترداد صيدا، وأمرًا آخر لزعماء جبل نابلس وطرابلس بمساعدته.

كانت رسائل الحرب تتقاطع راسمة ملامح زمن مُربكٍ، لم يعد الطرفان: الدّولة وظاهر، قابلَين به.

عيّنت الدولة مصطفى بيك طوقان واليا على نابلس وغزة والرّملة، ومنحتْه لقب باشا، وأرضت آل النمر بتعيينها إبراهيم آغا واليًا على القدس، ومنحتْه لقب باشا أيضًا. وهكذا وجد ظاهر، وحليفه علي بيك، نفسيهما داخل ذلك الطّوق المحكم من الشمال والجنوب.

***

منهكة كانت صيدا في يومها الثامن تحت حصار سبعة باشاوات على رأسهم وزير دمشق. فلم يجد الدّنكزلي حلًّا سوى أن يستسلم، وبدأ الإعداد لذلك. لكنه، وقبل أن يفعل، حدثت المفاجأة التي لم يتوقّعها أحد: وصول الأسطول الرّوسي إلى مياه المدينة.

تحت وابل قذائف السفن، وجد المحاصِرون أنفسهم يفرّون مبتعدين، وعلى أرض ضاحية الحارَة، على مشارف صيدا، أكمل الدّنكزلي ما بدأته السفن، شانًّا هجومًا كاسحا على الباشاوات والوزير، الذين لم يتوقف انسحابهم قبل وصولهم إلى دمشق.

أحس ظاهر أن معركة صيدا لن تكتمل إلا بتدمير سفن العثمانيين الرّاسية في ميناء بيروت، فدمَّرها.

كان الشمال قد أصبح تحت رحمته، حينما اشتعلت جبهة الجنوب ثانية، منذرة بأسوأ العواقب.

السيف والخنجر

ذات ليلة من ربيع 1773، فوجئ ظاهر بزيارة مفاجئة من علي بيك إلى السّراي. أحسّ ظاهر أن هناك أمرًا عظيما وراء قدومه.

كان علي بيك بوجهه الأبيض المستدير وذراعيه الطويلتين، أشبه بمركب تائه في عرض البحر. انتظره أن يتكلّم، لكنه ظلّ صامتًا، يعبث بعثنونه الضخم بشدّة كما لو أنه يريد اقتلاعه!

طلب ظاهر ممن كانوا موجودين من حاشيته أن يتركوهما قليلا.

فكرة وحيدة كانت قد سكنت علي بيك، وأوقدت فيه ذكريات قديمة، عن مصر التي فقدها، وعن غربته التي طالت في أرض فلسطين!

- لقد قررت العودة يا شيخ، وليس هنالك من إنسان يستحقّ أن يعرف هذا الأمر قبلك.

- أشكرك يا عليّ، ولكننا لم نتّفق على هذا!

- أمور كثيرة تغيّرت في مصر يا شيخ منذ أتيت، وليس هنالك من وقت أفضل من هذا للعودة إليها!

- أنا لا أعترض على العودة، بل على توقيتها! ففي هذا الوقت لا أستطيع أن أمدّك بالعدد الكافي من الجنود، فنحن على مشارف الربيع، وزرع البلاد بحاجة للرّعاية والجنْي بعد ذلك. لا أريد منك سوى أن تصبر حتى نجمع الغلال.

- كنت أتمنى البقاء حتى ذلك الوقت يا شيخ، ولكنني لن أستطيع!

أخذ ظاهر نفسًا عميقًا، وقال له: اسمح لي أن أستدعي وزيري إبراهيم الصبّاغ، فلعل لديه كلامًا يقوله، فرأيان أفضل من رأي، وثلاثة أفضل من اثنين!

- لا بأس يا شيخ.

***

طوال المدّة التي جلسا فيها منتظرين وصول الصبّاغ، لم يكن في ذلك الديوان الواسع غير الصمت. رحل كلٌّ منهما بعيدًا بأفكاره، يُجري الحسابات ويحاول ما استطاع معرفة النتائج.

وصلَ الصبّاغ أخيرًا. ألقى السّلام، فوجدهما في عالم آخر! ألقاه ثانية بصوت أعلى. انتبها.

أخبره ظاهر بكل ما يفكر فيه علي بيك، وقرار عودته إلى مصر، وإبراهيم صامت، وحين قال له ظاهر: نريد رأيك. ظلّ صامتا لفترة اعتقدوا معها أنه لا يريد أن يتكلّم. لكنه في النهاية فتح فمه. انتظرا كلامًا. عاد وأغلقه!

– وبعدين يا إبراهيم! أليس لديك كلام تقوله؟!

– لديَّ يا شيخ، لديَّ، ولكنني تردّدت.

– قله إذن.

– في ظني أن هذا الوقت ليس وقت الذهاب إلى هناك!

وأعادَ حديث ظاهر عن الزّراعة والغلال، لكنه أضاف: ولا تنس علي بيك أنك اتّفقت مع الكسي أورلوب أن يُرسل إليك فرقة خيالة بكامل احتياجاتها لترافقك إلى مصر، ولا أظن أن الفرقة قد وصلتْ!

– بصراحة، أريد أن أقول لكما إن لدي ما هو أهم وأقوى من الفرقة الرّوسية!

وفي لحظة خاطفة أخرج رسالة من جيبه وناولها لظاهر. فناولها ظاهر بدوره للصبّاغ الذي بسطها وراح يقرأ ما فيها وهو يهزّ رأسه.

– أسمِعْنا ما في الرسالة يا إبراهيم.

كانت الرسالة بمثابة عهد من سناجق مصر، يخبرون فيها علي بيك أنهم جاهزون لنُصرته، والقتال إلى جانبه، إذا ما فكّر في العودة إلى مصر؛ ويستحثونه على الإسراع في ذلك، لأنه لم يسبق أن اتّفق سناجق مصر على شيء مثلما هم متّفقون على القتال من أجله، ويطمئنونه: حينما تدخل الأراضي المصرية وتصل الصّالحية[1] سننفضُّ جميعًا عن أبو الذهب وننضمّ إلى جيشك لنكون أتباعك وأنصارك.

طوى الصبّاغ الرّسالة وأعادها للشيخ الذي أمسك بها وراح يحرّكها كما لو أنها مروحة ورقيّة صغيرة!

– وهل أنت علي يقين من صدق هؤلاء الذين وقّعوا هذه الرسالة؟! سأله ظاهر.

– إنهم رجالي يا شيخ، وأعرفهم مثلما أعرف نفسي!

[1] – مدينة تاريخية في مديرية الشرقية على الطريق البري إلى القاهرة.

- ولكنني أشم رائحة خيانة يا عليّ!
- لا يمكن أن يكون هذا ما داموا اجتمعوا كلّهم على كتابتها!
- ما رأيك يا إبراهيم؟
- والله إن رأيي من رأيك يا شيخ.
- أنظر عليّ، لن أجادلك بشأن إخلاص رجالك، فأنت تعرفهم أفضل مني! ولكن رأيي لم يتغيّر: ننتظر ثلاثة أشهر، ونجهِّز جيشا قويًا؛ وفي هذا الوقت يكون الخيالة الرّوس قد وصلوا، فتتوجّه إلى مصر قويًّا. فإذا تبيّن، هناك، أن رجالك خائنون، لن يضرّك هذا! أما إذا كانوا صادقين معك، فستكون أقوى.
- يا شيخ أنا أخْبَرُ بهؤلاء السّناجق! وقلبي يقول لي إن كتابتهم بلا عيب، وهذه فرصتي لأن أدخل مصر قبل عودة قافلة الحج، لأنّ من فيها ضدي، ومن في مصر معي! وكما ترى لا يمكنني أن أتأخر! وصمت قليلا، ثم قال: وهناك يا شيخ رأي وكيلي رزق، وهو صاحب نبوءات كما تعرف ويضرب بالرّمل، وقد أكّد لي أن النجوم كلّها تنبئ بنجاح سفري وانتصاري الحاسم!
هزَّ ظاهر رأسه مستعيدًا زمنًا كاملا:
- ذات يوم بعيد قالت القناديل لأختي ما قاله الرّمل لوكيلك! أنظر يا علي، لقد كتبتَ لي في رسالتك الأولى إليّ بأنني بمثابة الأب لك، فاسمح لي أن أحدِّثك حديث الأب: أنت لا تستطيع أن تبني خطة كبيرة كهذه على رسالة لا تساوي أكثر من وزنها! ثم الأدهى من ذلك: أنك مستعد لسماع هذا الدّجل من وكيلك رزق! ووالله إنك لو محوت كل ما في هذه الرسالة من كلام فستظل بفراغها أوزنُ من كلامه!
انتظر ظاهر من علي بيك أن يقول شيئًا، لكنه ظل صامتًا، فأدرك ظاهر أنه قد اتخذ قراره، وما جاء إليه، إلا ليبلغه به، لا ليستمع إلى رأيه!
- كل ما أريده أن تمدّني بفرقة من جندك لترافق مماليكي إلى مصر. كما أريد منك أن تزوّدني ببعض المال الذي أحتاجه.
- لك ما تريد يا علي، لك ما تريد! أما الفرقة فسأختارها من أفضل رجالي وأضع على رأسها ولدي صْليبِي وكريم الأيوب زوج ابنتي، لتعرف كم أنا صادق معك، وأما المال فستأخذ منه ما يُغطي حاجتك ويزيد، ولكن دعني أتدبّر هذا الأمر مع وزيري إبراهيم.

***

اختلى ظاهر بالصبّاغ وقال له: أنت تعرف بأحوالنا المالية هذه الأيام أكثر مني. فقد أفرغَت الحروبُ الماضية خزائننا، وأنا لا أستطيع أن أقول لعلي بيك، مثل هذا الكلام، فهو حليفنا الذي لم يُقصّر في مدّ يد العون لنا منذ عرفناه. أما من وسيلة لكي نسعفه؟!

- روحي يا شيخ أقدِّمها إليه ما دمت تريد ذلك! لكنك الأعلم بأحوالي المالية! رغم هذا، سأفعل المستحيل حتى لو أحرقتُ نفسي لتأمين ما تطلبه. سأستلف! وأجهّز له ما يحتاجه من مال، كرامة لك وحبًّا! لكنّ ما يقلقني يا شيخ هو كيف سأتمكن من استرجاع المال الذي استدنته لأصحابه بعد ذلك؟!

- هذه عندي، وأنا الضمانة؟ فهل ترضيك ضمانة كهذه؟!

***

- ولكنني لن آخذ المال إن لم أكتب سندًا لك! قال علي بيك لظاهر.

- يا عليّ، أنا أرسل معك ابني وزوج ابنتي، وهما الغاليان؛ فهل تعتقد أنني بحاجة إلى سند بعد هذا؟! كل ما أتمناه أن أسمع أخباركم الطيّبة تهب علينا من هناك، من برّ مصر. ولكي أكون مطمئنا أكثر سأرسل إليك (بركندة)[1] روسية، أحمّلها بالأسلحة، والأمتعة والذّخيرة لتسبقكم إلى السّاحل المصري.

***

على وجه السّرعة جُهِّزت فرقة بقيادة صْلَيبِي وكريم. وخلال ذلك، مضى علي بيك إلى قاضي عكا، دون علم ظاهر، وكتب سندًا يلتزم فيه بإعادة المبلغ الذي اقترضه من ظاهر، ومقابل ذلك، رهن سيفه المعروف باسم (سيف يوسف) وخنجره الثمين الذي يبلغ ثمنه مائتي ألف ليرة فرنسية، في الوقت الذي كان فيه سعر الخنجر العادي لا يتجاوز التسعة آلاف ليرة! وتعهد بدفع ما عليه فور وصوله مصر مقابل فكِّ رهن السيف والخنجر.

***

على باب عكا كان وداع علي بيك كبيرًا، احتضنه ظاهر، محاولا أن يقول شيئًا، لكنه لم يجد سوى تلك الكلمات الصادقة: لا شيء أنتظره في الأيام القادمة أكثر من وصول أخبارك السعيدة.

وعانق كريم، ثم عانق صْلَيبِي.

---

[1] - أي سفينة حربية.

كان القادمون والخارجون من عكا قد تجمّعوا لمشاهدة ذلك الجيش الذاهب لاستعادة مصر، وعدده لا يتجاوز ألفًا وخمسمائة جندي!

راقبهم ظاهر حتى اختفوا.

بعد أيام تضاعف حزن ظاهر، حينما وصلت الفرقة الرّوسية إلى عكا، ولم تجد من طَلَبَها هناك.

كلّ الرياح التي اجتمعت

غيرت رياح الجهات وجْهاتها في وقت واحد.

مقابل يافا، تم اعتراض السفينة التي أرسلها ظاهر محمَّلة بالأسلحة لتسبق علي بيك إلى الشاطئ المصري. وما إن علم مصطفى بيك طوقان، في نابلس، بذلك، حتى أرسل إلى يافا طالبًا أن يُرسلوا إليه بحّارتها الرّوس الذين تمّ أسرهم.

حين وصل الأسرى إلى نابلس، كان قرار مصطفى بيك قد أتّخذ. فقد وجد فيهم هدية السماء له. أمر بقطع رؤوسهم فورًا! وقد أدرك أنه يصطاد عدّة عصافير بحجر واحد: فها هو يُرضي عثمان باشا المصري وزير دمشق؛ وها هو يضع ظاهر في موقف لا يُحسد عليه مع حلفائه الرّوس؛ وها هو يسلب علي بيك حليف ظاهر المدافع والذخائر التي يحتاجها في مصر، وها هو يُرضي محمد أبو الذهب!

تلك الإنجازات كلها، كانت كافية ليُحلِّق ولو كان جبلا!

***

في تلك الظهيرة، مجتمعًا كان ظاهر، مع عدد من كبار موظفي ديوان عكا، حين وصل أحد رجال حاشيته ووقف بالباب متردّدا.

ألقى ظاهر عليه نظرة، وأشار إليه أن يتقدّم، ففعل.

- ماذا لديك؟

- خبر لم أكن أحبّ أن أحمله يا شيخ.

- هل حدث لعلي بيك وصْلِيبِي وكريم مكروه لا سمح الله.

- لا يا شيخ، بل للبركندة التي أرسلتها إلى مصر.

استمع ظاهر بصمت، وهو يحسّ بنصال السيوف تمطر عنقه برياحها الدّامية. انتفض جسده النحيل واتقدت عيناه الواسعتان بالغضب وقال: ألم يفهم النوابلسة تراجعي عن مدينتهم في المرّة الأولى؟! أيخونون العهد. وأَقْسَم: والله لن أهبط عن حصاني قبل أن أسقيه من عين السِّت.

***

اندفع فوق جواده، وخلْفه جيش لا حدود لقوته وعدده. لم يُرسل ليُفاوض أو يُنذر أو يُطالب بعهد جديد بات على يقين من أنهم سينقضونه.

حين وصل، وجد أهالي نابلس ثائرين ضد مصطفى بيك طوقان بسبب ما فعله بالأسرى، معزّزين بشجاعة أقوى قضاتها: موسى التّميمي، كاره البكوات، الذي أثار الناس ضد قتل الأسرى لأنه حرام شرعًا.

اكتسح ظاهر المدينة ساحقًا دفاعات مصطفى بيك طوقان، التي لم تصمد أمام ذلك الطوفان، فلم يجد مصطفى وأخوه أحمد، من سبيل للنجاة سوى الهرب. وواصل ظاهر اندفاعه حتى وصل إلى عين السّت في قلب نابلس، سقى جواده، وحينما غادر المدينة، كان باستيلائه عليها قد بسط نفوذه على كلّ سورية الجنوبية.

***

لم يكن ظاهر سعيدًا بما حدث، لا بالنصر السريع الخاطف الذي جُرَّ إليه جرًّا، ولا بذلك الصمت المطبق الذي ابتلع أخبار عودة علي بيك إلى مصر صحبة صْلِيبِي وكريم.

شيء ما كان يقلقه وينغّص حياته. كم حاول أن يطرد الأفكار السوداء كلّها، لكنه لم يستطع. لم يعد فرحًا بأي شيء، لا بسماحه لعلي بيك بالعودة ولا بذلك الإخلاص الأعمى، حين قبل بإرسال ابنه وزوج ابنته معه ، ليؤكد لعليّ عمق وفائه.

***

قبل الصالحية بقليل، تأكّد علي بيك من استعدادات جيشه، واطمأن على أوضاع صْلِيبِي وكريم. نظر إلى السماء في ذلك اليوم الحار، فرأى النسور والعقبان والغربان تملأ الفضاء حاجبة شمس الأول من أيار على نحو لم يره من قبل.

لم يعرف إن كان عليه أن يتفاءل أم يتشاءم! فقد كان عليه، وقد بلغ هذه النقطة من الطريق أن يتقدَّم، ولا شيء غير ذلك.

من بعيد شاهد ذلك الغبار الذي تثيره الخيول في ضواحي الصّالحية. وثانية، لم يعرف إن كان عليه أن يفرح أم يتشاءم!

حتى الحذر بات أمرًا وراء ظهره وقد بلغ هذه النقطة من الطريق!

كان عليه أن يتقدّم!

وحينما اندفعت الخيول من الجهة المقابلة نحو جيشه، لم يعرف إن كان عليه أن يُغيْر عليها، أم ينتظر لأن القادمين يندفعون الآن للانضمام إليه!

لم تكن صورة بذلك الغموض الذي خيم على قلبه، تحتاج إلّا إلى لحظات قليلة كي تتّضح.

كان الهجوم عليه خاطفًا ومميتًا. ورغم كل ذلك الغبار الذي سدّ الأفق، كان باستطاعته أن يرى مُراد بيك يندفع نحوه بجنون! تقاتلا طويلا، وكم فوجئ علي بيك بذلك الإصرار والعناد الذي يبديهما مراد بيك في قتاله، وقد كان أول الموقعين على الرسالة - العهد..

أما خارج تلك البقعة الضيقة، فكان جيش محمد أبو الذهب المكوّن من اثني عشر ألفا، يطبق على جيش علي بيك الذي راح يتلاشى، مفسحا المجال للخيل الفزعة كي تهرب بعيدًا تاركة فوق أرض المعركة جثث فرسانها، وبينهم صْلِيبِي.

راوغ علي بيك، لكنه أدرك أنه وقع في فخ نصبه له أبو الذهب بإحكام. حاول أن يتراجع. سدَّت الجثثُ التي تملأ الأرض عليه الطريق! فأغار ثانية، وقبل أن يصل إلى مُراد بيك، كان يتلقّى تلك الطعنة النافذة التي أطارته من فوق ظهر حصانه.

كان يحلِّق في الهواء؛ وقبل أن يصل الأرض، لم تكن له سوى أمنية واحدة: أن تكون الطعنة التي تلقاها قاتلة بحيث لا ينهض بعدها من جديد!

حتى الأمنيات الصغيرة تجد نفسها غريبة ووحيدة في ساحات المعارك!

عشرات الجثث تلقَّفته فلم يلمس جسده التراب.

قفز مراد بيك عن حصانه وأمسك به. لم يكن في تلك المعركة رجل بسعادته، لا لأنه أسر علي بيك، وحظيَ بذلك الشرف العظيم، بل لأنه سيحظى بما هو أعظم من ذلك بكثير!

***

ما إن وصل مراد بيك دافعا علي بيك أمامه باتجاه ذلك الصِّوان الملكي الذي نُصب خلف الجيش، حتى نهض أبو الذهب وراح يجري نحوهما، وما إن وصلهما، حتى أخذ يد علي بيك وراح يقبّلها ويبكي: ما الذي فعلوه بك يا والدي؟!

يحتضنه حينا، ويقبل رأسه ويديه حينا، ويعتذر له عما أصابه من جراح حينا!

***

في مساء الثامن من أيار، في داره بالأزبكية، كان علي بيك يعاني الكثير من آثار جراحه، ولم يكن الأطباء يتوقّفون عن الدّخول والخروج مستطلعين أحواله وباذلين الكثير لمعالجته.

في مساء الثامن من أيار، طلب أبو الذهب الطبيب القادم لعيادة عليّ بيك، وقال له: تدخل الآن وتسدّ جراح والدي بهذا الدواء، فهو أفضل دواء، كما قيل لي، لشفائه!

هزّ الطبيب رأسه، ولم يكن بإمكانه أن يفعل سوى ذلك! وبعد ساعة كان البكاء يملأ درب الحقّ حيث بيت علي بيك!

***

على عجل وصل مُراد بيك إلى قصر أبو الذهب حين سمع بالخبر. فقال له أبو الذهب الذي يتوسّط رجاله كطاووس مخمور: لماذا تأتي إليّ، اذهب وخذ بنفسك ما وعدتك به!

- فقال آخذ زوجة علي بيك الآن!

- الآن، بالطبع، أوليست عشيقتك التي وعدتُك بها إن عدت به إليّ؟! إنها زوجة لا أحد الآن! اذهب، قبل أن أغيّر رأيي.

راكضا خرج مراد بيك. فتابعه أبو الذهب بصوت عال: أركض قبل أن أسبقك إليها!

في تلك القاعة الكبرى، المترنّحة بنشوة النصر، تعالت ضحكات السّناجق، فقطعها أبو الذهب بتلك الجملة التي اختتم بها مسارًا طويلا من الأحداث: دعونا نفكّر في الغد الآن؛ أم أن هنالك أحدًا بينكم يريد أن يكتب إلى علي بيك في قبره مؤكدًا إخلاصه له؟!

فتلاشت الضحكات، مثل جرعة ماء اندلقت على رمل صحراء!

الليل وقناديل نجمة

وقفت عكا على رؤوس أصابعها تنظر نحو الجنوب، تتطلّع لسماع خبر غير ذلك الذي وصلها بعد أيام من معركة الصالحية: علي بيك وقع في الأسر وصْليبِي قُتِل، ولا أخبار عن كريم الأيوب!

عمّ الحزن كلَّ بيت، وتحوّلت عكا إلى أكبر بيت عزاء يمكن أن يتخيّله إنسان.

لكن الصبّاغ كان الأكثر حزنا، وقد فقد ماله! ولو كانت بيوت العزاء تُفتح حين يضيع المال، لفتح بيت عزاء؛ رغم معرفته أن بيتًا كهذا سيجعله أكثر حزنا، لأنه سيفقد المزيد من المال! فاكتفى بتلك الزاوية المظلمة في بيته، التي كان يمضي ويحشر نفسه فيها بعد عودته كل ليلة من بيت العزاء حالما أن ظاهر لم ينس أنه الضّامن لديْن علي بيك.

وقفت عليا ابنة ظاهر أمام أبيها صامتة بعد وصول أخبار الحرب. لم تسأله شيئا. وفي اليوم الثاني فعلت الشيء نفسه؛ وهكذا، لا هي قادرة أن تسأل ولا هو قادر أن يجيب!

استعاد ظاهر صورة عليا الصغيرة التي كانت تتسلل في خميس البنات إلى البحيرة لتغسل شعرها بالماء المشبّع برائحة الأزهار، الماء المغسول بضوء النجوم، عليا التي لم تكن قد تجاوزت السابعة من عمرها بعد، عليا التي كان يدّعي ظاهر أنه لا يراها، ليملأ قلبها فرحا، ويملأ قلبه فرحا بشقاوتها، عليا التي رأت كريم الأيوب وهي في الثانية عشرة من عمرها أثناء زيارته لطبرية مع أبيه، وكان يكبرها سبع سنوات، فقفزت في الهواء وقالت: هذا عريسي! أمام أعين الجميع، وانتظرها كريم حتى أتمت السابعة عشرة، وتزوجها، عليا التي لم ير ظاهر امرأة فرِحَةً بزوجها مثلما كانت هي فرِحَة بكريم.

انزوت نجمة بعيدًا في غرفتها. كانت تلك الأيام، من أكثر أيام حياتها سوادًا؛ ولم يعد هنالك من أثر لوجود عيشة في البيت.

وجلس ظاهر، مثل مَلِك وحيد في سراي موحش لا تصله، سوى الأخبار الحزينة.

في اليوم الخامس عشر، في بيت العزاء، كان الصمت يزداد شراسة وهو يقاوم كل تلك الأسئلة الحبيسة في الصدور. شقَّ ظلمة الطريق فارس وحيد على وشك الهلاك. ظلّ يتقدّم، والناس يحدّقون فيه غير مصدّقين أعينهم، إلى أن وصل. ترجّل عن حصانه، وعندها عرفه ظاهر. سار إليه بخطوات مرتبكة وفرح مكسور، إلى أن وصله. أخذه بين ذراعيه. احتضنه بقوة. فانهار الفارس بين يديه.

كانت عودة كريم واحدة من المعجزات، إذ لم يصل قبله أحد من ذلك الجيش الذبيح، ولن يصل بعده أحد.

في تلك الليلة خرجت نجمة من غرفتها، وخرجت عيشة.

احتضن ظاهر نجمة، كما لو أنه يواصل مواساتها، وأمسك بيد عيشه وقال لها: سامحيني يا عيشة، كلّ تلك الحروب أنستني أمرًا ما كان علي أن أنساه: أنتِ حرَّة.

فالتفتت إليه وقالت تلك الجملة التي لم يسمع مثلها من قبل: في بيتك يا شيخ لا يمكن أن يكون هناك سوى الأحرار!

- تستطيعين أن تذهبي إلى حيث شئت يا عيشة.

- لو كان هنالك بيت تحبه الحرية أكثر من هذا البيت لذهبتُ إليه!

- من أين تعلمت هذا الكلام يا عيشة؟

- من أمي، السيدة نجمة!

***

في ذلك الليل الموزّع بين فرح غاب وفرح عائد، جلس ظاهر في الحديقة مع نجمة حتى الصباح، ولو لم يكن صوته هناك، لأحسّت نجمة أنها أمضت الليل وهي تكلّم نفسها.

- تعرفين يا أمي! لم تزل ليلة القناديل تلحّ عليَّ بين وقت وآخر. لقد أصبحتْ بعيدة، وظلّ قنديلي الذي انطفأ مشتعلا! ولكني منذ ذلك اليوم أحسّه يخبو أكثر فأكثر، كلّما رأيت قنديلا أحبه يُطفأ. لقد انطفأ قنديل أبي، ليكون لي قنديل، وانطفأت قناديل عباس والشيخ حسين وأخي صالح، وأخي سعد، وقنديل نفيسة، وقنديل بشْر، وقنديل الجهجاه وقنديل صْليبِي، ولا تستغربي إن قلت لك: قنديل الأمير رشيد الجبر أيضًا! كأن قنديلي الذي انطفأ في ذلك اليوم لم يكن قنديلي، كان قنديل شخص آخر، أما قنديلي فكان كل هذه القناديل التي انطفأت واحدًا بعد آخر.

- لكنني ما زلت حيّة يا ظاهر. أم أنني لستُ جزءًا من ذلك القنديل.

- بل أنت ضوؤه وزيته يا أمي.

- ولا تنس أبناءك يا شيخ!

- أبنائي! والله، منذ أن كبروا لم أرهم يفعلون شيئًا سوى إرسال الريح تلو الريح لإطفاء ما تبقى من ضوء في هذا القنديل! هذا إذا ما استثنينا صْليبِي رحمه الله. يحيرني يا أمي كم يتمنّون لي العتمة. أحيانا أفكر: أفرَّقتهم بطون أمهاتهم، هم الذي يجمعهم ظهر أبيهم؟! ليرسلون إلي كلّ تلك الريح؟!

- هنالك يا شيخ قناديل لا تُطفأ، وقنديلك منها. بعد كلّ ما فعلته، أتراك تعتقد أن أحدًا يستطيع إطفاء قنديلك؟! صحيح أن أحدا اليوم لا يجرؤ على الجلوس لتدوين كلٍّ ما فعلته من أشياء عظيمة، لأنهم لا يخافون شيئًا أكثر من خوفهم من الدولة، والدولة لا تخاف شيئًا أكثر من خوفها من الحبر! ولكن بعد عام أو عشرة أو خمسين أو مئة، سيتغيّر هذا، ويتّقد قنديلك وتتّقد كل تلك القناديل التي انطفأت، دفعة واحدة يا شيخ! لست ضاربة رمل ولا قارئة نجوم، مع أنني نجمة! ولكن ذلك كلّه سيحدث يا شيخ.

- تواسينني يا أمي؟!

- لا يا شيخ. حين أقول كلاما كهذا فإنني أُطمئن الأيام القادمة بما سيأتي.

ارتفع صوت أذان الفجر من الجامع المعلّق، فحمد الله.

- سنصلي وآخذك لنمشي على شاطئ البحر، فلعلّي أكثر حاجة منكَ إلى هذا؛ هل أقول لكَ لماذا دون أن تقسو على نفسك يا شيخ؟

- قولي يا أمي.

- لأنك نسيتَ أن تلك القناديل التي انطفأت كانت قناديلي أيضا!

امتدت يد ظاهر وشدّ على يدها، فقالت له: وهناك قناديل تتابعك دون أن تدري! وناولته تلك الصرّة التي عرف ما فيها، كعادته، قبل أن يفتحها، وما أن لامسها حتى جاء الصوت: *أنت لا تستطيع أن تتخيّل، يا شيخ، كم نحس بأننا جميلات حينما نرسل إليك جدائلنا!*

فتلفّت ظاهر حوله باحثًا عن مصدره!

الرأسُ لي.. والبلاد لك!

في البداية وصلت رسالة من وزير دمشق عثمان باشا المصري إلى ظاهر، يخبره فيها أنه لن يواصل الحرب معه، كما فعل وزراء دمشق السابقون، لأنه على يقين من أن تعدّيات عثمان باشا الكرجي عليه في السنوات الأخيرة، كانت سبب كل الحروب. ولم يكد ظاهر يطويها، حتى وصلته رسالة أخرى من (الصدر الأعظم، رئيس الوزراء) يبلغه فيها أحرَّ تحياته وتمنياته بطول العمر والصحة، ويدعوه إلى تناسي كل ما مرّ، وفتح صفحة جديدة!

كانت تلك هي المرّة الأولى التي يكتب فيها (الصدر الأعظم) كتابا مباشرًا إلى ظاهر، فكل ما كان يصله، من قبل، هو كتب الوزراء التي لم تحمل يومًا سوى التهديدات.

تلفّت ظاهر حوله، فوجد أن كلَّ ما يريده قد تحقّق، فها هو يسيطر على الجنوب كلّه، ويبسط حكمه على عكا ويافا وحيفا والجليل وبلاد إربد وعجلون وأجزاء من سورية وحوران وصيدا وسواها، في حين أن صور كانت في يد حلفائه المتاولة، وبيروت في يد حلفائه الشهابيين. ولم يبق للدولة سوى ميناء طرابلس في الشمال. لكنه كان يدرك أن رضا الدّولة على من يقف في الجانب الآخر من مصالحها لا يمكن أن يكون مطمئِنا أبدًا. إلا أنّ الدولة قطعت مسافة أبعد حينما أرسلت إليه فرمان عفو سلطاني حمله رسول سلطاني دخل عكا في موكب احتفالي لم تر المدينة مثيلا له.

عند ذلك بدأ خوف ظاهر يكبر أكثر فأكثر!

وقد كان على حق!

***

إلى قصر أبو الذهب، وصل رسول الصدر الأعظم حاملا رسالة إليه.

قرأ الرسالة، وضعها فوق تلك الطاولة المصنوعة من خشب البلوط المزخرفة بالنجوم والمربعات والمعينات المتداخلة، أمامه. ثم عاد وقرأها من جديد، والرسول ينتظر سماع شيء منه.

ثالثة، عاد وقرأها!

كان الصدر الأعظم يؤكد له فيها حبّه وحرصه على أبو الذهب، ويحذِّره مما يدور وراء ظهره. فالسّلطان أصدر فرمان عفو عن ظاهر، ولن يطول الوقت قبل أن يُصدر فرمانا آخر يدعو فيه ظاهر للتوجّه إلى القاهرة وشن الحرب عليك، وإرسال رأسك إلى إسطنبول! ويعلمه أن الدولة رغم ذلك، ليست راضية عن ظاهر! فما فعله فيك وبوزرائها كثير؛ وإذا ما تحركتَ قبل أن يتحرّك ظاهر، فإن الدولة ستنصرك!

فكّر أبو الذهب بسرعة، وقبل أن يستشير أحدًا، اتخذ قراره بالزّحف إلى عكا.

في الأيام التالية، التي لم تعد ساعاتها تكفي للتجهيز للحمْلة والمحافظة على سرِّيتها في الوقت نفسه، استطاع أبو الذهب فِعل الكثير.

فكَّر في قائد عسكري للحمْلة، فلم يجد أفضل من روبنسون، ذلك العسكري البريطاني الدّاهية.

بسرعة تحرّك روبنسون، جهّز الحمْلة، وعزَّزها بالمهندسين ورماة البنادق والمدافع المهَرَة، وأرسل عبر البحر ذخائر ومعدات إلى بحر يافا، من بينها ذلك المدفع الكبير الذي سبكه منذ عام وأطلق عليه اسم (أبو مايلة)! أما الجيش، فقد سار عبر سيناء وعلى رأسه محمد أبو الذهب نفسه.

لم تكن حرب الرسائل قد انتهت، وقد أدرك الجميع أنها قادرة على فعل المستحيل.

كتب محمد أبو الذهب إلى علي الظاهر: فلننس ما حدث بيننا أيام حملة دمشق! أنا قادم إلى عكا، وأعاهدك أمام الله، أنني لا أطمع في هذه البلاد أبدًا، ولكن لي حسابا مع أبيك، فقد ناصر علي بيك، عدوّي، وحماه، وجهّزه وأرسله ليحاربني! كل ما أريده: رأس ظاهر لي، والبلاد لك! وإذا لم تكن معي، فإنني ما إن أفرغ من ظاهر حتى أتوجه بجيشي إليك، فاختر ما تريد!

***

وصلت أخبار الحمْلة إلى ظاهر، فحرّك كريم الأيوب على رأس ألف جندي لقطع الطريق عليها في غزة، بعد أن جهّزها بعدد من المدافع النحاسية ذوات القواعد الخشبية.

راح كريم يسابق الليل والنهار للوصول إلى غزة. وكم كان فرحًا أنه وصلها واستطاع التحصّن فيها قبل وصول جيش أبو الذهب.

لكن قلق كريم كان يتضاعف يومًا بعد يوم، فالقوّة التي وعد ظاهر بأن يرسلها لتنضمَّ إليه بقيادة سْعيد الظاهر لم تصل أبدًا! فقد علِم علي الظاهر بتحرُّكها، فأرسل إلى أخيه سْعيد أن يعود بعسكره وينضمّ إليه لا إلى كريم، فاستقبل سْعيد الرسالة كأمر، والتحق بعليّ!

لم تتوقّف الأخبار القادمة إلى غزة حول ضخامة الجيش الزّاحف. فكَّر كريم في وضع جنوده وعددهم القليل، فأدرك أن أفضل ما يمكن أن يفعله هو الانسحاب من غزة واللجوء إلى يافا الحصينة.

لم يكن على الجيش القادم أن يقاتل في غزّة أو في الرّملة، فمضى في طريقه السَّهل إلى يافا.

حين وصل إلى يافا، في الأول من نيسان، لم يكن جيش محمد أبو الذهب بحاجة ملحّة لخوض معركة! كان بحاجة لأخذ قسط من الرّاحة بين أشجار البرتقال والتوت والرّمان، وبالقرب من نواعير مياه يافا العذبة، وعلى شاطئ بحرها الأكثر صفاء من أي بحر رآه أبو الذهب من قبل.

أما السفن التي وصلت قبله، فكانت في انتظار وصول إشارة منه لكي تبدأ بإنزال ما عليها من مدافع ومعدّات.

على مسافة مائتي خطوة من أسوار يافا، نصب أبو الذهب ثمانية من مدافعه في مكان مرتفع بين بيارات البرتقال، وأعطى أمره بقصف المدينة. أما هو فراح يُمضي أجمل لياليه في صوانه الملكي مستمتعًا بكل شيء، كما لو أنه لم يغادر قصره في القاهرة: فهناك العازفون والمغنّون وخيرة الزمّارين والرّاقصين والرّاقصات والجواري أيضا، وهناك السناجق وروبنسون الذين كانوا مثله أسرى اليقين الذي سكنهم حول يافا التي ستسقط بعد يومين أو ثلاثة على الأكثر!

***

أحس كريم الأيوب بأنه يخوض آخر معاركه وحيدًا أمام جيش لم ير من قبل مثله. نظم جنوده، بحيث يقاتلون أفواجًا فوق الأسوار؛ يستريح بعضه ويقاتل بعضه آخر.

لم يكن يملك سوى أن يجعل نصر أبو الذهب صعبًا.

ببنادقهم وسيوفهم وسهامهم، وبالمدافع النحاسية التي لم تكن قذائفها قادرة على بلوغ مدافع أبو الذهب، وقف أولئك الرجال يحاربون ليلة بعد أخرى.

***

لم يجد ظاهر من وسيلة لإنقاذ يافا وحيفا وعكا وبقية البلاد، سوى أن يخرج بنفسه إلى حلفائه ليدعوهم للانضمام إليه، لكنه عاد مكسورًا لأنه فوجئ بأن ابنه عليّ سبقه واستمالهم إلى جانبه، بعد أن حذّرهم من مغبّة الانضمام إلى ظاهر.

- هذا عجوز قد بلغ الخامسة والثمانين، فأيّ عظام هرمة تلك التي ستحالفونها؟! أنتم تعرفون قوّتي، وقدرتي، وها هو أخي سْعيد انضمّ إليّ، كما أن عثمان، لن يكون مع العجوز إن لم يكن معي، والدّولة سئمت منه وستسلمني البلاد فور حصولها على رأسه، وها هي ترسل ستين ألفا لمحاربته، فماذا تريدون أكثر من هذا؟!

كانت تلك هي الكلمات التي يقولها علي الظاهر لكل أمير أو شيخ أو والٍ يقابله.

***

بعد الليلة الأولى من الأسبوع الثالث، كان صوان أبو الذهب قد سكنه صمت القبور، وقد اختفت كل علامات الفرح وليالي السّهر والسّرور. وقد بات الشكّ في الحملة يراوده، فطرد روبنسون، الذي وجده يخوّض في طين حصار يافا دون فائدة: *" إذا كانت هذه المدينة الصغيرة قد استطاعت الوقوف في وجهي ثلاثة أسابيع، فكم أسبوعًا ستصمد حيفا، ومن بعدها عكا، ومن بعدها..!"*

طلب أبو الذهب من علي الظاهر أن يأتي ليقابله في يافا.

لم يأت عليّ، فقد كان الخوف هو ما يحدّد عدد الخطوات التي يمكن أن يخطوها كل طرف في هذه الحرب، لا الوعود!

أرسل عليّ ابنه الحسين، ومعه ثمانية جياد هدية إلى محمد أبو الذهب.

قَبِلَ الهدية، ورحب بالفتى الحسين وحمّله الكثير من الهدايا، له ولأبيه.

بعد ثمانية وأربعين يومًا، قرر أبو الذهب أن يُغير مسار الحرب! أرسل مَن يحمل راية بيضاء نحو باب المدينة، فُتح الباب، ودخل. كانت الرّسالة التي يحملها الرسول تطلب من أهل المدينة الاستسلام مقابل الحفاظ على حياتهم.

رفض كريم الأيوب العرض، وقال للرسول: هذه المدينة التي صمدت في وجوهكم كل هذه المدّة لن تسير على جبينها لتخرج إليكم مُستلمة.

تلك الليلة توقّف القصفُ تمامًا، بحيث استطاع أهل المدينة أن يناموا أطول لياليهم منذ بدء الحصار، لكن الخوف كان الغطاء الذي يتدثّر به كلّ واحد منهم.

فوجئ كريم الأيوب بباب المدينة يُفتح، والفرسان المغاربة يغادرونها باتجاه معسكر أبو الذهب، وقبل أن يتمكّن من إغلاق الأبواب من جديد، كان فرسان الجيش المحاصِر يدخلون المدينة في أفواج كبيرة لم تعد البنادق والمدافع النحاسية قادرة على وقف زحفها.

بأربعة عشر ألف قرش، دُفعت رشوة للحراس الذين فقدوا الأمل بوصول أيّ نجدة من الشمال، سقطت يافا في أقلّ من ساعتين.

كان أول شيء فعله الجنود هو إعطاء الأمان لأهل يافا، فدمهم ورزْقهم وماهم حرام لا يمسّه أحد!

اطمأن أهل المدينة، ولزموا بيوتهم. غابت شمس اليوم الأول وأطلّت شمس اليوم التالي، دون أن يوقف الجيش بحثه عن الجنود الفارّين والجرحى، وعلى رأسهم كريم الأيوب، الذي ظلّ يقاتل حتى اللحظة الأخيرة.

قبل الظهر، طاف عدد من الجنود يدعون الناس للتجمّع خارج السّور. فلما اجتمعوا، فوجئوا بالجنود يوثقونهم بالحبال والسّلاسل ويوقفونهم في صف طويل، في الوقت الذي أحضر فيه عدد من الجنود كرسيًّا أحمرَ مخمليًّا جلس عليه أبو الذهب. وعلى جانبيه اصطفّت المدافع التي كساها بالمخمل الأحمر أيضًا، احتفاء بانتصاره!

حين رفع يده وأنزلها، راحت الرؤوس تتطاير في كلِّ اتجاه حتى آخر إنسان في المدينة، فكل من في المدينة كانوا أعداء: المسلم والنصراني واليهودي والعالِم والجاهل والصغير والكبير. وفعل الشيء نفسه بالجرحى والأسرى. وسبى النساء والأطفال. ولم يكن لمشهد الموت أن يكتمل، إلا بإصدار أمره التالي، الذي هبَّ جنوده لتنفيذه؛ حيث قاموا ببناء عدة أبراج من الرؤوس، ولم يكن ذلك صعبًا مع وجود سبعة آلاف رأس تُشرع عيونها دون جدوى، محاولةً أن تعرف ما يدور بعد فوات الأوان!

أما كريم فقد عُثر عليه جريحا في أحد البيوت، لكن أبو الذهب لم يأمر بقتله. وحين توجّه إلى عكا، أمر بأن يُحمَل إلى الرّملة ليتمّ علاجه هناك!

***

قبل وصول أبو الذهب إلى عكا، وصل عليّ الظاهر على رأس جيش كبير من قواته وقوات حلفاء ظاهر الذين تخلّوا عنه.

أرسل عليّ إلى أبيه أن يغادر المدينة، لأنه لا يريد أن يرى رأسه مقطوعًا تحت قدمي أبو الذهب! ففي النهاية هو أبوه! ولن يرضيه أن يحدث له هذا!

وحيدًا وجد ظاهر نفسه، ليس أمامه سوى مغادرة المدينة، دون أن يعرف أي جهة تلك التي يمكن أن تفتح أبوابها لتستقبله، وخلْفه ستون ألف جندي يطاردونه بدعم من أولاده.

في تلك اللحظة التي كان ظاهر يغادر فيها المدينة ومعه نجمة وعيشة والصبّاغ وكل أولئك الذين يخشى عليهم من انتقام أبو الذهب، كان عليّ يدخلها ويستولي عليها، وينهب كل ما فيها، ولم يسلَم من ذلك خان الإفرنج وأموال الفرنسيين وسواهم.

لكن تلك النهاية كانت أقلَّ من أن تكون مكتملة، وهي محاصرة بكثير من النقصان!

السيف والرّعب والأقفاص الفارهة!

دبَّ الذّعر، ما إن وصلت أخبار مذبحة يافا، ففرّ الناس تاركين قراهم ومدنهم صوب الجبال والحقول، ولم تستطع حتى المدن الكبيرة من أن تظلَّ واقفة على قدميها، فأقفرت شوارع حيفا وعكا وصيدا وصولا إلى بيروت.

ولم يكن سيف الرّعب بحاجة ليثْبت صلابته، لكن حدّة قطْعه أصبحت أشدّ بخروج علي الظاهر من عكا، بعد وصول رسول من أبو الذهب حاملا إليه رسالة من عدة كلمات، كانت بمثابة أمر: عليك أن تخرج من عكا في الحال، وإلا دمّرتها فوق رأسك، فلهذه المدينة سيدٌ واحدٌ، هو ذلك القادم لتسلُّمها!

من قرية السميرية حتى نهر النعامين، انتشر جيش أبو الذهب، مُغلقًا الطريق أمام أيّ نسمة هواء يمكن أن تصل المدينة عبر البرّ. وبعد أيام، قرر أن يتجوّل في عكا.

لم تكن هناك سوى رياح البحر، تهبّ فترتدّ عن الأسوار والبيوت التي أحكم أصحابها إغلاقها وحملوا مفاتيحها وابتعدوا.

ساعات قليلة أمضاها فيها، لكنه لم يستطع أن يكون سعيدًا وهو يطلق ابتساماته وتعليقاته الحادّة عن تلك المدينة التي لا تهاب البحر!

- لم يعرفوا أنها تهاب البّر! وأطلق ضحكة عالية. التفت إلى من معه، أدرك أنهم لم يسمعوا بذلك القول الذي تحوّل إلى مَثَل.

فكّر أبو الذهب في دخوله عكا، فلم يعرف أيطلق عليه نصرًا أم لا! فقد وجدها خالية لأن الرّعب دخلها قبله، وبلا علي الظاهر لأن خيانته لعليّ دخلتها قبله! لكن الشيء الذي كان يُفرحه: أنه لم يكن مضطرًّا لحصارها كما حاصر يافا.

حين وصل باب السراي، رفع يده، معطيًا الأمر لجنوده بأن ينهبوا المدينة. ولما وصل إلى صوانه، أعطى أمرًا لمراكبه بالتوجّه إلى صيدا واحتلالها؛ ورسولا إلى علي الظاهر، في دير حنا، للقدوم للقائه، وليس في نيته سوى أمر واحد: قتْله.

لم يستجب علي الظاهر، فتحرّكت قوة إلى دير حنا واحتلّتها، وأخرى إلى صفد واحتلّتها، وتحوّل الجليل بأكمله إلى ساحة مباحة للنّهب والقتل والفوضى والسبي.

أما في صيدا، فكان الدنكزلي يعيد ترتيب حياته من جديد، وهو يرى أن لا شيء قد تبقّى من ظاهر وأولاده، فها هم يُقتَلعون من البلاد واحدًا بعد الآخر بالخوف حينًا، وبالسيف حينًا آخر.

***

في الوقت الذي كان الموت يذرع فيه شوارع وطرقات البلاد من جنوبها إلى شمالها، كانت أخبار انتصارات أبو الذهب تتحوّل إلى أفراح في إسطنبول والقاهرة.

على مدى ثلاثة أيام زُيِّنت مصر وبولاق القاهرة وخارجها، وامتلأت الشوارع بالرّايات والمواكب ولم تعد الشوارع تتّسع لمرور الأغاني.

لكن ذلك كله سينطفئ فجأة!

أما أبو الذهب فبدا أنه ليس بحاجة لشيء سوى الوقت. قرر ألا يضيّعه. فأرسل رسولا إلى الباب العالي مطالبًا بأن تعيّنه الدولة أميرًا على الشام ومصر. فلم تتردّد الدولة! وكعلامة على حُسن نيّتها، منحت رسوله رتبةَ وزير مع لقب باشا. لكنها في الوقت نفسه، أرسلت قبطان باشي[1] حسن باشا الجزائري على رأس قوة بحرية لاستلام البلاد من أبو الذهب!

***

اختفت أخبار ظاهر. كان الخوف على حياته، ومن تقديم الحماية له يطوف المدن والقرى باحثًا عن طرف خيط يتيح للجيش الزّاحف فرصة التخلّص منه. في حين أرسل الدّنكزلي إلى السّفن التي رست في مياه صيدا طالبا التفاوض معها!

..ولم يكن ذلك كلّه كافيا ليشعر أبو الذهب بأنه انتصر. دعا كل المشايخ والأمراء للقدوم لتهنئته في عكا؛ فلم يجرؤ أحد على التخلّف، حتى حليف ظاهر ناصيف النصار زعيم المتاولة، وأحمد الدّنكزلي الذي كتب له أبو الذهب: قبل أن تفاوضني عليك أن تهنئني! فأتى تاركًا صيدا خلْفه تتخبّط في مصيرها الدّامي.

كل من أتى مهنئًا، فوجئ بأن أبو الذهب احتجزه! إذ لم يسمح لأحد ممن قدموا بالمغادرة. كان عثمان الظاهر على وشك القدوم، فرسائله إلى أبو الذهب لم

[1] – قبطان باشي تعني: أمير البحر.

تنقطع. ووصل به الأمر إلى حدٍّ قيامه بحلْق لحيته وتحويلها إلى عثنون يشبه عثنون أبو الذهب كما رآه آخر مرة في دمشق! لكنه حين علِم بأن من يصل لا يغادر، اكتفى بالرّسائل وسيلة لإظهار حسن نيته واستعداده لتقديم ما يحتاجه أبو الذهب وجيشه.

في ذلك الليل الذي امتدّ مبتلعًا ضوء النهار، بدأ المهنئون يفكّرون في وسيلة للهرب وقد وجدوا أنفسهم داخل تلك الأقفاص الفارهة التي أعدّت لاستقبالهم!

الرّياح تغير مجراها

لا تشبه البدايات شيئا مثلما تشبه صعود الجبل، أما النهايات فلا تشبه شيئا مثلما تشبه التّدحرج عنه!

لم يستطع أحد أن يفهم ما يدور، لقد رأوا أبو الذهب هناك عاليا فوق أبراج الجماجم، وفجأة انتشر ذلك الخبر الذي بدا كطُرفة مسموعة مئات المرات: إنه مريض!

لم يبتهج الناس، لأنهم لم يصدِّقوا أن الذين مثله يمرضون!

سينهض ثانية، بصحة أفضل، ويواصل زحفه حتى بيروت قاطعًا كلَّ رأس يعانده!

لم يكن أبو الذهب ذلك العجوز الذي يمكن أن يحدث له شيء أكثر من أن يمرض، ثم يشفى!

بخوف انتظر الناس وصول خبر شفائه، حتى أن ظاهر عندما سمع بالأمر، لم يعلّق على مرضه الكثير، وحين قيل له: إنها الحُمَّى! أحسَّ بأنه سيتخبّط في كوابيسه السوداء قليلا، وقد لا يرى أيًّا من العيون الفارغة في أبراج الموت التي تركها خلفه! ثم يغرق في بحر عرقه وينهض من جديد.

***

لم يفزع أحد كما فزع عثمان الظاهر، حين وصلتْه فجأة أخبار مرض أبو الذهب. ولو كان أبوه أمامه لانكبَّ على قدميه مُقبِّلا، وطالبا منه أن يغفر له أخطاءه التي لم تعد تُحصى.

***

كان أبو الذهب قد أعطى فرنسيي عكا مهلة لكي يرشدوه إلى الأماكن التي يمكن أن يكون إبراهيم الصبّاغ خبأ فيها أمواله، مقابل ألا يمسّهم أي سوء.

ولم يكد يجلس في صوانه حتى وصلته أخبار الوشاة التي تقول إن نصارى الجليل يقومون بحج سنويٍّ إلى مزار في جبل الكرمل يسمونه مزار سيدنا إلياس

وقد أقاموا كنيسة فوقه أسموها مار إلياس ، وهم يقدّمون له الهدايا والنذور. وفوق ذلك فإن للمزار قبة عظيمة!

غضب أبو الذهب وراح يُرغي ويزبد:

- هذا غير جائز! كيف يكون للنّصارى قبّة في بلاد الإسلام؟! صرخ، وأعطى أمرًا بهدمها!

***

شاعت في عكا وما حولها أخبار توجّه قوة لهدْم قبة الكنسية، ووصلت إلى مسامع خادم مزار الخضر المجاور للكنسية، والذي يؤمه المسلمون من كل أنحاء البلاد؛ فراح يُسابق الزمن كي يصل إلى عكا ويقابل أبو الذهب قبل هدم الكنيسة.

لم يكن قد وصل إلى عكا، حين بدأ مئات الجنود الذين اعتلوا الكنيسة عملهم، غير عابئين بعويل الناس، وتوسّلاتهم، التي لم تجد جوابًا سوى أصوات المعاول التي راحت تنقضّ على القبّة بصورة أشدّ.

- أرجوك أيها الأمير، هذا مقام مقدّس عند المسيحيين وقريب إلى قلوب المسلمين، وهذا المزار ملجأ للفقراء والمساكين، والمقام كنيسة قديمة، ونحن لم نسمع من قبل أن أحدًا قام بهدم بناء بناه الأولون؛ فبالله عليك لا تفعل ذلك.

لم يكد خادم مزار الخضر يُتمّ كلامه، حتى دخل أحد قادة أبو الذهب ليخبره بأن هدم القبة قد تـمّ. فأطرق خادم المزار محاولا لجم دموعه.

- أكمل أيها الشيخ، أكمل؟!

- وهل بقي شيء يقال بعد هذا أيها الأمير، وقد قال تعالى عزَّ وجل: (قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) صدق الله العظيم. أرجو أن تسمح لي بالعودة أطال الله عمرك!

أشار أبو الذهب لأعوانه أن يكرِّموا خادم المزار، فاصطحبوه معهم إلى الخيام المجاورة، وبدأوا يجهزون له الهدايا وهو يحدّق فيها، وحينما انتهوا: سألهم ما هذا؟!

- هدية مولانا إليك!

- فلتشكروا الأمير. جئت إلى هنا لأمنع وقوع أمر عظيم، لا لأحصل على هدية.

***

المهنئون المُحتجَزون، كانوا يدورون حول أنفسهم كوحوش وجدت نفسها في قفص.

- نستطيع الهرب. قال الدّنكزلي لناصيف النّصار.

- الهرب؟! إلى أين. كل مكان يمكن أن نلتجئ إليه، سبقنا بجنده ووصله قبلنا.

- لكنه مريض؟

- لكن عيون بنادق جنده معافاة!

- لا تنظر إلى عيون بنادق جنوده، أنظر إلى عيون الباشاوات والبكوات الذين حوله.

- لا أحب أن أموت هاربًا، حتى لو كنت أهرب من الأسر!

***

في داخل الصوان، لم يكن الأمر مختلفًا عما يدور في الخارج، فليس هناك سوى ملك وحيد احتلّ العيون وتسلل عميقًا نحو كل نبضة قلب: الخوف. أما وجه محمد أبو الذهب نفسه، فكان يتقلّص وينبسط في حركات سريعة، ويتفصّد جبينه بعرق له رائحة لم يشمّ أحد مثلها من قبل.

في منتصف الليلة السابعة اعتدل في فراشه وهو يصرخ: أبعدوهم من أمامي، لا أريد أن أراهم، أبعدوهم! كيف استطاعوا الوصول إلى هنا كيف؟! اقطعوا أرجلهم، أيديهم، رؤوسهم مرّة أخرى! أحرقوهم! ثم اندفع متأرجحًا وإبهاماه وسبابتاه على شكل دائرة، كما لو أن يريد خنق أحد! فتراجع طبيبه وبعض كبار ضباطه بخوف عن طريقه، وقبل أن يصل إلى منتصف الصوان، وقف فجأة، وسأل: ما الذي أتي بي إلى هنا؟! وسقط مثل حجر.

- مات؟! سأل الطبيب بجزع.

فصرخ إسماعيل بيك في وجهه: أنت الذي تخبرنا بهذا، لا نحن الذين نخبرك!

انحنى الطبيب يجسّ نبضه. أدرك أنه مات، ولكنه خاف أن ينطقها. أحسَّ أنه قد يعود للحياة فجأة، بعد لحظة، ويسمعه وهو يقولها فيأمر بقتله!

- ماذا؟ هل مات؟!

- ربما!

أدرك إسماعيل بيك أن الطبيب ليس هو الخائف الوحيد في ذلك الليل تحت قبة الصوان. وبفطنته فهِمَ أن الطبيب قال أفضل كلمة صدرت عنه في حياته!

اقترب إسماعيل بيك جسّ نبضه، فأعطى أمره: أغلقوا الصوان. وراح يفكّر بسرعة[1].

كان على يقين من أن انتشار خبر موته سيمزّق الجيش فورًا، وأن دفنه في أرض فلسطين، لا يمكن أن يحدث أبدًا، بعد كل ما فعل.

استدعى كبار قادة الجند وأمرهم أن يُنظِّموا فرقهم، لأنهم سيعودون إلى الجنوب ثانية، وأسرّ لبعضهم بموت أبو الذهب.

لم يكن مثل ذاك الخبر صغيرًا بحيث يُخبأ. بسرعة انتشر؛ نشرته تلك الفوضى التي راحت تتصاعد، وأحسّ بها أول مَن أحسّ الدّنكزلي وناصيف النصار، ولم يكد الفجر يتفتّح حتى كانا ومن معهما قد فروا مُبتعدين.

***

كانت المشكلة الكبرى: كيف يمكن أن يحملوا جثته من عكا إلى مصر؟! فلم يجدوا وسيلة أفضل من إفراغها وتحنيطها.

في صباح العاشر من حزيران عام 1775، بدأ الجيش انسحابه عائدًا من حيث أتى، جسدًا عملاقًا بلا رأس. لكنه تباطأ قليلا على مشارف الرّملة، حيث كريم الأيوب يقبع في الأسر جريحًا.

وكما لو أن الحملة التي بدأت بقطع سبعة آلاف رأس، ما كان يمكن أن تكتمل إلا بقطع رأس آخر.

قطعوا رأس كريم..

---

[1] - هناك رواية أخرى تقول إن ظاهر دفع خمسة آلاف قرش لأحد رجال أبو الذهب ليدس له السمَّ الذي قتله. ويستند هؤلاء إلى ذلك القول الذي نُقل عن ظاهر: لا يمكن أن تعيش في عصر ولا تُبتَلى بآفاته، فالعصر كالنهر، لا بدّ لك من أن تخوّض فيه، ولا بد للوباء أن يصيبك ما دام انتشر إلى ذلك الحد، لكن شرفك يفرض عليك التخلّص من هذا الوباء لتعود إنسانا بسرعة، كي لا تتحول نفسك إلى وباء!

سلّة الرّؤوس

حين وصل خبر موت أبو الذهب إلى ظاهر، عادت له ابتسامته من جديد، لكنه تمهّل قليلا ليتأكد من الخبر، حتى لا يكون خدعة، مثل تلك التي وقع فيها علي بيك في الصّالحية!

عند المساء وصل ناصيف النصار. عانق ظاهر، وأكّد له خبر موت أبو الذهب.

عاد ظاهر واحتضنه، وهمس له: كنتَ على حق!

كان ظاهر قد التجأ إلى (هونين) في بلاد المتاولة، لكنه كان يعرف أن محمد أبو الذهب، سيبحث عنه أول ما يبحث في بلاد حلفائه، وأولهم المتاولة.

لكن الأرض كانت قد ضاقت، بحيث لم يبق هناك من رجل يثق فيه أكثر من ناصيف النصار. عانقه ناصيف، دون أن يُبدي أيّ تردّد في مسألة استقباله.

- هل رآك أحد تصل إلى هنا يا شيخ؟!

- لا أظن، فقد حرصنا على أن نصل فُرادى حتى لا نلفت انتباه أحد.

- هذا أمر جيد، ولذا عليّ أن أتحرّك بسرعة أيضًا حتى لا ألفت انتباه أبو الذهب. قال ناصيف.

- ما الذي ستفعله؟

- سأذهب لتهنئته بدخوله يافا وعكا!

- ماذا؟!

- هذه هي الطريقة الوحيدة يا شيخ لحمايتك!

- سيكتبون غدا أنك خنتَ نفسك وخنتَ ظاهر بذهابك هذا!

- لا عليك يا شيخ، إذا كنتُ أحميك، فليكتبوا ما يريدون!

رفعت نجمة رأسها، وابتسمت، فبدتْ تحت ضوء الشمس الذاهب إلى المغيب في نصف عمرها: دَعه يذهب يا شيخ، دعه يذهب! التفت ظاهر إليها، كانت تجلس مطمئنة تحوك قميصًا، كما كان رآها قديما في طبرية، ورآها في عكا. كم عاتبها: أتصلحين قميصك بنفسك؟! دعي واحدة غيرك تصلحه!

- يا ظاهر، هناك أشياء لا أترك الآخرين يفعلونها، لأنني أحب أن أفعلها بنفسي. أتحبّ أن يمشي غيرك مكانك لأنك مُتعَب، أو لأنه أسرع؟!

***

بحث الدّنكزلي حوله برعب. أشياء كثيرة كان عليه أن يصلحها بسرعة، قبل وصول ظاهر إلى عكا أو وصول عليّ. كان وصول عليّ يعني موته على الفور، فهو لن يسامحه بسبب وقوفه الدائم مع الشيخ وحروبه التي شنّها بأمر منه على كلّ قلعة تحصّن فيها عليّ وجيشه. ولم تكن هناك حجَّة يمكن أن يثبت فيها الدنكزلي ولاءه للشيخ أفضل من السيطرة على عكا، وتسليمها له من جديد!

استطاع بسرعة أن يجمع ألفًا من عساكره، ودخل المدينة. لكن جيشه الصغير هذا انقسم بعد يومين. قسم وقف إلى جانب ظاهر، وقسم إلى جانب عليّ. ولم تلبث المدينة أن أصبحت نصفين، وقد تمترس كلّ فريق في جانب، داخل أسوارها، يطلقون النار على بعضهم بعضا، وكلّ يُمنِّي النّفس بوصول قائده على رأس قوة مساندة، قبل الآخر. وحين صاح الناس يعلنون بفرح وصول ظاهر، ألقى عبد الله الواوي المناصر لعليّ الظاهر سلاحه على الفور، معلنًا استسلامه واستسلام جنوده!

***

في ظهيرة حزيرانية ملتهبة، بعد عشرة أيام من رحيل جيش أبو الذهب، وصل ظاهر، وكم كانت المدينة مختلفة، كم كانت مدمّرة، كما لو أن عدة زلازل وأعاصير ضربتها. ولو لم ير أسوارها العالية شامخة كما تركها، لظنّ أنه يدخل مدينة أخرى.

لم يكن هناك من هو أكثر فرحًا بعودة ظاهر من الدّنكزلي، الذي ظلَّ لأيام يتحسس رأسه ليطمئن أنه لم يزل فوق كتفيه. لكن ذلك لم يكن سبب فرحه الوحيد، مع أن بقاء رأس المرء فوق كتفيه، لا يمكن أن يعادله شيء!

على ظهر حصانه كان ظاهر. رآه الدنكزلي، فراح يركض نحوه. أمسك بيده قبل عبوره البوابة، وقبّلها عدّة مرات! أحس ظاهر بطعنة ما، وبأن الدّم قد تدفّق من ظاهر يده. وفي تلك اللحظة، تأكّدت للشيخ مخاوفه كلّها!

كانت المرة الأولى التي يفعل الدنكزلي فيها أمرًا كهذا. أبعده ظاهر برفق، فتراجع الدّنكزلي خطوات قليلة، وفوجئ بنجمة تحدّق إليه، وسمع صوتها القادم من بعيد: ألديك كلام تقوله في زيت قنديل الشيخ؟!

ووجد نفسه، دون أن يدري يجيب: أنا؟! لا، لا! ويتجمّد في مكانه. وحين هرب بعينيه بعيدا عن نجمة، وجد نفسه وجها لوجه مع تلك الجارية الجميلة التي لم يكن بحاجة لأن يقول له أحدٌ من هي، فتجمّد أكثر.

***

في ذلك المساء جمع ظاهر، رغم التّعب الذي أصابه طوال فترة اختفائه، كل رجال عكا المقرّبين منه، والذين سبقوه بأيام إليها.

بدأ الدّنكزلي يتحدّث ويتحدّث دون توقّف، وظاهر يهز رأسه. يتحدّث عن صيدا وحصارها وعن أسْره وحمْله رغما عنه لتهنئة أبو الذهب! وعن هربه حين مات، وقراره تجميع الجيش من جديد ودخول عكا قبل علي الظاهر. وحين انتهى، كان ظاهر لم يزل يهزّ رأسه.

بعد خروج الدّنكزلي والقاضي والمفتي، سأله الصبّاغ: أصدَّقتَ كلمة من كلامه.

- بالطبع يا إبراهيم، بالطبع، فلم يبق لي سواه الآن!

***

تناست الدّولة أمر العفو السلطاني عن ظاهر، وقد رأته يترنّح تحت ضربات أبو الذهب، حتى بعد موته! فعليّ الظاهر جليف أبو الذهب يتربّص بأبيه، وعثمان، الذي راسل من سراياه في شفاعمرو أبو الذهب، عاد ليراسل الدولة مباشرة ويقطع لها العهود. ولم يكن هناك امتحان مستحيل لدى الدولة، أفضل من مطالبة ظاهر بدفع مال الميري الذي رفض دفعه على مدى سبع سنوات!

كانت الدولة على ثقة بأنه لن يدفع، لأنه لم يعد يملك شيئًا.

بسرعة راح ظاهر يرمِّم، ويحصّن، ويجمع المدافع، وينصبها فوق الأسوار، ما إن وصلته أخبار تحريك الدولة لجيش كبير سيهاجم عكا برا[1]، إضافة لقرب وصول أسطول حسن باشا الجزائري، الذي لم يكن يحمل في يده سوى فرمان سلطاني واحد: اقطع رأس ظاهر ورؤوس أبنائه وذريتهم، وعد بها إلى إسطنبول!

---

[1] - وضعت الدولة على رأس هذا الجيش ثلاثة وزراء، هم وزراء دمشق والقدس وأضنه، وأحمد باشا الجزار محافظ السواحل، الذي رفض أن يستسلم بعد معركة بيروت، التي كان يحكمها، إلا لظاهر، ولكنه خان ظاهر فيها بعد وهرب إلى دمشق لينضمّ إلى وزيرها.

العدوُّ.. والصديق

كان الموج الذي يتدافع داخل عكا، بين أسوارها وشوارعها وأزقّتها، أشدّ بكثير من موج آب الذي يضرب الأسوار بوهن، كما لو أنه مصاب بضربة شمس!

جمع ظاهر كل ما يستطيعه من سلاح ورجال من خارج عكا لتعزيز تحصيناتها، وطارت رسائله في الأنحاء تدعو حلفاءه لنصرته. كان ناصيف النصار أول الحاضرين، أما أولاده والبقية الباقية، فقد تعاملوا مع الأمر كما لو أن الرّسائل لم تصلْهم.

جمع ظاهر الصبّاغ والدّنكزلي وناصيف النصار وقاضي عكا ومفتيها، طالبا منهم المشورة.

- سنعرض على حسن باشا الجزائري أن ندفع له مال الميري، وإذا لم يوافق، سنكون ساعتها جاهزين لقتاله. قال ناصيف النصار.

لم يرض الصبّاغ بالحلّ: من أين ندفع له، وليس في خزينة الدولة قرش واحد؟! إذا أراد أخذ عكا بالقوة فأهلا به، فلدينا مدافع تكفي لردّه، وجنود قادرون على منْعه من النزول إلى البرّ.

- لن نستطيع فعل شيء، فهناك ثلاث عشرة سفينة كبيرة، وقد رأيتها بعيني حينما وصلتْ إلى صيدا. لن تستطيع عكا الصمود أمامها! كل ما أريده شيء من المال لاسترضاء حسن باشا، حتى إذا ما عاد إلى إسطنبول عاد بشيء يُرضي به الدولة! قال الدنكزلي.

- قلت لك، إننا لا نملك قرشًا واحدًا في خزائننا، وأنت تعرف أن حسن باشا لن يقبل بأقل من ألفي كيس! ردّ الصبّاغ بغضب.

جلس ظاهر يراقب الحوار صامتا، فسأله نصيف النصار: ماذا تقول يا شيخ؟

- إنني أستمع. أكملوا!

- تعرف يا شيخ أن خدمك! يستطيعون جمع هذا المبلغ. قال الدنكزلي وهو ينظر إلى الصبّاغ.

- بالنسبة لي اليوم، ليس هنالك من هو أفقر مني! ويعرف الشّيخ أن أموالي ضاعت كلّها، في ذلك اليوم الذي أقرضتُ فيه علي بيك لتمويل حملة مصر، وقد ذهب علي بيك وذهب مالي معه. ردّ الصباغ.

- أنت تقول هذا، والجميع يعرف أنك في السنوات الأربع عشرة الأخيرة كنت ولا تزال تكتنز الأموال الوفيرة؟! من يجهل أنك خلال حرب أبو الذهب نهبت بلاد غزة وحملت حبوبها، وتركت يافا الذبيحة بلا ضرورات الحياة؟!

- لو كان ما تقوله صحيحًا، لما وقفت يافا في وجه أبو الذهب تقاتله تسعة وأربعين يومًا. وها أنا أقولها: إن عكا ستقاتل أضعاف ذلك!

كان ظاهر على يقين من أن آخر ما تريده الدّولة هو مال الميري، ولذلك طلب من الدّنكزلي السّكوت. فخرج الدّنكزلي غاضبًا.

***

قبل أن يُرسل ظاهر رسولا إلى حسن باشا، استيقظتْ عكا، فإذا بثلاث عشرة سفينة في مياهها.

طاف ظاهر على الأبراج والأسوار آمرًا عساكره بإطلاق النيران، تباطأوا في البداية! وحين صرخ فيهم، استجابوا، وقد رأوا عينيه المشتعلتين بالغضب. لكنهم بدل أن يطلقوا النار ويصيبوا، أطلقوا النار بعيدًا عن السّفن، فسقطت في المياه دون أن تُصاب أيّ سفينة منها.

بسرعة تراجعت السفن بعيدًا عن مرمى النيران.

في ذلك البحر الهادئ، وتحت شمس آب المشتعلة، كان القلق يزداد، فالجيش الذي وعدت الدولة بإرساله لحصار عكا من البرّ، لم يصل بعد، ولم يكن حسن باشا مستعدًا لخوض المعركة وحده، حتى لا يقال، إذا ما انكسر: إن ذلك قد حدث لأنه كان يريد النّصر كلّه له، وها هو يحظى بالهزيمة كاملة!

انتَظَر..

***

في ذلك الليل الصامت كجثة تتحلّل، دخل ظاهر السّراي فوجد نجمة وعيشة ساهرتين. لم ينتظر أن توجّها إليه أي أسئلة حول ما يدور، فقال: إذا أردتما الخروج غدا من عكا فلن أمنعكما؟!

وصمت.

كان قد أمر بإخلاء المدينة من النساء والأطفال والشيوخ، فما حدث في يافا تحوّل إلى درس كبير، لم يلبث أن تحوّل إلى كابوس.

- حتى لو لم يبق في عكا أحد غيرك، فأنا باقية يا شيخ، أم أنك تظن أن الأم يمكن أن تترك ابنها خلْفها في أيام كهذه؟! ثم قالت تلك الجملة التي كان ينتظرها ليعثر على ابتسامة، ولو مختلسة في ذلك الظلام: ثم ها أنت تراني؛ كم بقي لي من عُمْر؟! لا أظنك تعتقد أنني سأعيش حتى السبعين؟!

- وأنت يا عيشة؟

- يا شيخ، لن أترك بيتا عشت فيه حرة لأرحل إلى بيت أعيش فيه جارية!

بين ابتسامة ملأت قلبه بما قالته نجمة، وغصّة سكنت حلقه وهو يستمع بتأثر لما قالته عيشة، استدار متمنيا لهما ليلة جميلة، وخرج.

***

نامت نجمة أخيرًا، نامت منهكة، وقُبالتها على السرير الآخر نامت عيشة. لم يكن قد مرَّ الكثير من الوقت، حين سمعت نجمة أصواتا غريبة تحت الشباك، نهضت، وسارت نحو عيشة تحاول إيقاظها، لم تستيقظ، هزّتها ثانية وثالثة، لكنها لم تستيقظ، عادت ونظرت عبر الشباك، فرأت أولئك الجنود المسلحين يتهامسون، ويسيرون نحو الباب، وفي البعيد رأت جثث بعض الحراس. تركت عيشة، وراحت تعدو في الممرّ الطويل نحو غرفة ظاهر، فتحتْها ودخلتْ، حاولتْ أن توقظه، لكنها لم تستطع! كان الوقت يمرّ بسرعة جنونية. أصوات الجنود تقترب، خطوات الموت تقترب، وهو نائم! هزّته ثانية وثالثة، وحيّرها أن الناس لم تعد تستيقظ! تلفّتتْ حولها، لكنها لم تجد في النهاية سوى يديها، انحنتْ وحشرتهما تحت جسده النحيل. كانت على يقين من أنها لن تستطيع حمْله، لكن شيئا غامضًا دفعها لكي تحاول. وحاولت. وكم كانت دهشتها كبيرة حين رفعته بيسر! حين ضمّته! سارت به نحو الباب وخرجت! كان خفيفًا مثل ريشة بين يديها. صعدت أدراجًا، ثم راحت تهبط حتى وصلت إلى باب لم تكن، هي نفسها، قد رأته من قبل! دفعتْه بقدمها فانفتح بيسر. دخلت، وأغلقته خلْفها بقدمها أيضًا. كان الظلام حالكًا، فراحت تتحسّس بقدميها طريقها. اصطدمت قدمها اليمنى بشيء ما، وبعد قليل أدركت أنه صندوق أو سرير، مالت ووضعت ظاهر فوقه، وبمجرد أن رفعت ظهرها، بهرها ضوء حاد فرأت نفسها محاطة بالجنود.

صرخت. فهبّت عيشة من نومها فزعة وهي تردّد: بسم الله الرحمن الرحيم، بسم الله الرحمن الرحيم. وتمسّد شعر نجمة وجبينها!

***

في الصباح راقبت نجمة ظاهر وهو يخرج من السّراي وحوله عدد من جنوده، فوق ذلك الحصان الأبيض؛ أخفت وجهها، كما لو أنها تمحو ما رأته، وحين رفعته، كانت عيشة قد أتت وجلست إلى جانبها.

فوجئ ظاهر حينما وصل الديوان بأن الصبّاغ لم يعد يعارض إرسال بعض المال لإرضاء حسن باشا! لكنه كان مصرًّا على شيء واحد: علينا أن نجمع المال من كل من يستطيع دون أن نرهق الناس بما نطلبه منهم! فالزمن زمن حرب، وفي هذه الأزمنة لا يُطمئن الناس شيء مثل مناعة أسوارهم؛ والمال الموجود في جيوبهم، إذا ما حدث لا سمح الله لبلادهم مكروه!

لم يعترض ظاهر، وبدا الدّنكزلي في غاية السعادة وهو يسمع ذلك، حتى أنه نهض وعانق الصبّاغ الذي قابله بفتور، واعتذر عن كلِّ ما بدر منه من كلام قبيح بحقه.

هزّ الصبّاغ رأسه، وهو يرى ظاهر يشير إليه أن يبادله العناق، فرفع يديه بتهاوت وربّت على ظهر الدّنكزلي.

***

عاد حسين أفندي، رسول ظاهر، ووجهه طافح بالفرح من مهمته التي التقى فيها حسن باشا؛ وبسعادة تفيض من ملامحه وأصابع يديه وبقية جسده، راح يحدِّثهم عن قبول حسن باشا للعرض، ولكنه حمّله عتبه على الشيخ لأنه لم يجد شيئا يستقبله به، حين وصلت سفنه مياه عكا، سوى القذائف!

واختتم حسين أفندي كلامه: لقد وعدته أن أكون هذا المساء على ظهر سفينته حاملا ما وعدناه به: ألف كيس من مال الميري، ومائة كيس له هو، هديةً، وما يكفي بحّارته من أغنام ودَجاج وطحين وخلاف ذلك.

وقف الدّنكزلي وقال: لن يوصلها إليه أحد غيري! فهذا هو السبيل الوحيد لكي أرى بعيني مدافعه وأسلحته وجنوده، فإذا خدَعنا وأخذ المال دون أن يُنفِّذ ما عليه، نكون قد عرفْنا مدى قوته ونقاط ضعفه! كما سيكون باستطاعتي أن أعرف مدى صدقه من كذبه! وذكَّر ظاهر بذلك اليوم البعيد حين خرج بنفسه على رأس قوة أغارت على جيش سليمان باشا على ضفة طبرية.

- بل سيذهب إلى هناك حسين أفندي، فنحن جمعْنا ما جمعْناه لنُرضي حسن باشا، لا لكي نتجسس عليه، هذا إذا كنا سنفعل ذلك حقا!

- ما الذي تعنيه يا صبّاغ؟! صرخ أحمد الدّنكزلي، وهو على وشك أن يسحب سيفه، لولا نظرة من ظاهر ألزمته حدّه.

- سيذهب الدّنكزلي يا إبراهيم. أنا موافق على هذا!

صمت إبراهيم الصبّاغ، في الوقت الذي كان فيه الدنكزلي يغادر الديوان لتجهيز ما طلبه أمير البحر، وهو يكاد ينفجر غيظًا: "كيف قبِل حسن باشا بهذا؟ كيف؟!"

راقبه إبراهيم الصبّاغ حتى اختفى، ثم التفت إلى ظاهر وقال: الدنكزلي رجل خائن يا شيخ، وسيفسد كلَّ ما أنجزه حسين أفندي!

- أنت تقول ذلك لأنك تبغضه يا إبراهيم. أنا لا أشكّ في إخلاصه، فهو بمثابة ابن لي منذ أن عرفته!

- وهَبْ أنه ولدك! انظر إلى أولادك، فقد خانوك وخذلوك!

- قد يخونني أولادي يا إبراهيم، لكن الدنكزلي لن يفعل هذا!

تلفّت الصبّاغ حوله، فرأى الجميع يراقبون ذلك الحوار القاسي بصمت، وعندها أمسك ظاهر بيد إبراهيم، وشدّ عليها، وهمس له: اتبعني، هنالك أمر أريدك فيه!

حين ابتعدا عن باب الديوان، صرخ ظاهر في وجهه، وهو يكتم صرخته ما استطاع: أوتظنني غُفلا يا إبراهيم لتُلقي عليَّ دروسك في حضور كل أولئك الناس. ألا تعرف أنني على علم بما قام به الدّنكزلي من خيانات؟!

- وكيف عرفت يا شيخ؟

- تردُّدُ الجند في إطاعتهم لأوامري! القذائف التي سقطت بعيدا عن السفن وقد كانت في مرماها! هذا ما أخبرني.

- وترسله للقاء حسن باشا! أنا لا أفهم هذا يا شيخ!

- لأنني أريد أن أعرف متى سيبدأ الهجوم علينا!

- وهل تتوقّع منه، وهو الخائن، أن يقول لك ذلك؟!

- لن يقول غير ذلك؟

- لا أفهم يا شيخ.

- لأنها الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن يُثبت فيها حُسنَ نيته وبراءته!

***

- أنت الدنكزلي إذن؟ سأل حسن باشا وهو ينظر صوب عكا من فوق ظهر سفينته.

- أنا هو يا باشا!

- لقد أرسلتَ إليَّ رسالة مع هذا الرُّبان، تتعهّد فيها بأنك ستسلمني عكا فور وصولي إليها، وها أنا أصِلها، فلا أجد سوى نيران مدافعك!

- ما زلت عند قولي يا باشا، أما القذائف، فأنت تعرف أنها سقطت بعيدًا عن سفنك، وكلّ هذا من تدبيري. لكنّ ما يحيّرني هو أنك وافقت على قبول المال والتقدّمات التي أرسلها ظاهر!

- نعم قبلتها.

- وهذا ما لا أفهمه يا باشا.

- اجلس، اجلس. قال حسن باشا للدّنكزلي وهو يشير إلى مقعد خشبي طويل. فجلس.

- يا أحمد، أنا لا أشك في ولائك لي، أتعرف لماذا؟ لأنك لا تملك شيئا تدافع فيه عن نفسك سوى هذا الولاء! ولذلك أطمئنك، كنت أريد أن أكسب الوقت، هذا كل ما في الأمر، فلم يكن باستطاعتي خوض حرب قبل وصول الجيوش البرية إلى عكا، ولكن هذا الأمر لم يعد مهمًّا، مع وجودك في الداخل! أفهمت؟

- فهمت يا باشا.

- الآن باستطاعتك أن تذهب.

- وماذا أقول لظاهر؟

- قل له ما تعرفه. قل له: الهجوم سيبدأ غدًا، وحسن باشا تراجع عن وعده لحسين أفندي.

- ولماذا أخبره بأمر كبير كهذا؟!

- لأنني أريده أن يتأكّد من صدقك، ولأنني لم أزل بحاجة إليك هناك وراء الأسوار، وأريد أن أعرف إلى أي مدى ستصل خيول ولائك المندفعة هذه!

***

في تلك الليلة، وقف حسَن باشا يراقب عكّا، وهو على يقين من أنها لن تعود موجودة في الغد. أعاد رسم المشهد في رأسه، فأحسّ بنشوة النصر الذي لن

يشاركه فيه أحد! بعد أن تأكد بنفسه من أن عسكر الدنكزلي في الداخل هم عسكره.

أصدر أمره بأن تتقدّم السفن نحو عكا وتدكّها. ولم يكن بحاجة لأكثر من دقائق حتى يقترب المسافة التي يحتاجها.

دوّت قذائف مدافع السفن في لحظة واحدة، فوجدت عكا نفسها تحت هول صدمة لم تتخيّلها، فعمَّت الفوضى.

كان ظاهر محاطًا برجاله المخلصين، فوق الأسوار، ينتظر تلك اللحظة التي حددها الدنكزلي. أعطى أمره بإطلاق النار، فتركه الرُّماة وحيدًا مخلّفين مدافعهم صامتةً، وهبطوا. أمسك بمدفع وراح يجهّزه ليقصف به السفن التي لم تكن أبعد بكثير من مرمى سهم، وأطلق قذيفة.. ثم أخرى. حاول رجاله مساعدته، لكن القذائف كانت تسقط بعيدًا عن السفن أو أمامها دون تأثير!

صرخ أحضروا الدنكزلي.

تحرّك خيالته لتنفيذ أمره، لكنهم عادوا وأحاطوا به يحمونه.

ثلاثة أيام تواصل القصف، وهو هنالك يتنقّل من مدفع إلى مدفع دون جدوى، بعد أن أصبح جيشه نصفين. قسَّم من معه إلى قسمين، قسْمٌ يطلق الرصاص على السفن المتقدِّمة، وقسْمٌ يحمي ظهورهم من هجمات الدّنكزلي ومن معه.

***

قبل بزوغ فجر اليوم الثالث، اقتحم الدّنكزلي سراي ظاهر، ولم يكن أمامه سوى هدف واحد: أخذ عيشة!

تساقط الجنود المدافعون عن السراي واحدًا إثر آخر، في تلك اللحظة التي يختلط فيها العدو مع الصديق فلا يعود، حتى القلب قادرًا على التمييز بينهما!

ظلّ يسير، محطمًا الأبواب كلّها، إلى أن وصل إلى غرفة عيشة. وجدها ترتعد في حضن نجمة. وضع طبنجته في رأس نجمة وهدّدها: اتركيها قبل أن أقتلكِ؟!

- وهل تظن أن أمّ ظاهر يمكن أن تقف خائفة أمام خائن؟!

أغمض عينيه، حيث أدرك أن ليس من السهل أن يقتلها وهو ينظر إليها، وضغط الزِّناد، لكن الرصاصة لم تخرج.

فتح عينيه ثانية، استل عيشة من حضنها وقذفها بعيدًا صوبَ الجنود الذين خرجوا بها بسرعة، وصرخ في وجه نجمة: ألّا تموتين أيتها العجوز؟!

- ليس قبل أن أرى أمثالك كلّهم يموتون!

تركها في مكانها وخرج.

حين نهضتْ، لم تجد غير العتمة تملأ السّراي. كل القناديل خلفهم كانت قد أُطفئت، ولم يعد لظلالهم أثر فوق الجدران!

***

وصل أحد جنود ظاهر بعد ساعة، قبل شروق الشمس بقليل، وطلب من كلِّ من في السراي أن يتخفّوا ويتبعوه، فالشيخ في انتظارهم عند البوابة البرية.

على عجل تحرّكت نجمة وكلّ من يعملون في البيت من رجال ونساء. وصلوا باب المدينة. وجدوا الدّنكزلي يحاصر ظاهر، لكن فرسان ظاهر كانوا يحمونه، وقد وضعوه في المنتصف. وعلى بعد أمتار منه عرفت نجمةُ الصبّاغَ والقاضي والمفتي وحسين أفندي وجريس العجوز وزوجته، وعيالهم، وقد حضروا كلّهم متخفّين، باستثناء عليا التي كشفت وجهها، غير عابئة بشيء، كما لو أنها تبحث عمّن يقتلها ويريحها من عذاب رحيل زوجها كريم.

.. وفوق أسوار المدينة كان جنود الدّنكزلي يصيحون، من يريد مغادرة المدينة فليخرج قبل أن يذبحه بحّارة أمير البحر، فتدفّق الناس صوب البوابة.

- هي فرصتك الأخيرة لتخرج يا شيخ مثلما خرجوا! أخرج قبل أن تموت! قال الدّنكزلي لظاهر.

- سأخرج يا أحمد وأنا أعلم أنه لو كان باستطاعتك قتلي لقتلتني!

إلى البوابة توجّه ظاهر، فتبعته نجمة ومن معها، ملتحقين بإبراهيم الصبّاغ ومن معه.

***

في صباح التاسع والعشرين من شهر آب عام 1775، ألقى ظاهر من بعيد نظرة على المدينة، كانت صامتة مثل قبر، وبعد نصف ساعة، اقترب من نجمة، وشدّ على يدها، يطمئنها. فأشاحت بوجهها بعيدًا تخفي دمعتين على وشك السقوط.

طاف يتفقّد الجميع. وفجأة سألهم السؤال الذي لا يعرفون إجابته: أين عيشة؟!

ولم ينتظر إجابتهم، استدار بفرسه نحو نجمة، رأته، فعرفت أنه اكتشف غيابها.

***

وقف الدّنكزلي أمام بوابة المدينة ينظر شمالا، وفي يده عيشة التي كانت أشبه بميت تسنده قوة خفيّة.

كان قلقه في تزايد، لكنه ابتسم فجأة، حين رأى ذلك الحصان الأبيض يعدو مجنونا صوبه، جهّز بندقيته، وانتظر.

- لن يقتله أحد غيري. قال لجنوده، فأنزلوا بنادقهم.

كان الرّمل يتطاير حول الحصان الذي يتقدّم مثل موجة عاتية.

صوَّبَ الدنكزلي، وأطلق النار، وذخّر بندقيته من جديد، وفي تلك اللحظة أفلتت عيشة كسهم تعدو صوب الشيخ، وصلته، مدّ يده ليرفعها فوق حصانه، لكن الطلقة التي عبرت كتفه، اختطفت الكثير من قوته دون أن يدري، فاختلَّ توازنه. كانت يده أضعف من أن ترفع إنسانا، تمايل، ثم سقط على الأرض بجانبها.

ركض الدّنكزلي صوبه. التفت ظاهر إليه، نهض، ممسكا بيد عيشة، وباليد الأخرى، أطلق ظاهر النار فلم يُصِبْ. بسرعة، ألقى طبنجته بعيدًا واستلَّ سيفه. كانت الشمس قد ارتفعت قليلا في السماء، فصبغت بحمرتها الشاطئ كله. ومن بعيد تقدّمت نجمة وعدد من الخيالة، لكنهم أدركوا أن الوقت قد فات!

صوّب الدّنكزلي وأطلق رصاصته القاتلة، التي أصابت قلب ظاهر. لكنه لم يسقط، ظلَّ واقفا والدّم يتدفّق من صدره، وعيناه مثبتتان إلى وجه الدّنكزلي، العينان نفسهما القويتان الثاقبتان. عند ذلك سحب الدّنكزلي سيفه، وأغار على ظاهر، وبكل قوته قطع عنقه، ففار الدّم من جسده، متحوّلا إلى أكبر شعلة قنديل يمكن أن يراها أحد تحت شمس؛ وراحت تتّقد وتعلو، وتعلو.

خطا الدنكزلي الخطوة الأخيرة، ودفعه بقدمه، فسقط؛ وقربه كان هناك رأسه ملقى بعينين لم يفارقهما البريق.

إلى البحر انطلقت عيشة تعدو لتُلقي بنفسها فيه، وقبل أن تصِله، دوّت طلقة. رآها الدنكزلي تسقط. التفت إلى ذلك الجندي الذي بجانبه، وصرخ بفزع: لماذا قتلتها؟!

- لقد أرادت أن تهرب!

فاستل الدّنكزلي طبنجة جندي بجانبه، وقتل الجندي الذي أطلق النار.

سار نحو عيشة بخطى مرتبكة، وهو يحسّ بأن الرّمل سيبتلعه، لكنه توقف فجأة قبل أن يصِلها، واستدار عائدا إلى رأس ظاهر. انحنى وحمل الرأس متوجِّها إلى البوابة يتبعه جنوده.

وفي البعيد، ترجّلت نجمة عن حصانها، غرست قدميها في التراب، ولأول مرة أحست أنها بحاجة إلى ما هو أكثر من ذلك؛ انحنت وغرست كفيها في التراب أيضا. أغمضت عينيها طويلا، ثم أخذت نفسا عميقا، كما لو أنها تستعيد كل ما فقدته، ونهضت...

النهايات

* رأى حسن باشا رأس ظاهر في يد الدنكزلي، فقال له: ضعه على ذلك الكرسي. أريد أن أراه.

وضعه حيث أمر. كانت العينان ما زالتا في أوج توقدهما. نظر إليهما ثم أطرق مفكّرا.

بعد ربع ساعة رفع حسن باشا رأسه، وسأل الدنكزلي.

- هل أنت من قتله أم واحد غيرك؟

- أنا يا باشا، وقد كنت عند وعدي لك!

- كم سنة خدمت الشيخ؟

- أكثر من نصف عمري!

- وقبل أن تعمل معه، ماذا كنت في بلادك؟

- كنت حطابا يا باشا.

- وكم كنت تحصّل من مال في مهنتك تلك؟

- خبز يومي يا باشا!

- وكم كان دخلك السنويّ عند الشيخ؟

- لم يقل عن مائتي كيس في العام.

- تأكل خيره، ودخلك كل عام يصل إلى هذا الحدّ، وتخونه؟!

وقف أمير البحر، وسار نحو الدنكزلي، وقال:

- فلينتقم الله مني إن لم أنتقم منك!

وبضربة سيف خاطفة أطار رأس الدنكزلي!

* دخل حسن باشا المدينة وأباح لبحّارته نهبها، وبعد أيام وصل جيش محمد باشا العظم، فاتُّهم بالتقصير لتأخره عن موعده خمسة عشر يومًا.

* ألقى حسن باشا القبض على إبراهيم الصبّاغ الذي لجأ إلى قلعة جدين، ومارس عليه كل أشكال التعذيب، حتى اعترف بمخابئ ماله الذي وضعه في صناديق في دير الفرنسيسكان بعكا ولدى بعض التجار الإفرنج، وبعضه في أمكنة أخرى مثل صيدا، وقيل: كان الواحد من الصناديق يحتاج

حَمْله إلى ثمانية رجال، وسلم التجار الفرنسيون، بناء على أمر من حكومتهم، 63 ألف كيس ذهب من أموال الصبّاغ إلى حسن باشا، إضافة إلى 82 ألف كيس دراهم، وتحف وحلي!

* عاد حسن باشا إلى إسطنبول حاملا رأس ظاهر المحفوظ بالأدوية، وإبراهيم الصبّاغ المكبل بالحديد.

* استدعى حسن باشا أولاد ظاهر إلى عكا، ووعدهم بالأمان، فحضروا كلهم، إلا عليّ، فأعدم سْعيد، وألقى القبض على الآخرين وسجنهم، ثم تم نفيهم إلى إسطنبول.

* طورد علي الظاهر وشُنَّت عليه الحروب المتتالية، وأسر ولداه الحسن والحسين، ونُقلا إلى إسطنبول؛ وبخدعة محكمة انضمَّ إليه أحد قادة محمد باشا العظم وزير دمشق مع جنوده، بعد أن أظهر تمرّده على الوزير علنا! وفي إحدى الليالي انقضوا عليه وقتلوه، وحُمِلَ رأسه مع ثلاثة رؤوس من أتباعه إلى إسطنبول، وتمّ استدعاء ولديه، فبكيا حينما شاهدا الرأس، فعرفت الدولة أنه هو، بعد أن كان الجزّار، الذي عينته الدولة حاكما لعكا، قد نفى ذلك، نكاية بوزير دمشق الذي سبقه وقتل عليّ!

* لاحقَ أحمد باشا الجزّارُ المتاولة واستولى على بلادهم، وسبى نساءهم! وقُتِل الأمير ناصيف النصار، ورحل من تبقى من المتاولة إلى بعلبك.

* شوهدت نجمة في أماكن كثيرة بعد ذلك، إلى أن استقرّت آخر الأمر في قرية (الهادية[1]).

---

[1] – الهادية، هي القرية التي تدور فيها أحداث رواية (زمن الخيول البيضاء)!!!



المدن والقرى التي شهدت معظم وقائع هذه الرواية

مراجع...

* أفادت هذه الرواية من مخطوطات وكتب من بينها:
* مخطوط: (تاريخ ضاهر العمر): ميخائيل نقولا الصباغ.
* الروض الزّاهر في تاريخ ظاهر: عبود الصباغ، تحقيق الدكتور محمد عبد الكريم محافظة، والدكتور: عصام مصطفى هزايمه. دار الكندي أربد، 1999.
* (ظاهر العمر): توفيق معمر المحامي، طبعة ثالثة 1996، منشورات المعهد العالي للفنون وبيت الكاتب - الناصرة.
* ظاهر العمر وحكام نابلس، تحقيق موسى أبو دية.
* تاريخ جبل نابلس والبلقاء، إحسان النمر، مطبعة جمعية عمال المطابع التعاونية بنابلس، الطبعة الثانية 1975.
* قديما في البلد المقدس/ رحلات إلى فلسطين القديمة، كلاوس بولكين، ترجمة وليد البصل، مركز الغد العربي للدراسات، دمشق، ودار نشر كاي هومليوس، برلين 2005.
* رحلات في الأردن وفلسطين، ترجمة سليمان الموسى. منشورات دائرة الثقافة والفنون - عمّان 1987.
* عجائب الآثار: الجبرتي، نسخة الكترونية من الانترنت.
* حوادث دمشق اليومية، البديري الحلّاق، نسخة الكترونية.
* تاريخ أحمد باشا الجزار للأمير حيدر أحمد شهاب، مكتبة أنطوان، 1955.
* رحلات في الديار المقدسة والنوبة والحجاز، جون لويس بيركهارت، ترجمة فيصل أديب أبو غوش، منشورات وزارة الثقافة الأردنية، 2005.
* موسوعة الفلكلور الفلسطيني، نمر سرحان، الناشر: المؤلف، الطبعة الثانية، عمّان 1989.
* حكايات غجرية، مارلين كليمان، ترجمة زياد العودة، وزارة الثقافة السورية 1981.
*: T. Philipp, "The Rise and Fall of Acre: Population and Economy Between 1700 and 1850", REMM, (1990)
* Volney, M. C. F: Travels Through Syria and Egypt: (Internet)
* الحكم الإقطاعي لمتاولة جبل عامل في العهد العثماني، د. أسامة محمد أبو نحل. بحث جامعي، إنترنت.
* حركات العامة: الدمشقية، د. عبد الله حنا. دار ابن خلدون، بيروت 1985.

شكر خاص

للأصدقاء: الدكتور زياد الزعبي على مساعدته في الحصول على بعض المخطوطات والحوارات المستمرة معه حول موضوع هذه الرواية. الدكتور جوني منصور على مساعدته في الحصول على بعض المخطوطات والشهادات الشفوية، وكل جديد كان ينشر حول تلك الفترة. الباحث والناقد

إلياس نصر الله على ملاحظاته الغنية، الثاقبة والتفصيلية على كثير من أحداث الرواية. الدكتور جبور خوري الذي فاجأني بمحبة بالغة حين قام بجولة، دون معرفتي، لتصوير الكثير من القلاع والأماكن التي تدور فيها الأحداث ما إن سمع بهذا المشروع. منى دروزة على ملاحظاتها وترجمتها لبعض فصول الكتب التي تناولت فترة ظاهر عن الإنجليزية. الصديق حنا الحاج والصديق غازي مسعود، والصديق الدكتور محمد عبد القادر على الملاحظات الدقيقة منذ البداية وبعد كتابة الرواية.

إبـراهيم نصر الله

مواليد عمّان، من أبوين فلسطينيين أقتلعا من أرضهما عام 1948
* صـــدر له شعرًا (الطبعات الأولى):
الخيول على مشارف المدينة، 1980. المطر في الداخل، 1982. الحوار الأخير قبل مقتل العصفور بدقائق، 1984. نعمان يسترد لونه، 1984. أناشيد الصباح، 1984. الفتى النهر والجنرال، 1987. عواصف القلب 1989 .حطب أخضر، 1991. فضيحة الثعلب، 1993. الأعمال الشـعرية- مجلد يضم تسعة دواوين، 1994 .شـرفات الخريف، 1996. كتاب الموت والموتى، 1997. بسم الأم والإبـــن، 1999. مـرايا الملائكــة، 2001. حجرة الناي، 2007. لو أنني كنت مايسترو، 2009.
أحوال الجنرال، مختارات، 2011. عودة الياسمين إلى أهله سالما، مختارات، 2011
* الروايــات: (الطبعات الأولى):
براري الحُمّى، 1985 . الأمواج البرية، 1988 .عَـــوْ، 1990 . مجرد 2 فقط، 1992. حارس المدينة الضائعة، 1998.
الملهاة الفلســطينية (الطبعات الأولى):
(كل رواية مستقلة تماما عن الأخرى)
طيور الحذر، 1996، طفل الممحاة، 2000، زيتون الشوارع، 2002، أعراس آمنة، تحت شمس الضحى، 2004، زمن الخيول البيضاء، 2007- اللائحة القصيرة لجائزة البوكر العربية، 2009.
أما ترتيبها من حيث تناولها للتسلسل الزمني للقضية الفلسطينية:
قناديل ملك الجليل، زمن الخيول البيضاء، طفل الممحاة، طيور الحذر، زيتون الشوارع، أعراس آمنة، تحت شمس الضحى....
الشـــرفات: (الطبعات الأولى):
(كل رواية مستقلة عن الأخرى)
شرفة الهذيان، 2005. شرفة رجل الثلج، 2009. شرفة العار، 2010
* كـــتب أخرى (الطبعات الأولى):
هزائم المنتصرين - السينما بين حرية الإبداع ومنطق السوق، 2000
ديـواني - شعر أحمد حلمي عبد الباقي. إعداد وتقديم، 2002
السيرة الطائرة: أقل من عدو، أكثر من صديق، 2006
صور الوجود ـ السينما تتأمل 2008
* ترجم عدد من أعماله الروائية إلى الإنجليزية، الإيطالية، الدنماركية، التركية، ونشرت مختارات من قصائده بالإنجليزية، الإيطالية، الفرنسية، الألمانية، الإسبانية...
* أقام أربعة معارض فوتوغرافية وشارك في معرض (كتّاب يرسمون) معرض مشترك لثلاثة كتّاب (فاروق وادي، جمال ناجي، إبراهيم نصر الله)- عمان، 1993 .
نال سبع جوائز عن أعماله الشعرية والروائية من بينها:
جائزة عرار للشعر، 1991. جائزة تيسير سبول للرواية، 1994.
جائزة سلـطان العـويس للشـعر العربي، 1998.

الملهاة الفلسطينية

يتكـون مشـروع الملهـاة الفلسـطينية، الـذي بدأ الشـاعر والروائي إبراهيم نصـر الله العمل عليه منـذ عام 1985 مـن مجموعة روايـات، لكل رواية اسـتقلالها التـام عـن الروايـات الأخـرى، علـى مسـتوى الشخصـيات والبنـاء الفنـي والفـترة الزمنية؛ لكن المشروع يسـعى لرسـم صـورة من الداخـل للحيـاة الفلسـطينية، إنسـانياً وثقافيـاً ووطنيـاً؛ وبصـدور رواية (قناديـل ملك الجليل) فإن روايات الملهاة الفلسطينية تغطي حوالي 250 عاماً من التاريخ الفلسطيني الحديث، منذ نهايات القـرن السـابع عشـر، حتـى مـا بعد الانتفاضـة الفلسطينية الثانية.

يمكـن للقـارئ أن يبدأ بالرواية التـي يريد، ولكن إذا مـا أراد القـراءة حسـب الفـترة التاريخيـة، صعوداً، فيكون ترتيب القراءة على النحو التالي:

قناديـل ملك الجليـل، زمن الخيـول البيضاء، طفل الممحاة، طيور الحذر، زيتون الشوارع، أعراس آمنة، تحت شمس الضحى.



الملهاة الفلسطينية

قناديل ملك الجليل

زمن الخيول البيضاء

طفل الممحاة

طيور الحذر

زيتون الشوارع

أعراس آمنة

تحت شمس الضحى.

IBRAHIM NASRALLAH
THE LANTERNS OF THE KING OF GALILEE

قناديل ملك الجليل

هذه رواية تأسيسية، لا على صعيد الكتابة الروائية التي ترتحل بعيداً في الزمن الفلسطيني، فقط، وهو هنا نهايات القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر بأكمله تقريبا، إذ تغطي 86 عاماً، بل في بحثها الأعمق عن أسس تشكّل الهوية والذات الإنسانية في تلك المنطقة الممتدة ما بين بحرين: بحر الجليل وبحر عكا.

ذروة ملحمية كبرى يرفع بها إبراهيم نصر الله مشروعه الروائي، ومشروع «الملهاة الفلسطينية» بشكل خاص، إلى موقع شاهق، وهو يكتب ملحمة ذلك القائد (ظاهر العُمَر الزّيداني) الذي ثار على الحكم التركي واستطاع أن يقيم في فلسطين أول كيان سياسي وطني قومي حديث. هذا القائد الفريد الذي امتدت حدود (دولته) من فلسطين إلى كثير من المناطق خارجها.

تعبر هذه الرواية التاريخ وتضيئه على نحو باهر بشخصيات حقيقية وأخرى متخيّلة، متنقلة بين فلسطين وسورية ومصر ولبنان وإسطنبول، عاجنة التاريخ بالقيم الكبرى وأسئلة الحب والموت والقدر والعلاقة مع الطبيعة في أعمق تجلياتها، ومتأملة التاريخ الروحي والميثولوجي لفلسطين، ومعيدة في آن الاعتبار لتاريخ نضالي وطني فلسطيني متألق، لقائد تاريخي فريد، في فهمه لقيم الكرامة والعدالة والتحرر والحق في الحياة، والتسامح الديني الذي يصل إلى درجة من الاتساع والنبالة حدّاً غير مألوف.

(قناديل ملك الجليل) ملحمة ناصعة ونادرة، تقدّم لنا صفحات غنية مجهولة، بفنية عالية، تعيد ترتيب التاريخ النضالي الوطني والإنساني، الفلسطيني والعربي، من جديد.

الناشر

ketab.me
Best Books

ISBN 978-614-01-0399-3
9 786140 103993

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com